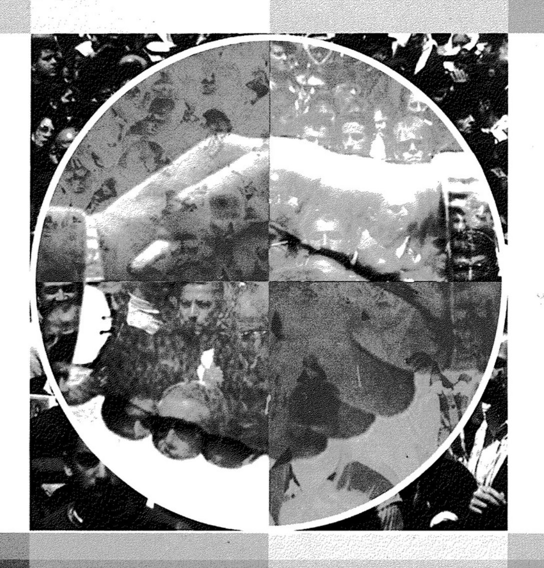
دكتور محمد عبد الغنى سعودى

الجغرافيا السياسية المعاصرة

دراسة الجغرافيا والعلاقات السياسية الدولية



مكتبة الأنجلو المصرية

دكتور محمد عبد الغنى سعودى
عميد معهد البحوث والدراسات الأفريقية
جامعة القاهرة

الجغرافية السياسية المعاصرة

دراسة الجغرافية والعلاقات السياسية الدولية



مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

أسم الكتـــاب: **الجغرافيةالسياسية المعاصرة**
أسم المؤلف: د/ محمد عبد الغني سعودي
أسم الناشر: مكتبة الانجلو المصرية
أسم الطـــابع: مطبعة محمد عبد الكريم حسان
سنة الطبع: 2003
رقـــم الايـــداع: 9952
الترقيم الدولي: I-S-B-N 977-05-1557-4

كلمة لابد منها

قرن خبا مع غروب شمس القرن العشرين ، وقرن يشرنب بعنقه مع شروق القرن الحادى والعشرين ، قرن مضى بما حمله من آمال للبشرية ، وأحلام في حياة أفضل ، ولكن العالم تعرض خلال القرن المنقضي لحربين عالميتين رهيبتين وخاصة الحرب العالمية الثانية ، وبالتالي تغيرت خريطة العالم السياسية ، إختفت إمبراطوريات ، وظهرت دول ، إختفت مستعمرات وتحولت إلي دول مستقلة ، وتبع هذا ظهور كتلتين شرقية وغربية ، وبالتالي مر العالم بحرب عالمية ثالثة بين المعسكرين ولكنها باردة هذه المرة بسبب التوازن النووي . ولكن لاننسي هذه الطفرة التقنية التي شهدها هذا القرن .

والآن ونحن علي مشارف القرن الحادى والعشرين ، لابد وأن نعرف الجينات الوراثية التي سيرثها هذا القرن الجديد فكان هذا الكتاب .

ويسرني في هذا المقام أن أوجه الشكر الجزيل والإعتراف بالجميل لكل منهما د. محمد عبد الرحمن المنهاوى ، د. أحمد سيد شحاته لما أبدياه من آراء في سبيل أن يخرج الكتاب في ثوب قشيب حتي يتناسب الشكل مع المضمون ، وأرجو أن أكون قد وفقت بعض التوفيق .

وعلي الله قصد السبيل

محمد عبد الغني سعودى

فهرس الكتاب

القـوى العـالميــة

تمهيد :-

كشف حساب القرن العشرين

ملحق



تصـــــدير

كثيرا ما يتعرض كتاب فى الجغرافية السياسية للنقد ، وذلك لعدم وجود حدود واضحة لذاك الفرع من العلوم الجغرافية ، اذ أنه يتداخل مع التاريخ ، ومع علم الجيوبوليتك ، ورغم هذا فمما لاينكره انسان هو تلك العلاقات الوثيقة بين الشئون والأحداث الدولية من ناحية ، والبينات الجغرافية التى تظهر فيها من ناحية أخرى . ولعل الصعوبة تظهر فى رسم خط واضح بين ما هو جغرافى وما هو غير جغرافى ، ومن ثم كان عمل الجغرافى السياسى فى منطقة الحدود المشتركة بين الحغرافية والتاريخ والسياسة ، أو تخومها ، ومطبقا فنه الخاص ، وطرائقه الخاصة ، ليسهم بنصيب فى العلوم القريبة من علمه ، على أنه حذارى أن يكرر عمل الفروع المتخصصة الأخرى .

ولعلنا نتفق جميعا ، على أنه من بين الأسس المستعملة لتقسيم العالم الى وحدات أو أقاليم ، كانت الوحدات السياسية أكثرها شيوعا ، فبالنسبة لكثير من الدارسين قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها ، كانت خريطة العالم التى تعرض أمامهم هى خريطة العالم السياسية ، وفيها كل وحدة سياسية ، وقد اتخذت لونا معينا ، مثل هذه الخريطة كانت هى المألوفة فعلا لدى الدارسين ، ولكنها فى نفس الوقت تغفل كثيرا من الحقائق الجغرافية كأشكال السطح ، والغطاء النباتى ، وتوزيع السكان ، وأنماط الإقتصاد السائد ، وغيرها من المظاهر الحضارية ، من ثم لم تعط إلا صورة غير كاملة لم تفصح إلا عن جزء من الحقائق الجغرافية .

ورغم هذا ، فهناك تبرير كبير للتأكيد على الوحدات السياسية عند دراسة الأرض كوطن للأنسان ، على إعتبار أن السلطة السياسية فى كل قطر من الأقطار ، تؤثر لاشك فى ضروب المعيشة ، وفى طرق إستغلال الإنسان للأرض .

فالجغرافية السياسية إذن ، فرع قديم من فروع الجغرافية ، كتب فيها أرسطو ، وأفلاطون ، وإن كان مفهوما منذ نحو نصف قرن على أنها

ترديد لقوائم من الوحدات السياسية ، وعواصمها ، ومراكزها ، ومدنها ، مما أدى الى قيام ثورة على تدريس الجغرافية بهذا الأسلوب [1].

وهذا الفرع من فروع الجغرافية ، ظل لايلقى العناية الجديرة به مدة طويلة ويرجع هذا الى رغبة جغرافى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى الهروب من سيادة الأقاليم السياسية ، كالاطار الوحيد لما عرف باسم الجغرافية الإقليمية ، وقد يرجع هذا الى الخوف من تبعيتهم للتاريخ ، من ثم لجأوا الى الظروف الطبيعية ، وقسموا على أساسها العالم ، الى أقاليم طبيعية ، ومع تقدم فروع العلوم الطبيعية بدأوا يهملون الحدود السياسية تماما .

ويرجع تعبير الجغرافية السياسية الى العالم الألمانى كانت (١٧٠٣-١٧٢٤) **Kant,** الذى اعتبر أبا للجغرافية السياسية ، وكان يدلى بأسس الجغرافية السياسية أثناء محاضراته فى الجغرافية الطبيعية [2]. ولم تجد أفكاره صدى خارج وسط أوربا وألمانيا ، وإن كان قد تتلمذ عليه فى بلاده مجموعة من الجغرافيين من أمثال كارل ريتر **Ritter K ,** (١٧٧٩-١٨٥٩). وفردريك راتزل **Ratzel, F** (١٨٤٤-١٩٠٤) الذى ألف كتاب الجغرافية السياسية **Geographie Politish** وفيه يشرح العوامل الجغرافية التى تتحكم فى نمو الدولة وتكوينها ، وأن حدود الدولة قابلة للنمو ، والزحزحة ، حتى تبلغ حدودها الطبيعية ، وتتعداها إن لم تجد مقاومة من الجيران ، وبذلك كان نمو مفهوم المجال الحيوى **Lebensraum** من صنع راتزل أيضا ، ليس بغريب أن يصبح راتزل هو الخالق الفعلى لهذا الفرع من فروع الجغرافية .

غير أن الفضل يرجع الى الجغرافى السويدى كيلن **K. Jellen, R.** فى استعمال لفظ **Geopolitik** والتميز بينه وبين الجغرافية السياسية **Political Geography** وتنبأ كيلن بقيادة دولة عظمى **Superstate** فى أوربا وأفريقية وآسيا ، وان الدولة العظمى فى أوربا ستكون ألمانيا. وتأثر فى أفكاره إلى حد كبير بالجغرافيين الألمان ، وخاصة راتزل ، فالدولة فى نظره كائن حى _ ويعتمد بقاؤها على سكانها ، وحضارتها ، واقتصادها ، وحكومتها ، وأرضها . كما تنبأ بزوال الامبراطوريات البحرية ، وإنتقالها الى الدول البرية التى سوف تسيطر بدورها على

1 - Freeman . T.W.A Hundred Years of Geography , Dukworth , London, 1961 . p. 205 .
2 - Carlson, L. , Geography and World Politics Prentice Hall 1959, p. 14 .

المسالك المانية . وقد أثرت أفكار كيلن بدورها على علماء الجيوبوليتكا فى ميونخ ، الذين راجعوا آراءه ، وأعادوا نشر بعضها .

وتعتبر الحرب العالمية الأولى نقطة تحول كبير نحو زيادة العناية بالجغرافية السياسية فى ألمانيا وخارجها . وكان كارل هوسهفر Haushofer الوريث الفكرى لكيلن فى ألمانيا ، فاذا كان كيلن مخترع الجيوبولتيك فان هوسهوفر نبى الجيوبوليتك [1] . وكان رجلا عسكريا ، أرسل الى اليابان عام ١٩٠٨ كخبير فى المدفعية ، وأعجب أيما أعجاب بالشرق الأقصى ، ونادى بضرورة وجود علاقات بين المانيا واليابان . وأشترك فى الحرب العالمية الأولى . وبعد خروج ألمانيا منهزمة شغل كرسى الجغرافية والعلوم العسكرية فى جامعة ميونخ عام ١٩١٩. وكون هو ورفاقه معهد العلوم السياسية Institut Fur Geopolitik، وكان لنشرات هذا المعهد آثارها ، فى مد الحكومة الألمانية بكثير من الحقائق والمعلومات النافعة ، فضلا عن نشر الثقافة الجيوبوليتيكية بين الألمان ، عن طريق مجلة العلوم السياسية Zeitschrift Fur Geopolitik التى كان يرأس تحريرها .

وتتلخص آراء هوسهوفر فى أنه كان متأثرا الى درجة كبيرة بفكرة المجال الجغرافى لأنه يتحكم فى تاريخ البشرية ، كما أن الدولة يجب أن تتوسع أو تهلك ، ومن رأيه أن مكونات الدولة القوية أربعة :

عدد وفير من السكان ، ونسبة عالية للمواليد ، وإتحاد تام بين دم سكانها وتربتها ، ثم توازن عادل بين سكان حضرها وريفها . وهذا تأثر لاشك باراء راتزل وكيلن .

وعاصر الجغرافى البريطانى هالفورد ماكندر Mackinder,H. الجنرال هوسهوفر ، وخرج على العالم بنظريته فى الإستراتيجية الكوكبية ، والتى فصلناها فى الفصل الأخير من الكتاب ، وقد أثارت نظريته عن توزيع القوى السياسية فى العالم والتى عرضها أول مرة عام ١٩٠٤ ، التى نقحها أكثر من مرة ، العديد من المناقشات طوال فترة تقرب من نصف قرن [٢] .

---

[1] - Carlson , L. ibid, p, 17 .

[2] - Mackinder, H. "The Geographical Pivot of History" Geog. Jour. Vol .3 1904.

* Democratic Ideals and Reality , New York 1919 reissued 1942 .

وكانت الحرب العالمية الأولى داعيا الى ظهور هذا الفرع وتنشيطه فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ذلك ان الحكومة الأمريكية كلفت العديد من الجغرافيين الأمريكيين بعمل العديد من دراسات للمشكلات الأوربية سواء فى المراحل التمهيدية فى الجمعية الأمريكية ، أو كأعضاء فى وفد الرئيس ولسن فى مؤتمر السلام ، ولم يكن أحد منهم قد سبق له المران على هذا النوع من الدراسة أو الكتابة فيه [١] .

وكان بومان Bowmen, I. رائد الجغرافيين الأمريكيين فى هذا المجال ، وكان كتابه العالم الجديد [٢] هو المرجع الرئيسى لمشكلات ما بعد الحرب العالمية الأولى ، خاصة وأن صاحبة كان أحد المتخصصين القلائل فى مفاوضات الصلح عقب الحرب العالمية الأولى ، كما كان مستشارا للرئيس روزفلت أثناء الحرب العالمية الثانية .

وظهر فى الولايات المتحدة الأمريكية أيضا درونت ويتلسى Whittlessey, D. وريتشارد هارتشورن Hartshorne, R. وفان فلكنبرج Valkenburg, V. ونورمان بوندز Pounds. وغيرهم ، أما المدرسة الأوربية فقد ظهر فيها إلى جانب ماكندر البريطانى ، سيفجيك Civijic اليوغسلافى وديمارتون De Martonne الفرنسى حينما كتب عن الدولة الحديثة فى وسط أوربا عقب الحرب العالمية الأولى .

ويقول فريمان عن منهج ماكندر وبومان وسيفجيك فى معالجة موضوعات الجغرافية السياسية :

ان بومان يريك الغابة والأشجار ، بينما ماكندر يريك الأشجار ، وسيفجيك يعرض أمامك الأشجار التى درسها جيداً .

---

1 - Hartshorne R. American Geography, Inventor, prospects Siracuse , 1954 .p. 170.

2 - Bowman I The new World, problems in political Geography New. York. 1921

تمهيد

الجغرافية السياسية : مجال ومنهج

المجال :

الجغرافية السياسية جانب من جوانب الجغرافية البشرية ، فبينما تدرس الجغرافية البشرية بوجه عام العلاقة بين البيئة والإنسان بغض النظر عن الأشكال السياسية ، أي على أساس الإقليم الجغرافي **Geographical Region** ، نجد أن الوحدة السياسية هي أساس هذه العلاقات عند باحث الجغرافية السياسية ، فالوحدة الأولى نتاج الطبيعة ، بينما الثانية نتاج البشر . حوض الدانوب مثلا قد يوحي بوحدة جغرافية ، ولكن الخريطة السياسية تشير إلى عدة وحدات سياسية (رومانيا ، بلغاريا ، يوغسلافيا السابقة ، والمجر) وشمال غربي أفريقية يوحي بوحدة جغرافية ، ولكن تنتظمه ثلاث وحدات سياسية (تونس والجزائر والمغرب) وهكذا.

اذن الجغرافية السياسية ، **هي دراسة الوحدات أو الأقاليم السياسية كظاهرات على سطح الأرض** ، وما تشتمل عليه هذه الوحدات ، من شعوب وجماعات . ويتوقف إمتداد هذه الأقاليم وطبيعتها ، على تباين الظاهرات السياسية التي تسود العالم ، ففي بعض جهات من العالم ، نجد أن الإقاليم السياسية لها صفة الإستقرار النسبي لمدة زمنية طويلة ، بينما نجدها في جهات أخرى من العالم يصيبها تغيرات سريعة ، ونضرب مثلاً بالسويد والنرويج في شبه جزيرة اسكنديناوة ، وكندا والولايات المتحدة الأمريكية في الحالة الأولى ، وبالمانيا وبولندا في الحالة الثانية .

وهكذا بينما تنشد الجغرافية الإقليمية التباين الأرضي ، تركز الجغرافية السياسية على تباين الوحدات السياسية ، فإذا كانت الأولى سردية شاملة ، فإن الثانية أكثر تحديدا .

وبدراسة الظاهرات السياسية **Political phenomena** وإرتباطها بظاهرات سطح الأرض الأخرى ، والمسطحات المائية ، وأنماط الإستقرار يمكن للباحث الجغرافي أن يحلل ، ويعلل ، الطرق المختلفة التي نظم بها الانسان هذه الأرض ، الى أنماط سياسية كزائير ، أو الصين ، أي يدرس الدولة على إعتبار أنها الأساس الأول للوحدات السياسية ، ولكنه قد يدرس إقليما داخل الدولة كمقاطعة ، أو ولاية ، أي

وحدة إدارية كولاية كويبك فى كندا ، ولماذا كانت نشازا فى جوقة العزف الكندية . ويتعدى مجال الجغرافية السياسية دراسة الدولة المستقلة ذات السيادة التامة ، الى دراسة **الأقطار التابعة** بشكل أو آخر ، كجنوب غرب أفريقية ، فيمكن دراستها فى نطاق الجغرافية السياسية شأنها شأن الدول المستقلة تماما ، ومن التنظيمات السياسية التى تعلو هناك **المنظمات الدولية** التى قد ترضى الدولة بالانضمام اليها بمحض اختيارها سواء كانت منظمات إقليمية ، كمنظمة شمال الأطلنطى **NATO** أو منظمة جنوب شرق آسيا **SEATO** أو منظمات اقتصادية كالجماعة الإقتصادية الأوربية **EEC** وهذه المنظمات ، الغرض منها تسهيل الوصول بأعضائها الى أهداف معينة ، متفق عليها فى معاهدات ، أو اتفاقيات ، وأخيرا هناك المنظمات العالمية كالأمم المتحدة [1] .

وقد تقوم دراسات أصولية **Systematic** لبعض الظاهرات السياسية على سطح الأرض ، كالحدود السياسية ، أو العواصم ، أو دراسة مشكلة السكان فى العالم ، كمشكلة سياسية أو دراسة مشكلة الملونين فى الولايات المتحدة الأمريكية ، أو اللاجئين أو الأثار السياسية للشركات المتعددة الجنسية ، والتلوث البيئى ونفاذ الموارد والوفرة والحرمان بين الشمال والجنوب وغيرها من الموضوعات التى أصبحت عالمية ، ومتخطية للحدود السياسية ، ولكن يجب ألا نهمل **ظاهرات سطح الأرض غير المنتظمة فى وحدات سياسية** ، اذا تميزت بوجود بعض الظاهرات السياسية المتعلقة بها ، التى قد تؤدى الى خلق مشكلات دولية كأحواض الأنهار ، النيل بين مصر والسودان وأوغندا، والسند بين الهند وباكستان ، ودجلة والفرات بين تركيا والعراق وسوريا . وهناك دراسة المراكز التى تظهر فيها إتجاهات إنفصالية ، كمراكز الأكراد فى إيران والعراق وتركيا ، هذه ليست لها حدود سياسية ، ولكنها فى نفس الوقت ذات أهمية كبيرة لباحث الجغرافية السياسية .

غير أن من بين هذه المجالات جميعا تحظى الدولة كوحدة سياسية بأهمية كبيرة ، حتى أن البعض يذهب الى أن ميدان الجغرافية السياسية هو تحليل العلاقات بين السكان والبيئة الطبيعية فى إطار الدولة ، سواء كانت هذه العلاقات داخلية أو خارجية [2] . وتقوم الدولة بوظيفة ، وتتمثل هذه الوظيفة فى معظم الأحوال فى العمل على رفاهية الأمة وحمايتها .

1- Pounds, N. " Political Geography" McGrew Hill 1963 p. 3 .

2 - Moodile A. E. , Geography Behind Politics , Hutchinson , London , 1951 p. 7

وتدرس بذلك الجغرافية السياسية :

١ – مدى التوافق الجغرافى بين الدولة والأمة : وهذا أمر يثير مسألة الحدود السياسية ، وهل تضم الدولة أقليات داخلها ، أم هناك إدعاءات خاصة بأقاليم خارج حدودها ؟

٢ – موارد الدولة التى تتحكم فيها لتحقيق أهدافها ، كرفاهية الشعب وحمايته ، وتتمثل هذه الموارد فى الموقع الجغرافى ، وحجم الدولة ، وشكلها ، أو بمعنى آخر العوامل التى تؤثر فى إستراتيجيتها والدفاع عنها كما تشمل دراسة مواردها الطبيعية ، ومدى استغلالها ، ومدى التقدم الصناعى الذى أحرزته ، فضلا عن مدى تماسك الدولة بواسطة طرق المواصلات المختلفة ، وأخيرا دراسة مواردها البشرية كما وكيفا . وقد لاتعتمد الدولة على مواردها الداخلية ، وحدها فقد تكون لها موارد خارجية ، من حلفائها ، أو مستعمراتها وغيرها من الأمور التى تساندها لتحقيق غايتها .

وتنعكس درجة استغلال موارد الدولة ، أو البيئة ، على نجاح الدولة أو الوحدة السياسية وإستقرارها ، وإن كان ليس معنى هذا أيضا ان طرق وأشكال الإستغلال المتبعة فى دولة تكون صالحة تماما لبيئة أخرى ، فمن أهم الدروس التى يخرج بها المشتغل بالجغرافية السياسية ، هو عدم تطبيق أى نظام ناجح فى دولة ما ، على دولة أخرى دون مراعاة الفروق .

٣– دراسة تجارة الدولة الخارجية لأنها يمكن أن تمثل عنصر قوة أوعنصر ضعف، ويمكن أن تستخدم التجارة كوسيلة لتحقيق غرض سياسى كما حدث فى وقف إتفاقية تصدير الولايات المتحدة الأمريكية للقمح الى الاتحاد السوفيتى ، أو حظر العرب تصدير البترول الى الولايات المتحدة الأمريكية ، وخفضهم للكميات المصدرة الى الدول الأوربية فى خريف عام ١٩٧٣ ، أو الحصار الإقتصادى للعراق .

٤– التماسك الإجتماعى للسكان أو درجة الوحدة القومية ، والعوامل التى تؤدى الى عدم التماسك سواء كانت سلالية أو دينية أو لغوية أو قومية ومدى نجاح الدولة فى المحافظة على تماسكها

الداخلى [١] إذ تحمل الدول بين ثناياها تشابهات اقليمية تشدها إلى بعضها وتعرف بقوى الجذب Centripetal Force ، وكذلك إختلافات إقليمية تعرف بقوى الطرد [٢] Centrifugal Force. تعمل على تفكيكها ، ويتوقف بقاء الدولة أو إختفائها ، وإستقرارها أو اضطرابها على قوة كل من العاملين وأكثرهما فعالية .

فدراسة الجغرافية السياسية فى المكان الأول . اذن هى تحليل عناصر القوة والضعف للدول ، وتشخيص أعراضها وسبل أغوارها وأبعادها فى سبيل الوصول إلى تقييم الوزن السياسى للدولة ، على أساس أن كل دولة تتكون من عناصر مختلفة طبيعية وبشرية وإقتصادية ، وتتفاوت مستوى الدول على منحنى القوة ، بإعتبارها نتيجة أوضاع جغرافية وإقتصادية وتاريخية وحضارية، وهى ماتعرف بجغرافية القوة، وعلى ضوء دراسة تلك المقومات يمكن تقييم الدول ، وتفسير العلاقات بينها وبين بعض على أسس جغرافية [٣] .

وتتعدى ميادين الجغرافية السياسية تحليل العلاقات بين الجماعة البشرية والبيئة داخليا ، إلى **تحليل العلاقات الخارجية** لهذه الجماعات ، ذلك أن التكامل ضرورى بين نشاط الدولة الداخلى ونشاطها الخارجى ، فالدولة المضطربة داخليا تستنزف جهودها فى إقرار السلام ، والأمن والوحدة الداخلية ، ولاتستطيع أن تجد فى الطاقة فائضا يمكنها من الظهور بارزة فى المجالات الدولية . كما أن الدولة المستقلة الآمنة من الناحية الخارجية ، ينعكس حالها هذا على رخاء السكان ، وتفرغ ميزانيتهم للنهوض الإقتصادى . فليس من شك أن جميع الدول غير الآمنة ، تستهلك جزءا كبيرا من ميزانيتها فى التسليح . قارن مثلا ميزانية الدول العربية المحيطة باسرائيل ، وحالة اسرائيل ذاتها ، بدولة كسويسرا ، ولعل ميزانيات التسليح الضخمة فى كل من الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفيتى السابق خير دليل على حالة التوتر الدولى وسباق التسلح الذى يدور فى العصر الحاضر .

1- Pounds N., op. cit. p. 19.
2- Hartshorn R., The Punctional Approach in political Geography, A.A.G. 40, 1950 .
3- Valkenburg , S., Stotz, C., Elements of Political Geography Prentice Hall, 1957, p.4.

وتتأثر الجماعات داخل الدولة بالظروف الخارجية ، نظرا لأن الدولة ماهى إلا قسم من أقسام الخريطة السياسية للعالم ، التى أصبحت بألوانها المتعددة أشبه بلوحة من الفسيفساء . ولما كانت حبات الفسيفساء عرضة للتغير ، إنكماشا وإمتدادا ، أو إنقساما، كان معنى هذا أن أى تغير يصيب وحدة سياسية ، لابد ويكون لحساب أو على حساب وحدة أو وحدات سياسية اخرى .

ديناميكية الجغرافية السياسية :

وما دامت الجغرافية السياسية ، مجالها الدولة أساسا ، فلابد من معرفة عناصر هذه الدولة ، فلا توجد دولة فى فراغ ، وان كانت الوحدات السياسية نعانى خلخلة فى السكان أحيانا ، الا أنه لاتوجد وحدة سياسية بأرض دون سكان، ومعنى هذا ان الدولة= أرض ذات حدود سياسية + سكان ، ونظرا لانه لاتوجد حتمية فى العلاقة بين البيئة والانسان . فلا ننتظر أن نجد استجابة واحدة من السكان للأرض . فكل بيئة لها إمكاناتها الخاصة ، وقد يستغل السكان هذه الامكانات وقد لايستغلونها ومن هنا كان الإختلاف فى النظم التى تسود العالم .

لذلك يمكن تعديل المعادلة السابقة كما يلى:

الدولة = أرض ذات حدود سياسية + سكان + علاقة بينهما .

والعاملان الأولان يتميزان بالتنوع ، أما الثالث فيتميز بالتعقيد لأنه متغير ، ديناميكى معقد ، فإذا أضفنا إلى هذه التطورات السياسية المستمرة التى تلحق العالم ، أدركنا أن الجغرافية السياسية هى علم ديناميكى متطور ، فقد تتسع أرض الدولة أو تنكمش حسب تطور الظروف السياسية ، وليس أدل على هذا من مراجعة الخريطة السياسية للعالم فى مطلع القرن العشرين ، ثم بعد الحرب العالمية الأولى ، ثم بعد الحرب العالمية الثانية ، لاشك سيجد الإنسان تغيرات واسعة ، اختفاء دول ، وظهور دول اخرى ، كذلك الحال فى السكان الذين يختلفون كما وكيفا بين حين وآخر . ومن ثم ليس هناك مؤلف وضع فى هذا الفرع الجغرافى إلا ولابد له من التعديل ، والتنقيح ، بما يلائم التطورات التى يشاهدها العالم بل ويقيم هذه التغيرات كلما سمحت الفرصة .

مناهج البحث فى الجغرافية السياسية :

تتعدد مناهج البحث فى الجغرافية السياسية بحسب موضوع الدراسة ، هل هى دراسة للوحدة السياسية ، أم دراسة أصولية للحدود السياسية وغيرها من الموضوعات التى سبق أن ذكرناها كميادين لباحث الجغرافية السياسية .

وسنقتصر فى هذا المجال على تحليل مناهج البحث فى الوحدة السياسية أو الدولة .

المدخل التاريخى : Historical

وهو أحد هذه المداخل عن طريق دراسة تطور الدولة حتى بلغت بناؤها السياسى الحالى ، وقد يكون هذا المدخل مفيدا فى بعض الحالات الخاصة ، فالتحليل التفصيلى للوكسمبرج لابد له من تفسير لتطور هذه الدوقية ، وأثر هذا النمو على شكلها الحالى ، وعيب هذا المدخل التاريخى هو الخوف من أن يضيع باحث الجغرافية السياسية وسط خضم من الأحداث التاريخية ، تبعده عن إتجاهه ، ويصبح فى هذه الحالة غير مميز عن باحث التاريخ السياسى ، والعيب الثانى هو خشية الخروج بأحكام عامة ، أو مبادئ نتيجة دراسة حالات خاصة .

وقد كتب الكثيرون فيما مضى أمثال راتزل وكيلن وهوسهوفر عن الدولة ككائن حى والقوانين التى تتحكم فى نموها ، ورغم أن التطور التاريخى لكل وحدة سياسية قد يكون فريدا بحيث يصبح من الصعب التعميم ، فعلى سبيل المثال مالقوانين المشتركة التى تحكمت فى نمو السويد والهند وكوبا ؟ . فمثل هذا المدخل التاريخى للدولة قد يفيد فى تحليل هذه الأقاليم كظاهرات سياسية معاصرة على سطح الأرض .

المدخل الإقليمى : Regional

وهو الذى يدرس الوحدة السياسية من حيث العناصر التى تتألف منها أو التى تكونها ، كالحجم ، والشكل ، والمناخ ، والموارد ، والسكان ، وغيرها ، ولكن هذا المدخل كما هو الحال فى المدخل التاريخى سيتخم باحث الجغرافية السياسية بفيض من الحقائق يخشى معه على الباحث أن ينتهى به الأمر إلى وصف مجموعة من الوحدات السياسية وصفا إقليميا، والجغرافية السياسية التى هى عبارة عن وصف إقليمى لدول ما لن تكون لها شخصيتها المتميزة ، وبالتالى ليس هناك مايبرر وجودها كفرع

منفصل من فروع الجغرافية ، لذلك فعلى الجغرافى السياسى الذى يتخذ هذا المدخل سبيلا أن يسعى إلى إنتقاء ما يفيده من الدراسة الإقليمية ، ويحلل معلوماته ، وبياناته المختلفة ، بالطريقة التى تؤدى به إلى تفهم المشكلة موضوع الدراسة ، من ثم إختلفت طريقة تحليل معلوماته ، وتقديرها إختلافا له مغزاه عن طريقة الجغرافى الإقليمى .

المدخل الوظيفى : Functional

وقد تدرس الدولة من حيث علاقاتها الداخلية وفى نفس الوقت كجزأ متكامل فى المجتمع الدولى ؟ وما أثر العوامل غير السياسية كالمناخ والجبال أو الجماعات الشعوبية أو القوميات المتعددة على الأنشطة السياسية للدولة ؟

وما أثر المظاهر السياسية بدورها على العوامل غير السياسية كأنماط الإستقرار وأستخدام الموارد ونمو شبكات النقل وغيرها ؟ ومن الناحية الخارجية هل هذه الوحدة السياسية أو تلك قادرة على البقاء والنمو فى ظل الظروف الخارجية التى حولها ؟ ومدى إستقلال أو تبعية هذا القطر، ومشكلاته الإقليمية مع الدول المجاورة .

على أن المدخل الوظيفى لايشجب بحال من الأحوال إستخدام العناصر التاريخية أو التركيبة الإقليمية ، فالعوامل التاريخية قد تكون لها أهميتها الكبرى فى بعض الأحوال، فقد يكون التاريخ عنصرا فعالا فى فهم الإختلافات الإقليمية فى داخل الدولة الواحدة. (كما هو الحال فى جنوبى الولايات المتحدة الأمريكية) ، أو فى حالة الدولة كلها ، ويتمثل هذا فى مشكلة فلسطين ، وباكستان ، وفيتنام ، ولكن العامل التاريخى لايأتى لنفسه فحسب ، بل لتقدير المظاهر الوظيفية للإقليم موضوع الدراسة [1] .

وفيما يختص بالعناصر الجغرافية غير السياسية وعلاقاتها بالمظاهر الوظيفية ، سنجد أنها تعمل فى طريقين : فأما أن يدرس الباحث أثر هذه العوامل غير السياسية على وظيفة الإقليم ، أو دراسة وتحليل أثر وجود الوحدة السياسية على المظاهر غير السياسية للإقليم .

وقد إتبع الباحثون منذ القدم الطريق الأول أى أثر الموقع والمناخ على قوة الدولة ، وأثر السلاسل الجبلية على الوحدة القومية ، والمزايا التى

---

1 - Lewis A., World Political Patterns , McNally. Chicago 1964. p. 6 .

تحصل عليها الدولة ، نتيجة قربها من البحر ، والمزايا التى تحرم منها نتيجة البعد عنه .

غير أنه يجب ملاحظة أمرين فيما يختص بهذا الفرع من العلاقة الجغرافية :

١- أنه بينما نجد بعض العوامل ، مثل المناخ ، والجبال ، أو إمتلاك المعادن قد يكون له مغزاه العميق ، غير أنه من الصعب إصدار أحكام عامه أوتعميمات عن الآثار التى تتركها العوامل الجغرافية ، ذلك أن إستجابة الإنسان ليست واحدة فى كل الجهات المدارية الرطبة ، أو الجهات الجافة وما إلى غير ذلك ، كما تختلف السلاسل الجبلية فيما بينها فى إمتدادها ودرجة مناعتها وصعوبة إختراقها ، وليست كل السواحل الصالحة لقيام الموانى ، من ثم كانت أى أحكام عامه ذات قيمة ضئيلة .

٢- أن مغزى العوامل الجغرافية يختلف من وقت إلى آخر ، حتى فى المنطقة الواحدة ، فالصحارى والمستنقعات والسلاسل الجبلية تميل إلى أن تفقد أهم وظائفها كحواجز نتيجة للتقدم التكنولوجى ، كما بدأت الحدود السياسية تفقد وظائفها كحواجز إقتصادية بعد الإتفاقيات الإقتصادية . وتغيرت أهمية بعض الموارد نتيجة التقدم العلمى ومن ثم كان التعميم مرة أخرى يؤدى إلى عدم الدقة فيما يختص بأثر العوامل الجغرافية على الأنشطة السياسية . أما تلك العلاقات التى قال بها آرسطو وريتر وريتزل بكل بساطة ،فقد أصبحت على شئ كبير من التعقيد ، ولم تصبح الجغرافية اليوم هى علم إيجاد علاقات بقدر ما أصبحت وصف وتحليل وتفسير الإختلافات بين أجزاء هذا السطح .

أما الطريق الثانى : وهو أثر الإقليم السياسى على المظاهر غير السياسية للبيئة فلم يجتذب إلا الجغرافيين المحدثين ، وبدأت الأبحاث فى هذا الإتجاه تظهر فى النصف قرن الأخير كما فعل هارتشورن حينما كتب عن أثر تقسيم سيليزيا كأقليم صناعى بعد الحرب العالمية الأولى [1] ، حيث قسمت إلى قسمين ، قسم تابع لألمانيا ، والآخر تابع لبولندا (أصبحت سيليزيا العليا بأكملها جزء من بولندا بعد الحرب العالمية الثانية) .

---

1 - Hartshorn R., Geographic and Political Boundaries in Upper Silesia , Annais of the Association at America Geographers XXIII 1933 .

كذلك ماحدث بعد تقسيم شبه القارة الهندية إلى الهند وباكستان ، وفصل خط التقسيم بين أقاليم كانت تعتمد على بعضها من الناحية الإقتصادية ، وظهر هذا واضحا فى باكستان الشرقية التى إنفصلت عن مدينتها وميناؤها الرئسى كلكتا حيث مئات المصانع الخاصة بغزل ونسيج الجوت المحصول الأساسى لباكستان الشرقية (بنجلادش الآن) ، بينما لم يكن هناك مصنع واحد منها فى باكستان مما أدى إلى قيام مشكلة إقتصادية حادة لإنه من الضرورى غزله ونسجه قبل التصدير ، وقد حلت هذه المشكلة بإتفاق يقضى بأن ترسل باكستان الجوت الخام إلى كلكتا ، فى نظير تصدير الهند الفحم والمنسوجات إلى باكستان ، وإن كانت باكستان لم ترض بهذه التبعية ، ومع ذلك فمنذ الإستقلال عام ١٩٤٧ حتى أواخر الستينيات كانت باكستان ترسل نحو نصف إنتاجها من خامات الجوت إلى مصانع الهند .

كذلك يتضح أثر التقسيم السياسى بصورة كبيرة فى تقسيم المانيا الى المانيا الشرقية والمانيا الغربية ، فقد كان هناك تكامل اقتصادى بين اجزاء المانيا الموحدة قبل الحرب العالمية الثانية ، بينما بعد التقسيم أصبحت ألمانيا الغربية تضم معظم مناجم الفحم والحديد ومصانع الصلب ، بل ومعظم السكان ، بينما تضم ألمانيا الشرقية أجود المزارع والمراعى ، ومعظم البوتاس والصناعات الكيماوية الرئيسية ، من ثم كان على ألمانيا الغربية أن تستورد ثلث احتياجاتها الغذائية ، والآن توحد القسمان .

وقد لاحظنا سابقا ان العلاقات بين المظاهر السياسية وغير السياسية تتغير بتغير الحدود السياسية للاقليم ، وتصبح وظيفة الباحث فى الجغرافية السياسية هى دراسة طبيعة ووظيفة الحدود الدولية ، وأسباب وأثارتغيرهذه الحدود . ورغم تدهور قيمة الحدود السياسية فى بعض المناطق كغرب أوربا ، إلا أنه لايبدو فى الوقت الحاضر ، أن هناك أملا فى تقليل عدد مشكلات الحدود أو التخفيف من تعقيدها وحدتها فى كثير من أجزاء العالم فى المستقبل القريب .

الجغرافية السياسية التطبيقية :

فى دراسة الأقاليم السياسية ، لا يمكن للباحث أن يتجاهل ما يعرف بالجغرافية السياسية التطبيقية ، فبعد تحليل المظاهر الوظيفية للأقاليم السياسية وبصفة خاصة للدول كوحدات وظيفية ، فإن الجغرافى يمكن أن يكون خلفية معقولة لتحليل العلاقات الدولية ، ونستشهد فى هذا المجال برأى أكبر المعلقين الأمريكيين (والتر ليبمان) وهو ليس بجغرافى

محترف بقدر ماهو صحافى سياسى . لن يكون هناك إدعاء بتسوية صالحة فى المستقبل للشئون البشرية ، إلا إذا إعتمدت على المعرفة الذكية ، والفهم الصحيح للظروف الطبيعية للعالم الذى نعيش فيه ... ويقوم الجغرافى السياسى بكشف الغطاء وإزاحة الستار عن المعلومات الخاصة بظروف العالم الطبيعية التى تؤثر فى حياة الإنسان[1] .

فالجغرافية السياسية بربطها المشكلات الدولية بمسرحها المحلى والمكانى تستطيع أن تسهم مساهمة فعالة فى تفهم هذه المشكلات [2] . فكثير من المشكلات كفلسطين ، وكوريا وكشمير ، والبوسنة ، والصومال ، وتوجو ، وجنوب غرب أفريقية ، وروديسيا لازالت ضخامتها تتناسب عكسيا مع إدراك الناس لأساسها الجغرافى .

ولاينفرد الجغرافيون وحدهم ببحث المشكلات الدولية ، بل هى ميدان ثرى للمشتغلين بالعلوم السياسية والمؤرخين والعاملين فى حقل القانون الدولى ، ولكن الجغرافى يتميز عليهم جميعا بتفهمه للخصائص الإقليمية وسهولة إستخدامه للخرائط ، ولايزال المجال أمام الجغرافى كبيرا لكى يضيف الكثير لإجلاء المواقف المختلفة . ولقد تطورت الجغرافية السياسية فى الخارج كثيرا فى إستخدام المعلومات الجغرافية للإفادة منها فى المشكلات الدولية المعاصرة ، وكثير من هذه الدراسات أصبحت تطلبه الوكالات الحكومية المختلفة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، غير أن الجانب التطبيقى بدأ ينشط عقب الحرب العالمية الأولى ، نتيجة الإهتمام الزائد بمعرفة الإدعاءات الإقليمية بعد تلك الحرب ، وهناك قسم للجغرافية فى وزارة الدفاع الأمريكية .

وقد إشترك الجغرافيون الأمريكيون ، بسهم وافر فى وضع البيانات اللازمة التى تسلح بها الرئيس ولسون فى مؤتمر الصلح ، وجمع أحدهم وهو بومان ملخصات للأقاليم موضع النزاع فى جميع أنحاء العالم فى كتابه العالم الجديد [3] . وخلال العقدين اللذين أعقبا الحرب العالمية الأولى ، ركز الجغرافيون الأمريكيون همهم على المشكلات الخاصة بأمريكا اللاتينية ، والمشكلات الخاصة بالولايات المتحدة الأمريكية مع كندا

---

1 - Lippmann , W., Geography and the Ideological Conflict Herald Tribune , New York June 21, 1951 .

2 - Wooldridge, S.W., East G., " The Spirit and Purpose of Geography ," Hutchinson, London, 1963 p. 128 .

3 - Bowman, L., "The New World Problems in Political Geography." New York 1921 .

والمكسيك ، وقد أخرج بوجز محاضراته عن الحدود الدولية ، فى مؤلف بهذا العنوان نتيجة لإشتراكه فى بحث كثير من المشكلات [١] .

كما أعد ستيفن جونز بتشجيع من بوجز مؤلف عن عمل الحدود ليكون دليلا فى أيدى لجان تخطيط الحدود ، والهيئات التى تقوم بتحديدها [٢] . وقام هوفمان بنشر تحليل لمطالب هولندا فى تعديل الحدود مع ألمانيا . وإشترك جغرافى مصرى بخبرته فى إيضاح حق مصر فى طابا حين عرض النزاع على محكمة العدل الدولية [٣] .

وهكذا يمكن لباحث الجغرافيا السياسية أن يكون موضع إستشارة بحكم خبرته ومرانه المتخصص فى المشكلات الإقليمية ، كمشكلات النزاع على الحدود ، وإعادة تخطيط الحدود السياسية أو فى زحزحة موضع العاصمة ، أو تقسيم قطر معين أو توحيده ، أو إتحاده مع قطر مجاور، وحتى فى المواقف التى لايظهر فيها نزاع إقليمى ، يمكن للجغرافية السياسية أن تعطى الكثير ، فنمط الأقاليم السياسية فى غرب أوربا أثر على التجارة والصناعة المحلية ، فحفر القنوات فى بلجيكا والأراضى المنخفضة ، وحركة الحديد الخام فى إقليم اللورين ــ لوكسمبورج هى نشاطات إقتصادية ، لايمكن فهمها إلا بعد دراسة نمط القوة السياسية فى الإقليم .

وتختلف درجة الملاحظة فى الأقاليم من النظرة الشاملة أو الكلية لمساحات كبيرة ، إلى الأبحاث التى تقوم على مساحات صغيرة ، وفى الأولى أى فى المساحات الكبيرة تظهر الإختلافات المحلية ، وتظهر الخطوط العامة . وأما الدراسات المحلية ، فقد تتضمن الدراسة طرقا خاصة ، وهنا يكون التعميم الأول فى حاجة إلى إعادة دراسة على مقياس آخر ، فعلى سبيل المثال كون جبال الأنديز تصلح حدا سياسيا بين شيلى والأرجنتين فيه شئ من التعميم على مستوى الكرة الأرضية ، أما على المستوى المحلى فتظهر كثير من الصعوبات ، فقمم الجبال كثيرا ما لاتتفق مع تقسيم المياه وكذلك السلسلة الجنوبية أكثر إنخفاضا ، ولاتظهر فيها القمم واضحة ، فضلا عن مشكلات المرور من الممرات الجبلية .

---

[1] - Boggs, S.W. "International Boundaries. A study of Boundary Function and Problems," New York 1949 .

[2] - Jones, S.B. , Boundary Making , A. Handbook for statesman 1945.

[٣] - المرحوم د. يوسف أبو الحجاج .

وهناك أيضا دراسة الوحدات الإدارية المحلية داخل الدولة وإلى أى حد تتفق مع الإختلافات الإقليمية .

وعلى عكس هذا ، هناك الدراسات ذات الطبيعة الدولية ، وفى هذا المجال يعالج باحث الجغرافية السياسية جزءا كبيرا من سطح الأرض كنمط من الأنماط السياسية ، ومادامت الوحدات السياسية هى نواتها ، فإن المساحة الكبيرة لاشك ستضم العديد من الدول ، ولابد للوحدة الكبيرة أن تكون ديناميكية هى الأخرى ، وهكذا يجد الباحث نفسه يواجه مشكلات على مستوى عالمى وعلى مستوى إقليمى .

الجيوبولتيك :

ظهر إصطلاح جديد يعرف بالجيوبولتيك **Geopolitic** ومن مفهوم اللفظ يظهر أن مضمون هذا العلم يجمع بين الجغرافية والسياسة ، أى يقوم على الدراسة الجغرافية للدولة من حيث سياستها الخارجية ، وهنا يكون التأكيد على المظهر الجغرافى للعلاقات الخارجية ، وهذا هو المفهوم الواسع للجيوبولتيك . أى أنها علم يبحث فيما بين السياسة والرقعة الأرضية من علاقات ، وإنه يهدف بصفة خاصة إلى تحويل المعلومات الجغرافية إلى ذخيرة علمية ، يتزود بها قادة الدولة وساستها[1].

وهنا يصعب الفصل بينها وبين الجغرافية السياسية حتى أن البعض كالجغرافى الأمريكى ويتسلى يستعمل **Geopolitic** كأختصار للفظ الجغرافية السياسية . **Political Geoagraphy**

غير أن هذا اللفظ إرتبط بالمدرسة الألمانية ونظرتها الضيقة العدوانية التوسعية ، وكان صاحب التفاسير العديدة الخاصة بالتوسع الأرضى هوسهفر وأتباعه فى معهد ميونخ .

وتعريف الجيوبولتيك كما ورد فى مجلة العلوم السياسية **Zeitschrift fur Geopolitic** التى كان يرأس تحريرها هوسهوفر ، بأنها العلم الذى يبحث عن العلاقة بين الأحداث السياسية والأرض ، فهو يربط السياسة بالأرض ، فهى تعتمد بذلك على الأسس الجغرافية ، وخاصة الجغرافية السياسية ، فالجيوبولتيك تمهد للعمل السياسى ، وتعطى

1- Preston, J., Clarance, J., eds. American Geography inventor, Prospect, Syracuse, 1954, p. 172.

الأسس اللازمة للحياة السياسية ... الجيوبولتيك يجب أن تكون الضمير الجغرافى للدولة[1] .

ومعنى هذا ان دراسة الجيوبولتيك تؤدى بدارسها الى معرفة طريق العمل السياسى فى المستقبل ، وتظل كصوت الضمير تذكر السياسيين بما يجب أن يقوموا به لصالح بلادهم . ولكن لايجب أن يفهم من هذا أنها مرادف للاستراتيجية، لان الجيوبولتيك تساعد على تشكيل أغراض العمل السياسى ، وتبريره ، وفى نفس الوقت تقترح الوسائل التى يمكن بها تنفيذ هذا العمل .

وفى تعريف آخر لأوتومل **Otto Mauil** أحد كتاب معهد ميونخ وأحد أتباع هوسهفر .

تعنى الجيوبولتيك بالدولة ككائن حى ، فهى تبحث الدولة من حيث علاقاتها ببيئتها ، بمجالها ، وتحاول حل جميع المشكلات الخاصة بمجالها الأرضى ، فالجيوبولتيك إذن تعنى بدراسة المطالب المكانية للدولة ، بينما تفحص الجغرافية السياسية ظروف مجالها الأرضى الحالى.

وبوضع الجغرافية فى خدمة التوسع السياسى ، تَهبُ الجيوبولتيك نفسها لمشكلات المستقبل ، وهل مطالب الدولة المكانية وجدت مجالها ، وإذا لم تكن قد وجدت هذا المجال فما السبيل الى تنفيذها طبقا للظروف الجغرافية ؟ وفى أى اتجاه يجب أن يكون التغير؟ فالجيوبولتيك نظام يزن ويقيم موقف ما ، وفى النهاية يبحث عن الطريق العلمى لتنفيذ السياسة[2].

ويذهب **Weigert** الجغرافى الأمريكى الى أنها إستعمال الأسس والمبادئ الجغرافية فى لعبة القوة ، بينما يعرفها تايلور بأنها الجغرافية السياسية مشحونة بالعواطف ، من ثم تكمن فيها دعوة للعمل [3] .

وهكذا لحق لفظ الجيوبولتيك كثير من التضليل ، وإرتبط بفكرة استخدام الحقائق الجغرافية من أجل التوسع ، وفى هذا يقول لاديس كريستوف **Ladis Kristof** أن الفرق الوحيد بين الجغرافية السياسية والجيوبولتيك هى بؤرة الإهتمام التى يركز عليها الباحثون فى كل فرع ،

1- Taylor G., Geopolitics and Geopacitics in "Geography in the 20th Century Methuen, London, 1962, pp. 589, 591 .

2- Pounds, N., op. cit., p. 407.

3 - Taylor, G.R. Geography in Air Age, Royal institute of international \ airs, London, and p. 47.

فالجغرافية السياسية تجعل بؤرة إهتمامها الظاهرات الجغرافية ، بينما تركز الجيوبولتيك على الظاهرات السياسية ، وتحاول أن تعطيها تفسيرات جغرافية وتدرس المظاهر الجغرافية لهذه الظاهرات السياسية .

أن الجيوبولتيك اذا مافهمت الفهم الصحيح ، ودرست على منهج متعقل ، فيمكن أن تعتبر بجدارة إمتدادا أو تطبيقا للجغرافية السياسية على العلاقات الجغرافية الخارجية للدول ، ولن تكون وهم وتضليل وإعتذارعن السرقة كما قال عنها بومان [1] .

[1] - Wooldridge, S. W., op,cit., p. 112.

الأسس الجغرافية لتقييم الدولة من الناحية السياسية

مقـــدمـــة :

تـدرس الـدول فـى الجغرافيـة السياسـة لحسـاب مقوماتهـا المادية ، وتشـكل الجغرافيــة الطبيعيــة والبشــرية بـالمفهوم الواسـع جمعـا لكل هـذه المقومـات ، والغـرض الأساسـى هـو معرفـة الإيجابيـات والسلبيات والمفهوم بلغــة الحسـابات مالهـا credit وماعليهـا debit ، أى النواحـى التـى تضفـى عليهـا قـوة ، والنواحـى التـى تسـلب منهـا القـوة ، وعلـى حـد مـا طرحـه المفكر الأمريكى بـول كينـدى هـو تحديـد مـاإذا كـانت المقومـات الماديـة لأيـة دولـة مـن مسـاحة ، وسـكان ، ومـوارد أى إمكاناتهـا تتناسـب أو لاتتناسـب مـع نفوذهـا علـى المسـتوى الدولـى ، فدولـة مـاتعتبر ذات حجـم طبيعـى إذا كـانت مساحتها وسكانها ومواردهـا تمثـل ٥٪ مـن مسـاحة وسـكان ومـوارد العـالم ، وفـى نفـس الوقـت تحتكـم علـى ٥٪ مـن موازيـن القـوى العالميـة ، أمـا الـدول ذات الحجـم غـير الطبيعـى ، فهـى تلـك التـى قـد يزيـد أو قـد يقـل نصيبهـا مـن مـيزان القـوى العالميـة عـن حجـم مـا تمتلكـه مـن إجمـالى مسـاحة وسكان ومـوارد العـالم ، فـإذا ضربنـا ببريطانيـا مثـلا ، نجـد أنهـا فـى عصـر إزدهارهـا كـانت تحـوز نحـو ٢٥٪ مـن ثـروة وقـوة العـالم ، علـى حيـن أن أرضهـا وسـكانها ومواردهـا لـم تـزد علـى ٤٪ . وهـذه الفجـوة بيـن النصيـب الأقـل مـن المـوارد والنصيـب الأكـبر مـن القـوة تفسـرها برامـج التطويـر الصنـاعى والتقـدم التكنولوجـى والتعليمـى والعسـكرى ممـا أدى إلـى صعـود مثـل هـذه الدولـة إلـى مصـاف الـدول الكـبرى .

وكذلـك الحـال فـى الإتحـاد السـوفييتى السـابق ، كـان نصيبـه مـن مسـاحة العـالم نحـو سدس مسـاحة العـالم ، وكـان سـكانه يمثلـون نحـو ٦ ٪ مـن سـكان العـالم ومـع ذلـك كـان نصيبـه مـن مـيزان القـوى العالميـة فـى فـترة القطبيـة الثنائيـة نحـو النصـف .

البــاب الأول . الأســس الطبيعـــــية

الفصل الأول . العلاقات المكانية

أولا : الموقـع الفلكـى

فـى دراسـة الموقـع الجغرافـى ، نجـد أن أول مـا يتبـادر إلـى الذهـن ، هـو موقـع الوحـدة السياسية فلكيا ، بالنسـبة لخطـوط الطـول ودوائـر العـرض، أو كمـا يقولـون الموقـع المطلـق .Absolute Location ولعـل التحديـد بالنسبة لدرجـة العـرض أهم منه بالنسبة لخطـوط الطـول ، وذلـك لأنـه علـى أسـاس الدرجـات العرضيـة سيتشـكل المنـاخ بوجـه عـام ، وكذلـك النشـاط البشـرى وهـذه أمـور حيويـة تشـترك فـى تشـكيل إتجاهـات الدولـة .

ويذهـب البعـض إلـى أن بعـض القـوى العظمـى الموجـودة الآن ، ترتبـط بالمنـاطق المعتدلـة ، حيـث تتمتـع بـالتغير المنـاخى للفصـول ، والتغـير الإعصـارى ، يبعـث علـى النشـاط ، وأن الوحـدات السياسـية التـى تقـع فـى الجهـات المداريـة يقـع مركزهـا أو بؤرتهـا علـى المرتفعـات ، فبوجوتـا عاصمـة كولمبيـا علـى إرتفـاع ٢٨٠٠ مـتر فـى مرتفعـات الأنديـز ، وكيتـو علـى إرتفـاع ٣٢٠٠ مـتر . وهـذا يذكرنـا بنظريـة الحتـم البيئـى . Environmental Determinism.

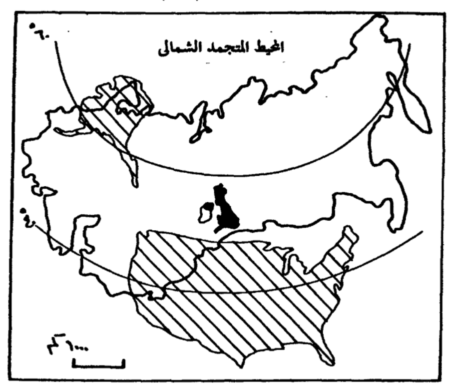
ونظريـة الحتم البيئ قديمـة كل القدم ، قـال بهـا كثير مـن الكتـاب القدمـاء، فيشير هيرودوت مثلا إلى أن البلاد السهلية لاتنتـج رجـالا أشـداء ، وفضـل الفرس كشـعب إمـبراطورى ، أن يعيـش فـى بـلاد وعـرة . علـى أن يعيـش فـى السـهول ، يقوم بالزراعـة كمـا يفعـل العبيـد !! وقـال هيبوقـراط الطبيـب والكـاتب الأغريقـى أن نقـص الشـجاعة والـروح الوثابـة عنـد سـكان آسـيا يرجـع أساسـا إلى قلـة المدى الحـرارى الفصلـى الـذى يسـود تلـك الجهـات . مثـل هـذه الأفكـار التـى كـانت تسـود فـى العصـور القديمـة ، نجدهـا وقـد إستمرت فـى العصـور الوسـطى وتمسـك بهـا كتابهـا فنجـد Jean Bodin فـى كتاباتـه التـى ترجـع الـى القـرن السـادس عشـر ، يشـير الـى أن أهـل الشـمال يتفقـون فـى القوى الجسمية ، بينمـا اهـل الجنوب أكـثر ذكـاء ، ونظـرا لأن المنـاخ أنسـب مـا يكـون بيـن الشـمال والجنـوب . كـان أهـل الوسـط مـن أنسـب السـكان للإشـتغال بالسياسـة . وكتـب مونتسكيو فـى القرن الثـامن عشـر فـى نفـس هـذه الإتجاهـات لايعجـب الإنسـان مـن أن ضعـف سـكان الجهـات

الحـارة يجعـل منهـم عبيـدا ، وأن شـجاعة سـكان الجهـات البـاردة تجعلهـم أحـراراً ، وعلـى هـذا الأسـاس تعـزى القـوى السياسـية إلـى المنـاخ ، وهـذا بـدوره يرجـع إلـى الموقـع الجغرافـي ورغـم أن هـذه الأفكـار تنسـب إلـى الماضي، فمع ذلك وجدت فـي عصرنـا الحـاضر مـن عـبر عنهـا وخاصـة هنتجتن فى كتابه المدينـة والمنـاخ [1] . ولكـن المدينـة فـى الحقيقـة تقـوم فـى المنـاطق التـى يصـل فيهـا الإنسـان فـى إسـتغلال البيئـة إلـى أعلـى المراحـل ، ولذلـك نشـأت المدنيـات القديمـة فـى البيئـات الزراعيـة حينمـا كـانت حرفـة الزراعـة هـى أكـثر الحـرف إنتاجـا (مصـر والعـراق) ، وعندمـا ظهـرت حرفـة الصناعـة كـأكثر الحـرف إنتاجـا ، إنتقلـت المدنيـة إلـى المنـاطق التـى تتوفـر فيهـا مقومـات الصناعـة ، فهـى الآن فـى مراكـز الفحـم والحديـد ، وهـى الآن حيـث أعلـى تطـور تكنولوجـى ، فليسـت المدنيـة ولا القـوى السياسـية إحتكـارا للمنـاطق المعتدلـة ، ولا يمكـن للحتميـين المنـاخيين إثبـات صحـة نظريتهم تمامـا ولكـن ليـس معنـى هـذا أن المنـاخ لاأثـر لـه ، ولكـن آثـاره ليست منتظمـة مـن ناحيـة ، ولا يمكـن التنبـؤ بهـا مـن ناحيـة أخـرى . ويتضـح أثـر المنـاخ أكـثر مـايكون فـى درجـة إسـتخدام الأرض ، وهـى عنصـر هـام مـن عنـاصر قـوى الدولـة ، فـإذا قارنـا مثـلا بيـن الإتحـاد السـوفيتى والولايـات المتحـدة الأمريكيـة ، لوجدنـا أن مسـاحة الولايـات المتحـدة تبلـغ نحـو خمسـى مسـاحة الإتحـاد السـوفيتى السـابق ، ومـع ذلـك فمسـاحة الآراضـى المزروعـة فيهـا تعـادل نظيرتهـا فـى الإتحـاد السـوفيتى ، ويرجـع السـبب الأساسـى إلـى أن الإتحـاد السـوفيتى يقـع معظمـه فلكيـا إلـى الشـمال مـن دائـرة العـرض ٥٠ شمالا، بينمـا تقـع الولايـات المتحـدة الأمريكيـة (مـاعدا الاسـكا) إلـى الجنـوب مـن دائـرة عـرض ٤٩° شـمالا وبالتـالى أصبـح المسـتغل فيـه للزراعـة نحـو ١٠٪ مـن مسـاحة البـلاد ، والمسـتغل لـلرعى نحـو ١٠٪ أخـرى ، بينمـا تشـغل الصحـارى البـاردة ١٧٪ ، كمـا تشـغل الغابـات ٥٠٪ ، وفـى النطـاق الأخير ، يظـل مـا تحـت التربـة متجمدا طـول العـام تقريبـا .

---

[1] - Ellsworth Huntington, Civilization and Climate , Yale U.P.L. 1924 .

شكل رقم (١) : الموقع الجغرافى الفلكى لكل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى (سابقاً)



ثانيا : الموقع بالنسبة لكتل اليابس والمسطحات المائية

Maritime or continental location

وهذا عنصر هام لأنه يعطى الوحدة السياسية شخصية خاصة ، ويوجه سياستها نحو إتجاهات معينة . وهناك وسيلة لتقليل درجة البرية أو البحرية وذلك بعمل نسبة طول الحدود البرية . وتقسم الدول فى هذا الأساس كما يلى:

١ - دول بحدود بحرية تماما كالجزر البريطانية وايسلندا واليابان.

٢ - دول تغلب على حدودها الصفة البحرية كالبرتغال وأسبانيا وفرنسا وايطاليا والسويد والنرويج .

٣ - دول تغلب على حدودها الصفة البرية كألمانيا وليبيا والجزائر والسودان .

٤ - دول حدودها برية تماما كالمجر والنمسا ومالى وبوركينا فاسو ونيبال .

غير أن هذه الطريقة تعنى بالكم ولاتهتم كيف ، لأنها لاتدخل فى إعتبارها نوع الحدود أو قيمتها . فحدود روسيا الإتحادية المطلة على المحيط القطبى الشمالى لاشك اذا دخلت فى الحساب ، قد تعطى فكرة غير صحيحة ، فلسوء حظ روسيا الإتحادية أيضا أن حدودها على بحر بلطيق تتجمد مياهها معظم السنة ، وحدودها الشمالية تطل على المحيط القطبى فتصبح الجبهات البحرية الهامة هى جبهة المحيط الهادى ، وجبهة البحر الأسود فقط ، من ثم تعتبر روسيا الإتحادية رغم طول حدودها البحرية قوة برية أكثر منها بحرية .

كذلك تتوقف قيمة الجبهة البحرية **Sea board** على ظهير الساحل فظهير ساحل البحر الأحمر عبارة عن صحراء ، ويبعد عن الوادى حيث مراكز الإنتاج والعمران بمسافات طويلة ، مما أدى إلى قلة إستعمال هذه الجبهة ، ولم يلجأ إليها إلا فى وقت الضرورة (أى عند قيام الحرب العالمية الثانية وكثرة الغارات على البحر المتوسط) فلجأت بريطانيا إلى استعمال ميناء القصير ومدت خطا حديديا بينه وبين قنا . كذلك الحال فى الظهير الخلفى لساحل يوغسلافيا السابقة المطل على الأدرياتيك فهو عبارة عن جبال الألب الدينارية التى تتميز بتربة الكارست الجيرية التى تمتص مياه الأمطار ، فتكون الفجوات والكهوف ، وتظل قاحلة ، وكأنها لم يسقط عليها غيث .

فإذا أضفنا إلى هذا أن ، الساحل اليوغسلافى قليل التعاريج ، هذا مما لا يساعد على نشأة الموانى الكبيرة ، مما أدى إلى ظهور مشكلتا تريست وفيومى بين يوغسلافيا السابقة وإيطاليا التى حاولت دائما ضمها ضمن حدود دولتها ، وإنتهى الأمر أخيرا بحصول يوغسلافيا على فيومى ، والإتفاق سنة ١٩٤٧ على إنشاء منطقة فى تريستا .

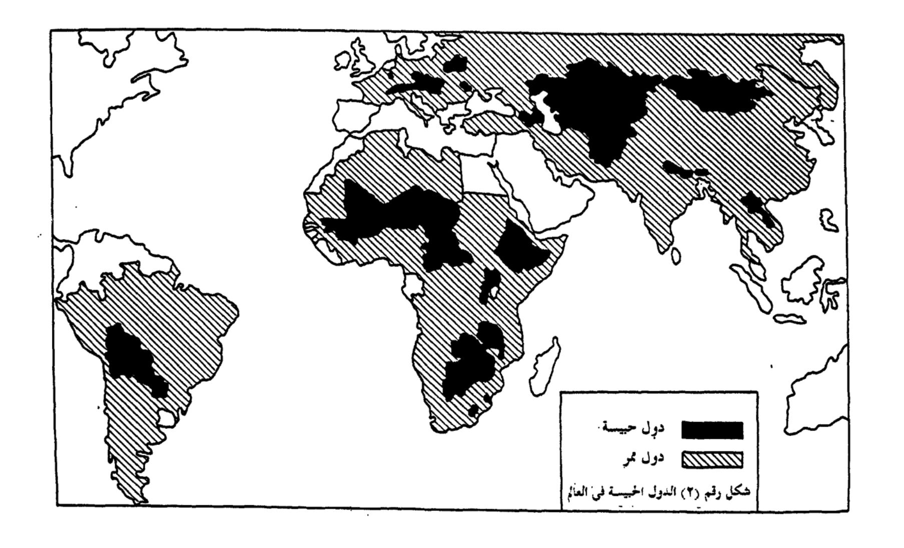
وقد يكون ساحل الدولة رملى أوصخرى . وبالتالى قد تعمل الدولة على تنمية أحد موانيها النهرية ، وقد يكون مصب النهر فى دولة أخرى ، فإذا حاولت دولة المصب إغلاقه ، كان معنى هذا أن هذه الدولة أصبحت حبيسة ، وهذا كما فعله الهولنديون عندما أغلقوا مصب نهر الشلد فى منتصف القرن السابع عشر ، مما أدى إلى عزل ميناء أنتورب ، وتوقف حركته لمدة قرن ونصف ، وقد أدى هذا الوضع إلى جانب نمو التجارة البحرية فى القرن التاسع عشر إلى البحث عن حلول دائمة حتى لاتتكرر مثل هذه المشكلات .

وقد يقلل من أهمية الجبهة الساحلية ضيقها بالنسبة لمساحة الدولة كما هو الحال فى العراق حيث لاتمتد جبهته البحرية سوى ٥٨ كيلو مترا فقط غرب شط العرب ، وبذلك تبلغ نسبة طول الشاطئ إلى المساحة نحو ١ : ٧٤٨٢ ، ويرجع هذا إلى وقوعه عند رأس الخليج حيث يقل إتساع المسطح البحرى ، وتتعدد الدول المشاركة فيه ، ويضاف إلى هذا أن ظروف البيئة الساحلية تنعكس سلبا على هذا الموقع لضخامة كمية الرواسب التى يلقى بها نهرا الكرخة وقارون فى شط العرب ، والتى تتراكم بدورها ، ويعوق تصريف مياه نهرى دجلة والفرات فى مجراهما المشترك ، وتتكون مساحات من المستنقعات ، (وإن كان هذا ليس تبريرا بحال لإدعاءات العراق على الكويت ، فهناك دول حبيسة لاتطل على بحر مطلقا)

كذلك تختلف قيمة الجبهة البحرية بحسب بعدها أو قربها من طرق التجارة العالمية الرئيسية ، فلا يمكن القول بأن الجبهة البحرية التى تطل بها البرازيل والأرجنتين على المحيط الأطلنطى تعادل الجبهة البحرية التى تطل بها شيلى وبيرو على المحيط الهادى ، فلا شك أن دول المجموعة الثانية أكثر عزلة من دول المجموعة الأولى ، لأن جبهة الأطلنطى يمر بها ثانى الطرق البحرية العالمية ، بينما دول الساحل الغربى تقع بعيداً عن المسار المألوف لطرق التجارة العالمية ومع ذلك ولاشك أنها فى وضع أفضل من الدول الداخلية كبوليفيا وباراجواى .

وكان لموقع مصر الجغرافى كنقطة إلتقاء القارة الآسيوية بالأفريقية وقريبا من أوربا ونقطة إلتقاء البحر الأحمر والبحر المتوسط وماورائه ، ماجعل موقع مصر متميزا ومتحكما إلى حد كبير فى حركة الإتصالات العالمية ، وخاصة بعد مد خط أنابيب سوميد كمكمل لقناة السويس وبعد إتمام مشروع الطريق الساحلى إلى المغرب العربى ، كذلك بناء جسر الفردان فوق قناة السويس ، كذلك ونتيجة لهذا الموقع تعددت الدوائر التى تعمل فيها سياسة مصر الخارجية ، الدائرة الإفريقية والدائرة الآسيوية بعامة ، والدائرة العربية ، كما زاد الإهتمام بالدائرة الأوربية ، خاصة بعد الإهتمام الأوربى بالشمال الأفريقى (منتدى البحر المتوسط).

وإذا قارنا بين قارات العالم من حيث عدد الدول الداخلية التى لامنفذ لها على البحر ، نجد أن أوربا بها ثمانى دول داخلية بصرف النظر عن خمسة جيوب داخلية أو ساحلية ، (التشيك ، وسلوفاك ، والنمسا ، والمجر ، والبوسنة والصرب وسويسرا ، ولوكسمبورج) وفى آسيا نجد احدى عشر دولة حبيسة **Land Locked States** وهى أفغانستان ،



شكل رقم (٢) الدول الحبيسة في العالم

ونيبال ، لاوس ، منغوليا ، وبهوتان . والدول التى ظهرت بعد إنهيار الإتحاد السوفيتى وهى أوزبكستان ، طاجيكستان ، قرغيزستان ، تركمنستان ، أذربيجان ، أرمينيا .أما فى أفريقية فيبلغ المجموع خمس عشرة دولة من مجموع الوحدات البالغ عددها ٥٣ وحدة ، أى أكثر من ربع أقطار القارة الأفريقية عبارة عن أقطار حبيسة يصل مجموع سكانها الى نحو ٢١ مليون نسمة ، أو ١٤٪ من مجموع السكان وهى مالى ، والنيجر ، بوركينا فاسو ، وتشاد ، وأفريقيا الوسطى وسوازى ، ليستو ثم أوغندا ، وزامبيا ، زيمبابوى ، ومالاوى ، وبتسوانا ، وروندا ، وبوروندى ، واثيوبيا .

ولايرجع هذا الى قلة التعاريج الساحلية فحسب ، بل يرجع أيضا الى التمزق السياسى الشديد الذى عانته قارة أفريقيا ، وذلك أن اسيا قليلة التعاريج الساحلية ومع ذلك فقد تحاشت الشظايا الداخلية الكثيرة بفضل وحدتها السياسية الكبيرة الحجم .

وتعانى الدول الحبيسة بعامة من كثير من المشكلات الإقتصادية ، لعل أهمها تحكم الدول الساحلية فيها ، بل أنها أحيانا تقع تحت رحمتها ، وقد تسعى الدول الداخلية الى اقامة اتحاد جمركى ، او اتحاد سياسى ، فلا غناء عن البحر أو المحيط لنقل جزء كبير من التجارة الخارجية لهذه الدول ، ومن ثم كانت هذه الدول الحبيسة فى وضع لاتحسد عليه إلا اذا ضمنت لنفسها حقاً فى استخدام البحار كما هى الحال فى الدول الساحلية كحق المرور البرئ فى المياه الإقليمية للدول الأخرى ، والمشاركة فى تسهيلات المرافئ والحق فى المرور منها إلى أراضيها ، أى فهى قائمة طويلة من الضمانات ، لذلك ليس من عجب أن تحس هذه الدول الداخلية بالعزلة، وقد تقوم بعض المشكلات للنزاع على مساحة من الأرض ، أساسها رغبة الدول الحبيسة ضمان مخرج دائم وآمن الى البحر ، هكذا كان ضمن بنود اتفاق استقلال إريتريا ، ان تستخدم إثيوبيا ميناء عصب ومصوع فى حركة تجارتها . فلقد أصبحت المحيطات (والتى كانت تمثل فى وقت ما فواصل تعزل البشر بعضهم عن بعض) بفضل التقدم التكنولوجى ، طرق الإتصال والتبادل الأساسية ، أو شرايين الحياة ، كما كان يطلق على الطرق البحرية للإمبراطورية البريطانية ، جلبت عن طريقها الخامات ، وصدرت الصناعات ، وتوطنت كثير من الصناعات فى الموانى ، حتى تختصر تكاليف النقل البرى مرة اخرى ، وأصبحت هذه الموانئ ليست مراكز لتبادل التجارة فحسب ، بل لتبادل الثقافة والأفكار ، بل وفى كثير من الأحيان تمثل القلب النابض بالنشاط

الأقتصـادى (الموانـى الشـرقية للولايـات المتحـدة الأمريكيـة ، كذلـك موانــى غـرب أوربـا).

هذا بينما لاتجد الدول الحبيسة مفـرا مـن نقـل السـلع منهـا وإليهـا عـبر الموانى الأجنبية ، ولايمكنها أن تهرب من نفقات نقـل السـلع الباهظـة علـى طرقها البرية مـن المرافـئ الأجنبيـة إلـى أراضيهـا ، وكـل أملهـا هـو نقـل تجارتها الخارجية مـن وإلـى أقـرب مرافـئ لهـا بـأرخص تكـاليف ممكنـة ، ويتوقف هذا بالتـالى علـى علاقـة الـدول الحبيسـة بجارتهـا البحريـة ، لأنهـا يمكنهـا أن تغلـق هـذه النـافذة وشـل حركتهـا التجاريـة والضغـط عليهـا سياسـياً.

ما هـى البدائـل إذن لإمكـان الوصـول الـى أعـالى البحـار ؟ وكيـف يتـم هـذا عـبر دول أخـرى دون أن يمـس سـيادتها كثـيراً مـن ناحيـة ، ودون أن تحـدث تبعيـة أمـن الدولـة الحبيسـة للدولـة السـاحلية مـن ناحيـة أخـرى ؟ الواقـع أن هنـاك إحتمـالات ثلاثـة:

أولهـا : الإتفـاق علـى دوليـة الأنهـار الصالحـة للملاحـة والتـى تمـر فـى دول داخليـة ودول سـاحلية وهـذا ماسـنعرض لـه حيـن نتنـاقش موضـوع الأنهـار .

ثانيهـا : أن تحصـل الدولـة الحبيسـة علـى ممـر أو شـريط مـن الأرض أمـا الـى البحـر أو الـى اقـرب نهـر ملاحـى .

ثالثهـا : أن تضمـن الدولـة الحبيسـة تسـهيلات فـى موانـئ معينـة مـن الدولـة السـاحلية ، فضـلاً عـن حريـة المـرور عـبر خـط حديـدى أو طريـق مناسـب .

غير أنـه لـو كـانت الجبهـة البحريـة للدولـة ممتـازة ، ومناسـبة جـداً للنشـاط البحـرى ، وكـانت حدودهـا البحريـة تفـوق البريـة فـإن مصـالح الدولـة ، ومنـاطق الجـذب ، أو التوجيـه الجغرافـى لهـا ، قـد يتجـه بهـا نحـو الـبر إذا مـاتوفرت عوامـل الجـذب فـى الأرض ، ولايلجـأ الإنسـان الـى البحـر إلا إذا ضـاق عليـه الـبر بـالجود ، فسـكان الـنرويج يولـون وجوههـم شـطر البحـر ، ويعطـون ظهورهـم للـبر ، ولكـن علـى العكـس ، نجـد أن عـامل الـبر ، يتغلـب فـى فرنسـا رغـم أن جبهاتهـا البحريـة متعـددة وممتـازة ، لأن الـبر أكـثر جاذبيـة ، فالتوجـه الجغرافـى لفرنسـا توجيـه بـرى .

ويتوقـف نشـاط الدولـة البحـرى والتجـارى أيضـا علـى طبيعـة البحـر ، إذا كـان مفتوحـا ، أو مغلقـا ، فبحـر البلطيـق تتحكـم فـى مخارجـه الدنمـارك

بطريق مباشر ، وبريطانيا بطريق غير مباشر ، فيمكن لبريطانيا إذا أوتيت القوة الكافية أن تغطى مضيق دوفر والمخارج الشمالية بنيرانها ، ونفس الكلام يقال عن بوغاز البسفور والدردنيل بالنسبة لتركيا .

كذلك يمكن التفرقة بين الدول التى تطل على البحر بجبهة واحدة ، وتلك التى تطل بأكثر من جبهة ، فكلما تعدد الجبهات البحرية ، كلما زادت الفرص البحرية السانحة ، وإن زادت فى الوقت نفسه مسؤوليات الدولة لحماية هذه الجبهات المتعددة .

ويقسم البعض الدول من حيث عدد جبهاتها إلى :

١ - دول ذات جبهة بحرية واحدة :

وهذه الظاهرة واضحة فى الدول الساحلية فى القارات القليلة التعاريج وأشباه الجزر مثل إفريقية وأمريكا الجنوبية ، فحتى البرازيل نفسها التى تحتل نحو ثلثى أمريكا الجنوبية ، ليست من الكبر بحيث تعبر الأنديز على المحيط الهادى ، أما القارات الكثيرة الخلجان والتعاريج وأشباه الجزر كأوربا ، فلا نجد فيها دول لها جبهة واحدة ، إلا الدول الصغيرة مثل بلجيكا ، وهولندا ، ورومانيا ، وألمانيا ، وبولندا ، وبلغاريا . والدولة ذات الجبهة البحرية الواحدة فى الغالب هى دولة برية أصلا ، وبعد محاولات إستطاعت أن تجد لها منفذا على البحر .

٢ - الدولة ذات الجبهتين :

وهذا النوع يمكن تقسيمه إلى عدد من الأنواع حسب نوع الموقع الذى تحتله ، فهى تقع عند مناطق برازخ أو بمعنى آخر حيث يستدق اليابس ، مثل المكسيك ، وجمهوريات أمريكا الوسطى بإستثناء سلفادور ، ويقع البعض الآخر عند التقاء مسطحين مائيين ببعضهما مثل مصر والمغرب وبليز ، وجمهورية جنوب افريقية ، أو نتيجة لطبيعة البلاد شبه الجزرية. والذى يجب ملاحظته فى هذا الصدد أن معظم أشباه الجزر تقع فى أوراسيا ، وهى من الشرق الى الغرب : سيام ، الملايو ، الهند ، بلاد العرب ، اليونان ، إيطاليا ، واسبانيا .

٣ - الدول ذات الثلاث جبهات بحرية :

هذه تأتى نتيجة كبر مساحة الدولة مثل الولايات المتحدة الأمريكية ، وكندا ، وفرنسا ، وتركيا .

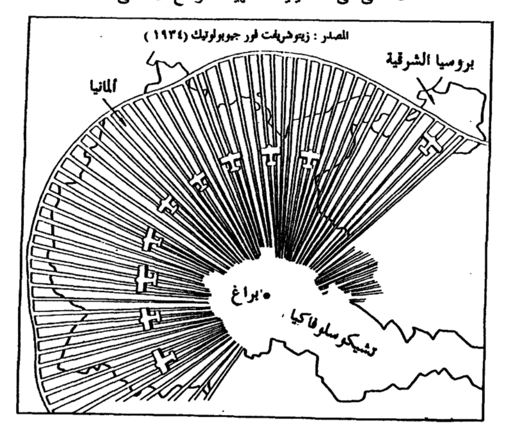
ثالثا : الموقع النسبى Relation location

والموقع بالنسبة للجيران Vicinal location

تحتاج الدولة فى بداية نشأتها ، أو فى مرحلة تكوينها ، إلى شئ من العزلة ، وكلما كانت محاطة بمناطق منيعة ، كالبحر ، أو الصحراء كلما ساعد هذا على اعطاء الفرصة للوليد أن يكتمل نموه ، فمن عوامل نمو الحضارة المصرية القديمة ، أن هناك درعا صحراويا يحيط بوادى النيل من الشرق والغرب ، فى هذا الوادى المحمى بدأت تتكون الدولة المصرية ، فهذه الدروع ان لم تكن قد حمت هذه البلاد من غزوات كثيرة ، فأنها كسرت من حدة هذه الموجات الحربية على رمالها .

أما عندما يكتمل نمو الدولة ، فعندئذ لابد لها من الإتصالات الخارجية حيث فرص التنمية أكثر ، لأنها ستضيف طعاما جديدا للسكان ، ستضيف خامات جديدة للصناعة ، ستضيف أسواقا بل ستضيف أفكارا ، وخبرات، ومهارات جديدة لم تكن تعرفها من قبل ، بل وأحيانا تنويعا جنسيا .

شكل رقم (٣) : استغلال ألمانيا لموقع تشيكوسلوفاكيا كمهدد للأمن القومى الألمانى فى الثلاثينيات تمهيداً للتوسع الألمانى



ليس من الضرورى أن يكون الإتصال بريا ، أى تكون هناك حدود برية مشتركة ، فما دامت صعوبات النقل البحرى قد تغلب الإنسان عليها، فعندئذ يمكن للدول البحرية أن تجنى حسنات الإتصال السريع ، وتتجنب سوءات الإشتراك فى الحدود أو القرب منها ، فبريطانيا ، مثل حى لدولة أستغلت وضعها أحسن أستغلال فالعبارة المعروفة **Britain is in Europe But not of it** تلخص هذه الفكرة ، فهى أولاً سهلة الإتصال ببقية أنحاء القارة ، ولكنها ليست فى صلب القارة ، وهذا أبعدها عن كثير من الهزات السياسية التى أصابت القارة والجيوش التى كانت تجتاحها من شرق وغرب ، ومن ثم إكتمل فيها الإنقلاب الصناعى واستوى عوده بعيداً عن ضوضاء ومشكلات القارة الأوربية[1] .

قد يقال أن هذا ما كان يمكن أن يحدث لولا وجود الأسطول البريطانى ، ولكن يرد على هذا بأن هذا الفرع من الأسلحة البريطانية ، لم يأت الا نتيجة لمجهود الإنسان فى هذه البلاد ، للتكيف مع ظروف عنصر من عناصر البيئة وهى الموقع .

ووضع الدولة بالنسبة للجيران يجرنا إلى الكلام عن الوضع الإستراتيجى للموقع ، فموقع ألمانيا وأشتراكها فى الحدود مع عدة دول ، كان يجعلها دائما فى خوف من تطويقها ، مما أدى إلى نجاح الحزب النازى – عن طريق الدعاية بالخطب والخرائط والكتب – فى دعوته للتسليح .

كما أدت مواجهة فرنسا وجها لوجه مع ألمانيا إلى ضرورة التجنيد الإجبارى ، وإلى إتجاه جزء لابأس به من الميزانية لشئون الدفاع ، وإلى نقل كثير من الصناعات التى كان يجب أن تقوم فى شمال فرنسا لوجودحقول الفحم هناك إلى جهات بعيدة عن الحدود . وإلى تنمية مشروعات الكهرباء فى جبال الألب وهضبة فرنسا الوسطى والبرانس وإلى تعدين الحديد فى نورماندى بينما إحتياطى الحديد الضخم فى اللورين على الحدود الفرنسية الألمانية ، ويتبع هذا زيادة فى التكاليف .

وحتى الإتحاد السوفيتى السابق ذو الموارد الضخمة ، والمساحات الشاسعة ، كان يضع فى تنظيماته الداخلية حسابا لعلاقاته بجيرانه ، وأظهر مثل على هذا التعديل طبقا للوضع الإستراتيجى ، وهو تنمية وحدات صناعية من الإتحاد الأسيوى خلف الأورال بعيدا عن الهجمات الأوربية .

---

[1] – أصبحت الآن متصلة بطريق برى بالقارة عن طريق نفق بحر المانش

ولننظر أيضا إلى كوبا التى كانت تمثل قاعدة سوفيتية متقدمة بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية ، وكذلك نظرة الإتحاد السوفيتى إلى الدول المجاورة له وكيف تدخل عسكريا فى أفغانستان ، وأنظر كذلك كيف ردت الولايات المتحدة الجميل للإتحاد السوفيتى بوفاقها مع الصين والإعتراف بها وإدخالها الأمم المتحدة ، بل ومساعدتها تكنولوجيا .

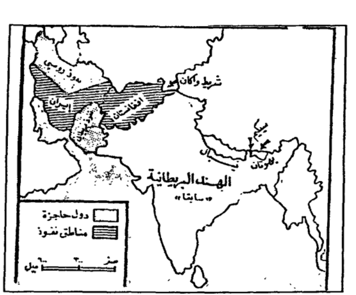
كلما زاد عدد الدول المجاورة لدولة ما ، زادت الأعباء الملقاه على عاتق هذه الدولة خاصة بحماية حدودها وأمنها القومى وعلاقتها بالجيران، ولذا غالبا مايتسم التفاعل بين دول الجوار لشدة الحساسية ونضرب مثلا بدولة مفرطة فى جيرانها وهى السودان ، إذ أنها تجاور تسع دول ، غير مصر التى تجاور ثلاث دول فقط أو النرويج التى تجاور دولة واحدة ، ويضاعف من أعباء حدود السودان القلة النسبية للسكان المنوط بهم إدارة هذه الحدود ، فضلا عن أن هذه الحدود السياسية لاتشكل حدودا عرقية ، بل تنتشر على جوانبها القبائل والسلالات .

نماذج من عدد دول الجوار بالنسبة لبعض الدول

روسيا الإتحادية	١٢	مصر	٣
الصين	١٢	اندونسيا	٢
البرازيل	١٠	بنجلادش	٢
زائير	٩	المملكة المتحدة	١
السودان	٩	اليابان	صفر

ويؤدى الوضع بالنسبة للجيران فى بعض الأحيان إلى ضرورة وجود الدول الحاجزة **Buffer States** وهى وحدات سياسية صغيرة الحجم بين وحدات سياسية ضخمة ، ومثل هذه الدول الحاجزة تبقى كمانع للصدام بين الجانبين الكبيرين ، كما أن القضاء عليها من جانب لايقابل بمقاومة هذه الوحدات الصغيرة فحسب ، بل بمعارضة الجانب الآخر أيضا .

شكل رقم (٤) : نماذج للدول الحاجزة فى آسيا



ويمكن فى هذا المجال إعتبار بلجيكا وهولندا ولوكسمبورج دول حاجزة بين ألمانيا من جانب وفرنسا من جانب آخر . كما قامت بولندا وتشيكوسلوفكيا ورومانيا كدول حاجزة بين وسط أوربا من ناحية والإتحاد السوفيتى السابق من ناحية أخرى , وقد خشيت بريطانيا وهى فى الهند من نمو روسيا القيصرية وتوسعاتها فى القرن التاسع عشر ، من ثم خلقت دول حاجزة ، تمثلت فى أفغانستان ، بل وامتد اقليم واكان **Wakhan** من أفغانستان على هيئة أصبع ليصل الى سنكيانج ، ولعل امارات نيبال وبهوتان وسيكيم فى شمال الهند إمتداد لهذه الأقطار الحاجزة .

رابعا : الأهمية الإستراتيجية

تختلف أهمية الموقع الإستراتيجية بتغير الظروف ، فالدول أو أجزاء الدول قد تكون لها أهمية إستراتيجية في عصر من العصور ، وهذا معناه أنها تتحكم فى طرق المواصلات العالمية مثلا ، ويمكن إتخاذ قواعد من مياهها وأرضها لصد عدوان ، أو القيام منها بهجوم وقت الحرب ، كما أنها تعمل وقت السلم على توجيه حركة التجارة ، ومن أمثلة هذه المواقع الإستراتيجية ، مناطق المضايق ، والبرازخ ، والممرات العالمية ، وأحيانا الجزر .

للدلالة على تغير هذه الأهمية بتغير الظروف ، نأخذ موقع مصر الجغرافى وتطور أهميته على مر العصور ، فمثلا بعد كشف رأس الرجاء ونتيجة لسوء الأحوال السياسية فى البلاد ، تحول جزء كبير من تجارة الشرق إلى الطريق الجديد ، وقلت أهمية موقع مصر ، ثم بدأت تعود هذه الأهمية من جديد ، وظهرت فى أروع صورها بعد إفتتاح قناة

السويس ، وكانت القناة هى آخر جزء جلا عنه الإنجليز فى مصر ، كذلك يمكن أن نقارن موقع بريطانيا قبل كشف الأمريكتين وبعده ، فقبل كشف الأمريكتين ، كان موقعها يعتبر متطرفا بالنسبة للطريق التجارى عبر الأطلنطى الشمالى ، وهو من أهم الطرق الملاحية العالمية ، لأنه يربط بين منطقتين حيويتين ، هما غرب أوربا ، وشرق أمريكا الشمالية. ونضرب المثل أيضا بجزر فولكلاند **Fulkland** الواقعة فى جنوب المحيط الأطلنطى والتى أحتلتها بريطانيا فى القرن الثامن عشر ، فقد كانت لها أهميتها الإستراتيجية لأنها تتحكم فى الطريق البحرى الذى يدور حول أمريكا الجنوبية ولعبت دوراً كبيرا فى سحق الإسطول الألمانى حتى عام ١٩١٤ ، ولكن إفتتاح قناة بنما فى ذلك الوقت قلل من أهمية طريق رأس هورن ، وبالتالى أصبحت أهميته الإستراتيجية فى خكم المعدومة ، وبينما تدهورت قيمة جزر فولكلاند ، إزدادت قيمة أيسلند نتيجة لتطور وزيادة الخطوط الجوية المارة من غرب أوربا إلى أمريكا الشمالية والتى تمر بالقرب منها ، بل وتستخدم مطاراتها ، كما زادت أهمية الاسكا لقربها من الإتحاد السوفيتى وأقيمت المطارات وشقت الطرق .

الفصل الثانى . مساحة الدولة وشكلها

أولا : مساحة الدولــة

تضـم الأمـم المتحـدة اليـوم ١٨٥ دولـة ، كلهـا دول مسـتقلة ، ومـع ذلـك فهـى لاتضم كل الدول المستقلة ، فلم تنضم إليها سويسـرا متبعـة فـى ذلـك مبدأ الحياد رغم أنها كانت عضوا فى عصبة الأمـم ، ولـم تدخلهـا الصيـن الشعبية حتـى عـام ١٩٧١ بسـبب معارضـة الولايـات المتحـدة الأمريكيـة ، كذلـك لـم تدخلهـا منغوليـا ، فضـلا عـن الـدول القزميـة مثـل سـان مـارينو وأنـدورا ، ودولـة الفاتيكـان ، رغم أن بعضها يشـارك فـى بعـض نشـاطاتها ، وفـى نفس الوقت هنـاك جـزر مـالديف فـى (المحيـط الهنـدى) ذات المـوارد المحـدودة للغايـة بحيـث لايمكنهـا أن تسـهم فـى نشـاطات الوكـالات المتخصصـة للهيئـة الدوليـة .

وتختلـف المساحة مـن الـدول العملاقـة كروسـيا الإتحاديـة بمسـاحتها التـى تقدر بنحـو ٦٥٩٢ألـف ميل مربـع الى الفاتيكـان الـذى تبلـغ مسـاحته ⅙ ميـل مربـع والبرازيل والصين وكـل منها تزيد مساحته على ٣ مليون ميل مربـع وأكـبر دولـة تبلـغ نحـو ٢مليـون مـرة اكـبر مـن أصغـر وحـدة (باسـتثناء الفاتيكـان) وهـى سـان مـارينو ٣٨ ميـلا مربعـا . ويبلـغ متوسـط حجـم الوحـدة السياسـية نحـو ١,٠٤٠,٠٠٠ كيلـو مـترا مربعـا أو نحـو ٣٩٠,٠٠٠ ميـلا مربعـا أى حجم بوليفيا أو كولمبيـا أو مصـر ، والجـدول التـالى يبيـن أحجـام هـذه الـدول .

غير أننـا يجب أن نعـرف بـأن الـدول التى نراهـا علـى الخريطـة السياسـية اليوم لـم تظهـر فجـأة ، فقد نمت ببطء على مدى قـرون ، فكـل دولـة نمـت مـن نـواة صغيرة باضافـة أرض وسـكان جـدد ، والمنطقـة التـى بـدأت فيهـا الدولـة نموهـا ، يطلـق عليهـا أقليـم النـواة Core area أو النـواة المركزيـة Nuclear area وهـى لهـا بمثابـة القلـب ، وتتمـيز هـذه النـواة بأنهـا أكـثر أقـاليم الدولـة خدمـة بوسـائل النقـل ، فـلا توجـد نـواة لاتخدمهـا وسـائل النقـل سـواء كـانت شبكة كثيفـة تعتـبر هـى مركـز لاشـعاعها كمـا هـو الحـال فـى القـاهرة ولنـدن أو حتـى خـط حديدى واحـد أو طريـق نهـرى كمـا هـو الحـال فـى نـيروبى ، وكنشاسـا .

ولاتظهـر النـواة الا وظهـرت معهـا درجـة مـن الحضريـة اعلـى منهـا فـى بقيـة اجـزاء الدولـة ، احيانـا يشـغل نـواة الدولـة مركـز حضـارى ضخـم ، كمـا هـو الحـال فـى بـاريس ولنـدن ، وموسـكو ، والقـاهرة والخرطـوم ،

وأحياناتشغله عدة مراكز حضارية كما هو الحال فى شرق الولايات المتحدة الأمريكية أو غرب نيجيريا وتتميز منطقة النواة بأنها أكثر أجزاء البلاد تطورا من الناحية الإقتصادية ، لذلك قبل تحديد منطقة النواة يجب أن نعرف القطاعات الإقتصادية فى الدولة ، فقلب الأرجنتين مثلا لايتميز بتعدد المراكز الحضارية فحسب ، بل بسهل خصيب متسع غنى بقمحه وذرته وثروته الحيوانية فضلا عن إعتدال مناخه بينما نواة زامبيا اقليم تعدين النحاس ، وغالبا ماتضم النواة عاصمة البلاد ، وكثير مايلاحظ ايضا ، امكان تعدد النويات الثانوية كما هو الحال فى إيطاليا فهناك نواة حول روما ، وأخرى فى سهل البو فى الشمال ، وفى الولايات المتحدة الأمريكية هناك نواة الأقليم الشرقى ، وهناك أيضا نواة ثانية فى كاليفورنيا ونواة ثالثة فى ظهير خليج المكسيك [1].

أكبر سبع دول وأصغرها من حيث المساحة[2]:

أكبر سبع دول	المساحة بالالف ميل٢	أصغر سبع دول	المساحة بالميل٢
روسيا الأتحادية	٦٥٩٢	أندورا	١٧٥
الصين	٣٨٧٩	مالطة	١٢٢
كندا	٣٨٦٤	جزر مالديف	١١٥
الولايات المتحدة الأمريكية	٣٦١٥	ليختنشتين	٦١
البرازيل	٣٢٨٧	سان مارينو	٢٤
استراليا	٢٩٧١	موناكو	٥٩
الهند	١١٨٠	الفاتيكان	١٧

وكانت نواة الولايات المتحدة ، الثلاث عشرة ولاية الساحلية على الساحل الشرقى ، وتعتبر منطقة موسكو نواة روسيا الإتحادية ، ثم أتسعت بعد ذلك ، ولكن لابد من وجود رابط قوى بين المركز، او النواة،

[1] سنعالج نواة الدولة بشئ من التفصيل أثناء دراسة شكل الدولة .

[2]* نلاحظ أن المجموعة الأولى لاتزيد مساحتها على المليون ميل ٢ ، والمجموعة الثانية أقل من الألف ميل٢

والأطـراف ، وهـذا يتـم عـن طريـق شـرايين المواصـلات والإكـانت هـذه الأطراف عرضـة للاختطـاف من الدول المجاورة ، فألمانيـا مثـلا لأشـتراكها مـع دول عديـدة فـى الحـدود ، ولوجـود معظـم ثرواتهـا المعدنيـة علـى هـذه الأطـراف كـانت مـن أوليـات سياسـتها ربـط الأطـراف بـالقلب أى بـبرلين . كذلـك كـان إتحـاد الوجهيـن البحـرى والقبلـى نـواة مصـر، ومـدت فرنسـا حدودهـا من حـوض بـاريس علـى فترة طويلـة استغرقت مئـات السـنين ، كمـا كـان نـواة يوغسـلافيا مملكـة الصـرب . وهكذا يصبـح نمـو الدولـة أمـر طبيعيـا ، فكمـا قـال فردريك راتـزل بـأن الحـدود السياسـية للدولـة لايجـب أن ينظـر إليهـا علـى أنهـا نهائيـة ، فسـكان الدولـة يضغطـون علـى حدودهـا، محـاولين دفعهـا لتوسيع رقعـة دولتهـم كلمـا سـمحت الظـروف، فالدولـة أشـبه بالكـائن الحـى ، ومـن ثـم فنموهـا أمـر طبيعـى وضـرورى .

ولكبر المسـاحة وإتسـاع البلاد أهميـة كبـيرة وقـت الحـرب ، وتظهـر هـذه الأهميـة فيمـا يطلـق عليـه العسـكريون الدفـاع فـى العمـق Defence in Depth فالدولـة الصغـيرة المسـاحة لاتلبـث أن تنهـار بسـرعة فائقـة أمـام جارتهـا ، فقد إضطـر الجيـش الهولنـدى إلـى التسـليم بعـد أربعـة أيـام فقـط ، علـى حين أن الـروس كـانوا يتمتعـون بالدفـاع فـى العمـق ، فاسـتطاعو جـذب الجيـوش الألمانيـة لإسـتنفاد قوتهـا ، كمـا إسـتنفدوا مـن قبـل جيـوش نـابليون عـام ١٨١٢، فقد كـانت روسيا تسلم الأرض فـى سبيل ماتربحـه مـن وقـت ، كذلـك الحـال فـى جبهـة الشـرق الأقصـى ، حيـث إسـتولى اليابـانيون علـى المـدن السـاحلية ، ولكنهـم لـم يسـتطيعوا القضـاء علـى المقاومـة الصينيـة ، ذلك أن الصينيين هجـروا منـازلهم فـى شـرق الصيـن وإتجهـوا نحـو الغـرب ، ولاننسـى أيضـا أن إسـرائيل تحـاول جهدهـا أن تكـون مواقعهـا الحربيـة خارجهـا ، وأن تكون البادئـة بـالهجوم لأنهـا لاعمـق لهـا . ويجـب أن نشـير إلـى أنـه إذا كـانت المسـاحة الكبـيرة مقرونـة بعـدد كبـير مـن السـكان ، وإسـتغلت مـوارد الدولـة إسـتغلالا حسنا ، كـان معنـى هذا ظهـور هـذه الوحـدة السياسـية كقـوة ، فنظـرا لإتسـاع المسـاحة سـيتنوع المنـاخ ، وتنـوع المنـاخ معنـاه تنـوع غـلات ، كمـا أن إتسـاع المسـاحات قـد يضـم تكوينـات جيولوجيـة متعددة ، ومـا يتبعهـا مـن صخـور مختلفـة ، وبالتـالى معـادن متنوعـة ، وأبلـغ دليـل لدينـا روسـيا الأتحاديـة ، والولايـات المتحـدة الأمريكيـة ، فكلاهمـا ذو مساحة ضخمـة ، فروسـيا الأتحاديـة تمتـد مـن دائـرة العـرض ٣٥ شـمالا ، إلـى المنطقـة المتجمـدة ، وتمتـد الولايـات المتحـدة مـن مـدار السـرطان إلـى دائـرة العرض ٤٩° شـمالا .

وتتشـابهان أيضـا فـى أنـه بالإضافـة إلـى هـذه المسـاحة الواسـعة فكلاهمـا كتلـة متماسكة Compact ولـن توجـد فـى أيهمـا مشـكلة إكتظـاظ سـكانى ، أو

مشكلة أرض لمدة طويلة للغاية . فضلا عن أن كلاهما له مخارج محيطية شرقا وغربا ، ولم يعرف التاريخ قوة بهذه المساحة وهذه الصفات ، وهذه الإمكانيات الإنتاجية لسلع متنوعة داخل إطار وحدة سياسية واحدة ، ومن الواضح أن المجال متسع أمامها لكثير من التجارب الزراعية والصناعية . ونفوذ الولايات المتحدة فى الشئون العالمية ، هو مقياس لدرجة التقدم الذى أحرزته كل قوة فى تنظيماتها الداخلية ، ومقياس لإمكانياتها .

على العموم تتوقف المساحة المناسبة لأى دولة على العلاقات بين هذه المساحة والسكان ، فالإنسان هو صانع الدولة ، ولكن الأرض هى التى تمده بوسائل الحياة ، ولذلك فالمساحة المثلى هى التى تعول بكفاية هؤلاء السكان ، وقد يفيض الإنتاج ، فيكون هذا من عامل قوتها ، ولكن إذا كانت المساحة كبيرة بالنسبة للسكان تكون أشبه بالثوب الفضفاض ، وتظهر مشكلة الدفاع عن أراضيها كما هو الحال فى دولة مالى بمساحة نحو ١,٢٥مليون كم٢ وبسكان نحو ٩مليون نسمة ، وموريتانيا بمساحة تزيد عن المليون كم٢ وبسكان يزيد بنحو ٢ مليون نسمة ، كذلك تزداد مشكلات الإدارة حتى فى ظل وسائل الإتصال الحديثة ، وقد يؤدى هذا إلى ظهور الروح الإقليمية لعدم التجانس البشرى ، ويصبح من الصعب تنفيذ قوانين موحدة على جميع البشر وعلى جميع الولايات ، كل منها قد تكون لها ظروفها المناخية الخاصة ومن الجائز عاداتها ...إلخ ، كما فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وكندا ، والهند ، ونيجيريا ، والبرازيل ، من ثم كانت الفيدرالية هى علاج تتنازل فيه الإدارة المركزية عن بعض سلطاتها، مع الإحتفاظ بوحدة المظهر الخارجى وقد تمنح بعض الأقاليم حكما ذاتيا ، كما فعلت الصين بالنسبة لأربعة أقاليم ، وهى منغوليا الداخلية ، وسنكيانج ، والتبت على أطرافها الشمالية فضلا عن كوانجسى شونج فى الجنوب .

ثانيا : شكل الدولة

إن تماسك وإتصال أجزاء الدولة أو ظهورها ككتلة واحدة يعتبر من ميزاتها ، فكلما كانت ملتئمة كلما قصرت أطوال الحدود بالنسبة إلى المساحة . ومن الناحية النظرية البحتة يعتبر الشكل الدائرى مثاليا ، وخاصة إذا كانت عاصمتها تمثل مركز هذه الدائرة ، ويمكن معرفة الإنحراف عن هذا الشكل المثالى عن طريق عمل نسبة بعد الحدود

الحقيقية عن أقصر طول للحدود ، أى عن محيط هذه الدائرة ، فكلما كان الرقم صغيرا كانت الدولة أقرب إلى الشكل المثالى ، وكلما كان كبيرا كلما بعدت عن هذا

الدولة	أوراجواى	رومانيا	المجر	المكسيك	شيلى
٪ طول الحدود الى اقصر طول لها	١٠٥	١٣٧	١٤٦	٢٥٨	٣١٠

ويظهر الشكل المثالى على سبيل المثال فرنسا ، ورومانيا ، وسويسرا، والمجر كلها اشكال اقرب الى المثالية ، بينما تعتبر شيلى مثلا تقليديا للدول ذات الإمتداد الطولى الكبير ، إذ تمتد من الشمال إلى الجنوب مسافة ٣٩٠٠ ميل ، على حين أن عرضها قد لايتجاوز المائة ميل ، فاذا اضفنا الى هذا وجود جبال الانديز التى تزيد المواصلات تعقيدا وصعوبة، ادركنا ان مشكلة الدفاع فى مثل هذه البلاد من الصعوبة بمكان، كذلك الحال فى النرويج التى أمكن للألمان شل حركتها بالإستيلاء على المدن والموانى الساحلية ، التى تتحكم فى طرق المواصلات مع الداخل ، ولايمتد فى شيلى أو النرويج خط حديدى بطول الدولة بالكامل ، وإذا كانت النرويج يمتد فيها طريق طولى صالح طول العام فهذا مالايتوفر فى شيلى التى تعتمد بالدرجة الأولى فى تجارتها ونقل سلعها على السفن الساحلية ، كما اضطرت شيلى ايضا الى تخفيف التعريفة الجمركية فى الأقاليم المتطرفة شمالا وجنوبا ، كذلك كان لإستطالة تشيكوسلوفاكيا بالإضافة الى ظهور الحواجز الجبلية أثره فى صعوبة المواصلات ، وبالتالى كان من عوامل ظهور الروح الإنفصالية عند السلوفاك والتى أدت فى النهاية إلى إنقسام الدولة إلى دولتين تشيك وسلوفاك .

كما تعتبر الدولة غير مثالية الشكل حين تظهر فيها أجزاء منفصلة عن الكتلة الرئيسية ، فألمانيا قبل الحرب الثانية حين كان يشطرها الممر البولندى ، أو الباكستان التى كان يفصل شطريها عن بعضها مسافة ألف ميل بالبر ، بينما يبعد ميناء شيتاجونج عن كراتشى نحو ٣ آلاف ميل ، وكان هذا من عوامل ضعف الدولة ، وإنفصال باكستان الشرقية باسم دولة بنجلادش .

والأمثلة واضحة أيضاً فى خريطة أفريقية السياسية ، حيث جمهورية مالى التى تختنق فى الوسط وتترك على الجانبين كتلتين شبه منفصلين يسهل قطعهما نظرياً عن بعضهما البعض من الخارج ، أى من بوركينافاسو وموريتانيا ، كذلك الحال فى الصومال التى تمتد على هيئة

شكل 7 الأفرنجى فهى مفرطة فى الطول مما يضعف من التماسك الداخلى ، كما يمكن لاسفين أوجادين هرر الذى يتعمق فى الصومال شطر هذه البلاد الى شطرين ، وتكرر زامبيا صورة مالى ، كما تكرر موزمبيق صورة الصومال ، أما مالاوى فليست إلا اسفينا فى موزمبيق ، وفى جمهورية جنوب أفريقية نجد أن ، الترنسفال تمتد بعيداً الى الشمال ، حتى أنها تقع فى دائرة نفوذ مابوتو ، بينما خطط اصبع كابريفى فى جنوب غرب أفريقية خصيصاً ليصل الى الزمبيزى غرباً مما أدى الى أن تشرف عليه بتسواناالاند من الناحية الإدارية .

شكل رقم (٥) : شكل وموقع دول منتقاة

وكان من نتائج عدم الإنتظام فى أشكال الدول الأفريقية ، فرط طول حدودهما السياسية فتكاد حدود أفريقية السياسية (٢٩٠٠٠ ميلاً) تعادل كل حدود العالم الجديد او ضعف حدود أوربا (١٥٠٠٠ ميلاً) .

ولكن يجب أن نستدرك ونقول بأن المشكلات السياسية لاتتوقف على عنصر واحد فقط ، فهناك دول أجزاؤها متباعدة مثل نيوزلندا والدانمرك ومع ذلك لايظهر فيها عدم التماسك أو عدم الترابط الإجتماعي .

شكل رقم (٦) : ناميبيا نموذج غير مثالى لشكل الدولة

ثالثا : موقع العاصمة [١]

مما لاشك فيه أن دور العاصمة قد تغير كثيرا عما كان عليه فى الأزمنة الماضية ، فعندما نتكلم عن باريس كعاصمة لمملكة الكابيتيان فى فرنسا يجب أن نزيل من ذهننا أنها كانت تقوم بالدور الذى تقوم به لندن أو روما مثلا فى الوقت الحاضر ، فقد كانت الطاقة الإدارية للحاكم صغيرة وصعبة ، والأعباء الحكومية محدودة وكان الملك محاطا بوزارته وحاشيته ويعيش لنفسه متنقلا من ضيعة إلى أخرى ، وورائه حاشيته حاملين السجلات والأختام ، فالعاصمة فى ذلك الوقت كانت تتفق ومكان وجود الحاكم . على أنه كان لكل حاكم مكان مفضل ، فكان شرلمان يحب مسقط رأسه آخن ، وكان هذا المكان المفضل ينال عناية أكبر من سواه ، سواء فى بناء القصور والحصون أو الكنائس ، وذلك ان الملك كان يقضى معظم وقته فيه . ثم بدأت الأحوال فى التغير التدريجى، عندما لم تعد السجلات تتنقل وراء الحاكم ، ففى إنجلترا حفظت فى برج لندن ، وأختير قصر باريس المحصن لحفظ السجلات وأخذت الأعمال الحكومية تتركز فى العاصمة ، واخيرا كان

---

[١] رغم أن العاصمة ظاهرة بشرية ، رأيناً من الأنسب دراستها بعد شكل الدولة لأهمية موقعها فى الدولة من الناحية السياسية .

لظهور النظم الديموقراطية وإجتماع البرلمان فى العاصمة اثره فى تثبيت مكان ومكانة العاصمة .

وكان لتطور الدور الذى تلعبه الحكومة فى الوقت الحاضر ، وتعددوظائفها اثره فى الزيادة المطردة لأهمية العاصمة ، فقد ظهرت فيها أيضا الصناعات الخفيفة وصناعات الخدمات لمقابلة إحتياجات رجال الأدارة ، ومن ثم إزداد نموالعواصم ، غير أنها فى معظم الأحوال تكون العاصمة هى المدينة الأولى سكانيا فى الدولة ، فهناك خمس وعشرون دولة فى أوربا (باستثناء القزمية) ، وتعتبر العاصمة السياسة فيمالا يقل عن ثلاث و عشرين منها أكبرمدينة ، ويظهر الإستثناء فى حالة بلد كسويسرا حيث برن العاصمة الإتحادية تعتبر رابع مدينة ، وكذلك الحال فى بون التى إتخذت عاصمة لألمانيا الغربية . وتظهر حالات الاستثناء أيضا فى قارة آسيا ، فإستانبول العاصمة القديمة أكبر من أنقرة ، وفى الصين يحتل ميناء شنغهاى المكان الآول ، وتأتى بكين المكان الثانى. وفى أفريقيه نجد أن العاصمة ليست المدينة الآولى فى المغرب ونيجيريا وموريتاينا.

ويجب أيضا تذكر أن موقع العاصمة يبدو ذوى مغزى كبير . فمن ناحية الحماية والدفاع نجد الموقع المركزى مثالى ، ولعل مدريد ، برن ، وارسو ، أنقرة يمكن إعتبارها من العواصم المركزية ، ولكن اذا لم تكن الدولة ملتئمة تماما ، فان أختيار الوضع المركزى يكون امرا عسيرا ، فبرلين كان وضعها مركزيا فى وقت من الأوقات ولكنها الآن حتى بعد خروج جنود الإحتلال منها ، اصبحت متاخمة للحدود البولندية .

وعادة ما تكون عواصم الدول البحرية بالقرب من البحر أو على كثب منه، ولكنها فى الغالب تكون على خليج أو مصب خليجى ، فلندن على التيمز ، وطوكيو على خليج بنفس الإسم ، بل والإسكندرية كانت عاصمة مصر أيام الإغريق ، على العموم إذا كانت العاصمة على الساحل . أو هى منه على كثب فلا بد من أسطول قوى لحمايتها فقد سقطت أوسلو عاصمة النرويج عام ١٩٤٠ بسهولة عندما أبحر الأسطول الألمانى فى الخليج الذى تقع فيه .

لماذا تنقل الدول عواصمها ؟

وعندما تغير الدول وضع العاصمة فى الجهات الداخلية إلى موقع على الساحل ، فإن هذا معناه أولا ظهور مصالح بحرية لها أو تطلعها إلى الخارج ، وثانيا أنها تشعر بثقة تامة فى قواتها الدفاعية . وهذا واضح فى

حالة نقل العاصمة من موسكو إلى بطرسبرج (لينتجراد) فى وقت ما ، فقد كتب على روسيا أن ترى إمبراطوريتها تحكم لمدة قرنين من الزمان من عاصمة لم تعط إسما جديدا فحسب ، بل غرست فى أرض جديدة أيضا ، وكان نقل العاصمة من موسكو التى تقع فى قلب روسيا إلى بطرسبرج على ضفاف نهر نيفا على مرمى حجر من البلطيق نتيجة لرغبة الحكام فى أن تطل العاصمة على الخارج ، وتصلها تأثيرات المدنية الغربية . أما إذا نقلت العاصمة إلى الداخل ، فهذا معناه أنها تبحث عن الأمن والعزلة ، وهذا واضح فى تركيا عندما نقلت عاصمتها من إستنبول إلى أنقرة ، وروسيا من لينتجراد إلى موسكو ، فى حالة شيلى عندما نقلت عاصمتها من فالباريزو على الساحل إلى سانتياجو .

وقد يكون الغرض من نقل العاصمة هو تحويل الإهتمام نحو مناطق مهملة ، كما هو الحال فى نقل عاصمة البرازيل من ريودى جانيرو على الساحل إلى برازيليا فى الداخل ، لتنشط الأقاليم الداخلية وجذب الأنظار اليها ، وقد يكون النقل لأسباب إستراتيجية كنقل عاصمة باكستان من كراتشى على الساحل الى إسلام أباد فى أقصى الشمال بالقرب من مناطق النزاع الهندى الباكستانى ، مما يعكس أهمية الأقاليم الشمالية وإشعار الهند بان الحكومة هناك .

وعندما لايكون هناك تراث تقليدى أو تاريخ عتيق للدولة ، يصبح من السهل تغيير موقع العاصمة ، فعندما أختيرت مدينة واشنطن كعاصمة كان السبب فى إختيارها توسط موقعها بين ولايات الشمال وولايات الجنوب ، وفى حالة مثل كندا ، تحركت عاصمتها أكثر من مرة فكانت كويبك العاصمة الأولى ، تلتها مونتريال ، ثم أصبحت الآن أتاوا . وفى أستراليا كانت المنافسة بين ملبورن فى ولاية فيكتوريا وسيدنى عاصمة نيوسوث ويلز ، مما أدى الى اختيار كانبرا عاصمة لأستراليا وهى تقع فى مركز وسط بينهما .

ويؤدى تطرف العاصمة إلى صعوبة الضبط السياسى من ناحية ، وأضعاف قبضة هذه العاصمة على الأقاليم الهامشية والأطراف من ناحية أخرى ، فضلا عن حفظ التوازن بين أقاليم الدولة المختلفة لاسيما فى الوحدات الضخمة المساحة خاصة إذا كان النقل متخلفاً ، وإذا كانت العاصمة المتطرفة الموقع حديثة العهد ، فإنها تميل إلى أن تكتسب طابعاً إقليمياً أكثر منه قوميا ، فبحكم موقعها المتطرف غالباً مايتآلف سكانها من العناصر المحلية أو الإقليمية ، وهذا يجعل وضع العاصمة فى الدول المتنافرة السكان موضع جدل ومناقشة ، كما هو الحال فى العواصم

الأفريقيه ، الخرطوم مثلا ، البعض يذهب الى أنها متطرفة نحو الشمال ، بل إذا نظرنا إلى معظم العواصم الأفريقيه سنجد أنها متطرفة (تشاد ، مالى ، الجزائر ، تونس ، المغرب ، ليبيا ، تنزانيا ، أنجولا ، زائير ، جنوب أفريقيه وغيرها ، ويرجع هذا إلى أكثر من عامل ، منها أن المعمور والمناطق الآهلة بالسكان تجنح فى الغالب إلى طرف من الأطراف ، وبذلك تصبح العاصمة فى هذا الطرف أو ذاك كما فى حالة ليبيا ، فى وقت ما كانت هنا عاصمة مزدوجة فى طرابلس وبنغازى ، وكان هناك تناوب للعاصمة عامان لكل ، ثم وحدت فى البيضا ، فى ولاية برقة قبل الثورة ومع ذلك فالعواصم الثلاث فى المنطقة الساحلية ، كذلك الحال فى تونس والجزائر . وتميل عواصم دول الصحراء الكبرى إلى الجنوب ، ويرجع هذا إلى سقوط الأمطار الصيفية على حافة إقليم السفانا ، هكذا الحال فى نيامى وبماكو ، كما يرجع إلى العامل السياسى لأن الإستعمار يختار عواصمه عادة فى الجهات الساحلية لأنها فى نظرة وسط ! وسط بين المستعمرة من ناحية وبين الدولة المستعمرة من ناحية اخرى . والعواصم فى هذه الحالة كانت مواطئ الأقدام الأولى للمستعمرين ، هكذا الحال فى أقطار غرب أفريقيه بعامة ، وفى أنجولا والكنغو وموزمبيق ، ولايقتصر الأمر على الأقطار الأفريقيه ، بل يتعداه إلى القارات التى شهدت الإستعمار ، البرازيل مثلا بعاصمتها المتطرفة على الساحل ريودى جانيرو مثل آخر . وقد تحولت عن هذا الموقع الهامشى الى برازيليا فى الداخل ، كذلك الحال فى الهند بعاصمتها دلهى التقليدية التى تحولت الى ميناء كلكتا تحت الإستعمار البريطانى ، ثم رجعت مرة أخرى الى وضعها الطبيعى وهكذا .

عواصم متعددة :

ولابد هنا أيضا أن نشير الى العواصم المزدوجة للدولة الواحدة ، فالعاصمة كما هو معروف هى المدينة أو المركز الوحيد الذى تقوم فيه الحكومة بتأدية وظائفها ، قد يكون هناك توزيع وإنتشار الهيئات الادارية، ولكن الحكومة بوجه عام تكون مركزة فى العاصمة ، وهناك أمثلة أخرى لتعدد العواصم فى بعض الدول ، نذكر منها هولندا أو الآراضى المنخفضة ، حيث أمستردام العاصمة الإدارية ، والتى توجد فيها الإدارات الحكومية ومركز الملك ، بينما نجد البرلمان فى لاهاى ، كذلك الحال فى بوليفيا حيث تمثل بلدة Sucre الصغيرة العاصمة الرسمية ، ولكن الإدارة الحكومية فى مدينة لاباز ، وتتكرر الظاهرة فى جنوب أفريقيه مرة أخرى فنجد كيب تون مركز البرلمان وبريتوريا مركز الحكومة . ويبدو أن هذا الموقع أتخذ لارضاء القوميتين الإنجليزية

والهولندية ، فكيب تون هـى أكـثر مـدن جنـوب أفريقيـه نطقـا للإنجليزيـة ، بينمـا بريتوريـا تمثـل معقـلا رئيسيا للبويـر .

وقبـل أن ننهـى الكـلام عـن العواصـم ، يمكـن أن نشـير إلـى أهميـة العاصمـة فهـى واجهـة الدولـة ، ومـن ثـم تنـال عنايـة أكبر مـن غيرهـا بكثـير ، ويكفـى أن يمتـد البصـر مـن ناطحـات السـحاب فـى بعـض دول أمريكـا اللاتينيـة لـترى أكـواخ الصفيـح ، وكمـا قـال ويتسـلى عـن أديـس أبابـا " إنهـا قنـاع يخفـى وراءه بقيـة أثيوبيـا " . وتتعـدى العاصمـة كونهـا مركـزا إداريـا وتشـريعيا للدولـة ، فالعاصمـة هىالتـى تسـتقطب الشـعور القومـى للآمـة ، وهـى ربـاط عنـاصر الآمـة المختلفـة ، وتمثـل رمـزا شـبه مقـدس لديهـم ، وتتضـح أهميـة العاصمـة كمركـز للآمـة فـى نقـل العاصمـة أحيانـا مـن المنـاطق الهامشـية الـى الداخـل لتكـون أكـثر تمثيـلا للدولـة ، أنقـرة بـدلا مـن إسـتانبول ، موسـكو بـدلا مـن بطرسـبورج ، كذلـك رغبـة البرلمـان الآلمـانى فـى نقـل عاسـمة المانيـا الغربيـة الـى برليـن بـدلا مـن بـون ، كمـا تبـدو أهميـة العاصمـة فـى انهيـار معنويـات الشـعب اذا مـا سقطت فـى أيـدى الآعـداء .

برلين عاصمة دولة ، ثم ربع دولة ثم عاصمة للدولة

كـانت برليـن قائمـة حتـى من قبل التـاريخ الرسـمى لإنشـائها ، حيـث كـانت قويـة علـى ضفـة نهـر شبرى ثـم فـى ٢٨ أكتوبـر سـنة ١٢٣٧ وقعـت وثيقـة "ترقيتهـا" إلـى مستوى مدينـة . وأعتبر هـذا اليـوم هـو يـوم إنشـائها ..

ويقـال أن إسـمها مشـتق مـن الكلمـة الألمانيـة **Beur** التـى تعنـى " الـدب ". وأن هذا هـو السـبب فـى أن رمـز مدينـة برليـن هـو الـدب .

فـى عـام ٢٠٠٠ تصبـح برليـن هـى العاصمـة " الأبديـة " لألمانيـا وحتـى عـام ١٩٤٥ كـانت برليـن هـى العاصمـة " الأزليـة " ، وفـى الفـترة مـابين ٤٥ إلـى ١٩٨٩ كـان نصـف برليـن عاصمـة لربـع ألمانيـا (ألمانيـا الشـرقية) .. ونصفهـا الآخـر الغربـى لاعاصمـة .

وعندمـا إنقسـم العـالم إلـى معسـكرين وإنقسـمت ألمانيـا إلـى دولتيـن ، إنقسـمت برليـن أيضـا ، وأقـام الشـيوعيون بيـن القسـمين سـورا بـالطوب والأسـمنت أمامـه سـور مـن الأسـلاك الشـائكة ، وخلفـه سـور مـن موانـع الدبابـات . ثـم سـور مـن الكشـافات .

وحـاول بعض الألمـان القفـز عـبر هـذا السـور المركـب ، ونجـح بعضهـم ، وفشـل البعـض الآخـر ، ولقـوا مصرعهـم برصـاص الحـرس الشـيوعى ،

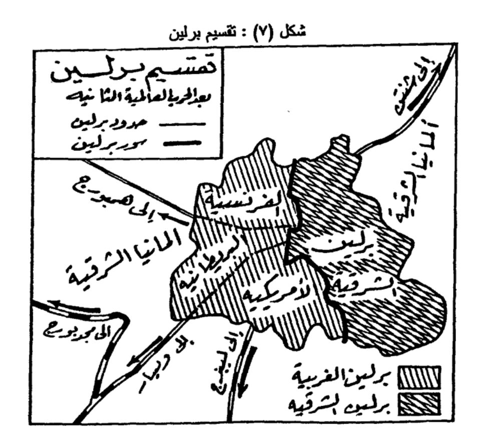
وإعتبرهم الجانب الغربى شهداء ، وقال عنهم الشرق أنهم خانوا مبادئ ونظرية المفكر الألمانى كارل ماركس .

ولما بلغت الحرب الباردة ذروتها قرر " السوفيت " خنق مدينة برلين الغربية ، وقطعوا عنها قوافل الزاد والمؤن لمدة ١١ شهر ، ولكن المدينة المضينة لم تمت ولم تهتز .. وإنما إرتبطت بجسر جوى مع الحلفاء الذين أفاضوا عليها الطعام والشراب والمشاعر الجياشة . وأصبحت برلين رمزا للصمود . كما كانت رمزا للإنقسام ثم رمزا للوحدة .

واقترع برلمان ألمانيا عقب إعادة توحيدها عام ١٩٩٠ بأغلبية ضئيلة على قرار نقل العاصمة من بون وإعادتها إلى برلين ، ولكن القرار لم يحدد فى ذلك الوقت الموعد الذى يتم فيه هذا النقل .. إلى أن جاءت الحكومة الإئتلافية فحددت هذا الموعد بأنه عام ٢٠٠٠ .

وخلال حقبة العشرينات من هذا القرن كانت برلين عاصمة الثقافة فى أوربا ، وكان يطلقون على هذه الحقبة إسم الحقبة الذهبية . وقبل التقسيم كان ميدان " بوتسدام " هو قلب المدينة ، وكان يطل على هذا الميدان البيت الذى عاش فيه هتلر فى أيامه الأخيرة . وتحت البيت كان يوجد فندق أو مخبأ يختفى فيه من الغارات الجوية للحلفاء ، وفى هذا المخبأ تجرع السم بعد أن أدرك أن الهزيمة محققة .

شكل (٧) : تقسيم برلين



معـارضون :

وقد أثار قرار نقل العاصمة إستياء أهالى بون الذين قالوا أن إجراءات النقل ستتكلف نفقات باهظة فى وقت يعانى إقتصاد ألمانيا من الركود بعد التكاليف التى تكبدها فى إعادة التوحيد ، فضلا عن أن هذا النقل سيضر بالوضع الإقتصادى والسياسى لمدينة بون . وقال المعارضون أيضا أن هذا الإنتقال سيقوى من النزعة القومية المتطرفة لدى اليمين الألمانى ، وأن برلين لم تعد مدينة محبوبة من العالم منذ أن أصبحت عاصمة للقياصرة الذين أججوا معارك الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، ثم عاصمة لهتلر الذى أشعل الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ، ثم أصبحت المدينة التى تفجرت منها الحرب الباردة .

مؤيـــدون :

وقال المؤيدون لقرار النقل أن برلين هى العاصمة الطبيعية لألمانيا بعد إعادة توحيدها ، وأن هذا النقل يسهل إدماج القطاع الشرقى من ألمانيا المتخلف إقتصاديا والذى يضم برلين فى القطاع الغربى من ألمانيا، الأكبر والأقوى ، ويوفر ٥٥ ألف فرصة عمل جديدة .

ولايزال موضوع هذا النقل واحدا من أهم القضايا الحساسة التى تمس مشاعر الشعب الألمانى فى الشرق والغرب .

وفى صيف عام ١٩٦١ عندما بنوا سور برلين تعمدوا أن يمر السور فى وسط هذا الميدان التاريخى ، فأصبح هذا الميدان أيضا مقسما بالحائط الأسمنتى والأسلاك الشائكة وعلى الجانبين أحجار متناثرة وحشائش نمت شيطانيا . والآن بعد هدم السور الذى كان يبلغ طوله ١٥٥ كيلو مترا ، وكان يحيط ببرلين الغربية إحاطة كاملة ويعزلها عن كل ماحولها ، وبعد هدمه لم يبق منه إلا جزء أثرى طوله أربعة كيلو مترات ، تحول إلى معرض لمجموعة من اللوحات والرسوم التى أبدعها الفنانون الألمان للسخرية من النظام الشيوعى السابق فى شرق ألمانيا , ومن رئيس هذا النظام الذى قال فى آخر تصريح له قبل سقوطه " إن هذا السور سيستمر مائة سنة أخرى "!

وهناك ١٩٠ ألمانى (شرقى) لقوا مصرعهم وهم يحاولون الهروب من فوق السور أو من تحته عن طريق أنفاق حفروها بأظافرهم . كما أن هناك مئات آخرين أمسكت بهم السلطات الشيوعية وهم يحاولون الهرب ووضعتهم فى السجون ... وهم يعتبرون الآن أبطالا مناضلين .

رابعا : النـواة أو قلب الدولـة

النـواة بين الجغرافـى الإقتصـادى والجغرافـى السياسـى :

من المعـروف أن كل إقليـم لـه نواتـه ، وكذلـك كـل دولـة كمـا سـبق أن ذكرنـا ، واذا كـان مـن الصعـب إعطـاء تعريـف لهـذه النـواة ، إلا أنـه يمكـن القـول بأنهـا قلبـه ، ومركـز الجـذب الرئيسـى فيـه ، فـأقليم لنـدن هـو نـواة إنجلـترا ، وبـاريس قلـب فرنسـا ، والقـاهرة الكـبرى قلـب مصـر وهكـذا ، ولكـن الصعوبـة تظهـر حيـن يبـدأ الإنسـان بتحديـد أبعـاد هـذه النـواة علـى الخريطـة سـواء علـى مسـتوى الدولـة أو حتـى القـارة ، فمـا هـى المسـاحة الداخلية فـى النـواة ؟ ومـا هـى الخارجـة عنهـا ؟ يذهـب البعـض إلـى أنهـا الإقليـم ذو الإنتاجيـة المرتفعـة ، وبالتـالى تصبـح النـواة هـى ظـاهرة إقتصاديـة، وبالتـالى يمكـن تعريـف النـواة بأنهـا إقليـم محـدد ، يتمـيز بنشـاط إقتصـادى فـائق ، وبمـدن تضـم أعـدادا كبـيرة مـن السـكان ، وهـذا التحديـد لاشـك يقتنـع بـه الجغرافـى الإقتصـادى ، ولكـن قـد لا يقتنـع بـه الجغرافـى السياسـى ، أو متخصـص الجغرافيـة التاريخيـة ، فـالجغرافى السياسـى يذهـب إلـى القـول بأنـه إذا كـانت النـواة فـى داخـل الدولـة ذات الحـدود السياسـية ، فـإن النـواة السياسـية لابـد وأن تضـم العاصمـة بداخلهـا بوظائفهـا المختلفـة ، وبمشـاعر السـكان العاطفيـة نحوهـا ، وفـى الحـق أن العواصـم فـى معظـم الأحـوال تقـع فعـلا ضمـن النوايـات ، وإن كـان هنـاك إسـتثناء ففـى بعـض الأحيـان تظـل العاصمـة التاريخيـة كشـاهد علـى أمجـاد تاريخيـة ، ولكنهـا فـى الوقـت الحـاضر تقـع فـى الظـل بالنسبة لإقليم صنـاعي جديـد ، قـد يكـون بعيـدا عنهـا ، ويضـم مدنـا كثيفـة السـكان تنـافس العاصمـة فـى كـل شـئ ، مـاعدا إرتباطهـا بـالتراث السـابق ، فـى إيطاليـا لاشـك أن أقليـم حـوض البـو ، وميلانـو حيـث النشـاط الزراعـى يمثـل هـذه الحالـة ، ولكنـك إذا بحثـت عـن قلـب وروح إيطاليـا لاشك سـتتقدم رومـا علـى ميلانـو .

النـواة فـى أوربـا :

إذا انتقلنـا إلـى مسـتوى القـارة الأوربيـة ، سـنجد أن هنـاك الأقليـم النـواة علـى مستوى القـارة ، بعكـس الحـال فـى أفريقيـه ، وأمريكـا اللاتينيـة حيـث لاتوجـد نـواة واحـدة ، ولعـل السـبب الرئيسـى فـى طبيعـة النـواة الأوربيـة المتماسكة أو المتصلـة ، هـو التقـارب بالنسـبة للأقـاليم المنتجـة ، بحيـث تكـاد تلتحـم ، ولكـن الـذى لايقل أهميـة هـو وجـود شبكات متقدمـة مـن المواصـلات، واسـتعملنا صيغـة الجمـع لأن هنـاك الطـرق والسـكك الحديديـة والمجـارى

المائية ، وكل منها تكون شبكة قائمة بذاتها تخدم النواة ، وتربط بين أجزاء النواة المختلفة ، كما لايحدث فى أى أقليم آخر فى العالم .

وعندما أصبح هناك حاجة لنقل الفحم والحديد ، دخل التحسين والتطوير على المجارى المائية ، ومع أقليم الرور كأقليم صناعى ، تحول نهر الراين إلى طريق مائى كثيف الحركة ، كأى طريق برى تتكثف شاحناته ، وتطورت شبكة الخطوط الحديدية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وبالتالى انخفضت تكاليف النقل البرى ، وازداد تطوير هذه الشبكات فى القرن العشرين ، بحيث اصبح لايوجد مكان فى هذه النواة الأوربية يبعد بأكثر من عشرة أميال عن أقرب خط حديدى ، بإستثناء بعض مساحات بسيطة فى جبال الألب ، وفى الحقيقة إن شبكات الخطوط الحديدية تعتبر من مظاهر الحضارة الغربية ، لدرجة أن يقاس تأثير الحضارة الغربية على الجهات الأخرى من العالم أحياناً بمدى دخول الخطوط الحديدية فيها ، كما لايوجد إقليم فى العالم كله ينافس غرب أوربا فى كثافة الخطوط الحديدية ، وتسهيلات النقل عليها سوى شمالى شرقى الولايات المتحدة الأمريكية .

هكذا تكاثفت الطرق وتقاربت فى أوربا الغربية ، ولكن ليست على النظام الأمريكى ، حيث تتميز بالضخامة والإتساع **Highway** ، لان الأخيرة حين مدت ، كانت فى أراضى مخلخلة السكان ، عكس غرب أوربا الكثيف السكان ، فعصر الطرق المتسعة الضخمة بدأ بعد الحرب العالمية الثانية .

<u>مميزات النواة فى غرب أوربا :</u>

ومما يميز منطقة النواة أيضاً فى غرب أوربا ، بالإضافة إلى شبكة النقل الكثيفة التى تربط بين أجزائها ، هى درجة الحضرية العالية هنا ، عكس الحال مثلاً فى أوربا الإسكندنافية أو أوربا الشرقية ، أو أوربا البحر المتوسط ، فنحو ثلاثة أرباع سكان هذا الإقليم الذى يضم بريطانيا وفرنسا وألمانيا الغربية والأراضى المنخفضة وشمالى ايطاليا يعيش فى مدن يزيد سكانها على الثلاثين ألفا وما يزيد على ثلثهم يعيش فى مدن يزيد سكانها على مائة ألف . وطبقاً للإحصاءات الرسمية للدول المختلفة يتضح أن مايتراوح بين ٣/٢ ، ٤/٣ السكان يصنفون على أنهم من أهل الحضر .

وبالنسبة لباريس نجد أن موقعها ووسائل النقل التى تشع منها ، حولتها من بؤرة لإقليم محلى وهو حوض باريس ، إلى عاصمة ونواة للدولة

بكاملها ، مما مكنها من البقاء ومن الإحتفاظ هى وإقليمها بمكان الصدارة، كذلك الحال فى لندن قامت نفس العوامل لتأهيلها لهذه الوظيفة، من مستوطنة صغيرة أيام حكم الرومان ، تطورت هذه المدينة ذات الوضع الإستراتيجى الى أكبر مركز عالمى لا فى بريطانيا فحسب ، بل فى العالم أجمع فى فترة التوسع الأوربى ، ويضم إقليم النواة فى بلجيكا بروكسل وميناءها أنتورب ، وهذا الأقليم لايبعد كثيراً عن الإقليم الصناعى فى شمال شرقى فرنسا والى الشمال من إقليم النواة البلجيكى تستمر التنمية الحضرية والصناعية مع نمو المجتمع الحضرى لهولندا فى مثلث أمستردام ، روتردام ، لاهاى ، ثم عبر الحدود البلجيكية الهولندية فى ألمانيا ، تظهر مجموعة المدن الكبرى فى حوض الرور المجمع الصناعى الرئيسى فى القارة ، كما يتجمع العديد من المدن بالقرب الحدود الفرنسية فى السار واللورين فى مثلث رؤوسه شتوتجارت ، ساربروكن ، فرانكفورت ، وفى كل منها مالايقل عن نصف مليون نسمة، كذلك الحال فى حوض البو شمال إيطاليا ، حيث توجد مجموعة من المراكز الحضرية بما فيها ميلانو (٣ مليون) ، وتورينو (١,٥ مليون) .

هكذا نجد فى إقليم النواة الأوربى نمو المدن فى إتجاه بعضها البعض لدرجة أن بعض الجغرافيين يتنبأ بأن غرب أوربا سيتحول بعد وقت ليس ببعيد إلى إقليم حضرى كبير ، ففى الماضى حين كان الإنسان ينتقل بالسكك الحديدية من رود تردام إلى لاهاى ، كان القطار يعبر الحقول والمراعى بينهما ، ولكننا بالكاد الأن بمجرد عبورنا ضواحى رود تردام حتى تظهر لاهاى الحديثة فى الأفق ، ومرّ وقت كانت كل مدينة فى أوربا لها ظهيرها ، منه تستمد حاجتها الغذائية ، وفيه تصرف سلعها دون منافسة من أى مدينة أخرى بنفس حجمها وطاقاتها ، ولكن هذه العزلة الحضرية قد إختفت من أوربا المعاصرة ، وأصبحت هناك أقاليم تضم مدناً يتشابك ويختلط فيها الظهير ، فتصبح النتيجة التى لامفر منها ، أن مثل هذه المدن لن يقدر لها البقاء ، إذا استمرت فى إعتمادها على التبادل مع ظهيرها المباشر ، وهذا ينقلنا الى المظهر الثالث للنواة الأوربية وهو التخصص .

والتخصص هو السمة الرئيسية للإقتصاد الأوربى وخاصة النواة ، ولايقتصر على ميدان الصناعة ، بل تعداه الى الزراعة ، وهذا ناتج عن المنافسة المتزايدة على الأسواق والموارد ، فببساطة من أجل إنتاج السكاكين لن يكون أمراً سهلاً امام إى دولة أخرى منافسة السويد من السكاكين التى لاتصدأ ، كذلك من يحاول إنتاج أدوات المائدة الفضية سيتعرض للمنافسة الشديدة من منتجات شيفلد ، ومن ثم فمن الأربح القيام

بإنتاج من نفس النوع ولكنه متميز ، منفرد بحيث لايمكن منافسته ، أو إنتاج نوع آخر لايمكن لإقليم آخر أن ينافسه فيه ، وفى الحقيقية من السهل ذكر مجموعة من المنتجات الأوربية التى إرتبطت بأقاليم معينة ، بدءاً من الخمور الى الساعات ، والسيارات ، والأثاث ، وإذا ما ذكرت المخرمات (الدانتلا) فى أوربا تذكر معها بلجيكا ، والمنسوجات من مانشستر ، والسردين من البرتغال ، هى نماذج للإرتباط التاريخى بأقاليم معينة ، وقد بدأ هذا الإرتباط حتى قبل الأنقلاب الصناعى ، وهكذا بدأت هذه المدن تقوم بوظائف معينة فى داخل إطار الإقتصاد الأوربى مما وصل بها الى مرحلة التخصص الوظيفى **Functional Specialization** ، وشاهدت العقود التى أعقبت الثورة الصناعية درجات متزايدة من التخصص الوظيفى فى أوربا ، وبصورة أوضح فى نواة أوربا ، وكان من نتائج هذا التخصص هو الإعتماد الكبير على أستيراد المنتجات لبعدها عن الإكتفاء الذاتى ، فصناع المنسوجات فى بريطنيا أعتمدوا على لحوم الدنمارك وبيض هولندا ، وأعتمد صناع الساعات فى سويسرا على الألات القاطعة التى تنتجها ألمانيا من الصلب ، وأستورد صناع الصلب فى فرنسا الفحم من ألمانيا ، وأستورد صناع الصلب فى ألمانيا خامات الحديد من السويد ، وبالتالى زاد الإعتماد المتبادل ، وعدم الإعتراف بالحواجز التى تقيمها الحدود السياسية .

وإقتضى التخصص ضرورة وجود المهارات والتكنولوجيا ، وقد طورت الدول نفسها فى هذا السبيل ، تضم غرب أوربا بالذات أكبر تجمع من الأيدى العاملة الماهرة ، والتى يمكنها أن تستوعب التكنولوجيا بسرعة ، وكان هذا من العوامل التى جعلت غرب أوربا ينتهى بسرعة من كبوة الحرب العالمية الثانية .

ويظهر التخصص فى ميدان الزراعة ، بل والصيد ، فالبرتقال الأسبانى ، والليمون الصقلى ، والخضروات الهولندية ، كلها تجد أسواقا فى دول النواة ، ناهيك عن السمعة العالمية لرنجة النرويج ، ولكن كما هو متوقع فى تجمعات سكانية فى مساحات ضخمة ورغم الإنتاجية العالمية للزراعة وتربية الحيوان ، كان لابد من الحصول على الموارد الغذائية من خارج القارة : القمح والذرة واللحوم وسكر القصب ، وإن كانت هناك شبه كفاية من منتجات الألبان والبطاطس والشيلم أساس الصناعة والخبز فى بعض الدول كألمانيا وبولندا .

الفصل الثالث : المظاهر الطبيعية

لايمكن أغفال المظاهر الطبيعية فى الجغرافية السياسية ، فالعلاقة بين سكان الدولة وأراضيها لايمكن فهمها الا بعد التعرف التفصيلى على كل منها . وعادة ماتكون نسبة الخطأ فى الدراسات الطبيعية أقل من الدراسات الإنسانية ، لأن للأولى صفة الثبات ، فالأرض التى تحتلها الدولة تغييراتها عادة أبطأ من تغيرات البشر الذين يعيشون عليها ، وكلنا نعرف أن أى اطار طبيعى توضع فيه الدولة ، ما هو الا نتيجة تفاعل العوامل المتعددة ، كل منها يعالج على حدة للتعرف عليه بدقة ، وإن كانت تتجمع وتتفاعل لتعطينا فى نهاية الأمر مسرحاً مجهزاً يعيش عليه الإنسان .

أولاً : البناء الجيولوجى والتضاريس :

فجيومورفولوجية الدولة ما هى الا البناء الجيولوجى بعد تاريخ جيولوجى طويل عدلته الظروف الطبيعية ، والأنهار التى تجرى فى الأقليم يمكن إعتبارها ظاهرة طبيعية ، ولكنها من حيث السرعة والإتجاه ترتبط بنوع الصخور التى تجرى فيها . وليس من شك أن الدراسة الطبيعية التخصصية خارجة عن نطاق الجغرافية السياسية ، ولكن الإحاطة بها تساعد على تفهم المظاهر الطبيعية فى علاقة المجتمعات بالأرض ، فعلى سبيل المثال ، البناء الجيولوجى يستحق عناية الجغرافية السياسية لعدة أمورمنها : التعرف على موارد الدولة المعدنية ، فهذه من أهم دعائم قوة الدولة ، والبناء الجيولوجى أيضا مسئول عن سهولة الوصول إلى المعادن أو صعوبته .

الأمر الثانى أن البناء الجيولوجى مسئول عن الخطوط العامة لتضاريس سطح الأرض بالأضافة إلى عوامل التعرية ، فالتضاريس تلعب دورا كبيرا فى الدولة ، فالسهول تصلح لقيام نويات الدول ، بينما المناطق الجبلية كثيرا ما تكون غنية بالمعادن أو القوى المائية والأخشاب، إذا إستغلها الإنسان ، كانت مصدر قوة إقتصادية عظيمة للدولة . كما أنه يمكن القول أيضا أن الوحدة السياسية يسهل تحقيقها فى الأرض السهلية عن المناطق الجبلية . فكثير من الأجزاء الجبلية يعانى خلخلة فى السكان، إذ أن السكان يتجمعون فى الأودية ، بينما يتبعثرون فى الجبال، ولايسهل بينهما إتصال ، بحيث تصبح الوحدة هى العشيرة ، إن تطورت كانت كانتونا أو ولاية وإذا إتحدت هذه الكانتونات فإنها لا تكون دولة واحدة إلا بعد مرحلة كبيرة من التقدم السياسى ، كما هو الحال فى سويسرا .

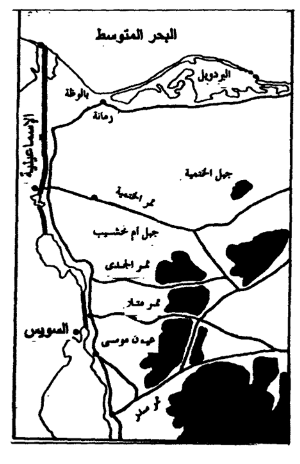
ويمكن القول أيضا أن الإنتقال والتحركات البشرية تكون أيسر فى السهول عنها فى الجبال ، وبالتالى يتسع نطاق النشاط التجارى والثقافى ولكن هذه النطاقات السهلية التى تمنح التسهيلات ، وتشجع على النمو ، وعلى التوسع من جانب كل وحدة سياسية مجاورة ، تخلق بالتالى حالة من المنافسة ، من ثم تبذل كل دولة فى السهول جهودا كبيرة للإحتفاظ بحدودها .

ولعل السهولة التى تتوسع بها الدولة القوية فى هذه السهول ، هى إنعكاس لما نراه على الخريطة السياسية ، من أن السهول إما أن تتجمع فى وحدة سياسية واحدة ، مثل السهول الروسية ، تمثل أول منطقة نزاع بين الدول المتنافسة . ولعل المثل الأول واضح فى حالة السهل الروسى الذى يدخل ضمن روسيا الإتحادية بينما يتضح المثل الثانى فى السهل الأوربى كمنطقة نزاع دائم بين الدول التى تحتله ، والوحدات السياسية التى تعيش فى هذا الميدان تعيش فى خوف دائم من الإعتداءات الخارجية، وبالتالى يؤثر هذا على تنظيمها الداخلى . هذا على عكس المناطق الجبلية ، التى تعطى تسهيلات دفاعية كبيرة للغاية ، ويمكن للدولة أن تؤمن على نفسها إلى حد كبير ، وإن عانت بعض العزلة السياسية والإقتصادية ، وليس من شك أن سهولة الإدارة ودرجة الوحدة فى داخل الدولة تتأثر بطبيعة أرضها ، وصعوبة الإنتقال ، فعلى سبيل المثال تظهر إكوادور على الخريطة السياسية وكأنها دولة ملمومة ، متوسطة الحجم ، ولكنها فى حقيقة الأمر تنقسم إلى ثلاثة أقسام .

السهل المطل على المحيط الهادى ، سلاسل وهضاب الإنديز ، والسهول المنحدرة إلى الأمازون فى الداخل ، ولم تكن هذه الأقاليم يوما ما متكاملة ، فسهول الأمازون صعب الوصول إليها كما أنها مخلخلة السكان ، بينما تختلف سهول المحيط الهادى عن الجبال ، مناخا وسكانا ، إذ يسكنها الهنود الحمر والمستيزو (المخلطون) ، كما أن وسائل النقل صعبة للغاية على حين لاتوجد سوى الأنهار وسيلة من وسائل الحركة فى سهول الأمازون الكثيفة الغابات ، لذلك فقد إستطاعت دولتا كولومبيا وبيرو إقتطاع أجزاء منها .

وتؤثر التضاريس فى إتجاه وسائل النقل ، ففى ويلز من الصعب مد الخطوط الحديدية من الشمال إلى الجنوب بسبب الكتل الجبلية ، ولذلك فالخطوط الحديدية تمتد فيها من الشرق إلى الغرب متتبعة الأودية ، ومن المعروف فى بريطانيا أنه أسهل لسكان ويلز إذا أرادوا الإجتماع ببعضهم أن يتم هذا الإجتماع فى إنجلترا عنه فى ويلز .

وللتضاريس أثرها فى تعيين خطوط تقدم الجيوش وإنسحابها ، فحيث ترتفع الأرض تصبح من الوعورة بمكان بحيث يصعب على الجيوش عبورها برا ، تظهر أهمية الممرات التى تفصل الكتل الجبلية عن بعضها، وتصبح هذه المضايق محاور للتحركات الحربية كما هو الحال فى ممرات الختمية والجدى ومتلا وسدر فى سيناء ، وكما هو الحال فى ممرى خيبر وبولان بين باكستان وأفغانستان . وللتضاريس أثرها فى تعيين التكتيك والأسلحة التى تستعمل فى الميدان فسهول روسيا الفسيحة وصحارى شمال أفريقية وسيناء الرملية تعتبر ميدانا جيدا لإستعمال الدبابات والمدرعات ، بينما مرتفعات النيروبج وجبال الآلب لايصلح فيها إستعمال المدرعات ، وكشفت التجارب العسكرية فى الحرب العالمية الثانية إختلاف التكتيك فى كل ميدان بحسب طبيعة الأرض ، فإستخدم الألمان أسلوب الإنزال الجوى على جزيرة كريت الجبلية ، كما طور الحلفاء أسلوب حرب العصابات فى المناطق الجبلية فى اليونان ، ويوغسلافيا سابقا ، وإيطاليا ، مما أضطر معه الألمان إلى حشد ٢٢ألف جندى لمجابهة خمسة آلاف وخمسمائة جندى من رجال العصابات .



شكل رقم (٨) : الممرات فى شبه جزيرة سيناء

وللتضاريس أثرها فى تخطيط الحدود السياسية ، فإذا قلت المعالم المورفولوجية البارزة التى يمكن إتخاذها كنقاط مرجعية للحدود ، تسود الحدود الهندسية كالخطوط المستقيمة والأقواس والخطوط الفلكية كخطوط الطول والعرض ، وليس من شك أن الحدود السياسية العربية وجزء كبير من الحدود السياسية الأفريقية تنتمى لهذا النوع ، ومثل هذه الحدود الخطية لاتعبر إلا عن القوة النسبية للقوى الأوربية التى قامت بتعينها ، أى مناطق نفوذها فى إطار مايسمح به من

التوازن القائم بينها مثل حدود مصر مع فلسطين ، منطقة الحدود الليبية المصرية - الحدود المصرية السودانية على حين تستغل المظاهر المورفولوجية البارزة فى تعيين الحدود كما هو الحالى فى الحدود الهندية الصينية ، الحدود بين شيلى وأرجنتين وهكذا .

ثانيا : الأنهار :

وأهمية النهر للدولة تعتمد فى جزء كبير منها على طبيعة وادى النهر نفسه ، وكذلك على الظروف الطبيعية للأراضى القريبة منه . فقبل أن يعرف الأنسان كيف يقيد ويسلسل الأنهار ، كانت هذه مقبولة كحد سياسى بين الدولة ، وذلك لسهولة تمييزها من ناحية ، ثم لإنها هى والسهل الفيضى الذى حولها تكثر فيها المستنقعات من ناحية أخرى . من ثم أصبحت وظيفتها دفاعية ، فكانت الأنهار تقوم بوظيفة الفصل بين الوحدات ، ولكن الأنهار هى وأوديتها تعطى طرقا سهلة للتحركات البشرية ، حتو ولو جرى النهر فى منطقة سهلية بحيث أن التحركات فى داخل الدولة كانت تتبع الخطوط النهرية قبل ظهور السكك الحديدية ، وحتى بعد ماأصبحت السكك الحديدية وسيلة عالمية للمواصلات ، نجد أن الذين يمدون الخطوط الحديدية يتبعون أسهل الإنحدارات وأكثرها تدرجا، ولن يجدوا خيرا مما تقدمه أودية الأنهار من تدرج ، وبذلك تثبت الأنهار مرة أخرى أنها عامل وصل قبل أن تكون عامل فصل .

ليس من شك إذن ، أن الأنهار كانت من وسائل التقدم البشرى ، حيث أنها كانت تتبعها الهجرات فى كثير من الأحيان ، فلقد كان سانت لورانس والمسسبى هما المحوران التى إمتدت على حولهما الممتلكات الفرنسية فى أمريكا الشمالية ، إذ توغل المستكشفون الفرنسيون إلى داخلية القارة بفضلها ، وكانت مناطق عبور الأنهار قبل بناء الكبارى من الأهمية بمكان ، حتى أن أكثر المدن ترجع فى نشأتها لصلاحية النهر كمكان للعبور عندها ، ثم أخذت فى النمو بعد ذلك وفى بعض الأحيان نمت المدن على جزيرة فى النهر ، لأنها تتمتع بميزتين : عامل الحماية من ناحية ، وأهميتها العبورية من ناحية أخرى ، وباريس مثل حى وبارز على مدن الجزر .

غير أن الأنهار أحيانا ما تكون عامل فصل ، وتصبح من الأمور المضادة أو التى لاتساعد على الوحدة الوطنية ، ويأتى هذا نتيجة عوامل منها الأتساع الكبير لعرض المجرى المائى بحيث لايمكن إقامة كوبرى

عليه ، وقد يرجع إلى طبيعة تدفق وتصريف النهر أكثر منها من مجرى النهر ، كأن يكون الوادى على هيئة خانق . ولعل خوانق الأنهار فى أسبانيا من خير الأمثلة فى هذا المضمار ، كذلك الحال فى خانق الزمبيزى الذى يتلو شلالات فيكتوريا ، وهناك خانق الكلورادو الشهير بالولايات المتحدة الأمريكية الذى يمثل صعوبة كبيرة لو كان هناك ضرورة ملحة لربط المرتفعات التى على جانبيه .

ويمكن القول أن من بين الفوائد العديدة التى يجنيها الإنسان من مياه الأنهار ، هناك أربع فوائد رئيسية ، فالأنهار تستخدم أحيانا كحدود سياسية وهذا ماسنفصله فيما بعد ، وتستغل مياهها فى الرى فى بعض جهات العالم حيث يسود الجفاف المناخى وهذه الدول هى التى عرفت بأسم دول الرى **Irrigation States** .

ويضاف إلى هذا إستعمال مياه الرى فى أغراض صناعية كتبريد المولدات الكهربائية ومثل هذه المياه لاتضيع كما هو الحال فى مياه الرى بل ترجع إلى النهر ، وإن كانت فى هذه المرة الأخيرة تحتوى على مواد كيماوية قد تكون سامة فتقضى على الأسماك وتجعلها غير صالحة للإستخدامات الأخرى وهذا نموذج لمشكلة تلوث البيئة .

وإذا كان إستغلال وتنظيم الإستفادة من مياه النهر هى مسألة وطنية بحتة ، لما كان هناك داع للتفصيل فى هذا الموضوع فى مجال الجغرافية السياسية ، ولكن المشكلة تأتى من أن معظم الأنهار دولية لأنها تجرى فى دولتين أو أكثر ، من ثم كان لابد من الإتفاق على طرق إستغلال الأنهار بين الدول الواقعة فى أحواضها حتى لاتضار إحداها ، ولعل الإتفاقيات الخاصة بتنظيم الملاحة هى أسهل هذه الإتفاقيات ، على إعتبار أنها لاتؤثر كثيرا فى مياه النهر بينما نجد الإتفاق على توزيع مياه النهر أو إستغلالها بأى طريقة من الطرق أكثر صعوبة .

الملاحة فى الأنهار الدولية :

أستغلت الأنهار للملاحة منذ العصور الأولى من تاريخ البشرية ، وكانت الأنهار هى المسالك الرئيسية فى كثير من الأحيان للكشف عن كثير من المناطق المجهولة ، كما حدث فى حالة أنهار الولايات المتحدة الأمريكية النابعة من الأبلاش والمتجهة نحو الغرب ، وكما حدث فى حالة نهر الأمزون فى أمريكا الجنوبية . وقد أستغلت أنهار القارة الأوربية فى العصور القديمة لأغرض الملاحة بدرجة لايتصورها الأنسان فى الوقت الحاضر ، فكانوا يستعملون القوارب الصغيرة للأنهار

الصغيرة . وكانت الأنهار السريعة تستغل تياراتها فى تسيير السفن نحو الأجزاء الدنيا ، وكانت تبنى القوارب للملاحة فى المناطق الجبلية لتسير مع الأنحدار فى إتجاه المصب ، وعندما تبلغ نقطة الوصول تباع أخشابها ويستفاد بها ، أما فى البناء أو فى إيقاد النار .

ولكن يعيب الملاحة فى العصور القديمة والوسطى ، الضرائب العديدة التى كان يفرضها الحكام الذين كان النهر يجرى فى قسم من آراضيهم ، حتى لقد كادت هذه الضرائب الباهظة تقتل الحركة والنقل فى بعض الأنهار فقد كانت هناك ثلاثون ضريبة تدفع على نهر الراين ، من بال فى وسويسرا إلى بحر الشمال ، حتى أن مجموع هذه الضرائب فى بعض الأحيان كان يفوق قيمة السلع المحمولة .

وقد أدى هذا فيما بعد إلى إقرار مبدأ حرية الملاحة فى جميع أجزاء الأنهار الدولية الصالحة للملاحة من المنبع إلى المصب لكل من الدول التى تقع فى أحواضها ، أما الدول الأجنبية عن النهر ، فقد ظلت لايسمح لها بحرية الملاحة ، وكانت فرنسا أولى الدول التى أعلنت وجوب تقرير مبدأ حرية الملاحة فى الأنهار الدولية وطبقته فعلا بالنسبة لنهر الميز والشلد عام ١٧٩٢ ذلك أن مصب الشلد كان يقع تحت قبضة هولندا ، وقد أغلقت ميناء انتورب أمام السفن ، ثم جيوش الثورة الفرنسية فى ذلك العام . وأعلن المجلس التنفيذى للجمهورية الفرنسية حرية الملاحة فى النهر لكل الدول التى تحيط به ولغيرها .

الملاحة فى الدانوب :

لنهر الدانوب أهميته الخاصة بين الأنهار الدولية لكثرة عدد الدول التى يمر بها ، ولأهميته الكبرى من ناحية الملاحة والنقل من وسط وشرقى أوربا إلى جنوبها الشرقى ، وظلت الملاحة فى النهر مدة طويلة خاضعة لإرادة الدول التى يجرى فيها . ولما كانت تفرضه من قيود عليها ، حتى كانت معاهدة باريس عام ١٨٥٦ التى أنهت حرب القرم ، والتى أقرت حرية الملاحة فى الدانوب على أسس لائحة الملاحة الدولية التى أقرتها الدول فى مؤتمر فينا عام ١٨١٤ ، وتقضى لائحة مؤتمر فينا أن تكون الملاحة فى الأنهار التى تمر بعدة دول أى تجاورها حرة لمراكب جميع الدول فى الجزء الصالح منها للملاحة حتى المصب ، مع مراعاة اللوائح الخاصة بالبوليس والملاحة التى تضعها الدول صاحبة النهر ، على أن تطبق هذه اللوائح على وجه المساواة بالنسبة لكافة الدول ، وألا تكون من شأنها إعاقة التجارة الدولية . وقد تقرر فى المعاهدة إنشاء هيئة خاصة

لتنظيم الملاحة فى النهر والقيام بالأعمال الهندسية وهى اللجنة الأوربية للدانوب . وأعيد تنظيم الملاحة فى الدانوب بعد الحرب العالمية الأولى فى معاهدة فرساى وطبقا لأتفاقية خاصة أبرمت فى باريس عام ١٩٢١.

إتفاقية الكنغو:

وبمقتضاها أتفق عام ١٨٨٥على أن يفتح الكنغو لتجارة جميع الدول ، حيث أبيحت حرية الملاحة لسفن جميع الدول ، ولم تشمل المنطقة موضوع الإتفاق نهر الكنغو وروافده فحسب ، بل تعدتها أيضا إلى نهر النيجر .

إتفاقية برشلونة :

لم تكن نصوص معاهدة فرساى فيما يختص بالملاحة النهرية غير أحكام وقتية تقرر أن يحل محلها فى أول فرصة إتفاق عام لتنظيم الملاحة فى الأنهار ، وقد أتيحت هذه الفرصة فى مؤتمر برشلونة عام ١٩٢١ . وإتفق المؤتمرون على مبدأ حرية الملاحة فى الأنهار الدولية والقنوات المائية التى تختصر المسافات بينها وتصرف العوائد التى تجمع على خدمات تحسين الملاحة وتحسين المجرى والأرشاد وغيرها .

الوظائف الأخرى للأنهار :

وفى المناطق الجافة وشبه الجافة نجد أن النهر هو شريان الحياة للدولة ، يترك طابعه وآثاره على تنظيماتها . كما فى مصر القديمة والحديثة ، وكما فى العراق . وهذه هى التى يطلق عليهادول رى Irrigation States

وقد أعتمد سكان تلك الجهات على الفيضان الطبيعى للنهر فى العصور القديمة ، ثم أقيمت عليه المشروعات الرى حديثا . وكان التعاون والتفاهم ضروريا لتوزيع مياه الرى بحيث لايتحكم سكان أعالى النهر فى سكان جزئه الأدنى ، كذلك كان التعاون لصد قبائل الرعاه المغيرة وكانت هذه الدول تستمر فى حالة إنتعاش مادامت قادرة على صد المغيرين ، ولكن ما أن ينتابها الضعف حتى تسوء أحوالها الإقتصادية وتنتابها الفوضى ، ويستولى عليها الغزاة .

وإذا كانت هناك دول نهرية كما رأينا فى مصر والعراق وغيرهما ، فإن هناك دول دلتاوات Delta States ، ويبدو أن وجود هذه الدول لايتفق والمنطق الجغرافى لأنها تتحكم فى مصبات أنهار تنتمى لدول

أخرى . وهولندا مثل حى لدول هذا النوع لأنها تتحكم فى دلتا الراين والشلد والميز ، فهنا فى هذه المنطقة قامت دولة لها شخصيتها القومية ، وكان عامل الحماية من الزوال ، هو أهمية موقعها الجغرافى نظرا لأن الدول الأخرى لاتسمح لأى دولة قوية بالتسلط عليها ، فأصبح أمان هولندا لايرجع إلى قوتها العسكرية ، بقدر مايرجع إلى التوازن الدولى فى أوربا ، لذلك تظل فى أمان إلا فى الفترات التى تتغلب فيها القوة الألمانية ، كما حدث أثناء الحرب العالمية الثانية . ومنذ بداية القرن العشرين ظهرت للأنهار وظيفة أخرى فى نشاط الدولة وهو أنه أصبح فى إمكانها أن تمد بالقوة المائية ولكن لم تظهر هذه الطاقة كمنافس للزيت أو للفحم إلا بعد معرفة الإنسان كيفية توليد الكهرباء ، ونظرا لأن مقدرة النهر على القيام بهذه المهمة تتوقف على كمية المياه وعلى سرعة التيار ، فإن معنى هذا أن هذه الوظيفة التى يقوم بها النهر مستمدة من التضاريس والمناخ ، ولذلك نجد أن الدول ذات الطبيعة الجبلية والتساقط الغزير قد حبتها الطبيعة بهذه الطاقة كالنرويج، والسويد ، وسويسرا ، فرغم فقرها فى البترول والفحم ، فأن هذه الطاقة كانت لهم خير عون ، ولاننسى أن بعض الدول الداخلية تحاول أن تتحكم فى مصب النهر ، على إعتبار أن تقدمها يتوقف على سهولة الوصول إلى البحر . وإذا لم تستطع الوصول لمصب النهر فأنها تلجأ أخيرا إلى إيجاد منطقة حرة لها كمنطقة تشيكوسلوفكيا (سابقا) الحرة فى ميناء هامبورج .

الماء والأمن القومى :

إقتحمت نقطة الماء ساحة الأمن القومى فى الوقت الحاضر أكثر من أى وقت مضى للتزايد السكانى ، وزيادة التصحر والجفاف ، وفى دراسة لمعهد أمريكى عن أزمة المياه ، كذلك قال دكتور بطرس غالى من موقعه كأمين عام للأمم المتحدة ، أى من موقع يتعين فيه أن يكون ملماً بالبيانات الأساسية المتعلقة بحاضر ومستقبل هذا الكوكب ، بأن أبرز حروب المستقبل سوف تكون بسبب ندرة المياه ، وإقتحام نقطة الماء ساحة الأمن القومى بهذا الإندفاع الحاد ، سببه أن الأمن القومى يصبح هشاً بدون القدرة على ضمان البقاء . وقد إنتقلت مشكلة المياه من كونها فى الماضى قضية إقتصادية الى أن اصبح ضمان توفيرها قضية بقاء ووجود . ولم تعد هناك مناطق فى العالم محصنة إتجاهها سوى مساحات بسيطة ، لذلك كانت قضية المياه ليست قضية مياه للشرب أو الزراعة أو الصناعة ، إنما هى قضية هذه جميعاً ، من ثم كان لابد من تأمينها ، وقد تكون مسألة تأمينها مسألة لها طبيعتها المحلية والداخلية ، ولكنها قد تكون مسألة تتداخل فيها شبكة العلاقات الدولية فيما بين الدول وبعضها

والبعض الآخر ، وقد تصبح أحد محاور الصراعات الإقليمية والدولية ، واشكال المنازعات والتوترات ، ولعل هذا واضح الآن في المنطقة العربية ، فيما يختص بأنهار دجلة والفرات الأردن بل والنيل [١]، وكذلك نهر السند بين الهند وباكستان .

ثالثا : المناخ

أهمية المناخ ظاهرة فى إتصاله الوثيق بصفة خاصة بالنبات الطبيعى وبالغلات الزراعية . وانتاج الغذاء للسكان من الأوليات التى تهتم بها الدولة . والدولة التى تتمتع بتنوع مناخى كما ذكرنا تتمتع بتنوع غذائى وبالتالى ترتفع انتاجية أفرادها ، بينما المناطق التى يسودها مناخ صحراوى سواء حارة أو جليدية يتحدد فيها الإنتاج الزراعى ، ومثل هذه المناطق لاتصلح لأن تكون نواة أو معمور لدولة ذات أهمية استراتيجية كما فى المناطق شبه القطبية من كندا وجرينلند وأيسلند وشمالى سيبريا ، أو تظهر فيها ثروة معدنية كما هو الحال فى شبه الجزيرة العربية .

والدولة التى لاتنتج مايكفيها من غذاء لابد لها من الإستيراد من الخارج ، أو إتباع الزراعة الكثيفة ، إى بزراعة الأرض أكثر من مرة وهذا غير متيسر إذا كان المناخ لايساعد على هذا ، وقد يقوم لكن بتكاليف باهظة .

فى الدول المتسعة كالولايات المتحدة مثلا ، حيث تكثر الأقاليم المناخية وتتعدد ، نجد أن المزارعين فى غرب السهول الوسطى **Middle West** دائما يشكون للحكومة فى واشنطن من أن رجال الإدارة فى منطقتهم لايعرفون شيئا عن مشكلات الزراعة والتسويق فى هذا الأقليم . ونفس الكلام فى كندا حيث يشكو سكان البرارى من سوء السياسة الداخلية فى الدولة . ويرجع هذا أساسا إلى قيام إقتصاديات مختلفة ترجع إلى أنواع مختلفة من المناخ . وقد تؤدى هذه العلاقات إلى تهديد للوحدة السياسية كما فى كندا وأستراليا فى وقت ما إذ أن ولاية البرتا فى الأولى وغرب أستراليا فى الثانية ذهبتا بعيدا إلى درجة إقتراح الأنفصال فى وقت ما . هذه وغيرها من الأمثلة تدل على أنه حيث يوجد تنوع مناخى يترتب عليه

---

[١] – تكونت هيئة فنية دائمة مشتركة من جمهورية السودان ومن جمهورية مصر لرسم الخطوط الرئيسية للمشروعات والإشراف على تنفيذها ووضع نظم تشغيل الأعمال التى تقام على النيل .

نتائج محلية هامة فى ميدان الإنتاج الزراعـى ، فيجب عمل حساب هذا التنوع ، حتى تسير أمور الدولة الداخلية دون شقاق .

ولقد سبق لنا أن ذكرنا عند دراسة الموقع الجغرافى النظريات الخاصة بربط القوة السياسية والمدنية للمناطق المعتدلة ذات النشاط الإعصارى . كذلك يحفل التاريخ القديم والحديث بالأمثلة المتعددة على عمل حساب المناخ ، ودراسة أنسب الظروف الملائمة للعمليات الحربية بحرية كانت أم برية ، فقد إستفادت بريطانيا كثيرا من الضباب فى الإنسحاب من دنكرك أثناء الحرب العالمية الثانية ، وقامت ألمانيا بحملتها على بولندا فى شهر سبتمبر تجنبا للأوحال التى قد تتعرض لها الدبابات كما أختارت شهر أبريل لغزو النرويج حتى يمكنها الإستفادة من العواصف التى تهب فى هذا الفصل فتسدل ستارا على عملياتها الهجومية ، وكان فى تقدير الألمان فى هجومهم على روسيا أن يبلغوا موسكو قبل حلول الشتاء إذا ماتقدمت جيوشهم فى شهر يونية عام ١٩٤١، ولكن نظرا لبطئ تقدمهم بزيادة البعد عن قاعدتهم مما حمل القيادة على إصدار الأوامر بعمل حفر ومواقع دفاعية لهجوم الشتاء عليهم ، ولم يكن فى الحسبان أيضا توافر ملابس شتوية ثقيلة للجنود ، فأضطر الجيش لطلب هذه الملابس من المدنيين ، وكان من جراء ذلك أن كان بعض جنود الجبهه يرتدون معاطف نسائية ، ولقد أعطى هذا الفرصة لإنكسار الروح المعنوية عند الألمان وإرتفاعها لدى الروس ، وبالتالى إنكسار الألمان فى الميدان الروسى . وليس من شك فى أن القوات التى كانت تحارب فى الشمال الإفريقى ، كانت فى حاجة إلى كساء وغذاء يختلف تماما عن ملابس وغذاء زملائهم فى شمال النرويج ، وبينما كانت قوات جنوبى الباسيفك تعانى من الحرارة المصحوبة بالرطوبة ، وكانت قوات غرب أوربا تعانى من إنخفاض الحرارة وسقوط الثلوج ، بل لقد كانت القوات الإمريكية تحارب فى إيطاليا الأعداء من جانب والأمطار الغزيرة من جانب أخر . ولعل من الثوابت فى الإستراتيجية البرية ، أن معارك الصحراء تعتمد أساسا على القوات الميكانكية المدرعة التى تظللها غطاء جوى ، وذلك لتوفير عنصر الحماية على مسرح العمليات ، الذى يخلو عادة من السواتر الدفاعية ، ولضمان سرعة الحركة ، للتغلب على صعوبة ستر القوات ونقص مواد الأعاشة المحلية وخاصة الماء العذب . كذلك يعد الطيارون إعدادا خاصا لملائمة مختلف الأجواء لأنهم كثيرا ماينتقلون من قاعدة حارة رطبة ، إلى قاعدة شديدية البرودة على بعد ساعات قلائل .

الـباب الثـانى . الأسـس البـشريـة

الفصل الأول : السلالة

تشير كلمة السلالة هنا إلى مجموع السكان الذين يرجعون إلى أصل واحد ، وبالتالى يكون هناك تقارب فى سماتهم الجسدية . ويتوقف أثر هذا العامل فى التكوين السياسى للدولة على درجة الوعى السلالى أو الوعى الجنسى Race Consiousness للسكان ، أو بمعنى أخر التعصب الجنسى .

على أن الرجل العادى إذا ماذكر الجنس أمامه ، لاينصرف تفكيره إلا إلى لون البشرة ، بغض النظر عن الصفات الجسدية الأخرى ، من ثم كان لون البشرة هو أساس المشكلات العنصرية التى ظهرت فى العالم اليوم ، أو بمعنى أخر أساس التميز العنصرى Race Descrimination .

ونود فى هذا المجال أن نذكر أن وجود سلالة نقية يعتبره العلماء خرافة وأى خرافة ، بل أسطورة ، ذلك أن هذه السلالة النقية غير موجودة على الإطلاق بسبب الهجرات البشرية التى إستمرت عبر العصور التاريخية وما قبل التاريخية ، ذلك أن الإنسان يتميز عن الحيوان بالعقل الذى يدبر به أموره بحيث يكيف نفسه مع ظروف البيئات المختلفة، من ثم إذا كانت الفصائل الحيوانية المختلفة ترتبط بأقاليم مناخية مختلفة لاتظهر فى غيرها إلا نادرا فهذا مالاينطبق على الإنسان . فلذلك تميز الإنسان بقدرة سلالاته على التزاوج معا . وأدى هذا إلى عملية إختلاط واسع بين أفراد الجنس البشرى . ومع هذا نجد أن فكرة التميز السلالى العنصرى قديمة قدم الإنسان ، فالأغريق إعتقدوا أنهم أحسن الشعوب وسادتها . قال أفلاطون مخاطبا الأغريق .

Gold Is Mixed with You , Copper Is In The composition of others .

وذهب أرسطو مذهب أفلاطون فى التميز بين اليونانى وغير اليونانى، فالطبيعة فى رأيه جعلت أجسام اليونانيين مغايرة لأجسام البرابرة، إذ أعطت هؤلاء القوة الضرورية للأعمال الغليظة فى المجتمع،

فكانوا بطبعهم عبيدا لايصلحون لغير الطاعة ، عكس اليونانين الذين وهبتهم الطبيعة حكمة ليكونوا أحرارا ، وأعدتهم لوظائف الحياة المدنية .

وكذلك كان يعتبر الفرس كما أعتبر اليونان أن ماعداهم هم متبربريين وكان باعث هذا التميز ماوجدوا عليه أنفسهم من التفوق الإدارى والنظام، والتفوق الحربى .

أما فيما يختص بالأديان السماوية ، **فاليهودية** تميز بين اليهودى والغريب ، اليهود شعب الله المختار فى نظرهم ، لايباعون بيع العبيد ، أما غير اليهودى فيجوز إسترقاقه بالحرب ، أو بالشراء ، ويعامل بعنف ، فالله فى نظرهم جعل الغرباء عبيدا لليهود ، فالرب هو إله اليهود وحدهم وهم عبيده ، ولايمكن أن يكونوا عبيدا لغيره ، وقد أختارهم ليكونوا سادة الناس .

ودعى السيد **المسيح** إلى الإخاء والمساواة ، فكان ذلك خروجا على اليهودية والعنصرية ، من أجل ذلك نقم عليه اليهود ، وأغروا به الحاكم الرومانى ، وتفرق حواريوه من بعده يبشرون بدعوته ، وأشتدت حملة الرومان الوثنيين على هذه الدعوة ، وإستشهد فى سبيلها الكثيرون ، وأضطروا تحت الضغط إلى إعلان أن المساواة التى تدعوا إليها المسيحية هى مساواة فى الروح ، وأن الأرواح المؤمنة تلتقى فى المسيح وتتساوى فى مملكته السماوية ، أما الجسد فقد خلق لهذه الدنيا ، وعليه أن يتحمل مايلقى من ألم وعذاب كما تحمل جسد السيد المسيح . ويوصى القديس بطرس العبيد ألا يقصروا فى إخلاصهم على الصالحيين . بل عليهم أن يخلصوا للقساة منهم ، وفى ذلك يقول : " كونوا خاضعين ، بكل هيبة ، ليس للصالحين ، بل للعنفاء أيضا " .

ونادى **الإسلام** " بألا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى " ومع ذلك ظهر بينهم هذا التمييز ، إذ كانوا يحسون فى أنفسهم تفوقا على الفرس وغيرهم .

فى تاريخنا المعاصر نجد فكرة الإستعلاء العنصرى قد ظهرت بصورة شديدة لدى الألمان حينما كانت الدعاية النازية تقول بسيادة العنصر الجرمانى أو النوردى جسميا وعقليا ، ونادى هتلر بأن الشعوب الشرقية الحخرى بها ألا تعيش ، وأن عاشت يجب أن تدرب كما تدرب الكلاب الصغيرة ، بل أن الألمان جعلوا من أنفسهم أسيادا على الجنس السيد **Masters of The Master Race** ويظهر هذا التميز العنصرى

فى إستراليا بمنع هجرة السلالات الملونة . ثم يظهر بصورة أكبر فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وكان فى جنوب أفريقيه من قبل .

وقد يقوم الإستعلاء العنصرى لا على أساس السلالة وحدها ، بل على أساس عدم التجانس الحضارى كما فى إسرائيل حيث يتكون السكان من خليط متنافر من اليهود الشرقيين (السفرديم) واليهود الغربيين (الإشكنازى) ويستغل الغربيون تحيز الحكومة نحوهم بغية الحصول على إمتيازات وتسهيلات خاصة بهم ، عن طريق تكتلهم فى جمعيات ضاغطة تتولى عرض مصالحهم على الحكومة وملاحقة تنفيذها لدى المسؤولين . وإذا أضفنا إلى هذا اليهود الأوائل (الصبرا) . الذين يتباهون على بقية الطوائف بأنهم مؤسسو الدولة ، أدركنا مدى التنافر بين عناصر السكان .

ومن أمثلة مشكلة السلالة نضرب مثلا بمشكلة الزنوج فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فهؤلاء جلبوا من غرب أفريقيه منذ القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر للعمل فى مزارع قصب السكر والقطن فى جنوبى الولايات المتحدة ، وإستمر هؤلاء الزنوج عبيدا حتى حرب التحرير (١٨٦٢-١٨٦٥) التى كانت تهدد كيان البلاد .

غير أن هذا التحرر لم يرض بيض الجنوب لأن الزنوج ، كانوا كسلع فى أيديهم فلم يتصوروا أنهم أصبحوا مثلهم ، وإذا كان الزنوج يكونون نحو ١٠٪ من سكان الولايات المتحدة الأمريكية فإن معظم هؤلاء يتركزون فى الجنوب - وتقل نسبتهم بالإتجاه شمالا ، ويزيد عدد الزنوج على البيض فى الولايات كالمسيسبى وكارولينا ، وتزيد نسبة الزنوج على ٢٥٪ من السكان فى ولايات فلوريدا وجورجيا وتكساس وتنسى وفرجينيا . ويعانى الزنوج من سياسة التمييز العنصرى وكراهية البيض لهم رغم أن مزارع الجنوب تقوم على أكتافهم [١] .

كذلك كان الحال فى جنوب أفريقيه الذى كان أول عهده بالأوربيين عام ١٦٥٢عندما أسست شركة الهند الهولندية مدينة الكاب لتكون ملجأ لسفنهم فى طريقها إلى آسيا ، ثم شجعت الشركة الفلاحين الهولنديين على زراعة الخضروات والفاكهة ، فبدأوا بالإستقرار والتوغل فى الداخل وأصطدموا بالبوشمن وأجلوهم عن مواطنهم إلى صحراء كلهارى ، كما سلبوا الهوتنتوت مراعيهم ومواشيهم وجلبوا الزنوج من شرقى أفريقيه ومدغشقر إلى جانب بعض العناصر من الملايو . وقد أختلط هؤلاء بالهوتنتوت وتكونت طبقة ملونى الكاب الذين يعرفون بالرحبوت

---

[١] - سنفصل هذا فى الفصل الخاص بالولايات المتحدة الأمريكية .

Rehboth . وإستمر توسع البوير شمالا فأصطدموا بقبائل البانتو من الزولو والبتسوانا ودارت بينهم حروب مريرة دامت نحو قرن من الزمان.

وعلى عكس الوضع فى الولايات المتحدة الأمريكية لايكون البيض سوى نحو ٢٠٪ من السكان بينما يكون الملونون ٨٠٪ من مجموع سكان جنوب أفريقية ، ومع ذلك فالعناصر الوطنية كانت محرومة من حقوقها السياسية . كما أن الحاجز اللونى كان يمنعهم من الأشتغال بالمهن الراقية، وقد إنتهت الآن هذه المشكلة .

وعلى عكس الحال فى أمريكا الشمالية نجد أن مشكلة الجنس أو السلالة غير واضحة فى أمريكا الوسطى والجنوبية ، ويرجع ذلك إلى الخليط الكبير من السلالات التى غمرت هذا الجزء من العالم ، حتى ليتمتع زنوج البرازيل بحقوق وإمتيازات يحسدهم عليها زنوج الولايات المتحدة الأمريكية ، ففى هذا الجزء من العالم إختلط الزنوج بالهنود الحمر وبالأوربيين ، وإذا كانت هناك بعض العائلات الأوربية التى تمنع التزاوج والإختلاط بالملونين ، إلا أن الحاجز اللونى هنا ليس حادا .

ويبدو من التوزيع السلالى فى دول أمريكا الوسطى والجنوبية ، أن الهنود الحمر هم العنصر الغالب فى المكسيك (٨٠٪) بينما تغلب العناصر البيضاء فى كوستاريكا (٩٥٪) . والعناصر الزنجية على جواديلوب وهايتى وجمايكا (من ٩٢٪ إلى ٩٥٪) وتغلب العناصر البيضاء على الأرجنتين (٩٨٪) وأوراجوى (٩٩٪) وشيلى (٧٩٪) بينما يغلب الهنود الحمر على إكوادور وباراجوى وبيرو ، أما العناصر الزنجية فأعلى نسبة لها فى البرازيل وفينزويلا (٣٣٪) .

ولايعد الجنس أمرا ذا بال فى القارة الأسيوية رغم تعقيدها السلالى وربما كانت العناصر اليابانية هى العناصر الوحيدة التى تدين بالتفوق العنصرى ، أما فى الصين أو الهند وجنوب شرقى آسيا ، فلا تحس بالفارق السلالى ، فتعيش فى هذه الدول وتختلط ، العناصر المغولية والآرية ، وأحيانا الدرافيدية كما فى الهند ، ولكننا نجد الرابطة الدينية هى التى تضم الهندوس معا ، وتضم المسلمين معا ، وكان الدين سببا فى قيام دولتى الهند وباكستان . وتكاد تختفى مشكلة السلالة فى أستراليا نتيجة لفناء العناصر الأسترالية الأصلية ، فلم يبق منها إلا نحو ٨٠ ألف نسمة فى داخلية القارة ، وإتجهت سياسة أستراليا إلى جعلها قارة البيض ومنع العناصر الملونة من الهجرة إليها .

الحربـان العالميتـان وأسـطورة الرجـل الأبيـض :

ظـل العـالم حتـى الحـرب العالميـة الثانيـة ، عــالم يسـوده الرجـل الأبيـض ، أو هـو عالمـه مسيطر علــى كـل شـئ فيــه ، هيمنــة سياسـية وإقتصاديــة ، أو كمـا يقولـون القـوة البيضـاء واللاقـوة غير البيضـاء كـأمر مسـلما بـه .

The white power and the non white power where still the generally accepted order of things.

والواقـع أن الحربـان العالميتـان الأولـى والثانيـة كانتـا بمثابـة مسـمارين دقـا فـى نعـش الإسـتعمار وهيبـة الرجـل الأبيـض .

وقـد يكـون مـن الطرافـة بمكـان أن يطلـق الأفريقيـون فـى هضبــة الميتـابيلى علــى البيــض الغربــاء الذيــن نزلــوا أرضهـــم **Omilima Abadia Amabale** أى الألهــة التـى تـأكل الـذرة . وقـد كـان مـن الصعـب علــى هـؤلاء الإفريقيين معرفــة أن نـزول هـذه الألهــة فــى بلادهـم سـتكون مقدمـة لصـراع طويـل مريـر بينهمـا .

ويمكننـا أن نستشـهد فـى هـذا الصـدد بـالزعيم الثـورى الروديسـى نــادابنجى سـيتول **Ndabaningi Sithole** فقـد عـاش سـيتول فـترة الإنتقـال وخبرهـا مـن مرحلـة تقـترب مـن العبـادة إلـى مرحلـة الكفـر بـالبيض ، فقـد كـان صبيـا عـام ١٩٢٠ يعيـش فــى روديسـيا حينمـا رأى عالمــا يسـوده البيـض . وكــان الـرواد الأوائـل عندئـذ فـى الخمسـينات مــن عمرهــم . وهـو يتذكـر تمامـا أنـه عندمـا كـان فـى السـابعة مـن عمـره يعمـل بـالرعى ، شـاهد كوخـا ذا نوافـذ يتحـرك بسـرعة عظيمـة ، وكـانت هـذه أول معرفـة لـه وخـبرة بالسـيارة . هـذا الرجـل اليـوم الـذى كـان يطلـق لفـظ الكـوخ المتحـرك علــى السـيارة ، أصبـح اليـوم حـاملا لعـدة درجـات جامعيـة ، وذو تعـاليم يفـوق تعليـم كثــير مــن وزراء رودسـيا (سـابقا) ، وحــاضر فـى الولايـات المتحـدة الأمريكيـة . ويعطـى فـى كتابــه القوميـة الأفريقيـة **African Nationalism** صـورة قيمــة عمــا دار فى عقـل مواطنيـه الإفريقيين فـى بـدء حكـم البيـض لبـلاده .

" The African was simply overwhelmed perplexed Mystified and dazzled . The white man's houses that move on the water , his bird that is not like other birds , his monster that spits fire and smoke just amazed the African . These new white goods were conscious of the magic spell they has cast and did every thing to maintain it . Mines were opend through the country .

The dynamite that exploded the huge rocks confirmed the belief that the white man was a good ".

ولـم تقتصـر هـذه الظـاهرة علـى روديسـيا ، فعندمـا ألقـى كـابتن كـوك بمراسيه فـى جـزر سـاندويش أعتبره الأهـالى هـو ورجالـه علـى أنهـم آلهـة ، كذلك فعـل الهنـود الحمـر مـع كـابتن فـانكوفر علـى الشـواطئ التـى تحمـل الآلهـة ذوى الوجـوه الباهتـة ، التـى وعـدوا بهـا فـى أسـاطيرهم ويقـال أن مونتزومـا . **Montezume** لـم يقـاوم كورتـس **Cortes** لأن غـزو الأسـبان لبلادهم يتفق وأساطير الأزتك عن الآلهـة الذين سيأتونهم عبر البحـر .

غير أن هذه الفكرة تغيرت تماما فيما بعد ، ويقـول الزعيـم سـيتول فـى هـذا السـبيل أن هـذا التغيـير بلـغ حدتـه عندمـا وجـد الأفريقيـون أن للآلهـة البيـض شـهية بشـرية لاللـذرة الأفريقيـه فحسـب ، بـل للنسـاء الأفريقيـات أيضـا، وزاد رد الفعل حينما عـاش الأفريقيـون حربيـن عـالميتين إلـى جـوار الأوربيين ، فقد خرج من رودسيا وحدهـا ٤٠ ألـف أفريقـى ويذكـر سـيتول فـى هذا الصـدد " أن بنـات الشـارع فـى لنـدن وبـاريس ونـابلى لـم تبـق علـى أسـطورة الرجـل الأبيـض . ورأى الجنـدى الأفريقـى الأبيـض وهـو يقـع جريحـا أو هـو فـى طريقـه إلـى الوفـاة ، وإكتشـف الإفريقـى أن تـأثير الرصاصـة واحدة بالنسبة للأبيض وللأفريقى ، فكـان هذا كلـه لـه أثـره علـى سيكولوجية الأفريقى ، وأخذ ذلك الحـاجز بينهـا يـرق تدريجيـا حتـى وصـل إلى مرحلـة شفافية ، فبعد قضـاء أربـع سنوات فـى صيـد البيـض مـن جنـود الأعداء لم يظـل هـؤلاء البيض آلهـة بعد .

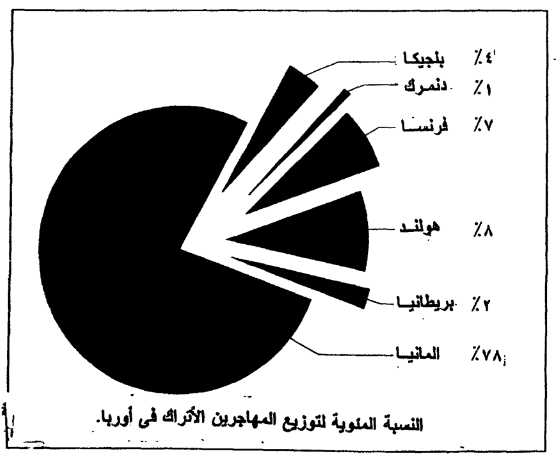
المشكلة اللونيـة فـى التسـعينيات

إذا أسـتثنيا بضـع مواضـع مـن العـالم والتـى أشـرنا إليهـا تظهـر فيهـا المشكلة اللونيـة نجـد أن عـالم التسـعينيات لـم تعـد فيـه السـيادة للبيـض علـى أسـاس السـلالة ، مـن الجـائز أنـه حـل محلهـا فـى الوقت الحـاضر تقسـيم آخـر علـى أسـاس الشـعوب التـى تملـك **The have nations** والتـى لاتملـك ***The have not nations*** وإن كـان الذيـن يملكـون أيضـا مـن البيـض بإستثناء اليابـان والذين لايملكون هم من الملونيـن ، وغـالبيتهم يحملـون علـى أكتـافهم سنين مـن التبعيـة والأعبـاء الإستعمارية ، ولكـن التميـيزفى حـد ذاتـه خفت حدتـه بعد إستقلال عدد كبير مـن الـدول الناميـة وخاصـة الأفريقيـه ، وحصولها علـى عضويـة الأمـم المتحـدة . وكـان مـن نتائجـه فتـح سـفارات وقنصليات لهذه الدول فـى الـدول الأوربيـة ، وتوافـد ممثلـو هـذه الـدول مـن الملونيـن ، وكـان حـرج شـديد وقعـت فيـه الخارجيـة الأمريكيـة فـى أوائـل السـتينيات عندمـا لـم يجـد هـؤلاء الممثلـون لدولهـم رعايـة ، بـل وأحيانـا

صـادفوا عقبـات وصعوبـات فـى الفنـادق والسـكن وغيرهـا ، ممـا أدى إلـى سيل مـن إعتذارات الخارجية الأمريكيـة .

ولا ننسى أيضا الإحـترام الـذى يجـده مواطنـو دول النفـط فـى الخـارج ، بل والسـعى إليهـم لإسـكانهم ، وتيسـير وسـائل حيـاتهم ، فقـد تغلـب العـامل الإقتصـادى علـى العـامل النفسـى والإجتمـاعى .

وإذا كـانت هنـاك بعـض مظـاهر عنـف فـى أوربـا فـى الوقـت الحـاضر ، فهـى ليست لأسـباب سـلالية ، بـل لأسـباب إقتصادية بحتـة ، فقـد فتحـت أوربـا ذراعيهـا للمهـاجرين مـن كـل مكـان عقـب الحـرب العالميـة الثانيـة لنقـص الرجـال ، فقـد تدفـق الأتـراك علـى ألمانيـا ، وفتحـت فرنسـا أبوابهـا لسـكان الشـمال الأفريقـى وخاصـة الجزائريين وسـكان الفرانكفـون الأفريقـى ، وكذلـك الحـال بالنسـبة لبريطانيـا بالنسـبة لأبنـاء الكومنولـث ، ونهـض الإقتصـاد الأوربـى مـن كبوتـه بفضـل هـؤلاء وأولئك ، ولكـن الأوربيين قلبـوا لهـم ظهـر المجـن الآن نظـرا لحالـة الكسـاد وإنتشـار البطالـة ، فـأعتبروا هـؤلاء الذيـن حملوهـم علـى أكتـافهم مـن قبـل ، أعتبروهم عبئـا يجـب التخلـص منـه ، فكـان مايشـبه الحركـة النازيـة فـى ألمانيـا ضـد الأجـانب وخاصـة الأتـراك ، وفـى فرنسـا ضـد الجزائريين ، وفـى بريطانيـا ضـد الملونين .



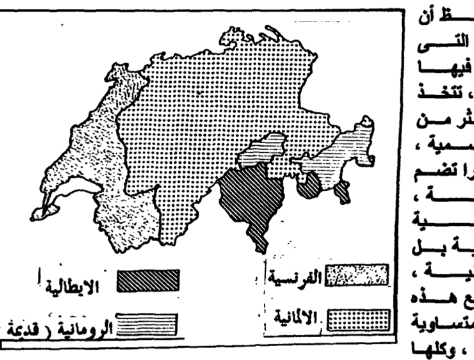
النسبة المئوية لتوزيع المهاجرين الأتراك فى أوربا.

الفصل الثانى : اللغة والدين

أولاً : اللغـة

يرى الباحثون أن وحدة اللغة عنصر هام من عناصر الوحدة القومية، وإذا كان الإنسان يتميز عن الحيوان بأنه مدنى (إجتماعى) وأنه ناطق (مفكر) ، فإن الشعوب تتميز عن بعضها بأن لكل منها لغة خاصة تتكلم بها ، فاللغة هى أقوى رباط معنوى بين الأفراد الذين يتكلمون لغة واحدة وتقارب تفكيرهم . نشأ بينهم شعور بالتعاطف ، ولما كانت اللغة هى عمود ثقافة الأمة ، والثقافة بالنسبة للأمة هى بمثابة الروح بالنسبة للإنسان ، ومن ثم يذهب البعض بأن الأمة ليست مجموعة من البشر يعيشون على نفس القطعة من الأرض ، بل هى أيضا وحدة من الفكر والشعور والإرادة ، ومن أجل المشاركة فى كل هذا ، لابد وأن يكون هناك إتصال بين أجزاء الجماعة القومية ، من ثم كانت اللغة المشتركة لها أهميتها وأثرها ، كأداة فعالة فى تشكيل الوحدة القومية ، ويزيد على وحدة الفكر والمشاعر أن اللغة تعتبر الوعاء الذى يختزن فيه أفكار وخبرات الأمم خلال العصور ، من السلف إلى الخلف ، وبمعنى أخر قد نقول هى جسر الأتصال بين الأفراد من الماضى إلى الحاضر والمستقبل.

شكل رقم (٩) : توزيع اللغات فى سويسرا



ويلاحظ أن الدول التى تتعدد فيها اللغات ، تتخذ لها أكثر من لغة رسمية ، فسويسرا تضم الألمانية ، والفرنسية والإيطالية بل والرومانية ، وجميع هذه اللغات متساوية الحقوق ، وكلها

مستعملة فى البرلمان ، ويختلف الحال قليلا فى بلجيكا عن سويسرا ، إذ يفصل الخط اللغوى بين الألمان الفلمنك وبين الألوألون اللاتينيين ، وقد هدد هذا الإنفصال اللغوى وحدة الدولة فى كثير من الأحيان . لأن ألوألون كانوا يتجهون نحو فرنسا، بينما كان الفلمنك يولون وجوههم شطر ألمانيا.

وكانت الغلبة لعنصر ألوالون بعد الإستقلال مباشرة ، ولذلك جاهد الفلمنك للمساواه بهم ، ووصل الفريقان أخيرا إلى المساواه معا ، وخفف مرارة الشعور الذى كان يكنه كل فريق للأخر .

وبينما تتميز بعض القارات بالبساطة فى تركيبها اللغوى ، نجد البعض الأخر يتميز بالتعقيد اللغوى الشديد .

اللغات الرئيسية التى يتكلمها أكثر من مائة مليون نسمة (١٩٩٥)

المندارين	٩٧٥	البنغالية	٢٠٠
الإنجليزية	٤٧٨	البرتغالية	١٨٤
الهندوستانية	٤٣٧	ملايو –إندونسيا	١١٥
الأسبانية	٣٩٢	اليابانية	١٢٨
الروسية	٢٨٤	الفرنسية	١٢٥
العربية	٢٢٥	الألمانية	١٢٣

وتعد قارة افريقيا من القارات الشديدة التعقيد لغويا ، بل يذهب البعض إلى أنها قد تكون نقطة الضعف الكبرى فى بناء القومية فى الجزء الأكبر من إفريقيا ، ذلك أن القارة تضم عديدا من اللغات واللهجات ، التى تصل فى بعض التقديرات إلى مايتراوح بين ٧٠٠ و ١٠٠٠ لغة . لقد ذهب التعدد اللغوى حتى إلى العناصر الأوربية فى جمهورية جنوب إفريقية حيث يوجد البوير الذين يتكلمون الأفريكانية **Afrikans** التى ترجع أصولها إلى الهولندية ، وكذلك الإنجليزية ، وتضطر الدولة إلى الإعتراف باللغتين ، وطلب من الموظفين إتقانهما معا ، وبعد زوال السيطرة البيضاء تعترف حكومة جنوب أفريقيه بإحدى عشر لغة .

ولـم تظهـر محـاولات لإخـراج خريطـة تبيـن عـدد اللغـات فـى القـارة الآسيوية ويرجـع ذلك لتعقيدهـا أيضـا ، إذ تضـم الهنـد وباكسـتان نحـو ٢٢٠ لغة بصرف النظر عـن اللهجـات . وقـد أعلنـت حكومـة الهنـد عـام ١٩٦٤ نيتها لتنمية اللغة الهندوستانية والتى يتكلنها ثلـث سكان الهنـد تقريبـا كلغـة قوميـة ، ولكن هذه اللغة لم تجد ترحيبـا فـى كـل الولايـات الهنديـة ، وبعـد دراسـات ومناقشـات لمـدة ثـلاث سـنوات قبلـت الحكومـة إقـتراح اللجنـة المشكلة بـأن التعليم يجـب أن يكـون باللغـة المحليـة علـى جميـع المسـتويات حتـى الجامعـة ، وأن تـدرس اللغتيـن الإنجليزيـة والهندوسـتانية كلغـات إضافيـة ، ولكـن هـذا الـرأى واجهتـه معارضـة أيضـا ، علـى إعتبـار أن إهمـال الإنجليزيـة سـوف يـؤدى إلـى تدهـور وسـائل الإتصـال بيـن الولايـات ، ومـا يتبـع هـذا مـن تهديـد للوحـدة الوطنيـة ، هـذا فضـلا عـن عـدم وجـود كتـب ومطبوعـات باللغـات المحليـة . وقـد قـامت المظـاهرات خـلال عـامى ١٩٦٨، ١٩٦٩ ، تخللتهـا أعمـال العنـف حتـى لاتتخـذ الحكومـة قـرار بتبنـى الهندوسـتانية والتـى لاتجـد قبـولا خاصـة عنـد الدرافيدييـن فـى الجنـوب ، إضطـرت حكومـة الهنـد إلـى الإعتمـاد علـى الإنجليزيـة كلغـة رسـمية . ولايختلـف حـال إندونسـيا عـن حـال الهنـد ، وإن كـانت الملاويـة هـى لغـة التخـاطب والتجـارة ، وفـى الفلبيـن هنـاك نحـو ٤٦ لغـة وإن كـانت التـاجلوج Taglog هـى اللغـة الرسـمية ، وتسـتعمل أيضـا الإنجليزيـة والأسـبانية علـى نطـاق كبـير . وتظهـر الطرافـة فـى الصيـن حيـث يفهـم الصينيـون بعضهـم بعضـا حيـن يكتبـون ولايفهمـون بعضهـم بعضـا حيـن يتكلمـون ، ويرجـع هـذا إلـى أن اللغـة الصينيـة تسـتخدم رمـزا لكـل كلمـة ، ولكـن هـذه الرمـوز يختلـف نطقها من مكـان إلـى أخـر .

وتعتـبر أوربـا مـن القـارات الشـديدة التعقيـد لغويـا ، فبإسـتثناء ألمانيـا والنمسـا لاتوجـد دولتـان تتكلمـان لغـة واحـدة ، وإن كـان الإمتـداد اللغـوى لدولـة مـا قـد يظهـر فـى دولـة أخـرى كمـا هـو الحـال فـى إمتـداد الفرنسـية إلـى بلجيكـا ، وسويسـرا ، والإيطاليـة إلـى سويسـرا ، والألمانيـة إلـى تشيكوسـلوفاكيا وبولنـدا وفرنسـا هـذا وتسـود مجموعـة اللغـات الرومانيـة فـى غربـى وجنـوب غربـى أوربـا وجنوبـى الوسـط ، بينمـا تسـود السـلافية فـى الشـرق .

أمـا فـى الأمريكتييـن فتبـدو فيهـا البسـاطة اللغويـة فهنـاك ثـلاث لغـات تمتـد مـن خليـج هدسـن إلـى رأس هـورن : الإنجليزيـة فـى الشـمال والأسـبانية والبرتغاليـة فـى الجنـوب، ويعتـبر الحـد السياسـى بيـن الولايـات المتحـدة والمكسيك حـدا لغويـا أيضـا ، ويوجـد هنـاك إسـتثناء القـاعدة السـابقة تتمثـل فـى

بعض جزر الهند الغربية ، والألمانية فى بعض أجزاء البرازيل ، والإيطالية فى بعض أنحاء الأرجنتين .

الأقليات اللغوية :

قد تظهر أقليات قومية موالية للدولة ، ولكنها تطالب بحريتها اللغوية أو إستقلالها اللغوى ، وكثيرا ما تعترف الدولة بحرية إستقلال الأقليات بلغاتها وتدريسها فى مدارسها ، ويرجع هذا لخوفها من المطالبة بالإنفصال عن جسد الدولة ، إذا منعتها من إستعمال هذا الحق . وقد إعترفت بريطانيا بلغات إسكتلندا ويلز ، وإعترفت فرنسا بلغة البريتون، وهولندا بلغة الفريزيان وهى لغة نوردية قديمة .

وتعتبر مشكلة الأقلية الألمانية فى الالزاس واللورين من الطرافة بمكان ، إذ يسمح للطفل عندما يذهب للمدرسة أن يدرس اللغة الفرنسية للثلاثة أعوام الأولى ، ولايدرس الألمانية لغة الوطن الأم ، ثم بعد ذلك يدرس الفرنسية فضلا عن الألمانية حتى يجيد الفرنسية إلى جانب الألمانية ، ويحتج بعض السكان على هذا على إعتبار أنه تدخل فى حرية اللغة ، ولكن المنطق الفرنسى يرد عليهم بأنه مادامت الألزاس واللورين جزء من فرنسا ، فمن صالح أبناء الأقليم إتقان الفرنسية إلى جانب الألمانية لأنهم سيتجهون إلى بقية أنحاء فرنسا للعمل .

وإذا كان الحزب الشيوعى الصينى يعترف بأن اللغة هى إحدى أسس القومية ، فإنها فى نظره ليست الوحيدة ، فهناك الأقليم المشترك والروابط الإقتصادية والنفسية المشتركة وتحتفظ الحكومة الصينية لنفسها بالحكم النهائى فى إعتبار مجموعة ما أقلية قومية أم لا ، وبمقتضى هذا القرار تعترف الحكومة الصينية بوجود أربع وخمسين قومية فى الصين ، كل لها لغتها التى تميزها ، ونص دستور الصين على الحفاظ على هذه اللغات القومية لأسباب عديدة ، منها أن الإتحاد السوفيتى كان نموذجا فى هذا السبيل ، فضلا عن وقوع معظم أراضى الأقليات اللغوية على أطراف الدولة فى مناطق تتميز بوعورتها ، فإذا أضفنا عدم التقدم التكنولوجى لهذه الأقليات ليس أمامها سوى أن تتعلم بلغة الهان مع مرور الزمن .

وأحيانا لاتسمح الدول للأقليات المناوئة بحرية لغوية ، خوفا من أن يكون هذا عاملا مساعدا ومشجعا على الأنفصال ، وأضعافا لكيان الأمة. فعلى سبيل المثال ، كانت هناك أقلية نمساوية فى التيرول تقدر بنحو ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ، لم تعطها إيطاليا حرية لغوية ، بل غيرت أسماء

شوارعها وأجبرتهم عن إستعمال الإيطالية فى المدارس والكنائس ، ومع هذا لم يغير من طبيعة الأقلية ، وظلت موالية للغتها الألمانية وعادت لإيطاليا بعد الحرب الثانية تعد بالأعتراف باللغة الألمانية فى التيرول الجنوبى .

ثانيا : الدين

من العجيب أن الذى كان مفروض فيه أن يكون هدى للناس يرتفع بمستواها الحضارى . كان من أكثر العوامل المسببة للحروب بإستثناء العامل الإقتصادى ، بل لقد كانت الأديان مسئولة عن أشد الحروب مرارة وضراوة (بإستثناء الحرب الأخيرة) على أن الدين فى الوقت الحاضر لم يصبح سببا لقيام الحروب الكبرى فى معظم الأحوال وذلك لتغلب العوامل الإقتصادية من ناحية ، وإنتشار التعليم ، ومبادئ المساواة من ناحية أخرى .

الدين والدولة

ومن الخطأ الشائع فإن أحد أهم ركائز فكر " التنوير الأوربى " وأحد أعمدة النهضة الأوربية كان فصل الدين عن الدولة . والواقع إنهم لم يقولوا بذلك ، وإنما قالوا بالفصل بين الدولة والكنيسة "Seperation of State and Church" ذلك أن الكنيسة هى التى كانت تحكم ، كانت الدولة والكينسة كيانا واحد كانت الشرطى والكاهن ، أى أن المطلوب لم يكن نفى الدين عن السياسة ، ولاعزل السياسة عن تأثير الدين ، ولكن فصل المؤسسات ، وأن تكون لكل من الدولة والكنيسة مؤسساتها المتميزة عن الأخرى ، وألا تتدخل واحدة منها فى مجال الأخرى . وكان من عوامل تأزم التجربة السوفيتية هى محاولتها نفى الدين عن السياسة ، ولم تنجح فى نفيه من المجتمع ، لذلك أصبحت الكنيسة من أهم المؤسسات المؤثرة فى الحياة السياسية هناك بعد إنهيار التجربة السوفيتية ، بل وتعتبر كثير من المشكلات أساسها دينى .

وفى أوربا نقرأ فى قوائم الإنتخابات وقوائم الأحزاب أسماء مثل "الديمقراطية المسيحية " ، " والإجتماعية المسيحية " ، وفى فرنسا وفى ظل الحكم الإشتراكى للرئيس السابق ميتران ، كان يلجأ أحيانا إلى الكاثوليكية لتبرير بعض سياساته ، منذ رفض دعوة الولايات المتحدة الأمريكية لفرض حصار إقتصادى على نيكاراجوا فى ظل حكم السانديستا قائلا إن فرنسا لاتستطيع فرض حصار على " شعب

كاثوليكى"، ثم أنظر فى محاولات الصهاينة تهويد القدس بالكامل ، أليس هو إستخدام للدين فى تحقيق مآرب سياسية ؟

لذلك يصبح الدين عامل فعال فى الدراسة الجغرافية السياسية ، إذ يجب عمل حساب الأقليات الدينية ، وطريقة معاملتها من ناحية ، ومن ناحية أخرى لاتنسى أن الكنيسة وقفت ضد توغل وإنتشار الشيوعية .

ويبدو أن العالم قد وصل إلى مرحلة إستقرار ونضج من الناحية الدينية ، ولايبدو أن هناك تحول من دين إلى دين على نطاق واسع ، اللهم ما يقوم به المبشرون بين الجماعات الوثنية ، ولاتتفق الحدود السياسية بأى حال من الحدود الدينية ـ كما يبدو أن الحروب العالمية على أساس دينى قد أصبحت غير ذات موضوع ، فقد شهدت الحربان الأخيرتان الكاثولكى يحارب الكاثولكى والبروتستانتى يحارب البروتستانتي ، والمسلم يحارب المسلم . وقد أحتد الخلاف الآن بين مذاهب الدين الواحد ، كل أصحاب مذهب يعتبرون أنهم المحقون ، وغيرهم هم الضالون، وقد تعقد الأمر وأصبح يدخل كعامل من عوامل تعقد المشكلات الإجتماعية والسياسية ، فأنقسام الإمبراطورية الرومانية الغربية (كاثوليكية) والدولة الرومانية الشرقية أو البيزنطية (أرثوذكسية) كان على أساس مذهبى .

والطريف فى الأمر أنه بدأت وسائل الإعلام فى أوربا و بريطانيا بوجه خاص فى مناقشة " الوثنية الجديدة " على حد قولهم ، إذ إنتشرت مظاهر الوثنية بين قطاعات متزايدة من الناس ، حيث إنصرف هؤلاء بصورة تدريجية عن الديانة المسيحية ، وراحو يبحثون عن الأشباع الروحى فى عالم الخرافة والتنجيم ، وغيرها من المصادر المريبة ، الأمر الذى يعد تفكيكاً للايمان وإنهياراً لمقوماته ، ويعد أكبر تحد للكنيسة، وقد ذكر تقرير لجنة الكنائس البريطانية التى شكلت عام ١٩٩٦ لبحث هذه الظاهرة بأن أبرز مالاحظته أن ٧٠٪ من الشعب البريطانى يؤمن بالله ، ولكن الذين يترددون على الكنيسة لاتزيد نسبتهم على ١٤٪ ، (تنخفض هذه النسبة فى ألمانيا إلى ٥٪ ، وفى فرنسا مابين ٣٪ ، ٤٪) وهؤلاء الذين قطعوا صلتهم بالكنيسة يختارون مايشاءون من معتقدات وخرافات خصوصا تلك القادمة من الشرق الآسيوى (مستودع الخرافات الذى لاينفد) ويخلطونها ببعضها ثم يؤمنون بتلك الخزعبلات ويعتبرونها (دينا جديدا) .

غير أنه يمكن القول بأن الدين قد يدخل عاملا ضمن العوامل العديده التى قد تسبب بعض الأزمات السياسية كما هو الحال فى إقليم كوبيك فى

كندا حيث تنتشر الكاثوليكية بصورة أكبر منها فى بقية الولايات الكندية والتى تغلب عليها البروتستانتية كذلك إذا أحست الأقلية المذهبية بإضطهاد أو التفرقة من جانب الأغلبية ، كما هو الحال فى معاملة الغالبية البروتستانتية للأقلية الكاثولكية فى شمال أيرلند ، وبين سكان شمالى وجنوبى نيجيريا ، وبين ألوالون الكاثوليك والفلمنك البروتستانت فى بلجيكا ، وما فعله الصربيون والكروات فى سكان البوسنة والهرسك ، وما حدث من حزازات بين سكان الهند البريطانية وكانت نتيجة إنقسامها إلى هند وباكستان ، بل وما يحدث الآن بين الهندوس والمسلمين فى الهند، وأخيرا وليس آخرا فى الوطن العربى حيث قامت إسرائيل على أساس دينى ، ففلسطين فى عرفهم هى أرض الأجداد الذين كانوا (هنا) قبل ألفى عام !!

وإذا نظرنا الى خريطة توزيع الأديان لوجدنا أربعة أديان كبرى هى الأسلام والمسيحية والهندوكية والبوذية ثم تأتى اليهودية كديانة خامسة . واذا حللنا نمط التوزيع ، نجد أن المسيحية تنتشر فى الأمريكتين وأوربا وشمالى آسيا وجنوبى أفريقيه واستراليا . وينتشر الأسلام فى شمال أفريقيه وجنوب غرب أسيا ووسطها فجنوبها نحو اندونسيا ، وبعض جهات الصين والهند ، فضلا عن ساحل افريقية الشرقى ، أما الهندوكية فبؤرتها الهند ، والبوذية والكونفوشيسية فى الشرق الأقصى وبصفة خاصة الصين والصين الهندية .

الديانات الرئيسية فى العالم (بالمليون)

إبراهيم الخليل	(التوحيد)	حوالى ١٨٥٠ ق.م	مليون نسمة
موسى	(اليهودية)	حوالى ١٢٥٠ ق.م	+ ١٣
ياسوع المسيح	(المسيحية)	٤ ق.م - ٣٠ م	- ٢٠٠٠
محمد صلى الله عليه وسلم	(الإسلام)	٥٧٠ - ٦٣٢ م	+ ١٠٠٠
الهند	(الهندوسية)		+ ٧٦٤
زرادشت	(زرادشتيه)	٦٥٠ - ٥٨٣ ق.م	+ ٣٣٨
بوذا	(البوذية)	٥٦٣ - ٤٨٣ ق.م	+ ٣٣٨
كنفوشيوس	(الكنفوشية)	٥٥١ - ٤٧٩ ق.م	+ ٦

البناء الدينى داخل الدولة

اذا لم يكن هناك صراع بين الديانات المختلفة ، فإن الأنسجام الدينى يؤدى الى القوة السياسية ، على عكس التعقيد الدينى والمذهبى الذى يؤدى الى ضعفها ، ورغم هذا فإن التعصب الدينى ومحاولة التخلص من الأقليات الدينية يؤدى الى خسائر كبيرة ، فعندما طرد الكاثوليك المسلمين من اسبانيا ، فقد طردت مهارات كان يمكن الاستفادة منها ، وانظر كذلك اشتعال أوار الطائفية الدينية فى لبنان وأثره فى تدهور الأحوال السياسية الذى تعانى منه البلاد نتيجة حرب إستمرت أكثر من خمسة عشر عاما.

ولان كل وطن يجمع اكثر من معتقد ، فإن الأمر يحتاج لصيغة مقبولة من الجميع بحيث يفهم كل صاحب عقيدة حدود عقيدته ، وحدوده مع وطنه .

ونظرا لأن العقائد يتجاوز نطاقها حدود الأوطان ، لأن مستقرها فى قلوب الناس ، وقلوب الناس تستعمرها العقائد وتحتلها ، ومهما يكن حب الأوطان فإنه لايرقى إلى مقام حب العقائد وهذا يجرنا إلى حب الوطن وحب العقيدة .

حب الوطن وحب العقيدة :

" من السهل على الإنسان أن يكون نصف عربى ونصف إنجليزى ، بل وقد يكون حاملا للجنسيتين ، ولكن من الصعب أن يكون نصف مسلم ونصف مسيحى ، أو يكون مسلم ومسيحى فى آن واحد ".

يسعى العقلاء من الساسة دائما لجمع الشمل بين الحبين : حب العقيدة، وحب الوطن ، أو محاولةتضييق الشقة بين الإثنين ، وإستبعاد الخلاف والعراك بينهما . وأحسب أنه إلى الآن لم توجد صيغة مرضى عنها بين أصحاب العقائد المتشبثين بعقائدهم ، ودعاة الوطنية ، المتجردة من النظرة العقائدية .

وقد بذلت محاولات فى مصر للتوفيق بين الإثنين ، فرفع شعار "الدين لله والوطن للجميع" ونرجو أن نضع فى إعتبارنا بعض الثوابت .

(أولا) أن التفريط فى الدين فى حكم المستحيل لأن الدين فيه ترغيب وترهيب ، فأهل الدين يشعرون بسعادة غامرة فى الدنيا ، ويطمعون فى سعادة دائمة فى الأخرة ، فهل يوجد بديل عن الدين يحقق هذه الطموحات

والآمال ، يقينا لا.. ويقابل هذه السعادة خوف من شقاء وحرمان في الدنيا، وعذاب مرعب في الآخرة ، وقد صورت الكتب السماوية الآخرة وعذابها وشقاءها تصويرا يدعو إلى الحذر والخوف ، ويكفي تصوير نار الآخرة أن وقودها ستكون من الناس والحجارة ، فالدين له قوة تأثير بالغة في نفس الإنسان .

(ثانيا) على الرغم من جاذبية الأوطان ، وحبها ، والهيام بها إلا أن عطاءها أو منعها في الحياة الدنيا منوط بالناس فهم الذين يميزون بين المخلصين لأوطانهم ، والمفرطين في حقها ، وقد تتصاعد التزكية إلى تأليه القادة الكبار ، ونحت التماثيل لهم وإطلاق أسمائهم على المدن والميادين ، وقد يكون العكس الإتهام بالخيانة وما يليها من أحكام بالغة القسوة : فالوطنية ليست فيها ثوابت الدين وليست لها " جنة أبدا أو نار أبدا ، وليست لها هيبة الدين وقدسيته ، ومع هذا فإنها موجودة في كل النفوس ولها رموزها ولها معالمها ، والشعب المصري لايزال يتغنى بكلمات مصطفى كامل وسعد زغلول ويترنم بأشعار شوقي ، ونتذكر البيت الذي يقول

" بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وأن ضنوا عليّ كرام".

فعلى الدولة أن تفسح صدرها لتقبل أفكار أصحاب العقائد ، وتعمل على إيجاد صيغة تجمع بين أفكار أصحاب العقائد ، وأفكار الدولة وقوانينها ، وتعمل على إدماج المواطنين في أحضانها ، لاتفرق بين مواطن وآخر مادام هذا المواطن يفي بحقوق الدولة ، ويلتزم بقوانينها ولاتنظر إلى معتقداته حين يطلب مايكلفه له القانون ، وأحسب أن جميع أصحاب العقائد لايقبلون من الدولة أن تؤثر أحدهم على الآخر ، أو تميز بينهم ، وبذلك تضمن إنتمائهم لوطنهم مع حفاظهم على معتقداتهم .

فالدولة من صالحها وصالح مواطنيها مزج الوطن في العقيدة ، وخلق وعي لدى المواطنين ليشعروا بأن صلاح وطنهم من صلاح دينهم ، وأن الدفاع عن الوطن هو دفاع عن الدين ، وأن حماية الدين ورعايته من واجب كل المواطنين .

(ثالثا) أما أصحاب العقائد فإن المطلوب منهم أن يحرصوا على حقوق وطنهم لأنها لاتتعارض مع حقوق دينهم ، فالوطن أرض وشعب ، وتراث ومستقبل ، والعقيدة لاترفض الإنتماء الوطني ، ولاتأذن بالتفريط في حق الوطن ، وحق المواطنين ، وهي تحرص على التراث ، وأناشيد المستقبل

وكلنا يذكر لرسول الله عليه الصلاة والسلام مقالته الحزينة وهو يغادر مكة إلى المدينة .

" والله إنك لأحب أرض الله إلىّ ، ولولا أن قومك أخرجوني منك ماخرجت " ونذكر أن السيد المسيح وأمه البتول عاد إلى الناصرة على الرغم من طيب الإقامة فى مصر . فالأرض عزيزة والأوطان غالية فعلى أصحاب العقائد أن يضعوا أوطانهم نصب أعينهم ، ويضعوا أمامهم هدفا معينا واضحا ، وهو تحالف الأديان مع الأوطان ، وعلى أصحاب العقائد أن يلتقوا على كلمة سواء بينهم ، أن يدوروا مع أوطانهم حيث تدور ، وأن يطرحوا الخلافات الجانبية إذا إقتضت مصلحة الوطن ذلك .

تقسيم الدول فيما يختص بالدين

وتقسم الدول مجموعتين فيمايختص بالدين ، فهناك دول يسودها إنسجام أو وحدة دينية وهى التى يعتنق أكثر من ٧٥٪ من سكانها دين واحد كما فى أقطار العالم العربى بإستثناء لبنان وكما فى فرنسا وأسبانيا والبرتغال والنمسا وبلجيكا ودول أمريكا اللاتينية (مسيحية كاثولكية) والدول الإسكندنافية وإنجلترا وألمانيا وهولندا (مسيحية بروتستانتية) وهناك دول تتعدد فيها الأديان أى لاتتغلب عليها عقيدة واحدة ، وهذه إذا أثيرت فيها النعرة المذهبية تكون خطرا على وحدتها القومية كما فى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ، فالبروتستانتية تمثل ٦٥٪ فى الأولى ، ٦٠٪ فى الثانية ، ولكن الكنيسة الكاثوليكية لها نفوذها القوى ، وتعتبر ولاية كويبك معقل الكاثوليك فى كندا والتى يبلغ الكاثوليك فيها ٤٠٪ من السكان . بينما ينتشر الكاثوليك فى الولايات المتحدة الأمريكية فى الإقليم الصناعى أى فى الشمال الشرقى فضلا عن ولايات الوسط الشمالية وولايات الغرب ككاليفورنيا وأريزونا . وهناك أيضا نحو ٦ ملايين يهودى يتجمع نصفهم فى نيويورك ، أى أن الولايات المتحدة الأمريكية تضم أقل من نصف يهود العالم بقليل ، هناك أيضا يوغسلافيا الصرب (الأرثوذكس) و (الكروات كاثوليك) وتنافس البروتستانتية فى شمالى سويسرا ، والكاثوليكية فى جنوبيها وغربيها .

الفصل الثالث . التركيب القومى

أولاً . التركيب القومى

على عكس الناحية السلالية نجد أن التركيب القومى أكثر أهمية فى الوزن السياسى للدولة ، وهنا يجب أن نفرق بين مدلول بعض الألفاظ ، فالشعب People هو مجموع الأفراد الذين يعيشون داخل الحدود السياسية لدولة ما ، ويحملون تبعية هذه الدولة أو جنسيتها بالمعنى القانونى Nationality بينما الأمة Nation لها مدلول اجتماعى ، اذ يقصد بها مجموع الأفراد الذين ينضوون تحت قومية واحدة ، ويشعرون بأنهم قوم واحد لا عدة أقوام ، لذلك قد يضم الشعب الواحد عدة أمم ، أو قوميات كالشعب السوفييتى ، والشعب الكندى ، وقد تضم الأمة أو القومية عدة شعوب كما هو الحال فى القومية العربية والقومية الألمانية .

وهذا يجرنا الى تعريف للقومية ، القومية ليس لها علاقة كبيرة بالجنس أو السلالة لأننا رأينا أنه لاتوجد سلالة نقية تماماً ، بل نجد كثيرا من القوميات والشعوب تضم سلالات ذات أصول مختلفة كما فى فرنسا ، الكلت والبحر المتوسط ، والنورد ، وفى ألمانيا النورد الالبيين وغيرهم . قد يقال اللغة هى عامل هام فى تكوين الأمة لاشك لأنها الوسيلة التى يستطيعون التفاهم بها ، والإعراب عن مثلهم وثقافتهم وأدبهم ، واختلاف اللغة يمنع السكان من فهم بعضهم بعضاً ، لذلك تعتبر عنصراً هاماً من عناصر تكوين القومية ، وإن كانت هناك بعض الأمم كالأمة السويسرية التى استطاعت تكوين أمة واحدة ، رغم أن اهلها يتكلمون بأكثر من لسان كما ذكرنا ، كذلك لايمكن أن نقول بأن جميع الشعوب التى تتكلم الانجليزية مثلاً تدخل تحت نطاق قومية واحدة .

قد يقال الدين ، وقد استطاع فعلاً أن يكون رابطة قوية ، فى تقوية الشعور القومى لمدة طويلة من تاريخ حياة الانسان ، فقد استندت الحروب الصليبية ظاهرياً الى العامل الدينى ، وكذلك كان الانشقاق بين الهندوس والمسلمين فى الهند ، شجع عليه وزاد من حدته الإستعمار البريطانى قبل خروجه من الهند ، ولكن الدين فى الوقت الحاضر فقد أهميته بعد ظهور فكرة الاله الواحد ، بدلاً من الآلهة المتعددة ، وبعد التسامح الدينى . وبدأت المصالح الإقتصادية تتغلب على هذا العامل ، ولعل أبلغ مثل هو استقلال باكستان الشرقية عن الباكستان الغربية ، وتكوين دولة بنجلاديش رغم أنهما كانا يكونان دولة واحدة (باكستان) ، انفصلت عن الهند بعد

الحرب العالمية الثانية ، وكان أساس الانفصال هو العامل الدينى ، حيث تسود الهندوكية الهند ، والاسلام الباكستان .

قد يقال التقاليد المتوارثة والعادات الإجتماعية المشتركة ، ولكن الأمريكيين الذين لاشك يعتزون بقوميتهم انحدروا من أمم مختلفة ، فى حين أن الكنديين أو الاستراليين الذين انحدروا فى غالبيتهم من العنصر الانجليزى ، يكونون أمما منفصلة عن انجلترا ، ولها طابعها الخاص .

ومعنى هذا ، أن الشعور القومى لايشترط فيمن يعتنقونه أن يكونوا متحدى الجنس ، أو اللغة ، أو الدين ، أو التقاليد ، ولكن هذه جميعاً لايجب أن نذكر آثارها منفردة ، أو مجتمعة فى إذكاء الروح القومية ، فكلما توفر عنصر أو توافرت عناصر منها ، كانت بمثابة العمد التى توحد وتقوى هذا الشعور . وتظهر الروح القومية بأجلى صورها وقت الأزمات ، وبخاصة حين المطالبة بالاستقلال أو الحرية .

القومية فى الحقيقة هى شعور متبادل بين الأفراد ، يجعلهم متأثرين فى عواطفهم ، وسلوكهم بفكرة الولاء لوطن ما ، لأنهم نبت أرض واحدة ، ومصالحهم السياسية ، والإقتصادية ، وأمانيهم وآمالهم واحدة ، يتأثرون بمؤثرات واحدة ، (سواء فى النكبات أو الأفراح) بصرف النظر عن ميولهم الطائفية ، أو الدينية أو مصالحهم الفردية .

فالاحساس بالقومية بين أعضاء الجماعة هو احساس عميق وليس بعقد سياسى بين أفراد هذه الجماعة ، هو اتحاد قلوب مادام قد تحقق فلا يمكن أن يزول ، فالقومية لاتزول ولكن الدول يمكن ان تتغير ، وتتبدل بل وتزول ، هو شعور بالجماعية **Togetherness** وقيمة هذه الجماعة ، وفضائلها .

والشعور القومى أو الوطنى يبعث فى النفس شعورا بالفخر بذلك الوطن وإنجازاته ، والإيمان به وقد يؤدى هذا أحيانا إلى الغلو والتطرف فى الوطنية **Chauvinism** والخوف من الأجانب أو الغرباء **Xenophobia** ويساعد على وحدة الجماعة وإنطلاقها فى عمل جماعى سواء فى الداخل أحيانا ضد القوميات الأخرى أو خارجيا ضد الشعوب الأخرى، لذلك كانت الدولة القومية أو التى تتمتع بتجانس قومى تتميز بتماسك كبير .

هذا وقد لعبت الأخطار والضغوط الخارجية دورا كبيرا فى تكوين القومية وتماسكها ، وهذا أمر معروف فى تاريخ إنجلترا ، وأسكتلند ،

وبولنـدا ، وفيتنـام ، فتلـك المعـارك التـى خاضتهـا هـذه الشـعوب ، وإنتهـت سـواء بنصـر أو بهزيمـة سـاعدت علـى صهـر الجميـع فـى بوتقـة واحـدة .

فهنـاك إتفـاق بيـن البـاحثين علـى أن أسـاس الحركـة القوميـة الأفريقيـة هـى رد الفعـل والوعـى بـالذات ضـد الإسـتعمار الأبيـض ، ويشـترك فـى هـذا الكتـاب الأجـانب أو الإفريقييـن فـالزعيم الإفريقـى **Sithole** فـى بحثـه عـن القوميـة الأفريقيـه يقـول بـأن أفريقيـه تديـن بـالروح القومـى للأسـتعمار الأوروبـى ، فهـو الـذى عبـأ الشـعور ، وخلـق الوعـى بـالذات بيـن الإفريقييـن، وجمـع شـتاتهم القبلـى تحـت هـدف واحـد . وكقـاعدة عامـة أن الوعـى بـالذات وبالجماعـة لايبدأ جديـا الا حيـن تجد الجماعـة نفسـها فجـأة وجهـا لوجـه أمـام جماعـة أجنبيـة مختلفـة كـل الإختـلاف ، والمقاومـات المبتكـرة التـى يسـجلها تـاريخ القـارة لبعـض القبـائل ، أو لمجموعـات قبليـة هـى أولـى أرهاصـات القوميـة ، مثـل مقاومـة قبـائل داهومـى والمتـابيلى فـى تسـعينيات القـرن التاسـع عشـر ، وليس هـذا عيبـا علـى أيـة حـال ، فكمـا يقـرر الجغرافـى البريطـانى هـالفورد مـاكيندر أنـه لـم ينقـل أوروبـا الوسـيطة مـن مرحلـة القبـائل إلـى الشـعوب ، ولـم يخلـق الشـعور بالقوميـة ، والوعـى بـالذات ، إلا الأخطـار الخارجيـة الثلاثـة التـى أحدقـت بشـبه جزيـرة أوروبـا، التتـار مـن الشـرق ، الفيكنـج مـن الغـرب ، والعـرب مـن الجنـوب .

يجـب فـى دراسـة الجغرافيـا السياسـية فهـم التكويـن القومـى لأن الحـدود السياسـية أحيانـا تقتطـع مـن قوميـة معينـة وتلحقهـا بقوميـة أخـرى فينشـأ مـايعرف بأسـم الأقليـات **Minorities** وهـذه تنقسـم إلـى أقليـات قوميـة **National Minorities** أى تدخـل فـى تكويـن القوميـة الأصليـة فـى الدولـة ، كمجموعـة الزنـوج فـى الولايـات المتحـدة ، أو الأتـراك فـى بلغاريـا ، وهنـاك الأقليـات غيـر القوميـة **Anti National Minorties** أى التـى لـم تلتئـم أو تنصهـر فـى القوميـة الأساسـية ، وهـم لايعتـبرون أنفسـهم مـن العنصـر الأساسـى ، وهـؤلاء يقسـمون بالتـالى إلـى تلـك التـى لاتجـد أمامهـا الفرصـة سـانحة للإنفصـال . مـن أمثلـة الأقليـات القانعـة الدانمركييـن الذيـن يعيشـون فـى ألمانيـا ، والأتـراك فـى اليونـان . ومـن أمثلـة غـير القـانعين الألمـان فـى بلجيكـا ، وتشيكوسـلوفاكيا ، وبولنـدا ، والتشـيك فـى ألمانيـا ، والعـرب فـى إسـرائيل .

أنـواع الـدول بحسـب التركيب القومـى

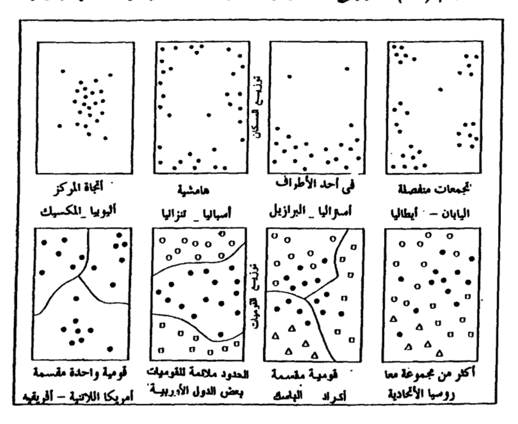
النـوع البسـيط **Simple** : هـو أكـثر شـيوعا ، ويقصـد بالبسـيط البسـاطة النسـبية ، لأن الدولـة تتكـون مـن عنـاصر متعـددة فعـلا ، ولكـن عمليـة المـزج

والتمثيل للعناصر المختلفة تمت منذ أمد طويل ، ويعتبر الفرنسيون مثلا لذلك ، فليس من شك أن هناك مركب من عناصر كلتية ونوردية ، بحر متوسط ، ولكنك لاتجد تنافرا بين الشعب الفرنسي . وكذلك الحال في المصريين ، تحس أن الكل في واحد .

النوع الملتئم **Segcmented** : وهذا يطلق عليه ملتئم وليس بسيطا ، نظرا لأنك يمكن أن تميز المجموعات المتعددة ، ويلاحظ أن عملية التمثيل والهضم والوصول إلى مرحلة النضج أو التركيب البسيط لم تصل إليها الأمة بعد ، ولعل دول الأمريكتين خير مثال لهذا النوع ، وكذلك السودان ، وإيران ، والمملكة المتحدة .

التكوين المركب **Complex** : فهو في الدول التي لم تنضج قوميا بعد. فيمكن أن نقول بأن عناصرها مختلطة ، ولكنها لم تمتزج بعد ، لأن كل منها يحتفظ بشخصيته ، وهذا مصدر ضعف الدولة ، كما في تشيكوسلوفاكيا السابقة فعناصر التشيك والسلوفاك لم يلتئما بعد ولذلك إنفصلا ، كذلك الحال في الأتراك واليونانيين في قبرص ، والكروات والصرب والبوسنة وغيرهما في يوغسلافيا السابقة .

شكل رقم (١٠) : توزيع السكان والمجموعات الثقافية وعلاقاتها بدولها



هذا وكلما كان التكوين القومي للدول من النوع البسيط ، أى تتطابق فيه الدولة مع الأمة أو القومية وتعرف فى هذه الحالة بأسم الدولة القومية Nation state كانت أكثر ثباتا وإستقرار ، لأن الدولة فى هذه الحالة هى التعبير السياسى الصحيح لأمة أو قومية معينة ، ويعتبر هذا من عناصر قوتها . وعلى العكس إذا كان التكوين مركبا ، وتعددت الأقليات، فإن القوى المعادية تحاول إستغلالها لتفكيك الجبهة الداخلية ، وبالتالى أضعاف الدولة ، كمحاولات الألمان إستخدام الأيرلنديين ، والبلجيك الفلمنك ، والروس الأوكرانيين أثناء الحرب العالمية الثانية ، ويستندون فى دعواهم إلى المبادئ العالمية المعروفة وهى الحرية والمساواة والأخاء " Liberte, Egalite, Fraternite " بين بنى الإنسان ، هذا فضلا عن الصراع الذى يقوم بين القوميات المختلفة ، وبالتالى يضعف من التلاحم القومى .

أنواع الدول المركبة أو ذات المجتمعات المتعددة :

١- دول تضم قوميتين متقاربتين بحيث لاتزيد إحداهما على مثلى الأخرى ، فضلا عن مجموعات أخرى ذات نسبة ضئيلة كما هو الحال فى بلجيكا وتشيكوسلوفاكيا سابقا وكندا وأتحاد ماليزيا ، ولاتظهر فى أى من هذه الدول مجموعة ثالثة يمكن أن تحدث توازنا بين القوميتين الكبيرتين ، ويؤدى هذا الوضع إلى درجة عالية من عدم الإستقرار الداخلى .

٢- دول تضم قوميتين رئيسيتين ، ولكن واحدة منهما يقل حجمها عن ثلث الأخرى ، وفى هذه الحالة من المتعذر على الأقلية أن تسبب إضطرابا للدولة ، وإن كان يمكن أن تسبب مشكلات سياسية بين الحين والحين ، كويلز فى المملكة المتحدة وأقليات الهنود الأمريكيين فى أمريكا اللاتينية بالنسبة لأغلبية المستيزو (المولدون) وجمهورية جنوب أفريقية وإن كان المثل هنا صارخا حيث كانت تتحكم الأقلية البيضاء فى الأغلبية الأفريقية .

٣- دول تضم ثلاث قوميات كبيرة أو أكثر لايمكن لأى منها أن يكون أغلبية ، ويدخل ضمن هذه المجموعة يوغسلافيا ، والهند، والباكستان ، وإيران ، وكثير من الدول الأفريقية كنيجيريا ، وكينيا.

غير أنه يلاحظ أن فى المجتمعات التعددية Plural Societies التى ذكرناها قد لاتنشأ مشكلات سياسية ، ويعيش أفراد الشعب فى وئام كما هو الحال فى سويسرا ، إذ <u>يتوقف الأمر على عدة أمور منها :</u>

١- المستوى التعليمى الذى بلغه معظم أفراد الشعب ، إذ يتناسب هذا المستوى عكسيا مع إحتمالات الصراع .

٢- تقل إحتمالات الصراع كلما قلت الفوارق الإجتماعية والإقتصادية بين القوميات المختلفة ، إذ تزيد هذه الصراعات إذا كانت تغطى فروقات كبيرة فى مستويات المعيشة ، والنشاط الإقتصادى ، وقد عمل هذا الفارق على فصل المهاجرين الصينيين عن المواطنين الماليزيين والأندونيسيين ، وفصل البروتستانت عن الكاثوليك فى أيرلندا الشمالية ، والوطنيين عن الأوربيين فى جنوب أفريقيا .

٣- تقوقع القومية جغرافيا ، وذلك أن الأقليات القومية تميل إلى التجمع فى مكان واحد لوحدة اللغة والعادات والتقاليد ، وبالتالى ينشأ 'الجيتو' الخاص بهم ، فيزداد الترابط بينهم ، والتباعد عن المجموعة أو المجموعات الأخرى ، (الأحياء الصينية فى جنوب شرق آسيا - الجيتو اليهودى فى أوروبا فى العصور الوسطى - الأحياء الزنجية فى المدن الأمريكية) .

ثانياً : الأقليات الثقافية

الأقلية الثقافية هو المصطلح الذى يطلق على الأقليات أيا كانت سواء كانت أقليات عرقية (أثنية) أو دينية ، أو لغوية ، أو قومية ، أو قبلية ، وذلك وفقا لنموذج اللجنة الخاصة التابعة للأمم المتحدة بشأن حماية الأقليات ، وإذا كان لها الحق فى شئ ما ، فهذا معناه الإلتزام من جانب الأفراد الآخرين أو الحكومة بتوفير كل الوسائل لهذه الجماعة لممارسة هذا الحق دون أى معوقات ، فقد تضمنت الإتفاقية الدولية للحقوق المدنية والسياسية ، وملحقاتها التى أقرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٦٦ بعض المبادئ التى تتناول حقوق الجماعات ، مثل حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، والقضاء على التمييز العنصرى ، وحماية الأقليات، وحق الأقليات العرقية والدينية واللغوية فى الإستمتاع بثقافتها ، وممارسة ديانتها ، وإستعمال لغاتها ، وغير ذلك مما يمكن إعتباره حقوقا للأقليات.

الأقلية بالمعيارين العددى والإجتماعى :

والأقلية بالمعيار العددى هى القلة أو الأصغر فى العدد بين مجموعتين كما جاء فى القاموس السياسى ، ' إن الأقليات فى العرف الدولى هى

فئات من رعايا دولة من الدول تنتمى من حيث السلالة أو اللغة أو الدين إلى غيرما تنتمى إليه أغلبية رعاياها ' ، غير أن الموسوعة الدولية للعلوم الإجتماعية ترى ' أن الأعداد النسبية لأية مجموعة بشرية داخل إطار الجماعة الوطنية (داخل الدولة الواحدة)، لاتعد كافية لتعريف أو تحديد وضع الأقلية وإنما يفترض أن يتم تحديد ذلك من خلال إعتماد منظور سيسولوجى ، أى إجتماعى ،أى من خلال تبيان الأهمية التى تتمتع بها الجماعة البشرية المعنية ' ، فالزنوج فى جنوب إفريقية قبل الإستقلال كانو يمثلون أغلبية بالنسبة للبيض ، ومع ذلك نظرا لتدنى وضعهم يعتبرون فى عداد الأقلية .

إنبعاث الحركات الإنفصالية بشدة

كثرت الدراسات التى تتناول ظاهرة إنبعاث الحركات القومية خلال السنوات الأخيرة ، ويجمع كثير من المحللين الإستراتيجيين والمفكرين على أن العنف الطائفى أو القومى من النوع الذى يجتاح منطقة البلقان وجمهوريات الإتحاد السوفيتى السابق هو المشكلة المرشحة للتفاقم خلال السنوات القادمة وآوائل القرن الحادى والعشرين .

فقد فجرت التغيرات الكبرى التى تعرض لها العالم خلال السنوات القليلة الماضية قضايا عديدة تحت الشعار العام لهذه التغيرات وهو ' حقوق الإنسان ' ومن أخطر هذه القضايا إنفلات غول القوميات والأصول العرقية من عقالة فشعار حقوق الإنسان الذى رفعه الغرب لتحطيم الكتلة الشيوعية خرج عن السيطرة وأفلت من زمام الجميع . وإذا كان الإتحاد السوفيتى قد ظل يكافح ضد الطموحات القومية والنزعات العرقية لمدة سبعين عاما وكذلك الأمر بالنسبة لشرق أوربا الشيوعية وخاصة يوغسلافيا التى صارت على نهج السوفيت فى محاولة صهر مجموعة كبيرة من القوميات والأصول العرقية فى دولة واحدة فإن هذه الدول لم تتمكن من قمع الصراعات والنزعات القومية إلا بواسطة جيوش ضخمة وهائلة فى التسليح ، أما الآن وقد إنهارت هذه الدول فإن كل شئ عاد لبدايته .

وعلى سبيل المثال فإن هناك حاليا حوالى مائة وخمسة وعشرين عرقا فى روسيا ودول الكومنولث السوفييتى ويصنف ٢٥ نزاع منها على أنها نزاعات مسلحة فإذا أضفنا إلى ذلك النزاعات الدائرة فى منطقة البلقان وتلك المرشحة للإنفجار فى شرق أوربا حيث أظهرت بعض الدراسات أن هناك ٤٠ ' نقطة وميض ' عرقية فى أوروبا تهدد بالأنفجار، فضلا

عن الصراعات العرقية المماثلة التى تخمد وتنفجر عبر العالم القديم سواء فى الهند وسريلانكا ، وآسيا الوسطى ، والشرق الأوسط (الأكراد) وأفريقيه (رواندا ، بوروندى ، جنوب السودان ، أثيوبيا ...)

وإذا كانت بعض الأقليات الثقافية قد إندمجت فعلا فى ثقافة وذاتية المجتمع الوطنى بحيث لم يعد لهذه الثقافات المحلية وجود الا كوقائع تاريخية . فإن الغالبية العظمى من الدول تضم بين مواطنيها أقليات لم يكن من الممكن إستيعابها جميعا داخل المجتمع القومى ، والقضاء على ماتثيره من التحديات التابعة من البعث القومى ، والتى إزدهرت بصفة خاصة خلال السنوات القليلة الماضية، فمن أهم التطورات الرئيسية التى شهدها العالم منذ حقبة السبعينيات ظهور أو إعادة ظهور الحركات القومية فى المناطق الهامشية لكثير من الدول مثل أسكتلند وأيرلند فى المملكة المتحدة ، وكويبك ' فى كندا و' الباسك ' فى أسبانيا و'بريتانى ' و'كورسيكا ' فى فرنسا التى شهدت فى سنة ١٩٧٦ وحدها إضرابات قومية فى خمسة أجزاء مختلفة منها ، كما يشتد الصراع فى امريكا بين السود والبيض فى كثير من الولايات مما يؤكد أن الروح القومية والقيم العرقية والثقافية لم يكن من الممكن إخمادها نهائياً .

وفى مواجهة هذه التطورات ، وفى ظل السياسة العالمية التى تؤكد الإلتزام بحقوق الأنسان ، واحترام حرية الشعوب وحقها فى تقرير مصيرها ، تكهن بعض المفكرين بإستمرار تصاعد موجات الإنتفاضات العرقية ، وحركات الأقليات القومية ، بل وأيضاً نجاحها فى تحقيق غاياتها .

هل ينقسم العالم الى ٤٠٠ دولة ؟

وتشير بعض الدراسات الى ان الصراعات القومية ترجع الى العهود الإستعمارية ، ويقول الباحثون ان هناك حوالى ثلاثة ألاف وخمسمائة مجموعة من البشر فى أماكن مختلفة من العالم يصفون أنفسهم بشكل أو بآخر على أنهم قومية أو شعب ، فى حين أن المعترف به كدول فى المجتمع الدولى هو ١٨٥ دولة فقط ، مما يجعل إحتمالات الصراع العرقى غير محدودة فى عالم مابعد الحرب الباردة .

ولعل من أهم التحذيرات التى صدرت فى هذا الموضوع ، هو ذلك الذى جاء من الأمم المتحدة على لسان أمينها العام السابق الدكتور/ بطرس غالى حيث حذر من أن العالم قد ينقسم الى ٤٠٠ دولة ، وتوقع أن يكون ذلك هو الخطر الجديد الذى سيظهر فى العالم خلال السنوات

العشر القادمة ، وضرب مثالاً على ذلك بأفريقيه التى يوجد بها حوالى ٨٠٠ جماعة عرقية وحوالى خمسة الأف قبيلة ، فإذا طالبت كل منها بحق تقرير المصير ، فكيف ستصبح صورة القارة الأفريقية ياترى ؟

إننا إذا اضفنا عوامل الأزمة الإقتصادية الى عوامل الصراعات العرقية والقومية ، فلن نخرج سوى بنتيجة مخيفة عن إحتمالات تفجر الصراعات واستمرارها ، والتى لاتهدد بقعة محدودة من العالم ، وإنما يمكن أن تمتد نيرانها لتشمل العالم بأسره .

الهدف النهائى :

والهدف النهائى الذى تسعى اليه أى أقلية ثقافية أو قومية ترغب فى الأحتفاظ بذاتيتها أو تدعيم هذه الذاتية ، هو محاولة الإنفصال عن الدولة التى تشغل فيها مركز الأقلية . وتؤسس الجماعات القومية ودعاة الحركات الإنفصالية مطالبهم فى مواجهة مجتمعاتهم على مايتعرضون له - أو ما يدعونه — من أنواع الحرمان وضروب الظلم سواء كانت هذه المطالب تتوخى المعاملة المنصفة بسبب التعرض للإستغلال الإقتصادى بواسطة الأغلبية ، أو تجاهلهم من الناحية السياسية ، أو معاملتهم معاملة أدنى ثقافيا ، أو مطالب من أجل الحصول على إمتيازات خاصة ، أو أعفاءات معنية ، أو غير ذلك من المطالب التى تعتبر من وجهة نظرهم، مبررا لتقسيم أو تفتيت الدولة التى تواجه أقلياتهم يمثل هذه المظالم .

أسباب تصاعد الإضطرابات القومية فى الوقت الحاضر :

١- عملت برامج الأخبار فى التلفزيون على نشر الأنشطة الدعائية للحركات القومية للأقليات ، ففى حين أن الجماعات القومية كانت تحتاج فى الماضى إلى عقد العديد من الإجتماعات ، وتوزيع كميات كبيرة من النشرات ، والكتيبات ، حتى يمكن أن تصل أنباؤها إلى عدة آلاف قليلة من الناس ، فإن الجماعات المعاصرة يمكن أن تثير أهتمام ملايين الناس من خلال أى نشاط تقوم به شريطة أن تكون قادرة على إجتذاب آلات تصوير التلفزيون . وهكذا فحين يقوم الجيش الجمهورى الأيرلندى بسلسة من الانفجارات فى قلب لندن بين الحين والآخر ، فهو ليس للإرهاب فحسب ، بل للإعلام أيضاً ، حيث يهرع التلفزيون ، بل ووسائل الأعلام الأخرى الى مكان الحادث لتغطيته .

٢- كان لإنتشار التلفزيون على نطاق واسع أثره على طغيان ثقافة الأغلبية واستئثارها باهتمام الجميع ، والى التقليل من شأن ثقافات

الجماعات الأقلية ، وقد ترتب على هذا الوضع إثارة جماعات الأقليات وتصدى زعمائها للدفاع عن لغتهم وثقافتهم التى باتت تتعرض للتآكل التدريجى والأنقراض عبر الأجيال .

٣- أدى الترشيد الصناعى الذى انتشر منذ الحرب العالمية الثانية فى كثير من الدول المتقدمة الى مزيد من التركيز بالنسبة لمراكز الأعمال فى المدن الكبرى ، مما ترتب عليه عدم قدرة الجماعات أو الأقليات التى تعيش فى المناطق الهامشية على السيطرة على شئونها الإقتصادية ، والإجتماعية التى أصبحت خاضعة لنفوذ المجتمع المسيطر .

٤- تتقسم الفترة الراهنة من تاريخ الجنس البشرى بنمو القلق السياسى الناجم عن تزايد الحديث عن الحرب النووية المقبلة والمجاعة العالمية ونفاد موارد الطاقة ، وغير ذلك من المشاكل والأزمات الحادة مما جعل الجماهير غير قادرة على تقبل أى موقف يثير مزيداً من استيائهم واضطرابهم ، وفى مثل هذه الظروف تتكتل الجماهير ذات المطالب المتماثلة للدفاع عن مطالبها وحقوقها والنضال من أجلها .

مصيدة العرقية :

أوضحت أحدى الدراسات فى كندا أن مطلب المحافظة على التمايز الثقافى أدى الى صعوبة تحقيق المساواة الإقتصادية ، فقد تبين أن الكنديين الفرنسيين يشغلون وضعاً اقتصادياً أدنى من الكنديين البريطانيين وغيرهم من الأقليات التى وصلت كندا بعد الفرنسيين الذين كانوا اول المستعمرين لهذه البلاد .

لقد حرصت الأقليات الفرنسية (كويبك) - رغبة منها فى حماية قيمتها الثقافية - على تخصيص ساعات دراسية أطول لكل من اللغة الفرنسية ، والثقافة الكاثوليكية ، والثقافة القومية ، مما تبعه تخفيض الساعات الدراسية المتاحة للموضوعات والمواد العلمية ذات النفع الإقتصادى ، الأمر الذى ترتب عليه تقليل فرص المواطنين فى الحصول على الوظائف التى تمكنهم من تحسين أوضاعهم الإقتصادية ، وبلوغ مركز المساواة ، مع غيرهم من الأقليات ، ولم يكن ذلك ممكناً الا باللجوء الى تعليم أبنائهم وأحفادهم اللغة الانجليزية .

كيف تتعامل الدولة مع الأقليات ؟

يمكن أن نجملها فيما يلى :-

أولا : موقف اللامبالاة أو تجاهل القضية ، طالما أنها لم تصل إلى الحد الأدنى الذى يهدد سلطة الدولة أو الاستقرار ، وقد يكون لهذا الموقف مبرراته أو أعذاره اذا كان الأقليات ' اقليات ' بالفعل ، اى لايتجاوز عدد أفرادها الواحد أو الأثنين بالمائة ، أو كانت مصالحها الإجتماعية والإقتصادية تقضى عليها بأن تساير أو تخضع لحكم الأكثرية وقوانينها وخياراتها المصيرية ، (كان ذلك ، مثلا ، موقف بعض الأقليات الدينية أو الأوربية أو المذهبية فى السلطنة العثمانية) ، أما عندما يكون حجم الأقلية كبيراً نسبياً (من ٧ الى ١٥ بالمائة ، مثلا ، أو تكون هذه الأقلية متجمعة فى أقليم واحد ، أو موجودة على حدود دولة تتواجد بها أقلية أو أكثرية من العرق أو الدين أو الثقافة ذاتها ، (الأكراد فى شمالى العراق) ، أو تكون هنالك ظروف إقليمية أو دولية " محركة" أو " محرضة " لهذه الأقلية ، أو تكون أوضاع هذه الأقلية الإقتصادية والإجتماعية متدنية كثيراً عن مستوى أوضاع الأكثرية (الريف بالنسبة للمدن) ، أو يكون الحكم المركزى قاسياً أو ظالماً فى تعامله مع الأقلية وأمانيها .. عندئذ فإن هذه الأقلية سوف تخرج عن سكونها واستسلامها ولن يتمكن النظام الحاكم من تجاهل أو تأجيل معالجته لقضاياها .

ثانياً : التصفية والتهجير والقمع ، فى القرون السابقة ، بل وحتى منتصف هذا القرن ، كانت التصفية الجماعية أو ' التطهير العرقى ' أى الأبادة والتهجير بالقوة ، من بين الحلول التى كان حكم الأكثرية يلجأ اليها لحل مشكلة الأقليات الرافضة أو المتمردة فى العالم - مثلما حدث للهنود، سكان القارة الأمريكية الأصليين ، وللعرب والمسلمين واليهود فى الأندلس ، بعد انتصار الكاثوليكية الأسبانية ، وللأرمن فى تركيا ، قبيل وبعيد الحرب العالمية الأولى ، وللفلسطينيين فى عام ١٩٤٨ ' ولعل آخر ماسمعنا عنه من تطهير هو محاولة إبادة الصرب والكروات لمسلمى البوسنة .

ثالثاً : وهو ماكان يمارس فى أكثر من دولة فى العالم (كانت أفريقية الجنوبية فى طليعتها ولاتزال إسرائيل تمارسه بشكل أو بآخر رغم براعة التغطية السياسية والإعلامية ، هو مراقبة الأقلية عن كثب وخنقها بقوانين وتدابير وإجراءات ادارية واقتصادية مميزة ، بحيث تشل طاقتها على التحرك أو إختيار مصيرها بحرية ، وبالرغم من أن هذا الحل يبقى '

مؤقتا وعرضه للتغيير تحت ضغط الرأى العام الدولى ، فإن أخطر ما فى هذا الأسلوب الزجرى هو أن الأقلية تتحول ، حتما ، إلى ' طابور خامس ' مستعد للتعاون مع أعداء الوطن أو الدولة أو إلى مشتل لزرع وإنبات المعارضين وتكوين جماعات الإرهاب

رابعا : التقسيم أو الإنفصال ، وبالرغم من أن هذا الحل لم يحقق للأقليات المنفصلة والمكونة لوطن أو دولة جديدة ، فى غالب الأحيان ، كل ما كانت تسعى إليه أو تحلم به ، فأنه طبق فى هذا القرن وفى أنحاء عديدة من العالم أشهرها : فلسطين، والهند ، الباكستان وبنجلاديش وغيرها . ولقد عاد هذا الحل إلى " الظهور " بعد سقوط الأتحاد السوفييتى ، بالنسبة لعدد كبير من الجمهوريات التى كان الإتحاد يضمها ، فى البلطيق وآسيا الوسطى وما حدث فى يوغسلافيا ، وفى تشيكوسلوفاكيا، يبرزهذا الحل الإنفصالى بين ' مجموعات ' لم يتمكن الضم الوطنى أن يزيل منها خصائصها كأقليات ، فأستيقظت من جديد ، وأدت إلى التقسيم أو الحروب .

وبالرغم من أن التقسيم ' نجح ' فى حالات كثيرة ، أو كان لابد منه فى حالات أخرى ، فأنه فى حالات أخرى لم يحل مشكلة الأقليات ، ومثال الباكستان وبنجلاديش مثال صارخ على أن إنفصال المسلمين عن الهند لم يمنع إنقسام الباكستان وإنفصال بنجلاديش المسلمة عنه ، كما أن للتقسيم مخاطر أكبر ، فعندما تنفصل مجموعتان كانتا متعايشتين فى كيان وطنى أو تحت ظل دولة واحدة ، إلى دولتين ، وغالبا مايكون ذلك أثر إضطرابات دامية (الهند) أو حروب (فلسطين) ، يتولد بين الكيانين الجديدين المتجاورين ' عداء ' قوى ، لاسيما فى قلوب الذين يضطرون إلى مغادرة ' أرض أجدادهم ' ومنازلهم، وهذا العداء قد يكون أشد ضررا وخطرا على ' الأقليات ' المنفصلة عن بعضها البعض ، من ضرر ومخاطر الإستمرار فى العيش معا فى ظل دولة واحدة ، وهل أبلغ من الحالتين الفلسطينية والإسرائلية والهندية ـ الباكستانية ، مثلا ؟

خامسا : الكونفيدرالية والفيدرالية والحكم الذاتى بين " ضبط الأقليات وإنفصالها عن الأكثرية " ، كانت هناك حلول أخرى .

أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت الدولة الأولى ، فى العصر الحديث التى إعتمدت الفيدرالية كنظام سياسى يمكن التوفيق ، ضمنه ، حقوق ومصالح 'أقليمية' أيا كان نوعها ، وبين مصلحة الدولة العاليا ولكن هذا النظام الذى وجدت كل ' الأقليات ' فيه ، نظريا أو مبدئيا ، وإلى حد ما ، الحل الأفضل لمشاكلها بالنسبة للدولة والأكثرية ، ما كان

لينجح ـ حتى الآن ، إلا لأن الفيدرالية الأمريكية ، نموذج أمريكي خاص، صعب التطبيق على شعوب عريقة في تاريخها وتقاليدها ولم تتوفر لها الفرص التى توفرت للمواطن الأمريكى ، ولعل السر الحقيقى وراء نجاح النموذج الأمريكى لحل مشكلة الأقلية والأكثرية ، هو أن معظم المواطنين الأمريكيين ، ' تخلوا ' عن متخيلاتهم التاريخية والعقائدية والعرقية ، وتلك حالة خاصة لاتنطبق على الشعوب والأقليات الأخرى فى العالم، ومع ذلك فهناك الأقلية السوداء .

ولكن الفيدرالية ، والكونفيدرالية ، (والفرق بينهما معروف ، وأن كان عمليا غير كبير) ، لم تكن ' إختراعا ' أمريكيا ، بل عرفتها دول أخرى عبر التاريخ وإن كانت ' تسميتها ' مختلفة ، فالأمبراطوريات الكبرى القديمة كانت تقوم على نوع من الفيدرالية أو الكونفيدرالية أو ' الحكم الذاتى ' بحيث أن السلطة المركزية كانت تتولى الشئون العليا للدولة وتترك للحكام المحليين ، بل للمؤسسات الوطنية أو الدينية المحلية ، ولقد كانت الإمبراطورية العثمانية التى إستمرت عدة قرون ، نموذجا لهذا النوع من الحكم اللامركزى الذاتى وللأعتراف بحقوق ومصالح الطوائف والمناطق التى تضم أقليات . أن عدد الدول التى تقوم ، اليوم ، على أساس الإتحاد الفيدرالى أو الكونفيدرالى واللامركزية الإدارية والإقتصادية ، كبير [الولايات المتحدة الأمريكية ، البرازيل ، المكسيك ، ألمانيا ، يوغسلافيا (سابقا) كندا إلخ ...] ، وبالرغم مما يوفره هذا النظام من إمكانية حلول لمشاكل الأقليات ، محليا أو قانونيا أو إقتصاديا فإنه لم ينجح كليا فى القضاء على الفروقات التى تشكو منها الأقليات ولا على الشعور بأن القرار فى النهاية هو من صنع الحكم المركزى .

الفصل الرابع . السكان والتكنولوجيا

أولاً : السكان

ويقصد بدراسة السكان ديموغرافيا دراسة نمو السكان وعلاقته بالمواليد ، والوفيات ، والهجرة الخارجية ، والداخلية ، من الناحية الديناميكية أو التطورية ، أى إتجاهات السكان ممثلة فى النمو بشقيه ، وهما الزيادة الطبيعية ، والهجرة بالإضافة إلى بعض العناصر المتصلة بالنمو ، كتقسيم السكان إلى ذكور وإناث ، ونسبة الشبان ، ومتوسط الأعمار وهكذا .

ويعتبر من الأمور المفيدة تمثيل سكان الدولة بهرم يدعى هرم السكان أو هرم الأعمار ، فيقسم السكان إلى فئات ، وكل فئة خمس سنوات تمثل بقضيب أفقى ، وترتب القضبان الأفقية الواحد فوق الأخر ، بحيث تكون أصغر المجموعات سنا فى أسفل ، وعادة ما تقسم القضبان أيضا من ناحية الجنس إلى ذكور وإناث ، فإذا كانت الأمة مقبلة على نمو سريع ، فستكون قاعدة الهرم أكبر من التى فوقها وهكذا ، أما إذا كانت الأمة مقبلة على تدهور فى عدد سكانها نتيجة لنقص مواليدها كانت قاعدة ضيقة ، أو بمعنى آخر ، أن أطفال مرحلة الخمس سنوات الأولى تكون أعدادهم أقل مثلا من الشباب الذين يتراوح أعمارهم بين العشرين والخمس والعشرين عاما ، وأهرام السكان للدول المختلفة هى من النوع الأول ، أى المنتظم كمصر والفليبين ولبنان والمكسيك ، بينما نجد أهرامات دول غرب أوربا فى معظمها غير منتظمة كبريطانيا وفرنسا . ويشير هرم السكان إلى وفرة اليد العاملة فى الدول النامية الآن وفى المستقبل . ذلك أن إرتفاع نسبة الأفراد فى فئة السن أقل من ١٥ سنة فى أحد الأجيال معناه زيادة نسبة الفئة الخصبة فى الجيل التالى ، كما أن المجموع الكلى لأطفال أحد الأجيال يمثل القوة البشرية العاملة فى الجيل التالى ، ذلك أنه لايمكن إعتبار جميع السكان قوة عاملة ، فالقوة البشرية العاملة تنحصر فى فئات السن بين ١٥ ، ٦٠ سنة ، ولهذا يمكن معرفة القوة البشرية العسكرية المتاحة للمجهود الحربى .

أما الدراسة الجغرافية فيقصد بها دراسة التوزيع ، ومن الدراستين تخرج فعلا بفكرة عن مشكلات السكان التى ترجع إلى عوامل عديدة متشابكة منها ما هو حيوى ، ومنها ما هو إقتصادى ، وإجتماعى ، وسياسى ، وهذه عناصر لابد من الإستعانة بها فى دراسة الجغرافية السياسية .

والـذى لاشـك فيـه أن ضخامـة حجـم السـكان لاشـك تعطـى قـوة بشـرية هائلـة فـى العمليـات الحربيـة ، ولازالـت الحـروب الحديثـة فـى حاجـة إلـى الأعداد الغفيرة من القوى البشـرية ، الحـرب الكوريـة ، الهنـد الصينيـة مـع فرنسا ، فيتنام . فمـا زال دور المشـاة فـى القتـال لـه أهميتـه ، ورغـم تقـدم الأسـلحة الحربيـة ، مـن الـذى سـيتقدم لإحتـلال الأرض الجديـدة أهـى الطـائرات أم الصواريـخ ؟

فهذه الأخيرة هـى أسـلحة معاونـة فـى الوقـت الحـاضر كمـا كـانت فـى المـاضى مـع تطـور هـذه الأهميـة . ونستشـهد فـى ذلـك بقـول شـواين لاى رئيس وزراء الصيـن " نحـن نريـد أكـبر قـدر مـن التـورط الأمريكـى فـى فيتنـام ، أتركـوا الولايـات المتحـدة تصمـد للحـرب ليصبـح نصـف مليـون جندى أو مليون فـى فيتنـام ، لأنهـم إذا أقدمـوا علـى تصـرف مـن شـأنه أن يؤدى إلى تدخل الصين فهـم يعرفـون أننـا نسـتطيع أن نقـذف إلـى الميـدان بملايين بعد الملايين من البشـر ، وسـوف تسـتطيع ملايينـنـا أن تبتلـع مئـات الآلاف منهـم " .

وكذلك الحال فى الحـرب المصريـة الإسـرائيلية ، فمـن عوامـل الضعـف الكبرى فى التكويـن الحربـى الإسـرائيلى ، قلـة السـكان ، التـى تدعـو إلـى الإعتماد على الإحتياطى ، وإذا طالت الحرب كـان هـذا معنـاه شـلل للحيـاة الإقتصـادية داخل إسرائيل . قـد تجنـد الـدولة سـكانا غـير سـكانها كمـا كـانت تفعل فـى المـاضى أو كمـا تلجـأ إسـرائيل إلـى الجنـود المرتزقـة **Mercenaries** ولكـن تسـليح الجـنود المرتزقـة غـير مـأمون ، ولابديـل لأبنـاء الوطـن للإطمئنـان فى الدفـاع عن مصلحتـه . . .

ولضخامـة السـكان مـيزة عسـكرية أخـرى ، ذلـك أن قهـر الدولـة الكثيفـة السـكان يعتـبر صعبـا ، بـل مـن الصعـب السـيطرة عليهـا ، لأن الإحتـلال العسكرى لأراضـى يشـغلها عدد كبير من السـكان ، يسـتلزم مرابطـة رجـال عديدين ممـا قد يؤدى إلى خلق عجز فى القوى البشـرية فـى أرض الدولـة الغازيـة ، وكـان هـذا فعـلا حـال ألمانيـا النازيـة حينمـا وجدت أن إحتـلال أوربـا يكاد يكـون فـوق طاقتهـا .

ويثير موضوع السـكان كثـير مـن المناقشـات حـول الأقطـار التـى تريـد التوسـع ، فتسـتفيد أو تـبرر توسعها ، بأنها مزدحمـة بحيـث لا تجـد متسـعا لسـكانها ، كاليابـان وإيطـاليا وألمـانيا وعلـى هـذا الأسـاس بـدأت الـدول الثـلاث فـى التوسـع قبـل الحـرب العالمـية الثانيـة بحـجة البحـث عـن مجـال حيـوى **Lebensraum** لسـكانها المـتزايدين .

أثر الصراع السياسى على السكان

ولابد وأن نشير أيضا إلى أن الصراعات السياسية لها دورها على السكان ، منها حرص كل طرف من أطراف الصراع على زيادة السكان ، فالأسرائيليون على سبيل المثال يحاولون زيادة عددهم بإستقبال المهاجرين من الخارج ، نتيجة لإرتفاع معدلات الوفيات عن مستواه الطبيعى خاصة أثناء الحروب خاصة فى الأعمار المتوسطة (الشباب) لأنهم وقود الحرب ، كذلك إنخفاض نسبة الزيادة الطبيعية وتأخر سن الزواج سواء بالنسبة للذكور أو الإناث بسبب غياب الشباب فى ميادين القتال ، كذلك وإرتفاع نسبة وفيات الأطفال وكبار السن لسوء التغذية ، وعدم توفر الدواء .

وليس أبلغ مما حدث لسكان العراق نتيجة حصاره (حصار إقتصادى) كذلك ما ينتج عن الصراع من إبادة وتهجير بالقوة أى طرد القوة المتنافسة والتى يقوم بها الطرف المنتصر (طرد الصرب للمسلمين فى البوسنة ، وطرد الأثيوبيين للصوماليين من إقليم الأوجادين، وطرد اليهود للفلسطينيين بعد نكبة ١٩٤٨) .

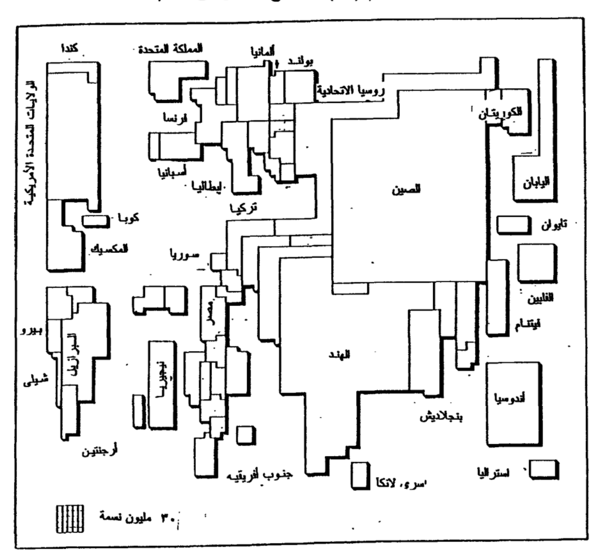
وقد تقوم عمليات تهجير للسكان داخل الدولة لأبعاد المدنيين عن جبهة القتال ، ويتسم هذا النزوح طواعية من السكان ، أو نتيجة توجيه من الحكومة كما حدث من هجرة أعداد كبيرة من سكان الإسكندرية أثناء الحرب العالمية الثانية ، حينما وصل الألمان إلى العلمين ، وإشتد قذف الإسكندرية بالقنابل فى الحالة الأولى ، وتهجير أعداد كبيرة من سكان القناة بعد حرب ١٩٦٧ إلى الصعيد خاصة النساء والأطفال وكبار السن ، وعودتهم بعد إنتصار أكتوبر ١٩٧٣ .

توزيع السكان

قبل دراسة التجمعات السكانية فى العالم لابد وأن نشير إلى أن عدد سكان العالم يقترب من ٦ بلايين نسمة يعيشون على اليابس الذى لايشكل سوى نحو ٣٠ ٪ من سطح الكرة الأرضية ، لأن الباقى يشغله الماء ، ولا يتوزع السكان على ٣٠ ٪ من سطح الأرض بتساوى ، بل إن هذا القسم الذى يعيش فيه السكان معظمه غير صالح للسكنى ، فمعظمه إما صحراوى جاف ، أو جبلى شديد التضرس أو تنخفض فيه الحرارة إلى درجة التجمد ، فبعد ألاف السنين من الزيادة البطيئة للسكان ، تزايد

المعـدل خـلال القرنيـن الأخـيرين بصـورة ملحـوظة ، فقـد تتطـلب الأمـر نحـو ١٧ قـرنا ليبلـغ سـكان العالـم ٥٠٠ ملـيون نسـمة ، والآن فـإن الزيـادة التـى إسـتغرق تكوينهـا ١٧ قرنـا ، لـم يـأخذ تكوينهـا الآن سـوى عـامين ونصـف ، لأن عـدد سكان العـالم يزيـدون ١٠٠ مليـون كـل عـام .

شكل رقم (١١) : توزيع السكان فى العالم



ويلاحـظ علـى خريطـة تـوزيع السـكان أن بعـض التجمعـات السـكانية الضخـمة ترتبـط بـأحواض الأنهـار الكـبرى (هوانجهـو) ، (بانجتسـى) فـى الصيـن ، (الجـانج) فـى الهـند .

وتظـهر خرائـط توزيـع السـكان ثـلاث تجمعـات رئيسـية فـى أوراسـيا وتجمـع أصغـر فـى شـمال شـرقى أمريكـا الشـمالية ، وتجمعـات أصغـر فـى شـرقى وجنـوب أمريكـا الجنوبيـة وأفريقيـه .

التجمعات الرئيسية

أكبر تجمع سكانى فى شرق آسيا (١,٥ مليار) ، ومركزه الصين والشريط الساحلى للقارة من كوريا إلى فيتنام ، وتميل الكثافة إلى الإنخفاض كلما تركنا هذا الشريط وإتجهنا نحو الداخل وفى هذا الشريط (١) ، (٢) يتجمع السكان فى أحواض الأنهار الرئيسية للصين ، وهنا معظم السكان زراعيون بالدرجة الأولى وليسوا من الحضر ، وإن كانت هناك مدن كبيرة مثل بكين وشنغهاى ، إلا أن الريف يتفوق على الحضر .

والتجمع الثانى فى جنوب آسيا (١,٤ مليار) مركزه الهند وجيرانها بنجلاديش وباكستان ، ويتركز السكان هنا فى حوض الجانج ، ويقترب حجم السكان هنا من حجم سكان شرقى آسيا ، إذا ما ظلت معدلات المواليد كما هى ، ورغم أن السكان هنا مزارعون بالدرجة الأولى كما فى شرقى آسيا ، إلا أن الضغط السكانى هنا أشد .

وتأتى أوربا ممثلة للتجمع الثالث على الطرف الآخر من أوراسيا ، ويقع هذا التجمع غرب روسيا ، بعدد نحو ٥٠٠ مليون نسمة ، ومحور التجمع السكانى ليس أحواض الأنهار ولكن فى نطاق الخامات والصناعة ، وأوربا من أكثر القارات حضرية ، وتجمع السكان هنا يعتمد على الصناعة وليس على فلاحة الأرض .

هذه التجمعات الثلاثة (شرقى آسيا وجنوبيها وأوربا) تضم نحو ثلاثة بلايين نسمة من مجموع السكان الذى يزيد على ٥,٦ بليون ، ولا توجد تجمعات أخرى بنفس الحجم السكانى الذى لايماثلها فحسب ، بل ولا يصل إلى نصف مجموع عددها ، فتجمع أمريكا الجنوبية وأفريقية جنوبى الصحراء وأستراليا معا يقل عدد سكانه عن سكان الهند وحدها .

وأما التجمع الرابع فهو شمالى شرقى أمريكا الشمالية الذى يتضمن جنوب شرقى كندا وشرقى الولايات المتحدة الأمريكية ، ومع ذلك فيبلغ سكانه ربع أصغر تجمع سكانى أوراسى ، ولا يتميز بالكثافات العالية والإمتداد المتصل فى أقاليم الكثافة العالية فى أسيا ، ولكن يشبه التجمع الأوربى فى أن تركيز معظم السكان يرتبط بالتجمعات الحضرية الضخمة أكثر من إرتباطه بالريف المخلخل سكانياً ، ويقع قلب التجمع الأمريكى فى ذلك المركب الحضرى للجهات الساحلية فى الولايات المتحدة الأمريكية ، والممتد من بوسطن إلى واشنطن

ونيويـورك وفيلادلفيـا وبلتيمـور ، هـذا التجمـع الـذى إعتـاد الجغرافيـون أن يطلقوا عليه ميجـالوبولس .

شكل رقم (١٢) : أكبر عشرة دول سكانياً

السكان بالمليون ١٩٩٥

نيجيريا (١٠١)
بنجلاديش (١١٩)
باكستان (١٣٠)
اليابـان (١٢٥)
الاتحـاد الروسـى (١٤٨)
البرازيل (١٥٨)
أندوسيا (٢٩٨)
الولايات المتحدة الأمريكية (٢٦٣)
الهند (٩٣١)
الصين (١٢١٩)

مجموع اكبر عشرة دول ٣٣٩٢ (٦٠٪)
باقي العالم ٢٥٣٧ (٤٠٪)

تجمعـات أصغـر :

وتمثل فى جنـوب شـرقى أسـيا ، فـى جزيـرة جـاوا بسـكان نحـو ١١٠ مليـون نسـمة ، وفـى أفريقيـة جنـوب الصحـراء فـى نيجيريـا وحـول بحـيرة فيكتوريـا ، وفـى شـمالها ممثـلا فـى مصـر ، وهـو أشـبه بتجمـع شـرقى وجنوبـى آسيا حـول الأنهـار ، أمـا فـى أمريكـا الجنوبيـة ، فـلا يوجـد مثـل هـذه التجمعـات ، وتعتـبر مدينـة مكسـيكو أكـبر تجمـع حضـرى فـى أمريكـا اللاتينيـة.

وإذا حسـبنا توزيـع السـكان بطريقـة أخـرى نجـد أن ٦٠ ٪ مـن سـكان العـالم يتوزعـون على عشرة دول ، يزيـد سكان كـل منهـا علـى ١٠٠ مليـون نسـمة ، ١٥٪ مـن سـكان العـالم يتوزعـون علـى ثلاثـة عشـرة دولـة ويـتراوح سـكان كـل منهـا بيـن ٥٠ ، ١٠٠ مليـون نسـمة ، أمـا بـاقى دول العـالم فيخصـهم ٢٥ ٪ مـن سـكان العـالم ، ويقـل سـكان كـل منهـا عـن ٥٠ مليونـا .

التجمعات الكبرى فى العالم (١٩٩٤) بالمليون

شرقى أسيا		جنوبى أسيا		التجمع الأوربى		تجمع الأمريكتين	
الصين	١١٩٦	الهند	٩١٩	روسيا	١٥٠	الولايات المتحدة	٢٦٠
اليابان	١٢٥	إندونسيا	١٩٠	ألمانيا	٨١	البرازيل	١٥٧
فيتنام	٧٢	بنجلاديش	١١٧	بريطانيا	٥٨	المكسيك	٩٢
كوريا الجنوبية	٤٥	باكستان	١٢٩	إيطاليا	٥٨	كولومبيا	٣٦
الفلبين	٦٧	تايلاند	٥٨	فرنسا	٥٧	الأرجنتين	٣٤
كوريا الشمالية	٢٣	ميانمار	٤٤	أوكرانيا	٥٢		
تايوان	٢١			أسبانيا	٣٩		
المجموع	١٥٤٩		١٤٥٧		٤٩٥		٥٧٩

السكان والقـوة

غير أن فى معالجة علاقة السكان بالقوة قد تظهر مشكلة تداخل متغير السكان مع العوامل الإجتماعية والإقتصادية والسياسية ، الأمر الذى يصعب معه عملية القياس مثل مصطلح الضغط السكانى الذى ينطوى على عناصر أخرى كالموارد والمستوى الفنى والسكان المنتجين ، فالعدد المطلق لايدل على ما إذا كان هناك ضغط أم لا ، فسكان الولايات المتحدة الأمريكية البالغين نحو ٢٦٠ مليون نسمة لاشك لايمثلون ضغطا سكانيا ، على حين أن سكان مصر الذين يبلغون نحو ٦١ مليون نسمة يشكلون ضغطا سكانيا ، ثم عدد السكان الأمثل ، الأمثل بالنسبة لماذا للقوة العسكرية ، أم للرفاهية الإقتصادية ؟ ويتجه بعض الباحثين إلى التأكيد على أهمية عامل حجم السكان فى تشكيل قوة الدولة ، ولكن من خلال مايسفر عن هذا الحجم ، وأدى هذا إلى الخروج بتنبؤات عن وقوع تغيرات مستقبلية فى هيراركية القوة الدولية ، حيث تمثل الدول كبيرة

الحجم فى السكان مركزا أكبر ، حتى لقد طرحت كل من الصين والهند وأندونسيا كقوى عالمية محتملة .

ولكن مسألة حجم السكان الذى يؤدى فى نظر البعض فى إزدياد حجم قوة العمل وإحتمالات زيادة القوة العسكرية ، مرتبط بحدود القدرة الإستيعابية للإقتصاد القومى ، أى القدرة على توفير فرص العمل والتوسع فى الإستثمارات وكذلك فيما يختص بالقدرة الإستيعابية للقوات المسلحة ، حيث أن هناك سقفا لايمكن تجاوزه ، فضلا عن دور المتغير التقنى ، حيث أن التقدم التقنى يصحبة تقليص القوة البشرية سواء فى الإقتصاد القومى أو فى القوات المسلحة (أنظر إلى حرص إسرائيل على أن تكون متفوقة تقنيا من الناحية العسكرية) .

وهناك من يفترض بأن زيادة السكان تؤدى إلى إحتمالات زيادة التنمية الإقتصادية وهذا بدورة لايمكن التسليم به على علاتة ، لأن عملية التنمية لاتتقدم دائما فى ظل تزايد الحجم السكانى فقط ، فلا بد من معرفة نسبة السكان فى سن العمل ، والموارد المتاحة والمستوى التقنى لأن إرتفاع نسبة صغار السن (دون ١٥ سنة) معناه إرتفاع مستوى الإعالة وإنخفاض معدلات الإدخار ، وزيادة أعباء الدولة فى الخدمات الأساسية ، لذلك فقد يكون الحجم البشرى مغذيا ومضيفا لقوة الدولة ، وقد يكون معوقا لهذه القوة ، ومع ذلك فيمكن القول بأن حجم السكان قد يكون من عوامل القوة أو عوامل الضعف ، ولكن فى نفس الوقت لايمكن لدولة قليلة السكان أن تكون قوة كبرى كسريلانكا ، أو غمبيا .

ويذهب البعض إلى أنه من المستحيل أن يصبح البلد غنيا فى سياق نمو سكانى سريع ، ذلك أن جعل الأشخاص الجدد منتجين وعصريين ، فإن هذا يتطلب إستثمارات ضخمة ، وإذا كانت هناك أعداد ضخمة من هؤلاء الجدد ، فإن الأشخاص الموجودين ينبغى أن يكون لديهم الإستعداد لتقييد إستهلاكهم بشدة بغية إستثمار الأموال التى تلزم هؤلاء الجدد ، فعلى سبيل المثال ، فلكى يحصل أمريكى جديد على حيز سكنى متوسط ، فينبغى إستثمار ٢٠ ألف دولار لتوفير السكن ، وإلى أن يبلغ هذا الأمريكى سن العمل سيحتاج إلى أغذية تقدر بنحو ٢٠ ألف دولار أخرى ، ولكى يبلغ المستوى التعليمى الأمريكى ، سيتطلب نفقات عامة وخاصة مقدارها ١٠٠ ألف دولار ، ولكى يبلغ متوسط الإنتاجية الأمريكية فى العمل ، فإن هذا سيتطلب إستثمارات مقدارها ٨٠ ألف دولار فى مصانع ومعدات وعلى ذلك سيلزم أيضا ٢٠ ألف دولار أخرى لإنشاء البنية الأساسية العامة من الطرق ، وصرف صحى ، مياه شرب ، ومطارات .

أى أن كل أمريكى جديد يحتاج إلى إستثمارات قدرها ٢٥٠ ألف دولار لكى يكون بإستطاعته دخول الإقتصاد الأمريكى بوصفه مواطنا عاملا ومستهلكا عاديا لديه إكتفاء ذاتى ، ضربنا هذا المثل لبيان كيف أن تتشئة إنسان جديد تتكلف الكثير ، وليس من اللازم أن يكون بالمستوى الأمريكى ولكنها إذا حسبت بأى المقاييس فهى كذلك ، لأنها نسبة وتناسب!

التكنولوجيا [١] :

يختلف النوع البشرى عن بقية الأنواع الحيوانية فى قدرته على التحكم وتكييف البيئة قدر الإمكان فضلا عن إمكان إجراء تحسينات عليها .

فهناك كثير من الإختراعات **devices** خلقت لتحسين ما هو طبيعى ، المساكن بدلا من الكهوف ، الغلات المزروعة بدلا من النباتات البرية . وإختراعات أخرى زادت من قدرة الإنسان وكفاءته ، أجهزة ، وأدوات ، وأسلحة سواء لصناعة أو لتحطيم أشياء ، وسائل نقل جبارة ، آلات حاسبة إلكترونية تزيد من قدرة الإنسان على التذكر (ذاكرة الإنسان) فضلا عن دقتها فى الحسابات ، ومن أجل التبسيط يمكن أن يطلق على هذا ' التكنولوجيا ' .

يقصد بالتكنولوجيا أو التقنية بعبارة مبسطة فن الإنتاج أى الأساليب والوسائل المستخدمة فى عمليات الإنتاج ، وبالتالى يتمثل التقدم التكنولوجى فى تطوير هذه الفنون والأساليب بما يحقق التقدم ، ويتم التقدم التكنولوجى نتيجة التزاوج بين البحث العلمى والإنتاج المادى . فتقدم الصناعة مثلا لم يعد يتحقق حيث توجد مصادر المواد الأولية ، بل حيث توجد العقول والمهارات ، فبالرغم من فقر اليابان فى الخامات ، فقد إستطاعات أن تحقق نجاحا باهرا فى كثير من القطاعات الصناعية خاصة الألكترونيات والكيماويات .

كان التقدم التكنولوجى يسير قدما عبر القرون الماضية ولكنه أصبح يقفز فى العقود الأخيرة ، ويذهب الباحثون إلى القول بأن المعرفة الإنسانية تتضاعف كل خمس سنوات ، وأن ٩٠ ٪ من جميع المعرفة العلمية للبشر تجمعت فى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية . وهذا التقدم التكنولوجى هو المسئول الأول عن كثير من التغيرات التى لايمكن

---

[١] – هناك مجموعة من العوامل غير الجغرافيه تسهم فى قوة الدولة : منها التكنولوجيا والدبلوماسية وغيرها ، ومع ذلك رأينا إدراجها لتكامل الدراسة .

تجاهلها فى الشئون الدولية . فقد كان سكان العالم عام ١٩٣٠ يبلغ نحو الألفى مليون ، وتزيد على ٥,٥ ألف مليون عام ١٩٩٥ ، ولم يكتف الإنسان بمسطح اليابس يخطو عليه ، فوصل إلى سطح القمر ، كما تعمق فى المحيطات ، ويتطلع للوصول إلى المريخ .

شكل (١٣) : عدد السنين التى يحتاجها سكان العالم ليزيدو واحد بليون

وكان النقل الفورى للصورة والصوت إلى جميع البشر سواء كانوا فى الأكواخ أو الحقول أو القصور ، له أثره فى أحساسهم جميعا بالإنتماء إلى عالم واحد ، فى طرف منه يعيش أولئك الذين لايملكون ويتطلعون إلى الإنتقال إلى الطرف الأخر ، وأصبح العالم الآن يقسم إلى أغنياء يعرفون، وفقراء لايعرفون ، كل هذا كان نتيجة مباشرة للتجمع المستمر للمعرفة والتكنولوجيا فى جانب دون الأخر .

لماذا يعرف عصرنا الآن العصر ما بعد الصناعة ؟

نأتى إلى الثورة الأخيرة ، ثورة ما بعد الصناعة وهى ثورة التكنولوجيا ، التى تميزت بمعدلات فى التقدم العلمى غير مسبوقة ، ومن ثم زادت أهمية العلم كعنصر من عناصر الإنتاج ، فقد زادت درجة الإرتباط وسرعته بين العلم وتطبيقه ، فقد مرّ ٥٦ عاما بين إكتشاف الهاتف وتطبيقه ، ٣٥ سنه بين إكتشاف الراديو وتطبيقه ، ١٤ سنة بالنسبة للتليفزيون وهكذا وترتب على ذلك حدوث تغير فى هيكل القطاعات الإنتاجية ، فصناعة المعلومات دفعت بقطاع الخدمات إلى المقدمة على حساب القطاعات السلعية بوصفها القطاع القائد للنمو والعمالة ، وأصبح العمل العقلى لا المادى هو السلعة الرئيسية ، أى أن المصدر الرئيسى للقيمة المضافة قد أصبح المكون التقنى للسلعة ، وهى سلعة ذات صفات غريبة ، فمن الممكن بيعها لأكثر من مشتر واحد فى

ذات الوقت دون أن ينقص هذا من رصيد بائعها (قارن هذا بالسلع التقليدية !) وهى سلعة لايمكن حجبها عن السوق إذ تتدهور قيمتها مع مرور الزمن (نظرا لسرعة التطوير - أنظر سرعة تطور أجهزة الحاسبات ، وأجهزة الكمبيوتر) بحيث بعد فترة محدودة تصبح موديلات قديمة ، ويمكن أن نلاحظ مايلى على التقدم التكنولوجى :

أولا : أن التغيرات التكنولوجية قد تحسن أو تقلل من أهمية موقع من المواقع أو مورد من الموارد (بريطانيا والطيران)

ثانيا : أن هناك إختلافات كبيرة بين الدول فى قدرتها على الحصول على الإختراعات التكنولوجية وهذا يرجع إلى إختلاف قدراتها المالية وقدراتها التكنولوجية الموجودة وسياسة الحكومة والمؤسسات الأخرى .

ثالثا : أن هناك فرق فى التقدم التكنولوجى بين الدول المتقدمة والدول النامية ينعكس فى أن الدول المتقدمة تكنولوجيا وفيها ٢٢ ٪ من سكان العالم فقط ، ومع ذلك فدخل الفرد فيها نحو ١٠ أمثال دخل الفرد فى الدول النامية ولعل عبور الفجوة بين الأثنين هى مهمة جيل ما تبقى من القرن العشرين . ولكن المشكلة فى هذا أمام الدول النامية تظهر إذا ما علمنا أن العمليات الهندسية المتعلقة بإيجاد الأنظمة التكنولوجية تقسم إلى أربعة أقسام هى : التصميم ، التصنيع والتشغيل ، والصيانة ، ولاتسمح الدول المتقدمة بإفشاء سر العمليتين الأولتين ، وفى الغالب الرابعة وهى الصيانة ، إذ لابد من إستدعاء خبير من الشركة الصانعة لبحث العطل وإصلاحه ، وكل ما يمكن أن تسمح به الدول المتقدمة هو تدريب أبناء الدول النامية على تشغيلها ، ولكن تظل التبعية فى النهاية للدول المتقدمة.

رابعا : التغير فى مكونات وعناصر قوة الدولة نتيجة للتطورات التكنولوجية والتى أدت إلى إزدياد وأهمية المكون المصرفى للعمليات الإنتاجية على حساب المكون المادى ، ولعل من أهم التطورات الدولية المعاصرة (فى هذا السبيل) هو ما أحدثته التكنولوجيا الحديثة من تضاؤل الأهمية النسبية للموارد فى قيمة الإنتاج (ليس معنى هذا فقدان أهميتها) فقد ظهر العديد من الموارد المختلفة والمستخدمة من عناصر رخيصة ومتوافرة ، ومن ناحية أخرى فإن القيمة المضافة المترتبة على العمل ، وخاصة العمل التقنى والبحث والتصميم ، أصبحت تتجاوز ماتوفره المواد الأولية فى قيمة السلعة ، بمعنى أخر كانت للموارد الدور الأول والقدح المعلى فى قيام الحضارة فى مصر والهند والصين ، ومنذ أن كانت الزراعة هى قمة الحرف إنتاجا ، ثم بريطانيا وألمانيا والولايات

المتحدة الأمريكية فى عصر الصناعة لفقر الفحم والحديد ، ولكن الأن بعد عصر الصناعة ، أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا واليابان ، والنمور الأربعة (تايوان ، هونج كونج ، سنغافورة ، وكوريا الجنوبية)، والدول الخمس الأخيرة تكاد تكون عارية من المواد الأولية والطاقة اللازمة للتصنيع الكبير .

لاعجب إذن أن تأتى الترتيبات الأخيرة للجات لتخصيص حماية كبيرة لحقوق الملكية الفكرية ، لأنها أصبحت مصدرا هاما للثروة الإقتصلدية .

أصبح الإستيلاء على الموارد الإقتصادية له طرق غير الإستيلاء على الأرض وإحتلالها ، بل هناك أساليب عديدة غير متطورة لتحقيق السيطرة الإقتصادية دون الحاجة إلى السيطرة المباشرة على هذه المصادر ، فالتأثير والسيطرة الإقتصادية يتحقق بدرجة أكبر عن التأثير فى الأسواق المالية وأسعار الصرف ، وأسعار الفائدة وتحركات رؤس الأموال ، وتوفير المعلومات ، وبراءات الإختراع ، وبصفة عامة مختلف أشكال الأساليب غير المتطورة والمؤثرة فى سلوك الأفراد والجماعات ، فيرى البعض مثلا أن تفكك يوغسلافيا السابقة كان فرصة ذهبية لمختلف القوى الأوربية للتوسع وكسب مزيد من الأرض على حساب الدولة المنهارة ، ولكن ذلك لم يحدث .

خامسا : النزاعات الإستراتيجية للتطورات فى مجالات التسلح وعلاقتها بظواهر الردع والتوازن الدولى الناجم عن الإرتفاع الشديد فى القدرة التدميرية للأسلحة ، وما نتج عن ذلك من ظهور أبحاث وأنماط جديدة للصراع الدولى كالحروب المحدودة .

سادسا : تأثير التطورات التكنولوجية على عملية منع القرار السياسى والتى أتاحت لصانع القرار أن يقوم بأجراء تقدير دقيق لمواقف الأطراف المختلفة فى أى تفاعل دولى ولذلك ظهرت وحدات دعم إتخاذ القرار **Decision Support Units** .

سابعا : أن التقدم التكنولوجى يمكن أن يتم بواسطة الأبحاث المشتركة لعدة دول مجتمعة ، ذلك أن بعضها يتطلب إستثمارات ضخمة كما هو الحال فى أبحاث الفضاء بحيث لم يتم القيام بها سوى الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتى (سابقا) ، وتقوم بها كل منفردة . والدول تقوم وحدها بأبحاثها أو مع غيرها أو قد تستوردها من الدول الأكثر تقدما على هيئة آلات وخبراء .

وتعد مؤسسة 'إير باص' وهى مؤسسة لإنتاج الطائرات المدنية تمتلكها الحكومات البريطانية والفرنسية والألمانية والأسبانية ، تعبيرا عن إستراتيجية على نطاق أوربى لكسر الإحتكار الأمريكى وإعادة أوربا إلى صناعة الطائرات، وقد نجحت فى الإستيلاء على ٢٥ ٪ من سوق الطائرات وأعلنت عن خطط للإستيلاء على ثلث السوق العالمية بعد سنوات معدودة ، لكن ذلك النجاح تطلب إستثمارات حكومية مقدارها ستة وعشرون مليار دولار!! وكان هذا معناه إنخفاض حصة بوينج الأمريكية.

وفى الوقت الحاضر هناك ثلاثة مراكز أو مجموعات مسئولة عن معظم التقدم التكنولوجى الذى يشهده العالم وهى الولايات المتحدة ، غرب أوربا ، اليابان . ومنذ قرن مضى كان لغرب أوربا والولايات المتحدة شبه إحتكار فى هذا الميدان ، ومنذ قرنين من الزمان كان هذا الإحتكار من نصيب بريطانيا ، وفرنسا ، وهولندا .

وحتى تصبح الدولة قوة ذات بأس ، فلا بد وأن تكون متقدمة تكنولوجيا ، وقد يبدو أن هذا الأمر يقتصر على يومنا هذا ، ولكن أهميته كانت معروفة أيضا فى الماضى ، حتى البعيد منه ، فليس من شك أن الجماعات ذات الأسلحة الحجرية ، وأن أصحاب الحديد كانت لهم الغلبة على أصحاب البرونز ، ولكن هذه ليست قاعدة مسلم بها فى كل الأحوال، فليس من شك أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت متقدمة تكنولوجيا فى الثلاثينات (بالنسبة لعصرها) ولكنها كانت ضعيفة عسكريا نظرا لأن التقدم التكنولوجى لم يكن موجها لخدمة السلاح ، على العكس الحال حيث إستثمرت كل من الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفيتى السابق أموالا طائلة فى ميدان البحث العلمى الخاص بالأسلحة ومحاولة كل منهما أن يسبق الأخر فى الحصول على سلاح أشد فتكا .

ثامنا : نستدرك ونقول أن الإنسان كان وسيظل أبدا ، العامل الأول فى صراع البقاء وسباق التقدم ، وإن بدا فى ظاهر الأمر أن صراع البقاء لايعرف غير الأسلحة الجديدة ، وأن سباق التقدم محكوم بأسباب القوى المادية والتفوق التكنولوجى ، ومع أننا لانغض من خطر هذا كله وجدواه، ولكن الإنسان هو الذى يبدع الحضارة ويصمم الآلات ويضع الأجهزة ، ثم أنه بغير الإنسان ، تتعطل الأسلحة نووية وغير نووية ، لأنه الذى يعطى السلاح قوته وفاعليته ، وبغير الإنسان ، لاتعدو الأجهزة العصرية أن تكون صماء ، لأنه وحده الذى يديرها ، وهو الذى يوجه العقول الإلكترونية ويتحكم فى الكهرباء والذرة والكمبيوتر ويغزو الفضاء ، من ثم تعلو قيمة الإنسان فى ميزان القوى .

الإنفاق على البحث العلمى فى العالم (٪)

قارات العالم	١٩٨٠	١٩٩٠
أمريكا الشمالية	٣٢,١	٤٢,٨
أوروبا	٣٣,٩	٢٣,٢
آسيا بما فيها اليابان	١٣,٥	١٩,٦
الإتحاد السوفييتى السابق	١٥,٥	١٢,٣
الأوقيانوسية	١	٠,٦
أمريكا اللاتينية والكاريبى	١,٨	٠,٦
الدول العربية	١,٨	٠,٧
إفريقية	٠,٤	٠,٢
	١٠٠	١٠٠

البـــاب الثـــالث : الأسـس الاقتصـــاديـة

الفصل الأول : الموارد والقوى
Resources and Power

ظهرت بعض أدبيات إقتصادية تقول بقلة أهميـة المـوارد نسـبيا عـن ذى قبل ، ولكن نـرد عليهم بسؤال هو هل لـو كـانت الكويت منتجـة للجـزر بـدلا مـن البترول ، هــل كـانت الولايـات المتحـدة الأمريكيـة ومــن ورائهـا العـالم المتقـدم ستحشـد مـا حشـدت مـن قـوة وبـأس لصـد العـدوان العراقـى علـى الكويـت .

تعريـف المـوارد : عـرف سـتيفن جونـز المـوارد بأنهـا ' كـل مـا تملكـه الدولـة أو يمكنهـا الحصـول عليـه لتنفيـذ إسـتراتيجيتها ' . وهـو تعبيـر غـير محـدود كمـا تـرى ولكننـا سـنحاول إعطـاء أمثلـة موضوعيـة لتقييـم المـوارد المفيدة لقوة الدولـة .

لعلـه مـن الأمــور المسـتحيلة تقديـر كفـاءة السـكان وتـأثيرهم ، دون بحـث ومناقشـة المـوارد التـى بين أيديهم ، فـلا بـد للسكان مـن أرض يعيشـون عليهـا ويزرعـون فيهـا غلاتهـم ، ويربـون حيوانـاتهم ، وتنتـج الأرض معظـم الغـذاء الإنسـانى بطريـق مباشـر أو غير مباشـر .

وتتوقـف طبيعـة التربـة وسـمكها علـى نوعهـا وعلـى درجـة إنحـدار الأرض وغيرهـا مـن الأمـور التـى تـدرس فـى الجغرافيـا الإقتصاديـة ، ولذلـك فيجـب إعتبـار التربـة الصالحـة للزراعـة كـأول مـورد قومـى يجـب دراسـته والعنايـة بـه . وتوجـد الثروة المعدنيـة فـى الطبقـات السـفلى أى أسـفل التربـة ، فـى التكوينـات الصخريـة ، فهذه الصخـور فـى الحقيقـة مكونـة مـن معـادن ، وبعـض هـذه المعـادن ضـرورى سـواء للإسـتخدامات السـلمية أو الإسـتخدامات الحربيـة . وتشـمل هـذه المعـادن الرمـل والحصـى والحجـر الجيرى والطين وهذه الأشياء التـى تبـدو قليلـة الأهميـة لا غنـى عنهـا فـى تشـييد الأبنيـة الضخمـة والكبـارى التـى تراهـا . كذلـك تشـمل الفوسـفات والنترات وهذه لازمـة للصناعات الكيماويـة المختلفـة وتدخـل فـى كثـير مـن المنتجـات الصناعيـة ، وكذلـك تعتـبر جميـع مـوارد الوقـود سـواء سـائلة أو صلبـة ضمـن هـذه المعـادن ، فجميـع أنـواع الفحـم مـن الأنتراسـيت إلـى البيتومين واللجنيت واللبـد النبـاتى عبـارة عـن معـادن ، وكذلـك الحـال فـى البترول والغاز الطبيعى الذى يعتبر بترولا فى حالـة غازيـة ، من ثم كـانت

الخامات التى تشتق منها هذه المعادن ذات أهمية كبرى فى تقييم قوة الدولة ، لأن الصناعة الحديثة والأسلحة الحديثة ، لايمكن أن تقوم بغير الخامات المعدنية ، وتبدو بصفة خاصة أهمية خامات الحديد ، والزنك ، فضلا عن المعادن النادرة ، كالمنجنيز والكروم والفانديم والنيكل والليبدين التى تستخدم فى تحسين خواص الصلب ، ولاننسى المركز الإستراتيجى والسياسى الذى تشعر الدولة ذات الإحتياطات البسيطة من الخامات المعدنية الضرورية بضعف مركزها .

وليس من شك أن القليل من المعادن مايمكن إستخدامه مباشرة ، أما معظمها فيحتاج إلى صهر للخامات وتكسير ، وأحيانا إلى شئ من التصنيع لجعلها صالحة للإستعمال . وأما الموارد التى يستلزم أستغلالها مد الخطوط الحديديه وبناء المصاهر الضخمة مما قد يقتضى عدة سنين فهى لاتسعف فى الحقيقة عند الضرورة العاجلة .

فإذا إتخذت السلطات المسئولة قرارا سياسيا معينا الآن ، فمعنى هذا أنها فى حاجة إلى تدعيم مواردها الحالية لافى المستقبل . أما الموارد التى تحتاج إلى سنين لإستغلالها ، فهذه يمكن أن تعقد عليها مشروعات المستقبل ، من ثم لابد من تكامل التخطيط والموارد ، ولاشك أن القرارات السياسية قد تؤجل حتى تصل الدولة إلى مرحلة آمنة . من ثم لابد من تنمية الموارد وجعلها صالحة للإستخدام قبل أن تحسب ضمن عناصر القوة للدولة . وهذا يقتضى وجود شبكة من الطرق لجلب الخامات إلى المصانع التى توجد فى أنسب المواقع . وإذا كانت درجة النمو الصناعى للدولة كبيرة الأهمية فى وزنها السياسى ، فأنه يجب الإشارة إلى أن جميع الصناعات لاتعتبر بدورها من عناصر قوة الدولة ، أى تساعد هذه الدولة على فرض سياستها على دولة أخرى ، أو مقاومة سياسة دولة أخرى عليها ، ففى كثير من المجتمعات الثرية ، نجد أن المصانع تخرج سلعا كثيرة للإستهلاك الداخلى ، وهذه السلع أهميتها بالتالى ضئيلة ، إذا نظرنا لها من جانب دراستنا ، فليس من شك أن كثرة السيارات تساعد على سرعة نقل السكان فى الإتجاهات المختلفة ، ولكن ليس من الضرورى لتقوم بهذه العمليات ، أن تظهر عليها الكماليات ، التى نراها اليوم . مثل هذا المجتمع ليس من الضرورى أن يكون أكثر قوة من مجتمع آخر ، يأخذ نفسه بشئ من التقشف . فالإستهلاك المبذر ليس دليلا على قوة الدولة ، وإنما يدل على وجود المصانع التى تقوم بعمل هذه الكماليات ، وإن كان مصنع التليفزيون مثلا يمكن أن يتحول بعد شئ من الوقت والمال ، إلى مصنع للمعدات الإلكترونية . كالمحولات والراديو وغيرها التى تضيف فعلا إلى قوة الدولة . وهنا تزيد أهمية

المصنع وقيمته كلما كان تحوله إلى إنتاج المعدات الحربية أسرع . وقد قسم الأستاذ Stephen Jones الموارد بحسب درجة تيسيرها إلى الأقسام الآتية :

١- موارد ميسرة :

موجودة فعلا وتشمل المناجم المستغلة فعلا والمصانع العاملة والتى تنتج السلع ذات القوة الفعالة كألواح الصلب والكيماويات .

٢- موارد موجودة معطلة ولكنها فى حاجة إلى تشغيل :

وتدخل فيها المناجم والمصانع التى لاتعمل فى إنتاج السلع ، وتضيف إلى قوة الدولة ، وتتراوح الفترة المطلوبة لإستغلالها بين عدة أيام وعدة أسابيع ، فمصنع صلب متكامل يحتاج إلى عدة أسابيع ، قبل أن يبدأ إنتاجه الفعلى .

٣- موارد تتيسر ولكن بعد تحويلها :

كمصنع سيارات يمكن أن يتحول إلى مصانع عربات مصفحة وجرارات ، ولكن هذا يأخذ شهورا لتغيير كثير من الآلات أو إضافة آلات جديدة محلها ، وينطبق هذا على إنتاج كثير من مصانع السلع الإستهلاكية .

٤- موارد تتيسر بعد شئ من التنمية :

كأستغلال حقول بترول أو رواسب خامات معروف وجودها ، ولكنها غير مستغلة فى الوقت الحاضر ، ولكن فتح مناجم جديدة وإستغلالها لاشك يستغرق سنوات ، فأستغلال منجم للفحم ، وخاصة إذا كانت طبقاته بعيدة يحتاج إلى مايتراوح بين أربع وخمس سنوات . ومن ثم تؤخذ مثل هذه الموارد فى الإعتبار قبل إصدار القرارات السياسية : فقرار إعلان الحرب مثلا يأخذ بعين الإعتبار الموارد الميسرة بسرعة ، وإذا كان هناك تقدير لحرب طويلة فيجب أيضا البدء بإستغلال الموارد التى تأخذ وقتا طويلا قبل أن تسهم فى قوة الدولة . فمد الطرق الكبيرة كطريق ميانمار أو طريق ألاسكا عبارة عن زيادة فى الموارد ، وكانت ذات فائدة كبيرة وقت الحرب ، كذلك إستغلال ألمانيا لخاماتها من الفحم مثل آخر جيد لإستغلال الموارد وقت الحرب ، بل وكان شراؤها للنحاس هى واليابان إستغلال موارد الغير لصالحها .

٥- موارد محتمل أو يفترض وجودها :

من الفحم والبترول وغيرها من المعادن وهذه لايمكن الإعتماد عليها إلا نتيجة أبحاث جديدة يمكن وضعها ضمن موارد القسم الرابع .

٦- وهناك نوع أخر من الموارد يختلف عن التى ذكرناها سابقا ، ففى بعض الأحيان تملك الدولة أرصدة لها فى الخارج كأستغلال لأموال لها فى دولة أجنبية ، وعادة ماتحاول الدولة الإحتفاظ به كأرصدة ، ولكنها قد تضحى به فى سبيل الحصول على موارد ضرورية لها . فقد باعت بريطانيا مثلا أرصدتها الأجنبية فى سبيل شراء موارد خلال الحربين الأولى والثانية . وكذلك باعت بعض القواعد لها فى الكاريبى فى سبيل شراء قاذفات قنابل كانت فى أشد الحاجة إليها عام ١٩٤٠ أكثر من حاجتها لمساحات صغيرة من الأرض فى جزر الهند الغربية . وهذا النوع من الموارد يطلق عليها رصيد **Fat** كالأرصدة العربية فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا ، ونادى البعض بأنه يمكن للدول التى تحتفظ برصيد ضخم من الدولار أن تبيعه بعملات أخرى ، من ثم يصبح الدولار عملة غير مرغوبة . وبالتالى يتدهور سعره على حين ترتفع قيمة العملات الأخرى مما يحدث أرتباكا للإقتصاد الأمريكى . وهناك مورد آخر يطلق عليه الفاقد **Slack** وهو الإستخدام الكامل للموارد وينطبق هذا بصفة خاصة على عنصر العمل ، ويمكن بتشغيل المصنع مدة الأربع وعشرين ساعة التى يعملها فى الأسبوع ، وذلك بزيادة عدد الورديات **Shifts** وهذا مايحدث فعلا وقت الحرب لتعويض العمال الذين ذهبوا للخدمة العسكرية .

ومن الدول التى تعتمد إعتمادا كبيرا على الموارد الخارجية لإقامة بنيانها الإقتصادى بل والسياسى لاشك ستأتى إسرائيل ، فالمعونات الأمريكية لأسرائيل لاتنتهى إقتصاديا وعسكريا ، كذلك أجادت الحركة الصهيونية إستثمار ماحدث لليهود فى الحرب العالمية الثانية على يد هتلر والنازية ، وضخمت ماحدث ، وأصبحت كلمة ' هولوكست ' أشبه بالسوط الذى تجلد به الصهيونية كل يوم الضمير الغربى ، وتبتز بإستخدامه الدول الأوربية ، والمثال على ذلك الضغوط التى مارستها على ألمانيا كى تدفع تعويضات باهظة ، وقد كشفت ألمانيا لأول مرة عام ١٩٩٦ أن إسرائيل وصلها حتى عام ١٩٩٥ مبلغ ٧٠ مليار دولار كتعويضات ، وأنها ستصل عام ٢٠٣٠ إلى ٨٨ مليار دولار !

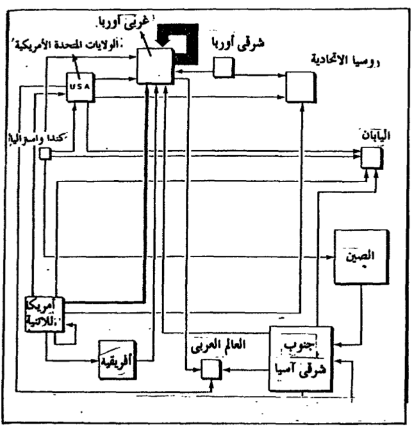
وتعتبر قدرة الدولة على التغيير السريع من الإنتاج غير الضرورى إلى الإنتاج الضرورى دليلا على مرونة إقتصادها ، ولايقتصر هذا التغيير على المصانع بل يتعداه إلى الأرض بتحويلها من مراعى إلى

أرض زراعيـة . وأخيرا يجب أن نشير إلى نوعية الإنتاج فى حالات الضرورة والطوارئ فهل يستمر الإنتاج فى هذه الفترة كما كان قبلها ؟ وهل تزداد ساعات العمل دون أن يصيب العمل بعض الإهمال ويصاب العمال والآلات بالإنهاك ؟ الواقع أن الإنتاج يقل نوعه ، وينخفض مستواه، نتيجة هذه الظروف الطارئة ، وهذا بدوره من الأمور التى يجب عمل حسابها فى تقدير إمكانيات الدولة .

الموارد الغذائية :

يعتبر توفير قدر مناسب من الموارد الغذائية للشعب من الأمور الأولية التى تعنى بها الحكومات . وإذا كانت الموارد الغذائية غير كافية ابان السلم فأولى بها الا تكفى السكان وقت الحرب ، وعندما يصعب النقل ونقل المعاملات الخارجية ويتحول جزء من الأيدى العاملة المنتجة لها الى الإنتاج الحربى . وفى هذا المجال لابد من الأشارة الى أنه لاتوجد دولة ذات اكتفاء ذاتى فى الموارد الغذائية ، لانه لاتوجد دولة كبيرة بالدرجة التى يتوفر فيها تنوع كبير فى البيئات ، مما ينتج عنه تنوع نمط الموارد الغذائية التى تطلبها كلها .

شكل (١٤) : الإتجاهات الرئيسية للتجارة الدولية فى المواد الغذائية



وتعتبر فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية فى هذا المجال أحسن من غيرها من حيث الإكتفاء الذاتى، ومع هذا فليس منهما ماينتج غلات المنطقة الأستوائية . فقصب السكر ليس من الغلات الرئيسية فى أى

من هذه الأقطار وإن كان يزرع فى الثانية بتكاليف كبيرة . ولكن يمكن لهذه الوحدات أن تعيش فى إكتفاء ذاتى لفترة من الزمن وقت الضرورة ، وإن كان معنى هذا أن الطعام فى هذه الفترة سيصبح رتيباً ، فضلاً عن ضرورة ظهور البطاقات التموينية ، وعلى عكس الدول السابقة نجد المملكة المتحدة والسويد والنرويج وبلجيكا وألمانيا الغربية تعتمد كلها على الخارج فى إحتياجاتها الغذائية . ذلك أن بريطانيا تستورد نحو نصف مجموع استهلاكها من الموارد الغذائية ، قد يزيد الأنتاج بعض الشئ فى هذه الفترات ، ولكن هذا لايتم الا بفلاحة الأراضى الحدية ، والتى يجب أن تترك بضع سنوات لتعود الى المراعى الطبيعية . ويتميز كل من الإتحاد السوفييتى والولايات المتحدة بوجود أراضى فسيحة لاتساع مساحة الأراضى الزراعية وإمكان زيادة الآنتاج الزراعى . وهذه الأراضى هى المعروفة بأسم الأراضى العذراء . ولكن هذا لايمكن تطبيقه على بقية أقطار العالم ، فمعظمها ليس لديها فائض من الأراضى بهذه الصورة ، وإذا وجد فإن الظروف المناخية وظروف التربة تحد الإنتاج فيه .

ويجب أن نعترف بأن اعتماد أقطار العالم بدرجة أو بأخرى على استيراد المواد الغذائية من العوامل التى تحسب على الدولة لا للدولة ، ذلك أن الحصار المستمر الناجح يمكن أن يمنع عن الأقطار المدد الغذائى، وقد حدث هذا فعلاً أثناء الحروب الاخيرة ، ففى الحرب العالمية الأولى استطاعت الغواصات الألمانية تقليل الأمدادات الغذائية الى بريطانيا حتى كادت تشرف على مجاعة ، وكان هذا الحصار أقل حدة فى الحرب العالمية الثانية ، ذلك أن الطيران أمكنه حماية قوافل البحرية بدرجة كبيرة ، وعلى العكس أصبح من أهم أهداف الحلفاء قطع الإمدادات عن ألمانيا . والأمثلة كثيرة على عمليات الحصار ، ومنها الحصار الذى فرضته بريطانيا على القارة أيام الحروب النابليونية ، ولكن القارة فى ذلك الوقت كانت أقرب إلى الإكتفاء الذاتى بحيث لم يؤثر هذا الحصار فيها كثيرا ، بل على العكس شجع هذا الحصار على زراعة البنجر ليحل محل القصب كمادة خام لصناعة السكر الذى أصبح من المتعذر إنتاجه . ولعل بريطانيا هى أكثر دول القارة تأثرا بالحصار ، وذلك بحكم كونها مستوردة لجزء كبير من مواردها الغذائية، وبحكم موقعها الجزرى ، وإحاطتها بالبحار . مما يجعل من الخطورة بمكان حصارها بواسطة أسطول قوى . وعلى العكس روسيا الإتحادية تعتبر أقلها تأثرا بالحصار بسبب إتساعها وتنوع بيئتها من ناحية ، وأمتداد حدوده إمتدادا كبيرا مما يضعف من عملية الحصار .

الموارد المعدنية :

لاتوجد دولة إلا وفيها جزء صالح للزراعة ، ولاتوجد دولة (بإستثناء الدول القزمية) لاتنتج ما يقرب من نصف إحتياجاتها الغذائية ، غير أن الأمر يختلف بالنسبة للموارد المعدنية : فتوزيعها أقل إنتظاما بكثير من توزيع الأراضى الزراعية . فقد كانت الطبيعة متطرفة للغاية فى توزيعها لهذه الموارد فى قشرة الأرض ، فلا توجد دولة على الإطلاق لديها إكتفاء ذاتى . فإذا كان الحديد منتشر إنتشارا كبيرا فإن معظم إنتاج النيكل يخرج من ثلاث دول فقط (٨٧ ٪) من كندا ونيوكليدونيا وروسيا ، بينما تنتج الولايات المتحدة وحدها ٨٩ ٪ من إنتاج المولبدنم، كما تنتج ٩٠ ٪ من فانيديم ، وتنتج الصين وحدها ٥٥ ٪ من التنجستن (الوفرام) وتنتج ٥ دول ٨٠ ٪ من الإنتاج العالمى للمنجنيز وهى روسيا الإتحادية والهند والبرازيل وجنوب أفريقيه وغانا . من ثم كان هناك تبادل كبير فى هذه المعادن أو تجارة عظيمة سواء فى معادن الوقود أو المعادن الفلزية. ويختلف الموقف بالنسبة للموراد المعدنية من عدة نواحى عن الموقف بالنسبة للموراد الغذائية .

فأولا : الأرض إذا ما وجدت العناية والتسميد الكافى ستستمر فى الإنتاج دون تغيرات كبيرة ، على العكس نجد أن المناجم فانية مستهلكة، وأى تكوينات معدنية إذا إستمر إستهلاكها فبعد مدة من الزمن لابد وأن تفنى ، وهذا العامل لابد وأن يعطى هذا النوع من الموارد صفة عدم الثبات والإستقرار ، وتصبح هناك حاجة ملحة لإستمرار البحث عن المعادن .

ثانيا : أن الموراد الغذائية نفسها تتعرض للتلف ، حقيقة أن القمح والحبوب الأخرى يمكن تخزينها لعدة سنوات ، ولكن هذا يقتضى درجات حرارة ورطوبة معينة إلى جانب حماية من الحشرات والقوارض . وعلى العكس يمكن تكديس المعادن فوق بعضها ومعظمها لن يصيبيه ضررا إذا ماترك مكشوفا معرضا للأحوال الجوية ، هذان العاملان يعدلان لا شك فى قيمة الموارد المعدنية .

وإذا كانت الإمكانات الزراعية تتوقف على نوع التربة والظروف المناخية ، فإن الإمكانات التعدينية تتوقف على نوع الصخور ، وليس لها علاقة بالمناخ الحالى . وبينما يعمل نحو نصف القوى العاملة فى العالم بالإنتاج الزراعى ، فإن من يعملون فى التعدين نسبتهم قليلة حتى فى الدول التى تعتمد على التعدين بصورة كبيرة مثل ليبيا ، وفنزويلا ،

وجنوب أفريقية ، ويحتاج التعدين إلى إستثمارات ضخمة وعدد قليل من الكفاءات الممتازة التى تتقاضى أجورا مرتفعة ، ويمكن أن نضيف أيضا أن التعدين تقوم به شركات ضخمة ، وأحيانا متعددة الجنسية Multinational وأحيانا تقوم به الدول فى ظل التأميم ، ولا مجال فيها للمشروعات الصغيرة أو للهواة . وتستهلك الدول النامية والمتقدمة الحاصلات النباتية غذائية أو خامات بصورة لاتقول متعادلة ولكنها متفاوتة ولكن ٩٠ ٪ من إستهلاك المعادن من نصيب الدول المتقدمة وحدها التى تضم نحو ٣٠ ٪ فقط من سكان العالم ، ولذلك تبدو حساسية المعادن من الناحية الإستراتيجية عن الإنتاج الزراعى .

وأخيرا يمكن أن نذكر أن إمكانات العالم الزراعية أصبحت معروفة ، وإن كان التقدم التكنولوجى قد يأتى بجديد ، ولكن قشرة الأرض وما تحت الطبقات السطحية لم تتم دراسته بالكامل ، وكل يوم يأتى بجديد وغريب فى ميادين التعدين ليبيا : البترول ، النيجر : اليورانيوم فضلا عن الإمكانات التعدينية الضخمة لدول الكمنولث الآسيوية التى ظهرت بعد الحرب الثانية وبترول بحر الشمال بالنسبة لبريطانيا .

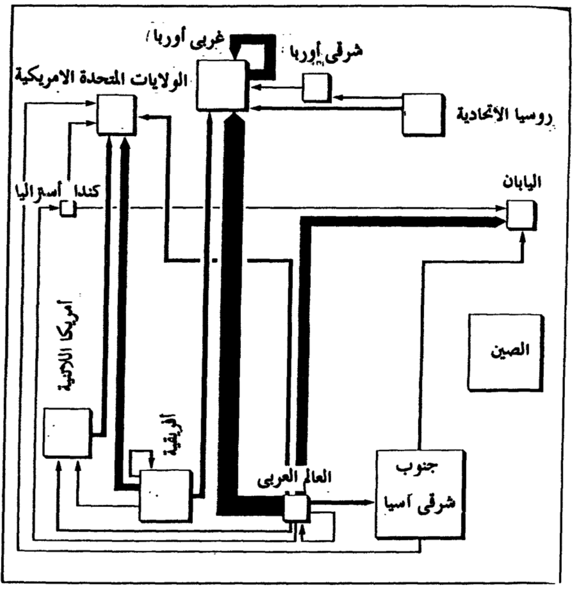
موارد الوقود :

وهذه أكثر إنتشارا فى توزيعها (سواء البترول أو الفحم بأنواعه أو الغاز) عن بقية المعادن الفلزية ، ومع هذا نجد أن أكثر من مائة دولة مستقلة ليست لديها تكوينات فحمية ، وهناك ثمانون دولة غير منتجة للبترول فهناك ستة أقطار منتجة لنحو ٨٢ ٪ من فحم العالم وخمسة أقطار منتجة ٧٦ ٪ من بترول . وهذا لاشك له آثاره الكبيرة على الأقطار غير المنتجة لموارد الوقود .

قد يؤدى هذا إلى تنمية موارد أخرى للوقود عادة بتكاليف باهظة أو بإستيراد وقود الخارج ، وبالتالى الإعتماد الكبير على الخارج فيما يختص بموراد حيوية كهذه . والأقطار الوحيدة التى يمكن أن تعتمد على مواردها الفحمية المحلية هى الولايات المتحدة الأمريكية والأتحاد السوفيتى والمملكة المتحدة وألمانيا الغربية وبولندا . وعلى الطرف الآخر نجد الدول الإسكندينافية وجمهورية أيرلند وأقطار الشرق العربى ومعظم أفريقية وأمريكا الجنوبية تقل فيها التكوينات الفحمية ، وهناك دول وسط بين الطرفين كفرنسا التى ينقصها بعض أنواع الفحم . وقد إتجهت بعض الأقطار إلى تنمية مواردها من الطاقة الكهربائية المائية كبديل للنقص فى

موارد الوقود الأخرى ، وظهر هذا فى الأقطار القليلة الموارد الفحمية كسويسرا والنمسا وإيطاليا وفرنسا والأقطار الإسكندينافية .

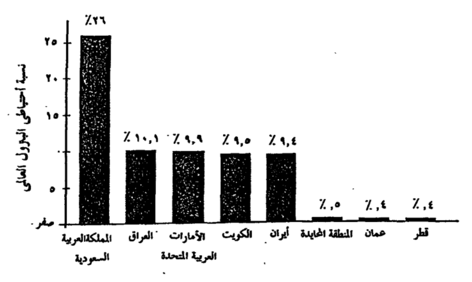
شكل (١٥) : الإتجاهات الرئيسية للتجارة الدولية فى مواد الوقود



وفيما يختص بالبترول نجد أن أى تقدير لكمياته وإحتياطاته عرضة للتغير من حين إلى حين مع تقدم وزيادة الأبحاث البترولية . وإذا كان من المرجح وجود إحتياطات كبيرة بالقرب من سلاسل الروكى والأنديز فى العالم الجديد ، وأطلس والكربات والقوقاز وأورال وزاجروس فضلا عن جنوب شرق آسيا ، فإن هناك مساحات كبيرة فقيرة فى هذا المورد كأفريقية جنوب الصحراء والنصف الشرقى من أمريكا الشمالية ومعظم البرازيل فضلا عن القارة الأوربية ذات التكوينات البترولية القليلة ، من

ثم كانت التجارة الدولية فى البترول ومشتقاته على درجة كبيرة من الأهمية إذ لم تكن أكثر أهمية من تجارة الفحم ، والعالم العربى والبحر الكاريبى هى أقاليم التصدير الرئيسية ، بينما تعتمد أقطار غرب أوربا إعتمادا كبيرا على بترول هذه الأقاليم ، كما بدأت الولايات المتحدة الأمريكية بدورها تستورد من بترول المنطقة . وذلك للإحتفاظ برصيدها البترولى الذى طالما إستهلكت منه الكثير . ونظرا لإن البترول مادة إستراتيجية ضرورية للنقل والصناعة ، أصبح وضع الدولة البترولى من العوامل التى توضع فى الإعتبار ، ولعل أبلغ مثل يوضح هذه الحالة هو أزمة السويس وتعطيل خطوط الأنابيب فى سوريا عام ١٩٥٦ ، مما أدى إلى ظهور نقص خطير فى وقود أوربا . وأزمة البترول فى الحرب العربية الإسرائيلية بعد ٦ أكتوبر ١٩٧٣ وتخفيض الدول العربية لإنتاجها من البترول ، بل ومنع بترولها عن الدول المساندة لأسرائيل مما أسفر عنه فزع أوربا وأمريكا الشمالية ، حتى أن هولندا نفسها ، التى قامت بتأييد إسرائيل رسميا فى بداية الحرب ، عادت تتراجع وترسل ممثليها إلى الدول العربية ، بل وإجتمعت دول السوق المشتركة وايدت قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ لعام ١٩٦٧ بإنسحاب العدوان الإسرائيلى إلى خطوط ١٩٦٧ ، فالبترول العربى يسد نحو ٨٠ ٪ من إحتياجات هولندا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وبلجيكا ، ونحو ٩٠ ٪ من إحتياجات سويسرا والبرتغال ونحو ٥٠ ٪ من إحتياجات السويد والنرويج و ٨٥ ٪ من إحتياجات إيطاليا وأسبانيا ، ولسنا فى حاجة إلى أن نسترجع ماحدث حين غزا العراق الكويت تمهيدا للسيطرة على شبه جزيرة العرب ، وقامت قيامة فى العالم ، وحشدت الولايات المتحدة الأمريكية العالم وراءها لطرد العراق من الكويت ، وسلسلة العقوبات التى فرضتها عليه مما أدى إلى تدهور أوضاعه الإقتصادية والبشرية .

شكل (١٦) : النسبة المئوية لإحتياطى البترول فى دول جنوب غربى آسيا



وإذا كانت الطاقة الذرية قد بدأت تدخل الميدان الصناعى ، فإنها مازالت على نطاق ضيق ، وتقتصر على بضعة دول ، لعل أهمها الولايات المتحدة ، والمملكة المتحدة والإتحاد السوفيتى . حيث تقتصر على الإستخدامات التكنولوجية ، وقامت المنظمة الأوربية للطاقة الذرية Euratom. من أجل التعاون فى هذه الإستخدامات .

المعادن الإستراتيجية :

وهى تلك المعادن التى تشتد إليها الحاجة فى الأغراض الأساسية زمن الحرب ، والتى لا تضمن الدولة توفرها بكميات وأنواع كافية فى وقت الحاجة لسبب من الأسباب ، ومن ثم يتحتم الإحتفاظ بإحتياطى مسبق منها. وتأتى هذه المعادن الإستراتيجية فى الدرجة الثانية بعد موارد الوقود ، ولسنا فى حاجة هنا إلى تأكيد إستراتيجية معادن كالصلب والنحاس والألمنيوم والزنك والرصاص والمنجنيز والنيكل ، إذ إشتدت إليها الحاجة وقت الحرب بكميات كبيرة لصناعة المعدات الحربية ، وضياع هذه الموارد وقت الحرب ، معناه خسارة كبيرة ، وخطيرة ، للجانب الذى فقدها ، فإستيلاء اليابان على قصدير الملايو ، وقطع الألمان لموارد الحديد الخام السويدى ، كذلك وقوع مناجم الزئبق فى إيطاليا ويوغسلافيا، فى أيدى المحور كان له نتائجه الخطيرة على الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية . ولأهمية هذه الموارد الإستراتيجية يعتقد البعض أن عمل ميزان لهذه الموارد بين كل من الإتحاد السوفيتى والكتلة الغربية قد يكون له قيمته فى تقدير كل من القوتين ويكون مفتاحا للمستقبل .

ولاننسى أن هناك عامل يتدخل فى الندرة النسبية للمعادن ، وهو إستعمال الخردة ، فقد يكون تجميع هذه الخردة أثناء السلم وإعادة صهرها أكثر تكلفة بكثير من إستيراد المعدن من الخارج ، ولكن هذه الخردة التى يلقى بها بعيدا خارج حدود المدن ، تصبح أهميتها كبيرة وقت الحرب .

الموراد الصناعية :

يعتبر النمو الصناعى للدولة دليلا وسببا لقوتها ، فكل القوى العالمية الكبرى اليوم هى قوى صناعية ، ولايمكن لأى سياسة سواء دفاعية أو هجومية أن تكون ذات أثر إذا لم تساندها قدرة على تصنيع آلات الحرب فالإمبراطورية البريطانية قبل الحرب العالمية الأولى بنيت كما يقول Keynes أساسا على الفحم والحديد ، أكثر منها على الدم والحديد ، وعلى أساس المهارة الكبيرة فى إستغلال موارد الحديد الزهر فى سيليزيا

العليا والسار مما أدى إلى قيام صناعات الصلب ، والصناعات الكيماوية، والكهربائية ، وهذا ما جعل ألمانيا فى النهاية أول أمة على أرض القارة.

لقد عرفت الدول المختلفة اليوم أن طريقها إلى القوة السياسية هو طريق التصنيع ، وإن كانت تتنكب الطريق أحيانا فى أنسب الأنواع سيزيد إنتاج الأمة بزيادة إنتاج عمالها ، فإذا إفترضنا أمتين متعادلتين سكانيا ، ولكن تتميز أحدهما بأنها أكثر تصنيعا ، فليس من شك أنها ستكون أقوى سياسيا من زميلتها ، وكلما تعددت صناعات الدولة ، كلما قل إعتمادها على الخارج ، وإذا كانت الموارد الصناعية جميعا ، مما يفيد الدولة ويقويها ، فإن هناك بعض الصناعات الإستراتيجية التى تعطى الدولة أهمية خاصة وهذه يمكن إجمالها فى ست صناعات وهى : صهر المعادن وتنقيتها ، الصناعات الهندسية كصناعة محركات الطائرات ، والسيارات والإلكترونيات والصناعات الكيماوية بما فيها صناعة المتفجرات ، والصواريخ النووية ، والأسمدة ، والأسمنت ، والأجهزة الكهربائية ، ثم صناعة المنسوجات ، والصناعات الغذائية .

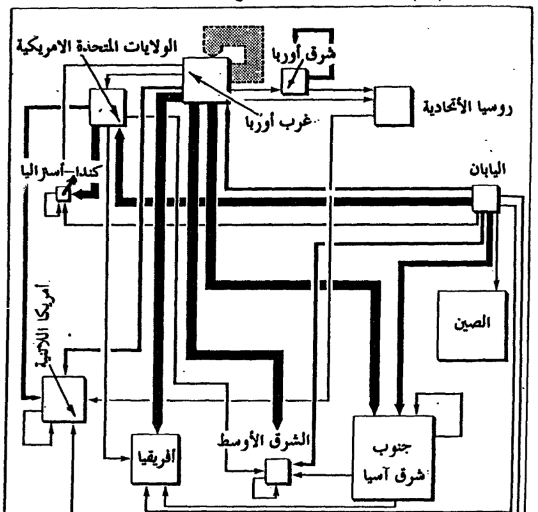
وإذا نظرنا للدول الصناعية الكبرى لوجدنا فيها تعادلا بين هذه الصناعات سواء كانت ألمانيا الغربية ، أو بريطانيا ، أو الولايات المتحدة الأمريكية ، بل ويظهر فيها أحيانا فائض كبير يزيد على حاجة الإستهلاك المحلى ، فتذهب للتصدير ، وبذلك تزيد الصناعة من رصيد الدولة .

أما الدول النامية ، فمن مشكلاتها ، ومؤشرات تخلفها ، أن الصناعة فيها لاتشترك ألا بقدر محدود فى الإنتاج الحربى والعمالة ، يكفى مثلا أن نقول بأن السلع المصنوعة ونسبة أقل من هذا بالنسبة لصادراتها تخرج من الدول النامية ، فلا تسهم الصناعة إلا بما يتراوح من ١٠ ٪ من الإنتاج القومى لمعظم الدول الإفريقية ، ومن ١٥ إلى ٢٠ ٪ لكثير من الدول الآسيوية ، ما عدا اليابان والنمور الأسيوية (تايوان ، هونج كونج، كوريا الجنوبية ، سنغافورة) .

وتتمثل عقبات التصنيع أمامها فى نقص المواد الخام اللازمة للتصنيع، ولكن الأهم من هذا هو نقص المعرفة الفنية ، التخلف التكنولوجى ، ومهارة العمالة ، والتمويل ، وإن كانت هذه أمور يمكن التغلب عليها ، ثم هناك أيضا حجم السوق الذى لايتفق أحيانا والأنتاج الكبير ، ففى أفريقية مثلا لاتوجد سوى أربع دول يزيد عدد سكانها على ٢٠ مليون نسمة . وتخلق هذا السوق المحدودة ، صراعا بين الحد الأدنى والحد الأمثل للمشروعات . أما عن الإستثمارات ، فقد بدأت الدول الصناعية القديمة تتحرك ببعض مشروعاتها فى الدول النامية لرخص الأيدى العاملة هناك،

كشركة فولكس فاجن فى البرازيل ، وكثير من الشركات الأمريكية فى كوريا ألخ ...

شكل (١٧) : المسارات الرئيسية للسلع المصنعة فى التجارة الدولية



أما عن طريق التصنيع فمن الدول النامية مايتجه مباشرة إلى الصناعات الثقيلة كما فعلت الهند حينما بدأت تتبع طريق التخطيط ، وأعطت هذا الفرع أهمية خاصة منذ خطتها الخمسينية الثانية ١٩٥٦ / ٦١ ، على إعتبار أن الهند بعدد سكانها الضخم مستهلك لحجم ضخم من السلع الإستهلاكية ، ومن أجل توفيرها محليا لابد تصنيعها محليا .

وأصبح فى الهند قطاع الصناعة الثقيلة كالحديد والصلب والصناعات الهندسية ، وبناء السفن من أختصاص الدولة ، والبعض الآخر مشترك بين الدولة والقطاع الخاص ، والباقى وهو الصناعات الإستهلاكية فقد تركت للقطاع الخاص ، كذلك الحال فى التجربة الصينية للصناعة ،

إتجهت فى خطتها إلى توجيه ٩٠ ٪ من إستثماراتها الصناعية نحو الصناعات الثقيلة ، وإن كانت الصين فى تجربتها إتجهت نحو إستغلال كثافة الأيدى العاملة فيها لتحل محل نقص رأس المال .

ولكن هناك صعوبات تتحدى الدول النامية فى ميدان الصناعات الثقيلة منها :

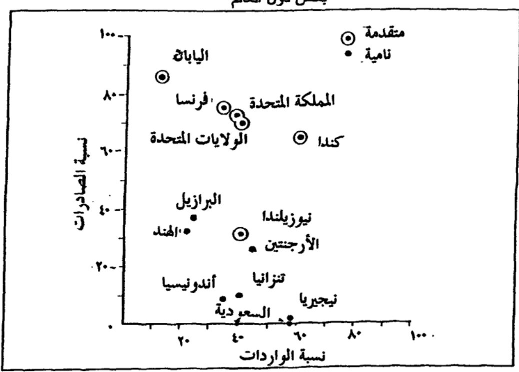
١ – أنها أمر يحتاج إلى مدة طويلة قد تصل إلى عقدين أو ما يزيد ، وفى هذه الفترة ستكون الدولة عرضة للمؤامرات السياسية خارجية وداخلية ويصبح العبء كبيرا على القيادة السياسية .

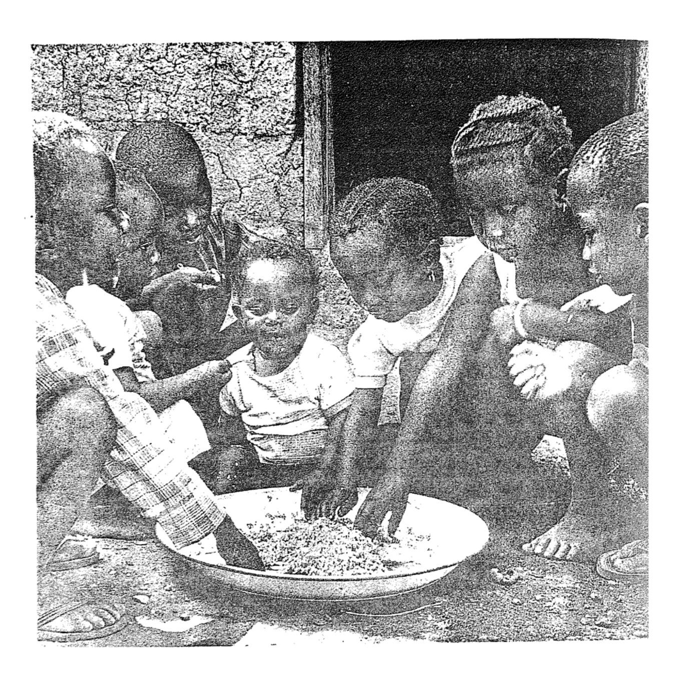
٢ – من يريد اللحاق بالدولة المتقدمة عليه أن يطارد هدفا متحركا ، فسرعة الإنجازات التكنولوجية أصبحت مذهلة .

٣ – سيطرة الدول المتقدمة على نظام النقد الدولى والإقتصاد العالمى.

هذا وتتجه بعض الأقطار إلى الصناعات التى تحتاج إلى خامات قليلة نسبيا وتوجه إلى التصدير أكثر من الإستهلاك المحلى ، كما هو الحال فى هونج كونج ، وكوريا ، وتايوان ، حيث تقدمت صناعة اللعب ، المنسوجات ، والملابس الجاهزة ، والسلع الكهربائية .

شكل (١٨) : السلع المصنعة كنسبة من القيمة الكلية للواردات والصادرات فى بعض دول العالم





هل تكـــفي المـــوارد ؟

النقـــل

أن تقدم وسـائل النقل مـن الأمـور الضرورية لنقل الخامـات إلـى المصـانع ولتوزيـع الإنتـاج علـى منـاطق الإستهلاك ، وكذلـك يتعـذر الدفـاع والهجـوم ، إن لـم تكـن هنـاك وسـائل سـريعة للنقـل تتحـرك عليهـا الجيـوش والأدوات

الحربية من مكان إلى آخر ، بل هناك الطرق الإستراتيجية ، وتظهر هذه الحاجة إلى أدوات النقل فى عمليات نقل الخطوط الحديدية من الهند إلى الهمالايا ، وإحتفاظ حكومة الولايات المتحدة بعدد كبير من عربات السكك الحديدية لنقل القوات من مكان إلى آخر .

وهناك مظهران للنقل يستحقان النظر ، أولهما خارجي ويتعلق بالوصول إلى الموارد الخارجية ، وهذا يقتضى إستعمال السفن ، والموانى ، والقنوات ، والآخر يتعلق بوسائل النقل الداخلية .

ويعتبر مد الخطوط الحديدية أو الطرق من العوامل التى تساعد على الوحدة القومية لأنها تربط سكان الأمة بعضهم ببعض ، وتمتلك معظم الدول شبكات من الطرق أو الخطوط الحديدية ، تشع من العاصمة إلى الأطراف فى فرنسا وبريطانيا وروسيا الإتحادية وغيرها ، بل ان نمو إتحاد الولايات الأسترالية ، والولايات الكندية كان يأتى بعد مد الخطوط الحديدية ، كذلك عملت الثورة الروسية على إزدواج الخط الحديدى السيبيرى الذى مد قبل الثورة ، ثم خرجت من هذا الخط خطوط فرعية متعددة ، ويمكن أيضا أن نعزو فكرة سيسل رودس فى مد خط حديد القاهرة - الكاب إلى حلمه بسيادة بريطانيا على كل أفريقية .

هذا ويدعم الشبكات الحديدية شبكات الطرق البرية والمجارى المائية، وإن كانت الطرق فى الحقيقة أكثر مرونة من الخطوط الحديدية، فيمكن أن تمد فى مناطق أشد إنحدارا ، كما أنها أقل تكاليفا ، وأسرع إنشاء ، ولذلك تظهر أهميتها إذا لم تكن الحركة كبيرة تبرر مد الخط الحديدى ، أو كانت طبيعة الأرض مما لايسمح بمد الخط الحديدى ، ومع ذلك ففى كثير من الأحيان لا تكون الطرق مكملة للسكك الحديدية ، بل موازية لها .

وأما النقل المائى فهو أيضا من النقل البرى ولكنه أرخص ، ومن ثم تناسبه الحمولات الكبيرة الحجم القليلة السعر ، ويصلح النقل المائى بطبيعة الحال فى الأجزاء الصالحة فى النهر للملاحة وفى البحيرات الداخلية ومن ثم كان إنشاء القنوات التى تيسر النقل سواء لتفادى مناطق الشلالات ولإختصار الطرق ، ومن الأمور المألوفة فى الدول المتقدمة ، ربط الأودية النهرية بواسطة القنوات الملاحية ولعل الشبكات المائية العديدة التى تربط بين أنهار روسيا ، وكذلك بحيرات وأنهار الولايات المتحدة الأمريكية مثل حى لما يقدمه النقل المائى الجيد من خدمات لإقتصاد الدولة .

الفصل الثانى : المنظور السياسى لإقتصاديات العالم وآقاليمه

يختلف إهتمام الجغرافى السياسى لهذا الجانب الجغرافى عن زميله الجغرافى الإقتصادى ، فالجغرافى السياسى يهتم بمعرفة مدى الحاجة أو مدى الكفاية الذاتية لأقاليم العالم بصفة عامة لأن الحاجة تعتبر ضعفا ، وفى نفس الوقت علاقة الموارد بالتقدم التكنولوجى ومدى إستغلال الدول لمواردها الطبيعية لصالحها ، ومدى إستغلالها لصالح الآخرين مما يمكن أن نلخصه فيما يلى :-

أقاليم العالم على أساس الكفاية من الموارد الطبيعية

١ - دول متقدمة وغنية بمواردها الطبيعية مثل دول أمريكا الشمالية، الأوقيانوسية والإتحاد السوفيتى سابقا وهذه الدول تستغل الموارد بكثافة شديدة وبسرعة فائقة ولكنها فى نفس الوقت لديها إحتياطيات كبيرة فيها .

٢ - دول متقدمة وغنية ولكنها فقيرة فى مواردها الطبيعية مثل دول غربى ووسط أوربا واليابان ، وكوريا الجنوبية ، هذه الدول مستورد ضخم للمواد الأولية من المجموعة (١) والمجموعة (٣) ، ومن ثم فغناها ومستواها الإنتاجى المرتفع على حساب الموارد الطبيعية فى أقاليم أخرى.

٣ - دول فقيرة نسبيا نامية بها موارد طبيعية لابأس بها ، مثل معظم دول أمريكا اللاتينية ، وأفريقية ، وجنوب غربى آسيا ، وهذه المجموعة تضم أكثر سكان العالم نموا ، وإذا لم يتم إكتشاف معادن جديدة أو إصلاح وإستغلال مساحات جديدة من الأرض ، فإنها ستنحدر إلى مصاف المجموعة الرابعة .

٤ - دول فقيرة نسبيا ، ناميه ، وفقيرة فى مواردها الطبيعية كدول جنوبى آسيا وجنوب شرقها والصين ، وهنا يزداد الضغط على مواردها الطبيعية مما يؤدى إلى نفادها .

والمجموعات الثلاث الأخيرة تضم أكثر من نصف سكان العالم ، ولكنها تضم مايقرب من خمس الموارد الطبيعية .

كذلك يهتم بالمغزى السياسى للتركيب الإقتصادى للدولة . وكيفية إختلاف هذا المغزى فى الزمان والمكان ، ودور السياسات المختلفة فى تغيير المركب الإقتصادى . وبهذا فلا تداخل بين الإثنين وإنما يكملان

بعضهما ، ونضرب مثلا بالسكك الحديدية التى مدت من دار السلام فى تنزانيا إلى مناجم النحاس فى ندولا وكيتوى فى زامبيا ، فالجغرافى الإقتصادى سوف يتركز إهتمامه على آثار السكك الحديدية فى تنشيط المناطق التى يمر بها من الناحية الإقتصادية ، كزيادة الإنتاج الزراعى ، وأثر زيادة الحركة على طاقة وتركيب مرفأ دار السلام ، ولكن الجغرافى السياسى سيركز إهتماماته على أثر هذا الخط على العلاقات السياسية بين دول إفريقية الوسطى والجنوبية ، وقلة إعتماد زامبيا على الطرق المتجهه عبر زيمبابوى ، وأنجولا ، وزيادة إمكانات الإتصال بين بتسوانا ، والدول الإفريقية شمال الزمبيزى ، وزيادة التقارب بين زامبيا وتنزانيا، مما قد يكون له آثاره على السوق المشتركة لشرق إفريقيه ، ثم أخيرا الدور المحتمل للصين فى هذا الأقليم على إعتبار أنها مولت ونفذت المشروع .

ويضع الجغرافى السياسى عدة إتجاهات رئيسية لفحص المركب الإقتصادى للدولة :

أولهما : التركيب الإقتصادى : Economic Structure

بمعنى التعرف على القطاعات الإقتصادية المختلفة ، ومدى التوازن وعدمه بينها مثل قطاع الزراعة والصيد ، وقطاع الصناعة ، وقطاع الخدمات ، ومن هذه الدراسة يمكن أن يخرج بفكرة عن قوة الدولة ، ودرجة الكفاية الذاتية ، وإستقرارها الإقتصادى ، فمن الواضح مثلا أن نيجيريا بإنتاجها المتنوع من المواد الأولية (القطن ــ الكاكاو ــ المطاط ــ الأخشاب ــ القصدير ــ زيت النخيل ــ البترول) موقفها الإقتصادى أكثر قوة من غمبيا التى تعتمد على صادرات الفول السودانى وحدها ، وأن الولايات المتحدة الأمريكية يمكن أن تواجه قطع الإمدادات البترولية ، أو النقص فيها بصورة أكثر من اليابان .

وثانيهما : التعرف على التركيب الإقليمى Regional Structure

بمعنى التركيب الأقليمى للأنشطة المختلفة ، لتميز الأقاليم المتقدمة، والأقل تقدما داخل الدولة ، وقد يكون فى هذا تفسير لبعض الحركات الإنفصالية ، وتفسير بإعادة توطين النشاطات الإقتصادية .

وترجع الإختلافات الإقليمية إلى مجموعة من الأسباب قد يكون منها إختلاف الموارد المتاحة بين أقاليم الدولة المختلفة ، ويمكن أن نضرب مثلا بوادى النيل والدلتا والصحراء الغربية ، حوض باريس وهضبة

فرنسا الوسطى . وقد يرجع الإختلاف إلى تغير طبيعة الموارد أو نمط إنتاجها ، ونضرب مثلا بحقول البترول ، أو تعدين المناجم ، بصفة عامة، حين ينضب المعين فيتوقف إنتاجها ، وينفض الناس من حولها إلى نشاطات أخرى ، وقد يهاجرون نهائيا إذا لم يجدوا مجال لنشاطهم فتتحول مدينة التعدين إلى مدينة أشباح .

لهذه الأسباب وغيرها يجب أن تدخل الإختلافات فى التقدم الإقتصادى بين أرجاء الدولة فى الإعتبار عند الدراسة السياسية ، ومن المسلم به أن الحكومة تحاول أن تقلل من هذه الفروقات عندما تجد أنها ستشكل خطرا سياسيا ،وهناك عدة أوضاع تؤدى إلى ضرورة الإهتمام السياسى وهى:

عندما تزداد حالة الإقليم المتخلف سوءا ، وهذا له مؤشراته العديدة ، مثل إنخفاض متوسط دخل الفرد فى الأقليم بصورة حادة عن المتوسط العام فى الدولة ، وعندما تزداد نسبة البطالة فيه بصورة أكبر عن نسبتها فى الدولة ، ومنها هجرة الشباب من الإقليم إلى جهات أخرى بحثا عن فرص أفضل ، مما يؤدى فى النهاية إلى تركيب إجتماعى فى الأقليم ، عماده كبار السن والأطفال . ويبدو أيضا فى مثل هذا الإقليم قلة الإستثمارات والمبانى الحديثة عنها فى الآقاليم الأخرى الأكثر تقدما ، ودرجة المخاطرة هنا أن مثل هذا الإقليم ستعتبر نواه عدم رضاء ، وبؤرة معارضة قد تؤدى إلى المطالبة بحكم ذاتى ، أو الإنفصال كما حدث فى بنجلاديش (باكستان الشرقية) .

وعلى العكس أيضا إذا بلغ الأقليم درجة عالية من التنمية والثراء إذا ما قورن ببعض أجزاء الدولة ، وهذا ماحدث فى (شابا) فى زائير حيث النحاس والذهب ، والأقليم الشرقى أو بيافرا فى نيجيريا (تدفق البترول) ، وكلاهما نجح فى إثارة الإضطراب ، والإنفصال لفترة ، وأدى إذن إلى قيام حرب أهلية ، لاشك عاقت التنمية فى كلا الدولتين ، وهنا تشتد النار إشتعالا إذا ما إستندت المشكلة على أساس قومى ، أو لغوى ، أو قبلى ، وبالتالى تستغلها قوى خارجية .

كما ينبغى ملاحظة درجات النمو الإقتصادى للأقاليم المختلفة داخل الدولة ، والسياسات التى تتبع أحيانا لتذويب الفروقات ، ومن الطريف فى هذا المجال ، أن هناك سعرين للصرف بالنسبة للعملات الأجنبية فى كل من شيلى ، وأرجنتين ، وذلك لجذب الإستثمارات إلى الأقاليم الأقل تقدما .

وتعمل إيطاليا وبلجيكا على زيادة الخدمات ووسائل النقل للأجزاء المتخلفة فيهما ، بل طلبتا من السوق المشتركة إستثناء هذه الأقاليم من قوانين السوق ، لأنها ستتعرض لمنافسة دول أكثر تقدما . وتقدم حكومة أستراليا حوافز للصناعات التى تقوم فى المناطق الريفية وذلك بغرض النهوض بها من ناحية ، ولمنع الإحتقان فى المدن من ناحية أخرى .

وثالثهما : طبيعة التقسيم الإقتصادى والإجتماعى داخل الدولة

فعندما يحدث عدم توازن ضخم فى توزيع موارد الثروة ووسائل الإنتاج داخل الدولة بمعنى تركزها فى أيد فئة قليلة ، بينما تعيش الغالبية فى حال العدم ، يكون هذا مثار قلاقل ، فالثورة الأثيوبية التى حدثت عام ١٩٧٤ وأطاحت بالأمبراطور ، وكانت نتيجة مباشرة لحالة الجفاف الشديد التى أصابت البلاد ، وإرتفاع أسعار المواد الغذائية بطريقة جنونية، بحيث عضت الجماهير الفقيرة بنيانها ، وظهر التناقض واضحا فى المجتمع الأثيوبى بين الغالبية المعدمة ، والأرستقراطية المرفهة .

وقد يحدث أن يجتمع سكان مختلفى الأصول داخل الدولة ، ويصبح التقسيم الإقتصادى موازيا للتقسيم الإجتماعى ، كما حدث فى شرق أفريقية ، حينما وجد عيدى أمين فى أوغندا أن الأسيويين أو الهنود يسيطرون على قطاع تجارة القطاعى ، فضلا عن قطاعات أخرى ، فقام بطرد ٦٠ ألفا من الذين يحملون الجنسية البريطانية ، والواقع أنه فى كثير من أقطار جنوب شرق آسيا ، وأفريقيه جنوب الصحراء نجد الأقليات الأجنبية وقد حققت نموا بارزا فى بعض القطاعات الإقتصادية ، مما أدى إلى إتباع سياسة التأميم **Indignization** لكثير من القطاعات لوقف نموهم ونقله إلى القطاعات الوطنية مثلما حدث للبنانيين فى غرب أفريقية بمقتضى القوانين التى أصدرتها نيجيريا ، وساحل العاج ، والسنغال عام ١٩٧٣ . فأصدرت نيجيريا قائمة باثنين وعشرين حرفة لايقربها إلا المواطنين ، وقصرت السنغال تجارة القطاعى على السنغاليين، وحرمت كينيا حرفة السياحة على الأجانب . ويلاحظ هذا النشاط أيضا بالنسبة للأرمن واليونانيين فى أثيوبيا ، والصينيين فى جنوب شرق آسيا . والغرض من كل الأجراءات التى تتخذ هو إشراك الوطنيين وتحويل هذه الأنشطة إلى الأيدى الوطنية .

ويظهر **التباين فى التركيب الإقتصادى بين الدول** إذا ما نظرنا إلى المجموعات التالية :

١ - تمثل غامبيا مجموعة من الدول ذات الموارد المحدودة ، ويمثل القطاع الزراعى فيها عماد الدخل القومى وتكاد تعتمد على محصول واحد هو الفول السودانى المسئول عن حصيلتها من العملة الأجنبية ، كما أنها سيئة الحظ فى أنها تستورد أكثر مما تصدر ، مما يشكل عجزا مستمرا فى ميزانها التجارى ، ويضاف إلى هذا أن ربع وارداتها عبارة عن مواد غذائية ، أما عن القطاع الصناعى فهو فقير للغاية ، ويتألف من صناعات إستهلاكية خفيفة كطحن الحبوب والملابس والمشروبات ، مثل هذا الوضع تجده فى كثير من دول العالم الثالث مثل النيجر ، (بوركينا فاسو)، سيراليون ، موريتانيا ، الصومال ، السودان ، سيرلانكا . وليس من شك أن مشكلات هذه الدول الإقتصادية والسياسية يتحكم فيها إلى حد كبير ما يحدث لسلعتها الرئيسية من ذبذبة لأسعارها ، وخاصة نحو الإنخفاض نتيجة لزيادة الإنتاج العالمى منها ، أو ظهور بدائل لها . ويؤدى هذا إلى إعاقةخططها للتنمية ، وقد تقع فى النهاية فريسة للإعتماد على المعونات الأجنبية وما يتبعها من خضوع للدول الأكثر ثراء . ولكن يخرج من هذه الفئة التى تعتمد على سلعة واحدة الدول المنتجة للبترول كالكويت والمملكة العربية السعودية .

٢ - وتمثل نيجيريا مجموعة أخرى تتميز بتنوع الموارد وتسير عجلة التنمية فيها بسرعة مما يغير فى مركبها الإقتصادى ، ومثل هذه الدول لديها صادرات زراعية ، ومعدنية، وعدد كبير من السكان ، يمثل سوقا لبعض الصناعات التى يمكن أن تقوم بها ، ومن أمثلة هذه الدول البرازيل والملايو (كوت دى فوار) إلخ . . .

٣ - تمثل الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة نوعا ثالثا من الدول التى يقوم بها قطاع صناعى نام ، وصادرات متنوعة تكفى فى الظروف العادية لموازنة الواردات .

وفى الحقيقة نجد أن كل الدول الصناعية فى حاجة إلى إستيراد الخامات ، ومع ذلك يمكن أن نفرق بينهما ، فهناك فرق بين كندا وأستراليا من ناحية ، وبين اليابان والمملكة المتحدة من ناحية أخرى فكندا وأستراليا تصدران كثير من المواد الخام الزراعية والمعدنية بالإضافة إلى قطاع صناعى نام ، بينما المملكة المتحدة واليابان بهما قطاعات صناعية نامية أكثر تنوعا ولكن الخامات التى يصدرانها ليست بذات أهمية تذكر .

وهكذا يخلق الإختلاف فى التركيب الإقتصادى تباينا فى طبيعة المشكلات السياسية والإقتصادية التى تواجه كل دولة : فالحصول على

قوة دفاعية ذات بأس تتطلب ، أما صناعة متقدمة ، كما هو الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية والأتحاد السوفييتى ، حيث يمكن صناعة الطائرات ، والسفن الحربية ، وصناعة السلاح ، وأما فائض كبير فى الميزان التجارى يمكن من شراء هذه المعدات من الخارج كما هو الحال فى إيران ، وفيما عدا ذلك لابد وأن تعتمد الدولة على الخارج .

وتعمل حكومات الدول النامية لمواجهة هذه المشكلات على إتخاذ أساليب متعددة منها التقليل من الواردات ، وبصفة خاصة واردات المواد الغذائية لتحسين الميزان التجارى ، وقد وضعت بعض الدول الإفريقيه مثل نيجيريا وغانا وزامبيا المخططات للإقتراب من الإكتفاء الذاتى ، وتسعى دول أخرى إلى التصنيع بطرق مختلفة ، وتضع دول أخرى تعريفات مانعة أمام السلع الشبيهة بالمحلية والواردة من الخارج . وتذهب دول أخرى إلى وضع قيود على صادرات المواد الخام المنتجة محليا كما تفعل أسبانيا والبرتغال بوضعهما القيود على صادرات الفلين الخام حتى يمكن تصنيعها محليا .

المتقدمون والمتخلفون

إستخدام البنك الدولى المعيار النقدى ، والذى يعبر عنه بمتوسط نصيب الفرد من الناتج المحلى الإجمالى سنويا (GNP) وقسم دول العالم إلى أربع مجموعات بحسب تقديرات ١٩٩٤ (تقرير التنمية فى العالم ١٩٩٦) .

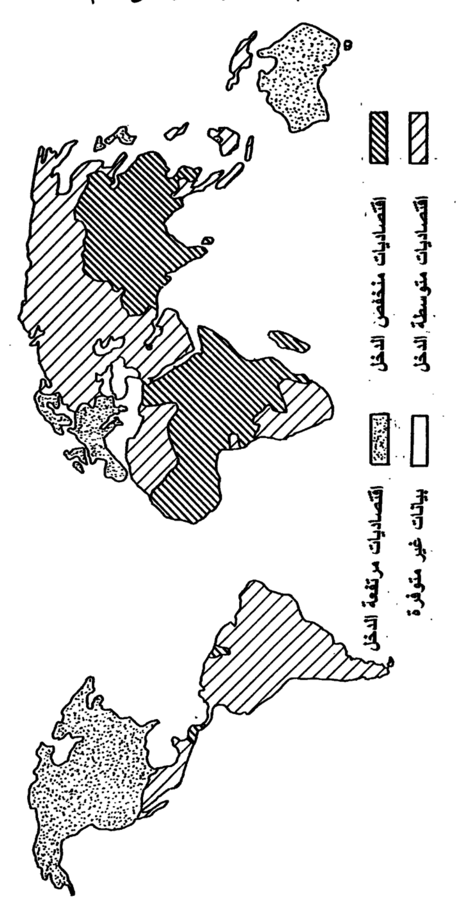
١- دول ذات دخل مرتفع (+ ٨٩٥٥ دولار)

٢- دول ذات دخل متوسط (من ٧٢٦ - ٨٩٥٥ دولار)

٣- دول ذات دخل منخفض (٧٢٥ دولار أو أقل) وهذا هو خط الفقر .

ويلاحظ أن الدول ذات الدخل المرتفع مركزة فى أوربا وأمريكا الشمالية وعلى الهامش الشرقى للقارة الأسيوية وبذلك تضم اليابان وأستراليا ، أما الدول ذات الدخل المنخفض تسود فى القارة الأفريقيه وأجزاء من أسيا ، وفى هذا الكتاب قسمناها إلى دول متقدمة ، دول نامية (متخلفة) ، وهما معادلان للأغنياء والفقراء ، أو الذين يملكون والذين

شكل (١٩) : أنماط الإقتصاديات فى العالم ١٩٩٥



لايملكون ، أو بتعبير قد لايكون دقيقا مائة فى المائة ، المحظوظون وقليلو الحظ Lucky , Unlucky وكان العالم يقسم حتى العقد الماضى إلى العالم الأول (الرأسمالى) ، والعالم الثانى (الشيوعى) ، والعالم الثالث (المتخلف) والعالم الرابع شديد التخلف والعالم الخامس الأشد فقرا .

ولكن هذه التعبيرات فقدت مدلولاتها منذ أواخر التسعينات لما طرأ من تغييرات سياسية ، ويصبح التقسيم على أساس الأغنياء والفقراء ، نظرا لأن الفجوة تزداد إتساعا وعمقا بين المعسكرين ، وبالتالى يصبح الإستقرار العالمى فى خطر وبالتالى أمن الأغنياء .

والملاحظ أن هناك أحيانا جزر ذات نمو سريع فى محيط إقتصاديات راكدة وهذا واضح فى ذلك الشريط الشرقى من آسيا .

ورغم أننا قسمنا العالم إلى متقدم ومتخلف ، فما زال الأمر موضع خلاف فى مسألة إختيار معايير التقدم والتخلف ، ويمكن القول بأن هناك سبع مقاييس ومع ذلك فهى موضع نقاش .

مقاييس النمو

مالذى يميز الدول المتقدمة عن الدول النامية ؟

لابد من المقارنة بين الدول على أساس مقاييس معينة : والإجابة ليست بسيطة ، وليست هناك دول متقدمة تماما ، وليس هناك إقتصاد متخلف بالكامل ، فنحن نوازن أو نقارن بين درجات النمو ، حين نميز بين الدول المتقدمة والدول النامية ، الفاصل بين هذا وذاك هو حد قاطع، ولكن هذا الحد مازال موضع جدل ، فهناك نقص البيانات الذى تعانى منه كثير من الدول ، وأحيانا تقدم بيانات لايمكن الإعتماد عليها ومع ذلك فهناك مقاييس متعارف عليها لقياس مستوى النمو الإقتصادى للدول:

١- نصيب الفرد من الناتج المحلى ، وذلك بقسمة مجموع الدخل الناتج من الإنتاج المحلى خلال عام على عدد سكان الدولة ، ويحول إلى عملة قياسية ، وهذا يتم عادة بالدولار ، وفى هذا الصدد يمكن أن يزيد نصيب الفرد فى الدول المتقدمة على ١٠ آلاف دولار ، ويقل فى بعض الدول النامية عن المائة دولار .

٢- التركيب الحرفى للقوى العاملة ، وهى نسبة العاملين فى كل نشاط من الأنشطة الإقتصادية ، فإذا كانت هناك نسبة كبيرة تعمل فى إنتاج الغذاء الأساسى ، فهذا مؤشر على المستوى المنخفض .

٣- إنتاجية العامل وذلك بقسمة مجموع الإنتاج السنوى على مجموع القوى العاملة .

٤- نصيب الفرد من إستهلاك الطاقة ، وكلما إزداد هذا النصيب كلما كان هذا مؤشرا على زيادة النمو الإقتصادى (يجب أن ينظر إلى هذا العامل فى ظل ظروف المناخ) .

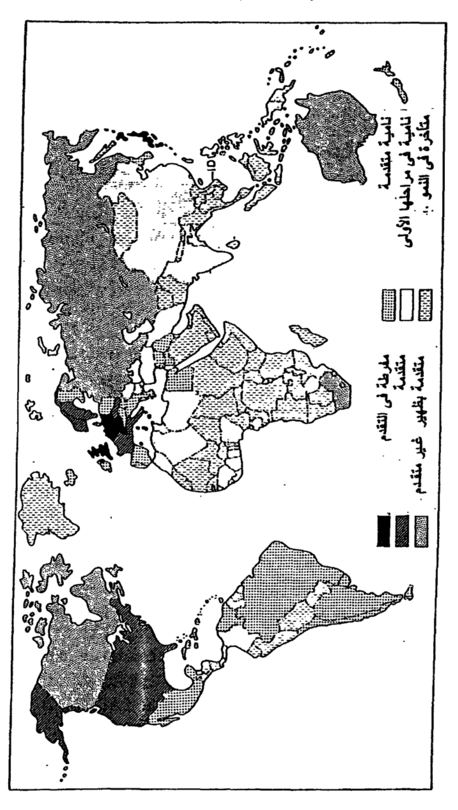
٥- تسهيلات النقل والمواصلات بالنسبة للفرد ، وفى هذا المجال تحول السكك الحديدية والطرق والخطوط الجوية والتلفزيون والراديو والتليفون إلى رقم معيارى ويحسب نصيب الفرد ، وكلما إزداد دل على إرتفاع درجة النمو الإقتصادى .

٦- نصيب الفرد من إستهلاك المنتجات المعدنية ، فكلما زاد نصيبه من إستهلاك الحديد والنحاس والألومنيوم والصلب وغيرها من المعادن الأساسية كلما كان هذا مؤشرا للتقدم .

٧- وتضاف مقاييس أخرى مثل نسبة المتعلمين ، والسعرات الحرارية نسبة ماتصرفه الأسرة على الطعام ، ونصيب الفرد من الإدخار .

وأكثر من هذا أن الدول المتقدمة حصلت على كل المزايا ، ولكن لماذا لم تلحق الدول الأخرى المتخلفة بها ؟ ـ المسألة هنا ليست بالبساطة فى القول بأن هذا التخلف يرجع إلى البيئة وظروف توزيع الثروة ، أو الميراث الثقافى مثل مقاومة الجديد ، ذلك أن الأحداث التى تتابعت وخرجت لنا بهذا التقسيم ، ترجع إلى ما قبل الثورة الصناعية ، فقد أرست أوربا أساس التوسع الإستعمارى منذ منتصف القرن الثامن عشر ، ثم جاءت الإنقلابات الصناعية تضخم الطلب على المواد الخام ، وزادت الصناعة من كفاءتها وقبضتها الإستعمارية ، من ثم كانت البداية قوية للغاية ، بينما ظلت التوابع كما هى بفضل السياسة الإستعمارية مخازن للمواد الخام وأسواقا للمصنوعات ، وظهر نظام تبادل دولى وتدفق لرؤوس الأموال ، الذى ظل دون تغيير كبير لفترة طويلة حتى بعد إنتهاء الإستعمار السياسى ، ولاشك أن الدول المتخلفة تعرف هذا تماما ، وتتهم الدول الإستعمارية السابقة بالإستمرار فى إستغلالها فيما يعرف بالإستعمار الجديد أى النظام القديم وإن كان متخفيا تحت قناع جديد .

شكل (٢٠) : مراحل النمو : ست مراحل على أساس إختلاف الإنتاج والإنتاجية والإستهلاك وإستغلال الموارد



أعراض التخلف

يمكن القول بوجه عام أن الدول المتخلفة أو الفقيرة تظهر فيها أعراض أخرى تدل على فقرها وتخلفها غير متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلى الإجمالى فهى تعانى من مجموعة من الأوضاع البشرية والإقتصادية والإجتماعية ، فسكانها يتميزون بمعدلات مواليد عالية ، ومعدلات وفيات تتراوح بين المتوسطة والعالية ، وتوقعات العمر عند الولادة منخفضة ، وقد يصل صغار السن فيها (أقل من ١٥) إلى نحو نصف مجموع السكان ، كما ترتفع فيها وفيات الأطفال ، ولايجد السكان الغذاء المناسب ، ولاتتميز الوجبات الغذائية بالتوازن ، وأهم نقص فيها هو البروتين ، كذلك عدد الأطباء ، وتتفشى الأمية بين السكان ويتسرب الأطفال من التعليم .

وإذا إنتقلنا إلى ريف الدول المتخلفة نجده مزدحما ، ردئ فى مواصلاته ، وتتحمل المرأة فى الريف معظم الأعباء الثقيلة ، كما يتجه الأطفال للعمل فى سن مبكرة ، وتسود الملكيات القزمية ، ويمارس العمل الحقلى بأدوات بدائية ، ومحاصيلها الرئيسية الحبوب والدرنيات ، وتسود حياة الإكتفاء الذاتى ، والفلاح مديون دائما ، وإذا خصصت مساحات للزراعة الحديثة مستخدمة آلات حديثة وتسميد جيد ، فغالبا مايكون إنتاج هذه الأراضى للأسواق الخارجية ، ولاتتحسن ظروف الحياة بقدر كبير نتيجة الزراعة الحديثة .

والحياة فى المدينة ليست بأفضل كثيرا من حياة الريف ، فهناك الإزدحام ، ومشكلة السكن ، وسوء الأحوال الصحية ، ونقص الخدمات ، والبطالة ، وإنخفاض دخل الفرد ، وقلة المدخرات ، كما تصرف الأسرة معظم دخلها على الطعام وأساسيات الحياة ، وهناك معايير أخرى تدل على التخلف ، منها على سبيل المثال عدم التوازن الأقليمى بين أجزاء الدولة الواحدة ، أو بين العاصمة وبقية الدولة ، وهذا واضح فى مصر حيث أفقر جهاتها هو الصعيد ، وتأتى محافظة سوهاج فى المقدمة تليها أسيوط ، ثم قنا ، فالعاصمة قد تظهر وكأنها عاصمة لناطحات السحاب ، كما فى مدن الدول المتقدمة ، ولكن ما أن تخرج من قلب المدينة إلى الأطراف حتى تجد العشوائيات وعشش الصفيح أو المزارع الفقيرة ، أو الورش ، أو المصانع الملوثة للبيئة ، وتتجه الطرق البرية والخطوط الحديدية إلى الموانى حيث السفن التى تفرغ السيارات الفارهة لزوم الطبقة المرفهة ، وفى مثل هذه الدولة تجد العاصمة النواة وقد بدت فيها مظاهر الحضارة الحديثة جلية ، فإذا ما تركتها للأطراف تكون هى

صدمة المشاهد كما رأينا ، وكما هو الحال فى أن الدول الغنية تزداد غنى، والفقيرة تزداد فقرا ، يتكرر الحال داخل الدول المتخلفة فى إتساع الفجوة بين الأقاليم وهى مشكلة ذات بعد عالمى .

ليس من شك فإن النظام العالمى يعمل ضد صالح الدول المختلفة ، ولكن للأسف ليس هذا هو العقبة الوحيدة التى تواجهها الدول النامية ، فهناك عدم الإستقرار السياسى ، والقيادات الفاسدة ، وعدم تنسيق الأولويات ، وسوء إستخدام المعونات والتقاليد البالية ، كل هذا يساعد على إعاقة التنمية ، وكان للتدخلات الخارجية من جانب الدول المتقدمة لها أثرها السلبى أيضا على هذه الدول ، خاصة فى فترة الحرب الباردة ، مستغلة الحروب الأهلية ، فكانت الولايات المتحدة الأمريكية تقف فى جانب والإتحاد السوفييتى فى الجانب الآخر ، وليست أحداث أنجولا وإثيوبيا والصومال وأفغانستان وفيتنام وغيرها التى عانت نتيجة تدخل هذه القوى العظمى ، بالأمر البعيد . ويلاحظ أن هناك إختلاف فى درجات التنمية حتى بين المستويات المتقاربة ، على سبيل المثال نجد أن الدول الأكثر تطرفا فى أمريكا الجنوبية كشيلى وأرجنتين وأرجواى أكثر تقدما من نظائرها فى الشمال كالبرازيل وبوليفيا وأراجواى ، وكالفرق بين شرقى أوربا وغربيها .

<u>زيادة الفجوة</u> : الأغنياء يزدادون غنا ، والفقراء يزدادون فقرا

فى مقابلة مع السيد محبوب الحق أحد مستشارى الأمم المتحدة قال "بالإمكان وقف إيقاف الأشخاص الفقراء عند نقاط الحدود ، لكن من المتعذر إيقاف الفقر وضبطه فهو يسافر فى هيئة مخدرات وإرهاب ، وأعراض نقص المناعة المكتسبة ، والحل هو فى وضع مشكلات سكان العالم النامى موضع الإعتبار وإلا تركت مشكلات هؤلاء البشر أثرها وضررها على المناطق الأكثر إزدهارا ونموا فى العالم ".

تتجلى زيادة الفجوة الطبقية بين الأغنياء والفقراء ، فيما أورده جيمس جوستاف سيبث فى مقال نشرته له جريدة الشرق الأوسط فى أغسطس ١٩٩٦ رقما مذهلا ، ورد فى عنوان مقالته ذاتها الذى يقول : " ثروة ٣٥٨ مليارديرا أكثر من ثروة ٤٥ فى المائة من سكان العالم مجتمعين "، أى قرابة ٢,٣ مليار إنسان ، وليس بروز الفجوة الطبقية الهائلة هو المعلم الوحيد من معالم توحش الرأسمالية ، فالمعلم الثانى الذى بدأ يبرز فى السنوات الأخيرة ، ونتيجة لما أطلق عليه " أزمة دولة الرفاهية " هو التقليص الشديد فى ميزانيات الضمان الإجتماعى والصحى والمساعدات

الإجتماعية ، والتى ربما كان أبرزها التشريعات التى أصدرها الكونجرس الأمريكى (١٩٩٥) ، والتى ستؤدى إلى دفع الملايين فى محيط الفقر المدقع ، ونفس الإتجاه نجده فى أوربا الغربية ، وإن كان بإستخدام وسائل أخرى غير مباشرة ، ويكشف عن هذه السياسة الإجتماعية الرجعية كلود جوليان فى مقالته الهامة فى لموند دبلوماتيك (عدد سبتمبر ١٩٩٦) وعنوانها " النظريات الإقتصادية على محك الواقع : نحو الصدمة الإجتماعية " ويحلل جوليان بعمق أزمة النظام الرأسمالى الراهن ، التى تبدو فى إتجاهه إلى سحق الطبقات الفقيرة .

١- أكثر من ١,٣ مليار شخص يكافحون من أجل البقاء أحياء معتمدين على دخل يقل عن دولار واحد للشخص فى اليوم عام ١٩٩٥ وكان هذا العدد أقل بنحو ٣٠٠ مليون شخص منذ خمس سنوات .

٢- أكثر من ١٤٠٠ طفل يموتون يوميا تحت سن الخامسة ضحية لأمراض سوء التغذية وأمراض يمكن التحصين ضدها .

٣- ١٣٠ مليون طفل معظمهم من الإناث لايذهبون إلى المدارس .

٤- بلغ الدخل القومى فى عام ١٩٩٠ لشريحة العشرين فى المائة من أكثر سكان العالم ثراء ٦٠ مرة أكثر من أفقر الشرائح عالميا ونسبتها ٢٠ ٪ ، وذلك بالمقارنة بثلاثين عاما مضت ، إذا كان الدخل أكثر بنسبة ٣٠ مرة .

وكشف التقرير الأخير لمؤتمر الغذاء العالمى الذى عقد بروما مؤخرا عن تزايد نسبة الفقر والجوع فى العالم وقال جاك ضيوف مدير عام منظمة الأغذية والزراعة " أن القرن القادم سيكون قرن الحروب المائية والغذائية " ، ومن أغرب ماأشار إليه أن ميزانية المنظمة الدولية " الفاو " بعد خفض العديد من دول العالم المتقدمة لمساهمتها تقل عن تكلفة إطعام الكلاب والقطط في تسع دول متقدمة لمدة ٦ أيام فقط ، وقد قام بمهاجمة الدول الغنية التي تدمر محاصيلها الزراعية للحفاظ على أسعارها في الأسواق العالمية بينما تعاني دول فقيرة في العالم من عدم وجود غذاء يسد رمق شعوبها الجائعة .

هذا بينما تعادل فوائد الديون الخارجية لدول العالم الثالث أكثر من ثلثى القروض والمنح الجديدة المقدمة لها سنويا بحيث يمكن أن يقال — وهنا وجه الغرابة أن الدول الفقيرة هى التى تمول فى الواقع الدول الغنية.

كيف السبيل ؟

يسألون : إلى متى ؟ وكيف الخروج من وطأة الفقر قديمة كانت أم جديدة ؟ وهل هناك أمل فى المستقبل ؟ فى البداية أجاب البنك الدولى مستخدما مفهوم " عبور الصحراء " وقال ان الأمل يلى التقشف وأن الشدة ستزول قريبا ، ولما إستفحل الفقر بلا بصيص من الأمل فى الدول النامية عدل البنك الدولى موقفة مستخدما مفهوم " التضحية من أجل التنمية " . ولخصت أحدث دراسات البنك الدولى لتسعة وعشرين دولة إفريقية أن معظمها لن تستعيد دخل الفرد سابقا إذا ماطبقت برامج الإصلاح الإقتصادى قبل مالا يقل عن ٤٠ أو ٥٠ عاما أوصت بدعم الصندوق الإجتماعى ، فالخلاص اذن لن يتم على يد البنك الدولى أو صندوق النقد بل يتم فقط بواسطة البلدان المعنية نفسها ، ومن هنا أصبح الفقر يهدد سطح الكرة الأرضية بعدم الأمان .

الفقر والإضطرابات

تعريف الفقر :

يعرف الفقر عادة بأنه عدم القدرة على إشباع الحاجات الفردية لإستمرار الحياة . ويشمل ذلك الغذاء والملبس والمسكن والصحة ، وبهذا التعريف فإن حق إشباع هذه الحاجات هو من الحقوق الإنسانية . فإذا كانت الحرية والديموقراطية من حقوق الإنسان الأساسية ، فما بالك بحق الحياة نفسها ؟ ولذا يطالب البعض ومنهم بعض المنظمات الدولية ـ بأن المجتمع ملزم بإشباع هذه الحاجات لأفراده.

مؤشرات الفقر :

١- هل إذا شعرت بالفقر ، فأنت فقير ؟ ولكن مصداقية هذا المؤشر غير مؤكدة ، فالفقير لايعرف أو يعترف بفقره بينما قد يدعى غير الفقير فقره .

٢- هل هو الإحساس بالتفاوت بين الغنى والفقير ؟ وهذا مؤشر ذاتى ومتشائم، فمهما كنت غنيا هناك دائما من هو أغنى منك ، وإذا لم يكن هنا تساوى كامل بين الناس فإن الفقر سيلازمنا إلى الأبد ومع ذلك فإن التاريخ يعلمنا أن الإحساس بالفقر أو الإحساس بالتفاوت الفاحش بين

الفقراء والأغنياء هو أقصر الطرق إلى الثورات والتقلبات والإضطرابات السياسية .

٣- القياس الكمي لحجم هذا الإستهلاك من مجتمع لآخر وأن كانت هناك محاولات إحصائية للوصول إلى حجم مطلق يطبق على جميع المجتمعات ، هو الذى جرى العرف على إستخدامه لسهولته .

٤- حجم الدخل النقدى المطلوب لتحقيق حجم الإستهلاك المطلوب لإستمرار الحياة من طعام اولا ثم غير الطعام من مسكن ورعاية صحية ، وعادة ما يختلف حجم هذا الإستهلاك المطلوب لإستمرار الحياة ، وبمجرد أن يحدد حجم هذا الدخل فى مجتمع ما ، فإنه يستخدم لما يسمى بخط الفقر النسبى لهذا المجتمع ، ومن هو تحت هذا الخط فهو بحسب من الفقراء ومن هو فوقه فهو من غير الفقراء . وإقترح البنك الدولى إستخدام مايسمى بخط الفقر المطلق والذى يمكن إستخدام مايسمى بخط الفقر المطلق والذى يمكن إستخدامه فى كل المجتمعات للمقارنة بين الدول والفترات .

الفقراء التقليديون :

وهم الذين إفتقدوا القدرة أو الرغبة الفردية فى دخول سوق العمل أو التكسب المنتظم وأمثلته هو المعوق بدنيا أو عقليا أو المدمن أو السكير الذى يلفظه سوق العمالة ، وهناك أيضا الفرد سئ الحظ الذى أصابته كارثة طبيعية أو إجتماعية ، ويصبح فقره فقرا فرديا ولو لفترة وأمثلته ضحايا الزلزال والفيضانات وتزحلق أجزاء من الهضاب والجبال ، ومعوقى الحرب وضحايا المعارك ، أو الحوادث و من يفقدون عائلهم كالأرامل ، والمطلقة والطفل ، والمسن . ويعيش الفقراء الذين يتوارثون الفقر جيلا بعد جيل بلا مخرج أو أمل أمام أنجالهم ، فهم ضحايا عوامل إجتماعية أو إقتصادية عامة يفرضها عليهم المجتمع نفسه ، ويعيشون فى جزر جغرافية بين المحظوظين من غير الفقراء والأغنياء ولكنها جزر تعزلهم إجتماعيا ويسمونها فى مصر " مناطق عشوائية " وهى تسمية غير موفقة تلقى اللوم عليهم ، ويعيشون فى المدن ، والحضر ، والقرى ، والنجوع ، وهم الفقراء المنسيون رغم علانيتهم الواضحة للعيان ، وهم أيضا أغلبية الفقراء الصامته التى لاتمتلك القنوات الشرعية للتأثير على المجتمع لتغيير ما بها ، وقدرتهم الوحيدة للتعبير عن حالهم هى القنوات غير الشرعية ، مثل العنف والإرهاب .

الفقراء الجدد :

هم فقراء الخفاء ونتاج هذا العصر والزمان فهم يشتكون من ضيق ذات اليد ، ولكن لايعترفون عادة بالفقر مظهرا أو قولا ، وهم قادرون ويرغبون فى العمل ولايجدونه أو هم يعملون فعلا ــ شرعا وحلالا . ولكن لاتسمح دخولهم بإشباع إحتياجاتهم وإحتياجات من يعولونهم ، وهم عادة على حافة خط الفقر أو تحته ، لأن معدل النمو الإقتصادى يقل عن معدل الزيادة السكانية ــ وزاد من سوء حالهم برامج البنك ، وصندوق النقد ، التى أدت إلى تدهور أكثر فى دخولهم وتوسيع قاعدة الفقراء الجدد، فهذه البرامج هى كمن يضع الملح على الجرح ، فلقد أدت معظم برامج الإصلاح الإقتصادى فى ٨٨ دولة من دول العالم إلى تفشى ظاهرة الفقراء الجدد ، إما بإنخفاض الدخل أو زيادة تكلفة المعيشة، وكان ضحية ذلك من هو على حافة الفقر أو يكاد . وإحدى بوادر تفشى ظاهرة الفقراء الجدد فى المجتمع تبدأ بالجمع بين عدة وظائف أو أعمال أو التكسب بطرق ملتوية واللجوء إلى أساليب غير شرعية مثل الإرتشاء لزيادة الدخل ، ورغم أن برامج الإصلاح الإقتصادى تصيب من جديد من إصابه فعلا فقر الفرد ، ومن يعيش فى جزر الفقر حتى أنهم يصبحون من المعدمين إلا أن دراسات البنك الدولى ركزت على الفقراء الجدد وألقت كثيرا من الضوء عليهم، فهم فقراء الخفاء ونوضح هذه الدراسات أن الفئات التالية تضاف ، إلى قئمة الفقراء الجدد فى الدول النامية بعد تطبيق برامج الإصلاح الإقتصادى .

١) طلبة المدارس والجامعات والأطفال والمسنون وغيرهم ممن يدخلون فى الفئات المعالة لإنخفاض أو إنقطاع دخل عائلهم .

٢) أصحاب الدخول الثابتة مثل المحالين إلى المعاش ، المطلقات الذين رتب لهم نفقات زوجية ، ملاك الآراضى والعقارات الخاضعين لتحديد الإيجارات وذلك لزيادة تكلفة أعباء المعيشة .

٣) المرأة عائلة الأسرة والتى عادة يقل دخلها عن الرجل وتتخلف عنه فى الترقيات والإمتيازات .

٤) أصحاب الأعمال الهامشية أو شبه الهامشية أو من يعيشون على دعم الدولة المباشر للسلع الإستهلاكية أو الإعانات الحكومية والصدقات لإنخفاض دخولهم .

٥) خريجو المدارس والجامعات وغيرهم من المتعطلين طالبى أو فاقدى الأمل بعد رفع الدول يدها عن توفير العمل .

٦) العمال والموظفين ذوو الإنتاجية الحديثة المنخفضة والذين لايساهمون فى زيادة معدل ربح الشركات الحكومية التى تباع ، أو الشركات الخاصة التى يباح لها حرية إنهاء عقود العمل ، ويسمى هؤلاء بالعمالة الزائدة ، أو من يشملهم تعريف للبطالة المقنعة ، أو الوظائف الهامشية .

الإخفاق الإقتصادى والعنف

شهد عقد التسعينات زيادة كبيرة فى القلاقل وأحداث الشغب العامة فى قلب المدن الكبرى داخل ما يسمى بالعالم الأول ، وشملت معظم الإضرابات فى الدول الكبرى والصغرى على حد سواء ، وهزت أحداث الشغب والعنف الضواحى الفرنسية ، والمدن الداخلية البريطانية ، وأحياء اليهود والأسبان فى أمريكا ، وقام بها الشباب بصفة رئيسية من الأحياء المدنية الفقيرة والمعزولة والمهمشة حيث تغذيها على مايبدو التوترات " العنصرية " المتنامية فى هذه الأحياء والمناطق المحيطة بها ، ومن ثم فإن التفسير السائد فى التقاريرالأعلامية والمناقشات السياسية هوانها " أحداث شغب عرقية " تعبر عن العداء ضد "الأقليات" العرقية أو المهاجرة فى تلك البلدان ، أو العداء فيما بين أفرادها .

وثمة دلائل عديدة تؤيد هذا الرأى ، فقد إجتاحت أوربا خلال الثمانينات موجهة عارمة من المشاعر العنصرية التى بدأ أن من الصعب الوقوف فى وجهها ، إذ تفجرت فى المشاعر العدائية " المناهضة للعرب " والتى ظلت كامنة لوقت طويل ، حيث إتخذت صورة علنية وأدت إلى زيادة الإعتداءات العنصرية، كما عبرت عن نفسها سياسيا فى شكل موجة العداء للأجانب التى يتبناها " الحزب المسمى الجبهة الوطنية " وفى المملكة المتحدة ، إشتعل العداء بين الملونين القادمين من جزر الهند الغربية والأسيويين من ناحية والبيض فى صورة مواجهات متعددة بالشوارع ، وإزدادت شدتها إلى درجة أصبح ينظر فيها على نحو متزايد بإعتبارها مشاكل " سوداء " فى المقام الأول ، وفى ذات الوقت، ظهرت حركة واسعة النطاق فى الولايات المتحدة الأمريكية ضد المكاسب التى حققتها ما تسمى بالأقليات الأمريكية من أصل أفريقى بصفة أساسية ، إلى جانب أبناء أمريكا اللاتينية وبعض التجمعات الأسيوية ، غداة حركة

الحقوق المدينة فى الستينات ، وأدت إلى تدهور حاد فى العلاقات العرقية كان من مظاهره تصاعد الجرائم ذات الدوافع العرقية أو مايعرف بجرائم " الكراهية " ، وكشف عنه الخوف العام من الذكور السود فى الشوارع ، والحوادث العرقية التى وقعت فى الجامعات ، والإستغلال السافر للمشاعر المناهضة للسود من جانب بعض الساسة .

منطق الإضطربات الداخلية :

تشير النظرة الفاحصة لشكل تلك الإضطرابات إلى أنها قد جمعت ، بنسب متفاوتة بين منطقين :

١) منطق الإحتجاج على الظلم العنصرى

٢) منطق الثورة من جانب الفقراء على الحرمان الإقتصادى والتفاوت الإجتماعى المتزايد ، بما يملكونه من سلاح فعال ، إن لم يكن هو السلاح الوحيد، وهو تمزيق الحياة المدنية بالقوة وعلى نحو مباشر .

٣) وربما كانت الثمانينات والتسعينيات هى العقد الذى إكتمل خلاله تدريجيا نمو أحداث الشغب المختلفة ـ وهى مختلطة على ضوء دوافعها وأهدافها ، وكذا نظرا إلى تركيبها العرقى المتعدد ، فالضواحى الفرنسية والمدن الداخلية البريطانية لايقطنها ، خلافا لما تصوره وسائل الإعلام ، المهاجرين وحدهم أو حتى يشكلون النسبة الغالبة فيها ، كما أن أولئك الذين إشتركوا فى الإضرابات التى وقعت كانوا يتألفون من أصول عرقية مختلفة فى كثير من الأحوال ، وفضلا عن ذلك ، فإن مطالبهم هى نفس مطالب الشباب من الطبقة العاملة فى كل مكان : أى الحصول على الوظائف والتعليم بمدارس ملائمة ، وتوفير المساكن أو تطويرها ، والإستفادة بالخدمات العامة ، والمعاملة اللائقة من جانب الشرطة ، وبالمثل فإن الآلاف الذين نهبوا السلع من المتاجر والمراكز التجارية بعد إشعال النار بها خلال أحداث الشغب التى إندلعت فى منطقة " ساوثوست " بمدينة لوس أنجلوس ، لم يكونوا كلهم من السود : إذ كان أكثر من نصف الذين تم إعتقالهم فى بداية الأحداث من أبناء أمريكا اللاتينية ، و١٠فى المائة منهم من البيض ، كما أن الحركة لم تكن مجرد إحتجاج من جانب الأمريكيين الذين ينحدرون من أصل أفريقى على التفرقة العنصرية الجسيمة ، وإنما كانت كذلك ثورة ضد الفقر والجوع والتدهور المادى الشديد ، الذى نجم عن الركود الإقتصادى ، وخفض البرامج الإجتماعية الحكومية ، ويصف أحد المعلقين ثاقبى البصيرة فى المدينة ذلك بقوله ، " لقد كانت أحداث الشغب الأولى التى وقعت من جانب

عناصر الأمة المتعددة تعزى إلى أسباب تتعلق بالبطون الخاوية والقلوب اليائسة بقدر ماتتعلق بهراوات الشرطة " .

٤) وهذا العنف يتكون من عناصر أساسية : البطالة الجماعية التى تجلب وراءها إنتشار الحرمان المادى ، والنفى إلى الأحياء المتردية ، وهى جميعها عناصر فتاكة يزداد أثرها نظرا لكونها تحدث فى ظل زيادة ملحوظة فى عدم التكافؤ بوجه عام .

وكان التحول من التصنيع إلى الخدمات التى تحتاج إلى تعليم مكثف ، والآثار المترتبة على إستخدام التكنولوجيا الألكترونية ، والأوتومية فى المصانع والمكاتب ، وتلاشى النقابات ـ فضلا عن تقلص الإنفاق الحكومى فى مجالات التأمينات الإجتماعية والأسكان الخاص بذوى الدخل المنخفض ، مرادفة للزيادة غير العادية فى معدلات البطالة طويلة الأمد ، وتردى الأوضاع المادية ، وكان على الدول المتقدمة ، فى الوقت ذاته ، إستيعاب تدفقات جديدة (أو إستيطان نهائى) من المهاجرين من العالم الثالث الذين يتجهون بصورة نمطية إلى نفس الأحياء التى تتضاءل فيها الفرص الإقتصادية والموارد . وهذا الإنفصال المكانى من شأنه أن يؤدى إلى زيادة الصعوبات نتيجة تركز الأسر التى تزداد أوضاعها سوءا وتنتمى إلى الطبقة العاملة الوطنية ، أو إلى السكان المهاجرين ذوى القوميات المختلطة من الشباب ، والأسر الهشة من الناحية الإقتصادية والمحرومة من المهارات التى يمكن تسويقها . بسهولة فى الإقتصاد الجديد ، داخل هذه الأحياء السكنية التى تعانى بالفعل من تضاؤل الفرص الإقتصادية والموارد بصفة عامة.

٥) وهذا التراكم فى الآفات الإجتماعية يفسر المناخ الثقيل للكآبة ، والضيق واليأس ، الذى يخيم على المجتمعات الفقيرة فى العديد من المدن الغربية الكبرى ، إذ يشعر سكان هذه الأحياء المزدحمة أنه لامستقبل لهم، ولا لأولادهم سوى حياة البؤس ، والعزلة التى أصبحت قدرهم فيما يبدو، أضف إلى ذلك الغضب الذى يستشعره الشباب الفقراء ، من سكان المدن نتيجة للتفرقة الثقافية والكراهية المفروضة على سكان المناطق الحضرية المتدهورة .

٦) ولم يعد العنف العنصرى هو التعبير الفظ عن السيطرة ذات الطابع الإستعمارى . بل قد ينشأ كذلك عن أزمة إقتصادية ، تتقلب فيها إحدى الجماعات المحرومة ، المهددة بتدهور مركزها الإجتماعى أو إقصائها عن المسار الرئيسى ، ضد جماعة أخرى فى محاولة لإزاحتها ـ على أسس عنصرية ـ من سوق العمل الآخذ فى التقلص ، فقد ظهرت

عنصرية البيض الفقراء ، التى أدت إلى شنق السود دون محاكمة قانونية فى جنوب الولايات المتحدة فى أواخر القرن التاسع عشر ، وإلى إندلاع أحداث الشغب العرقية من المدن الكبرى فى شمال الولايات المتحدة خلال النصف الأول من القرن العشرين ، حينما نظر البيض إلى جيرانهم السود بإعتبارهم منافسين خطرين فى سوق العمل الصناعى .

غير أن العنف العنصرى قد تقوم به الطبقات الأكثر ثراء ، التى تريد الحفاظ على الفجوة الفاصلة بينها وبين الطبقات الأقل ترفا ، وهى تلجأ فى ذلك إلى إستخدام أسلوب هو مزيج من التفرقة الإجتماعية والعنصرية، وهو ما قد يؤدى إلى مزيد من أشكال العنف القاسية ، فقد قام المواطنون البيض الأثرياء فى جنوب الولايات المتحدة ، فى مستهل هذا القرن بتنظيم فرق للشنق دونما محاكمة قانونية ، عقابا للرجال السود المتهمين بإغتصاب النساء البيض أو السرقة .



ليس فقراً ولكنه إملاق !!

الشعور بالقهر والظلم يولد قوة كامنة لاحدود لها فى البشر

في دراسة عوامل قوة وضعف الدولة ، نجد أن جزءاً كبيراً منها يتعلق بالقوة العسكرية التي تساندها القوة الإقتصادية ، ولكن هناك قوة أخري يغفل عنها الجغرافيون السياسيون يمكن إن تقف أمام قوة الدولة ، إن كانت غاشمة ، تقتل ، وتحطم ، وتشرد ، وتطحن البشر ، وتجرف المساكن والبنية الأساسية دون وجه حق ، هذه القوة لاتنتهي بنفاذ الذخيرة ، فالذخيرة هنا هي إرادة البشر، حين يأخذ المقهورون الأمر بيدهم ، ويروعون هذا الغاشم ويفزعونه ، يقضون مضاجعهم ليلاً ، ويجعلهم يتلفتون حولهم نهاراً وكأنهم فئران مذعورة ، مهما كان معهم من سلاح .

أنظر صور أطفال الحجارة ، صورة الإستشهاديين الذين يواجهون أعتي الجيوش سلاحاً، شباب آثر الموت علي الحياة في سبيل الحرية علي الحياة تحت ذل العبودية ، وشعب أعزل يواجه جيش نظامي مفرط في قوته العسكرية ، تفوق عسكري ، وخبرات قتالية مما لايتناسب مع مايملكه المجتمع الفلسطيني من إمكانات ، بل قل ما لايملكه . لذلك كانت الإنتفاضة تمثل حرب تحرير ، حروب كر وفر .

هذه الظاهرة نلحظها بوضوح قبل نصف قرن بوجه خاص في حركة التحرير الجزائرية في الخمسينات وبداية الستينيات ، ومقاومة الفيتناميون للأمريكيين في الستينيات (باعت فيها الولايات المتحدة الأمريكية نصف إحتياطيها من الذهب) وقبل ذلك في الصين في حرب تحريرها الطويل من العشرينيات حتي عام ١٩٤٩

ان إستخدام العنف في حركات التحرير ، لم يكن أبداً اختياراً من بدائل متعددة متاحة ، فالإعتماد علي الحكومات أبطأ حركة وأقل إنطلاقاً ، وأكثر قيوداً ، لأنها مسئولة عن إدارة الشئون العامة للجماعة ، وهي من ناحية أخري عضو في الجماعة الدولية ، بما يفرضه ذلك عليها من علاقات وتبعات من ثم كان الخيار الوحيد أمام الفلسطينيين هو الإعتماد علي النفس بالرد علي العنف بالعنف رغم أنه لايملك الأباتشى ولا المجنزرات ، ولا المدفعية ، ولا المظلة الأمريكية ، فهي حرب غير متكافئة Assymetrical .

إن الإستشهاد معناه خسائر باهظة في أعز ماتملك الجماعة البشرية ، وهو النفوس والأرواح ، وما من جماعة مستعدة لأن تقدم أرواح أبنائها إلا إضطراراً ، وذلك مصداقاً لقوله تعالي «كتب عليكم القتال وهو كره لكم».

هل إنتفاضة الأقصى (٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠) تحرير أم إرهاب

* إذا كان مايقوم به المنتفضون في فلسطين إرهاباً ، فهل كان الفيتناميون إرهابيين؟ وهل كان الجزائريون إرهابيين ؟

* هل آيات الأخرس ذات الثمانية عشر ربيعاً ، والنظرة البريئة ، والتي نشرت صورتها علي غلاف النيوزويك «إرهابية»؟ لم تكن منضوية تحت أي تنظيم ، بل لم تكن حتي بشهادة الجميع ذات اهتمامات سياسية ، لم تذهب للثأر والشهادة إلا بعد أن رأت جارها يخترق الرصاص جسده من نافذة منزله وهو يلعب بالمكعبات الملونة مع صغيرته .

* ألم يكن الإسرائيليون إرهابيين منذ أن هبطوا أرض فلسطين إلي الآن ، إن ننسي فلا ننسي دير ياسين وصبرا وشاتيلا و .... قتل الأطفال والشيوخ والشباب والنساء ، والحوامل منهن تبقر بطونهن .

* ولما نذهب بعيداً والذي يحدث اليوم للفلسطينيين لايتصوره عقل ، قتل جماعي وإبادة وتجريف للمباني والمرافق ، ووقوف الأحياء من الفلسطينين في العراء .

* وفي اليوم الذي لايكون فيه قنف للمدفعية والصواريخ يجبرون علي خلع ملابسهم عند عبور مناطق التفتيش ، ويتهكم عليهم العسكر ، تلد نساؤهم عند هذه النقاط في العراء قبل الوصول إلي المستشفيات ، منع التجول لأسابيع متواصلة لايستطيعون العمل خلالها ، حظر التجول لأسابيع لايستطيع الإنسان فيها الحصول علي حاجاته الأساسية ، يمنع المعتقلون من الذهاب إلي دورات المياه حتي يتبولوا في ثيابهم حتي يتندروا عليهم .

* مع ذلك فكلما إزداد الإسرائيليون شراسة ، كلما أشتد ساعد المقاومة ، فضعف الفلسطينيين المادي يتحول إلي قوة معنوية جبارة ، الأمر الذي يجعل الصهاينة يفشلون في كسر إرادة الفلسطينيين ، وأن الإستخدام المفرط للقوة الذي يمارسه الصهاينة هو دليل ضعف قبل أن يكون برهان قوة .

* يعد الثمن الباهظ الذي يدفعه الفسطينيون من دمائهم وفلذات أكبادهم ، ومع ذلك فإن خيار المقاومة أصبح محسوماً خصوصاً بعد ما أثبتت الخيارات الأخري أن أوسلو ، طابا ، وغيرها لاتساوى ثمن الورق الذي سطرت عليه ، وأن المجتمع الدولي بدلاً من أن يلتفت إلي الكارثة أعرض عنها ، ومن ثم فالعمليات الإستشهادية تذكر المطحونين بأن شيئاً لم يمت .

هل كانت الإنتفاضة في صالح الفلسطينيين أم عليهم ؟

* عمليات الإنتفاضة هي رسالة لكل إسرائيلي تبلغه بأن حياته في خطر حيثما وجد ، من ثم فعليهم الإختيار بين بدائل أخري ، بدليل أن الآلاف الإسرائيليين حزموا حقائبهم ، وعادوا من حيث أتوا .

* أزمة تهرب خطيرة من الخدمة العسكرية ، وكان عدد الفارين من الخدمة العسكرية ٢١١٦ مجنداً عام ٢٠٠٢ .

* يعالج الجنود الإسرائيليون الذين يتم تسريحهم من الجيش بعد تجاربهم مع الإنتفاضة في قري علاجية علاجاً نفسياً ، ومنهم من يرسل إلي الهند وتايلاند وغيرها من دول الشرق الأقصي ، ولكنهم هناك يدمنون المخدرات ويعودون أشخاصاً غير طبيعيين ، في حالة إنهيار تام .

* أصدر البنك المركزى الإسرائيلي تقريراً عن الوضع الإقتصادى عام ٢٠٠٢ ذكر أن نسبة البطالة تجاوز ١٠،٥٪ ، وأن نسبة العجز في الميزان التجارى ستصل إلي ٩٥٪ نتيجة إختلال العلاقة بين الصادرات والواردات ، وهذا معناه أن الصادرات أو الإنتاج أصبح شبه متوقف ، وبالتالي تزداد حاجة إسرائيل إلي الاستيراد ، وتراجع الإستثمارات الأجنبية ، وفقدان الثقة في أوضاع إسرائيل ذلك البلد المضطرب .

* ثبت أن الأمر ليس في يد إسرائيل كما تريد ، بل إن الإنتفاضة لاعب مؤثر يثير الفزع ، وتجعل الإسرائيليون يحسون بأنه لا أمن ولا أمان إلا بالإتفاق وليس بالصواريخ والمتفجرات .

* نشرت جامعة تل أبيب في ٢٠٠٢/٦/١٢ مقياسها الشهرى لاتجاه الجماهير ، ومن بين الأسئلة الرئيسية جاء السؤال التالي :

«في الواقع الإسرائيلي اليوم ، هل تعتقد أن المستوطنات تسهم في مصلحة إسرائيل أم تضعف هذه المصلحة ؟»

	يونيه ٢٠٠١	يوليو ٢٠٠٢
تضر المصلحة الوطنية لإسرائيل	٣٣٪	٥٤٪
تقوي المصلحة الوطنية	٥٨٪	٣٥٪

هل لو لم تهب الإنتفاضة ، أو توقفت كانت ستأتي النتيجة كما سبق؟

* ان المقاومة هي حق مشروع في كل ثقافة ودين عندما ينتزع شعب من أرضه ، ويخرج من دياره ، ويشعر بأنه يقف وحده في العراء .

نمـــاذج تطبيـــقـية لمشـــكلات معـــاصرة

الفصل الأول . مشكلات اساسها الظروف الطبيعية

الدول الحبيسة Land locked States (الموقع الجغرافى)

كـان هنـاك إحـدى وثلاثيـن دولـة لاتطـل علـى البحـر بـأى شـكل مـن الأشكال ويطلق عليها الدول الحبيسة ، وزاد العـدد بعـد التطـورات الأخيرة فـى أوربـا ، فـأصبح عددهـا الآن ثلاثـة وأربعيـن دولـة ، ومعظـم هـذه الـدول الحبيسـة تجاورهـا أكـثر مـن دولـة وتعتمـد الـدول الحبيسـة علـى الـدول المجاورة فـى تصريف تجارتها ، إذ تعتمد على البحـر لتصريف جـزء مـن تجارتهـا الخارجيـة ، فضـلا عمـا تجنيـه منـه ، ولعـل النزاع وعـدم إتفـاق الـدول السـاحلية علـى الميـاه الإقليميـة والميـاه الإقتصاديـة خـير دليـل . وتصبـح الـدول الحبيسـة بالتـالى فـى وضـع لاتحسـد عليـه ، إلا إذا ضمنـت حق المـرور البـرئ فـى الميـاه الإقليميـة ، والحصـول علـى تسـهيلات مـن موانـى الـدول السـاحلية ، ووسـائل نقـل مـن هـذه الموانـى إلـى الداخـل ، أى أنهـا تبحث عن مجموعـة مـن الضمانـات وإلا أصبحـت مـن ناحيـة الموقـف السياسـى الدولـى فـى عزلـة ، وقـد يـترتب علـى هـذا الوضـع قيـام كثـير مـن نزاعـات الحـدود بغـرض تـأمين ممـرات أو منـافذ حـرة ودائمـة إلـى البحـر .

فلقـد أصبحـت المحيطـات مسـالك وطرقـا للقـوة فـى عصـر التقـدم التكنولوجـى بعـد أن كـانت تمثـل فواصـل مائيـة ضخمـة تعـزل البشـر بعضهـم عـن بعـض . إذ نقلـت البحـار ثـروات المسـتعمرات مـن خامـات زراعيـة وصناعيـة إلـى الـدول المستعمرة ، وسـاعدت علـى غناهـا وقوتهـا ، ومـازالت تفـرغ السـفن إلـى الآن هـذه الخامـات فـى موانـى الـدول الصناعيـة ، حيـث تقـوم الصناعـة فـى أحـوال كثـيرة لتفـادى تكـاليف النقـل إلـى الداخـل ، هكـذا يتدفـق سيل مـن السـلع والأفكـار علـى هـذه المـدن والموانـى، وفـى كثـير مـن الأحـوال تمثـل القلـب النـابض بالنشـاط الإقتصـادى (الموانـى الشـرقية للولايـات المتحـدة الأمريكيـة . موانـى غـرب أوربـا ... إلـخ) ، هـذا بينمـا لاتجـد الـدول الحبيسـة مفـرا مـن نقـل السـلع منهـا وإليهـا عـبر الموانـى الأجنبيـة، وأملهـا الوحيـد أن يتـم هـذا عـبر أقـرب الموانـى إليهـا وأرخـص الطـرق دون أن تجد صعوبـات أو عقبـات ، وهـذا يتوقـف علـى علاقـة الدولـة

الحبيسة بجاراتها أو جيرانها ، لأن الدولة أو الدول الساحلية قادرة على غلق هذه المسالك فى وجهها .

الدول الحبيسة

أفريقيه	آسيا	أوربا	أمريكا الجنوبية
بتسوانا	أفغانستان	أندورا	بوليفيا
بوروندى	بوتان	النمسا	براجواى
أفريقيه الوسطى	لاوس	تشيك	
تشاد	منغوليا	سلوفاكيا	
ليسوتو	نيبال	ليشتنشنين	
مالاوى	سكيم	لوكسمبورج	
مالى	أرمينيا	سويسرا	
النيجر	أزربيجان	سان مارينو	
زيمبابوى	طجيكستان	مدينة الفاتيكان	
رواندا	كازخستان	المجر	
سوازيلاند	تركمنستان	بلوروسيا	
أوغندا	أوزبكستان	مولدوفا	
بوركينا فاسو	قرغيزستان	البوسنة والهرسك	
زامبيا			
إثيوبيا			

الوصول إلى البحر عن طريق الأنهار

إذا كان النزاع للوصول إلى البحر قديما ، فقد ظهر بصورة جلية فى القرن التاسع عشر ، ويجب أن نشير فى هذا المجال أنه ليس من

الضرورى أن تكون الدولة محرومة من السواحل لتكون فى حاجة إلى موانى غيرها ، فقد يكون الساحل قصيرا أو صخريا أو لايصلح لقيام الموانى فيه لسبب أو لآخر ، من ثم تقوم مثل هذه الدولة بتنمية ميناء أو موانىء على نهر يمر فيها ، وينتهى فى دولة أجنبية مجاورة ، وإذا أغلقت دولة المصب هذا المنفذ عزلت الدولة الداخلية تماما، وهذا ماحدث فعلا عندما أغلق الهولنديون مصب الشلد أمام البلجيك فى منتصف القرن السابع عشر ، وعزل ميناء أنتورب البلجيكى عن البحر لمدة بلغت نحو قرن ونصف ، حتى أمكن لجيوش الثورة الفرنسية غزو هولندا ، وفتح مصب الشلد للملاحة عام ١٧٩٢ ، وأعلن مجلس قيادة الثورة الفرنسى بأن العقبات التى وضعت أمام التجارة ، هى مناقضة تماما للمبادئ الأساسية للقانون الطبيعى ، فمجارى الأنهار ملكيتها وإستخدامها لكل الدول التى تجرى فيها ، ثم كانت لائحة الملاحة الدولية التى أقرتها الدول فى مؤتمر فيينا عام ١٨١٤ ، والتى إستندت إليها الولايات المتحدة الأمريكية فى حق مرور تجارتها فى نهر سنت لورنس إلى المحيط الأطلنطى .

وتستخدم المجارى النهرية أيضا بواسطة الدول الساحلية التى بحثت عن مخارج إضافية ، ففى المثل السابق مازال الشلد يعتبر مخرجا رئيسيا لبلجيكا التى تطل على بحر الشمال ، كذلك يخدم نهر بارانا وروافده جنوبى البرازيل ويخدم سانت لورنس الولايات المتحدة الأمريكية، كما تستخدم ألمانيا أنهار وقنوات هولندا فى حركتها التجارية رغم أن لكل من الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا الغربية سواحلها وموانيها المتعددة .

الوصول إلى البحر بواسطة الممرات :

كانت فكرة الممرات **Corridos** تعتبر حلا مناسبا ومستخدما لحل مشكلات الدول الحبيسة وخاصة فى أوربا ، قبل أن تستقر الحدود السياسية ، وقبل تبادل الأراضى ، ولكن هذه الفكرة غير مقبولة الآن ولاينصح بها أحد لأوغندا أو زامبيا أو بولفيا ، ولكنها كانت مستخدمة فى أوربا منذ نحو نصف قرن كحل لسلام دائم لاتقطعه عزلة الدول الحبيسة، وأشهر هذه الممرات هو **الممر البولندى** الذى ظهر على الخريطة السياسية عقب الحرب العالمية الأولى ، ذلك أن بولندا بدون مخرج على بحر البلطيق تصبح دولة حبيسة ، فضلا عن أن منافذها إليه سوف تكون تحت رحمة دولة لها معها تاريخ طويل من العداء والبغضاء (ألمانيا). فكانت فكرة الممر البولندى لإيجاد مخرج طبيعى فى مقابل حرية حركة الألمان على الطرق والسكك الحديدية التى تمر بين ألمانيا وبروسيا الشرقية ، وكان تحديد الحدود السياسية فى المنطقة القريبة من بحر

بلطيق صعبا لأن أغلبية السكان من الألمان ، وأدى هذا إلى فصل بروسيا الشرقية عن بقية الوطن الألمانى ، وتحويل ميناء دانزنج الذى يسكنه الألمان إلى ميناء حر تحت إدارة عصبة الأمم ، وظل سكان دانزنج الذى يسكنه الألمان إلى ميناء حر تحت إدارة عصبة الأمم ، وظل سكان دانزنج من الألمان (٤٠ ألف نسمة) على ولائهم لألمانيا ، وظلوا يطالبون بالعودة إليها وشيدت بولندا ميناء جديدا إلى الشمال الغربى من دانزنج عام ١٩٢١ ، وبعد إنتهاء هذا الميناء الجديد توقفت الحركة فى ميناء دانزنج ، ونظرا لما أصاب هذا الميناء من ركود ، فقد أصبح مركزا للدعاية النازية فى الثلاثينيات ، وإستغل هتلر بطالة سكان ميناء دانزنج والممر البولندى فى المطالبة بعودة هذه الأراضى ، حتى كانت الحرب العالمية الثانية وضم ألمانيا له ، ثم طرد الروس للألمان مرة أخرى ، وتحركت حدود ألمانيا إلى نهر الأودر . وعندما تحصل الدولة الداخلية على ممر ، فإن هذا معناه إتساع فى مساحتها وإن كان قد يؤدى إلى تشويه فى شكلها ، ولكن المهم إنها تمد سياستها على الممر وهو حل مستحب للدولة الداخلية بدلا من الحصول على تسهيلات فى السكك الحديدية أو الأنهار أو موانى الدولة الساحلية المجاورة ، لأنها لاتمتد بسيادتها فى الحالة الأخيرة .

وكان البولنديون يصرون دائما على أنهم لم يحصلوا على منطقة الممر لأنهم يمثلون دولة حبيسة فحسب ، بل وإن من يعيشون فيها بولنديون وليسوا بألمان ، وطبقا لحق تقرير المصير الذى إنتشر عقب الحرب العالمية الأولى ، فإنه (يصبح من حق بولندا وليس من حق ألمانيا) .

والممر القطبى Arcatic corridor أو الممر الفنلندى نموذج لوصول الدولة إلى البحر ، فعندما حصلت فنلند على إستقلالها من روسيا عام ١٩٢٠ ، حصلت أيضا على الممر الفنلندى وكأنه كان هدية عيد ميلاد الدولة الجديدة ، ويشبه الممر الفنلندى نظيره البولندى ، وفى نفس الوقت يختلف عنه ، يشبهه فى أنه يعطى منفذا إلى البحر ، ذلك أنه رغم أنه لفنلند سواحل على خليج فنلند وخليج بوثنيا ، فموانيها متجمدة طوال الشتاء ، وبالتالى يتيح الممر القطبى ميناء شتويا يصله تيار الخليج الدافئ ولكن وجه الإختلاف عن الممر البولندى يأتى من كون الممر الفنلندى شبه خالى من السكان ، ذلك أن فنلند فى فصل الشتاء تعتبر معزولة ، وقد أقيم ميناء بتسامو على أمل أن يبرر خلق هذا الممر ، ولكن بينما يتصل الممر البولندى بقلب الدولة تقريبا ، فأن الممر الفنلندى بعيد عن قلب الدولة ومراكز نشاطها الإقتصادى فى الجنوب ، فالرحلة البحرية

الطويلة إلى ميناء مفتوح شتاء ، فضلا عن نقل السلع مرة أخرى إلى جنوبى البلاد جعله ذو أهمية ضئيلة بالنسبة لنشاط فنلند التجارى ، ولم يزد عدد سكان ميناء بتسامو بعد عشرين عاما من إنشائه على ألفين من السكان ، لذلك لم يكن هناك ما يبرر أهمية هذا الممر الفنلندى ، وقد ضمه الإتحاد السوفيتى عام ١٩٤٥ ، أى بعدالحرب العالمية الثانية .

وتتعدد الممرات فى القارات الأخرى ، وفى أفريقيه نجد نموذجين للممرات فى كل من زائير وناميبيا ، فقد إستبدلت الحكومة البلجيكية (المستعمرة للكنغو) عام ١٩٢٧ مساحة ميل مربع واحد بأربعمائة وثمانين ميلا مربعا مع البرتغاليين ، وكان هذا الميل المربع لتنمية ميناء متادى على مصب نهر زائير . أما أصبع كابريفى فى ناميبيا ، فقد وافق عليه مؤتمر برلين عام ١٨٨٥ تحت ضغط ألمانيا لربط جنوب غرب أفريقيه بنهر الزمبيزى الدولى (وإن كان الغرض الفعلى غير ذلك ، بل ربط جنوب غرب أفريقيه بتنجانيقا الألمانيتين وقطع طريق القاهرة – الكاب البريطانى ولم يؤد هذا البروز فى خريطة جنوب أفريقيه الغرض المطلوب ، وإن كان قد أدى غرضا آخر إستراتيجيا منذ عام ١٩٦٥ مع ظهور زامبيا المستقلة المعارضة للنظام العنصرى فى جمهورية جنوب أفريقيه فبدأت الحكومة الأخيرة فى إنشاء قواعد عسكرية فى هذا الأصبع لمواجهة الحركات التحررية التى تغير عليها من زامبيا.

المرور أو الترانسيت

والحل الثالث والأخير لمشكلة الدول الحبيسة هو حرية المرور لتجارتها ، وهذا فعلا ماتعتمد عليه معظم الدول الحبيسة فى العالم ، وقد عقد مؤتمر دولى فى برشلونة عام ١٩٢١ ، ووقعت أربعون دولة ساحلية على إتفاق يقضى بالسماح ومساعدة حركة التجارة للدول الحبيسة عبر أرضيها إلى أقرب ميناء ، دون تمييز أو ضرائب أو مكوس ، كما عقدت إتفاقيات ثنائية كثيرة بين الدول التى لم توقع على ذلك الإتفاق ، عقدت الأمم المتحدة مؤتمرا بهذا الخصوص عام ١٩٥٨ ، ودعت له ممثلوا إثنتا عشر دولة حبيسة ، وكان هناك إعتراف بحق هذه الدول فى حرية المرور ، ولكننا نلاحظ أنه فى عام ١٩٥٨ ، لم تكن هناك دولة أفريقية واحدة ممثلة ، بينما هناك اليوم خمسة عشر دولة أفريقية حبيسة ، وهذا معناه مضاعفة عدد الدول الحبيسة ، بالتالى يحمل هذا معه مشكلات مضاعفة ، فقد تضطر مالى وبوركينا فاسو إلى التحول بتجارتها عن أقرب الموانى إليها وهو داكار ، وذلك لسوء العلاقات فى بعض الأحيان مع السنغال ، كذلك الحال فى أوغندا ، فمنفذها الوحيد على المحيط

الهندى وهو ميناء ممبسا الكينى كما تعتمد تشاد على الموانى النيجيرية ، وتعتمد بوركينا فاسو على أبيدجان فى كوت ديفوار .

وتعتبر زامبيا فى أفريقية نموذجا لما عانته وتعانيه دولة حبيسة تعتمد على النحاس كصادرها الرئيسى ، وكان خام النحاس يخرج من زامبيا قاطعا طريقا طوله ١٥٠٠ كم (كالمسافة بين باريس وموسكو) أما إلى ميناء بيرا فى موزمبيق ، أو ميناء لوبيتو فى أنجولا ، وكلاهما كان مستعمرة برتغالية حتى عام ١٩٧٥ ، كما أعلنت روديسيا إستقلالها غير الشرعى عام ١٩٦٥ [١] ، وكان الطريق عبر روديسيا وموزمبيق هو أفضل الطرق بل كان أهمها جميعا قبل توليد الكهرباء من سد الكاريبا لأنه يمر فى حقول فحم وانكى فى روديسيا، ويتزود منها بالوقود ، وتحمل العربات الفحم إلى زامبيا فى رجوعها لتعدين نحاس زامبيا ، ولكن هذا الطريق الذى أستخدم كمخرج للنحاس وكمدخل لواردات زامبيا لعقود عديدة ، لم يكن من السهل إستخدامه لتوتر العلاقات بين زامبيا وروديسيا ، وإيواء زامبيا لحركات التحرير .

وأدى هذا إلى صعوبات جمة أول الأمر ، ونظمت بريطانيا طلعات جوية تحمل الوقود الضرورى إلى زامبيا حتى لايصاب إقتصادها بشلل ، ولم تستطع زامبيا أن تصدر سوى ٣٠ ألف طن من النحاس بدلا من المتوسط العام ، وهو ٦٠٠ ألف طن بالطريق البرى إلى تنزانيا ، والتى كانت بدورها تستقبل واردات زامبيا ، بينما الباقى كانت تحمله الخطوط الحديدية إلى لوبيتو على المحيط الأطلنطى ، ولما كانت هذه الإجراءات غير كافية ، وقعت كل من تنزانيا وزامبيا إتفاقا عام ١٩٦٩ مع الصين لمد خط حديدى يمتد من زامبيا إلى تنزانيا بقرض قدره ١٥٠ مليون جنيه إسترلينى يسدد بدون فائدة على مدى ثلاثين عاما .

بدأ العمل فيه عام ١٩٧٠ ، وإنتهى عام ١٩٧٤ ، ودشن فى أكتوبر ١٩٧٥ ، ويربط هذا الخط سكك حديد زامبيا عند موبوشى ، ويسير لمسافة ١٨٧١ كم ليصل إلى دار السلام عبر أراضى وعرة وخاصة فى قطاعه الجنوبى ، ولكن الإنتهاء منه حرر زامبيا من القيد الذى وضع لها، كما زاد فى عزلة رودسيا وقوى الروابط بين زامبيا وتنزانيا .

وهكذا رغم أن الدول تحترم تعهدها بحرية مرورالتجارة للدول الداخلية فيمكن للدول الداخلية أن تواجه صعوبات ، إذا ما تدهورت

---

[١] نالت روديسيا إستقلالها الفعلى عام ١٩٨٠ بأسم دولة زيمبابوى .

العلاقات ، كما رأينا فى حالة زامبيا ، وكما هو الحال فى برلين الغربية، قبل الوحدة الألمانية ، ويذهب البعض أن حرية المرور لم تكن ذات أهمية لاقليم فى أوربا كما هو الحال بالنسبة لبرلين الغربية ، فعندما تقدم الحلفاء فى نهاية الحرب العالمية الثانية نحو ألمانيا كان الروس أسبق إلى إحتلال العاصمة برلين ، وبذلك وقعت فى كاملها ضمن القطاع الروسى وإتفق على تقسيمها إلى برلين الشرقية (النفوذ الروسى) وبرلين الغربية (كانت مقسمة بين قوات الإحتلال الفرنسية والإنجليزية والأمريكية) ، وبنت ألمانيا الشرقية سور برلين ـ فضلا عن شبكة الأسلاك المكهربة على نهر سبيرى ، وأصبح مركز الكتلة الغربية حرجا لأن برلين بشطريها تقع ضمن ألمانيا الشرقية ، وكانت الكتلة الغربية تتصل ببرلين الغربية عن طريق خط حديدى ، وطريق سيارات ، وكان هناك تهديد فعلى يحاصرها، وقطع هذين الطريقين عام ١٩٤٨ ، وعزلت برلين الغربية عن ألمانيا الغربية .

قضية المياه فى الوطن العربى (الموارد الطبيعية)



المياه رمز الحياة وسرها ، كانت وما تزال ، السبب فى إزدهار الحياة ونموها ، وربما فى تدميرها أحيانا ، فى العالم قاطبة وفى الوطن العربى تخصيصاً

ندرة المياه :

تعتبر قضية المياه هى قضية العصر بحق لأن ندرة المياة العذبة تشكل خطورة على الإقتصاد والحياة فى جزء كبير من العالم ، فهناك نحو ٣٠ دولة معظمها تقع فى المنطقة العربية وأفريقية لاتفى الموارد المائية فيها بإحتياجات السكان فى الوقت الحاضر ، فما بالك بعد سنوات عشر ، فيجب النظر إلى المياه على أنها مورد محدود ، وإذا كان هذا حقيقة الآن فى الوطن العربى ، فأنه يمكن القول بأن هذه المشكلة قديمة فيه ، فالمنطقة العربية يغلب عليها الجفاف وفى أحسن الأحوال تدخل أجزاء منها فى الأقليم شبه الجاف ، على حين ما يخرج من هذه النطاقات هى أقصى الأطراف الشمالية حيث المطر شتاء ، والأطراف الجنوبية ذات المطر الصيفى .

السكان كما وكيفا : غير أن ما يزيد من هذه المشكلة فى الوطن العربى فى عالمنا المعاصر هو زيادة السكان زيادة كبيرة ، ففى منتصف الستينيات كان عدد سكان الوطن العربى يدور حول ١٠٠مليون وأصبح الآن فى منتصف التسعينيات نحو ٢٥٠ مليونا ، ولاشك أيضا أن هناك زيادة فى المساحات المزروعة والتى تتطلب زيادة مياه الرى لمواكبة هذه الزيادة ، وتختلف نوعية السكان الآن عن نوعيتهم منذ نصف قرن ، إذا إرتفع مستوى المعيشة ، ويصحب إرتفاع مستوى المعيشة زيادة فى إستخدام المياة ، وقد قدر أن الإنسان البدائى يستهلك نحو ٢,٥ لتر يوميا، على حين أن الإنسان فى الدول المتقدمة يستهلك نحو ١٤٠ لتر يوميا ، كذلك صاحب زيادة السكان زيادة النمو الحضرى السريع ، ثم لاننسى التصنيع فى هذا المجال ، فتعليب كجم واحد من الخضروات يستهلك نحو ١٠ لترات من الماء ، فى حين أن كجم واحد من الألبان الصناعية

يستهلك ٤ لترات ، بينما تقفز فى حالة الألبان الصناعية إلى ١٤٠ لترا ، ومما هو جدير بالذكر أيضا موجه الجفاف والتصحر التى تضرب المنطقة العربية وأجزاء كبيرة من إفريقية تدخل فى الحسبان.

الموارد السطحية : وإذا نظرنا للوطن العربى وأنهاره لوجدنا ظاهرة جديرة بالتسجيل ، وهى أن ١١ دولة غير عربية تتحكم فى ٨٥ ٪ من مياهه ، وحتى فى منطقته الممطرة وجدنا أمطارها غير منتظمة وتسقط على هيئة رخات ثقيلة فى مدد قصيرة ، فسواحل الشام وسواحل الجزائر يسقط عليها (بيروت ، الجزائر) نحو ٧٥ سم وهو ما يعادل ما يسقط فى بعض أجزاء بريطانيا ولكن هناك يسقط أو موزع على معظم العام ، على حين أنه يتركز فى الشام والجزائر فى نحو ١٥ يوما ، تعانى أيضا المنطقة من الذبذبات الحادة ، فدمشق يسقط فيها نحو ٢٦ سم فى المتوسط سقط منها فى أحد الأيام نحو ١٠ سم .

(١) تركيا ونهب المياه العربية

مشروع السلام الذى تجمد

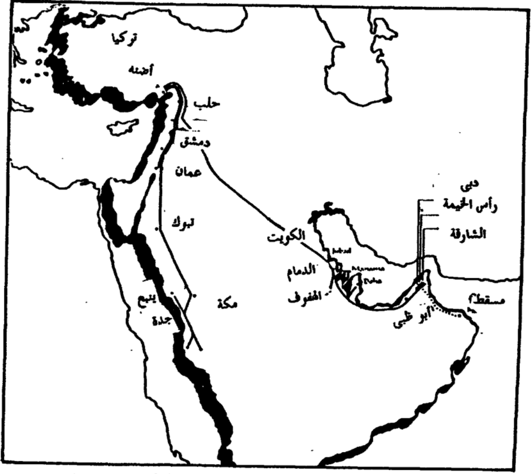
خرجت تركيا على العالم العربى عام ١٩٨٦ بمشروع أنابيب السلام ، وخلاصة هذا المشروع هو مد أنابيب من المياه من منابعها فى نهرى سيحان وجيحان ، خط شرقى يتجه إلى سوريا والأردن وغربى المملكة السعودية (المدينة المنورة ، ومكة المكرمة) ، ويحمل ٣,٥ مليون متر مكعب يوميا ، والخط الشرقى ويحمل ٢,٥ مليون متر مكعب ، ويمتد فى العراق ، ودول الخليج حتى الإمارات، ومن ثم تبيع تركيا المياه لهذه الدول ، ويتكلف المشروع ما بين ١٧ ، ٢٠ مليار دولار ولم يلق المشروع نجاحا إذ عارضته أكثر من دولة وعلى رأسها المملكة العربية السعودية .

دجلة والفرات

وإذ بدأنا بدجلة والفرات ومشكلة المياه بين سوريا وتركيا والعراق لابد وأن نعلم أن منابع النهرين فى هضبة الأناضول ، وحين يتجهان نحو الجنوب ترفد دجلة أنهار عديدة من سفوح الهضبة الإيرانية ، ولذلك

فمتوسط تصريف دجلة نحو ٤٤ مليار م٣ ، على حين أن متوسط تصريف الفرات نحو ٢٩ مليار م٣ ، وبعد أن يجرى الفرات من منابعه التركية بإتجاه سوريا يدخلها عند جرابلس ، ويخترق سوريا لمسافة ١٨٠ كم قبل أن يدخل العراق عند البوكمال ، ويلتقى الفرات بدجلة ليشكلا معا شط العرب الذى ينتهى فى الخليج العربى ، وتمثل هذه الثلاثية فى الإشتراك فى مجرى نهر الفرات والإفادة منه مزيدا من التعقيد على مسألة هذا النهر ، وقد قامت تركيا بتنفيذ المراحل الأولى من مشروع الأناضول الكبير الذى يهدف إلى رى آراضى جنوب شرقى تركيا وزيادة إنتاج تركيا من الكهرباء بمقدار الثلث ، ويتكلف هذا المشروع نحو ٣٠ مليار دولار .

شكل رقم (٢١) : مشروع السلام : خط الأنابيب الغربى وخط أنابيب الخليج



والذى يتضمن إقامه ٢١ سدا على نهرى دجلة والفرات (منها ١٧ سدا على الفرات) ، ١٩ محطة كهربائية ، وبدأت بإقامة أربعة سدود كبرى وهى :

أتاتورك ، وكيبان ، كراكب وأخيرا سد برجيك الذى بدأت فيه تركيا قرب الحدود السورية وكلها على نهر الفرات ، بل وحبست المياه عن سوريا والعراق لمدة شهر كامل من ٣ يناير / ٣ فبراير ١٩٩٠ غير عابئة بالإحتياجات السورية العراقية ، بل وأعلن سليمان ديميريل رئيس الوزراء التركى ' بأن تركيا سيدة على مياه الأنهار التى تنبع فيها ' ، وإن كان قد رجع فى هذا وعزاه إلى سوء فهم حدث لدى وسائل الأعلام، وكان نتيجة إنحباس المياه خطره بالنسبة لسوريا ، نقص الماء اللازم للرى ، عدم تشغيل سد الطبقة (فى سوريا) بالكامل لتوليد الكهرباء ، وملء خزانات المياه فى المنازل بواسطة العربات ، هذا فضلا عن أن تركيا قبل ذلك حولت مياه نهر قويق الذى كان يمد حلب بالمياه .

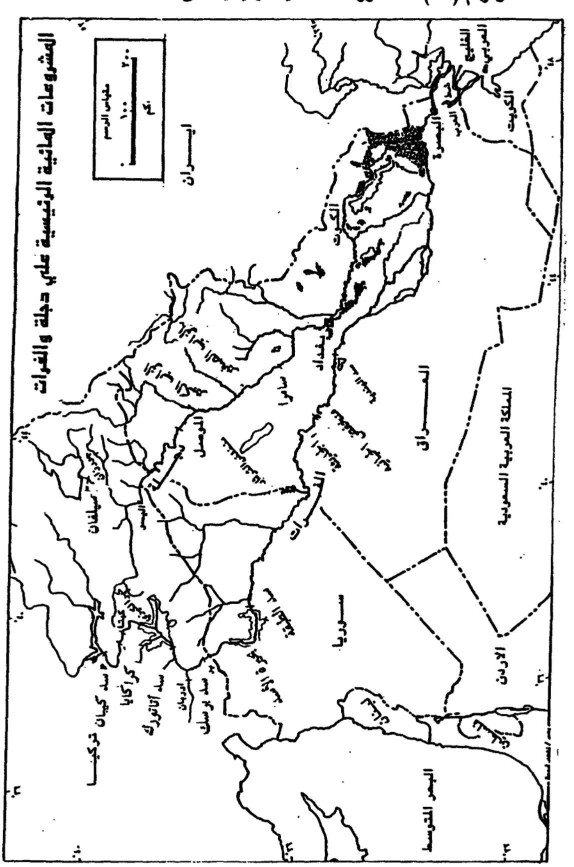
وتعتبر سوريا أكثر تضررا من المشروعات التركية ، لأن العراق لديها نهر دجلة وأقامت مشروعات من قبل كسد سامراء ، وملء بحيرة الحبانية من سد الرمادى ، وكذلك سد الهندية ، وإذا كانت سوريا قد أقامت سد الطبقة بمساعدة السوفيت ويحجز بحيرة مساحتها ٦٠٠ كم٢ ومحطة كهرباء تضم ٨ تربينات ولكنها تعمل بثلث طاقتها ويتدنى مستوى التشغيل لعدم إمتلاء البحيرة كما ذكرنا.

١ –موقف تركيا :

أ) أن نهرى دجلة والفرات ليسا نهرين دوليين وينطبق عليهما وصف المياه العابرة للحدود **Transboundary Rivers** وأن لتركيا حق السيادة على مياههما ، وأن المباحثات حول وضع النهرين ، يجب ألا تتركز حول موضوع قسمة المياه ، وإنما على موضوع الإستخدام الأمثل ، وأن هذين النهرين اللذين ينبعان من أراضيها يشكلان مصدرا طبيعيا خاصا بها ، وبالتالى فأن لها مطلق الحق فى التصرف بمياههما على إعتبار ((أن الفرات ودجلة وروافدهما هى ملك لتركيا إلى الحدود مع هذين البلدين وأن تركيا يمكنها أن تستخدمها مثلما تريد)) . وإذا كانت هناك قسمة فيجب أن تكون على أساس الإستخدام الأمثل للمياه .

ب) أن تطبيق مبدأ ' الإستخدام الأمثل ' وفق وجهة النظر التركية ، يتطلب القيام بدراسات فنية موسعة للتربة فى البلدان الثلاثة ويتم بتشكيل لجان فرعية تتولى تحديد أصناف التربة وتحديد أنواع المحاصيل الزراعية التى يتوجب زراعتها دون غيرها ، وفى ضوء ذلك يتم تحديد الإحتياجات المائية ، وبذلك يضيع الوقت حتى تتم مشاريعها ، وتضع سوريا والعراق أمام الأمر الواقع .

شكل رقم (٢٢) : المشروعات المائية الرئيسية على دجلة والفرات



ج) إعتبار حوضي نهر دجلة والفرات حوضا واحدا معتبرة أن النهرين ينبعان من حوض واحد فى تركيا ويلتقيان فى العراق مكونين شط العرب وعلى ذلك فإن دجلة والفرات هما رافدان للنهر المذكور ويترتب على ذلك أن يجرى التعامل معهما على هذا الأساس ، وأن يتم وضع الحسابات الفنية وبحث موضوع الإحتياجات المائية للبلدان الثلاثة وفقا لذلك ، وعلى هذا الأساسى تستمر تركيا فى تنفيذ مخططاطها متجاهلة حقوق سوريا والعراق ، متبعة مبدأ المغالطة ، وتضييع الوقت .

٢- الموقف العراقى السورى :

أ) أن نهرى دجلة والفرات هما نهران دوليان وفق مختلف القواعد والمبادئ القانونية الدولية المستقرة ، ويترتب على ذلك أن تكون السيادة على مياه النهرين مشتركة بين الدول الثلاث . وأن تأكيد تركيا لأكثر من مرة على سيادتها المطلقة على نهرى دجلة والفرات حتى حدودها الأقليمية ، وكذلك تأكيدها على إعتبار مياه نهرى دجلة والفرات مياه تركية عابرة للحدود وعدم إعترافها بكون النهرين نهرين دوليين لتبيح لنفسها حقاً مطلقاً فى التصرف بمياههما ، غير آبهة بحقوق الدول الأخرى التى تشترك معها فى حوض النهرين ، يعد إنتهاكا فاضحا لقواعد القانون وللأعراف الدولية .

ب) ضرورة التوصل إلى إتفاق ثلاثى يحدد الحصة المائية لكل بلد على أسس عادلة ومنصفة تقوم على قواعد القانون الدولى وماجرى عليه التعامل بين الدول فى مجال إستغلال مياه الأنهار الدولية إضافة إلى الأحكام القانونية المتعلقة بهذين النهرين . وفى هذا الصدد قدم العراق مقترحات تهدف إلى قسمة عادلة لمياه نهر الفرات بما يضمن حقوق الأطراف الثلاث ، ولكن يبدو أن تركيا ومن خلال حججها قد سارت بالموضوع مساراً أخر مما يعنى تنصلها من إلتزاماتها بشأن موضوع تحديد الحصص المائية الذى كان يفترض أن يتم فى فترة أقصاها سنتين من تاريخ تشكيل اللجنة المشتركة عام ١٩٨٠ . ولذلك فإن اللجنة وبالرغم من عقدها لستة عشر إجتماعا كان آخرها فى عام ١٩٩٢ ، فشلت فى تحقيق هذه المهمة .

ج) إن دجلة والفرات نهران منفصلان قائمان كل بذاته ، ويؤكد بذلك الواقع الفعلى والظروف الجغرافية ، فلكل نهر منهما ، حوضه ، ومساره، ومنطقته ، وأن إلتقائهما بعد آلاف الكيلو مترات من المنبع لايعنى أنهما رافدان للنهر الذى يشكلانه لمسافة لاتتجاوز الـ (١٠٠) كم وعلى ذلك

فهما نهران مستقلان بكل المقاييس والحسابات والإعتبارات الفنية والجغرافية والقانونية والتاريخية .

إسرائيل ونهب المياه العربية

يمتد نهر الأردن بطول ٢٥٣ كم ومن روافده الرئيسية بانياس ، والدان ، والحصباني ، من جنوب لبنان ومدخل بحيرة طبريا حاملان في المتوسط نحو ٩٠٠ مليون م٣ وقد سبق لإسرائيل أن جففت بحيرة الحولة وحولتها إلى أراضى زراعية .

وتكاد إسرائيل الآن أن تكون المستفيد الوحيد من مياه نهر الأردن ، فضلا عن إستنزاف المياه الجوفية لصالحها ، فهي تغلق الآبار في غزة وتسحب المياه الجوفية من منطقة النقب ، وتحفر آبار أكثر عمقا في تل أبيب وحيفا ويافا ، ومنذ عام ١٩٦٤ تحصل إسرائيل على ٧٥ ٪ من المياه بطرق غير شرعية فأقامت خزان البطوف ، لتغذية قناتان واحدة من بحيرة طبرية ، والثانية من الليطاني ، وقد ردت قمة الرؤساء العرب عام ١٩٦٤ على المشروعات الإسرائيلية الخاصة بإستنزاف مياه الأردن بمشروعات تشغيل ١١٠ مليون م٣ من البانياس إلى نهر اليرموك ، وأقامة سد المخيبة على نهر اليرموك لتغذية الغور الشرقية (الأردن) الغور الغربية (الضفة الغربية) ولكن المشروع العربي لم يكتمل لقيام حرب ١٩٦٧ ، بل وأصبح تحت يدها مياه الليطاني والوزاني والحصباني وفي عملية الليطاني عام ١٩٨٢ إستغلت الشريط الحدودي على نهر لتسرق مياه الليطاني وحين إتفقت الأردن وسوريا على إقامة سد الوحدة على نهر اليرموك ، أوعزت إسرائيل إلى البنك الدولي بعدم الموافقة وتمويل المشروع إلا بموافقة الدول الثلاث المعنية سوريا ، الأردن ، إسرائيل ، فتوقف المشروع ، وقامت إسرائيل بتحويل جزء من مياه نهر اليرموك إلى بحيرة طبريا (٧٠٠ مليون م٣) وكان إحتلالها للجولان من أهم أدوات تحكمها في نهر اليرموك ، هذا فضلا عن إستنزاف مياه الجولان الجوفية في خدمة المستوطنات الإسرائيلية هناك .

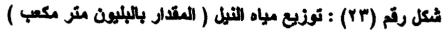
هكذا أصبحت إسرائيل تتحكم في مياه بلاد الشام بضخ ثلث مياه الليطاني بأنبوب طوله ١٢ كم عند بلدة الخردلي ، فضلا عن إستغلالها مياه الحصباني الواقعة في أسفل جبل الشيخ ، ومنع السكان من الوصول إلى منابع النهر ومن الطريف أن بعثه البنك الدولي التي زارت لبنان في مارس ١٩٩٦ إقترحت أن يبيع لبنان ما يلقيه نهر الليطاني في البحر وقدره ٢٥٠ مليون م٣ بمبلغ ٢٥٠ مليون دولار .

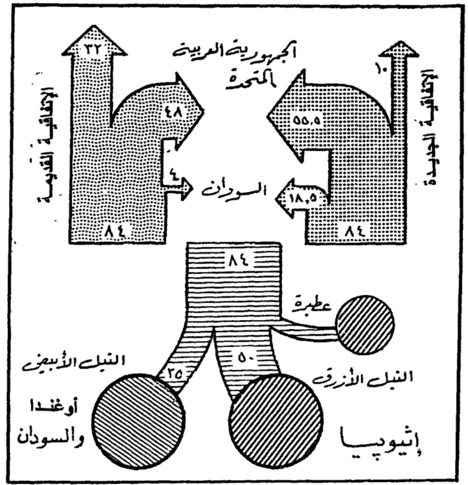
وفى الحق أن المشروعات الإسرائيلية لنهب المنطقة العربية لاتنتهى ، فهى تستولى على الأرض ولكن الماء ليس أقل أهمية ، فضلا عن مطالبتها بالسلام دون أن تعطى العرب شيئا ، فمشروع ليشع كالى للسلام، يدعو إلى تحويل نهرى الليطانى واليرموك إلى بحيرة طبريا ، وإرواء صحراء النقب بمياه النيل !! ، وهذه الفكرة الأخيرة راودت أذهانهم، ولكنها مستحيلة بطبيعة الحال ، لأن مصر ذاتها تشكو من نقص المياه المتزايد ، وفى أشد الحاجة إلى نقطة المياه للتوسع الزراعى فى سيناء والصحراء الغربية ، فضلا عن أن نهر النيل نهر دولى تشترك فيه تسع دول أخرى غير مصر ، فهو ملك لدول الحوض .

(٢) مياه النيل بين مصر والسودان

كان لإعتماد مصر إعتمادا يكون تاما على النيل فى إنتاجها الزراعى، وفى إقتصادها بعامة أثره الكبير فى الإهتمام بالنهر ، وبالكشف عن منابعه ، ثم بمحاولة الإستفادة منه إلى أقصى حد وتأمين إحتياجاتها من مياهه ، فأهمية النيل لمصر تختلف عن أهميته بالنسبة لبقية أقطار حوض النيل ، فهو فى أوغندا مثلا لاتعدو أهميته أكثر من توليد الكهرباء لوفرة الأمطار ، ومن ثم لم يكن مشروع سد أوين الذى نفذ على مخرج بحيرة فيكتوريا إلا مشروعا لتوليد الكهرباء ، بينما هو لجمهورية مصر العربية مشروع لزيادة إيراد النيل من الهضبة الإستوائية . ثم يزداد الإعتماد على النيل كلما تقدمنا نحو الشمال أى نحو المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية ، وفى السودان مساحات شاسعة يمكن أن تعتمد على المطر فى الزراعة وتشمل السودان الجنوبى ومساحات كبيرة فى السودان الأوسط . ولكن تصبح الأراضى الزراعية بعد الخرطوم مقصورة على أراضى الوادى الضيق الذى يظهر أحيانا ويختفى أحيانا أخرى .

ولم يكن هناك إتفاق رسمى قبل سنة ١٩٢٩ حتى عقد فى ذلك العام إتفاق يستمر العمل به حتى سنة ١٩٥٩ ، حينما عدل بإتفاقية أخرى راعت الظروف الجديدة والتطورات الحديثة التى مر بها كل من القطرين الشقيقين .


شكل رقم (٢٣) : توزيع مياه النيل (المقدار بالبليون متر مكعب)



إتفاقية نوفمبر ١٩٥٩

بعد ما يقرب من ثلاثين عاما من إتفاقية ١٩٢٩ ، ونظرا لحاجة القطرين إلى إستغلال مياه النيل والإنتفاع بايراده ، رأى الجانبان ضرورة عمل إتفاقية جديدة للإتفاق على عمليات ضبط النهر ، وتضمنت الإتفاقية عدة جوانب .

أولا ـ الحقوق المكتسبة الحاضرة

١- ما تستخدمه جمهورية مصر من مياه حتى هذا الإتفاق (وهو ٤٨ مليار من الأمتار المكعبة عند أسوان) هو حق مكتسب لها .

٢- ما تستخدمه جمهورية السودان من مياه النيل حتى هذا الإتفاق (وهو ٤ مليارات من الأمتار المكعبة مقدرة عند أسوان) وهو حق مكتسب لها .

ثانيا ـ توزيع فوائد مشروعات ضبط النهر

١- توافق الجمهوريتان على أن تنشئ جمهورية مصر العربية خزان السد العالى كأول حلقة من سلسلة مشروعات التخزين على النيل .

٢- توافق الجمهوريتان على أن تنشئ جمهورية السودان خزان الروصيرص أو أى أعمال أخرى تراها جمهورية السودان لازمة لإستغلالها لنصيبها .

٣- يحسب صافى فائدة السد العالى على أساس متوسط إيراد النهر الطبيعى عند أسوان سنويا (٨٤ مليارا) ويستبعد من هذه الكمية الحقوق المكتسبة للجمهوريتين (بند أولا) مقدرة عند أسوان، كما يستبعد منها فائض التخزين المستمر فى السد فينتج عن ذلك صافى الفائدة التى توزع بين الجمهوريتين .

٤- يوزع صافى فائدة السد العالى بين الجمهوريتين بنسبة ١٤,٥ مليار م٣ للسودان و ٧,٥ مليار م٣ لجمهورية مصر العربية فى ظل الإيراد فى المستقبل فى حدود المتوسط (٨٤ مليارا) وإذا ظلت فواقد التخزين المستمر على تقديرها الحالى بعشرة مليارات ، فإن صافى الفائدة فى هذه الحالة

٨٤ - (٤٨ + ٤ + ١٠) = ٢٢ مليارا .

ويصبح نصيب السودان منها ١٤,٥ مليار ونصيب جمهورية مصر العربية ٧,٥ مليار ، وبضم هذين النصيبين إلى حقهما المكتسب فى البند الأول يصبح :

نصيب السودان = ٤ + ١٤,٥ = ١٨,٥ مليار .

نصيب مصر = ٤٨ + ٧,٥ = ٥٥,٥ مليار .

ويصير هذا بعد تشغيل السد العالى بالكامل ، أما إذا زاد المتوسط عن هذا فإن الزيادة فى صافى الفائدة تقسم مناصفة .

٥- توافق الحكومة المصرية على دفع مبلغ خمسة عشرة مليونا من الجنيهات لحكومة السودان كتعويض شامل عن الأضرار التى تلحق بالممتلكات السودانية نتيجة التخزين فى السد العالى لمنسوب ١٨٣ [١].

٦- من المسلم به أن تشغيل السد العالى الكامل للتخزين المستمر سوف ينتج عنه إستغناء جمهورية مصر عن التخزين فى جبل الأولياء . ويبحث الطرفان المتعاقدان ما يتصل بهذا الإستغناء فى الوقت المناسب .

ثالثا ـ مشروعات المياه الضائعة فى حوض النيل :

١- يتولى السودان بالإتفاق مع جمهورية مصر إنشاء مشروعات لزيادة إيراد النيل يمنع الضائع فى مستنقعات بحر الجبل وبحر الزراف والنيل الأبيض ، ويوزع صافى الفائدة مناصفة ، كما يساهمان فى تكاليفهما مناصفة وتتولى جمهورية السودان الإتفاق على المشروعات السابقة من مالها وتدفع جمهورية مصر نصيبها فى التكاليف .

٢- إذا دعت حاجة جمهورية مصر إلى البدء فى أحد المشروعات السابقة بعد إقرارها من الحكومتين فى وقت لاتكون حاجة جمهورية السودان قد دعت إلى ذلك ، فإن جمهورية مصر تخطر السودان بالميعاد الذى يناسبها للبدء فى المشروع ، وفى خلال سنتين من تاريخ هذا الإخطار تتقدم كل من الحكومتين ببرنامج للإنتفاع بنصيبها فى المياه ، وبعد إنتهاء السنتين يمكن لمصر التنفيذ بتكاليف من عندها ، على أن تدفع السودان نصيبها من التكاليف عندما تتهيأ لإستغلال نصيبها .

اللجنة الدولية للرى والصرف

وبهذه المناسبة فإن اللجنة الدولية للرى والصرف التى مركزها الهند والتى مصر عضو أساسى فيها بدأت فعلا فى وضع شروط دولية فى معاملة الدول مع بعضها التى تقع فى حوض نهر واحد يسمونها الأنهار الدولية .

---

[١] - قامت مصر بدفع هذا المبلغ على النحو التالى :

٣ مليون جنيه فى أول يناير ١٩٦٠ ، ثم ٤ مليون جنيه فى أول يناير من أعوام ١٩٦١ ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ .

١- يبدأون فى تحديد نصيب كل دولــة مــن ميــاه النهــر التــى تســتعملها فعــلا فــى مطالبهــا المختلفــة وتعــرف بحقــوق الإتفــاق وتكــون هـــذه أســـاس المحاســبة .

٢- يؤخـذ فـى الإعتبـار إذا كـانت الدولـة لهـا مصـدر آخـر للميـاه .

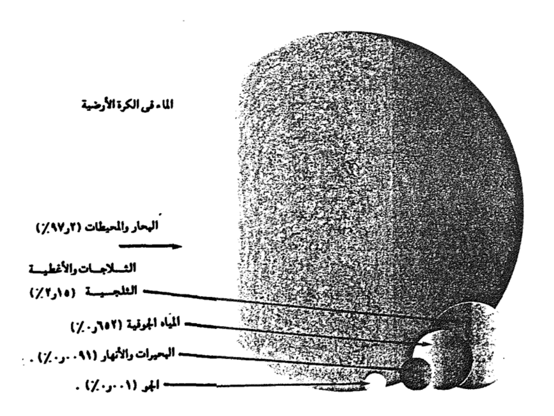
٣- هــل تســتعمل الدولــة ميــاه هــذا النهــر مــن قديــم الأزل تاريخيــا .٤- مقدار إعتمـاد الدولـة علـى الزراعـــة كليـة أم تعتمـد علـى مصـدر آخـر مثـل الصناعــة .

٥- نصيـب كـل دولـة مـن الأمطـار .

٦- نصيـب كـل دولـة مـن الميـاه الجوفيـة .

٧- هـل توجـد الغابـات والصحـارى والأراضـى الصالحـة للزراعـة .

٨- عـدد سـكان كـل دولـة .



الفصل الثانى . مشكلات اساسها الظروف البشرية والإقتصادية

أولاً . قضـية الـديـن

(١) . الــدين وإســرائيـل

تحتل فلسطين فى قلب كل عربى مكانة فريدة ، ذلك أنها أرض عربية إغتصبت من أهلها ، لتقع فى أيدى مهاجرين من شتى أنحاء الأرض ، لايربطهم جنس ، أو لسان ، ولايتحدون فى قومية ، منهم أجناس مختلفة، يتكلمون ألسنة متعددة ، منهم من هاجر من روسيا ، ومنهم من هاجرمن ألمانيا ، وفى نفس الوقت منهم من أتى من اليمن ، ومن المغرب ، وأشتات من سكان الأرض لايجمعهم سوى أنهم يهود ، أى أساسها الدين والثقافة الدينية ، فقد وظفت الحكومة الصهيونية العامل الدينى لخدمة أهدافها السياسية ، خاصة فى مجال تشجيع عملية الهجرة إلى فلسطين ، وتشجيع الإستيطان فى بداية تأسيس الدولة ، والواقع أن لجوء الأيديولوجية الصهيونية السياسية إلى تبنى الأفكار والرموز الدينية بشكل مباشر كانت تمده عدة دوافع لعل أهمها أن تحقق من خلالها نوع من المشروعية الدينية التى تحقق لها إنتشارا جماهيريا واسعا وتكون محل قبول من كافة التيارات الإجتماعية والعرفية والحضارية وإستيعاب الجميع تحت مظلة الدين .

وما كانت إسرائيل منذ نشأتها – فى واقع الأمر إلا ' حارة يهود' كبرى كان حلم اليهود ومنتهى آمالهم أن تضمهم 'حارة اليهود الكبرى' هذا وقد راودهم هذا الحلم منذ القرون الوسطى ، إلى أن جاء ' هرتزل ' (١٨٦٠-١٩٠٤) فى مؤتمر عقد بمدينة ' بازل ' السويسرية الذى حول هذا الحلم الخيالى إلى نظرية سياسية عنصرية ، ، هى الصهيونية ' وقد حرص ' هرتزل ' على أن يجمع اليهود تحت مظلة الصهيونية ، ليس من منطلق المصلحة وحماية الذات فحسب بل عمل على صبغ دعوته بطابع دينى ، هو التجمع حول معبد سليمان ، وإعادة أمجاددولة اليهود فى 'أورشليم' التى إندثرت منذ ألفى عام أو تزيد ، وأصبح الشعار الذى يتبادله اليهود طوال القرن الماضى هو 'نراكم العام القادم فى أورشليم' وقد كان فى إمكانهم ــ لو حسنت نياتهم ، أن يقبلوا ما عرض عليهم من تأسيس وطن قومى فى بلاد أكثر خصوبة وأوفر خيرا ، فقد عرض عليهم الإنجليز ــ إتقاء لشرهم وتنفيذا لوعد إستلبوه منهم ــ وهو وعد بلفور ــ الذى قيل عنه وبحق أنه صدر ممن لايملك لمن لايستحق ،

عرضوا عليهم ، بعض مستعمراتهم فى أواسط إفريقيه أو فى الأجزاء الخالية من أستراليا .

وكان هناك رأى عام لايستهان به بين اليهود ـ وعلى وجه خاص بين اليهود الشرقيين ومن كانوا يقيمون فى مصر ـ يدعوا إلى قبول هذا العرض السخى .

المتطرفون

الا أن هؤلاء المغالين الذى تمتلكهم دعوة 'العام القادم فى أورشليم ' تغلبوا على هؤلاء المعتدلين . . . وبدأت بعصابات الإرهاب مثل 'أرجون زفاى ليومى' وبقايا الفيلق اليهودى فى الحرب العالمية ' الهاجانا ' وتوصل اليهود إلى إغتصاب أرض فلسطين من أهلها العرب عنوة وغدرا ، وقامت إسرائيل .

ورغم أن المسار التاريخى للحركة الصهيونية أدى إلى تغليب الإتجاه العلمانى فإنها دعت إلى توظيف الإتجاه الدينى لخدمة أهدافها السياسية خاصة من أجل تشجيع الهجرة إلى فلسطين فى بداية تأسيس الدولة الإسرائيلية ، حيث كان أنصار الإتجاهات الدينية غالبا من يهود شرق أوربا .

أحزاب دينية :

بعد قيام الدولة تم تهميش هذه التيارات ، فترسخ الطابع العلمانى للدولة، وقام على أساسه نظام سياسى على النمط الغربى ـ وفى هذا الإطار شكلت التيارات الدينية ـ أحزابها الخاصة ، وإضطرت إلى الإعتراف بشرعية الدولة وأن لم يمنع ذلك من وجود طوائف دينية شديدة التطرف خارج نطاق هذه الأحزاب ، لاتعترف بشرعية الدولة أصلا ، كذلك لم تكن الأحزاب الدينية ذات توجه واحد بل وجدت بينها دائما الكثير من الإختلافات الأيديولوجية وكانت الإتفاقات إحدى سماتها المميزة.

والواقع أن إستمرار وجود هذه الأحزاب الدينية وتصاعد دورها يرتبط وطبيعة المجتمع الإسرائيلى بكل مايحمله من تناقضات . فقد شكلت موجات الهجرة المتتالية ذات الأصول الغربية والشرقية تيارات ثقافية ولغوية وحضارية متباينة ، طبعت بقوة التركيبة السكانية للتجمع الإسرائيلى وأبرزت هويته غير المتجانسة ، وقد أفضت هذه الخاصية

التى يغذيها المد الدينى المتطرف ، خاصة بين أبناء الطوائف اليهودية ذات الأصول الشرقية ، الذين وجدوا أنفسهم فى وضع أدنى إجتماعيا ، وأحيانا مهمشا ، قياسا بأقرانهم من ذوى الأصول الغربية، فضلا عن الفروقات الثقافية بينهم والتى جعلتهم يبحثون عن الإحتفاظ بهوية متميزة من خلال الدين ، وقد غذى هذا الصراع بدوره الأبعاد الإجتماعية والإقتصادية التى وقفت وراءه .

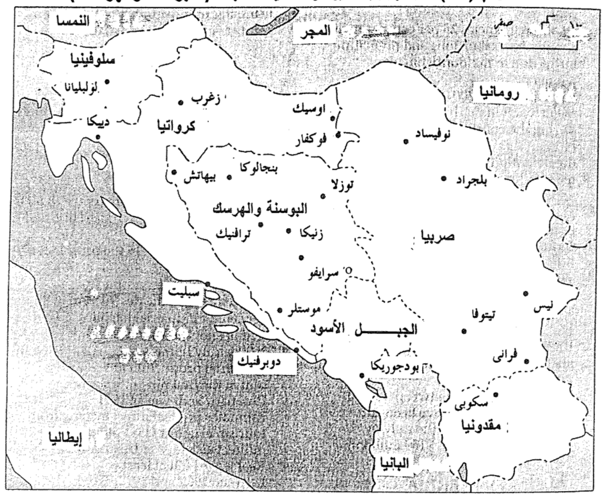
وتضغط هذه الأحزاب إلى جانب الليكود على تكثيف النشاط الإستيطانى ووضع مدينتى القدس والخليل اللتين تعتبرهما هذه الأحزاب ومعها الطوائف الدينية المتطرفة من المناطق الدينية المقدسة التى لايجوز الإنسحاب منها ، وبالتالى تزداد النيران إشتعالا فى المنطقة .

(٢) . قضية البوسنه والهرسك

خصوصيات يوغسلافيا (السابقة) : كان لموقع يوغسلافيا بين الإمبراطوريتين العثمانية والنمسا والمجر قبل الحرب العالمية الأولى له أثره فى أنها كانت تمثل خط المواجهة بين الإمبراطوريتين من ناحية ، ومن ناحية أخرى تعددت فيها الأديان ، الإسلام والمسيحية بفرعيها الكبيرين من الكاثوليكية والأرثوذكسية ، وعلى عكس ما يعتقد البعض بأن الإسلام دخلها مع تقدم العثمانيين فى القرن الخامس عشر ، فإنه بدأ يتسرب إليها تدريجيا منذ القرن التاسع الميلادى ، وبلغ ذروته مع تقدم العثمانيين ، وإحتلالهم لهذا الإقليم نحو أربعة قرون ، ثم خضعت بعد ذلك لإمبراطورية النمسا والمجر ، حتى كانت نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ ، وإتحد الصرب والكروات وسلوفينيا معا بأسم مملكة صربيا وأصبح إسمها يوغسلافيا (السلاف الجنوبيون) عام ١٩١٩ ، ثم تعرضت مرة أخرى للغزو الألمانى والإيطالى فى الحرب العالمية الثانية، ودمرت البلاد تدميرا شبه تام ، وكان الكروات فى تلك الحرب يميلون إلى الألمان ، بينما كان الصربيون يميلون إلى بريطانيا . على العموم كان الغزو والدمار الذى أصاب البلاد له أثره فى توحيد الجميع تحت قيادة 'تيتو' فى جيش التحرير السرى الذى كان يقاوم الإحتلال الألمانى ، حتى إنتهت الحرب عام ١٩٤٥ ، وقد إزدادت الشعوب اليوغسلافية تماسكا .

وعملت الظروف الطبيعية الوعرة الصعبة على عدم الإندماج الكامل بين شعوب الأقليم ، فالبلاد ثلاثة أرباعها جبلى (يزيد على ٢٠,٠٠٠متر) تمزقه الأودية الضيقة التى قد تنتهى بأحواض متسعة بعض الشئ مثل حوض لوبيليانا، وتنحدر المرتفعات الساحلية إلى ساحل الأدرياتى بمدرجات شديدة الإنحدار وسهول ضيقة للغاية .

شكل رقم (٢٤) : جمهوريات يوغوسلافيا السابقة (البوسنة والهرسك)



يوغسلافيا السابقة فيدرالية :

لذلك كانت يوغسلافيا ـ السابقة ـ نموذجا للدولة الإتحادية التى تضم داخل حدودها مزيجا من الأعراق والقوميات المغايرة ، حيث ضمت ست جمهوريات بالإضافة إلى إقليمين يتمتعان بالحكم الذاتى ، والجمهوريات هى صربيا ، الجبل الأسود ، كرواتيا ، سلوفينيا ، مقدونيا ، والبوسنة ، الهرسك ، أما الإقليمان فهما كوسوفو وفوفودينا .

وقد عبر تيتو بإتقان شديد وهو يتحدث عن يوغسلافيا ، بقوله شعوب لها حروف مكتوبة مختلفة (السيريلية واللاتينية) . وثلاثة أديان (الأرثوذكسية والكاثوليكية والأسلام) وأربع أمم (الصرب والكروات والسلافينيون والمقدونية) . وخمس لغات (السلوفينية والصربو كرواتية والمونتينجرية والمقدونية والألبانية) . وست جمهوريات (سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة والجبل الأسود والصرب ومقدونيا) وأخيرا حزب واحد هو الحزب الشيوعى .

ومن هذا المنطلق ، نص الدستور الفيدرالى فى يوغسلافيا على السماح لشعوب هذا البلد بالتعامل بلغتهم بحرية ، ودون ممارسة أية تفرقة من جراء ذلك ولكن مع إرساء الشعور فى نفس الوقت بأن الجميع متساوون داخل مجتمع إشتراكى فى دور التكوين ، وحق كل مواطن فى يوغسلافيا أن يعيش فى أى جمهورية يشاء . ويتمتع بكامل حقوق وصلاحيات أى مواطن آخر وكذلك عرف الدستور اليوغسلافى الأقليات بأنها فقط الذين ينتمون إلى دول خارج الإتحاد الفيدرالى كالأقلية الإيطالية أو الألبانية ، ولما كان لصربيا وضعا فريدا من حيث عدد السكان نحو ١٢ مليون نسمة ، أى نحو نصف مجموع السكان فقد أنشأ تيتو داخلها إقليمين يتمتعان بالحكم الذاتى (فوفودينا) وكوسوفو .

بداية الإنفجار فى يوغسلافيا

إذا كان تيتو قد نجح فى التحكم فى التناقضات الموجودة بين مكونات الإتحاد وداخل جمهورياته ، فإن رحيله عام ١٩٨٠ ، وعدم وجود شخصية تتمتع بثقل سياسى أو تاريخى ، فضلا عن الفشل فى التأقلم مع التغيرات التى سادت بلدان شرق اوربا وسقوط الهياكل الفيدرالية للإتحاد السوفيتى ، أدى إلى تفجر الصراعات فى يوغسلافيا .

وكانت البداية إعلان الحزب الشيوعى اليوغسلافى فى أوائل ١٩٩٠ تخليه عن إحتكار السلطة فى البلاد ، والسماح بتعدد الأحزاب ، وقامت أحزاب جذورها عرقية ، وإذا بكرواتيا وسلوفينيا تناديان بالإستقلال عن الإتحاد ، وإن كان ثمة إتحاد فليكن كونفدرالى (إتحاد جمركى عملة واحدة ، توحيد سياسة النقل والمواصلات والزراعة والطاقة مع إحتفاظ كل دولة بحقها فى تشكيل قوات مسلحة ، وتظل هناك إمكانية تشكيل فرق عسكرية مشتركة) كما يحتفظ الأعضاء بحقهم فى إبرام معاهدات دولية ، وإقامة مجتمع دبلوماسى مع المجتمع الدولى .

وعارضت صربيا النمط الكونفدرالى نظرا لوجود نحو ثلاثة ملايين صربى خارج صربيا ، وبالتالى سيتحولون إلى أقليات فى وحدات الإتحاد الكونفدرالى .

أما البوسنة والهرسك فقدمت نوذجا وسطا يقوم على أساس تحويل يوغسلافيا إلى إتحاد يضم جمهوريات ذات سيادة (كونفدرالى) مع وجود قوات مشتركة تتوازن فيها الإنتماءات العرقية ، ويراعى فى تنظيم جميع مؤسسات الدولة المساواة فى أعداد ممثلى كل جمهورية .

صراع الصرب مع سلوفينيا وكرواتيا

أعلن برلمان جمهوريتى سلوفينيا وكرواتيا الإستقلال فى ٢٥ يونيه ١٩٩٠ وأندلع الصراع بين الحكومة المركزية والجيش الإتحادى من جانب وجمهورية سلوفينيا من جانب أخر ، وبعد وقف القتال ، عاد الإندلاع بين الحكومة والجيش الإتحادى وصرب كرواتيا من جانب ، والجيش الكرواتى من جانب أخر ، وهو القتال الذى إستمر قرابة نصف العام وسقط خلاله نحو عشرة آلاف قتيل بسبب وجود أقلية صربية ضخمة فى كرواتيا (٦٠٠ألف نسمة أو نحو ١٢ ٪ من السكان) وفى أعقاب ذلك إعترفت المجموعة الأوربية بإستقلال سلوفينيا وكرواتيا فى ٢٥ ينساير ١٩٩٢ .

تعقيد الصراع فى البوسنة والهرسك :

ما أن تمكنت المجموعة الأوربية ومعها الأمم المتحدة من وضع حد للمعارك الدائرة فى سلوفينيا وكرواتيا ، حتى بدأت الأنظار تتجه إلى جمهورية البوسنة ـ الهرسك ، وكانت المخاوف كبيرة من إندلاع صراع فى هذه الجمهورية للعديد من الأسباب نذكر منها :

١- من الواضح أن أراضى البوسنة تقع بين فكى كماشة (الكروات مما يجعلها شبه محاصرة من جانب الكروات فى الشمال والشرق والغرب ، ومن جانب الصرب فى الجنوب .

٢- الإنقسام العرقى الحاد فى هذه الجمهورية ، حيث توجد ثلاثة أعراق (قوميات إذ ينظر إلى الدين على أنه قومية) وهى المسلمون ويشكلون نحو ٤٣,٧ ٪ من عدد سكان الجمهورية البالغ ٤,٣ مليون نسمة ، ثم الصرب ٣١,٣٪ من السكان ، وأخيرا الكروات ويشكلون نحو ١٧,٢ ٪ من السكان .

٣- وظف الدين كعنصر من عناصر الصراع ، سواء كان الإختلاف دينيا أى مسلمون / مسيحيون أو مذهبى بين الأرثوذكس (الصرب) والكاثوليك (الكروات) .

٤- تقاطع الإنقسامات العرقية / القومية / الدينية مع الخريطة الجغرافية حيث لكل عرق / دين / قومية مناطق تركز خاصة به ، فضلا عن وجود مناطق أخرى مختلطة المزيج العرقى / القومى / الدينى يحمل معه فى نفس الوقت ميراثا من العداء الشديد سواء بين الصرب ، والكروات والمتمثل فى التارخ الطويل بينهما حيث يتهم الصرب ، الكروات بالتعاون مع النازى ابان الحرب العالمية الثانية، أو بين الصرب والكروات من ناحية والمسلمين من ناحية ثانية ، إذ ينظر الصرب والكروات للمسلمين فى البوسنة وباقى مناطق يوغوسلافيا (مقدونيا وكوسوفو) على أنهم إمتداد للإمبراطورية العثمانية .

أن الصرب يوجهون الإتهامات إلى المسلمين ولا يزالون بأنهم إرتكبوا ذنبا تاريخيا لأنهم 'خانوا دين أجدادهم المسيحيين ' ثم يقولون بأن المسلمين لايشكلون مجموعة عرقية متميزة بل يؤكدون بأنهم صرب إعتنقوا الإسلام ويعتبر هذا أحد تبريراتهم لتصفية المسلمين وتشريدهم وهدم حضارتهم المادية والمعنوية ، لكن التاريخ يشهد بأن البوسنيين قبل إعتناقهم الإسلام فى القرن الخامس عشر والسادس عشر لم يكونوا صربا ولاكرواتا لأن الوعى القومى الكرواتى والصربى لم يتكون فى البوسنة والهرسك إلا فى القرن التاسع عشر ، إن المسلمين قبل الإسلام كانوا بسنويين أو بوشناق .

٥- إن إندلاع الصراع فى هذه الجمهورية يعنى تحويلها إلى قطعة من الجحيم حيث أن الصراع سوف يدور بين مناطق داخل الجمهورية المحاطة بباقى جمهوريات الإتحاد اليوغسلافى، ومن ثم يمكن أن تتدخل كل جمهورية لصالح إمتدادتها فى البوسنة فصربيا والجبل الأسود إلى جانب صرب البوسنة ، وكرواتيا إلى جانب كروات البوسنة ويظل المسلمون دون سند خارجى لإستحالة تدخل تركيا أو أية قوى إسلامية قريبة من يوجسلافيا فهو أمر غير مسموح به أوربيا ودوليا الأمر الذى يعنى أن أى صراع يأتى على حسابهم .

حرب السنوات الأربع ١٩٩٢ - ١٩٩٥

تعود الشرارة الأولى لصراع البوسنة ــ الهرسك ألى الإستفتاء العام الذى جرى فى الجمهورية فى فبراير ١٩٩٢ ، إذ صوت أغلبية السكان

لصالح الإستقلال عن يوغسلافيا ، وما إن تم إعلان النتائج حتى إندلاع الصراع بين الصرب من ناحية، أخرى وتدخل الجيش الإتحادى بجانب الصرب من أجل تمكينهم من السيطرة على أكبر مساحة ممكنة من أرضى الجمهورية وفرض الأمر الواقع لحين التوصل إلى تسوية سياسية تأتى إنعكاسا لهذا الأمر الواقع ، وأعلن صرب البوسنة دولتهم المستقلة فى إبريل ١٩٩٢ .

وكالمعتاد تدخلت المجموعة الأوربية وأبرمت العديد من إتفاقات وقف إطلاق النار إلا أن جميعها لم تصمد أكثر من عدة ساعات إذ سرعان ما كانت المعارك تتجدد بهجمات من ميليشيات الصرب المدعومة من الجيش الإتحادى الذى سيطر عليه الصرب .

وأسفرت المعارك الدائرة على أرض البوسنة ــ الهرسك عن تمكن الصرب من السيطرة على نحو ٧٠ ٪ من آراضى الجمهورية على حساب المسلمين أساسا الذين دفعوا فى جيوب كان من السهل محاصرتها. والملاحظ هنا أن الخطوط الفاصلة بين الفريقين المتصارعين غير واضحة . وأحيانا كان يتم تحالف إسلامى ـ كرواتى ولكنه تحالف مؤقت لتشابه الهدف فى التصدى للعدوان الصربى ، ومن ثم فإنه فى الوقت الذى إتسم فيه الصراع بتحالف المسلمين والكروات فى مواجهة الصرب، فإن مسار الصراع شهد العديد من التوترات بل والصراعات المسلحة بين المسلمين والكروات ، وظهرت الصورة الحقيقية للصراع فكانت هناك معارك بين الصرب والكروات ، وبين المسلمين والصرب فى مناطق أخرى وثالثة بين المسلمين والكروات حسب التركيب العرقى للمكان والرغبة فى تثبيت إنتصارها على أرض الواقع ينعكس فى الإتفاق النهائى لتقسيم الأراضى الجمهورية .

١- موقف دول جنوبى وشرقى أوربا

على عكس الحال بالنسبة لقضيتى سلوفينيا وكرواتيا ، فإن الصراع فى البوسنة ــ الهرسك ، وإن شمل القوميات الثلاث إلا أنه لم يكن يحظى بمواقف عامة من المجموعة الأوربية ، ليس فقط لغياب طرف أوروبى فاعل يعارض إستمرار هذه المعارك ويسعى إلى وقفها ، وإنما أيضا لإتساع نطاق التأييد للصرب من جانب دول البلقان (اليونان ، بلغاريا ، رومانيا) وقوى كبرى وفاعلة (روسيا الإتحادية) ، ولذلك إصطدمت جهود المجموعة الأوربية بمواقف متشددة من جانب مؤيدى الصرب للحيلولة دون إتخاذ مواقف متشددة ضد صربيا وصرب البوسنة ، وفى

الوقت الذى وقفت فيه اليونان ضد محاولات المجموعة الأوروبيةلإتخاذ مواقف متشددة ضد الصرب ، فإن روسيا تكفلت بالحيلولة دون صدور قرار من مجلس الأمن بإستخدام القوة ضد يوغسلافيا الجديدة (صربيا والجبل الأسود) .

أما بالنسبة لتركيا ، فعلى الرغم من أن مسلمى البوسنة ـ الهرسك يشكلون بقايا الإمبراطورية العثمانية على هذه الإراضى ، الا أن تركيا لم تستطيع إتخاذ موقف جاد بجانب مسلمى البوسنة حتى لاتتهم من جانب الدول الأوروبية بأنها تساند بقايا إمبراطوريتها القديمة وتتهم أيضا بإحتضان الأصولية الإسلامية ، الأمر الذى يفاقم من المصاعب أمام إحتمالات ضمها إلى المجموعة الأوروبية ، كما إستوعبت تركيا النتائج التى ترتبت على إعلانها الإستعداد للتدخل العسكرى إلى جانب أذربيجان ضد أرمينيا فى صراعهما حول إقليم ناجورنوكاراباخ ، حيث ردت روسيا بالإستعداد للدخول فى حرب ضد تركيا ، مما دفع تركيا إلى إصدار بيان لتوضيح موقفها أكدت فيه أن تدخلها العسكرى لن يتم إلا فى إطار المجتمع الدولى وتحت مظلة الأمم المتحدة . ذلك أن روسيا تعتبر نفسها الشقيق الأكبر ' للشعوب السلافية ، وذات الإلتزام التاريخى بحمايتها والدفاع عنها .

٢- موقف أوربا الغربية

حين بادرت يوغسلافيا إلى التشرذم ، وفقا لخرائط عرقية ودينية مذهبية ، سارعت معظم دول أوربا الغربية إلى الإعتراف بهذه الدولايات ـ الشظايا ـ الجديدة ، مثلما سارعت للإعتراف بالدول ـ الشظايا الأكبر ـ التى أفرزها تفكيك الإتحاد السوفيتى وإنهياره السريع .. كان الهدف الأوروبى ـ والأمريكى بالطبع ـ هو الإسراع بنفض اليد نهائيا من كل تركة الشبح المعادى والذى كان يسمى المعسكر الشيوعى الشرقى ، بالأعتراف رسميا بتقسيم يوغسلافيا إلى شظايا دويلات صغيرة ، فجرت وراءها كثير من الدول الأوروبية الأخرى فى هذا الطريق تحت تصور أن إنهيار الأيديولوجية الشيوعية ، يعنى إنهيار الدول التى قامت فى ظلها ، ومن ثم إستقطاب شعوبها بعد تفتيتها .

ولم يقتصر الأمر على تأييد ألمانيا للصرب ، بل إنتقل هذا إلى بريطانيا ، وبلغت كراهية فرنسا للمسلمين حدا جعل الرئيس ميتران يتخذ لهجة الإستهزاء فى رده على المفكرين الفرنسيين الذين أطلقوا صرخات الإستنكار للسياسة الفرنسية التخاذلية فى البوسنة فقال فى خطابه أمام

مؤتمر الأمن والتعاون الأوربى ، لم أرهؤلاء المفكرين ينضمون فى كتائب دولية لنجدة البوسنة .

فأوربا وعلى الأخص بريطانيا وفرنسا وألمانيا لاتريد قيام دولة مسلمة أو ذات أكثرية مسلمة فى وسط أوربا حتى ولا بالإسم لأنها تخشى أن يؤدى هذا إلى مد إسلامى .

٣- موقف الولايات المتحدة الأمريكية

طرحت الولايات المتحدة ومنذ الوهلة الأولى لإندلاع المعارك على أراضى جمهورية يوغسلافيا السابقة على دفع المجموعة الأوربية لتحمل مسئولياتها السياسية والعسكرية فى وقت الصراع الدائر .

فقد وجدت الولايات المتحدة من المصلحة إستمرار القتال فى البوسنة، مما يؤكد بالدليل العملى عجز المجموعة الأوربية عن لعب دور سياسى فاعل ، ناهيك عن دور عسكرى ، ولو محدود ، فالمجموعة الأوربية عاجزة عن وقف قتال دام فى قلب أوربا ، فضلا عن الإنقسامات التى تسود مواقف أعضائها من فكرة العمل العسكرى لوقف القتال ، أيضا فإن إستمرار القتال ، حتى بعد تدخل الأمم المتحدة يقدم دليلا جديدا للمجتمع الدولى على عجز الأمم المتحدة فى ظل غياب دور أمريكى فاعل ومستقل عن إتخاذ خطوات كافية لوقف القتال .

٤- موقف الدول الإسلامية

إتخذ الصراع منذ بدايتة الصبغة الدينية ، وتأكد ذلك من المذابح ضد المسلمين ودفنهم فى مقابر جماعية وإغتصاب نسائهم ، ولكن الدول الإسلامية حرصت على أن يتم هذا فى إطار الشرعية الدولية أى من خلال الأمم المتحدة ، وفى مرحلة ثانية دفع الولايات المتحدة للقيام بعمل عسكرى لوقف القتال وبدأ واضحا فشل المحاولات التى بذلتها إيران للعب دور مباشر فى الصراع .

وعندما بدأت الأمم المتحدة فى دراسة الخيار العسكرى ، بدأ واضحا أن البلدان الغربية تعارض هذا التوجه ، فى حالة إستخدامه ، وإنتهى الأمر فى حالة الإتفاق على عدم اللجوء إلى القوة حيث نجحت الدول المعارضة لإستخدام القوة فى إقناع باقى البلدان ــ المجموعة الأوربية والولايات المتحدة برفض الخيار العسكرى .

ومن هنا نجد أن الطريق الذى سلكته الدول الإسلامية لدفع المجتمع الدولى للتدخل عسكريا من أجل وقف القتال فى البوسنة بدأ مسدودا ، وإقتصر دور البلدان الإسلامية على بعض المساعدات العسكرية المحدودة وبعض المتطوعين ، من تلقاء أنفسهم ـ الذين شكلوا قوات مجاهدين ، حاربت فى صفوف المسلمين وهو الأمر الذى ساعد الصرب فى تأكيد الطابع الدينى للحرب وإن معاركهم إنما للحيلولة دون قيام دولة إسلامية .

دور الأمم المتحدة

إنحصر دورها فى إصدار مجموعة من القرارات من مجلس الأمن تطالب بوقف القتال والتدخل الخارجى ، وكذلك أى محاولات لتغيير التركيبة العرقية ، وإنسحاب وحدات الجيش اليوغسلافى والكرواتى ، ولم يلتزم الصرب بشئ منها ، بل ولاحتى تنفيذ قرارات المقاطعة .

حتى المقاطعة

فالمفروض أنه توجد ' مقاطعة دولية ' قررها مجلس الأمن الدولى ضد صربيا والجبل الأسود ، بغرض إنهاء الحرب الدائرة ، ومع ذلك كانت اليونان ترسل يوميا عشرات الشاحنات بالنفط الخام ومشتقاته إلى صربيا ، وتهدد مقدونيا بعقوبات إقتصادية لاتستطيع تحملها . إذا إمتنعت عن السماح لتلك الشاحنات بعبور آراضيها .

وكذلك الحال بالنسبة لرومانيا على طول حدودها وروسيا الصديقة التقليدية لصربيا الأرثوذكسية بل ومن جانب المجر ، ويبدو أن وجود ' أقلية مجرية ' جعل صربيا تدفع المجر إلى خرق المقاطعة ، وحتى من جانب بريطانيا نفسها ، فقد عللت ذلك رسميا بأن ما يرسل إلى صربيا كان بناء على ' صفقات ' عقدت قبل صدور قرار مجلس الأمن الدولى .

المبادرة الأمريكية المنفردة

بعد أن وصل الصراع إلى مرحلة شككت كثيرا فى كل إطروحات إنتهاء الحرب الباردة وتسوية الصراعات بالطرق السلمية وجعلت من الأمم المتحدة منظمة عاجزة تماما من حماية السكان المدنيين أثناء الصراع ، ناهيك عن قدرتها على وقف إطلاق النار ، بل وحماية الجنود والضباط الذين يعملون تحت رايتها، بدأت الولايات المتحدة فى المبادرة بجهود مكثفة ، لإثبات أن أوربا عاجزة عن حل مشكلاتها ، وأن الولايات المتحدة الأمريكية هى فعلا القوى العالمية المؤهلة لحل مشكلات العالم .

إتفاق دايتون

بدأت المفاوضات بمشاركة رؤساء البوسنة وكرواتيا ــ والصرب ــ فى نوفمبر ١٩٩٥ وتوصل زعماء الدول الثلاث إلى إتفاق سلام شامل ينهى الحرب فى البوسنة .

ومن أبرز المبادئ التى تم إقرارها

- الحفاظ على البوسنة ــ الهرسك كدولة واحدة فى حدودها الراهنة المعترف بها دوليا .
- تقسيم الدولة إلى قسمين متساويين تقريبا : الإتحاد الفيدرالى المسلم ــ الكرواتى ، وكيان مستقل لصرب البوسنة .
- الإبقاء على مدينة سراييفو موحدة ، إذ ستكون هناك حكومة مركزية فاعلة تضم برلمانا ورئاسة ومحكمة دستورية تتولى السياسة والتجارة الخارجتين ، والسياسة المالية والمسائل المتعلقة بالمواطنة والهجرة .
- إن إختيار الرئيس والبرلمان سيتم من خلال إنتخابات ديموقراطية تحت إشراف دولى .
- يؤجر الصرب لحكومة البوسنة ممر برسافينا ـ فى الشمال الشرقى ــ الذى يربط بين الآراضى الخاضعة لسيطرة صرب البوسنة شرقى وغربى البوسنة بعرض خمسة كيلو مترات لمدة ٩٩ عاما .

هل حلت المشكلة ؟

لا نظن أن المشكلة ستنتهى لرغبة الصرب فى إقامة دولة صربيا الكبرى ، كما أن التحالف الكرواتى مع المسلمين لم يعدو تحالفا تكتيكيا للوقوف أمام الصرب ، بل وإنضمت فيه كرواتيا فى سعيها للحصول على دولة مستقلة تمهيدا للإلتحاق بالوطن الأم ـ كرواتيا ــ فيما بعد ، ومازال التحالف السلافى الأرثوذكسى يدعم صرب البوسنة إنطلاقا من جمهورية صربيا ، أما الكروات فتتدفق عليهم مساعدات الدول الكاثوليكية عبر بوابة كرواتيا الأم .

(٣) . العنف الدينى فى الهند

يبلغ عدد سكان الهند نحو ٨٥٠ مليون نسمة ، يدين ٦٠٠ مليون منهم بالهندوسية ، بينما يبلغ عدد المسلمين نحو ١٥٠ مليون نسمة (أكبر تجمع إسلامى فى إندونسيا) ، وأما الباقى منهم موزعون بين المسيحيين

٣٠ ٪ ، ٧ ٪ من البوذيين ، ثم طوائف أخرى ، وكان شعار الهند منذ الإستقلال ' الوحدة فى إطار التعدد ، والتعدد فى إطار الوحدة ' ورغم ذلك مازالت التعصب الهندوسى يعصف بوحدة الهند ، فقد شهدت الهند أحداث عنف متعددة من جانب الهندوس ضد المسلمين ولعل آخرها كان هدم مسجد أبوديا .

القومية العلمانية أم الطائفية الهندوسية

وثمة حركتان إنبثقتا فى الهند بعد حصولها على الإستقلال ، القومية العلمانية ، والطائفية (أو الهندوكية) والمسيحية والأسلامية ، وفى السنوات الأخيرة طوقت دولة الهند بتجمع كبير من أحزاب المعارضة قام على أساس من الكفاح الدينى ، ولعل الحركة الدينية القائمة على فكرة ' هندوتفا ' Hindutva هى دون شك أشد هذه الحركات خطورة .

ما هى الهندوتفا ؟

الهندوتفا ، أيديولوجية تجعل التفوق للهوية الهندوسية ، وتنكر أية حقوق للأقليات الدينية ، أو الهندوسية من الطبقات الدنيا ، وقد ظهرت فكرة الهند الهندوسية عام ١٩٢٥ . ويقول أصحاب هذا المذهب أن هندوستان هى أرض الهندوس ، الأرض التى تزدهر عليها أمة الهندوس وحدها ، ثم أكدوا أن ' على الجماعات الأجنبية الموجودة فى هندوستان، أن تعتنق ثقافة البلد ولغته ، والا تشغل بشئ سوى تمجيد الجنس والثقافة الهندوسيتين ، وتتخلى عن هويتها الخاصة وتذوب فى الجنس الهندوسى (وهل الهندوسية جنس ؟)

والنتيجة الطبيعية فى نظرهم هى أن غير الهندوسيين ليس لهم الحق فى ' أية مزية ' ، بل وأية معاملة طيبة ، ولا فى حقوق المواطنين ، ويهاجمون غاندى ونهرو ، دعاة الوفاق والصداقة بين الجماعات ، واتهماهما بأنهما " إرتكبا أبشع الخطايا ، إذ هدما روح شعب قديم وعظيم".

وساعدت أفكار هذه الطائفة على قطع الرباط الهش الذى كان قائما من قبل بين الهندوسين والمسلمين ، ومع ذلك فليس ثمة عملية حربية منذ إنقسام البلد فى عام ١٩٤٧ أسهمت فى قطع هذا الرباط بقدر ما أسهم تدمير مسجد أيوديا عام ١٩٩٢ ، وهو الذى شيده الإمبراطور المغولى بابر ، ويعتقدون أنه مبنى فوق معبد الههم المقدس رام .

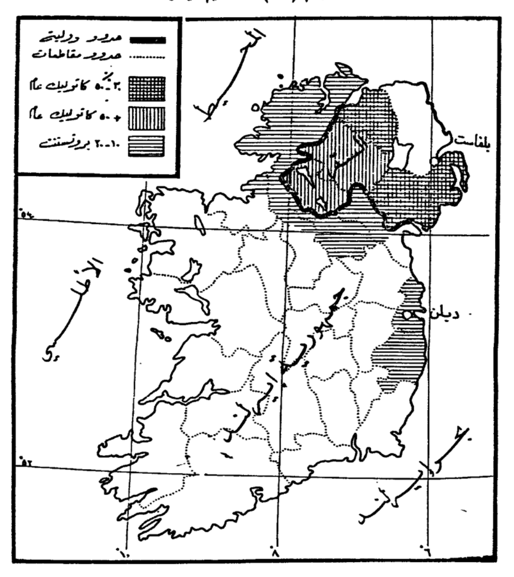
يقول رشيد الدين خان مدير المعهد الهندى للدراسات الفيدرالية "فى ذلك اليوم بمدينة أيوديا القديمة فى شمال الهند ، أقبل المتعصبون الهندوسيون يحتفلون بشعائر دينية فنهبوا المسجد المقام على هذا الموقع المقدس لدى المسلمين ، على إعتقاد بأنه رأس راما ، وفى غضون الساعات التالية جرت مصادمات فى كل أنحاء البلاد ، خربت فيها مساجد ومعابد هندوسية ، وأجرت جماعات صغيرة من المتطرفين مذابح منظمة ، وبخاصة فى بومباى ، وقتل عدد من المسلمين برصاص الشرطة أثناء المظاهرات ، وإستمرت المصادمات بين الجماعات عدة أسابيع ، وحدث رد فعل ضد الهنود فى العديد من البلاد الإسلامية ، وبخاصة فى باكستان وبنجلاديش ، سقط فيها قرابة ألفى قتيل" .

(٤) . أيرلند

تتكون جزيرة أيرلند من سهل منبسط لايزيد إرتفاعه على ٥٠٠ متر تحيط به المرتفعات من جوانبه ، وكان لزحف الجليد آثاره السيئة على التصريف المائى فى أيرلند ، ذلك أنه ترك بعد تقهقره كثيرا من البحيرات والمستنقعات التى تصلها الأنهار البطيئة الجريان وأهمها نهر شنن ، وكان لنظام التضاريس الذى تتوزع فيه المرتفعات على الأطراف والمنخفضات فى الوسط أن ساء التصريف المائى ، وأصبحت الأجزاء الوسطى والغربية مليئة بهذه المستنقعات وإذا كانت مساحة هذه الجزيرة نحو ٣٢,٠٠٠ ميلا مربعا . فإنه لايسكنها سوى ما يقرب من ٤,٧٥ مليون نسمة . وعلى العكس المملكة المتحدة تعتمد أيرلند على الإنتاج الزراعى والحيوانى . وتبلغ المساحة المزروعة ربع مساحة البلاد . وقد عانت البلاد كثيرا من جراء إعتمادها على الإنتاج الزراعى وحده وسوء الأحوال الجوية ، مما أدى إلى نقص محصول البطاطس وحدوث المجاعات ، ولعل مجاعة عام ١٨٣٠ هى أشهرها حين كان يسكن الجزيرة نحو ٨ ملايين نسمة . فهلك منهم نحو المليون بين ١٨٤٦ ، ١٨٥٠ ، وهاجر نحو نصفهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا . وتهتم أيرلند بتربية الماشية وخاصة الأبقار وذلك لإنتشار المراعى التى تبلغ مساحتها ثلاثة أمثال المساحة المزروعة . ويأتى الشوفان فى مقدمة الحاصلات الزراعية يليه القمح والشعير إلى جانب البطاطس والبنجر . وقد حاولت الحكومة منذ الحرب العالمية الأولى زيادة مساحة القمح والبنجر لزيادة إكتفائها الذاتى ولكنها فشلت لعدم ملاءمة المناخ والتربة للتوسع الزراعى فيها . وتفتقر الجزيرة إلى الموارد المعدنية وموارد

الوقــود بحيــث تســتغل اللبــد النبــاتى Peat وهــو مــن النباتــات القديمــة المتحجـرة، وذلــك عكـس بريطانيــا الغنيــة بمــوارد الفحــم . وكــان لهــذه الإختلافات فـى إقتصاديات كـل مـن البلديـن وإنعزال الجزيـرة عـن بريطانيـا، وفضـلا عن غلبـة الكاثوليكية علـى الجزيـرة بإستثناء القسـم الشـمالى الشـرقى الـذى تغلب عليـه البروتستانتية . ممـا أدى إلـى إختـلاف أحـوال السـكان .

شكل رقم (٢٥) : تقسيم ايــرلنــد



التمييز ضد الكاثوليك

بإنتهاء الحرب الأهلية البريطانية عام ١٦٩٠ فى موقعه بوين شمالى دبلن ، بإنتصار وليم الثالث ملك إنجلترا البروتستانتى على جيمس الثانى (مازال البروتستانت يحتفلون بيوم أول يولية إلى الآن فى شمالى أيرلند) ظهرت قوانين التفرقة العنصرية ضد الكاثوليك ، والعمل على منعهم قدر الإمكان من الحصول على الوظائف العامة ، بل وإمتلاك الأرض ، وأغلقت القنوات السياسية الطبيعية أمامهم ، مما أدى إلى تراكم السخط وعدم الرضاء ، ولم يحصل الكاثوليك على حق عضوية البرلمان إلا فى عام ١٨٢٩ بعد مصادمات كاثوليكية / بروستانية عنيفة ، من ثم كان سجل هذه العلاقات يتميز بالقسوة والدموية ، فتاريخ الأيرلنديين هو تاريخ إستياء وإمتعاض ، زاد منها تلك الصراعات ، الرهيبة التى تعرضت لها البلاد ، من ثم فهذا التاريخ من الحزازات والبغض ، هو الذى يغذى إلى اليوم تلك الإضطرابات العنيفة التى تحدث فى ألستر **Ulster** حتى الوقت الحاضر.

وكانت إستجابة بريطانيا لمأساة إيرلند بطينة فى نظر الأيرلنديين ، يكفى أن عملية التسوية التى بدأت عام ١٨٨٠ وأستمرت ٣٥ عاما حتى إنتهت بإتفاق ١٩٢٠ ، وبمقتضاه منح القسم الجنوبى والغربى إستقلالاً ذاتيا ، ويضم هذا القسم ٨٤ ٪ من المساحة ، ٦٨ ٪ من السكان ، وأخذ الجزء المستقل أسماء عديدة ، منها جمهورية إيرلند الحرة (١٩٢٢ - ١٩٣٧) وإيرلند (١٩٣٧ - ١٩٤٩) ، جمهورية إيرلند منذ ١٩٤٩ ، وكان هذا الإستقلال على أساس أن تظل ضمن مجموعة الأمم البريطانية، بينما ظل القسم الشمالى (الستر) تابعا لبريطانيا ، ولاترضى إيرلند عن بقاء الجزء الشمالى أو اقليم الستر تابعا لبريطانيا ، بل تعتبره جزء منها .

الوضع الخاص بألستر (شمالى أيرلند)

وإذا كانت العلاقات البريطانية الأيرلندية كانت سيئة لعدة قرون ، فقد زادت سوءا خاصة فى القسم الشمالى من الجزيرة منذ بداية هجرات البروتستانت من سهول اسكتلند وإنجلترا منذ عام ١٦٠٨ ، وزرعهم فى إيرلند ، فكان تثبيت لغرباء فى أرض جديدة فى شمالى إيرلند أو فى إقليم الستر ، ومحاولة إخضاع المقاومة الكاثوليكية العنيفة ، من ثم أصبح لالستر خصائص تتميز بها عن بقية إيرلند التى إستوطنها بروتستانت يفلحون الأرض ، فإن القسم الشمالى أو الستر تغلب عليه البروتستانتيه والأقليه الكاثوليكية

وإذا كانت جمهورية إيرلند يغلب عليها الكاثوليكية تبلغ نحو ثلث السكان ، وإذا فصلنا قليلا وجدنا نسبة البروتستانتية إلى الكاثوليكية ٣ : ١ في ثلاث مقاطعات بينما في مقاطعة فرماناغ يمثل الكاثوليك الأغلبية، وفي الحق من الصعب تحديد حدود لايرلند الشمالية دون ترك أقليات فالحدود التي أتفق عليها ، لم يقصد بها أن تكون حدودا دولية ، ولم تتخذ هذه الصفة إلا في عام ١٩٤٩ ، بعد أن أصبحت ايرلند جمهورية مما أدى ببريطانيا إلى إصدار تشريع يضم ايرلند الشمالية إليها ، إلى أن يأتي وقت ترغب فيه الغالبية إتخاذ وضع آخر ، وظل هذا موقف الحكومة البريطانية . وفي ذلك الجزء الذى ضم إلى بريطانيا (الستر) ، أصبحت البروتستانية شعارا ورمزا لهؤلاء المستوطنين ، والذين يؤيدون البقاء كجزء من البيت البريطاني ، بينما الكاثوليكية هي هوية الذين تمسكوا بعقيدتهم .

وإذا كان وضع الأقلية الكاثوليكية إختلف اليوم عن القرن الثامن عشر، وأن البروتستانت مازالوا يسيطرون على كل شئ في البرلمان ، والحكومة والبوليس والإسكان ، وكل مافي الحياة اليومية ، ويكفي أن البروتستانت في برلمان إيرلند الشمالية المحلي يكادون يحتكرون مقاعده منذ ١٩٢١ نتيجة تخطيط حدود الدوائر الإنتخابية بحيث تضم أغلبية بروتستانتية .

وفي مدينة لندن ديري ثان أكبر مدن إيرلند الشمالية (بعد بلفاست العاصمة) يتألف مجلس المدينة من البروتستانت ، على حين أن ثلثي سكانها من الكاثوليك، وأتفق التقسيم المذهبي مع التقسيم الإجتماعي ، فإذا كانت هناك طبقة متوسطة من كل من الكاثوليك والبروتستانت ، فإن أغنياء البروتستانت يفوقون أغنياء الكاثوليك ، بل الأكثر فقرا تجدهم من بين الكاثوليك ، ولديهم نسبة البطالة أعلى، وأدى هذا إلى قيام حركة الحقوق المدنية للكاثوليك **Catholic Civil right movement** مقابل الحركة الوحدوية **Loyalist Movement** بين البروتستانت أي الوحدة والولاء لبريطانيا لمقاومة مطالب الإستقلال عن بريطانيا ، وكان غرض حركة الحقوق المدنية الكاثوليكية التي تألفت عام ١٩٦٧ في بلفاست تجميع أنشطة الجمعيات العديدة التي تهدف إلى إصلاح أحوال الكاثوليك ، وقامت الجمعية بعدة مظاهرات غير مخططة بحيث خرج الأمر من يدها، وقابلت الحكومة البريطانية الحقوق المدنية ببرنامج إصلاحي ، أعلن في ١٩٦٨ بالمساواة ، في كل الميادين ، وبدأت مناقشات خاصة بإيجاد مجلس للنواب والشيوخ يكون فيها التمثيل على أساس نسبي ، ولكن تطورت الأحوال بسرعة وتدهورت الأحوال لنشاط الجيش الجمهوري

الأيرلندى I RA الذى صعد الجهاد ، والذى كان له دور كبير قبل ذلك فى إستقلال جمهورية إيرلند ، وأدى هذا بالحكومة البريطانية إلى إرسال الاف الجنود البريطانية ، وأخذت الأمر بيدها وجمعت الإدارة فى يد وزير شئون إيرلند .

وقامت بإستفتاء فى الإقليم عام ١٩٧٣ قاطعة الثلث الكاثوليكى ، بينما صوت الثلثان من البروتستانت فى جانب البقاء مع بريطانيا ، وحرر بالتالى الكتاب الأبيض الخاص بالإصلاح الدستورى لإيرلند الشمالية ، مؤكد بقائها جزء من بريطانيا طالما رغبت الأغلبية هذا الوضع ، ولكن مع إقامة هيئتين تنفيذية وتشريعية يمثل فيها كل من الكاثوليك والبروتستانت ، وإن ينتخب إثنا عشر عضوا لبرمان وستمنستر (مجلس العموم) ، وتظل الحكومة البريطانية مسئولة عن الشئون الخارجية والدفاع . ومازالت إنفجارات الجيش الثورى الأيرلندى مستمرة إلى الآن (١٩٩٧) ومازالت المشكلة شوكة حادة فى جنب الحكومة البريطانية .

ثانياً . قضية التركيب العرقى

(١) . تشيكو سلوفاكيا والأنشطار السلمى

ودع ١٦ مليون تشيكوسلوفاكى عام ١٩٩٢ كمواطنين فى دولة واحدة، وأستقبلوا العام الميلادى الجديد وقد إنقسموا إلى ١٠,٥ مليون تشيكى و ٥,٥ مليون سلوفاكى . وخرج الألوف من السكان ، لاسيما الشباب ، إلى شوارع براج ، عاصمة تشيكيا ، وبراتيسلافا عاصمة سلوفاكيا ، يحتفلون ويلوحون بالأعلام .

عوامل التفكك وظروف الإنهيار

على الرغم من أن الدعوة للإنفصال ليست بجديدة على التاريخ التشيكوسلوفاكى ، وبخاصة فيمايتعلق بمحاولات إستقلال سلوفاكيا ، إلا أن التغير والتحولات التى شهدتها تشيكوسلوفاكيا وأوربا منذ عام ١٩٨٩ والممثلة فى إنهيار المنظومة الإشتراكية ثم إنهيار الإتحاد السوفيتى عام ١٩٩١ ، وما أعقبها من إحتدام الأزمة الإقتصادية التى شهدتها تشيكوسلوفاكيا ، و التى إنعكست أثارها السلبية على الشطر السلوفاكى بوجه خاص ، كل ذلك أدى إلى إنبعاث فكرة الإنفصال بين الشعبين ، وأخذت الفكرة تختمر تدرجيا . ولنتذكر فى هذا السياق وعبر أحدى محطات التحضير للإنفصال ، القرار الرسمى الصادر عن البرلمان الفيدرالى فى عام ١٩٩٠ والقاضى بتغير إسم الجمهورية من جمهورية تشيكوسلوفاكيا إلى (جمهورية تشيكيا وسلوفاكيا) ، حتى تطورت خطوات العملية الإنفصالية سريعا ، ومن المفارقات التى لاتخلو من دلالة على أن يكون عمر جمهورية تشيكوسلوفاكيا المحتضرة ، هو عمر الإتحاد السوفييتى السابق نفسه ، ذلك أنها بزغت للوجود كدولة بعد عام واحد بالضبط من قيام ثورة أكتوبر البلشقية عام ١٩١٧ . كما أنها لفظت أخر رمق من حياتها بعد عام واحد بالتمام والكمال من إعلان وفاة الإتحاد السوفيتى أى فى مطلع ١٩٩٢ . لكن هناك بونا شاسعا بين طبيعة وظروف الإنهيارين .. فلم تكن تشيكوسلوفاكيا طوال عمرها تحت ظل النظام الشيوعى ، إذ أن ثلث عمرها قضته تقريبا بعيدا عن ذلك النظام ، كما تشهد الأقليات القومية فيها وعلى وجه الخصوص أكبر هذه الأقليات، (القومية السلوفاكية) مظاهر الطمس والتذويب كالتى عانت منها شعوب الإتحاد السوفييتى ، ومن ثم كانت المعضلات الإقتصادية فى تشيكوسلوفاكيا ، والأخطاء التى إرتكبتها القيادات الشيوعية السابقة هى التى مهدت الطريق لدعاة الإنفصال ، وأحياء النعرات القومية المتطرفة .

إدعاءات الطرفين

تأسست جمهورية تشيكوسلوفاكيا في نوفمبر ١٩١٨ على أثر توحيد الحركتين القوميتين التشيكية والسلوفاكية ، وهما القوميتان اللتان تعايشتا وتجاورتا معا تحت حكم إمبراطورية النمسا والمجر التى تفككت فى أواخر الحرب العالمية الأولى بعد هزيمتها أمام الحلفاء الذين شجعوا الأقليات القومية على الإنفصال عن الإمبراطورية المحتضرة .

وقبل ذلك التاريخ (تاريخ تأسيس الدولة الإتحادية التشيكوسلوفاكية) كان التشيك يعتبرون أنفسهم هم سكان تشيكوسلوفاكية الأصليون حتى أنهم كانوا يتطلعون إلى إقامة دولة تمثل الشخصية التشيكية . أما سلوفاكيا فقد ظلت طوال ألف عام وحتى ميلاد الدولة الإتحادية تابعة لبودابست (المجر) التى كانت تسميها العليا على الرغم من أن الذين يعيشون فيها هم أقلية قياسا بالعنصر السلوفاكى . وعلى ذلك فقد كان التشيك ومازالوا يذكرون السلوفاك بدورهم فى إحياء القومية السلوفاكية من الأندثار بأعتبارها كانت مطموسة ومهمشه فى ظل سنوات حكم المجر الطويلة . وينكر التشيكيون أنهم مارسوا سياسة التفرقة القومية أو الإضطهاد ضد السلوفاك ، سواء كان ذلك قبل الحكم الشيوعى فى ١٩٤٨ أم فى كنفه، بل على العكس فأنهم يردون على ذلك بأنهم أتاحوا للسلوفاك الفرصة للتعبير عن تراثهم القومى ، وفتحوا المدارس لتعلم اللغتين التشيكية والسلوفاكية على حد سواء .أما مايقال عن إنعدام تكافؤ الفرص بين القوميتين فمرده ، كما يقولون إلى عدم تفهم السلوفاكيين إلى حقيقة موضوعية ، تتمثل فى أن سكان الشطر التشيكى هم ضعف سكان الشطر السلوفاكى ، ناهيك عن أن مساحة الأول أكبر من مساحة الثانى .

تقسيم التركة : الكاسبون والخاسرون

وفقا لقاعدة إثنين إلى واحد والتى تنطلق من واقع نسبة سكان الشطر التشيكى (١٠,٥ مليون) إلى سكان الشطر السلوفاكى (٥,٥ مليون) تم التقسيم وكانت القومية هى الأساس ، وكانت متركزة عند السلوفاكيين الساعين لإنهاء الإتحاد القائم منذ ٧٤ سنه ، رغم أنهم لم يحصلوا على الإستقلال فعلى من هيمنة الإمبراطورية المجرية عليهم لزمن طويل ، إلا عندما أقيمت الدولة التشيكوسلوفاكية . ولايوجد أحد الأن يعتبر قيام دولة سلوفاكية بين ١٩٢٩ و ١٩٤٤ م تحت سيطرة النازية الألمانية أكثر من إستقلال صورى بثمن باهظ . أما التشيكيون فقد كان تحولهم إلى التعجيل بالإنفصال نتيجة نظرة واقعية ، (أن مصيرنا غير مرتبط بالسلوفاكيين)

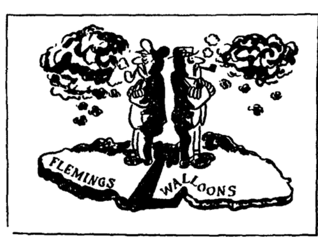
مثيرين بذلك إلى الخسارة المالية والإقتصادية الأكبر المتوقع أن تصيب سلوفاكيا فى الدرجة الأولى .. وبالمقابل فإن الشعور الأوسع إنتشارا على المستوى الشعبى هو تضاعف مشكلات سلوفاكيا بالمقارنة مع تشيكيا ، إنها لن تواجه الجانب الإقتصادى فقط ، بل تخشى أيضا من إزدياد التوترات المتصاعدة مع المجر المجاورة ، ولايقتصر ذلك على الخلاف بصدد مشروع توليد الطاقة على نهر الدانوب فقط ، بل يتعداه إلى المخاوف على مستقبل الأقلية المجرية فى سلوفاكيا ، وعددها ٧٠٠ ألف نسمة ، أى ١٢ ٪ من السكان . فضلا عن بوادر تعامل الدول الغربية مع تشيكيا بما يميزها عن سلوفاكيا ، نظرا لتفاوت الطاقة الصناعية والإقتصادية مابين الدولتين .

(٢) . بلجيكا مشروع إنشطار

مسرح للنزاعات الأوربية

بلجيكا من أصغر الدول الأوربية نسبيا ، مساحتها فى حدود ٣٠ ألف كيلو متر مربع وعدد سكانها فى حدود عشرة ملايين نسمة ، وكانت مسرحا للهجرات وللنزاعات الأوربية فى التاريخ القديم ، وآخر حلقاتها ماكان بين النمساويين والفرنسيين والبريطانيين ، بل كان قيام الدولة البلجيكية بإعلان الإستقلال فى ٤/ ١٠/ ١٨٣٠م من صنع فرنسا ، وجاء إعتراف الدول الأوربية الرئيسية بها خلال مؤتمر لندن فى العام التالى حلا وسطا، وتضمن تنصيب الملك ليوبولد الأول وفق التفاهم الفرنسى – البريطانى .

شكل رقم (٢٦) : النفور بين الفلمنك والوالون



ورغم صغرها تكاد بلجيكا تصبح أول دولة أوربية غربية تصل إليها عدوى ظاهرة الإنقسامات التى مزقت يوغسلافيا حربا ، وتشيكوسلوفاكيا سلما والسبب الرئيسى هو أنها توفر المعطيات الرئيسية لهذه الظاهرة تاريخياً .

إنفصام لغوى

جمعت بلجيكا بين الفلامنكيين فى منطقة فلاندرز شمال البلاد حيث تنتشر اللغة الهولندية أو الفلمنكية ونسبتهم حوالى ٥٨ ٪ والوالون فى منطقة والونيا جنوبى البلاد حيث تنتشر اللغة الفرنسية ، ونسبتهم حوالى ٣٣ ٪ بالإضافة إلى حوالى ٧٠ ألف من ذوى الأصل الألمانى فى شرقى البلاد ، ينطقون لغتهم الألمانية ، وتميزت مع الزمن منطقة بروكسل العاصمة وما حولها ، بما يشمل أكثر من مليون نسمة أى زهاء ١٠٪ من السكان ، كفئة رابعة تحمل وصف البروكسليين ، وتبلغ نسبة الأجانب فيها زهاء ٣٠ ٪ وهى من أعلى النسب فى أنحاء أوربا .. وعند القاء نظرة على بلجيكا تبدو وكأن أرضها قابلة للذوبان عبر الحدود الهولندية شمالا ، والفرنسية جنوبا والألمانية شرقا .

فلا تبقى سوى النواة البروكسلية (الأوربية) الصبغة . وهذا التقسيم الذى لعبت اللغة فيه دورا رئيسيا ، يعطى الدعوة الإنفصالية أبعادا تتجاوز الجانب القومى المجرد ، الأكثر ظهورا فى أوساط الفلامنكيين ، لاسيما عن طريق حزب فلامندرز اليمينى الذى كان من أواخر تصريحاته قوله (لقد عشنا معا منذ ١٦٠ عاما ، دون أن نكون سعداء بذلك ، فعلام لاننفصل عن بعضنا بسلام كما جرى فى تشيكوسلوفاكيا؟).

وتتبين الأبعاد الأخرى للدعوات الإنفصالية عندما يقول المؤرخ البلجيكى دهينزيس مثلا (ينكر الفلامنكيون أن نكون هولنديين ، وينكر الوالونيون أن نكون فرنسيين .. فمن نحن ؟) .. والسؤال بحد ذاته تعبير عن أزمة التميز لدى البلجيكين الذين تقول عمليات إستطلاع الرأى فى صفوفهم أن نسبة ٢٦,٥ ٪ فقط يعبرون عن إعتزازهم بالإنتماء البلجيكى بصورة قاطعة .

فجوة بين الشمال والجنوب

ومن الدعامات الرئيسية للدعوة الإنفصالية الهوة القائمة بين (الشمال والجنوب) داخل بلجيكا ، والتى تجعل من الضرورى تحويل ماقيمته سبعة مليارات دولار سنويا من المنجزات الإقتصادية فى الشمال البلجيكى لدعم جنوب البلاد ، وبينما يشكو الفلامنكيون من أن هذا يجرى على حسابهم ، يشكو الوالونيون من أن إهمال مناطقهم إقتصاديا هو السبب فى إضطرارهم إلى العيش على المعونة .

مـاذا تفعل الدولـة ؟

ولـم يكـن إضعـاف فاعليـة الدعـوة الأنفصاليـة عـن طريـق دعـم وحـدة بلجيكـا كدولـة جامعـة تصهر سـائر الفئـات السكانية فيهـا ، بـل علـى النقيـض مـن ذلـك فقد كـانت تواجـه واقعيا بأسلوب الإسـتجابة بالمهدئـات والمسـكنات، علـى شكل زيـادة الصلاحيـات الإداريـة فـى كل منطقـة علـى حسـاب السـلطة المركزيـة ، وتلبيـة المطـالب المتعلقـة بـالجوانب الثقافيـة والتعليميـة والفكريـة وغيرهـا ، وهـذا ماسـاهم بصـورة غير مباشـرة فـى تعزيـز الفـروق بـدلا مـن إذابتهـا ، وجعـل الدعـوة الراهنـة إلـى تحويـل بلجيكـا إلـى دولـة إتحاديـة (فيدراليـة) دعـوة جـادة .

هل تتفكك عاصمـة الوحدة الأوربيـة ؟

إن إنقسـام بلجيكـا غـير محتمـل فـى الوقـت الحـاضر ، ولا يريـد أحـد أن يتصـور إحتمـال حدوثـه ، ليس بسبب الأوضـاع الداخليـة فقـط ، بـل وبسـبب مـا يمكـن أن يرمـز إليـه مـن مغـزى يولـد أثـارا سـلبية علـى صعيـد أوربـا الغربيـة عامـة ، إذ لايشـمل ـ أن وقـع ـ مجـرد إنقسـام دولـة أوربيـة غربيـة لأول مـرة ، منـذ نهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة ، بـل يتعـدى ذلـك إلـى حقيقـة وقوعـة فـى الدولـة التـى تضـم عاصمتهـا المقـر الرئيسـى للرابطـة الأوربيـة السـاعية الـى توحيـد نفسـها ، والصدمـة التـى يمكـن أن يحدثهـا التقسـيم فـى بروكسـل عاصمـة أوربـا .

(٣) . المشكلة القبرصية

الأهميـة الإسـتراتيجية

بـالرغم مـن صغـر مسـاحة قـبرص (أقـل مـن عشـرة آلاف كيلـو مـتر مربـع) فإنهـا ذات أهميـة جيواسـتراتيجية ، فهـى نقطـة إنطـلاق للقـوى البحريـة والجويـة الدوليـة بإتجـاه تركيـا والمضـائق ، ونحـو المنطقـة العربيـة حيث يحتدم النزاع العربـى ـ الإسـرائيلى ' وهـى محطـة بحريـة تسـكن إليهـا القطـع البحريـة بعد منـاورات الأسـاطيل الضخمـة ، ولطالمـا شـكلت قـبرص موقعـا إسـتراتيجية متقدمـا للأسـطول السـادس الأمريكـى خصوصـا فـى مرحلـة السبعينيات بعد مـانزل الأسـطول البحـرى السـوفييتى بقـوة إلـى ميـاه البحـر المتوسـط ، ولاشـك بـأن الأتـراك الذيـن سيطروا علـى قبرص منـذ عـام ١٥٧١ م وحتـى عـام ١٨٧٨م يتعـاملون مـع هـذه الجزيـرة الصغـيرة

المساحة والكبيرة الأهمية الإستراتيجية وكأنها شأن داخلى تركى ، كيف لا وأن جزيرة قبرص تبعد عن الساحل التركى أربعين كيلو مترا فقط .

ولبريطانيا تاريخ طويل مع جزيرة قبرص ، شأنها فى ذلك شأن تركيا وهى التى فرضت إشرافها المباشر على الجزيرة بموجب معاهدة القسطنطينية مع تركيا فى يونيو ١٨٧٨ ، ثم ضمت الجزيرة إلى ممتلكاتها عام ١٩١٤ ، وإستمرت السيطرة البريطانية الكاملة حتى عام ١٩٥٩ حيث أعلنت جمهورية قبرص المستقلة بعد معاهدة لندن فى فبراير ١٩٥٩ ، والتى وقعها ممثلو بريطانيا وتركيا واليونان والجاليتين التركية واليونانية ، وبعد عاميين إنضمت قبرص إلى الكومنولث البريطانى ، لكن هذا الإنضمام لم يعف الجزيرة من الإضطرابات منذ عام ١٩٦٣ ، بسبب الخلافات حول نسبة تمثيل الجاليتين فى البرلمان والمجالس البلدية والوظائف الرئيسية ، وكثيرا ماتدخلت القوات التركية واليونانية مباشرة ، ونزلت على أرض الجزيرة ، فعانت من الإضطرابات ولم تعرف الإستقرار السياسى ، وظن الرئيس الراحل المطران مكاريوس أن سياسة عدم الإنحياز يمكن أن توفر للجزيرة نوعا من الحماية الدولية ، أو الإستقرار النسبى ، وأن تساهم فى الحفاظ على وحدة الجزيرة ، غير أن التدخلات الخارجية بقيت أقوى من هذه السياسة.

شكل رقم (٢٧) : المشكلة القبرصية

كريت
رودس
نيقوسيا
سوريا
البحر المتوسط .
قبرص
لبنان
الأردن
مصر
المشكلة القبرصيه
٣٠ ميل صفر
كيرينا
نيقوسيا
لفكا
فاماجوستا
بولس
ع• ترودس
لارناكا
دهكليا
ليمسوبى
بافوس
ليمسول
اكروتيرى
المنطقة التركيه
المنطقة اليونانية
قواعد بريطانية

ثلاثة عوامل دولية تؤثر مباشرة فى المشكلة القبرصية ، فضلا عن عوامل أخرى إقليمية ودولية تؤثر بصورة غير مباشرة ، وهى:

العامل اليوناني الناتج عن غالبية سكان جزيرة قبرص (حوالى ٧٧ ٪) وهم من اليونانيين الأرثوذكس ، ولطالما صدرت دعوات قبرصية يونانية للإتحاد مع اليونان ، كان آخرها دعوة زعيم الإنقلاب العسكرى فى قبرص الذى أطاح بالرئيس السابق الأسقف مكاريوس فى العام ١٩٧٤م بدعم مكشوف من السلطات العسكرية اليونانية .

العامل التركي المستند إلى وجود حوالى ١٨ ٪ من القبارصة الأتراك المسلمين والذى إشتد صراعه ولايزال مع الجانب اليونانى خصوصا بعد إنقلاب عام ١٩٧٤ ودخول القوات المسلحة التركية إلى الجزيرة خوفا من الوحدة مع اليونان وسيطرتها على ٣٨ ٪ من الأراضى بعد إشتباكات مسلحة مع القبارصة اليونانيين ، وبذلك زادت المساحة الجغرافية الخاضعة لسيطرة القبارصة الأتراك، ومنذ ذلك التاريخ ، وقبرص مقسمة واقعيا إلى منطقتين تركية ويونانية .

العامل البريطاني ، حيث لايعرف الكثيرون بأن بريطانيا تسيطر على ٦٪ من الآراضى القبرصية ، وهى تشمل المناطق التى أقام عليها البريطانيون قاعدتى " أكروتيرى " و " ديكيليا " ومحطة رادار فى جبال ترودوس ، مما يعنى بأن السيطرة البريطانية هى مباشرة ، وأن القواعد الحربية المذكورة لعبت دورا فى النزاعات والحروب التى دارت فى منطقة شرق البحر المتوسط خصوصا ، إبان حرب السويس فى عام ١٩٥٦ ، " والحرب العربية ــ الإسرلئيلية " عام ١٩٦٧ .

ومن الطريف أن العاصمة نيقوسيا مقسمة بين الأتراك واليونانيين ، وقد قسم خط التقسيم الشارع الواحد إلى شارعين !!

إقتراحات لحل المشكلة

إقامة جمهورية فيدرالية تضم قطاعين مستقلين إداريا هما القطاع القبرصى التركى والقطاع القبرصى اليونانى ، وتعديل مساحة القطاع القبرصى التركى ، بتصغيرهذه المساحة ، مقابل تقديم تعويضات مالية إلى القبارصة الأتراك تمكنهم من المساواة الإجتماعية مع القبارصة اليونانيين الأكثر غنى .

حـل مشـكلة اللاجئيـن الذيـن يبلـغ عددهـم ١٦٠ ألـف يونـانى و٤٥ ألـف تركى، هـاجروا من منـاطقهم إثـر الغـزو العسـكرى الـتركى للجزيـرة عـام ١٩٧٤، بمـا يشمل ذلك تـأكيد حـق القبارصـة اليونـانيين فـى أملاكهـم داخـل المنـاطق التـى هـاجروا منهـا .

صيانـة الحقـوق والحريـات الأساسـية كحريـة التنقـل والإقامـة والتملـك ، وصياغـة دسـتور جديـد يتضمـن هـذه الحريـات ، وينسـجم مـع النظـام السياسـى والدسـتورى الفيدرالـى علـى أن يـوزع بيـن السـلطات والصلاحيـات السياسـية والإداريـة بيـن الجـاليتين اليونانيـة والتركيـة .

إيجـاد حلـول أمنيـة للمشـكلات القائمـة بمـا يوفـر الإطمئنـان للمجموعتيـن الأساسيتين فـى البلاد وتقديـم ضمانـات لهمـا كفيلـة بعـدم تجـدد الإضطرابـات والتدخـلات الخارجيـة فـى المسـتقبل .

بناء الثقـة

رفـض الجـانب الـتركى هـذه الأفكـار مطالبـا بإتحـاد كونفيدرالـى علـى أسـاس وجـود دولتيـن ، وليـس جـاليتين ، وتراجعـت المفاوضـات مـرة أخـرى لبحث مـا تقدم بـه أميـن عـام الأمـم المتحـدة السـابق مـن إجـراءات بناءالثقـة بهـدف التقريـب بيـن الجـانبين قبـل بـدء السـعى للتسـوية الشـاملة . هـذه الإجـراءات تتضمـن أساسـا إعـادة فتـح مطـار نيقوسـيا الدولـى ، وفتـح مدينـة فـاروث ، وهـى جـزء مـن منطقـة فاماجوسـتا المحتلـة للشـعبين علـى أن يكـون تحـت إدارة الأمـم المتحـدة .

ولكـن هـذه الإقتراحـات لـم تصـادف قبـولا لأى طـرف مـن الطرفيـن ، وتجمـد الوضـع ، حتـى إسـتغل الموقـف مـرة أخـرى عـام ١٩٩٦ بإندفـاع عـدة منـات مـن القبارصـة اليونـانيين بدراجـاتهم البخاريـة إلـى داخـل المنطقـة العازلـة بيـن الطرفيـن متحديـن القـوات التركيـة التـى بـادرت بـإطلاق النـارعليهم خاصـة بعد محـاولاتهم إنـزال العلـم الـتركى .

مـاذا عـن المسـتقبل ؟

أمـا مـن جهـة فرصـة نجـاح الوسـاطة فهـى ضعيفـة لأنـه ليـس هنـاك مـن يتمتـع بثقـة الطرفيـن اليونـانى والـتركى معـا ، ويملـك فـى الوقـت نفسـه ممارسـة الضغـوط عليهـا ، وأبـرز مثـال لذلـك الولايـات المتحـدة بسـبب التوتـر القـائم بينهـا وبيـن تركيـا ، خاصـة بعد عقـد صفقـة الغـاز مـع إيـران برغـم معارضـة واشـنطن ، والدليـل علـى ذلـك أن الحكومـات الأوربيـة لـم تفعـل أكـثر مـن

الوقوف موقف المتفرج علـى النزاع الذى كاد يشعل الحرب بين أنقرة وأثينا فى يناير ١٩٩٦ ، رغم أن البلدين عضوان فى حلف الأطلنطى . . ولهذا السبب أيضا سيتأثر الحلف بالتوتر الجديد بين العضوين ، وستزيد الخلافات داخل الإتحاد الأوربى حيث تقف اليونان عقبة أمام إنضمام تركيا الكامل ، والإستفادة بمزايا عضويته ، وقد إزداد الموقف توترا بنصب الأسلاك الشائكة المكهربة ولعل الأمل الوحيد الباقى فى حل المشكلة ، يكمن فى إستخدام التحالف الغربى والإتحاد الأوربى سلاح المعونات والعقوبات ، فى الضغط على البلدين ، فتركيا فى حاجة للإستفادة عن عضويتها الكاملة بالإتحاد الأوربى ، واليونان تريد تمهيد الطريق أمام قبرص للإتحاد .

(٤) . المشكلة الكردية

التوزيع الجغرافى والأكراد

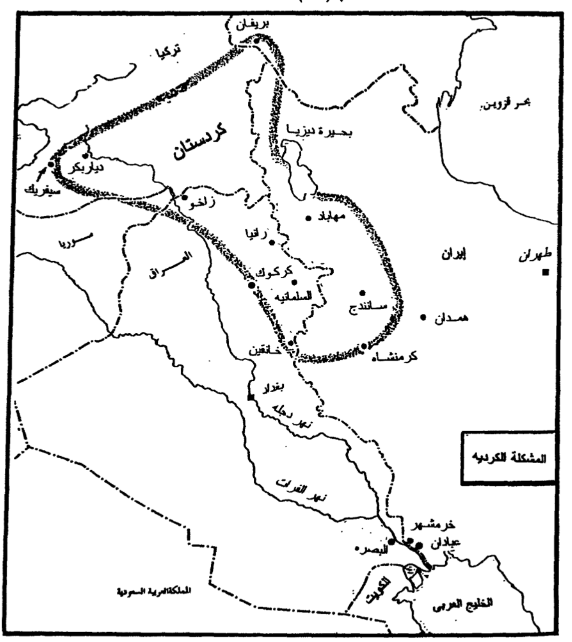
يتوزع الأكراد كقومية فى منطقة جغرافية واسعة تمتد من شمال العراق وجنوب تركيا وسوريا وشمال إيران ، وغرب أذربيجان ، وحتى الحواف الجنوبية للهضبة الأرمينية بمجموع يتراوح بين ١٥ / ٢٠ مليونا، ولم تكن هناك طوال التاريخ دولة معروفة بأسم كردستان ، بل كانت هناك إمارات كردية حاولت الإستقلال ، وإستغلت التناقضات بين الإمبراطوريات التاريخية التى إمتد ظلها فى هذه المنطقة ، ولعبت الإمبراطوريتان الإيرانية والتركية (العثمانية) دور مهما فى تاريخ الإمارات والقبائل الكردية ، فقد أعفت كل إمبراطورية الإمارات والقبائل القاطنة قرب حدودها من الضرائب ، وأعطت شيوخها قدرا من حرية التصرف الإدارى ، وسلطة جمع الضرائب وإمتلاك الأرض مقابل الدفاع عن الحدود ، ويحفظ التاريخ أدوارا هامة لقبيلة ' بابان ' مع العثمانيين وقبيلة ' موكرى ' مع الفرس هذا الدور العسكرى تطور دوما بتصاعد الصراع بين الإمبراطوريتين ، فإنطلقت كل إمبراطورية ترضى القبائل الكردية الموالية لخصمها ، وتحاول إختراقها وزرع فكرة إقامة دولة من قبيل التنغيص على الخصم .

حلم الدولة الكردية

ولعل المتابعين للأدبيات الكردية يعرفون هذا تماما ، وكيف بلور شاعر الأكراد العظيم ' أحمدى خاننى ' (١٥٩١ - ١٦٥٢) فى ملحمته

الشهيرة " ميم وزين " هذا التاريخ كله وصاغ الحلم الذى مازال حتى اليوم يكمن داخل كل كردى فأحمد خان يقول فى قصيدة شهيرة له فى الملحمة " هؤلاء الأكراد الذين بالسيف فأزوا بالمجد . . كيف جرى أنهم كانوا محرومين من دار الدنيا وخاضعين للآخرين ؟ والأتراك والفرس محاطون بأسوار من الأكراد ، وفى كل مرة يعبئ فيها العرب والأتراك الجيوش نجد أن الأكراد هم الذين يغرقون بدمائهم.. وفهم دائما متفرقون، ودائما على خلاف فهم لايذعنون لسلطان واحد منهم . فلو أننا توحدنا إذن ، لأصبح هذا التركى وهذا العربى وهذا الفارس خادمين لنا."

شكل رقم (٢٨) : المشكلة الكردية



عوامل الضعف وعوامل خارجية :

العزلة الجغرافية :

هناك عقبة إضافية أمام الوحدة الوطنية للأكراد . وتتمثل هذه العقبة فى العزلة الجغرافية للأقاليم الكردية فى الدول الثلاث ، حيث يعيش معظم الأكراد فى مناطق جبلية شديدة الوعورة ، بعيدة عن العواصم ومراكز النشاطات السياسية. وغالبا ما كانت تجرد هذه المناطق من المخصصات المالية اللازمة للتطوير بالمقارنة مع المناطق الأخرى فى الدولة ، وخاصة فى تركيا وإيران ، وبالتالى بقيت هذه المناطق مهملة ومتخلفة . وبالتالى كانت الطبيعة الجبلية لمعظم مناطق كردستان تزيد من عملية العزلة ومظاهر الإنفصال بين الأكراد . ومن ثم حافظ الأكراد فى عزلتهم على الابنية القبلية والعشائرية بدرجة كبيرة جدا تفوق تلك التى لدى الشعوب الموجودة فى المناطق المجاورة . وقد أعاق الحفاظ على النظام الإقطاعى الإجتماعى عملية التطوير السياسى الحديث ، ولم يستطيع المجتمع الكردى تجاوز مرحلة الروابط والإلتزامات الإقطاعية والعشائرية .

القبلية والعشائرية والفردية :

فالأكراد ليسوا شعبا موحدا فهناك نظام من النزعة الفردية القوية ضمن قبائلهم وجماعاتهم ، يسيطر بصورة مهيمنة على المجتمع الكردى، حتى أنه يؤدى بإنتظام إلى وقوف عشيرة ضد أخرى طبقا للمصالح الآنية لهذه المجموعة أو تلك. ولم يتحد الأكراد أبدا على مدار تاريخهم حول قضية عامة مشتركة وحتى أثناء الإنتفاضات الوطنية داخل الدول التى يقيمون فيها ، كانت تقاتل ضد بعضها ، وعادة ما يكون ذلك بأمر يصدر من الدولة الأخرى . يضاف لذلك أن سيطرة زعماء القبائل ورجال الدين بقيت قوية على مدار القرون .

اللغة :

ولايتحدث الأكراد لغة واحدة . فهناك ثلاث لهجات رئيسية مع إختلافات ملحوظة فى المفردات واللفظ والقواعد ، يشبهها البعض بالخلافات الموجودة بين الألمانية والإنجليزية ، والإيطالية الفرنسية . ومع أنه يمكن إعتبار هذه اللهجات لغات مختلفة إلا أنها للتداخل مع بعضها يستطيع الأكراد التأقلم مع لهجات بعضهم البعض عندما يتطلب الأمر ذلك .

التشـــتت :

وهنـاك عدد مـن العوامل التـى سـاهمت فـى خلـق هـذا الإحســاس الضعيـف لـدى الأكـراد إتجـاه مسـألة الأمـة المسـتقلة . إذا أن تشـتتهم الجغرافـى بيـن دولـة مختلفـة لمـا يزيـد علـى ألـف سـنة ، أعـاق بحـدة قـدرة الأكـراد علـى تطويـر رؤيـة وحدويـة . نـاهيك عن أن الأكـراد قد جردوا من الفرصـة التـى تسمح لهم بـالتطور فـى إطـار ثقافـة أو بيئـة سياسية واحـدة ، حيث إضطـروا لتطوير أنفسهم فـى إطـار ثـلاث نظـم حكوميـة وثقافيـة مختلفـة .

وكـان الفـارق الهـائل فـى درجـة النمـو بيـن المركـز والهـامش فـى هـذه المنطقـة مـن العـالم سببا إضافيا كـى تغذى حالـة التمـرد الكـردى ، فقـد ظلـت المنـاطق الجغرافيـة التـى يسكنها الأكـراد فـى الـدول الثـلاث هـى أقـل منـاطق هـذه الـدول نمـوا وأكثرهـا فقـرا وبالتـالى أشـد سـخونه . وشـهدت المنطقـة ثـورات شـهيرة فـى أعـوام ١٨٣٩ ، ١٨٤٣ ، ١٨٥٥ الا أنهـا أحبطـت بقسـوة هائلـة مـن الجـانبين الـتركى والإيرانـى علـى حـد سـواء ، وجـاءت معـاهدة لـوزان ١٩٢٦ لتقضـى إلـى الأبـد علـى الحلـم الكـردى ، فقـد كـانت المعـاهدة واضحـة فـى ترسيم الحـدود بيـن العـراق وتركيـا وضمـت بموجبهـا الموصـل وشـمالها إلـى العـراق وهـى منـاطق سـكانها مـن الكـرد وهكـذا فـإن الرقعـة الأكـبر التـى يسكنها الأكـراد ، قـد قسمت بيـن ثـلاث دول هـى العـراق وتركيـا وإيـران ، ورقعـة صغيرة فـى سـوريا .

فبـدأ يظهـر مـا يعـرف بأسـم كردسـتان العراقيـة ، كردسـتان الإيرانيـة ، وكردسـتان التركيـة ، وبـدأ الأكـراد يدركـون أن حلـم إقامـة دولـة لهـم دونـه الصـراع مـع ثـلاث دول كـبرى .

ومـن المؤكـد أن مختلـف قـوات المتمرديـن الأكـراد قـد تـم إسـتخدامهما مـن قبـل القـوى الخارجيـة بإعتبارهـا أداة ملائمـة لإضعـاف الأنظمـة المحليـة . إذ سـاعدت بريطانيـا علـى إثـارة المشـاكل فـى منطقـة كردسـتان التركيـة فـى العشـرينيات ، وقدمـت أمريكـا و 'إسـرائيل ' الدعـم للأكـراد ضمـن نظـام البعـث العراقـى فـى السـبعينيات كمـا سـاعد السـوريون الأكـراد ضـد تركيـا والعـراق بين فـترة وأخرى ، كمـا وظفـت إيـران فـى ظـل الشـاه وفـى ظـل الجمهوريـة الإسـلامية ــ أكـراد العـراق وجندتهـم فـى خدمـة الصـراع الجغرافـى السياسـى لطهـران ضـد بغـداد ، وفـى المقـابل تقـوم العـراق بإنتظـام بدعـم أكـراد إيـران ضـد الجمهوريـة الإسـلامية ، وبصـورة ثابتـة تقريبـا ، كـان يتم التخلـى عـن الأكـراد فـى الوقـت الـذى لـم يعـد لهـم دور فـى خدمـة الأهـداف السياسـية للقـوى الخارجيـة .

وقد ظلت مشكلة الأكراد ، ذلك الشعب العريق الذى خرج منه قادة وحكام عظام مثل صلاح الدين الأيوبى ، مشكلة مستعصية على الحل ، لم تنجح أى من الدول الإسلامية الأربع التى تنتشر القبائل الكردية على حدودها ، وهى تركيا وإيران والعراق وسوريا فى علاجها والإستجابة للأمانى المشروعة للأكراد ، وأستغلت هذه المشكلة بصفة دائمة من أطراف خارجية لتوسيع شقة الخلاف وإثارة النعرات والمنازعات ، ليس فقط بين الدول الإسلامية الأربع ، بل وبين الفصائل الكردية ذاتها ، وزاد المشكلة الكردية تعقيد لعبة تغيير الولاءات للزعماء الأكراد أنفسهم وحيث وجدت هذه الدول أن من السهل شراء تأييد هذا الزعيم أو ذاك فقد ظل الشعب الكردى اليائس يدفع الثمن .

فالحزب الديموقراطى الكردستانى العراقى يستعين بحكومة العراق للقضاء على حزب الإتحاد الوطنى الذى تدعمه إيران وهكذا ، وها هى الولايات المتحدة الأمريكية تحاول التوفيق بين الفصائل المختلفة لتكون ورقة فى يدها لإعادة ترتيب الأوضاع فى المنطقة ، وفى إيران وتركيا والعراق ظلت مطالب الأكراد وتأكيد الذات من خلال إعتماد لغة رسمية بجوار اللغات الوطنية .

أوضاع دولية جديدة :

ولكن التطور السياسى الكردى ربما يأخذ على المدى الطويل شكلا مختلفا ، حيث تعمل قوى عاتية على أحداث تحول فى البيئة السياسية الكردية . فمع إنتهاء الحرب الباردة تم جزئيا تخفيف القيود والعوائق المتعلقة بتطوير المشكلة الكردية، لأن إنتهاء الحرب الباردة جعل المشاكل القومية والإقليمية تحظى بمعالجة أفضل من أجل التوصل إلى حلول إيجابية لهذه المشاكل .

وهكذا فإن هذه الظروف قد تكون ملائمة جدا للأكراد من أجل الضغط بإتجاه الحصول على دعم دولى لحل مشكلتهم ، كما أن إضطراب السياسات الإقليمية وإهتزازها فتح أمام الأكراد فرصة إضافية أخرى ، إذ أن الحرب العراقية الإيرانية وحرب الخليج ، والتغير الداخلى فى تركيا ، هذه كلها ساعدت على خلق حقائق جديدة للأكراد ولايمكن التراجع عنها الآن بسهولة ، فبعد أن كان الأكراد معزولين فى مناطقهم المنفصلة أصبحوا اليوم يتنقلون ويسافرون على نطاق أوسع ، ويدرسون فى الخارج ويلتقون مع الأكراد فى الدول الأخرى حيث يتبادلون وجهات النظر ، ويطورون إحساسا أكثر تماسكا بعرقيتهم الخاصة من أى وقت

مضـى ، كمـا سـاعدت المؤتمـرات الدوليـة فـى بـاريس عـام ١٩٨٩ ، وفـى ستكهولم عـام ١٩٩١ علـى إلتقـاء الأكـراد مـع بعضهـم وتركـيز إهتمـام عـالمى أكبر حـول مشكلتهم بإعتبارهم شعبا لـه حقوقـه الخاصـة .

واليـوم فـإن التحـالف الـذى يهـدف إلـى الإطاحـة بنظـام العـراق يسـاهم بخلق ظـروف لـم يسبق لهـا مثيـل فـى التـاريخ الكـردى وهـو إنشـاء منطقـة حكم ذاتـى بفـرض الأمـر الواقـع ، فـى ظـل حمايـة القـوة الدوليـة .

والسـؤال المطـروح الأن هـل سـينتهى إقتتـال الفصـائل الكرديـة بعضهـم مـع بعـض وهـل ينجحـون فـى إيطـال إتخـاذهم لعبـة الأمـم ، ومـا الوضـع الجديـد للـدول التـى يعيشـون فيهـا وخاصـة العـراق ؟

ثالثاً . التباين الاقتصادى

(١) . تمرد الشمال الإيطالى

وفى منتصف عام ١٩٩٦ قامت مظاهرات تضم عشرات الألاف من أبناء الشمال الإيطالى فى مدينة بونتيدا يهتفون بالإستقلال عن روما ، وذلك بعد ١٣٠ عاما من وحدة إيطاليا ، فقد إنقسمت البلاد معنويا ونفسيا بعد أن إنقسمت إقتصاديا ، وتألف ' حزب رابطة الشمال ' الذى يدعو للإنفصال وإعلان جمهورية ' بادانيا ' التى تشمل كل المنطقة الشمالية ، ويستند الإنفصاليون الإيطاليون فى حملتهم الإنفصالية إلى واقع معاش فى إيطاليا منذ عشرات السنين، ومن سمات هذا الواقع أنه على الرغم من وحدة اللغة والدين ، بل والمذهب الكاثوليكى ، توجد فجوة واسعة فى إيطاليا بين ثقافتى الجنوب والشمال ، فالجنوبيون متهمين بأنهم محبون للمرح ، موسيقى ، وغناء ، ورقص ، وفنون أكثر من حبهم للعمل والإنتاج ، وتحسين مستوى معيشتهم ، وهم متهمون بأنهم إستمرأوا العيش عالة على أهل الشمال ، وعلى فائض إنتاجهم ، بينما حقق الشمال الإيطالى نموا وإذدهارا إلى حد أن أصبح بلقب ' التنين الأوربى ' وأقام أكبر تجمع صناعى فى أوربا الجنوبية ، فإن منطقة الوسط والجنوب الإيطالى لم تحقق تقدما إقتصاديا يذكر ، وتبخرت المساعدات الأوربية التى بلغت نحو ٤٠ ألف مليار ليرة إيطالية خلال الفترة من ١٩٨٤ – ١٩٩٤ ، فى الجنوب ، كما يقولون بسبب سوء الإستثمار ، كذلك هجرة الجنوبيين إلى الشمال ، ذلك أن ٨٠ ٪ من رجال البوليس والمدرسين والبريد الذين يعملون فى الشمال هم من أبناء الجنوب ، ثم أنهم متهمون أيضا بأنهم جعلوا من الجنوب الإيطالى عشا للاجرام ، الدولى والأوربى وأساءوا الى سمعة الإيطاليين فى كافة أنحاء العالم ، ومن ثم يطالب بعضهم إذا لم يتم الإنفصال بفصل الميزانيات ، ومنح السلطة التشريعية والتنفيذية للمقاطعات ، ومازال الإيطاليون يحلمون بكلمات كافور صانع الوحدة الإيطالية التى قال فيها (لقد صنعنا إيطاليا ، والآن يجدب أن تصنع الإيطاليين) .

(٢) . ثورة الهنود فى المكسيك

فـى أوائـل عـام ١٩٩٤ قـامت ثـورة الفلاحيـن الهنـود فـى إقليـم (شـيابا) الـذى يقـع فـى جنوبـى المكسـيك ، ففـى هـذا الإقليـم يعيـش أفقـر فقـراء المكسيك، فرغم أن هذا الإقليم غنى بإنتاجـه الزراعـى ، وتخـرج منـه ٧٠٪ مـن الكهربـاء ، ويتمتـع بـثروة بتروليـة تجعلـه بالاضافـة الـى أن إقليـم التاباسكو المجـاور لـه مسـؤولا عـن نصـف إنتـاج المكسـيك مـن البـترول ، فـإن سكان شيابا الأصليين وهم الهنـود لايحصلـون علـى أى قـدر مـن هـذه الـثروة ، بل وتـتراوح عدد ساعات العمل لديهم بيـن ١٠ ، ١٢ سـاعة يوميـا ولايحصلـون سـوى علـى الحـد الأدنـى الـذى يضعهـم دون كافـة مسـتويات الفقر ، بينمـا يملك ٩٠ ٪ من ثروة الإقليم حفنـه مـن المكسـيكيين مـن أصـل أوربـى ، لذلـك كـانت ثـورة (الزباتيسـتا) أو جيـش التحريـر الوطنـى ، وهـذا الإسم نسبة إلى المنـاضل بطـل تحريـر الهنـود (إميليـا نوزاباتـا) الـذى قـاد ثـورة التحريـر بيـن عـامى ١٩١١ ، ١٩١٧ .

الفصل الثالث . زيادة السكان كمشكلة سياسية (سكان وإنتاج)

تكاثر الإنسان فى عهده الأول

كان الإنسان فى عهوده الأولى شأنه شأن جميع أنواع الحياة الأخرى يناضل الطبيعة والطبيعة تناضله ، يفترس الحيوان ، فلا ينسى الحيوان ، أن يرد له الجميل جميلين ، تصرخ معدته الخاوية فيترك كهفه ويضرب فى الأرض بحثا عن غذاء ، وإذا مرض فكثيرا ماكان المرض يغلبه ، وإذا برأ من مرضه وتغلب على حيوان بينته لم يسترح بل قام بمجازر بشرية ليقضى فيها على نفسه أو على أخيه . فإذا أضفنا إلى هذا إرتفاع وفيات الأطفال فلابد أن هذا الإنسان كان على درجة من الخصوبة عالية حتى أنه رغم هذا عمر وأنتشر فى الأرض ، وقد أيدت الأبحاث الأنثروبولوجية هذا القول .

وأما أسباب الوفاة فقد شاهد Weidenreich أن معظم حفريات إنسان العصور الحجرية تدل على نوع من الوفاة عنيف ، مثل الحرب ، صيد الرؤوس ، ألواد ، والأمراض ، وغير ذلك ، من ثم لم يكن إزدحام سكانى ، وإنما جماعات مبعثرة هنا وهناك حتى أن أعظم الكثافات كانت من البساطة لدرجة لايمكن وضع متوسط لها .

تكاثر الإنسان فى الحضارات الزراعية

وعندما بدأ يستقر ويعرف الزراعة بدأ يزداد نموه ، وتزداد كثافته ويقدر أن معدل مواليده كان يتراوح مابين ٢٥ ، ٥٠ فى الألف . فهذه النسبة لوحظت على الجماعات الزراعية سواء فى القرن السادس عشر فى إيطاليا ، أو السابع عشر فى فرنسا ، أو التاسع عشر فى الهند .

أما الوفيات فكانت عالية أيضا بين ٣٠ ، ٤٠ فى الألف ، ولذلك فالمجتمعات الزراعية زادت فيما يتراوح بين ٢٠ و ١٥ فى الألف . هذه الزيادة ليست ضئيلة ولكن يخفف منها أحيانا دورات نكبات قد تصل فيها الوفيات إلى مايتراوح بين ٢٠٠ و ٥٠٠ فى الألف ، وهذه الدورات كانت تتفق مع الحروب والمجاعات والأوبئة .

وقد أثبتت الأبحاث التى قام بها الأب Mols ، لأوربا فى العصور الوسطى هذه التقديرات ، وذهب إلى أن وفيات الأطفال فى الظروف العادية كانت تتراوح بين ٢٠٠ ، ٤٠٠ فى الألف . وجزء كبير كان يموت قبل السابعة من عمره حتى أن Jermo Cardano وهو طبيب

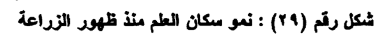
إيطـالى عـاش فـى القـرن السـادس عشـر ، كـان يقـول أنـه علـى إسـتعداد لأن يشـفى أى مريـض علـى شـريطة ألا تكـون سـنة أقـل مـن السـابعة أو فـوق السـبعين .

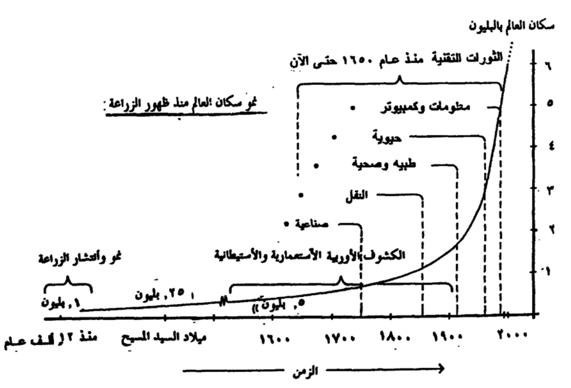
هـذه الوفيـات فـى مرحلـة الطفولـة ومـا قبـل الشـباب لاشـك كـانت تقطـع خـط الحيـاة .

تكـاثر الإنسـان فـى الحضـارة الصناعيـة

ثـم تغير الوضـع فـى المجتمـع الآلـى الصنـاعى تمامـا نتيجـة التقـدم العلمـى خاصـة فـى الفنـون الطبيـة والعلاجيـة .

فقد دلـت التجـارب علـى أن عمليـة رش جـزر الباسـفيك بمسـحوق الــ د . د . ت التـى قـام بهـا الجيـش الأمريكـى قبـل إحتلالـه لهـا أدت هبـوط نسـبة الإصابـة بالملاريـا ، وكذلـك كـان الــ د . د . ت أثـره الفعـال فـى جزيـرة سـيلان ، وفـى اليونـان ، فـإنخفضت معـدلات الوفيـات بعامـة ، وإنخفضـت وفيـات الأطفـال بخاصـة ، ممـا أفسـح الفرصـة للأطفـال لأن يصلـوا إلـى سـن البلـوغ ، ومـا كـان يصـل إليـه منهـم إلا القليـل . والكثـير مـن البـالغين لأن يصلـوا إلـى الشـيخوخة أو بمعنـى آخـر زيـادة متوسـط الأعمـار ، أو زيـادة أمـل الحيـاة .


شكل رقم (٢٩) : نمو سكان العلم منذ ظهور الزراعة



ميل الزيادة السكانية نحو الإرتفاع

لاحظ الباحثون أن معدل النمو السكانى أصبح فى إرتفاع مستمر ، وأنه يصعد بسرعة لم يعهدها أحد فى العهود الماضية ، فقد كان هذا المعدل ٧ فى الألف فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ثم إرتفع إلى ٢١ فى الألف بين عامى ١٩٦٥ ، ١٩٦٩ ، ولكن إنخفض إلى ١٦ فى الألف فى سنويا ، ومع ذلك تقدر الزيادة حاليا بنحو ١٠٠ مليون نسمة سنويا ، فسكان العالم يزيدون على ٥,٧ مليار (١٩٩٥) ويقدر بأنهم سيبلغون ٨ مليار عام ٢٠١٠ .

إن إزدياد السكان وحده لايعنى شيئا ، فقد تستمر الزيادة دون أن تسبب مشكلة لو كانت موارد العالم تكفى لإمداد كل فرد بحاجته .

الأرض :

ذلك هو الإنسان ، فماذا عن الأرض ؟ يقولون أن ٧٠ ٪ من مساحتها غير صالحة لإقامة الإنسان لشدة البرودة كما فى جرينلند والقارة القطبية الجنوبية أو لأنها صخرية لايغطيها إلا الرقيق من التربة إن وجد ، أو الجفاف الشديد الذى يستحيل معه النبت وييبس الأخضر . أما الـ ٣٠ ٪ الباقية ، وتقدر بنحو عشرة آلاف مليون من الأفدنة فلا تشتغل منها الآن إلانحو أربعة فقط ، أى أن نصيب الفرد فى العالم أكثر من الفدان بقليل ، بينما يحتاج الفرد إلى نحو ٢,٥ فدان لتمده بالحد الأدنى من الغذاء بتقدير دكتور Benett وبذلك لايخص الفرد مايحب أن يحصل عليه من غذاء .

علاقة الإنسان بالأرض :

معنى هذا أن إنتاج الأرض الحالية لايكفى ماعليها ، وأنه يجب ان يزداد لمواجهة الأفواه الجديدة كل عام من ناحية ، ثم يزيد مرة أخرى إذا تطلعنا إلى الأخذ بيد ثلاثة أرباع البشر الذين يستوى لديهم الوجود والعدم.

حقا لقد إزدادت الكمية المنتجة من الغذاء فى العالم بأسره بمقدار يتراوح بين ١٠ ٪ و ١٥ ٪ خلال السنوات الأربعين التى سبقت بداية الحرب العالمية الثانية ، غير أن الزيادة السكانية بلغت ٣٠ ٪ فى نفس تلك الفترة ، وكان للحرب العالمية الثانية أثرها الواضح فى نفس كميات الغذاء المنتجة حتى أن مستوى الإنتاج الغذائى قبل الحرب لم يصل إليه العالم إلا بعد إنقضاء ثلاثة عشر عاما من إنتهاء تلك الحرب .

من ثم دقت طبول الخطر ، بأننا نسير من سئ إلى أسوأ ، لأن السكان يزيدون بمعدل أسرع من زيادة إنتاج الأرض .

مالتوس ومصيدته :

والواقع أن هذا الناقوس سبق سماعه منذ نحو قرن ونصف على يد القس الإنجليزى مالتوس ، حين ذكر أن السكان يتزايدون بمتوالية هندسية أى بالتضاعف بالضرب (٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦) بينما الغذاء يتزايد بمتوالية عددية (٢ ، ٤ ، ٦ ، ٨) أى بإضافة ٢ ، وشتان بين التضاعف والإضافة فالتضاعف يؤدى إلى زيادة أكبر من الإضافة .

وحذر بأن الطعام لن يكفى مهما ضاعفنا إنتاجه إلا إذا توقف التضاعف البشرى ، غير أن هذا التضاعف العددى يبطئ أحيانا نتيجة للحروب والأوبئة والمجاعات .

وقد تعرض مالتوس للنقد المرير ، خاصة وأن الظروف فى تلك الفترة والتى أعقبتها لم تساعد على إنتشار مذهبه بل أحبطت فكرته ، ذلك أنه لم يعمل حساب لمساحات شاسعة خالية أو شبه خالية فى الأمريكتين وأستراليا ، فعندما بدأت أوربا فى الإزدحام إمتصت هذه العوامل الجديدة ذلك الفائض ، وكانت تقول هل من مزيد ، ثم ظهر إنقلاب صناعى قلب الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية وبدلهم من بعد عسرهم يسرا ، ومكنهم من أن يعدوا أو ينسحبوا فقط ثورة فى النقل تأخذ ما صنعت أيديهم وتأتيهم بطيب عيش منوع من أراضى بعيدة .

لامجاعة ولاقحط

غير أن هذا الرأى واجه معارضة الكثيرين ، وعلى رأسهم جون رسل كبير علماء الزراعة البريطانيين فرغم أنهم لاينكرون أزمة الطعام، ففى رأيهم أنه لن تحدث مجاعة فى المستقبل لأن الجوع ممكن تلافيه . فإلى جانب الإنفجار السكانى المتوقع فى نظر هؤلاء ، فإن هناك إنفجارا فنيا فنحن نعيش فى عصر مزيد من العلم والمعرفة .

وأنه من الممكن زيادة الإنتاج ، لأننا لانستغل من وجه الأرض أكثر من ثلث الواجب زراعته ، فإذا أكملنا الإستغلال فإن أرضنا تطيق البشر ثلاثة أمثال ما عليها .

تطبيق عملـى :

غير أننـا نلاحظ آراء الإقتصـاديين فـى هـذا المجـال ، فهنـاك فـرق فـى رأيهـم بيـن إمكـان إسـتخدام نـوع معيـن مـن الأرض فـى الزراعـة وبيـن إستخدامها الفعلى ، فعلى سبيل المثـال قد يقـال أنـه يمكـن زراعـة الصحـراء وجعلهـا تعـج بالنبـات ، ولكـن قـد يكـون هـذا غـير صحيـح مـن الناحيـة الإقتصاديـة ، فقد تكون تكلفـة المشـروع باهظـة لدرجـة تمنـع تنفيـذه ، وفـى المعادن يجب أن نفرق بين الوجـود المطلـق للمعـدن وبيـن الوجـود النسـبى لـه ، وكثيرا مـا تـؤدى دراسـات الجيولوجييـن إلـى حقـائق غريبـة غايـة فـى الغرابـة مـن الناحيـة الإقتصاديـة ، فمعدن النيكـل مثـلا ، إنتـاج العـالم منـه قليـل بالنسبة للمعـادن الأخـرى ، ولايستخرج إلا بمقـادير قليلـة فـى منـاطق معينـة مـن الأرض ، فكنـدا وحدهـا تنتـج ٨٠ ٪ مـن الإنتـاج العـالمى ، ومـع ذلـك فهذا المعدن النـادر نسبيا نجد أنـه فـى صخـور القشـرة يبلـغ ضعـف مقـدار النحـاس وخمسـة أمثـال الزنـك وعشـرة أمثـال الرصـاص ونحـو مائـة مثـل القصدير . لذلك كـان الفرق واسعا بيـن مجـرد الوجـود الجيولوجـى للمعـدن وسـهولة الحصـول عليـه إقتصاديـا .

وفـى ميدان الحشرات تعمل منظمـة الأغذيـة والزراعـة وكل دولـة جهدهـا ومـع ذلـك تستهلك هـذه الحشـرات فى الولايـات المتحدة الأمريكيـة التى بلغـت قمـة فـى التقدم الفنـى الحشرى ماقيمتـه ١٠٠٠ مليـون دولار سـنويا .

وفـى تفصيل هـذا الجزء مـن النبـات أو ذلـك نجده قد إرتبط عند الشـعوب بالعـادات الغذائيـة المنتشـرة فـى المنطقـة التـى يعيشـون فيهـا ، وليـس مـن السهل أن تغير فـى أذواق الطعـام ، فمـن السـهل أن يتغـير ذوق اللبـاس لأنـه يتوقـف علـى حكم المجتمـع الـذى نعيـش فيـه ، ولكـن الطعـام يتوقـف علـى حكم النفس واللسـان ، فهو شرطى المـرور الـذى يشـير إلـى إمكـان إبتـلاع هذا ولفـظ ذاك .

خريطـة العـالم لوحـة مـن الفسيفسـاء :

ولنفرض جدلا أن هـذه الإمكانـات ميسورة المنـال سـهلة التحقيـق ، سـنجد أن هنـاك مـن الأمـور مايستحق النظـر مـرة أخـرى ، فكثـير مـن الكتـاب الديموغرافيين حين يعـالجون مشـكلة الغـذاء، يعالجونهـا علـى أسـاس وجـود علاقـة توازنيـة بيـن المنتجـات الزراعيـة فـى العـالم وبيـن سـكانه ، أى يفكـرون علـى مستوى عـالمى ، وهـذا النـوع مـن التفكـير يـدل علـى التفـاؤل المفـرط ، فيحـق للمـرء أن يشـعر بالسـعادة والسـرور حينمـا يـزداد إنتـاج القمـح فـى العـالم بمعـدل أسـرع مـن معـدل زيـادة السكان . ولكـن ليـس فـى

ذلك حل للمشكلة التى تواجهنا ، فليس هناك مخزن عالمى يتجمع فيه المحصول ، فتقوم الحكومة العالمية بتوزيعه حسب الإحتجايات ، بل أن خريطة العالم السياسية تعددت ألوانها وتضاربت وأصبحت اشبه شئ بلوحة من المزايكو أو الفسيفساء . من الإتحاد السوفييتى الذى تربو مساحته على ثمانية أميال ونصف مليون ميل مربع إلى إمارة ليشتنشتين التى لاتزيد مساحتها على ستين ميلا مربعا . وحتى حبيبات هذا الموزايكو عرضة للتغيير بحيث يمكن للحبيبة أن تتمدد وتنكمش أو يصيبها إنقسام حسب الظروف السياسية .

ونتيجة لهذا أصبح المتوسط العام لما يخص الفرد فى العالم وهو أكثر من فدان بقليل ، أصبح غير ذى موضوع ، وأما الأقرب إلى الحقيقة فقد قام به السير جون رسل حيث قسم أقطار العالم إلى الأقسام الآتية :

١- أقطار يخص الفرد فيها (أكثر من ٢,٥ فدان) تشمل الأمريكتين واستراليا وشرق أوربا ، وهى فى بحبوحة من عيشها .

٢- أقطار يخص الفرد فيها (١ - ٢,٥ فدان) وتشمل غرب أوربا ووسطها وهذه الأقطار تكفى نفسها بنفسها من الغذاء بنسبة ٨٠ ٪ .

٣- أقطار يخص الفرد فيها (أقل من فدان) وتشمل بلجيكا وسويسرا وبريطانيا واليابان وهذه الأقطار مستوردة للطعام إعتمادا على صناعتها.

٤- أقطار يخص الفرد أقل من الفدان وهى الهند والصين وجنوب شرق آسيا بعامة ، وجمهورية مصر العربية . وهذه المجموعة الرابعة بإستثناء الهند أستبعدت اللحم من غذائها أو قللت منه وبذلك أمكن للفرد أن يعيش فى الهند على ٠,٨ من الفدان وفى الصين على نصف فدان .

تناقض غذائى

وليس أدل على التناقض الغذائى الدولى من أن الولايات المتحدة ظل بها فائض كبير عن حاجة سكانها من القمح والذرة ، والبيض واللبن ، والجبن ، بحيث أن تخزين هذا الفائض كان يكلفها نحو خمسة آلاف مليون دولار سنويا ووضعت المشروعات لشراء هذا الفائض ولتخزينه فى مخازن وصوامع هائلة وشجعت المزارعين ماليا للإقلال من الزراعة حتى يمكن إنتاج المحاصيل بالقدر اللازم للإستهلاك ، حتى لا تنخفض أسعارها نتيجة زيادة العرض على الطلب ، وهكذا ظلت الحكومة تشترى الفائض حتى أصبحت المخازن والصوامع لاتكفى لخزنه ، بدأت تستغل المدرعات والسفن الحربية فى التخزين ، كما دب الفساد إلى جزء كبير منه .

ثم أتت الحرب العالمية الثانية ، وحلت المشكلة لحاجة الجيوش إلى الغذاء ، ولكن ما أن طويت صفحة الحرب العالمية حتى عادت المشكلة تطل برأسها من جديد فوزعت منها إعانات للبلاد التى خربتها الحرب وبدأت تتخذ فى تصريف هذا الفائض أكثر من إتجاه .

ومنها بيع الفائض للدول الأخرى وتسديد الثمن بعملاتها المحلية أو بالدولار ، فإذا تم التسديد بالعملات المحلية فإن الثمن ينفق فى نفس القطر لمواجهة مصروفات السفارة فيه ومشروعات التبادل الثقافى وغيرها ، وإذا تم بالدولار يقسط على عشرين عاما ، وأحيانا يتم البيع بالمقايضة بالمعادن أو الخامات ، أى تقاضى الثمن بأى شكل من الأشكال.

وإتجاه ثان وهو المعونة فى حالة الكوارث كالزلازل أو القحط الفجائى فى بعض الأعوام ، وهذه حالات وقتية .

والإتجاه الثالث وهو الهبات السنوية ، وقد تمت الهبات منذ عشرين عاما لأسباب سياسية ، سواء تمثلت فى مشروع مارشال أو المساعدات الأمريكية لشان كاى شيك .

الأمر الذى يعنى أنه توجد حتى يومنا هذا هبات بالمعنى الحقيقى للكلمة وحتى هذه الهبات بدأت بعض الدول تعارض قبولها لأنها إستهلاكية وليست إنتاجية ، فهى لاتأخذ بيدهم لتساعدهم على أن يقفوا وحدهم ، بل تعطيهم سمكة لتخلصهم من الجوع يوما ، ولكنها لاتعطيهم شبكة تخلصهم من الجوع طول حياتهم .

وحتى البنك الدولى الذى يمكن أن تقترض منه الدول النامية لتطوير إنتاجها ، كان ينحرف أحيانا عن الطريق القويم ، ويقع تحت تأثير الولايات المتحدة الأمريكية ، وليس رفضه لتمويل السد العالى، وما تبعه من تأميم لشركة قناة السويس عام ١٩٥٦ ببعيد .

ولايسعنا قبل أن نترك هذه النقطة ، إلا أن نطرح مقارنة طريفة بين حالة الفرد فى الهند وزميله فى الولايات المتحدة الأمريكية .

قد يزيد الإنتاج فى الولايات المتحدة أو أستراليا بمقدار ٥ ٪ أو ٦ ٪ فإن هذا الإنتاج الإضافى ليس ذو فائدة كبيرة لسكان العالم فى مناطق أخرى مثل الهند أو الصين أو اندونسيا إلا إذا إستطاع سكان هذه الدول الأخيرة أن يبادلوا هذه المنتجات الزراعية بما عندهم من فائض فى هذا الإنتاج ، وما لم تتوفر هذه السلع المطلوبة فمن الصعب الحصول على المواد الغذائية وكلنا يعرف أن فائض هذه الدول النامية ضئيل .

المشكلة إذن ليست فى أن العالم يستطيع أن ينتج الطعام الكافى للعدد المتزايد ، ولكن المشكلة تظهر فيما إذا كانت الهند والصين تستطيع أن تستبدل ما تحتاجه بمنتجاتها ، هذا هو الوضع الصحيح للمشكلة .

المشكلة تزداد حدة

ويزيد من حدة المشكلة عاملان ، أولهما التوزيع غير المتساوى للسكان على سطح الأرض بحيث يتجمع نصف أولاد آدم فى شرق آسيا وجنوبها ، خلية نحل فى ١/٣٠ من مساحة اليابس ، بينما هناك مناطق تعانى تخلخلا سكانيا مع وفرة فى أراضيها كما فى كندا والبرازيل وأستراليا وغيرها [١] ، بحيث يمكن أن تعول عددا أكبر من السكان دون خفض لمستوى معيشتهم ، كما أن هناك مناطق أخرى يمكن أن ترتفع مستوى معيشتها بزيادة سكانها ، ومع ذلك لايستجيب السكان لما فى أيديهم من موارد .

وهكذا تجد الناس فريقين : قلة من الناس لها من الغذاء نصيب الفيل ، وكثرة ولها من الغذاء القدر الضئيل .

أما العامل الثانى فهو عدم تكافؤ الزيادة السكانية ، فأقل الناس زيادة فى الوقت الحاضر يملكون من الأرض ومن موارد أكثر مما هم بحاجة إليه ، على سبيل المثال فإن الزيادة الطبيعية لمعظم البلاد الأوربية كما يقول أينشتين ستنخفض فى العشرين عاما المقبلة بسبب كبر السن ومايؤدى إليه من قلة المواليد ، وزيادة فى الوفيات على العكس سكان الهند أو الصين أو اندونسيا فإنهم يزيدون دون النظر إلى مابين أيديهم من موارد . فنمو السكان فى الدول النامية يسير بدرجة عالية ، إن التقدم الطبى الذى وصل إليه الغرب بعد محاولات من التجربة والخطأ إستمرت لمدة قرنين ، قدم إلى هذه الشعوب خدمات جليلة فإنخفضت الوفيات بمعدل أسرع منه فى غرب أوربا ، فبعد القضاء على الملاريا فى سيلان، إنخفضت الوفيات من ٢٢ فى الألف إلى ١٢ فى الألف فى سبع سنوات من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٢ ، هذا المعدل فى الهبوط إستغرق فى بريطانيا ٧٠ عاما وفى جزر موريشس كان هناك هبوط من ٢٧ فى الألف إلى ١٥ فى الألف إستغرق سبع سنوات بينما إستغرق هذا الهبوط فى بريطانيا ١٠٠

---

[١] – يتجمع ٦٥٪ من سكان العالم فى ثلاثة أقاليم هى أوربا . جنوب آسيا (الهند والباكستان) الصين وهذه الأقاليم لاتزيد على ١٥ ٪ من مجموعة مساحة اليابس ، وهناك تجمعات تعد بعشرات الملايين كما فى مصر ونيجيريا وشرق أمريكا الشمالية واليابان .

عام . ولم يكن هذا الإنخفاض السريع عالية فى تلك المناطق بحيث تصل إلى ٢٥ فى الألف .

المشكلة فى إطار إقليمى

إذن كيف تحل الدولة النامية مشكلاتها السكانية ، وأقول مشكلاتها وليست مشكلتها لأنها فى الحقيقة تطوى بين ضلوعها مشكلات إجتماعية وإقتصادية وسياسية ؟ كيف تحل مشكلاتها فى إطارها الإقليمى ، لا فى الإطار العالمى ؟ كيف تلحق الزيادة الإنتاجية إكسبريس الزيادة السكانية السريع ؟

ياترى فلاحة الأرض فيها على الطريقة الهولندية ؟ إن هذه الطريقة تستلزم وجود آلات زراعية معينة ، وحتى هذه الآلات الزراعية لايمكن إستعمالها فى الهند أو الصين لوجود أعداد ضخمة من السكان (فى ظل الوضع الحالى) لاتجد عملا ، فما بالك بعد إدخال الألات الزراعية ؟ ستزداد الأمور لاشك تعقيدا ، تتضمن هذه الطريقة أيضا قسطا من المعرفة الفنية والخبرة عند المزارع ، وهذا يقتضى تدريب المزارعين الهنود والصينيين ولكن كم من الوقت يمر قبل أن تصل إلى النتائج الموجودة ؟ كما أن المزارع الأمى الذى تقدمت به السن سيعجز دون شك عن هضم هذه المعارف الجديدة . وقد يتحقق هذا ولكن فى المدى الطويل، فهذه التقديرات تتجاهل مفهوم الزمن أو تتناساه ، تنسى أن الصين تزيد كل عام مايزيد على ١٥ مليونا ، وأن الهند تزيد كل عام نحو ٦ملايين . وإنه إذا كان فى الإمكان زيادة الإنتاج الزراعى ، فيجب أن يكون فورا لأن كل عام يزيد المشكلة تعقيدا .

إذن فلنرجع إلى أوربا ، ماذا فعلت عندما بدأت تحس بضغوط سكانية ملحة فى بعض أطرافها سنجد أنها إستجابت بالتصنيع وبالهجرة ؟

تصنيع

والواقع أن التصنيع قد يقلب الأوضاع السكانية ، فبدلا من أن تكون الدولة قبل التصنيع مزدحمة بالسكان نجدها بعد التصنيع قد تكون فى حاجة إلى أيدى جديدة ، فالصناعة أحد المخارج الرئيسية من المصيدة المالتوسية ، لأنها ستشرب الفائض من سكان الأرض الزراعية . وكان هذا من العوامل التى هربت بها أوربا من هذه المصيدة .

ألا أنه فى الدول النامية تظهر بعض عقبات فى وجه التصنيع على نطاق كبير منها ضعف السوق الداخلى ، لأنه لايستطيع أن يستوعب

كميات كبيرة من السلع لضعف القوة الشرائية بين السكان ، لأن هذه الشعوب بحكم هبوط دخلها النقدى ، لن تستطيع أن تنفق إلا قدرا بسيطا من هذا الدخل على شراء المنتجات المصنوعة ، فالجزء الأكبر منه يتجه للمأكل والمشرب والمسكن . أى المطالب الضرورية للمعيشة ، وأن تبقى شئ للمصنوعات الضرورية مثل الملابس . أما الأسواق الخارجية فنجد أن الدول الصناعية القديمة قد إكتسبت معظمها ، ثم هناك عقبة وهى قلة رأس المال المستثمر .

هجـــرة

أن سياسة تقوم على تهجير سكان آسيا تهجيرا مصحوبا بمعونة مالية ومدروسة دراسة عميقة إلى بعض البلاد القليلة السكان ، لذات أثر عميق فى الأحوال الإقتصادية للبلاد التى سيهاجرون إليها . ولسنا ندعى أن الهجرة التى يوضع لها نظام مدروس من البلاد المخلخلة ستقضى على جميع المشكلات السكانية فى الصين ، أن الهند أو اليابان ، ولكن التهجير سيعمل على ظهور أثر الجهود الزراعية والصناعية ومايصحبه من إرتفاع لمستوى المعيشة ، فإذا إرتفع الشعب إلى مستوى معين ، فهناك رغبة فى التمسك بهذا المستوى والإرتفاع به أن أمكن ، ولكن لم يحدث أن كانت هناك رغبة لدى الأفراد أو المجتمعات فى الإنحطاط بمستواهم، ستنخفض معدلات المواليد بدورها تلقائيا . وتبدأ هذه المناطق تمر بالدور السكانى الذى مرت به دول غرب أوربا .

ثم هناك عامل آخر لايمكن إغفاله . وهو أن معظم المهاجرين ليسوا من العجزة المسنين ولا من الأطفال . ولكنهم فى الغالب من الشباب ذوى الإخصاب القادرين على الإنجاب . ومن هنا كان لابد من نقص فى مواليد الوطن الأم كلما هاجر منها عدد من الشباب .

سدود وموانع :

وتعترض فى وقتنا الحاضر قوانين الهجرة المختلفة التى سنتها الدول فإذا كانت الهجرات الجماعية فى الماضى قد حلت من مشكلة أوربا . إلا أن أمريكا لم تعد غابة مفتوحة أمام كل قادم . فبعد أن كانت تسير طبقا لما هو منقوش على تمثال الحرية فى نيويورك مخاطبة أوربا " إلىّ بالمتعب والفقير وبالجماعات المضطهدة التى تنشد الحرية . إلى بالتعساء الذين تلفظهم سواحلك . أرسلى هؤلاء المشردين والفقراء أرسليهم إلىّ ". أصبحت الآن تضع شروطا للهجرة تحدد عدد المهاجرين بنحو ١٥٠ ألف

نسمة سنويا . يقسم على أفراد القوميات المختلفة بنسبة عددها عام ١٩٢٠.

وترفض بعض الدول هجرة الأجناس غير البيضاء كالصينيين واليابانيين والهنود وسكان الملايو والباكستان والزنوج . هؤلاء منع دخولهم بتاتا بصفة المهاجرين إلى كندا وأستراليا وجمهورية جنوب أفريقيا . وهذه السياسة الإحتكارية للأرض إتبعتها دول مثل بريطانيا فى وقت ما ، وحتى تقيد الهجرة إلى مستعمراتها ، ولتكون هذه المستعمرات منفذا لفائضها السكانى ، خاصة كندا وأستراليا ، ولكن هذا النوع من الهجرة الأوربية لم يعد قادرا على ملء الفراغ الكبير . فهذه البلاد الأوربية لاتميل إلى الزيادة الكبيرة فى المستقبل كما رأينا ، وإذا وجدت زيادة فى بعض أجزاء أوربا إمتصتها أجزاء أخرى .

فالمهاجرون الإيطاليون يقبلون فى فرنسا بسهولة ، ويهاجر العمال البلجيكيون للعمل فى شمال شرق فرنسا ويرجعون إلى بلجيكا ، كما إستقبلت ألمانيا نحو نصف مليون إيطالى لتنشيط الصناعة فيها ، ثم أن الأوربى الذى يرغب فى الهجرة يود أن يذهب إلى بلاد أعلى مستوى ، فالهجرة على النقيض من الماء تسير من المستوى المنخفض إلى المرتفع.

فالنتيجة التى لامهرب منها هى أن الطراز الوحيد للمهاجر الذى ينجح فى تحويل الأرض الخالية إلى أرض زراعية هو الفلاح الأسيوى الصينى أو الهندى أو اليابانى . فأستراليا كما يقدر الجغرافى الكندى دكتور جريفث تايلور ، تستطيع أن تتحمل عددا يتراوح بين ٣٠ و ٥٠ مليونا بدلا من ١٤ مليونا الآن .

ولكن الأستراليين يطلقون على جيرانهم الآسيويين ، لقب الخطر الأصفر ويدعون أنه إذا تدفقت الهجرات الآسيوية ، فإن هذا سيؤدى إلى إنخفاض الأجور . ذلك أن التشريعات الصناعية عملت على رفع أجور العمال حتى غير الفنيين منهم .

كما نجحت فى خلق ظروف مناسبة لهم تعتبر بصفة عامة أكثر تقدما، مما وصل إليه الحال فى أوربا وأمريكا الشمالية . وربما هددت هذه الهجرات هذا المستوى المعيشى ، لإنخفاض مستوى معيشة الآسيوى وقبوله أجور أقل من الحد الأدنى . ولكن الرد على هذا أن الأسيويين إذا هاجروا فلرغبة فى رفع مستوى معيشتهم لا لخفض مستوى معيشة الشعب الذى إستضافهم ، ولايمكن أن نتخيل أن الأسيوى أو غير الأسيوى يحب الفقر ويعيش الكفاف .

ثم ينظـر الأسـتراليون إلـى الأسـيويين نظـر عنصريـة يلخصهـا Hughs أحـد رؤسـاء وزراء أسـتراليا فـى قولـه " إذا كـان لملاييـن البشـر الذيـن يزدحمون بالمناكب فى آسيا ، إذا كان لهـم حـق مشـروع فـى الهجـرة إلـى الأراضـى الخالية مـن السكان ، فإننـا لايمكـن أن نسـتبعد حقـوق سـكان أسـتراليا ذاتهـا فـى تنظيـم الهجـرة إلـى بلادهـم . أمـا إذا إعتبرنـا الهجـرة ضرورية وواجبة لحـل مشـكلات إكتظـاظ السـكان ، فمعنـى هـذا أن الأرض فـى النهايـة سـترثها الشـعوب المتخلفـة ، فهـى أكـثر الشـعوب تناسـلا بوجـه عـام ، فالأسـرة الأنجلو ساكسـونية المكونـة مـن ٣ أفـراد تصبـح بعـد الجيـل السـابع أو الثـامن ٣٤٨ فـردا ، بينمـا الأسـرة الصينيـة المكونـة مـن ٧ أشـخاص بعـد الجيل تصبح حوالى ٦٠٨٧ ، وهـذا معناه نهايـة المدنيـة " .

ففكرتـه قائمـة على العنصرية ، وهـى فكرة ثبـت خطؤهـا ، بـل لقـد ثبـت فـى أستراليا ذاتهـا أن الزيجـات الأنجلـو صينيـة لاتقـل نجاحـا عـن الزيجـات الأخـرى ، وفـى هـذا يقـول جريفـث تـايلور : " أن الأسـتراليات الأوربيـات الأصـل والمتزوجـات مـن صينييـن ، يعـش فـى سـعادة لاتقـل عـن سـعادة اللاتـى تزوجـن مـن أوربييـن " كمـا يصـرح مديـر القسـم الطبـى هنـاك بـأن الأطفـال المولودين يتمتعـون بصحـة أجـود .

مـا يقـال عـن قـدرة أستراليا عـن تخفيـف الضغـط السكانى ، يقـال عـن كنـدا التـى يبلـغ سـكانها ٢٢ مليـون نسـمة ، فإنهـا تسـتطيع أن تسـتوعب ثلاثـة أمثـال هـذا العـدد دون خفـض لمستوى معيشـة سـكانها .

كذلـك الحـال فـى أمريكـا اللاتينيـة وأرضهـا العـذراء التـى قـدر لهـا أن تسـتوعب ٢٥٠ مليونـا ، والتـى لـم تكـن لديهـا عقـدة اللـون والجنـس بـدأت للأسـف الشـديد تتـأثر فـى هـذه الناحيـة بأمريكـا الشـمالية . ونتيجـة ذلـك أصـدرت كثيـر مـن جمهوريـات أمريكـا اللاتينيـة القوانيـن التـى تحـد مـن الهجـرة إليهـا ، فـالبرازيل مثـلا حـددت عـدد المهـاجرين إليهـا مـن أى بلـد بحيـث لايتجـاوز ٢ ٪ ممـن وفـدوا إليهـا بيـن عـامى ١٨٨٤ و ١٩٣٣ ، ولعل الطريـف أن أكبر نصيـب للمهـاجرين (طبقـا لهـذا القـانون) للبرتغـال مـع أنهـا ليست مزدحمـة بالسكان ، ولا هـى فـى حاجـة ملحـة إلـى الإسـتفادة من هـذا القـانون .

مشكلة السكان مسئولية عالميـة :

هكـذا إزداد سـكان العـالم هـذا القـرن بمعـدل أعلـى منـه فـى أى وقـت مضـى، ويبـدو أنهـم سيزيدون مرتيـن أو ثـلاث مـرات قبـل أن يحـدث مايشـبه التوقـف ، وليسـت هنـاك طريقـة بطبيعـة الحـال لمعرفـة متـى يتـم هـذا التوقـف

فى الزيادة السكانية ، ولكن مايمكن قوله أنه إستنادا إلى ماحدث على فترات متفاوتة خلال العقد الماضى (فى فرنسا وبريطانيا ، والولايات المتحدة الأمريكية والآن إيطاليا واليابان والسويد) فهناك مؤشرات تدل على أنه مع التصنيع وزيادة الحضرية تصبح العائلة الصغيرة هى المستحبة ، ولحسن الحظ أن الثورة التقنية جعلت فى الإمكان زيادة إنتاج الغذاء وإستخدام موارد جديدة ، فى نفس الوقت الذى أدى فيه تقدم الطب إلى الزيادة السكانية الهائلة التى شهدها النصف قرن الأخير .

إختلاف مشكلات سكان الشمال عن سكان الجنوب

فـي الشمال الصناعي المتقدم ورغم المستوى المعيشى اللائق فى المجمل العام ، هناك مشكلات جديدة لم تكن لتخطر على بال أوربى فى نهاية القرن الماضى منها على سبيل المثال : تناقص عدد المواليد ، وإرتفاع نسبة الشيخوخة ، وتزايد الهجرة غير المشروعة وتفكك نظام الأسرة ، وبالتوازى مع ذلك تظهر مشكلات جديدة تفرض نفسها بعنف على النظم الأخلاقية والمعنوية منها الحمل المعملى بدون أب معروف أو بأب مات منذ سنوات ، والمطالبة بإباحة الإجهاض قانونيا ، وإجازة إنهاء الحياة بعد اليأس فى العلاج ، أنها مشكلات لاتقل أهمية عن بطالة الشباب والمخدرات ومرض نقص المناعة وتلوث البيئة والإرهاب .

أما في الجنوب فمشكلاته تذكرنا بتلك التى توقعها روبرت مالتوس فى منتصف القرن الماضى فالسكان يتزايدون بمتواليات هندسية ، على حين تتناقص إمكانيات المصدر الأساسى لإشباع الإحتياجات الضرورية، أى الأرض ، بكل مايصاحب هذا من أمراض ومجاعات وحروب وتصفيات عرقية . والأمر بالغ الخطورة بالنسبة للجنوب ، إذ تتكاتف فيها كل هذه الكوارث بشكل لايهدد الحياة نفسها فحسب ، بل وبما يهدد بإتساعها وإنتقالها إلى أوربا ، وقليلون حقا هؤلاء الذين يدركون أن هذه الآفات على نوعياتها فى كل من نصفى الكرة الشمالى والجنوبى متصلة غير منفصلة ، بحيث لم يعد ممكنا تصور حلول لها فى الشمال بمعزل عن الجنوب ، أو العكس .

أن المقارنة بين الماضى والحاضر تتوقف عند هذا الحد لأن الأزمة العالمية اليوم تحتوى على عوامل جديدة لامثيل لها فى العصور السابقة، وإذا كانت وجوه التشابه فى مشكلة محدودية ثروة الأرض عديدة ، فالفرق بين اليوم والأمس يكمن فى أن إستغلال الأرض وصل إلى أعلى مراحلة إلى جانب أن أى حلول جديدة كالتكنولوجيا البيلوجية فى الزراعة

تتطلب رؤوس أموال وتراكمات تكنولوجية لاتملكها البلدان الأكثر فقرا فى الجنوب ، إن دول افريقية وأمريكا الوسطى والشرق الأوسط والهند والصين ستواجه على الأقل فى العقود القليلة المقبلة ورغم الجهود الجبارة التى تبذلها ، مشكلة تضاعف السكان ، فالمشكلة السكانية أشبه بحاملة نفط هائلة الحجم يلزمها كثير من الوقت حتى تتوقف تماما ، مع ذلك فليس من المتوقع أن يتقدم هذا الإدراك نحو التوصل إلى سياسة كونية عامة ، بل يعتقد البعض أن الهوة ستتسع أكثر وأكثر بين الشمال والجنوب ، فإذا كان الشمال يمتلك الوسائل التى تسمح له التوصل إلى حلول لمشكلاته ، فإن التقدم التكنولوجى باهظ التكلفة بالنسبة للجنوب ، وخاصة بالنسبة لتلك البلدان التى لاتمتلك منذ الآن الإمكانيات أو البنيات الأساسية لذلك ، بما يعنى أن بلدان الجنوب متفاوتة الحظ فى إمكان التغلب على أزماتها .

وفى كل الأحوال فإن الهوة ستتسع أكثر وأكثر بين الشمال والجنوب (كما ذكرنا) لإن التحدى نفسه جديد على أجهزة الشمال والجنوب، بسبب الترابط والتداخل الآن بين مشكلات الشمال ومشكلات الجنوب ، ومن ذلك على سبيل المثال الترابط والتداخل بين الإنفجار السكانى فى الجنوب وتزايد الهجرة أو الهروب إلى الشمال ، وبين ثورة الصناعة الآلية وتفاقم البطالة فى الشمال والجنوب ، وبين إنتاج ثانى أكسيد الكربون فى الشمال وإهدار الثروات الطبيعية والمواد الأولية فى الجنوب، وبين تقدم التكنولوجيات المعلوماتية والمالية فى الشمال .



إن مـايزيد علـى ١,٣ بليـون مـن سـكان الأرض يعيشـون دون مسـتوى الفقر ، وليس مؤكدا أنهم ينطلقون إلى الرخـاء علـى الطريقـة الغربيـة كمـا يشـاهدونه علـى شاشـات التلفـيزيون ، وإذا كـانت الإصلاحـات البنيويـة فـى البلدان النامية تلقى مقاومـات عنيفـة ، لأنهـا تتجـاوز أحيانـا حـدود مـا هـو محتمـل إنسـانيا ، فـالبعض قـد لجـأ إلـى الهجـرة ولكـن الأغلبيـة تلجـأ إلـى الإنغـلاق والإنطـواء ، إن الإرهـاب الأصولـى يجـد تربتـه الخصبـة ليس فـى بـؤر الفقر والبؤس وحسـب بـل أنـه يعتمـد علـى الكتـل البشـرية التـى تتحمـل فـى صمت غيـاب رعايـة المجتمـع لهم وإهمـالهم وكـأنهم منفيون فـى وطنهم.

هـذا التـأثير المباشـر لإتسـاع هـوة الفقـر وتفـاقم البـؤس فـى الداخـل ، مصحوبـا بـتزايد عـدم التفاهم بيـن الشـمال والجنـوب ، وتزايـد غضـب سـكان الـدول الناميـة أمـام العوائـق التـى تفرضهـا المؤسسـات الدوليـة علـى خطـط التنميـة ، ومحـاولات الخـروج من الأزمـات الإقتصاديـة الطاحنـة .

واقـع الأمـر أن الأقطـار الفقـيرة أكـثر حاجـة لدعـم ميزانيـات للأمـن الغذائـى والصحـة والتربيـة والإسـكان ، أن تكنولوجيـا التصنيـع الآلـى والزراعـة البيولوجيـة والإتصـال سـتفيد الـدول ذات النمـو المتوسـط التـى تملك البنيـات اللازمـة ولكنهـا لـن تفيد الأكـثر فقـرا .

إن تـرك السـكان يـتزايدون بهـذه المعـدلات دون إشـتراك العـالم المتقـدم سوف يحولهـا إلـى مشـكلة سياسـية وإقتصاديـة عالميـة تمـس البشـر جميعـا المتقـدم والنـامى علـى السـواء ، ذلـك أن الـدول التـى تواجـه هـذه المشـكلة سـوف تخصـص مبـالغ مـتزايدة لإسـتيراد المـواد الغذائيـة الضروريـة لإطعـام أفـواه الملايين مـن المواليـد الجـدد كـل عـام ، ومعنـى هـذا تقليـص المبـالغ اللازمـة لأغـراض التنميـة الزراعيـة والصناعيـة ، وبالتـالى سـيتقلص حجـم إسـتيرادها مـن الـدول الصناعيـة ، والتـى لـن تجـد أسـواقا لتصريـف منتجاتهـا، وبالتـالى تغلـق مصانعهـا وتتفشـى فيهـا البطالـة وقـد تنهـار بعـض إقتصادياتهـا.

وفـى نفس الوقـت لاشـك أن الـدول تعـانى نقصـا فـى المـواد الغذائيـة وليسـت لديهـا القـدرة الإقتصاديـة لإسـتيراد المـواد التموينيـة ، سـتضغط علـى الـدول المجـاورة ، ولـو أدى الأمـر إلـى الإلتجـاء إلـى النـزاع المسـلح .

لابـد إذن مـن حـل المشـكلة علـى المسـتوى العـالمى ، وإعتبـار البشـر جميعـا مسـؤلين عـن حلهـا : المتخومـون بـالغذاء وذوو المسـغبة ، الذيـن لديهـم أراضـى خاليـة لاتسـتغل علـى الوجـه الأكمـل ، والذيـن ليـس لديهـم منهـا شـبر غـير مسـتغل ، ونظـن أن مليـار دولار تصـرف يوميـا علـى السـلاح للخـراب، يمكـن أن تنخفـض إلـى الربـع مثـلا ، ويوجـه البـاقى لصـالح البشـرية .

الحـــدود الســـياسية ومشــــكلاتها

الفصــل الأول . الحــدود الســياسـية

التخوم والحـدود

تعتبر دراسـة التخـوم والحـدود السياسـية مـن الموضوعـات الهامـة التـى تـدرس فـى الجغرافيـة السياسـية ، مـن هنـا كـان مـن المفيـد فـى بدايـة هـذا الموضـوع تفسير مفهـوم التعبـيرين ، وفـى الحـق نجـد أنهمـا مترادفـان فـى الإسـتعمالات العاديـة لغـير الفنيين ، فـالحدود الدوليـة يعـبر عنهـا أحيانـا السياسـيون والمؤرخـون وغـيرهم بتعبـير International Frontiers وأحيانـا International Boundaries وليـس مـن تفسـير لهـذا التعميـم أو الخلط سوى عدم وضـوح الرؤيـة فـى حـدود كثـير مـن الـدول ــ بإسـتثناء حـالات قليلـة ــ لنقص معرفتهـا الجغرافيـة ولعـدم وجـود خرائـط تفصيليـة لهـا، وذلك حتـى فترة قريبـة . ولكـن مـع تقدم علـم المسـاحة وأجهزتـه ، وتقـدم فـن الخرائـط ، وتطـور الـدول إلـى مـا هـى عليـه الآن أصبحـت غالبيـة الحـدود ليست واضحـة بجـلاء فحسب ، بـل محـدودة على الطبيعـة أيضـا .

ونعود فنقول مـرة أخرى قبل أن يعبأ فـى هـذه الوحـدات السياسـية كـانت هنـاك مسـاحات واسـعة من الأرض غـير الصالحـة للتوطـن البشـرى أو غـير جذابـة لظـروف طبيعيـة غـير مواتيـة ، كـأن تكـون مغطـاة بالمسـتنقعات أو الغابـات أو غير ذلـك مثـل هـذه المنـاطق كـانت تقـوم بوظيفـة منـع الإتصـال وكـانت تـترك كمنـاطق دفاعيـة ، تفـرق بيـن مجموعـات بشـرية تعيـش علـى جوانبهـا ، وتنمـو فــى أمــان وإطمئنــان ، ومـع مـرور الزمـن تغلـب الإنسـان علـى هذه العقبات الطبيعية بطريـق أو آخـر ، ودخلـت هـذه المنـاطق داخـل الوحدات السياسية ، حتـى فـى المنـاطق الصحراويـة أصبحـت تمتـد سـيطرة الدولـة حتـى تتقابل مـع سيطرة دولـة أخـرى . مـن ثـم يمكـن أن نفـرق بيـن التخـوم Frontiers والحـدود Boundaries كمـا يلـى :

١- التخـوم عبـارة عن مسـطحات من الأرض ، بينمـا الحـدود عبـارة عـن خطـوط .

٢- الأولـى يمكـن القول بأنهـا طبيعيـة لأنهـا أجـزاء مـن سـطح الأرض . بينمـا الثانيـة أختيرت وحددت بواسـطة الإنسـان .

فوادى الراين مثلا يعتبر منطقة تخوم طبيعية بين فرنسا وألمانيا ، ولكن إستخدام النهر ذاته كحد فاصل بين ألمانيا وفرنسا يعطى هذا الخط صفة صناعية . وكذلك الحال فى جبال الألب تعتبر منطقة تخوم بين أيطاليا وفرنسا ولكن خط الحدود نفسه ما هو إلا خط إستقر عليه الرأى أخيرا كحدود بعد نحو قرن من التعديل والتغيير والإتفاق .

٣- يمكن أن يتضح هذا أكثر إذا عرفنا أن التخوم سواء كانت طبيعية، لغوية أو دينية لايمكن تحريكها أو زحزحتها ، قد تفقد بعض الخصائص التى أعطتها صفة التخوم ، ولكنها تظل فى موضعها على عكس الحدود التى تتغير وخاصة مناطق الصدام .

٤- يشتق لفظ **Frontier** من **Front** أى المقدمة **foreland** الأراضى المتقدمة وأحيانا تسمى **borderland** وكلها على هامش الدولة، وهى عادة الأراضى الفاصلة بين معمورين **Ecumene** زراعى ورعوى مثلا ، ومع التطور يتقدم كل معمور نحو التخوم ، وتصبح منطقة إلتقاء مجتمعين ، وبالتالى لم تكن التخوم فى الذيل ، بل فى مقدمة الدولة أما لفظ **Boundary** فيشير إلى إرتباط السكان داخله وقد عبر عن ذلك **L. Kristof** بقوله :

all that which is within the boundary is bound together that is, it is fastened by internal bond .

٥- كانت التخوم تقوم بوظيفة منع الإتصال بين الجماعات أو الدول ، بسبب طبيعتها الطاردة ، بينما الحدود السياسية اليوم لاتقوم بهذه الوظيفة، بل على العكس يتم عن طريقها الإتصال العضوى بين سكان الدول ، السكان من كل جانب يتحركون عبرها ، من ثم فهى خط إتصال وإحتكاك

٦- توجيه التخوم خارجى **Outer Oriented** بمعنى أنه لاسلطة للظهير عليها ، كما تبين لنا دروس التاريخ أن سكان التخوم يدبرون أمورهم بعيدا عن السلطة المركزية ولايشعرون بأنهم مرتبطون بهذه السلطة أو يدخلون فى نظامها ، عكس الحدود فهى ذات توجيه داخلى **Inner Oriented** فالحكومة المركزية هى التى خلقتها وهى التى تحافظ عليها ، وليس لسكانها حياة خاصة ، لأنها غير موجودة من الناحية المادية ، فهى مجرد رمز على الخريطة وإذا كانت قوى الجذب والترابط يجمع بينها خط الحدود ، فإن ناتجة عن القوى الطاردة .

وقد قامت البحار والغابات الفسيحة والمناطق الجبلية ، ومناطق المستنقعات والصحارى كحواجز ضد التوسع البشرى أو الإختلاط ، ولكن بدأت وظيفتها تتعدل تبعا للنشاط البشرى ، وتقدم وسائل المواصلات .

فجبال الأبلاش كانت التخوم الغربية للثلاثة عشرة مستعمرة على الساحل الشرقى للولايات المتحدة فى مبدأ إستعمار القارة . وعندما إكتشفت الأودية التى تصل الساحل بالداخل فقدت هذه الجبال وظيفتها كتخوم لهذه المستعمرات وحلت محلها برارى غرب الوسط . وهذه لم تلبث أن حلت محلها الجبال الغربية حتى وصلت أخيرا إلى المحيط الهادى .

ضرورة الحدود السياسية فى العصر الحديث

أن الدولة الحديثة لابد لها من حدود التخوم ، الحدود تبين المدى الذى تمارس فيه الدولة سيادتها بل واللغة التى سيتكلمها الملايين والأفكار التى ستلقن للناشئة والكتب والصحف التى سوف يتمكن السكان من قراءتها والعملة التى سيستعملونها وأحيانا الطعام الذى يتناولونه والجيش الذى سيدخلونه للدفاع عن الأرض وللحدود السياسية أثرها أيضا على النظم المتبعة داخل الدولة ويتضح هذا فى الوظيفة التجارية للحدود، فيمكن للحكومة أن تقيم حاجزا جمركيا عاليا ضد المنافسة فى أسواقها ؛ وبالتالى تساعد على نمو صناعاتها ، وفى نفس الوقت قد تفصل بين مجتمعين يضمان نظما ومؤسسات مختلفة ، وقد يكون هذا الإختلاف حادا كما هو الحال فى الحد السياسى بين ألمانيا الغربية وهولند ، أو ألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا .

أى أن الحدود تعتبر الفاصل بين سيادة دولة أخرى . فهى ذلك الخط المحدد الذى تتقابل عنده سيادتان ، فقد مضت تلك الفترة التى كانت تفصل فيها سيادة دولة عن سيادة الأخرى بواسطة مساحة كبيرة من الأرض أى تخوم . إذ كانت سيادتها الفعلية تتضاءل تدريجيا بالبعد عن مركز الدولة .

وهكذا إختلفت وتغيرت طبيعة الحدود على طول العصور التاريخية بسبب إختلاف وظيفتها ، وهى فصل السيادات بعضها عن بعض .

فالإمبراطوريات القديمة كالإمبراطورية الصينية والرومانية كانت لها حدود فاصلة وواضحة على الأقل حول جزء كبير من مساحتها ، وكانت

وظيفتها عند الرومان هى فصل المتحضرين عن بقية الشعوب الأخرى الهمجية ، فكان حدهم فى أوربا على طول خط يمتد من الراين إلى الدانوب ، وعززوه بالأسوار فى شمال إنجلترا وجنوب ألمانيا وبالقرب من مصب الدانوب ، هذه الإنشاءات ليست لمقاومة الغزو بطبيعة الحال، ولكن إختراقها بالنسبة للبرابرة معناها الحرب . كذلك الحال فى سور الصين العظيم ، وإن كان من الناحية الحربية أكثر فعالية من السور الذى بناه الأوربيون ، إلا أنه كان فى مغزاه يفصل ماهو صين عما هو غير صينى . ولم يكن الرومان ولا الصينيون هم الوحيدين الذين بنوا هذه الحوائط . وإذا كان مفهوم السيادة فى العصر الحديث بمعنى أنها سيادة على مساحة معينة من الأرض وعلى الذين يعيشون فوقها إلا أن مفهوم السيادة يختلف عما كان عليه فى العصور الوسطى ، فالسيادة الحديثة سيادة إقليمية بينما السيادة فى العصور الوسطى كانت شخصية ، سيادة بشرية فسيادة الإقطاعى أو الأمير لا حدود أرضية لها ولكنها تمتد بإمتداد الأشخاص أو الناس الذين يفرض عليهم سيادته ، ولم تكن حماية الفرد حينئذ ترجع إلى إنتماء الفرد إلى شخص قوى ، فيصبح رجله ، يقدم له فروض الولاء والطاعة كما يقدم له الخدمات المختلفة نظير حمايته له . كان هذا بدوره ـ أى البارون ـ أو الإقطاعى يخضع لسلطة إقطاعية أعلى وهى الأخيرة قد تنتهى إلى سلطة الملك . ولم تكن هناك مشكلة حدود لدى الملك . إذ لم يكن هناك نظام ضرائبى عام ، إنما كانت هناك فئات تدفع دون أخرى ، كالتجار ورجال الدين وكان الفرسان يؤدون ضرائبهم على هيئة خدمة شخصية فى الجيش لمدة معينة أو يدفعون بعض المال بدلا من الخدمة . ولم تكن هناك ضرائب على الأرض ، بالمعنى المفهوم . ومادام الملك لايجمع ضرائب على الأرض فمن المعقول ألايكون هناك إهتمام بحدود هذه الأرض غير أن الإهتمام بحدود الأرض كان أظهر فيما يختص بنظر الدعاوى والشكاوى ، فنظرها كان مصدرربح أو رزق للبارونات الذين كان لهم حق سماع هذه الدعاوى فكان النزاع يدب بينهم على الحدود الجغرافية التى تفصل بين حق كل منهما فى سماع هذه الدعاوى وقد أدت هذه المسألة إلى ضرورة تخطيط للحدود .

وكان التحول من مفهوم الحدود فى العصور الوسطى إلى العصور الحديثة مرتبطا أشد الإرتباط بظهور دول القوميات ، فكما قلنا كانت دولة العصور الوسطى فردية شخصية ، يمكن لذلك أن يقسمها بين أولاده أو يمكن أن يبيع أو يتنازل عن جزء منها ، فلم تكن تعبر عن رغبة مجموعة من الأفراد فى العيش معا تحت ظل حاكم واحد . فالشعور

القومى ثمرة نضجت ولكن ببطء ولكن الدولة القومية مادامت قد ظهرت فلابد من تطور مفهوم الدولة .

فلم يعد السكان عبارة عن تابعين يدفع بهم من حاكم إلى آخر ، فقد أصبحوا على الأقل مجموعات من الناس ذوى ميول وإتجاهات واحدة ، تميل إلى الإنتماء إلى هذه الدولة أو تلك ، ومع نمو القوميات كان لابد من تحديد واضح للحدود مع مراعاة ميول هؤلاء السكان وشعورهم .

وإذا كان تاريخ الحدود يتضمن زيادة التحديد والوضوح فى الحدود ثم يشمل أيضا زيادة الموائمة بينها وبين الأصول الجغرافية ، كمراعاة القوميات واللغات والنواحى الإقتصادية وغيرها ، فإنه يمكن القول بأن العملية الأولى قد تمت ، بينما العملية الثانية لم تتم بعد فالحد المثالى هو الذى يفصل بين شعبين ذوى حضارتين مختلفتين ، وفى نفس الوقت يجب ألا يخلق مشكلات بسبب فصله وحدات وظيفية . كأحواض فحم أو نظم رى ، وإذا كان لهذا الحد وظيفة حربية فقد تضاعفت أهميته وزاد نجاحه.

وفى الحق لايوجد حد سياسى فى العالم يجمع بين المميزات جميعا ، فمعظم الحدود السياسية ظهرت بأوضاعها التى عليها نتيجة ضغوط مختلفة ومنها ما هو مباشر أى نتيجة لعلاقات الدولة مع الجيران ولكنها أحيانا ماتتعدى هذا إلى علاقات غير مباشرة أى حلفاء وأعداء هؤلاء الجيران .

غير أن زيادة الوضوح فى تحديد الحدود ليس معناه أنها ليست عرضة للتغير ، فمعظم الحدود هى حدود قومية بإستثناء حدود بعض المستعمرات أو التى كانت خاضعة للإستعمار ، والحد بين القوميات المختلفة غالبا مالايكون دقيقا ، فالمجموعات السكانية تعيش مختلطة ببعضها على طول نطاق عريض بين هذه القوميات من ثم فالإختلافات أو تغيير الحدود عبر هذا النطاق العريض من الأمور المحتملة ويكون تحديد الخط وتغيره فى هذا الجانب أو ذاك تبعا لإختلاف وتطور ميزان القوى على جانبيه ، وليس من الضرورى أن يسير هذا مع الوضع الصحيح والمعقول فى معظم الأحوال . وهذا واضح فى كثير من الحدود الأثنوجرافية فى أوربا مع نهاية الحرب العالمية الأولى ، فقد إعتدى على الوضع الصحيح للحدود فى كل من بلغاريا والمجر لصالح بولنده وتشيكوسلوفاكيا ، ولعل هذا كان من الأمور التى بررت تعديل هذه الحدود قبل الحرب العالمية وأثنائها .

تعيين خط الحدود ورسمه

الأصل فى وصف الحدود فى المعاهدات أن يكون دقيقا ومفصلا لمختلف أجزاء الحد ، لذا يراعى إستخدام المصطلحات الفنية المعروفة والتى لاتتحمل التأويل وإيجاد مواقع يسير بينها الحد حتى يسهل الأمر مع اللجنة التى ستتوى تعليمه ، وتبدأ عملية التخطيط السياسى بالإتفاق على موائد المؤتمرات على الخط ، وعادة ما يعقد هذا الإتفاق أناس ليس لهم خبرة بالأراضى المقسمة ، وإنما يستمدون معلوماتهم من التقارير التى يضعها المختصون ، ومن الخرائط التى غالبا ما تكون بمقياس صغير ، ويوصفون الخط والأرض التى يمر فيها بأنه على سبيل المثال يمتد من النقطة (أ) إلى النقطة (ب) أو من الظاهرة كذا ، أو بعده عن هذه الظاهرة بمسافة كذا ، وقد تكون هذه الظاهرة نهرا أو تلا أو طريقا...إلخ، وكلما كان الوصف تفصيليا تقل إحتمالات النزاع فيما بعد، وتعرف هذه العملية الأولى بتعريف **definition** الحد السياسى .

وبعد ما ينتهى واضعوا المعاهدة من عملية تعيين الخط ، تنتقل العملية إلى المختصين فى علم الخرائط والمساحة حيث يستخدمون الخرائط ذات المقياس الكبير والصور الجوية لرسم الحد السياسى وتعرف هذه العملية ترسيم الخط على الخريطة **Delinitation** وقد يستغرق الفرق بين العمليتين السابقتين عشرات السنين .

وأخيرا تأتى عملية **تحديد الخط على الطبيعة demarcation** حيث يقوم مندوبون من الطرفين ومعهم فريق من المساحين ومعهم نص المعاهدة والخرائط التفصيلية لتحديد الخط على الطبيعة ووضع علامات ، قد تكون أكواما من الحجارة أو ظاهرة طبيعية أو كتلا من الأسمنت ، وهى عملية مكلفة للغاية لذلك فالعملية الأخيرة مؤجلة فى معظم الأحيان.

وفى حالة التنفيذ الفعلى يجب على اللجنة أن تراعى كثيرا من الأمور التى تظهر على الطبيعة ولاتظهر على الخريطة كعدم فصل قرية عن حقولها ، وبلدة عن مورد مائها ، وجبانة البلد الذى دفن فيه أمواته .

تصنيف الحدود

التصنيف الوظيفى

يقصد به التصنيف القائم على أساس العلاقات الحضارية ، أى أنها تنظر إلى علاقة الحدود بالمظاهر البشرية كانماط الإستيطان وإستخدام الأرض ، وتوزيع السكان فى وقت تحديد الخط السياسى وهى من هذه الناحية تقسم إلى ثلاثة أقسام هى :

١- حدود سابقة Antecedent لنمو جميع المظاهر الحضارية للشعب الذى تضمه وبعد نمو المجتمعات المختلفة من الجائز أن تكيف نفسها مع الحدود التى وضعت من قبل كالحد بين كندا والولايات المتحدة الأمريكية الذى إتفق عليه وعدل بإتفاقيات ١٧٨٢/ ١٨٤٦ ، فهو ينتمى لاشك إلى هذه المجموعة . ففى هذه الفترة لم يكن هناك مستقرون أو مستوطنون لمنطقة الحدود إلا قلة ، وبعض الصيادين من الهنود الحمر هنا وهناك مثل هذا الحد السياسىكان سابقا لمد الخطوط الحديدية والطرق، وقبل ظهور المزارع والمصانع والمدارس على جانبيه ، وإن كان دكتور هارتشمون يعتبر أن مجرد وجود الهنود الحمر وبعض الصيادين هو بداية لتطور الإستيطان لذلك فهو يفرق بين الحد السياسى " السابق " والحد السياسىالرائد Pioneer فالأخير يمتد فى أراضى غير مسكونة تماما وغير مستخدمة ولذلك يصفها بالأرض العذراء ، كما هو الحال فى الحد بين كندا وألاسكا الذى إتفق عليه بموجب معاهدتى ١٨٢٥، ١٨٧٢ يجرى فى أرض مختلفة لايسكنها أحد المستوطنين ، ثم بعد ذلك مدت الطرق وأقيمت المطارات . . . إلخ .

٢- حدود تالية Subsequent لعملية تكون القومية أو النقط الفاصلة بين الأقاليم الجغرافية أو الحضارية أى فاصلة فى الغالب بين الحضارىالمعين لشعب من الشعوب . وهذه فى الغالب تتفق مع حدود القوميات وفى الحق هناك ميل لأن تقترب الحدود وخاصة فى أوربا تدريجيا من الأقسام الحضارية التى تخلقها الإختلافات اللغوية . ومن هذه الأمثلة أيضا التقسيم الذى حدث فى شبه القارة الهندية إلى هند وباكستان، ويمكن أن تضيف إلى هذا أن عمليات تبادل السكان التى حدثت أو تحدث، ما هى إلا خطوة نحو ضم المجموعات المتجانسة داخل حد سياسى واحد. كذلك تدخل الحدود السويسرية ضمن هذا النوع لأنها تفصل الذين يتكلمون الألمانية عن ألمانيا والذين يتكلمون الفرنسية عن فرنسا وهكذا ، وكذلك الحدود التى تفصل ألمانيا الشرقية عن الغربية

ولمعرفة مدى صعوبة وخطورة الحدود التالية ، لن نجد خيرا من الحدود الهندية الباكستانية ، فقد ظهر بعد تقسيم شبه القارة الهندية أن باكستان ضمت ٢/٣ عدد المسلمين (٩٢ مليونا حينئذ) على حين ضمت أيضا ٧٪ من مجموع الهندوس (٢٢٥ مليونا) . ولم يؤثر هذا التقسيم فى المسلمين والهندوس فحسب ، بل كان هناك عدد ضخم من السيخ فى البنجاب (باكستان) وكان قادتهم يكنون العداوة للمسلمين ، وقامت مذابح ضخمة بين الجماعات المختلفةقبل يوم الإستقلال وهو ١٥ أغسطس ١٩٤٧ ، فأعلن قادة السيخ الثورة ، وقامت المذابح لاتفرق بين ذكر أو أنثى ، كهل أو طفل ، ومع نهاية شهر أغسطس بدأت عمليات هجرة ضخمة فى إتجاهات متعددة ، يترك فيها البشر كل شئ ، ويحاول الإنسان أن يخلص بحياته ، المسلمون يتجهون غربا ، والسيخ والهندوس يتجهون شرقا ، ليس لديهم خطة وليس هناك تخطيط أين يأوون أو ماذا سيعملون، وليت الهجرة كانت وسيلة للنجاة ، بل كانوا يذبحون فى الطريق ، وتقلب القطارات والسيارات ، ولايعرف عدد الذين تركوا مواطنهم الأصلية ، وإن كانت التقديرات تعطهم خمسة عشر مليون نسمة!!

٣- وهناك الحدود الموضوعة أو المفروضة **Superimposed** وهذه وضعت بعد توطن السكان أى تشبه الحدود التالية (التى ذكرناها) ولكنها تختلف عنها فى كونها لاتراعى الفواصل الحضارية ولاالخصائص القومية للمنطقة موضوع التقسيم منها الحدود الأفريقية فكل منهما يقسم قبيلة أو أكثر من قبيلة ومنها كذلك خطوط الهدنة التى تترك أحيانا دون تعديل كالحد بين بلجيكا وهولند ، وبين كوريا الشمالية والجنوبية ، بين فيتنام الشمالية والجنوبية خطوط الهدنة فى فلسطين المحتلة ، كلها خطوط لوقف القتال ولكن لم تعدل كما لم تؤيدها أى إتفاقات دولية ، ومنها الحد السياسى بين ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية ، والحائط الذى يفصل بين برلين الشرقية وبرلين الغربية الذى قسم مدينة ظلت عاصمة لدولة واحدة لقرون عديدة . ومثل هذا النوع من الحدود يجد معارضة من السكان ، لذلك كثيرا مايشتد الضغط على هذه الحدود ، وبالتالى يبدأ النزاع بعد خروج المستعمر ، وهذا ما حدث بالنسبة لكثير من الحدود السياسية فى أفريقية (النزاع الصومالى الأثيوبى والصومالى الكينى ... إلخ) ويتبادر السؤال وهو إلى أى حد يظل هذا النوع يقوم بوظيفته فى الفصل بين الأمة الواحدة وفى الحق أنه كلما إزداد قدما صعب تغييره أو التحول عنه.

٤- الحدود التذكارية **Relic** قد تختفى الحدود السياسية أحيانا نتيجة عمليات الضم التى تحدث وخاصة بعد تحول المستعمرات إلى دول

مستقلة ، فالصومال مثلا تكون من إتحاد مستعمرتين سابقتين إحداهما بريطانية والأخرى إيطالية ، والكمرون تكون نتيجة ضم الكمرون الفرنسية بالإضافة إلى القسم الجنوبي من الكمرون البريطانية ، ويمكن أن نضرب أمثلة أخرى فى أوربا ، فمثلا عندما تحرك خط الحدود الألمانية البولندية وإذا كان خط الحد السياسى قد إختفى ، مع ذلك فإنك تحس به فى المظاهر الحضارية بل يمكن تتبع الحد السياسى القديم بالإنتباه إلى التغيرات الفجائية فى المظاهر الحضارية ، كتغير فن البناء ، وأسماء الأماكن ، والأشخاص ، ويلاحظ هذا فى تأثير الإمبراطورية العثمانية فى شرقى أوربا ، وتأثير العنصر الأسبانى فى جنوب غربى الولايات المتحدة. وقد يتخذ هذا النوع من الحدود كحدود إدارية فى داخل الدولة.

التصنيف المورفولوجى Morphological

وهناك تقسيم آخر للحدود على أساس طبيعتها ووضعها وهى فى هذا المجال تنقسم إلى قسمين كبيرين ، حدود طبيعية **Natural Boundaries** وحدود إصطناعية **Artifical Boundaries** وكان صاحب هذا التقسيم لورد كرزون **Curzon** عام ١٩٠٧ وتبعه هولندش **Holdish** عام ١٩١٦ .

١- الحدود الطبيعية

هى الحدود التى تتفق والحواجز الطبيعية مثل :

أ) البحر ب) الصحراء ج) الجبال

د) الغابات هـ) المستنقعات

٢- الحدود النهرية .

٣- الحدود الإصطناعية :

(أ) الخطوط الفلكية أى خطوط طول أو دوائر العرض .

(ب) الخطوط الهندسية أى خطوط مستقيمة ، أو خطوط ممتدة أو أقواس مرسومة من نقطة معينة وغير ذلك .

(جـ) خطوط إتفاقية **Lines of Reference**

وهنا يتبادر إلى الذهن هذا السؤال : هل وظيفة الحدود هى الفصل بين الوحدات السياسية ؟ هل تجعل الإتصال والإنتقال صعبا ؟ فى الحالات المتطرفة للغاية تصبح منطقة الحدود هى منطقة الحواجز الطبيعية ، وبذلك تحدد من الحركة عبرها . وفى المناطق التى ليست فيها هذه

الحواجز قد تكون حواجز بشرية كأسلاك شائكة مثلا نجد هناك بضعة مواضع لأختراق الحدود ، وفيها نجد الموظفين الذين يراجعون وثائق السفر والحجر الصحى وللتفتيش إلى غير ذلك . وعلى هذا الأساس إذا قلنا أن الحدود فى مناطق الإلتقاء بالأجانب ، كان معنى هذا ظهور حقيقة قد تبرر تساؤلا جديدا ، هل يجب أن تختار الحدود لتسهيل هذا الإتصال؟

الجبال والتلال

وهذه كتب عنها هولدش " أن خط تقسيم مياه يجرى عبر حافة أن سلسلة جبلية ليعتبر من أكفأ الحواجز الظاهرية والتى لايخطئها إنسان " فهذه السلاسل الجبلية غالبا (وأن لم يكن ضروريا على الخط) مانفصل بين الجماعات بعضها والبعض الآخر لصعوبة إختراقها نسبيا ، ولذلك أيضا إعتبرت حدودا إستراتيجية جيدة . وترجع ميزة الجبال كأقاليم قاحلة نتيجة لعوامل عدة منها :

١- **التضاريس الوعرة** : مما يجعل الإنتقال أمرا شاقا وعسيرا وحتى فى الجهات الجبلية التى شقتها السكك الحديدية ، فإن نفقات إنشائها كبيرة لدرجة تجعل أجور السفر والنقل بواسطتها أغلى منها فى الجهات الأخرى . حقا لقد أصبح إجتيازها سهلا بفضل النقل الجوى وتطوره وبفضل شق الأنفاق ولكنها مازالت أمام سلاحى المشاة والمدرعات تمثل أمرا له قدره .

٢- تخلخل الهواء فى الطبقات العليا مما يقلل من القوة والنشاط مما يسبب مرض الجبل .

٣- إنخفاض درجة حرارة الجهات المرتفعة وهذا يحدد موسم الإنتقال ويقتصره على هذه الأشهر الخالية من الثلوج .

٤- أن كثيرا منها يعتبروا فواصل طبيعية كجبال الهمالايا وجبال الأنديز . هذه العوامل مجتمعة تجعل المناطق الجبلية مناطق غير جذابة للسكان ، وبالتالى تكون مخلخلة ، وإن كانت فى الجهات الإستوائية تعتبر مناطق إزدحام . ولكن على العموم مناعة الجبال تتناسب تناسبا عكسيا وسهولة إجتيازها ، وإجتيازها يتوقف على عدة عوامل منها : إرتفاع الممرات بالنسبة إلى خط الثلج الدائم ، ومقدار إنحدارها ، فجبال الألب ترتفع بالتدرج من السهول الألمانية والسويسرية نحو الجنوب ، وتطل على إيطاليا بطرقها الطبيعية وممراتها ، هذا فى حين أن شدة إنحدارها

جنوبا (أى نحو إيطاليا) قد جعل عبورها من الجنوب إلى الشمال أمرا عسيرا .

من أهم السلال الجبلية التى أتخذت كحدود سياسية سلاسل إسكنديناوه بين السويد والنرويج ، وجبال الألب بين إيطاليا وجيرانها وجبال البرانس بين أسبانيا وفرنسا ، وجبال الهمالايا بين الهند والتبت .

غير أن إتخاذ الجبال حدودا سياسية لايخلو من تعقيد ، فهذه الجبال غالبا مايكون لها عمق أو عرض فأين يسير خط الحدود فيها ؟ وعادة ماتكون من عدة سلاسل متوازية تفصلها عن بعضها أودية ، أحيانا ماتسكنها جماعات وطدت نفسها وإقتصادها عدا إستغلال السهل والجبل معا . ولذلك نجد أن الخطوط التى تتبع السلاسل الجبلية كثيرا ماتكون مثار نزاع .

وقد ثبت فعلا أن الحدود التى تتبع الجبال كثيرا ما تكون مثار نزاع كالحدود بين الولايات المتحدة وكندا فى منطقة نيوإنجلند ، وتلك التى بين كندا وألاسكا ، فهنا تظهر فعلا صعوبة تطبيق التحديد النظرى مع التعقد التضاريسى . وكذلك الحد بين الأرجنتين وشيلى فى جبال الأنديز فقد إستمرت مثار جدل لمدة تبلغ نحو نصف قرن نتيجة للجهل بظروف الجغرافيا والتخمينات عن مناطق لم تكتشف تماما ، حتى وصلت الدولتان إلى إتفاق عام ١٩٠٢ . كذلك الحال فى النزاع على الحدود بين الهند والصين فى التبت فى الوقت الحاضر .

البحيرات والأنهار

أما فى البحيرات فعادة مايمر خط الحدود بوسطها ، وبطبيعة الحال ليس هناك تخطيط فعلى داخل البحيرات ، ولكن هذا يثير بدوره مشكلات كمشكلة مياه الصيد وحوادث السفن ، وهل هذا الخط يقسم البحيرات إلى قسمين متساويين أم لا ؟ وفى بعض الأحيان تمر خطوط مستقيمة عبر البحيرات كما هو الحال فى بحيرة فكتوريا فى شرق أفريقية .

ويفضل البعض إتخاذ مجارى الأنهار كوسيلة لتعيين الحدود السياسية غير أن هذه الآراء لاتلقى قبولا عند الجغرافيين ، وأهم إعتراض وجه إليها أن الأنهار لاتصلح بطبيعتها للقيام بمهمة الفصل بين الوحدات . ومما لاشك فيه أن مجارى الأنهار تلعب دورها الكامل لتحقيق وظيفتها الرئيسية فى الوصل بين أجزائها بعضها بالبعض الأخر، وأن هذه المجارى المائية تعمل دائما على إقامة نوع من المصلحة المشتركة بين

أجزاء الأقاليم التى تجرى فيها . وهذا ظاهر فى حالة الأنهار الكبرى وعلى الأخص تلك التى تزداد صلاحيتها للملاحة ، أو التى إستغلت قوة المياه من مساقطها أو التى تستخدم قوة تيارها فى نقل الكتل الخشبية الكبرى ، أو إدارة الآلات أو التى ستستغل مياهها فى مشروعات الرى الكبرى .

جميع هذه النواحى تجعل من الميسور وجود مصلحة مشتركة تهم جميع سكان حوض النهر . وإذا أضفنا إلى هذا كما سبق أن ذكرنا ، سهولة السطح والتدرج الذى تعطيه أوديتها ، من جعلها ممرات لعبور الهجرات البشرية ، ثم صلاحيتها ذاتها كوسيلة للنقل إلى جانب خصوبة التربة وإمكان قيام الزراعة فيها مما يؤدى إلى جذب السكان إليها .

على أن النجاح أن كان قد حالف بعض عمليات التحديد بواسطة الأنهار ونخص بالذكر نهر كلورادو الذى إتخذ جزءا من مجراه ليؤدى وظيفة الفصل بين الولايات المتحدة والمكسيك لمسافة تزيد على ٥٠٠ كلم وأظهر هذا الخط شيئا من الجودة كحد فاصل . إلا أن النجاح لايرجع إلى النهر ذاته بل إلى طبيعة المنطقة من حيث التضاريس ، حيث تسود المنطقة المرتفعات الوعرة ويسود الجفاف ، إلى جانب مايجرى فيه النهر من خوانق عميقة تشبه الأخاديد .

وحين يصل النهر إلى مرحلة الشيخوخة بكثير من الإنحناءات ، بل فى كثير من الأحيان ينجح فى هجر مجراه القديم ويتخذ لنفسه مجرى جديدا والأمثلة عديدة : منها نهر الهوانجهو فى مجراه الأدنى ونهر الراين دائم التغيير والتبديل فى فروع دلتاه . وينجم عن ذلك تغيرات طبيعية وبشرية على شئ من الخطورة إذ تصبح بعض الأماكن منعزلة حين يبتعد عنها النهر أو يطمى الفرع الذى كانت تقع عليه المدينة . وكذلك الحال فى دلتا النيجر والدانوب ، بل ما أصاب الدلتا المصرية ليشمل حقيقة التغيير المستمر فى حالة بعض الإنهيار . فنحن نعلم أنها كانت كثيرة الفروع ، وأن هذه الفروع أخذت تتلاشى بالتدرج وإستقرت على فرعى دمياط ورشيد .

الملاحظ أيضا أن بعض أجزاء النيل قد شهدت كثيرا من التغيير وأن كنا لانشعر بهذا فى الوقت الحاضر ، فأن هذا يرجع إلى مواصلة العناية بمجرى النهر وإخضاعه لرقابة شديدة ، ومحاولة وزارة الرى التقليل من الثنيات وجعله أقرب إلى الإستقامة . وهناك وجه آخر فى إستعمال الأنهار كحدود سياسية ، وهو أين سيقع خط الحدود ! هل سيتخذ وسط المجرى **Median Line** أساسا لهذا الخط ؟ أم سيتخذ منتصف المجرى

الصالح للملاحة Thalweg [1] أو أحد الضفتين Banks أو إعتبار ضفتى النهر كحدود ؟

فى الحالة الأولى يكون الخط عبارة عن الخط المار بجميع النقط على المجرى التى يتساوى بعدها عن أقرب نقط على الضفتين ، وهذا يستدعى عمليات حسابية وهذا معناه تقسيم متساوى لسطح الماء وأن كان غير متساوى لحجم الماء ، وعادة مايتبع هذا فى الأنهار غير الصالحة للملاحة.

فى الحالة الثانية أى حالة الجزء الصالح للملاحة وهو عادة أعمق شريط فقد من هذه الضفة حينا ومن تلك أحيانا ، ولهذا يقطع الخط المتوسط للمجرى ، ويمكن أن نضيف إلى صعوبة هذا الإختيار أن الجزء الصالح قد يتغير موضعه هو الآخر .

المستنقعات الكثيفة

كثر إستخدامها فى الماضى ولكن يظهر أنها فقدت الكثير من أهميتها، لأن الإنسان قد نجح فى تجفيفها وبالتالى أمكنه التغلب عليها .

وأعظم مبررات إستخدامها كحدود سياسية كانت صعوبة عبورها وعدم جاذبيتها وقلة سكانها . فإذا ما قضى على هذه المبررات بعد تجفيفها تقل صلاحيتها للتحديد السياسى قلة ملحوظة . ويكفى للدلالة على هذا أن التقدم البشرى قد نجح فى التغلب على مستنقعات بنسك وبريبت بين روسيا من ناحية وبولند وألمانيا من ناحية أخرى ، ولم تمنع هذه المستنقعات الإحتكاك والإتصال بين الدول التى تتاخمها .

وهناك مثل آخر هو مستنقعات شواطئ أفريقية الغربية فقد عملت على حجب القارة عن الأنظار . ففرضت هذه المستنقعات حماية على هذا القسم من أفريقية لمدد طويلة ، ولكن التقدم العلمى نجح فى أن يخضع هذه المستنقعات لرغبة الإنسان بتجفيفها والقضاء على الكثير من أمراضها .

---

[1] – كلمة ألمانية بمعنى المجرى المستعمل للملاحة بصفة مستمرة ويعرفه S. Jones بأنه المحور الأكثر أمنا والأكثر ملاءمة للسفن ذات الحجم الكبير .

الحدود الصناعيـة

وهـى إمـا حـدود فلكيـة تتبـع دائـرة عـرض أو خـط طـول ، أو تنشـأ عـن خطـوط إتفاقيـة هندسـية وكلاهمـا لايراعـى فيـه ظـروف السـكان ورغبـات حـدود المستعمرات التـى أقامهـا الأوربيـون فـى قـارة كأفريقيـة ، فـإذا إخترنـا المواطنين بقـدر مـايراعى القـوى النسبية للدول المستعمرة على سـبيل المثـال جنـوب غـرب أفريقيـة المسـتعمرة الألمانيـة السـابقة التـى تبلـغ مسـاحتها ٣١٧,١٨٧ ميلا مربعا ولهـا مـا يقـرب مـن ٢١٠٠ ميـل مـن الحـدود منهـا ٧٢٥ ميـلا تلتـو ، وننشـى ، وتتبـع نهـر الأورانـج وكوينيـن والأوكافـانجو والزمبيزى ، وأمـا الحـدود الباقيـة فهـى خطـوط مسـتقيمة رسـمها أنـاس لـم يـزوروا المنطقـة ، ولايعرفـون شـيئا عـن جغرافيتهـا التـى يقسـمونها ، ولـم يـأخذوا فـى الإعتبـار أى مصـالح للمواطنيـن . وهـذا يتكـرر فـى كـل حـدود المستعمرات الأفريقيـة تقريبـا فكثير من الخطـوط بـدأت مـن نقطـة أو أخـرى وأحيانـا تتبـع ظـاهرة رئيسـية طبيعيـة واضحـة بدرجـة كافيـة لهـم فـى هـذه العصـور ، ومـن ثـم جـاءت معظمهـا لاتتفق وحـدود القبـائل بـأى حـال، أحيانـا تقسـم أرض القبيلـة الواحـدة وأحيانـا تضـم قبـائل متنـافرة، تنشب بينهـا عـداوة.

وكذلـك الحـدود فـى أسـتراليا أو الحـدود فـى المنـاطق الصحراويـة قسـمت مناطق غير مسكونة ولـم يكـن قد تـم كشـفها حينـذاك .

والواقـع أن وضـع مثـل هـذا النـوع معنـاه الإهتمـام بشئون المواطنيـن الذيـن يعيشون فـى المنطقـة كمـا ذكرنـا فـى مسـألة الحـدود فـى أفريقيـة .

كذلـك هـى خطـوط وضعـت فـى الغـالب علـى موائـد المؤتمـرات : دائـرة عـرض شـمالا ٣٨ فـى كوريـا الـذى إتفـق عليـه بيـن الإتحـاد السـوفييتى والولايـات المتحـدة الأمريكيـة عـام ١٩٤٥ دون إشـتراك المواطنيـن الأصليين فيـه ، كذلـك دائـرة عـرض ١٧ شـمالا بيـن فيتنـام الشـمالية والجنوبيـة والـذى يعكس تـوازن القـوى بين فرنسـا وحلفائهـا مـن ورائهـا وبيـن الصين عندمـا إنتهت حـرب الهنـد الصينيـة عـام ١٩٤٥ . فـى كلتـا الحـالتين واضـح أن الحد مفروض على السكان من الخـارج بواسـطة خطـوط إتفاقيـة لاتراعـى ظواهـر طبيعيـة أو فواصـل ورغبـات قوميـة .

ومـن أمثلـة هـذه الحـدود الصناعيـة والحـدود السياسـية فـى العـالم الغربـى وفـى القـارة الأفريقيـة بعامـة . فـإذا أخذنـا الحـدود المصريـة السـودانية التـى تعتبر مـع دائـرة عرض ٢٢ شمالا مـن العوينـات نجدهـا تمتـد حتـى سـاحل البحـر الأحمـر بـلا إنقطـاع سوى لسان وادى حلفـا الـذى يتعمـق ٢٥ كـم علـى جـانبى النيـل حتـى يبعـد وادى حلفـا عن الحـدود مباشـرة . وليـس مـن تفسـير لإختيـار هـذا الخـط بـالذات إلا عـامل الصدفـة التاريخيـة . فلقـد كـان الحـد

الجنوبى للمناطق التى لم تتخل عنها مصر مطلقا أثناء الثورة المهدية ، فيما عدا وادى النهر نفسه لايمر الخط حاليا بمعمور إلا فى شرق النيل ، حيث نطاق خفيف الكثافة من البشارية والعبابدة يصل بين ساحل البحر الأحمر والنيل. هنا يظهر فشل هذا الخط فى أن يصبح حدا حيويا لأن المصالح متداخلة متشابكة فتظهر الثنائية أو الإزدواج فى الحدود فوضع خط حدود إدارى متعرج سنة ١٩٠٢ إلى جانب الحدود السياسية ، يعتبر دليلا على عدم كفاءة الخط الأصلى كفاصل أو حد سياسى .

هذا الإزدواج يقع شرق النيل على هيئة مثلثين ، غربى يقطع من السودان وهو مثلث بارتزوجا مساحته ٦٠٠كم٢ وشرقى يقطع مصر وهو مثلث جبل علبة ومساحته ١٢٥٠٠ كم٢ . وقد تحدد مثلث جبل علبه لتوحيد إدارة شئون بشارى مصر مع كتلتهم الرئيسية فى السودان ، بينما مثلث بارتزوجا ليوحد إدارة شئون عبابدة السودان مع كتلتهم الرئيسية فى مصر . ولكن من الواضح أن الحدود الإدارية كالسياسية لاقيمة لها فى وسط رعوى ، لاسيما وأن حدود جبل علبة مازالت تترك جزءا من البشارية حتى أسوان .

فالثابت أن المحرك خلف الحدود الإدارية كان الأطماع البريطانية ، فالقطاع الذى سلخ من مصر يبلغ أكثر من ٩ أمثال مساحة النتوء الذى ضم إليها ، كما يشمل منطقة مرتفعات غنية بالرطوبة والحياة والمعادن .

أى الحدود افضل

كتب كثيرون فى هذا الموضوع ، وكان الكثير منهم يفترض فى الحد الجيد أنه الحد الإستراتيجى الذى لايشجع على هجوم الجيران ، وفى نفس الوقت يسهل الهجوم بالنسبة للدولة ، وكان هذا الشرط الحربى فى الحدود هو السائد فى القرن التاسع عشر ، والأمثلة على هذا كثيرة منها إدعاءات روسيا فيما يختص بضم جزء من كاريليا عام ١٩٣٩ ، وإستندت فى مطلبها إلى أن الحدود الفنلندية لاتبعد أكثر من ١٧ ميلا عن لينينجراد ومعنى هذا أنها على مدى ضرب المدفعية الفنلندية مما يهدد أمن المدينة، وعندما رفضت فنلند هذا الطلب قامت حرب الشتاء ، وفى معاهدة موسكو عام ١٩٤٠ تقدم الإتحاد السوفييتى بنحو ٩٠ ميلا بعيدا عن لينينجراد وكذلك الحال فى مدينة بلفور **Belfort** الفرنسية ، فقد إحتج الألمان عام ١٨٧١ بأن حدودهم تقع على مدى ضرب مدفعية هذه المدينة.

وروعى فى خط الحدود بين الهند والتبت أن يسير مع قمم الهيملايا ، وروعى فى الحد بين الهند الصينية وبين تايلاند ترك مسافة على جانبى نهر ميكونج . وهكذا يمكن أن تتعدد الأمثلة على مراعاة الإعتبارات الإستراتيجية بترك أشرطة من الأرض الحرام ، حتى تصبح حدودا آمنة.

وفى الواقع أن الإستراتيجية التقليدية أو البرية والتى سادت حتى نهاية الحرب العالمية الثانية والتى كان مجالها الأساسى الحروب البرية بمساعدة الأسلحة المعاونة ، كانت تعتبر الوظيفة الدفاعية هى الوظيفة الأساسية ، من ثم سادت فكرة الحدود الدفاعية Defensive boundaries أى التى تتبع مظهرا طبيعيا ، يتمشى مع المظهر الطبيعى للأرض Physical landscape ، لأنها ظاهرة مرئية ، وفى نفس الوقت تتمتع بقدرة عالية فى إعاقة تقدم قوات العدو . وإذا كانت مثل هذه الإعتبارات صالحة فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، فأنها فقدت صلاحيتها الآن فى عصر الأسلحة الذرية والصواريخ ، وإن ظلت محتفظة بقمتها فى ظل إستخدام الأسلحة التقليدية

الحدود الأنثوجغرافية أو الحدود القومية

تعتبر الحدود السياسية الأنثوجغرافية أفضل الحدود جميعا ، ذلك أنها تفصل بين الشعوب بعضها والبعض الآخر ، ولكن للأسف قليل جدا من الحدود السياسية فى العالم مايتفق والحدود الأنثوجغرافية ، ويرجع هذا إلى عاملين رئيسيين هما : أولا الإختلاط والتداخل بين الشعوب بعضها والبعض الآخر بحيث لايمكن عمل فاصل واضح وعازل بينها ، وهذا معناه أنه لايمكن تخطيط الحدود التى ترسم لفصل الشعوب فصلا دقيقا ، ومن ثم نجد كثيرا من الشعوب تتوغل داخل حدود شعوب أخرى مجاورة. وثانيا أن تخطيط الحدود عادة مايتم على أسس غير أنثوجغرافية، بل على أسس المصالح الإقتصادية والحربية . فعقب الحرب العالمية الأولى مثلا أعيد تخطيط الحدود فى كثير من جهات وسط وشرقى أوربا ، وعملت إستفتاءات لمعرفة رغبات الشعوب ، ومع ذلك فقد كان هناك مايزيد على ٣مليون ألمانى ، ٧٠٠ ألف هنجارى ، ٨٠٠ ألف بولندى داخل حدود تشيكوسلوفاكيا ، كما ترك نحو ٩٠٠ ألف ألمانى داخل الحدود البولندية ، ٤٢٠ ألف ألبانى داخل حدود يوغسلافيا وهكذا .

على أن الحدود السياسية يمكن أن تفصل بين الشعوب فى بعض الحالات كأن يكون الأساس الذى يعتمد عليه فى تخطيط الحدود هو

الفصل بين شعبين متجاورين كالحدود بين أستونيا ولتفيا ولتوانيا فيما بين الحربين كذلك الحال إذا مامد خط الحدود فى منطقة جبلية خالية من السكان كما هو الحال فى جبال الألب والبرانس ، وإن كانت الشعوب كثيرا ماتعبر هذه الحواجز الجبلية بدلا من أن تقف عندها ، فالهيمالايا لم تمنع المغول من الوصول إلى الهند ، والبرانس لم تمنع الباسك من الإنتشار على جانبيها فى فرنسا وأسبانيا ويعيش الألمان على جانبى هضبة بوهيميا ، ومن الحالات التى تفصل فيها الحدود السياسية بين الشعوب أيضا إذا جاء تخطيط الحدود بين شعبين متجاورين ، ومضى عليها مدة طويلة بحيث سمح لكل منها ، بالإستقرار فى المنطقة التى يعيش منها ، كالحدود بين فرنسا وأسبانيا ، ومنها أن يكون تخطيط الحدود سابقا لوصول العناصر البشرية على جانبيه كالحدود بين الولايات المتحدة الأمريكية وكندا غرب البحيرات العظمى ، وإن كان الإختلاف بين الشعبين قليلا على طول الخط الفاصل لإتحادهما فى الأصول واللغة وبيئة الوطن الأم ، ويمكن أن تتفق الحدود أيضا مع الأوضاع الأثنوجغرافية ، إذا خططت الحدود أولا ، ثم تتحرك الشعوب على جانبيها ، أى يحدث تهجير حتى تصبح أثنوجغرافية كما حدث فى الحدود البولندية التشيكوسلوفاكية عقب الحرب العالمية الثانية . وهذا النوع إن كان يحل مشكلات الأقليات إلا أنه يأخذ جهدا ويسبب متاعب جمة .

خصائص مشكلات الحدود السياسية بعد الحرب العالمية الثانية

١- تميزت نزاعات الحدود فى القرنين السابقين للحرب العالمية الثانية بأنها كانت منازعات حول أقاليم أكثر منها تحديد وتوضيح لمعالم الحدود كما حدث بعد تلك الحرب فقد كانت الأولى حروبا إقليمية بالدرجة الأولى وذلك بالغزو الشامل للدولة للضغط عليها للتنازل عن إقليم من الأقاليم وتعديل الحدود السياسية .

٢- أن معظم النزاعات على الحدود السياسية بعد الحرب العالمية الثانية كانت خارج أوربا وقد يفسر هذا على أن أوربا قد بلغت مرحلة النضج السياسى ، أو أنها إنتهت إلى تحديد واضح لحدود دولها ، أو لعدم وجود قوى يمكنها تحدى الأوضاع الراهنة .

٣- إزدياد منازعات الحدود عن ذى قبل ويرجع ذلك لعدة أمور مثل:

(أ) حصول كثير من المستعمرات على الإستقلال (قارن عدد الدول الأعضاء المؤسسة لهيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ عند تكوينها) (٥٠) بعدد الأعضاء عام ١٩٨٠ (١٥٢) وبالتالى ظهرت كثير من

الإدعاءات التى كان الإستعمار يمنع ظهورها مثل مطالبة المغرب فى فترة مابموريتانيا ، ثم دعوى موريتانيا والمغرب فى الصحراء الغربية بخروج الإستعمار الأسبانى ، ودعوى الصومال على كينيا وأثيوبيا ، والنزاع الهندى ـ الباكستانى على كشمير .

(ب) ظهور الثروات المعدنية وإزدياد قيمة اليابس والماء حتى ولو كانت رقعة محدودة كالنزاع فى بحر إيجه بين تركيا واليونان (بترول) والنزاع بين تونس وليبيا فى خليج قابس (بترول) النزاع المغربى الجزائرى فى (حديد تندوف) . والطريف مثلا فى دولة الإمارات العربية المتحدة أن نجد الخلافات بين الإمارات بعضها وبعض على كيلومترات .

(جـ) زحف العمران إلى مناطق الحدود السابقة والتى ذكرنا أنها إتفق عليها قبل ظهور أى هيئات حضارية Cultural Landscape وبالتالى يبدأ الإحتكاك لتوضيح الحدود كنزاع الحدود الهندية الصينية .

وفى غالب الأحوال تكون الدعاوى الأقليمية على أساس الروابط الجغرافية أو القومية وعلى أساس أن المعاهدات التى أبرمت بمقتضاها الحدود كانت غير متكافئة أو غير شرعية لأنها أبرمت مع من ليس له الحق فى عقدها وهى القوة الإستعمارية التى كانت رابطة فى الأقاليم ، مثال النزاع الأفغانى والباكستانى بالنسبة لأقليم بلو شيشتان ونزاع الحدود الصينية الروسية ومعظم منازعات الحدود السياسية فى أفريقية.

٤- وإذا كانت منازعات الحدود السياسية على اليابس فى طريقها للإنقراض لتقدم وسائل المسح ، والقياس ، ولم يعد هناك جزء غير مكتشف من سطح الأرض فقد زادت مشكلات النزاع على الحدود البحرية وتحديد المياه الأقليمية والأقاليم الإقتصادية .

الفصل الثانى . مشكلات الحدود السياسية

تعتبر مشكلات الحدود السياسية من الموضوعات التى يعنى بها الباحثون فى الجغرافيا السياسية ، ولاينفرد الجغرافيون وحدهم ببحث مشكلات الحدود بل هى ميدان ثرى للمشتغلين بالعلوم السياسية والمؤرخون ورجال القانون الدولى ، ولكن الجغرافى يتميز عليهم جميعا بتفهمه للخصائص الأقليمية وسهولة إستخدامه للخرائط . وإن كانت هناك بعض مظاهر للنزاع لايمكن للجغرافى أن يكون منافسا لغيره فيها . كإتخاذ القرارات والحكم على مدى قانونية المعاهدات والمناقشات التى تدور فى صالح جانب أو آخر . ولكن لايزال هناك المجال كبيرا أمام الجغرافى لكى يضيف الكثير لإجلاء المواقف المختلفة .

أنماط منازعات الحدود السياسية

يعتبر نزاع الحدود السياسية مظهرا أو صورة من صور التوتر الدولى **Tension** لمشكلة من مشكلات الحدود ، لأنه قد تكون هناك مشكلة ما **Problem** دون أن تثير نزاعا **Dispute** ، ويتضمن نزاع الحدود بوجه عام أنماط أربعة رئيسية ، قد يقوم أحداهما بين وحدتين سياسيتين مستقلتين وهى :

١- يعرف النمط الأول بالنزاع الأقليمى **Territorial Dispute** ينشأ نتيجة وجود خصائص معينة فى أطراف الدولة ، يجعلها ذات جاذبية للدولة البادئة فى إثارة النزاع . كأن تسكنها قومية تابعة لها ، أو تظهر فيها ثروة معدنية ، أو تريد أحياء حدود قديمة كانت تضم هذه الأطراف أو تكون إحدى الدولتين قد إنفردت بتعين نطاق حدودها البحرية الأقليمية دون مراعاة مصالح وحقوق الدول الأخرى أى إتخذت سياسة الأمر الواقع ، والأمثلة متعددة وخير مثال للنزاع على أساس تفتت القومية وسياسة الأمر الواقع هى الحدود الألمانية عقب الحرب العالمية الأولى وتقطيع أوصال ألمانيا ، أنظر إلى ماقاله هتلر فى مؤتمر نورنمبرج عام ١٩٣٨ مدافعا عن ألمانى السوديت :

أنى أقولها وأكررها . أنه إذا لم يقدر لهذه الفئة المعذبة أن تأخذ حقوقها وحرياتها ، فإن لها أن تعتمد علينا فى الحصول عليها ، أن الألمان لايطالبون سوى تقدير مصيرهم ، وهو حق مقدر لكل أمة غيرهم، كذلك الحال فى نزاع الصومال مع أثيوبيا على أقليم أوجادين الذين يسكنه جزء من الأمة الصومالية فى معظم الأحوال يكون هناك

طرف متضرر وينتهز الفرصة للإشتباك كألمانيا فى الحالة الأولى ، والصومال فى الحالة الثانية ، وطرف مستفيد يدافع عن بقائها مثل تشيكوسلوفاكيا فى الحالة الأولى وأثيوبيا فى الحالة الثانية .

وقد شجع على النزاع عدم وجود معاهدات بين الأطراف المعينة يمكن اللجوء والإحتكام إليها فضلا عن جاذبية المنطقة موضوع النزاع ، كالنزاع على واحة البوريمى بين أبو ظبى والسعودية (قبل تسوية ١٩٧٤) وكذلك إدعاءات المملكة المغربية على الصحراء الغربية لأن المعيار فى كل منها كان إستقراء تحركات القبائل وولائها ، فقد إعتمدت السعودية عندما طالبت بواحة البوريمى على جباية الزكاة وولاء القبائل لأن السعوديون كانوا يجبون الزكاة منها أعوام ١٨٤٥ ، ١٨٥١ ، ١٨٦٩ ، ١٩٢٦ ، ١٩٢٩ ، وهم يرون أن دفع الزكاة معناه إعتراف بسيادة السعوديين ، كذلك إستند المغرب فى دعواه على الصحراء الغربية بأن ملوك المغرب كانوا يعينون القضاة والقادة المدنيين وكانت قبائل الصحراء ترسل مندوبين إلى البلاط المغربى ليقدموا فروض الولاء .

٢- ويعرف النمط الثانى بالنزاع الموضعى . . Positional dispute إلا أنه يتعلق لوضع الخط السياسى ، وغالبا مايكون النزاع حول التفسير الصحيح لمعاهدة سبق أن قبلها الطرفان ، كالنزاع بين شيلى وأرجنتين حول تفسير خط تقسيم المياه أو على القمم الجبلية .

هكذا فالنوعان السابقان يتطلبان تغييرا فى وضع خط الحدود السياسية بينما نجد النوعين الآخرين لايتطلبان تغييرا فى وضع ذلك الخط ، وبالتالى كان أقرب المشكلات منها إلى المنازعات .

٣- أما النوع الثالث فينشأ نتيجة تأثر الخدمات أو الوظائف التى يحصل عليها سكان أطراف الدولة من جراء رسم خط حدود معين لذلك تطلق عليها منازعات وظيفية Functional Dispute كالمشكلة التى نشأت بعد تعيين الحد السياسى بين إيطاليا وفرنسا فى جبال الألب عام ١٩٤٧ إذا كان من نتيجة ذلك أن بعض الجماعات الرعوية الفرنسية على الحدود حرمت من مراعيها الصيفية بينما حرمت الجماعات الرعوية الإيطالية على الجانب الآخر من مراعيها الصيفية الربيعية لأنها أصبحت داخل الحدود الفرنسية ونظرا لأنه ليس من الممكن تحريك خط الحدود ، فقد تمت التسوية بالإتفاق على السماح لكل من الجماعات الرعوية الفرنسية والإيطالية بعبور خط الحدود للإستفادة بالمراعى على الجانبين ، وهذا يشبه الإتفاق الذى تم أخيرا بين تونس والجزائر .

ويختص النوع الرابع بإستخدام بعض الموارد مثل الموارد المعدنية والنهرية ويطلق عليه نزاع حول الموارد Dispute over Resources كإستخدام مجرى مائى (شط العرب) أو إستخدام النهر عبر الحدود والأنهار الدولية .

ماوراء مشكلات ومنازعات الحدود السياسية

لابد للوصول إلى حل لمشكلات الحدود من معرفة عدة أمور أساسية:

أولا : الأسباب الفعلية للمشكلة .

ثانيا : فهم الظرف المناسب الذى أدى بالدولة إلى إثارة إدعاءاتها .

ثالثا : أغراض هذه الدولة من هذه الإدعاءات . ويمتد التحليل إلى تفنيد هذه الإدعاءات على أسس جغرافية ، ثم تقدير نتائج هذه الإدعاءات سواء فيما يختص بأثرها على المناطق المتاخمة أو على العلاقات الدولية

ولفهم وجهة النظر هذه نضرب مثلا مختصرا بنزاع قام بين أفغانستان والباكستان، فتدعى أفغانستان بأن قبائل الباتان Pathan فى غرب باكستان يجب أن يسمح لهم بتكوين دولة مع إخوانهم فى أفغانستان وتنكر لباكستان بدورها رغبة قبائل الباتان فى الإنفصال وتكوين دولة الباتان المزعومة فإذا نظرنا إلى السبب الأساسى نجده فى المعاهدة الإنجليزية الأفغانية التى ترجع إلى عام ١٨٩٣ التى حددت مناطق النفوذ بين بريطانيا وأفغانستان ، وهذه الإتفاقية أيدتها معاهدات كثيرة أعوام ١٩٠٥، ١٩١٩ ، ١٩٢١ ، ١٩٣٠ . وقد قسم ذلك الخط الأقليم الذى تعيش فيه قبائل الباتان بطريقة جعلت هناك ٢,٤ مليون نسمة داخل منطقة النفوذ البريطانية (باكستان الآن) وكانت الظروف المشجعة على إعلان أفغانستان لمطالبها هى تقسيم الهند إلى هند وباكستان عام ١٩٤٧ حين كانت الباكستان تواجه صعوبات التقسيم داخليا وخارجيا . أما الأسس التى قامت عليها مطالبها ، فتنحصر فى أن إتفاقية ١٨٩٣ غير ذات موضوع لأن أفغانستان وقعتها تحت ضغوط ، ثانيا أن أفغانستان لايمكن أن ترث تبعات إنتهت (وهى بريطانيا فى الهند) وهذه مناقشات قانونية بطبيعة الحال لاتقع فى ميدان البحث الجغرافى ، وثالث الحجج أن حدود أفغانستان كانت فى وقت ماتمتد بعيدا فى الهند ومنها بطبيعة الحال باكستان الآن ، وبالبحث التاريخى يظهر أن أقصى إتساع لأفغانستان كان عام ١٧٩٧ حين إمتدت أفغانستان إلى دلهى ولاهور ثم سقطت لاهور فى أيدى المغول عام ١٧٩٨ وسقطت بيشاور عام ١٨٢٣ .

فإن كانت هناك فترة توسع منذ قرن ونصف يعتمد عليها الآن في تخطيط الحدود اليوم ، فإن معنى هذا أن خريطة العالم يمكن أن تتعرض لتغير جذرى خطير ، ورابعا : هناك إدعاء أكثر الإدعاءات وجاهة وهو أن هذه القبائل على الجانبين تكون وحدة أثنولوجية ، ويجب أن تلتئم في وحدة سياسية .

إذ بحثنا بعد ذلك أغراض أفغانستان الحقيقية في بلوخستان ، فيمكن إستنتاج أمل أفغانستان في خضوع الدولة الجديدة لنفوذها وإستغلالها كمخرج لها على البحر العربى .

وأما نتائج هذا النزاع فكانت واضحة على المستوى المحلى ، وقد تكون أكثر أهمية على المستوى الدولى ، فقد قطعت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين في سبتمبر عام ١٩٦١ وإستعيدت في مايو ١٩٦٣ ، خلال تلك الفترة أغلقت الحدود بإستثناء فترات قصيرة في يناير عام ١٩٦٢ لتصل المعونة الأمريكية إلى أفغانستان عن طريق باكستان ونظرا لأن معظم صادرات أفغانستان إلى الهند ومعظم وارداتها من اليابان والهند والولايات المتحدة الأمريكية حدث تغير في التوجيه التجارى لأفغانستان فأصبح الإتحاد السوفييتي يسهم بقدر وافر من الصادرات والواردات . وأدى القتال والمناوشات في المنطقة إلى أن تقوم الباكستان بتعزيز خطوطها الحديدية فيها ، وكان إغلاق الحدود سببا في منع الهجرة الفصلية لنحو مائة ألف من الرعاة إلى باكستان حيث كانوا يهاجرون بقطعانهم شتاء . وكان هؤلاء الرعاة يتكسبون أيضا بالإشتراك في الأعمال اليدوية أثناء إقامتهم في باكستان وخاصة جمع محصول قصب السكر ، وكان من نتيجة هذا أن أصبحت الباكستان تطلب منهم تأشيرات خروج ودخول ومستندات لايطيقونها وحتى بعد فتح الحدود وعودة العلاقات ، نجد أن الباكستان بدأت عمليات توطين لهم في مشروعات زراعية مما يترتب عليه هجرهم المراعى في أفغانستان .

أما على المستوى الدولى فيلاحظ أن أفغانستان وجدت تشجيعا من الهند والإتحاد السوفييتي ، فالحكومة الهندية يهمها أن تنشغل باكستان عنها في مشكلة جديدة غير مشكلة كشمير . ووجد الإتحاد السوفييتي نفسه قادرا على إضعاف دولة في الحلف المركزى لجنوب شرق آسيا ، وفي نفس الوقت تقوية لعلاقاته مع أفغانستان التى كانت هدفا للدبلوماسية الروسية حتى قبل الثورة الشيوعية .

هذا المثل الذى ضربناه يبين أوجه النزاع على الحدود والتى يمكن للباحث الجغرافى أن يراعيها ويركز عليها فى هذا المجال من الجغرافية السياسية .

الحدود السياسية فى أفريقية

من المعروف أن غالبية الحدود الأفريقية هى حدود مفروضة أو موضوعة من الخارج ، وضعتها القوى الأوربية خلال العقدين اللذين تبعا مؤتمر برلين عام ١٨٨٤، أما قبل الإستعمار الأوربى للقارة ، فلم تكن هناك حدود وكان البناء السياسى الوطنى كقيام ممالك معينة من السكان الأصليين ، كان يفصلها عن بعضها تخوم ، كان تكون أراضى غير مسكونة ، أو مناطق مستنقعات وكان من نتائج وضع هذه الحدود أن أصبحت تمر أحيانا فى أرض القبيلة الواحدة ، ويرجع هذا إلى عاملين أولهما عدم إتفاق الطرفين الأوربيين لسبب من الأسباب ، وثانيهما التغلب على مصلحة إقتصادية أو إستراتيجية .

وكانت السلطات الإستعمارية تخفف من حدة فصل أعضاء القبيلة الواحدة بين المستعمرين ، وذلك بالتخفيف من قيود الإنتقال على الجانبين، وقد يرجع هذا إلى أن كثيرا من السلطات الإدارية لم تعرف الحدود الفعلية لكل وحدة سياسية لذلك كانت عمليات الإنتقال والهجرة من الأمور المألوفة ، غير أن إستقلال هذه المستعمرات السابقة دون تعديل للحدود ، ومحاولة كل دولة جديدة ممارسة حقها فى السيادة بوضع القيود على الإنتقال عبر الحدود ، أدى إلى ظهور مشكلات خطيرة على طول تلك الحدود فعلى سبيل المثال نجد أن حكومة توجو تضع مراقبة شديدة على طول خط الحدود بين غانا وتوجو خشية تهريب السلاح للأحزاب المعادية للحكومة ، بينما نجد الحدود بين نيجيريا والكمرون وقد إنتشرت عليها المحطات المراقبة لمنع الهاربين من الكمرون وإتخاذ نيجيريا ملجأ لهم . كما شددت أثيوبيا الحراسة على حدودها مع الصومال وألغت إتفاقية مع الصومال كانت قد عقدت ، تسمح لرعاة الصومال بعبور الحدود الأثيوبية بحثا عن الكلأ والماء لقطعانهم .

لقد وضح أن الحدود السياسسية فى أفريقيه فى الوقت الحاضر فى حاجة إلى تعديل حتى تتفق وتنسجم الحدود مع الحقائق الجغرافية من ناحية ، ومع الإتجاهات السياسية للدول الأفريقيه المستقلة من ناحية

أخرى ومع ذلك فقد إستقر رأى منظمة الوحدة الأفريقيه على الإبقاء على الوضع الراهن منعا للإنشقاق بين الدول الجغرافية[1]

أنواع الحدود السياسية فى أفريقيه

وتظهر الخريطة السياسية لأفريقية غلبة الخطوط الفلكية والهندسية وعادة ماتسير فى المناطق المخلخلة السكان (كما هو الحال فى الصحراء الكبرى) وأن كان هذا ليس بقاعدة . وقد ظهر أن نسبة كل نوع على وجه التقريب كما يلى : الخطوط الفلكية ٤٤٪ ، والخطوط الهندسية ٣٠٪، الخطوط التى تتفق والمظاهر الطبيعية ٢٦٪ .

وإذا قارنا أفريقية بقارة أخرى . فإن النسب ستتغير لاشك ، ففى استراليا مثلا لاتوجد حدود دولية على الإطلاق وإنما هى حدود داخلية بين الولايات ، وحتى إذا إعتبرناها دولية ، نجد غلبة الخطوط الفلكية ، أما فى أوربا فلا تمثل الخطوط الفلكية فيها إلا نسبة ضئيلة للغاية ، ويرجع هذا إلى أنه مضى وقت طويل على القارة ، كثر فيها النزاع على الحدود وتحركها من مكان إلى آخر بينما تزيد نسبة الخطوط التى تتبع الحواجز الجبلية والأنهار ، وإذا حاولنا تعليل أسباب كثرة إستخدام خطوط تقسيم المياه فى عمليات التحديد السياسى ، لوجدنا أن هذا يرجع إلى عمليات الكشف الجغرافى لأفريقية ، إذا أنها كانت تتضمن إلقاء الأضواء على أنماط التصريف النهرى للقارة ، ولم يكن يعرف من حوض النهر سوى منطقة المصب ، ولذلك كان من الطبيعى أن تتفق القوى الإستعمارية على أن تكون الحدود بينها فى الداخل المجهول ، هى مناطق تقسيم المياه بين الأحواض النهرية ، لذلك إعترفت بريطانيا عام ١٨٩٤ بنفوذ الملك ليوبولد فى حوض الكنغو حتى تقسيم المياه أو حتى الحافات الجبلية التى تحد الأحواض النهرية المجاورة ، وخاصة حوض النيل فى الشمال ، أما مدى مراعاة هذا لصالح السكان الوطنيين فيمكن أن نستشفه من رسالة وصلت إلى السلطان زيمو أحد سلاطين الزاندى (فى جنوب غرب السودان) عام ١٩٠٠ " أنك على بينة من السدود التى إتفق عليها الإنجليز والفرنسيين والبلجيكيين ، أن النفوذ المصرى الإنجليزى يبدأ حيث تتبع المجارى المائية الى تتدفق نحو الشمال أو نحو النيل .

أما النوع الآخر الشائع فى أفريقية وهو الخطوط الفلكية ، فهذا يتفق عليه عادة على موائد المؤتمرات ، وعلى بعد مئات وآلاف الأميال من

[1] أصدرت جمعية رؤساء الدول والحكومات الأفريقية فى دورتها الأولى عام ١٩٦٤ بالقاهرة بشأن منازعات الحدود بين الدول الأفريقية القرار الثانى " تتعهد جميع الدول الأعضاء بإحترام الحدود القائمة عندما يتم إستقلالها الوطنى " .

القارة ، من ثم كانت تظهر صعوبات كبيرة أمام هؤلاء الذين يقومون بالتخطيط العملى على الطبيعة ، والأمثلة عديدة على ذلك ، فعند تخطيط الحدود السياسية بين الكمرون الألمانى ونيجيريا البريطانية عام ١٩٠٣ ، إختلف الفريقان نظرا لأن كل فريق كان يقدر خطوط الطول بطريقة مختلفة عن الآخر ، وحيث تسير خطوط الطول بطريقة مختلفة عن الآخر ، وحيث تسير خطوط الحدود (الفلكية) فى مناطق أو عبر طرق هجرات فصلية ، تصبح غير مناسبة .

ومنها خط الحدود بين مصر والسودان الذى إتفق على أن يسير مع دائرة عرض ٢٢ شمالا ، مما أدى ضرورة إتخاذ خط آخر للحدود الإدارية بحيث يجمع قبيلة البشاريين بأكملها فى السودان وقبيلة العبايدة فى مصر .

شكل رقم (٣٠) : الحدود السياسية فى افريقية

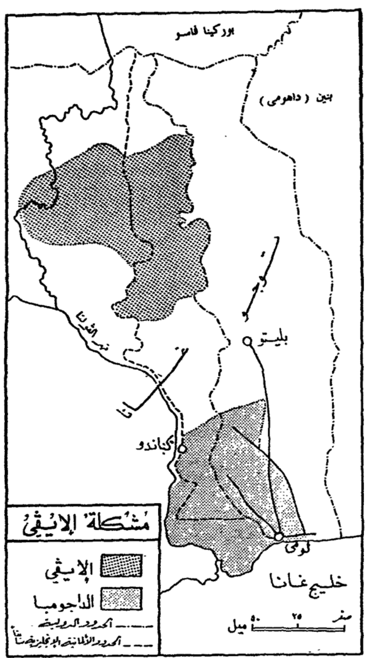
ولعل إستعمال الأنهار كحدود سياسية كان أقل أنواع التحديد السياسى تعقيدا من الناحية الفنية ، إلا فى المناطق التى تغير فيها الأنهار مجاريها المائية ، أو حين كان المجرى المائى معروفا فى جزء منه ، ومجهولا فى جزء آخر عندما وقع إتفاق الحدود لذلك نجد أن كارل بيترز الألمانى يدعى أن نهرا غير مجراه ، وذلك بغية الحصول على أرض جديدة فى شرق أفريقية ، أو للمساومة على منطقة من جهة ثانية ، وفى مناقشة لتخطيط الحد السياسى بين السودان وأثيوبيا نجدهم يقترحون إستخدام نهر البيبور . ولكن إذا لم يصل البيبور إلى دائرة عرض ٦ شمالا ، فإن مجراه حتى خط طول ٣٤ شرقا يصبح هو الحد السياسى . ويؤدى جهل السياسيين أحيانا ببعض المصطلحات إلى ضياع لمصالح بلادهم ، فعلى سبيل المثال وافق مندوب ليبريا مع مندوب فرنسا عام ١٨٩٢ على أن يتبع خط الحد السياسى بين ليبريا وساحل العاج الضفة اليمنى لنهر كافالى المتجه جنوبا نحو المحيط ، وكان يظن أن الخط تبعا لذلك الإتفاق يسير مع الضفة الشرقية ، وبذلك تشرف ليبريا على الملاحة فى النهر ، ولكن الحقيقة ظهرت أن الخط بهذا التحديد يسير على الضفة الغربية ، ويضع المجرى برمته تحت النفوذ الفرنسى ، ولهذا النهر أهمية ملاحية كبيرة لليبريا، نظرا لأن مزارع فايرستون تقع على الجانب الليبيرى مجاورة للنهر ، من ثم المستخدمة للنقل من الأمور الضرورية للشركة .

بعض مشكلات الحدود فى أفريقيه

مشكلات الايفى فى غانا وتوجو

يبلغ عدد أفراد قبيلة الايفى نحو ٧١٥ ألف نسمة ، يعيشون بين الفولتا الأدنى ونهر ناهو Naho اللذان يصبان فى خليج غانا ، والحد الشمالى للقبيلة يسير موازيا لخط الساحل على بعد نحو ٨٥ ميلا منه . وتتألف مواطنهم فى معظمها من سهول متموجة لايزيد إرتفاعها على ٤٠٠ متر، وتغطيها حشائش السفانا المكشوفة ، ولايظهر تغير ملموس فى هذه البيئة اللهم بالقرب من الساحل . حيث تمتد البحيرات الساحلية التى تحيطها أشجار نخيل الزيت وتفصل بينها رمال الساحل . وإذا إستثنينا بعض صيادى الأسماك ، نجد الإيفى قبيلة من الزراع ، تقوم بزراعة الذرة واليام . وهناك رغبة من الإيفى بأن يلتئم شملهم سواء كدولة مستقلة أو كجزء من غانا أو جزء من توجو .

شكل رقم (٣١) : مشكلة الإيفى بين توجو وغانا



وكانت قبيلة الايفى قبل التدخل الأوربى تنقسم إلى إثنتا عشر قبيلة فرعية تعيش بين مملكتى أبومى والأشانتى ، وخلال فترات الحروب كانت تعقد الأحلاف الوقتية بين هذه الفروع . وكان أول فصل للايفى عند تحديد خط الحدود بين ساحل الذهب البريطانى وتوجو الألمانية حيث سار الخط بين لومى على الساحل ونهر الفولتا على بعد ٣٠ كيلو متر إلى الجنوب من كباندو ، ولم تكن هناك شكاوى من الايفى فى ذلك الوقت ، غير أن المنطقة قسمت بعد الحرب العالمية الأولى بحيث ضمت فرنسا ثلثى الأقليم بما فيه كل الساحل والخط الحديدى وضم الباقى المجاور لساحل الذهب إلى بريطانيا ، وقد تأكد هذا الوضع عام ١٩٢٠ عندما منحت فرنسا بريطانيا انتداب على المنطقة . وخفف أثر هذا التقسيم الثالث أن بريطانيا كانت تحكم الجزء الخاص بها ، كقسم من ساحل الذهب ، على عكس الفرنسيين الذين إحتفظوا بإدارته منفصلة عن داهومى والفولتا العليا ، وقد أحس الايفى بهذا الفصل فى فترة ١٩٤١/١٩٤٣ ، وعندما أغلقت حكومة فيشى الحدود ، وما أن أنتهت الحرب العالمية الثانية حتى ظهرت رغبات من الايفى بالإلتئام والوحدة ، وأن ظهرت إقتراحات متعددة على كيفية الوحدة

وقد زارت بعثة من الأمم المتحدة عام ١٩٥٠ وكتبت تقريرا ذكرت فيه " أن المشكلة بلغت من الحدة بحيث تستدعى حلا سريعا لصالح السلام والإستقرار فى المنطقة " ولم يظهر هناك حل مرضى لمشكلة الايفى حتى الآن ، وقد عمل إستفتاء فى توجو عام ١٩٥٦ ، وظهر من نتيجتة رغبة الجزء البريطانى من توجو فى الإنضمام إلى ساحل الذهب ، بينما التصويت الذى حدث فى توجو الفرنسية كانت نتيجته الرغبة فى قيام دولة مستقلة داخل الإتحاد الفرنسى ، وإن كانت جمهورية توجو خرجت من هذا الإتحاد عام ١٩٦٠ .

أنه لمن الصعب تصور حل مرضى لهذه المشكلة ، فإعادة توجو البريطانية ثانيا وتوحيدها مع جمهورية توجو مثلا لن يحل أشكالا لأنه لن يضم الايفى الذين يعيشون فى جنوب شرقى غانا وخلق دولة مستقلة للايفى ليس حلا مرضيا لأنه سيخلق مشكلات فى المواصلات والتنمية لبقية أجزاء توجو، ويعتبر الايفى أنهم يدفعون ثمنا غاليا لوحدتهم مع غانا ، وكان لعدم حل هذه المشكلة أثره فى حدوث التوتر الدائم فى الأقليم، وإشتدت الحراسة من غانا وتوجو على خط الحدود ، وعندما أغتيل الرئيس أولومبيو **Olympio** عام ١٩٦٣ أغلقت حدود توجو مع غانا فورا . وقد أشارت غانا مرارا إلى قيام إتحاد بينها وبين توجو . وزاد من توتر الأقليم الضغط الغانى من ناحية وخوف حكومة توجو من إقتطاع أجزاء من أراضيها من ناحية أخرى .

مشكلة الصومال وأثيوبيا

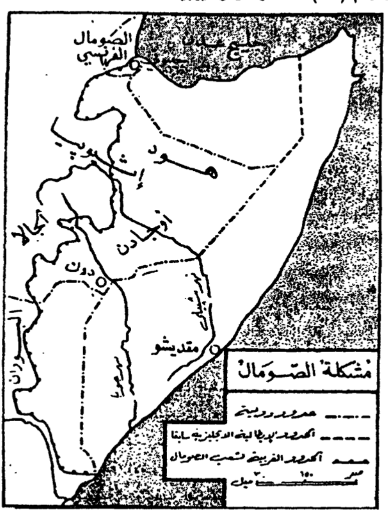
يحتل الصوماليون القرن الأفريقى الذى يحده البحر الأحمر والمحيط الهندى وخليج عدن ، فضلا عن خط غير منتظم يبدأ من مصب نهر تانا فى كينيا إلى ميناء جيبوتى وينقسم الشعب الصومالى بين الصومال الفرنسى (٢٥٠٠٠) جمهورية الصومال (٢,٠٧٦,٠٠٠) وأثيوبيا (٣٥٠,٠٠٠) وكينيا (١١٩,٠٠٠) ، من ثم توجد مشكلتان للحدود بين جمهورية الصومال من ناحية وبين كينيا وأثيوبيا من ناحية أخرى ويتفق الشعب الصومالى فى اللغة والحضارة ويقويهما الإقتصاد القائم على الرعى ، ورغم أنه لم تكن هناك وحدة سياسية قبل ذلك فى الأقليم ، إلا أنه كانت هناك فترات من الإتحاد لصد قبائل الجالا فى كينيا وأقباط أثيوبيا ، وتعتبر الأبل حيوانهم الرئيسى فى الشمال وبعض أجزاء الجنوب، بينما تعتبر الماشية الحيوان الرئيسى لدى قبائل الجنوب كالدجيل **Digil** والهويا **Hawiya** لعدم تحمل الماشية لذبابة التابانوس ، أما الضأن فيرعى فى جميع أجزاء الأقليم .

ولعل الإستثناءات القليلة النمط هو ظهور الزراعة كحرفة ثانوية إلى جانب الرعي في أقليمين بين نهري جوبا وشبيلي حيث تعيش جماعات الساب Sab فهذان الإقليمان وهما بورهاكبا Bur Hakaba وهضبة بيدو Baidu تغطيهما تربة فيضية ، وينالا مقدارا من المطر أوفر من الأقاليم المجاورة ، ويؤدي هذا إلى زراعة الذرة الرفيعة والسمسم والقطن والفول. وفي هذه المناطق فقط توجد حدود معروفة ، بينما يعتبر الإحتلال الفعلي للأرض هو الأساس الوحيد للسيطرة على الأرض القريبة من موارد الماء والكلأ ، ولذلك نجد أن الحدود في مناطق الرعي تعتبر حدودا ديناميكية متحركة تبعا لإختلاف قوة القبائل ومدى إحتياجاتها ويتبع قبائل شمال الصومال نمطا من الرعي يتمثل في الهجرة صيفا إلى إقليم هود في أثيوبيا ، عندما تكون مرتفعات هود في أحسن حالاتها نباتيا وفي نفس الوقت تكون مراعي سهول الصومال قد أنهكت ، أما الأجزاء الجنوبية من الصومال ، فلا يتميز بظهور حرفة الزراعة فحسب ، بل الهجرة الفصلية للرعاة أيضا ، حيث يتجه السكان بحيواناتهم إلى الأراضي النهرية خلال الفصل الجاف ، لأن نهري جوبا وشبيلي دائما الجريان ، ثم يرجعان إلى مراعي الأقاليم الساحلية خلال فصل المطر القصير الذي يمتد من أبريل إلى مايو ، ومن أكتوبر إلى نوفمبر ، ويصبح إختراق خط الحدود (الصومالية - الأثيوبية) من الأمور الضرورية بالنسبة لبعض القبائل مثل البيدهان والميرهان .

فإذا رجعنا إلى الحدود التي فرضت على الأقليم بواسطة بريطانيا وفرنسا وإيطاليا نجدها ترجع إلى فترة (١٨٨٥ - ١٩٠٠) حين حصلت بريطانيا على محمية كينيا والصومال البريطاني ، بينما حصلت فرنسا وإيطاليا على مستعمراتيهما . وقد فصلت هذه الحدود الهندسية بين أراضي القبيلة الواحدة ، حيث فصلت المراعي الشتوية عن المراعي الصيفية وقد نصت المادة الرابعة من الإتفاقية الإيطالية الحبشية لعام ١٩٠٨، على أن خط الحدود يجب أن يمر إلى الشمال الغربي من وبي شبيلي بحيث تقع كل أراضي القبائل الساحلية ضمن النفوذ الإيطالي ، بينما يقع أقليم أوجادين ضمن أثيوبيا . وقد بدأت لجنة إيطالية أثيوبية تحديد الخط عام ١٩١٠ ، ولكنها لم تصادف نجاحا كبيرا لعدم إتفاق الطرفين على حدود أراضي القبائل . ورغم أن تحديد الخط بين الصومال البريطاني وأثيوبيا صادف نجاحا عام ١٩٣٥ ، لأن الصوماليون في المستعمرة البريطانية كان لهم حق عبور الحدود إلى مراعيهم التقليدية في إقليم هود طبقا للمعاهدة البريطانية الأثيوبية لعام ١٨٩٧ .

ورغم الحدود الإستعمارية فقد أدى ضغط الصوماليين المتواصل على قبائل الجالا فى شمال شرقى كينيا إلى زحزحتهم إلى الغرب من النهر فقد إنخفض عدد الصوماليين فى كينيا فى عام ١٩٢١ نتيجة تنازل بريطانيا عن الأقليم الواقع بين نهر جوبا وحدود الصومال الإيطالى ، مكافأة لإيطاليا على إشتراكها فى الحرب العالمية الأولى ، وقد إتفق على خط حدود يبعد ٦٠ميلا شرقى نهر تانا يعرف بخط الصومال **Somali Line** ومنعت هجرة الصوماليين إلى الغرب من هذا الخط ، وذلك لحماية قبائل الجالا ، ولكن هذا الإجراء بدوره لم يصادف نجاحا يذكر ، لأن الجماعات الصومالية فى الوقت الحاضر تعيش على مرمى ١٠ أميال من الضفة الشرقية للنهر.

شكل رقم (٣٢) : الصومال واثيوبيا



وقام نزاع على الحدود بين أثيوبيا وإيطاليا عام ١٩٣٥ ، وفى نفس العام إحتلت إيطاليا الحبشة ، وبذلك ربطت بين شعب الصومال فى اوجادين والصومال الإيطالى ، وإحتلت إيطاليا الصومال (الإيطالى) عام ١٩٤٠ ، غير أن السيادة الإيطالية حلت محلها السيادة البريطانية فى العام التالى ، ورغم إستقلال الحبشة إلا أن بريطانيا إستمرت فى إدارة إقليم هود ، وهذا معناه أن الشعب الصومالى إستمر تحت الحكم البريطانى حتى عام ١٩٥٠ ، عندما وضع الصومال الإيطالى تحت الوصاية الإيطالية من قبل الأمم المتحدة ، حاولت إيطاليا الوصول إلى إتفاق بشأن موضوع الحدود مع أثيوبيا خلال العشر سنوات التالية ، ولكن دون جدوى .

وبدأت وحدة الشعب الصومالى تتفكك عام ١٩٥٤ عندما رجع أقليم هود وبعض المناطق الأخرى إلى أثيوبيا ، وإن كانت قد عقدت معاهدة بين بريطانيا وأثيوبيا لحفظ حق الصوماليين الإيطالى والبريطانى فى جمهورية الصومال المستقلة . ورغم أن هذا أدى إلى وحدة بين شعب الصومال فإنه زاد من حدة النزاع مع أثيوبيا ، وأدعت أثيوبيا أنه ليس من حق حكومة الصومال وراثة حقوق أعطيت للحكومة البريطانية وهى حقوق الرعى فى أقليم هود . وقد تبع هذا محاولة الحكومة الأثيوبية ضمان ولاء الصوماليين الذين يدخلون ضمن الحدود الأثيوبية ، وجذب الجمهورية الجديدة إلى نوع من الإتحاد الفيدرالى مع أثيوبيا كما فعلت مع أرتريا ، ووعدت أثيوبيا الصوماليين بفتح المدارس وبناء المستشفيات وحفر الآبار ، فضلا عن إقامة مشروعات توليد القوى الكهربائية على نهرى جوبا وشبيلى ، ولكن الصوماليين عارضوا كل تسوية مع أثيوبيا ، مما أدى إلى أن حكومة الصومال تنفق ٢٠٪ من ميزانيتها (١٩٦٣) على المجهود الحربى .

وبينما يتصف النزاع الصومالى الأثيوبى بالقدم ، نجد النزاع الصومالى الكينى ، أو طلب صومالى كينيا الإنضمام إلى الصومال لايرجع إلا لعام ١٩٦١ . وقد إتفق الحزبان اللذان يمثلان صومالى كينيا فى مطالبهم للمستقبل ، وتتمثل هذه المطالب فى عمل إستفتاء فى مديرية الحدود الشمالية فى كينيا التى يعيش الصوماليين شرقها والبورون فى غربها وهؤلاء أقرب إلى الصوماليين منهم إلى أهل كينيا ، ويشرف على الإستفتاء أعضاء من منظمة الأمم المتحدة ولكن من غير الأعضاء الأفريقيين وذلك بعد إنسحاب قوات البوليس والجيش التابعة لكينيا من الأقليم .

هذا ولايؤيد قضية ضم الصوماليين لكينيا كونهم يرتبطون حضاريا بأهل جمهورية الصومال فحسب ، بل لأن خط الحدود الهندسى يفصل بين المراعى الصيفية والمراعى الشتوية للقبائل ، فضلا عن بعد هذا الأقليم عن بقية كينيا . وبطبيعة الحال لانجد أى من الأحزاب المتصارعة فى كينيا يوافق على إقتطاع نحو خمس مساحة كينيا وهى التى تكون المديرية الشمالية .

الحدود الجنوبية لمصر (مثلث حلايب)

لم تكن هناك حدود سياسية بين مصر والسودان بالمعنى المعروف على طول العصور التاريخية وأنما كانت هناك تخوم تتقدم وتتقهقر بحسب الظروف السياسية فى مصر ، ومهما قيل عن عصر محمد على، فقد كان عاملا فى تكوين السودان السياسى بصورته الحالية ، الحدود بين مصر والسودان لم يكن لها فى أى يوم من الأيام أية دلالة سياسية لأن مصر والسودان كانا دائما أبدا ينظر لهما كبلد واحد وقطر واحد وكانت أهمية هذه الحدود مقصورة على الأمور الإدارية وحدها وإن لم تعمد الحكومة المصرية فى يوم من الأيام إلى مراقبة حركة المرور عبر هذه الحدود من الشمال إلى الجنوب أو من الجنوب إلى الشمال ، وإنما كانت الحدود مفتوحة دائما لكل عابر ، مثلها فى ذلك مثل الحدود الإدارية الأخرى بين مديريات مصر أو بين مديريات السودان .

فالطريق الذى يمتد على طول النيل كان المرور فيه حرا ، وكانت أغلب المتاجر بين مصر ، والسودان تمر به ، وكانت حركة المسافرين فيه دائمه لاتنقطع دون أية مراقبة .

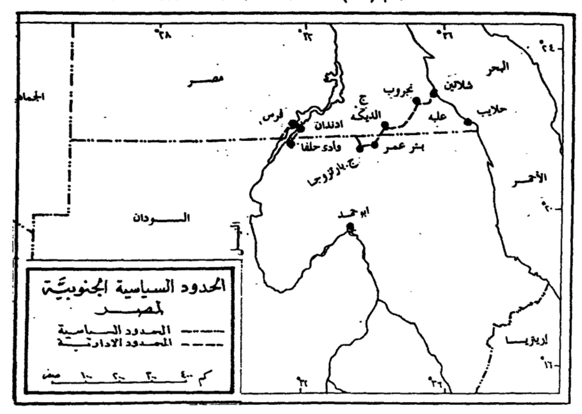
والطريق الذى يمتد فى أرض البشارية فى صحراء مصر الشرقية ، والذى تتبعه جموع الإبل الكثيرة التى كانت ومازالت تساق إلى الأسواق المصرية طريق مفتوح أيضا ، ولم يكن يخضع لأية رقابة .

ودرب الأربعين المشهور الذى كان يجتاز صحراء مصر الغربية ويربط أرض كردفان ودارفور فى الجنوب بالواحة الخارجة ، ثم بوادى النيل عند أسيوط فى الشمال كان هو أيضا طريقا مفتوحا للتجارة والمسافرين .

ولم تكن هناك أية نقط للمراقبة فى أى جزء من أجزاء هذه الطرق جميعا لكى تراقب حركة التجارة والسفر عبر الحدود التى تمتد بين مصر والسودان ، وإنما كان السفر والإتجار حرا .

غير أن الحدود السياسية الدولية الحالية ترجع إلى إتفاقية ١٨٩٩ ، أى إتفاقية الحكم الثنائى والذى أعد فى القاهرة بإشراف اللورد كرومر ، ووقعها وزير الخارجية المصرية فى ١٩ يناير ١٨٩٩ ويهمنا فيما يختص بالحدود المادة الأولى من هذه الإتفاقية :

شكل رقم (٣٣) : الحدود السياسية الجنوبية لمصر



الحدود فى إتفاقية ينـاير ١٨٩٩

تضمنت المادة الأولى من الإتفاقية ، التعرف بالأراضى التى يشملها لفظ السودان . وهى التى حسب هذه المادة تقع جنوبى الدرجة الثانية والعشرين فى خطوط العرض ، هذا الخط يمر على مسافة أميال قليلة من شمال وادى حلفا ، بينما تقع سواكن جنوبية بمسافة كبيرة . وقال كرومر - أنه تمشيا مع المبادئ التى جاءت فى مقدمة الوفاق ، يجب أن يكون مصطلح السودان مقصورا على الأراضى التى إمتلكتها مصر فى السابق، ثم إستولى عليها الدراويش ، ثم صار إسترجاعها فى وقت من الأوقات بمساعدة بريطانيا . ولكن الأخذ فى هذا الرأى لايلبث أن ينشأ عنه مصاعب إدارية كبيرة ، حيث يجب فى هذه الحالة إستبعاد كل من وادى حلفا وسواكن من الأراضى التى يشملها مصطلح السودان ، لأن لا وادى حلفا ولا سواكن سبق أن إحتلتها ثورات المهدية إطلاقا وعلى ذلك فقد قسمت الأراضى التى يدل عليها مصطلح السودان فى الإتفاق إلى فئات يهمنا منها :

١- الأراضي التى لم تدخلها قط الجنود المصرية منذ عام ١٨٨٢ وقال كرومر " أن الغرض من النص على ذلك إدخال كل من وادى حلفا وسواكن ضمن حدود السودان " .

٢- الأراضي التى كانت تحت إدارة الحكومة المصرية قبيل ثورة السودان وفقدت منها وقتيا ، ثم إفتتحتها الأن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية معا . ومعنى ذلك كما قال كرومر ، أن هذه تشمل كل الأراضي التى تم إسترجاعها مؤخرا ، وأما لماذا وصفت هذه الأراضي بأنها التى إفتتحتها الأن الحكومة المصرية بالإتحاد مع حكومة الملكة فقد قال كرومر أن الإقتصار على ذكر (الأراضي التى كانت تحت إدارة الحكومة المصرية قبل الثورة الأخيرة) دون التخصيص بأنها إفتتحت بعد ذلك بالإشتراك مع إنجلترا قد يفيد أن هذه الأراضي تشمل كذلك قسما من مديرية خط الإستواء (هو الذى عرفنا أنه صار جزء من محمية أوغندة البريطانية أو إستأجرته ولاية الكونغو الحرة البلجيكية) أو أنها قد تشمل أيضا زيلع وبربرة (وهما المعروف أنهما صارتا تؤلفان مع بلهار الصومال البريطانى) وهما اللتان قال عنهما كرومر الآن . أنه لم يكن مقصودا دون شك أن يشملهما الإتفاق الحالى .

<u>لماذا الحد فلكيا ؟</u>

وكل حد فلكى لايمكن تفسير إختياره إلا بعامل الصدفة التاريخية ، التى جعلته الحد الجنوبى للمناطق التى لم تخلها مصر فى أثناء الإنسحاب الذى نظمه الإنجليز من السودان وجاء هذا الخط متعامدا على الظاهرات الطبيعية والبشرية فى المنطقة :

١- يبدأ هذا الخط من منطقة العوينات وبينها وبين النيل نطاق غير معمور تتناثر فيه موارد مائية محدودة ، تعتبر محطات فى الطرق التى تعبر الصحراء بين الشمال والجنوب ومن أشهرها طريق الأربعين الذى يمر فى هذا النطاق بواحة سليمة (فى السودان) وأبار شب وأبو حسين فى مصر ، ويتابع إتجاهه شمالا بعد هذا ، وتدخل هذه المنطقة فى نطاق اللامعمور السودانى والمصرى ، حيث لاتتوافر عوامل الإستقرار البشرى والحياة وتنحصر أهميته فى حركة القوافل . وكان من قبل طريقا من طرق الهجرات البشرية ، أثر تأثيرا له خطره على السودان غرب النيل .

٢- فإذا ما إنتقلنا شرقا وصلنا إلى وادى النيل ، حيث الإتصال الرئيسى بين الشمال والجنوب والوادى هنا يختلف ضيقا وإتساعا . ومن

اليسير التمييز بين المعمور النيلى الذى تتركز فيه الحياة وترتفع كثافة السكان ، والنطاق الغربى إلى العوينات . فالحياة فى القطاع النيلى متصلة بين الشمال والجنوب من النواحى الطبيعية والبشرية . والفروق المحلية محدودة ، تقتصر على بعض نواحى اللغة وهى فروق آخذة فى الإندثار مع إنتشار التعليم والإقبال على اللغة العربية . وخط الحدود يخترق وطن الجماعات النوبية وهى بهذا موزعة بين مصر والسودان فى منطقة الحدود .

٣- وإلى الشرق ترتفع جبال البحر الأحمر ، وإلى شرقها تنحدر الجبال فى سرعة إلى سهل ساحلى ضيق ينتهى بنا إلى البحر . فى هذا الجزء الشرقى نطاق قليل الكثافة من البشاريين الذين ينتشرون فوق رقعة تشمل الأجزاء الجنوبية من صحراء مصر الشرقية والسودان الشرقى كله والأطراف الشمالية من إرتريا ، والقبائل الرعوية لاتعرف الإستقرار الكامل فى مكان واحد ، ولاتتقيد فى تجوالها بالحدود المصطنعة التى لاتستند إلى مقومات من عناصر البيئة ، والخط الفلكى ـــ ٢٢ درجة شمالاـ يشطر هذه القبائل دون إعتبار لنظم حياتها ، ومن أجل ذلك عجز هذا الحد الفلكى عن أن يؤدى وظيفته التى أرادتها له إتفاقية ١٩ يناير ١٨٩٩. وجاءت ظاهرة إزدواج الحدود بين مصر والسودان . وأصبح للسودان فى عهد الحكم الثنائى ، حدودا سياسية وأخرى إدارية فى المناطق الآتية :-

١- منطقة حلفا :

لذلك أصدرت وزارة الداخلية المصرية فى ٢٦ مارس سنة ١٨٩٩ أى بعد ما يقرب من شهرين فقط من إتفاقية يناير . قرارا إداريا بتعديل الحدود فى هذه المنطقة وفقا للسياسة التى رسمتها بريطانيا أنها تدخل ضمن حدود مصر ، أصبحت الحدود تمر بقرية أدندان الواقعة على الشاطئ الشرقى للنيل وبقرية فرس الواقعة على الشاطئ الغربى للنيل ، وبمقتضى هذا التعديل تخلت مصر إدارياعن مساحة واسعة من الأراضى الزراعية تبلغ ٤٠٠٠ فدان ، وعن عدد من الأشجار يبلغ ٨٢,٠٠٠ شجرة ، وعن عدد من السكان يبلغ ١٣,٠٠٠ نسمة . وعلى مجموعة من القرى يبلغ عددها عشرة ـــ كل أولئك لكى تكون تابعة إداريا للسلطات الإدارية فى السودان . وذلك لأن السياسة البريطانية أرادت هذا ، ولم تستطع مصر تحت الضغط الذى خضعت له وقتئذ إلا الموافقة على ما أملته بريطانيا .

ذلك أن الأرض الزراعية فى حلفا نفسها ضئيلة جدا . وإنها إلى الجنوب من حلفا أكثر ضآلة ، أما الشمال وبصفة خاصة فى جهات فرس وسره ودبيره وإشكيت وارقين ودغيم ودبروسة ، فإن الأرض الزراعية تتسع والسكان يتجمعون ويفلحون الأرض فإذا قدر للحدود فى هذه المنطقة أن ترسم بحيث تمر بمدينة حلفا حسب ماهو وارد فى الإتفاقية ، فإن الأراضى الخصبة الواسعة نسبيا فى هذه المنطقة ستقع فى الجانب المصرى ، وسيتبع هذا بطبيعة الحال تركز الجزء الأعظم من سكان المنطقة فى الجانب المصرى ، وسيكون إعتماد حلفا كله على الأرض الواقعة فى الجانب المصرى وعلى السكان المقيمين فى ذلك الجانب ، هذه الأرض تمتد لمسافة ٢٥ كيلو مترا إلى الشمال من حلفا ، ويوجد بها من القرى سره شرق وسره غرب وفرس ودبيره وأشكيت وأرقين ودغيم وعنتش ودبروسه وغيرها . وإذن فلا بد من تعديل الحدود فى هذه المنطقة تعديلا يكفل وضع هذا الجزء إلى الجنوب من خط الحدود أو بعبارة أخرى يؤدى إلى خضوع هذه القرى ومايتبعها من آراضى زراعية ومن يقيم بها من سكان لإدارة السودان .

٢- منطقة جبل علبة :

وتقع فى الركن الجنوبى الشرقى من مصر وهى جبلية مرتفعة تتكون من صخور قديمة غنية نسبيا ، فوفرة المياه نسبيا تجعلها إقليما جغرافيا متميزا عن بقية الصحراء الفقيرة التى تنتهى إلى النيل . سكن الجبل جماعات من البشاريين وهم ، قبيلة من البجاة الذين ينتشرون فى الصحراء الشرقية إبتداء من دائرة عرض قنا حيث يحيا العبابدة ، يليهم جنوبا البشاريون فى جبل علبه والسودان الشرقى ، ولمنطقة جبل علبه أهمية إقتصادية . فهى قطاع من الصحراء الشرقية فى كل من مصر والسودان ـ حيث موارد من الثروة المعدنية ، لاتزال دراستها بحاجة إلى إستكمال . وتزداد إمكانيات الإستفادة منها مع تطور المواصلات وطرق البحث العلمى ، وعلى السهل الذى يشرف عليه الجبل قام مرفأ حلايب تربطه طرق برية صالحة للسيارات مع بور سودان جنوبا والقصير شمالا ، وفى قلب الجبل قامت مدينة جبيت المعادن حيث مناجم الذهب القديمة ، وهذه غير جبيت أخرى على الخط الحديدى الذى يربط بين بور سودان وهيا .

وأرض هذه مميزاتها تكون من غير شك مطمع كل طامع ، لهذا نجد أن السياسة البريطانية إتجهت نحو ضمها للإدارة فى السودان ، ولهذا إقترحت على الحكومة المصرية ، ضمها إداريا إلى السودان وقد حشد

لذلك من المبررات الصورية مايجعل التعديل أمرا ضروريا ، فأدعت أن الأمور الإدارية فى هذه المنطقة من الصحارى المصرية تتطلب ضرورة وضع البدو الذين ينتمون إلى جماعة من الجماعات تحت سلطة إدارية واحدة .

وحيث أن منطقة جبل علبة وما جاورها تعيش بها جماعات من البشارية ، وأن الغالبية العظمى من تلك الجماعات تعيش فى السودان . فمن المصلحة طبقا لوجهة النظر البريطانية ضم منطقة علبة إلى السودان ولكى تطبق على سكانها من البشارية النظم الإدارية ذاتها التى تطبق على أخوانهم فى السودان وبناء على ذلك أصدر وزير الداخلية قرارا إداريا بتاريخ ١٤ نوفمبر سنة ١٩٠٢ بتعديل الحدود فى منطقة جبل علبة بحيث تصبح على النحو التالى :-

يمتد خط الحدود من نقطة على ساحل البحر الأحمر قريبا من بئر الشلاتين ثم يتجه جنوبا بغرب لمسافة ٥٨ كيلو متر إلى بئر منيجة ، ثم يمتد شمالا لمسافة ٢٨ كيلو مترا إلى جبل نجروب . ثم جنوبا بغرب لمسافة ٧٠ كيلو مترا إلى جبل أم الطيور ، ثم جنوبا مع إنحراف كبير نحو الغرب لمسافة ٥٨ كيلو مترا ثم جنوبا مع إنحراف قليل نحو الغرب لمسافة ٢٤٠ كيلو مترا حيث يقابل خط الحدود السياسية الذى يمتد مع دائرة عرض ٢٢ درجة شمالا .

وقد تخلت مصر إداريا بمقتضى هذا التعديل عن منطقة من أغنى مناطق الصحراء الشرقية مثلثة الشكل تقريبا طول ضلعها الجنوبى الذى يمتد على طول الحدود السياسية ٣٠ كيلو متر تقريبا وضلعها الشرقى الذى يطل على البحر الأحمر ٢٠٠ كيلو متر ، وضلعها الغربى ٢٠٠ كيلو متر أخرى ، وهى منطقة تبلغ مساحتها ١٢,٥٠٠ كيلو متر مربع تقريبا .

ولم تجد السياسة الإنجليزية مانعا من تغطية سياستها فى إقتطاع منطقة علبة بإقتراح ضم هذه المنطقة الفقيرة إداريا إلى أرض مصر بحجة واهية أن أغلب سكانها من البدو ينتمون إلى جماعات العبابدة ، وجماعات العبابدة هذه تعيش فى مصر ، فخير لأخوانهم فى السودان أن تطبق عليهم القوانين الإدارية ذاتها التى تطبق عليهم فى مصر .

وبناء على ذلك نجد أن نفس القرار الذى أصدره وزير الداخلية فى ٤ فبراير سنة ١٩٠٢ يتضمن ضم المنطقة المحيطة بجبل بارتازوجا إداريا إلى مصر وهى منطقة لاتزيد مساحتها عن ٦٠٠كم٢ .

٣ – منطقة كورسكو :

وهذه منطقة صحراوية أخرى أشد جفافا من المنطقتين السابقتين ، ولكنها أرض مجاورة لوادى النيل ، وتنحصر بينه وبين خط مستقيم يمتد من جبل بارتازوجا فى الجنوب حتى كورسكو الواقعة على نهر النيل فى الشمال ، وقد بدأ للسياسة البريطانية أن ضمها للسودان قد يعود عليها بنفع مادى فأملت إرادتها وكان لها ما أرادت ، وعدلت الحدود بحيث تصبح المنطقة تابعة للسودان من الناحية الإدارية . ولكن يظهر أن هذه المنطقة لم يوجد بها مايستدل منه على أهمية خاصة ولم ينجم من ضمها إداريا إلى السودان نفع ظاهر ، فتقرر إعادتها إلى الإدارة المصرية ، وصدر فى سنة ١٩٠٧ قرار بتعديل الحدود تعديلا يكفل إعادة المنطقة إلى مصر ، وذلك يجعل الحدود الإدارية منطبقة على الحدود السياسية بدلا من أن تنحرف متجهة نحو كورسكو .

هذه نظرة سريعة إلى حدود مصر الجنوبية وإلى ماطرأ عليها من تعديلات إدارية فى الفترة التى أعقبت إمضاء الإتفاقية الخاصة بالسودان فى سنة ١٨٩٩ ، ومنها يستدل على أن مصر قد إقتطعت منها مساحات واسعة ضمت إداريا إلى السودان ، وأن الحجج التى إعتمد عليها فى تبرير هذا الإقتطاع ليس لها سند من الواقع ، وإنما تمهيدا لضمها إداريا إلى السودان على إعتبار أن السودان سيبقى جزءا من إمبراطوريتهم غير أن مصر لم تكف عن المطالبة بإلغائها والإكتفاء بالحدود السياسية التى فرضتها إتفاقية سنة ١٨٩٩ .

النزاع وحجج الأطراف :

وقد بدأ نزاع الحدود المصرية السودانية عام ١٩٥٨ ، وفى آواخر يناير على وجه التحديد ، وكان ذلك بمناسبة الإنتخابات فى السودان ، وقانون الإنتخاب السودانى والذى أدخل شمالى حلفا وحلايب ضمن دوائر السودان ، وفى نفس الوقت كان إستفتاء الوحدة المصرية السورية ، وقد وضعت الحكومة المصرية الإقليم ضمن الدوائر المصرية ، ثم لاننسى أن حكومة السودان فى ذلك الوقت كانت حكومة حزب الأمة ، وكان يرأسها السيد عبد الله خليل ، وتبودلت المذكرات بين الحكوتين ، ووصل الأمر إلى حد إرسال السودان مذكرة لمجلس الأمن ، على العموم يستند كل طرف فى مطالبه إلى عدة أسباب سنوجزها فيما يلى :

١– أن له الحق فى المنطقة لأنها وضعت تحت الإدارة السودانية نحو ٦٠ عاما .

٢- حتى لو كان الحد إداريا ، فإن مصر عند إستقلال السودان عام ١٩٥٦ قبلت إدارة السودان لها ولم تطالب بها .

٣- فكرة التقادم قائمة على مبدأ الحيازة الفعلى وعدم وجود معارضة.

٤- فى إعتراف مصر بالسودان كدولة مستقلة عام ١٩٥٦ لم يكن لمصر تحفظات خاصة بالحدود ، خاصة وأن السودان أشار فى مذكرته إلى مصر ، أن يحتفظ بموقعه الحالى بالنسبة لجميع الإتفاقيات الدولية التى تمت أثناء الحكم الثنائى .

٥- مبدأ قدسية الحدود الموروثة منذ عهد الإستعمار .

<u>ويتلخص رأى مصر فى :-</u>

١- أن الحدود الدولية شيئ والحدود الإدارية شيئ آخر .

٢- مجرد الإدارة لاتكون سببا كافيا لإكتساب السيادة .

٣- التعديلات التى تمت كانت لتسهيل الإدارة ، ولذلك قامت بها وزارة الداخلية .

٤- لم تقم إتفاقية دولية بشأن هذا التعديل .

٥- سلم الطرفان المصرى والسودانى على أن تقوم المساحة المصرية والجهات المعنية برسم خطين إدارى ودولى .

٦- فى القانون الدولى لايتم التنازل عن إقليم إلا بموافقة الأطراف المعنية ، وبإجراءات معروفة .

٧- فكرة التقادم كثير من رجال القانون لايأخذون بها .

٨- الوجود المصرى كان ممثلا فى شركة علية للتعدين وهى شركة مصرية ، ومصر كانت هى التى تعطى تراخيص التعدين .

على العموم كان هناك إرتباط كبير بين إتفاق وإختلاف النظم على الجانبين وبين ظهور المشكلة وخفوتها .

نماذج لمشكلات الحدود فى آسيا وأمريكا اللاتينية

مشكلة كشمير

إشتهرت ولاية كشمير فى فترة الإستعمار البريطانى بأنها ملجأ للموظفين البريطانيين لقضاء إجازتهم صيفا ، هربا من الحر اللافح ، ومن الأمطار الموسمية ، ثم أصبحت بعد عام ١٩٤٧ من مناطق الإنفجار السياسى فى العالم ، ومنطقة صراع مرير بين الدولتين الجديدتين الهند والباكستان وكشمير ، أو بالأصح ولايتى جامو **Jammu** وكشمير ومركزى جليجت **Gillgit** ولادكه **Ladakh** يقع فى شمال باكستان الغربية أو بمعنى آخر شمال غربى الهند . من ثم أصبحت متاخمة للهند وباكستان وأفغانستان والصين . وتبلغ مساحة المنطقة موضوع النزاع مايزيد على ٨٢ ألف ميل مربع يعيش عليها ٤,٥ مليون نسمة ، ثلاثة أرباعهم من المسلمين .

ويغلب الإرتفاع على سطح كشمير ، إذ يتراوح إرتفاعها مابين الألف والألفى متر من الجنوب الغربى إلى سلاسل قراقورم فى الشمال حيث يربو الإرتفاع على الثلاثة آلاف مترا ، ولاتظهر الأرض المنخفضة إلا فى ولاية جامو حيث يمتد شريط يقل إرتفاعه عن الألف متر من جنوبها الغربى . أما ولاية كشمير فتقع شمال جامو بارتفاع يتراوح بين ١٢٠٠، ١٥٠٠ متر ، وتضم مدينة سريناجار **Srinagar** العاصمة نحو ٤٠٪ من السكان ، تجمعهم وتوحد بينهم الظروف الطبيعية والحضارية ، فهم محاطون بالجبال من جوانب ثلاثة ، ويتكلمون لغة واحدة ويدينون بالإسلام ، أما جامو التى تقع إلى الجنوب وبها نحو نصف السكان ، فيتركز الهندوسيون منهم فى جنوبها فقط ، بينما ينتشر المسلمون فى بقية أنحائها .

ويرجع النزاع بين الهند والباكستان بشأنها إلى أغسطس عام ١٩٤٧ ، حينما كان على كل ولاية أن تقرر الإنضمام إلى أى الدولتين الناشئتين . ورغم أن الديانة السائدة فى كشمير هى الإسلام ، إلا أن الأسرة الحاكمة هندوسية ، ولم يبد حاكم كشمير أول الأمر رأيه فى الإنضمام إلى أى من الدولتين ، بل يظهر أنه أراد أن يبقى الحال على ما هو عليه بعيدا عنها . ولما كان تقسيم شبه القارة الهندية ، على أساس الدين فقد بدأت الثورة الداخلية ضد الإدارة الهندوسية . وبدأت جيوش الهند تدخل كشمير لمساعدة المهراجا ، وبدأت قوات الباكستان تدخل كشمير لمساعدة الشعب، وإستمر القتال بين الفريقين فى كشمير مايزيد على العام وأخيرا

توقف القتال فى يناير عام ١٩٤٩ عند خط وقف إطلاق النار نتيجة لتدخل الأمم المتحدة ، وقسم خط وقف إطلاق النار كشمير إلى قسمين . بحيث أصبح ثلثى مساحة كشمير وأربعة أخماس سكانها تحت الإدارة الهندية بما فيها العاصمة سرينجار .

شكل رقم (٣٤) : مشكلة كشمير



وظلت كشمير مقسمة منذ عام ١٩٤٩ ، وذهبت جميع الجهود التى بذلت لحل النزاع سدى ، إذ كانت كلا الدولتين تدعيان حقوقا فى المنطقة إستنادا على أسس أنثولوجية وإقتصادية وسياسية وتاريخية . وأصبحت مشكلة كشمير من العقبات الرئيسية التى تقف فى وجه إستمرار الصداقة الهندية الباكستانية ، وحاولت الأمم المتحدة الضغط لعمل إستفتاء للسكان، ولكن هذه الرغبة كانت تعارض دائما من الهند .

وتستند باكستان فى مطالبها بكشمير إلى عوامل متعددة منها :

١- أن معظم السكان من المسلمين .

٢- إرتباط كشمير بالسكك الحديدية والطرق بما يعرف فى الوقت الحاضر بباكستان الغربية وذلك قبل تقسيمها ، من ثم كان توجيهها التجارى نحو الباكستان .

٣- أن ضم كشمير إلى الهند معناه تحكمها فى مياه السند ومدى إستفادة باكستان من مياهه فى الرى وتوليد الكهرباء ، نظرا لأن أعالى السند ورافديه الرئيسيين يمران فى كشمير .

٤- أن ضم الهند لكشمير معناه تهديد للأمن القومى فى باكستان نظرا لعدم وجود حواجز طبيعية بين جنوبى كشمير وباكستان ، فضلا عن أن ضمها للباكستان ضرورى للأمن فى أقليم الحدود الشمالية الغربية حتى لاتنفصل قبائل الباتان .

وتستند الهند فى ضمها إليها إلى عدة إدعاءات منها :

١- أن حكومة كشمير طلبت تدخل الهند رسميا عام ١٩٤٧ .

٢- أن الحكومة الهندية قامت منذ عام ١٩٤٧ بمشروعات تنمية لكشمير كمد شبكة كثيفة من طرق المواصلات البرية والحديدية مع الهند، فضلا عن مشروعات توزيع الآراضى .

٣- أن مستقبل كشمير يكون أكثر إبتساما إذا ماضمت إلى الهند لما تحتويه من أسواق أكثر إتساعا ، كما أنها أكثر تصنيعا من الباكستان .

٤- يمكن الإتفاق دوليا على مشكلة المياه التى تثيرها باكستان .

٥- يجب حماية مصالح المليون هندوسى الذين يعيشون فى جنوبى جامو .

هذا وقد سبق لنا دراسة إتفاقية مياه السند التى تمت بالإتفاق بين الدولتين والتى بمقتضاها صار نصيب الهند ٢٠٪ من مياه النهر ، ونصيب الباكستان ٨٠٪ من هذه المياه .

وكانت هناك شبكة رى لنحو ٣٠ مليون فدان قبل التقسيم ، قسمها الوضع الجديد إلى قسمين غير متعادلين : الثلثين فى باكستان والثلث فى الهند .

هذا وقد ظهرت إقتراحات متعددة لحل المشكلة نذكر منها :

١- إستفتاء يشمل كل كشمير ، بشرط إنسحاب قوات الطرفين ولكن الهند كما ذكرنا رفضت الجلاء عن أقليم أصبح تحت قبضتها الفعلية .

٢- الإجزاء ذات الغالبية الهندوسية كجامو ، والبوذية كلادكة إلى الهند والباقى إلى الباكستان .

٣- إستقلال كشمير عن كل من الجانبين ، وهذا لاشك سيحدث فراغا كبيرا فى المنطقة .

٤- ضم كل جزء من كشمير بعد وقف إطلاق النار إلى الدولة المسيطرة عليه ، وكان الرئيس نهرو من أنصار هذا الحل عام ١٩٥٦ .

هذا وقد بذلت الهند جهدا كبيرا منذ ١٩٤٩ فى ربط الجزء الذى سيطرت عليه بإنفاق رؤوس الأموال هناك . وتوجيه التجارة نحو الهند ، وفى عام ١٩٥٧ أعلنت الهند ضم هذا الجزء إليها رسميا ، ومن ثم زادت المشكلة تعقيدا ، لأن باكستان لاتعترف بهذا التقسيم ، ولعل نقلها العاصمة إلى الشمال فى راوليندى يعكس إهتمامها بالمشكلة.

مشكلة الحدود الصينية

الحدود الصينية الهندية

تمتد الحدود الصينية مع جبال همالايا ، وفى أقصى الطرف الغربى مع سلاسل قراقورم ، وبذلك تقطع مسافة ٢٥٠٠ ميل ، بينما تقع هضبة التبت إلى الشمال من خط الحدود فيما عدا أقصى الغرب حيث توجد سنكيانج التى تفصلها قراقورم عن كشمير . ولايخترق هذه المرتفعات سوى ممرات قليلة ، كما يسكن منطقة الحدود هذه عدد قليل من السكان فيما عدا قسمها الأوسط المتاخم لنيبال وبهوتان وسيكيم . وتطالب الهند بأن يسير خط مكماهون ، الذى قام السير هنرى مكماهون بالمفاوضات من أجله عام ١٩١٤ وإن كانت الصين لم تقبله فى أى وقت كحد بينها وبين الهند ، كما أن معظم هذه الخطوط لم يحدد . وكانت الهند تواجه على طول حدودها الشمالية التبت شبه المستقلة وسنكيانج ، ولكن منذ أن دخلت الشيوعية الصين عام ١٩٤٩ ، ودخول القوات الصينية التبت ، وأصبحت الهند قوة سياسية وحربية لم تعهدها من قبل .

وعملت حكومة بكين لاعلى تقوية نفوذها فى التبت وسنكيانج فحسب، بل على الضغط للحصول على مكاسب من الهند .

وبدأت الصين تخترق خط مكماهون عام ١٩٥٤ ، ولكن الرئيس نهرو كان يفسر هذه العمليات على أنها سوء فهم ، رغبة منه فى عدم قيام حرب ، وكانت الهند من أوائل الدول التى إعترفت بالنظام الجديد فى الصين ، وكانت ضمن المطالبين بإدخالها الأمم المتحدة ، ورغم ذلك

إحتلت الصين عام ١٩٥٩ بعض المناطق جنوب الخط المذكور ، وظهرت الخرائط الصينية وعليها حدود جديدة جنوب التبت وسنكيانج ، ومضيفه بذلك نحو ٥١ ألف ميل مربع إلى أراضيها . وكانت معظم الأراضى الجديدة هندية فضلا عن مساحات صغيرة من الباكستان وبهوتان ، وقد عملت الهند منذ ذلك التاريخ على تقوية جبهتها الشمالية .

ويدعى الصينيون أحقيتهم فى ١٥ ألف ميل مربع من ولاية لاداخ Ladakh فى أقصى شمال كشمير حيث تمتد قراقورم الشرقية ، وإحتلت القوات الصينية فعلا نحو ١٢ ألف ميل مربع فى منطقة النزاع ، وبدأت الهند عمليات إصلاح الطرق وأعطت الأولوية لاعمال ١٧٠ ميلا من طريق سرينجار Srinagar عاصمة مركز لاداخ و٨٠ ميلا من لادكه شرقا إلى حدود التبت . وتعمل هذه الطرق على تنمية لاداخ إقتصاديا فضلا عن خدمة الأغراض العسكرية وفى نفس الوقت كان الصينيون يمدون جزءا من طريق يربط بين Cartok فى غرب التبت ويركند Yarkand فى غرب سنكيانج .

وقد إتفقت نيبال مع الصين على الحدود بينهما عام ١٩٦٠ وأن لم يتم الإتفاق مع بهوتان حيث يطالب الصينيون بمنطقتين أحداهما على حدود بهوتان الشمالية والأخرى فى جنوبها الشرقى وأخيرا تدعى الصين أحقيتها فى ٢٦ ألف ميل من أسام وجميع هذه الأقاليم موضوع النزاع تحتلها القوات الصينية من الناحية الفعلية .

هذا وإستمرت المنازعات المسلحة بين القوات الصينية والهندية من حين إلى آخر لمدة ثلاث سنوات ، ولكن الصين رمت بثقلها عام ١٩٥٨ فى لادكه وفى الشمال الشرقى ، وأرغمت الهند على الإنسحاب من مساحات واسعة وخاصة فى لاكه ، وتركت الهند حيادها وتوجهت إلى بريطانيا والولايات المتحدة طالبة المعونة العسكرية ولكن الصينيين لم يتابعوا التقدم ، وأعلنوا خطا لوقف إطلاق النار ، بعد أن إستولوا على مساحة ١٢ ميل مربع من شمال شرق لاداخ .

وقد يتسائل البعض ماغرض الصين من هذه المناطق رغم قلة أهميتها الإقتصادية وما الداعى لإثارة دولة كانت من أوائل الدول الصديقة لنظام الحكم فيها . هل ينوى الصينيون غزو الهند أم هو إستعراض لقوتها أمام أقطار جنوب وجنوبى شرقى آسيا ومهما كان التفسير .

إدعاءات الصين

١- ويستند الصينيون فى دعواهم إلى خط مكماهون هذا لم يتم نتيجة مؤتمر تمت فيه مناقشة الموضوع ، وإنما تحدد بتبادل المذكرات سرا فى نيودلهى عام ١٩١٤ ، بين الممثل البريطانى وممثل السلطات المحلية فى التبت قبل توقيع المعاهدة فى سملا فى ١٤ مارس من ذلك العام ، ووضع الخط على خريطة عامة للهند وأطلق عليه الحد الشمالى الشرقى ، والخريطة ممهورة بتوقيع مكماهون وخاتم وتوقيع ممثل التبت ، وليس على هذه الخريطة أى توقيع صينى .

٢- أن خط مكماهون لم يرسم أو يتعين بالمعنى الدقيق ، خاصة وأنه يجرى فى منطقة جبلية معقدة التضاريس جبال شاهقة متداخلة وأودية عميقة ، ويرفض الصينيون إعتماد الهند على مبدأ خط تقسيم المياه ، لأنه ليس العنصر الوحيد فى تعيين خط الحدود ، إذ أن الجزء الأكبر من الحدود شرقى لداخ يتبع قمم جبال هيمالايا . وفى الحق أن الخط يجرى فى منطقة حساسة أقرب إلى التخوم من الناحية الفيزيوغرافية أو الأنثربوجرافية ، ولم يعمم ليتحمل ضغوط الحدود السياسية ، وخاصة منطقة دخلت مرحلة المراهقة السياسية فبدلا من أن يجرى عند حضيض سلاسل الهيمالايا ، يمر خلال هذه السلاسل ولايمكن أن يكون فاصلا قوميا أو لغويا. . . إلخ .

إدعاءات الهند

١- إن الخط المذكور جاء نتيجة إتفاقيات وأيدتها معاهدات ، وأن مبدأ تقسيم المياه ليس جديدا فى تخطيط الحدود وأن مندوب الصين كان حاضرا فى مؤتمر سملا ، ولكنه لم يوقع لإعتراضه على حدود التبت الداخلية والخارجية (الداخلية تديرها الصين ، الخارجية تتمتع بإستقلال داخلى) لاعلى حدود الهند مع التبت .

٢- القول بأن حكومة الصين كانت ضعيفة حينئذ أمام القوة البريطانية فهذا مرفوض بدوره ، فالقاعدة العامة تقول بقبول الحدود التقليدية التى جرى العرف على الإعتراف بها ، عندما يصعب تحديد الحدود فى منطقة ما ، ورغم تدخل ست دول أفريقية وآسيوية لإزالة النزاع فى ديسمبر ١٩٦٢ (أندونسيا ، كمبوديا ، بورما ، سيلان ، مصر ، غانا) فلم تنجح تلك الوساطة . لماذا حدث النزاع ؟ من الواضح أن الإقليم موضوع النزاع لايبرر النشاط العسكرى الصينى فلماذا حدث فى إقليم صعب المرأس من الناحية العسكرية ؟ إن الإجابة فى الواقع تكمن فى ميدان

الجيوبولتيك ، ومدى إفادة الصين من سياستها العدوانية التى بدأتها فى هذا الإقليم ، منها :

* إثبات قوة الصين فى أسيا ، بل وأرادت أن تثبت للعالم أن الحل الوحيد لجعلها تلتزم بمبادئ الأمم المتحدة هو قبولها فى المنظمة الدولية .

* إن مساعدة الغرب للهند فى هذا النزاع سوف يخلق مرارة للباكستان ، من حلف جنوب شرقى آسيا هو فى حد ذاته مكسبا للصين ويتضح من الخرائط التفصيلية أن هناك ممرا يربط باكستان بسنكيانج ، وظهور محور صينى / باكستانى يعتبر أمرا على درجة كبيرة من الخطورة فى هذه المنطقة من العالم .

* كان نهرو يتزعم معسكر عدم الإنحياز فى آسيا ، وهو أمر لايرضى عنه زعماء الصين فهم أحق بزعامة آسيا ، وأن تخيف أقطار جنوب شرقى آسيا .

* إرادت أن تعزز مركزها على حدود الهند ، وأن تؤمن سيطرتها على التبت بالسيطرة نهائيا على لداخ لأنها المنطقة التى تشرف على مواصلاتها الإستراتيجية مع التبت .

حدود الصين مع بورما (ميانمار) :

إتفقت الحكومة الصينية مع بورما عام ١٩٥٠ على تصفية نزاع الحدود بينهما ، وتتنازل بورما بمقتضى هذا الإتفاق عن ١٣٢ ميلا مربعا من أراضيها إلى الصين فى مقابل ٨٥ ميلا مربعا من أراضى كانت جزءا من الصين قديما ولكنها تقع تحت نفوذ بورما نتيجة إتفاقية تأجير دائم لها بين الصين وبريطانيا ، وكانت هذه الأراضى ذات أهمية كبيرة لبورما نظرا لأنه يمر بها طريق رئيسى بين ولايتى شان **Shan** وكاشين **Kachin** .

الحدود الصينية السوفييتية :

عندما وجد خروشوف أن الصينيين ينتقدونه بشدة فى تصرفه أزاء المشكلة الكوبية فى نهاية عام ١٩٦٢ لامهم على الصبر الذى يتحلون به ازاء إحتلال القوى الإستعمارية لهونج كونج ومكاو . وأثار هذا الصينيين، وذكروا الروس بأنه ليست بريطانيا والبرتغال وحدهما اللتين

فرضنا معاهدات غير متكافئة مع الصين فى الماضى ، بل أن روسيا القيصرية قد إعتدت أيضا على الأراضى الصينية . وقد عملت السياسة الصينية على ترك الحال على ماهو عليه Status quo حتى تتضح الأمور ويحين الوقت اللازم لإعادة النظر فى تلك المعاهدات وتساءلت الصين هل من نيه الروس حقيقةأثارة كل مشكلات المعاهدات غير المتكافئة وهل يعرفون نتائج إثارة هذا الموضوع وبدأت الصين إثارة موضوع جديد ليزيد من التوتر القائم بين الدولتين وهو النظر فى الأربعة آلاف ميل التى تمثل الحدود بينهما .

وعلى هذا الأساس تصبح الأقاليم موضوع النزاع ذات مساحات كبيرة فعلى مدى قرون طويلة فى التقدم نحو الشرق ضمت روسيا مساحة تقدر بنحو ٧٠٠ ألف ميل مربع من آراضى تدعى الصين أنها جزء منها ، فقد حصلت روسيا من الصين طبقا لمعاهدة ١٨٥٠ على مساحة ١٣٣ ألف ميل مربع وفى معاهدة ١٨٥٨ حصلت على مساحة ١٨٥ ألف ميل مربع. وقد ظهرت خريطة فى أحد المراجع الصينية عام ١٩٥٤ تبين الولايات البحرية للإتحاد السوفييتى فضلا عن جزء كبير من سوفيت وسط آسيا كأراضى صينية .

وزاد التوتر على الحدود الصينية الروسية فى سبتمبر ١٩٦٣ حين أتهم الصينيون الروس بالقيام بنشاط هدام على نطاق واسع فى إقليم سنكيانج ، وإجبار عشرات الألاف من المواطنين الصينيين على الهجرة إلى الإتحاد السوفييتى ، ورد السوفييت على هذا بأن الصينيين يعتدون على الحدود بإنتظام منذ عام ١٩٦٠ .

وزادت مشكلة الحدود حدة عام ١٩٦٤ ، عندما أصر الصينيون على الوصول إلى حل على أساس المعاهدات الحالية ، وإتهموا الروس بإثارة القلاقل فى مناطق الحدود ، وكان موقف الروس ، أن أى مشكلات خاصة بالحدود يمكن تسويتها بسهولة ، وليست لها أهمية كبرى . وذهب وفد لمفاوضة بكين عام ١٩٦٤ ، ولكنه رجع بخفى حنين عندما وجد أن الصين تطالب بمساحة ٥٨٠ ألف ميل مربع من الآراضى السوفييتية وقد إتهم ماوتسى تونج الإتحاد السوفييتى علنا بالنوايا التوسعية ، وأضاف " بأنه منذ قرن أصبحت جميع الأراضى الواقعة شرق بحيرة بيكال تابعة لروسيا ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت فلاديفاك وكمتشتكا وغيرها آراضى روسية ، ونحن للآن لم نطالب بتسوية هذا الوضع أما كوريل فواضح أنه لابد من رجوعها إلى اليابان " وإتهم ماو السوفييت أيضا بوضع منغوليا تحت سيطرتها وبحشد للقوات على الحدود الصينية ،

ومهما كان دافع الصين من أثارة مشكلات الحدود الروسية فإن الروس قابلوا هذا بإستعدادت دفاعية على الحدود الصينية لأى هجوم محتمل .

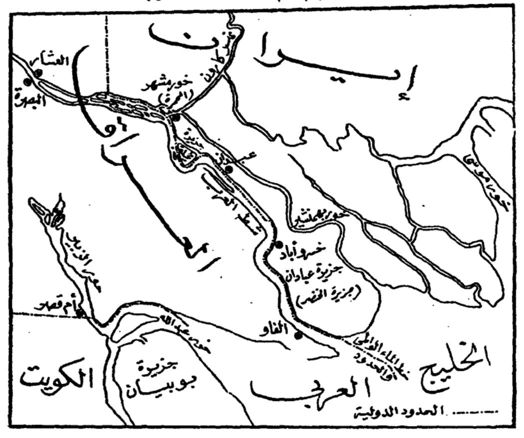
هذا ويبدو أن هدف الصين هو تصعيد النزاع بينهم وبين الروس إلى ذروته أكثر من الرغبة فى إضافة أراض جديدة .

مشكلات شط العرب

يتكون **شط العرب** عند بلدة القرنة من **إلتقاء نهرى دجلة والفرات** ، ويبلغ بذلك طوله نحو ٢٤٠ كيلو مترا حتى مصبه فى الخليج العربى ، ويبلغ عرضه عند المصب أكثر من كيلو مترين ، بينما يضيق عند البصرة إلى حوالى الكيلو متر الواحد ، ويتأثر بحالة المد والجزر حوالى ١,٧٠ مترا فى الصيف ، ويقل إلى ٢٥سم فى الربيع ، أى فى موسم الفيضان . **ويمثل شط العرب جزءا من مشكلة الحدود الإيرانية العراقية.** ولايرجع الإتفاق على هذه الحدود إلى تاريخنا المعاصر ، وإنما إلى التاريخ الحديث حينما كانت الدولة العثمانية تبسط نفوذها على العراق ، والدولة الصفوية تبسط نفوذها على فارس ، وكان شط العرب وجميع الآراضى على ضفتيه جزءا من الدولة العثمانية خلال قرون عديدة ، ولم يكن موضع نزاع بين الدولة العثمانية والدول الفارسية حتى عقد معاهدة أرضروم الثانية عام ١٨٤٧ وبمقتضاها تنازلت الدولة العثمانية عن المحمرة وجزء من أراضيها الواقعة على الضفة اليسرى لشط العرب لمصلحة فارس . وأيدت لجنة الحدود عام ١٩١٤ خضوع شط العرب للدولة العثمانية " يسير خط الحدود فى شط العرب مع مستوى المياه المنخفضة فى الشاطئ الفارسى ، بإستثناء قسم منه يتاخم ميناء المحمرة ويبلغ طوله نحوا من سبعة كيلومترات حيث تسير الحدود فى وسط مجرى شط العرب . كما سمحت الدولة العثمانية بناء على علاقات حسن الجوار بحرية الملاحة للسفن الفارسية .

وإعترفت إيران بصحة تسوية الحدود فى معاهدة ١٩٣٧ " بأن يكون خط الحدود هو نفس الخط الذى تم تخطيطه من قبل لجنة تخطيط عام ١٩١٤ ماعدا إستثناء مؤداه بتنازل العراق عن جزء صغير من شط العرب مقابل عبدان يسير خط الحدود فيه مع المجرى الملاحى لمسافة ٧ كيلو مترات لإتخاذه كمرسى للسفن الإيرانية .

شكل رقم (٣٥) : مشكلة شط العرب.



ولكـن الحكومـة الإيرانيـة لاتقتنـع بهـذا بيـن الحيـن والحيـن ، ورأيهـا أن يمتـد خـط الحـدود مـع المجـرى الملاحـى **Thalweg** وأعلنـت فـى عـام ١٩٦٩ إلغـاء معـاهدة ١٩٣٧ من جانبها وصحـب هـذا حشـود عسـكرية علـى طـول خـط الحـدود .

ويسـتند العـراق فـى دعـواه إلـى أن هـذه الحـدود تسـتند إلـى معـاهدات إعترفت بهـا الحكومـة الإيرانيـة ، ومـن ثـم يجـب إسـتبقاء الوضـع الراهـن **Status quo** حيـث يجـرى تطبيـق هـذا المبـدأ علـى أسـاس مبـدأ **uti-possidetis** وهـو إصطـلاح مسـتعار مـن القـانون الرومـانى يشـير إلـى أمـر مـن القـاضى " يحـذر فيـه مـن المسـاس بـالوضع الراهـن بملكيـة العقـارات الثابتـة وذلـك فيمـا يجـرى بيـن الأفـراد " ويـزداد هـذا المعنـى تـأكيد فـى القـانون الدولـى عندمـا يقول مبدأ **uti possidetis** " طالمـا أنـك تملـك بـالفعل فمـن حقـك أن تسـتمر فـى الملكيـة " وإذا تركنـا القـانون الدولـى جانبـا ولجأنـا إلـى الحقـائق الجغرافيـة سنجد أن خـط الحـدود فـى هـذه المنطقـة لايتفـق والظـروف الجغرافيـة طبيعيـة أو بشـرية ، ذلـك أن خـط الحـدود العراقيـة الإيرانيـة فـى الشـمال يسير مـع سفوح جبـال زاجـروس فـاصلا بيـن القوميـة العربيـة وبيـن القوميـة الإيرانيـة ، ولكـن الحـدود السياسـية إبتـداء مـن هـذه المنطقـة تفـترق

عن خط الجبال وتتجه رأسا حتى تقابل شط العرب وسط منطقة من المستنقعات أى تبتعد عن السلسلة الجبلية ، من ثم إغتصبت منطقة عربية (عربستان) لتصبح جزءا من إيران بعيدا عن كتلتها الأصلية فى العراق .

تسوية عام ١٩٧٥ : وقعت إشتباكات مسلحة عام ١٩٧١ وثارت حدة مشكلة الأكراد ، وأعقب ذلك زيادة التوتر والقصف المتبادل (١٩٧٣ / ١٩٧٤) ، وكان عام ١٩٧٤ . . هو عام التمهيد للتسوية ، ومعاهدة ١٣ يونيو ١٩٧٥ ، وفيها إرتضى الطرفان أن يفصل بينهما فى شط العرب خط الوسط للمجرى الملاحى الرئيسى عندما يكون الجزر فى الشط عند أدنى نقطة ، وبذلك يتغير حسب الخط الملاحى الرئيسى تغيرا طبيعيا فقط

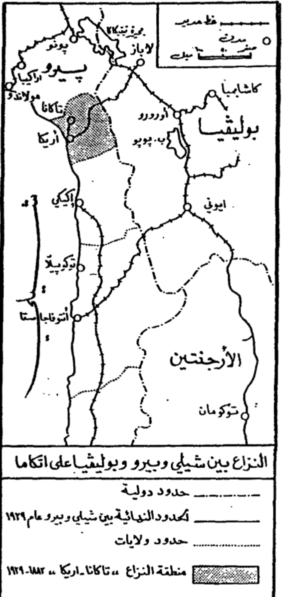
مشكلة صحراء أتكاما

وتعتبر من المشكلات الرئيسية التى تعرضت لها أمريكا اللاتينية ، وتبدو أهمية المشكلة فى إشتراك أكثر من دولتين فى النزاع على منطقة واحدة ، وهذه الدول هى بيرو وشيلى وبوليفيا ، فضلا عن أن المشكلة إتخذت شكل النزاع المسلح ، وكانت نتيجتها فى صالح المعتدى .

فقد كان القسم الشمالى من صحراء أتكاما تابعا لبيرو قبل عام ١٨٧٠، بما فى ذلك ميناء أريكا Arica وواحة تكنا Tacna القريبة منه ، هذا بينما كانت سيادة بوليفيا على القسم الأوسط من الصحراء ، ويتبع القسم الجنوبى منها شيلى ، وكانت الإهمية الإقتصادية لهذه الصحراء ضئيلة ، اللهم من تعدين بعض الذهب والفضة ، ثم زادت هذه الأهمية فجأة بعد تعدين رواسب نترات الصوديوم ، وأدى هذا إلى صراع كل دولة لمد نفوذها على الأقليم ، وكانت حكومتا شيلى وبيرو قد نشطتا فى إستغلال الأملاح التى أصبحت لها شهرة عالمية فى الخارج ، بينما إكتفت حكومة بوليفيا بجمع الضرائب على مؤسسات التعدين التابعة لشيلى وبيرو والتى تعمل فى أرضها , ونظرا لعدم وضوح الحدود ، والرغبة فى الكسب السريع ، تطور الأمر إلى صراع كان من نتيجته حرب مريرة إستمرت خمس سنوات (١٨٧٩-١٨٨٤) ، هاجمت فيها شيلى جارتيها ، وحالفها النصر فى كثير من المواقع ، وكانت نتيجة هذه الحرب فقد بوليفيا لإقليمها الساحلى بما فيه ميناء أنتوفجستا مخرج بوليفيا الوحيد إلى المحيط، وإمتدت حدود شيلى شمالا على ساحل الباسفيك حتى ميناء أريكا من ثم أصبح كل نترات الصوديوم ملكا لشيلى ، وجنت شيلى

أرباحا ضخمة من تصدير نترات صحراء أتكاما . وكان لإنقطاع بيرو عن البحر أثره الخطير على إقتصادها لإعتمادها على تصدير المعادن . وأخيرا أعتبر ميناء أريكا حرا لمرور تجارة بوليفيا الخارجية .

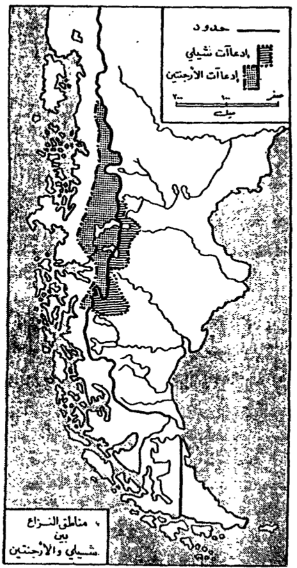
شكل رقم (٣٦) : مشكلة أتاكاما - النزاع بين شيلى وبيرو وبوليفيا



أما العلاقات بين شيلى وبيرو فقد ظلت متوترة فترة من الزمن ، ذلك أنه بمقتضى معاهدة السلام بين شيلى وبيرو والتى أنهت حرب الباسفيك، كان المفروض عمل إستفتاء فى إقليم تكنا أريكا لتحديد وضعه بين الدولتين ، ولكن شيلى عارضت عمل هذا الإستفتاء ، ولم تحل المشكلة إلا بعد ضغط دبلوماسى من الولايات المتحدة الأمريكية ، أدى إلى تقسيم الأقليم بين الدولتين ، بحيث ضمت "تكنا" إلى بيرو .

حـدود شيلى وأرجـنـتين

شكل رقم (٣٧) : مناطق النزاع بين شيلى والأرجنتين



ويضـرب بهذا الـنزاع المثل فـى إختـــلاف تفســـير التعبـــيرات الجغرافية ، ذلــك أن جبـال الأنديـز يضـرب بهـا المثل كحد طبيعى بين الأرجنتيـن وشـيلى، وإن كـانت فـى أقصـى الجنوب لاتبلـغ مـن الأرتفـاع بمافيــه الكفايـــة لتصبــح حـــاجزا منيعـا. ويحـدد الخــط الفـاصل بيـن الدولتيـــن ، المـــادة الأولـــى مـــن معـــاهدة شـــيلى ـــ أرجنتيـــن عـــام ١٨٨١ ، وتقـول هـذه المـادة " بـأن خط الحـدود يسير على أعلى القمم الجبلية والتى تقسم المياه فى نفس الوقـت ، ولكـن لسـوء الحـظ كـان الخط الـذى يصل بيـن أعلى القمـم ، ليس بخـط تقسيم الميـاه فـى جميـع الأحـوال وخاصـــة فـــى القطـــاع الجنوبـــى منهـــا ، ذلـــك أن بعـــض المجارى المائية التى تنحـدر غربـا قد نحتــت مجاريهـا العليـا تراجعيـا بحيـث أصبحــت تصــرف مياههـا علـى السـفوح الشـــرقية ، وأدعــت حكومـة شـيلى بـأن أعلـى القمـم المقصـودة بهـا أعلى القمم التى تقسم الميـاه ، وبيـن هـذه القمـم لابـد وأن يتبـع الحد السياسى خط تقسيم المياه ، أما أرجنتين فقـد ردت بـأن المقصـود مـن أعلـى القمـم هـو نفس اللفـظ فـى حـد ذاتـه ، وكـادت الحـرب تنشـب بيـن الجـانبين ، لـولا أنهمـا إتفقـا علـى تحكيـم إنجلـترا ، التـى قسـمت الأقليـم موضــوع الـنزاع ، وهـدأ الحـال عـام ١٩٠٢ بيـن الجـارتين ، وأقـام سـكان شـيلى والأرجنتيـن تمثـالا للمسـيح ، أطلقـوا عليـه مسـيح الأنديـز فـى ممـر أوسـبالاتا **Uspllatta** علـى الطريـق الرئيسـى الـذى يخـترق الجبـال بيـن بوينـس أيـرس ووسـط شـيلى .

الفصل الثالث . المياه الإقليمية

رأينا فى خريطة العالم السياسية أن هناك واحدا وثلاثين دولة ذات حدود برية تماما والباقى يطل بدرجة أو أخرى على البحر ، منها ما هو محاط بالبحر تماما كملاجاشى أو نيوزيلند أو اليابان ، ومنها ما يطل عليه لعدة أميال قليلة كما هو الحال فى العراق أو الأردن . ولكن مهما صغرت أو كبرت الواجهة التى تطل بها الدولة على البحر ، فهناك مشكلة المدى البحرى الذى يمكن لدولة أن تمد عليه سيادتها .

وتختلف السيادة على البحار عنها فى اليابس فى كثير من الوجوه . فالبحر ليس عليه سكان ثابتون مستقرون ، وتنحصر موارده (بإستثناء المعادن التى قد توجد فى قاعة أو مائة) فى ثروته السمكية ، فالسيادة هنا تنحصر فى منع الآخرين من الصيد وإستخراج المعادن والملاحة البحرية فيه أو الجوية فوقه . وقد ظهرت كثير من الإدعاءات والمنازعات حول السيادة البحرية فيه خلال العصور المختلفة ، فى القرن السادس عشر أدعت كل من أسبانيا والبرتغال السيادة على مساحات واسعة من المحيط. وكان القانون الهولندى **Hugo Grotius** أول من أشار فى كتابه (حرية البحر) إلى أنه لايمكن لدولة ما أن تفرض سيطرتها وتحكم البحار المفتوحة ، وكان ذلك فى القرن السابع عشر ، وأدعى الكتاب البريطانيون فى ذلك القرن بملكية بريطانيا للبحار المحيطة بها والتى تفصلها عن أوربا ، غير أن قانونى هولندى كان أقرب إلى الأفكار الحديثة فى كتابه (السيادة البحرية **De Domminio Maris**) الذى نشره عام ١٧٠٢ ، إذ قال أنه بينما البحر ملك للجميع إلا أن السيادة على المناطق البحرية المجاورة من حق الدولة المطلة على هذا البحر ، وحدد مسافة هذه السيادة بالمدى الذى تصل إليه طلقة المدفع ، ثم بدأ يظهر الإتجاه تدريجيا نحو حرية البحار ، حتى بدأت حرية البحار تصبح مبدأ أساسيا مع بداية القرن التاسع عشر ، فأعالى البحار ملك للجميع ، فحتى لو كان هناك دولة قوية بدرجة كافية لإمتلاكها ، فإن مطالبتها بفرض سيادتها عليها لايمكن الإعتراف بها لالصعوبة الإمتلاك الفعلى لها ، بل لأنه ليس هناك سبب معقول ووجيه لهذه الملكية .

ولقد بدأ الإقتراح الذى ذكره القانونى الهولندى عام ١٧٠٢ بأن الدولة يمكن أن تمارس حقوق سيادتها على البحار المجاورة فى حدود مدى طلقة المدفع ، بدأ يلقى قبولا لدى معظم الدول . ولكن هذه المسافة كما تعلم متغيرة تبعا لحجم ونوع المدفع ، وما إذا كان المدفع فوق ربوة أو على الشاطئ ، مثل هذه الأمور لم تناقش أول الأمر ، وفى نهاية ذلك

القرن الثامن عشر إتفق على ثلاثة أميال يمكن أن تمثل أقصى مدى للمدفعية ، وبعد هذا تدخل فى منطقة أعالى البحار الخارجية عن نفوذ الجميع . ولازال هذا المبدأ متعارف عليه فى كثير من الحالات ، وأن كان البعض قد زحزح هذه المسافة إلى ٦,٤ ثم ١٠ أو حتى ١٢ ميلا . وأخيرا كان لظهور الصواريخ عابرة القارات أثره فى جعل أى إدعاء للسيادة ، يستند على حماية منطقة بحرية من البحر أمرا غير ذى موضوع .

وقد حاولت بعض الدول الكبرى أن تضع حدا لهذه الفوضى ، وأن تفرض قاعدة الثلاثة أميال كقاعدة عامة ، لكن هذا الإقتراح لم يصادف قبولا من الكثيرين وإستحال الإتفاق على شئ بهذا الخصوص ، ولم يكن مؤتمر جنيف عام ١٩٥٨ أوفر حظا من مؤتمر لاهاى عام ١٩٣٠ ، وكانت النتيجة أن أقر المؤتمر إتفاقية المياه الإقليمية دون تحديد لعرض البحر وإستمر عدم الإتفاق بعد ذلك فى مؤتمر البحار الذى عقد عام ١٩٧٣ ، وظهر أن ٥٠,٥٪ من مجموع الدول التى حضرت المؤتمر وعددها ١١١ دولة طلبت أن تكون عرض المياه الإقليمية ١٢ ميلا بحريا، ٩٪ طالبت بأن يكون ٦ أميال بحرية ، ٢٢,٥ ٪ فقط هم الذين يوافقون على ثلاثة أميال ولكن فى نفس الوقت كان هناك مايقرب من ٧,٢ ٪ يطالبون بعرض ٢٠٠ ميل ومعظمها من دول أمريكا اللاتينية .

وهكذا تنوع الإختلاف ، بل أن تركيا طلبت أن يكون عرض مياهها الإقليمية ١٢ ميلا على البحر الأسود ، ٦ أميال على البحر المتوسط ، بل وبعض الدول مثل نيكارجوا ولبنان لم تتقدما بأى أرقام . بل وهناك بعض دول تطلب أن تتعدى مياه الصيد المياه الإقليمية أى أن تكون الأولى أكثر إتساعا من الثانية ، ومن أهمها دول غرب أوربا التى تطالب بأن يمتد نطاق الصيد أكثر من ١٢ ميلا ماعدا المملكة المتحدة التى تطالب بأن يقل عن هذا .

وهكذا بدأ إنتشار طلب المائتى ميل لأن تكون مياه صيد حينا ، ومياه إقليمية حينا آخر فى أواخر السبعينات ، وإذا فرض وإتفق على هذا الحد فمعنى هذا أن ٣٠٪ من البحار والمحيطات سوف تخرج من نطاق أعالى البحار ، وسوف تخضع كل الممرات والبحار والخلجان بين الجزر والقارات تحت السيادة القومية ، ومن الطريف أن الإتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية بالأخذ بحد الإثنا عشر ميلا على نطاق عالمى ، وحتى إذا إتفق على هذا الحد سنجد أنه سيضع جميع الممرات البحرية التى يقل عرضها عن ٢٤ ميلا تحت السيادة الإقليمية ، كالقنال

الإنجليزى وهو واحد من أكثر الممرات العالمية حركة ، نظرا لأن إتساعه من دوفر إلى كاليه إثنان وعشرون ميلا ، لذلك يتطلب هذا مجموعة من الضمانات الدولية .

وفى ظل هذه الظروف فإن إتخاذ حد الإثنا عشر ميلا تعتبره الدول التى تطالب بمائتى ميل هزيمة لها ، كما تدخلت العوامل الأيديولوجية فى الصورة فالصين الشعبية مثلا أيدت بقوة طلب المائتى ميل .

كيف يحتسب عرض المياه الإقليمية

هذا ويحتسب عرض المياه الإقليمية من آخر نقطة تنحسر عنها المياه وقت الجزر بالنسبة للشاطئ الطبيعى أو من وراء الحواجز أو الأرض التى تحيط بالموانى أو الأحواض البحرية ، وتختلف الأراء بشأن المياه الإقليمية ، فمنهم من يرى أنه لابد وأن توازى الشاطئ فى تعاريجه ، ومنهم من يرى أن تحدد بخطوط مستقيمة تقابل الخطوط الممتدة بين الرؤوس البارزة من الساحل .

هذا وإذا وجدت جزر فى المياه الإقليمية ، فإنها تعتبر جزءا من الإقليم ويصبح لها منطقة إقليمية إضافية ، من ثم تبدأ المياه الإقليمية لدولة كالنرويج كثيرة الجزر بعد هذه الجزر .

وظيفة المياه الإقليمية

لعل عامل الدفاع له الإعتبار الأول فى وظائف المياه الإقليمية . فالدولة لها حق تفتيش السفن الغريبة ، ومنع سفن الأعداء من الإقتراب منها بل لها حق إقامة أعمال دفاعية فى البحر كبث الألغام مثلا ، ولهذا الحق كانت هناك وظائف أخرى كمنع التهريب ، والتهريب عملية قديمة عرفتها جميع الشعوب منذ أن ظهرت قوانين لتنظيم التجارة . وطالما كانت وسائل الدفاع سابقا فإذا كانت هذه هى الوظيفة الوحيدة الآن ، فلاشك أنها ليست بذات أهمية بعد وسائل التسليح الحديثة . وقد قامت مواقع حربية بين الحكومات والمهربين . لذلك فمن ضمن الأسباب التى إستندت إليها الدول فى السيادة الإقليمية هو منع التهريب فقد أقر البرلمان البريطانى حق السفن البريطانية فى تفتيش أى سفن غريبة تحوم حول البلاد لمسافة فرسخين (٦ أميال) من الشاطئ ، ثم إمتد هذا الحق فيما بعد إلى ٤,٣ فراسخ حتى وصل إلى ١٠٠ فرسخ من الشاطئ ، وهذا فيه مبالغة بطبيعة الحال . وقد إنتهى هذا إلى أن ٩ أميال فيها الكفاية بالنسبة لبريطانيا ، أما بالنسبة للولايات المتحدة أقرت ٤ فراسخ أو (١٢ ميل)

مـن الشـاطئ عـام ١٧٩٠ ، وطـالبت أسـبانيا ١٨٧٣ـ ١٨٧٥ بمسـافة ٦ أميـال بحريـة [١] .

ثم تـأتى مشكلة تلوث المياه الساحلية ، وهذه ظهرت بصـورة كبيرة بعـد زيـادة أعداد السفن من ناحيـة وزيـادة النشاط البحـرى التجـارى وزيـادة نقـل زيت البترول ، وأصبحت مخلفات هذه السفن ونفاياتها خاصـة مـن الزيـوت تشكل خطـرا جسـيما علـى الميـاه السـاحلية ، منهـا مثـلا الحرائـق التـى قـد تنشب فوق هذه المسـطحات الزيتيـة ثـم تـأتى الريـاح وتدفـع هـذا المسـطح الزيتـى الملتهـب إلـى هـذا الشـاطئ أو ذاك ومنهـا أن هـذه الزيـوت تجعـل المنـاطق التـى تغطيها غير صالحـة لحيـاة الأسماك فتقضـى عليها وتفنيهـا .

ولاتظهر مشكلات ميـاه إقليمية فـى مسـائل صيـد الأسـماك مـادامت سـفن الصيد صغيرة ، ولاتتحمل الرحلات البحريـة الطويلـة ، ولكننـا فـى العصـر الحديث أمام سفن صيد ضخمة ، تجوب أعـالى البحـار بحثـا عـن الأسـماك لشدة الطلب عليها كعنصر غذائـى ممـا غـير الوضـع ، مـن ثـم لـم تظهـر مشكلات حول الصيد فى العصـور الوسطى حتـى القـرن المـاضى ، فحـق الدولـة فـى الصيـد مـن مياههـا حـق لاينـاقش ، أمـا الصيـد مـن ميـاه دولـة أخرى فتكـون عاقبتـه القبض علـى الصـائد وتوقيـع الغرامـة عليـه ، ومثـل هذه القضايـا معروفـة فـى محـاكم المـدن السـاحلية فـى غـرب أوربـا وهـذا لايمنـع أن تسـمح دولـة لسفن أجنبيـة بـالصيد فـى مياههـا ولكـن بشـرط أن تكون قد نصت على ذلك إتفاقية أو معـاهدة وإن كـانت بعـض الـدول تعجـز عـن إستعمال هذا الحق ، فهنـاك إجمـاع بين دول غـرب أوربـا علـى الصيـد فـى ميـاه أيسلند وكذلك الحـال فـى ميـاه إستراليا الشمالية غير المحمية والتـى كـان يسـتغلها الصيـادون اليابـانيون قبل الحـرب العالميـة الثانيـة .

وفـى السنين الأخيرة طـالبت كثير مـن الـدول السـاحلية بحظـر الصيـد فـى الميـاه الإقليمية وإستندت فـى هـذا إلـى إعتبـارين ، أولهمـا حمايـة حرفـة صيـد الأسـماك فـى الدولـة ، والثـانى منـع إختفـاء وإنقـراض أنـواع معينـة مـن الأسماك . ولذلك طـرد الصيـادون اليابـانيون بعد الحـرب العالميـة الثانيـة مـن ميـاه بحـر أوختسك ، كذلك طـالب صيـادو كوريـا الجنوبيـة بـالصيد فـى بحـر اليابـان ، وعززوا مطـالبهم بإسـتعمال قـوارب الصيـد المسـلحة . وفـى الحـق لقد أصبحت البحار والمحيطات تكون جـزءا رئيسيا مـن حيـاة الإنسـان بعـد أن زاد عدده وأنهك الأرض الصالحـة للإسـتغلال فـى كثـير مـن المواضـع ، وبعد التقدم التكنولوجـى الرهيب الـذى بلغـه ، والمنتظـر أن يـزداد الـنزاع فـى

---

[١] – الميل البحرى أطول من الميل الأرضى إذ يساوى ١,١١٤ ميل أرضى أو ٦٠٨٠ قدما .

العقود القادمة لإستخراج المعادن من قاع البحر والتسابق على المحيطات Scramble for the Oceans .[١]

النزاع فى البحار الشمالية

هناك بعض أقطار تعتمد إعتمادا كبيرا على الصيد البحرى **كأيسلند** التى تعتبر حالة متطرفة من هذا النوع ، وذلك أن ١٤٪ من مجموع إنتاجها القومى من الأسماك كما تمثل الأسماك ومنتجاتها ٩٠٪ من صادرات البلاد .

وقد أعلنت حكومة أيسلند أن مياهها قد أجهدت صيدا ، وطالب البرلمان الأيسلندى الحكومة بمد سيادتها البحرية حتى نهاية الرصيف القارى ، ولم تفعل هذا بل حددت مسافة ٤ أميال عام ١٩٥٢ ، ثم زادتها بعد ٦ سنوات إلى ١٢ ميلا بحريا ، وبطبيعة الحال ليس للسفن الأجنبية حق الصيد فى هذه المناطق . ونظرا لأن المياه الأيسلندية كانت تزار من قبل بواسطة العديد من سفن الصيد الأجنبية وخاصة البريطانية والألمانية، إذ يأتىنحو ١٣٪ من صيد شمال غرب أوربا من مياهها ، فقد قوبل قرار ١٩٥٢ بالإحتجاج وخاصة من بريطانيا ، ثم جاء قرار الإثنا عشر ميلا بمثابة إعتبار مساحة تقدر بنحو ٦٦٠٠ ميل مربع محرمة على الصيادين الأجانب ، بل وحرمتهم من معظم صيدهم من الباكلاه والهادوك . ولذلك إتجهت سفن الصيد البريطانية فى موسم ١٩٥٨ للصيد داخل حدود الإثنى عشر ميلا تحت حماية القوارب المسلحة وعرفت هذه الحوادث بإسم حرب البكالاه Cod war ، وإذا كان هذا ليس من حق ايسلند ، إلا أن الرأى العام العالى ، وضع إعتبارا لوضع أيسلند الإقتصادى ، وإعتمادها على الأسماك ، وقبلت بريطانيا ذاتها هذا الحد ، وبينما لم يصل النزاع البريطانى الأيسلندى إلى محكمة العدل الدولية ، فإن **النزاع البريطانى النرويجى** عرض عليها ، ذلك أن كثيرا من خطوط القاعدة فى النرويج التى عينت عام ١٩٣٥ ، كانت تبعد عن الساحل لمسافة أكثر من ١٠ أميال أحيانا ، ثم كانت المياه الإقليمية تمتد بعد ذلك لأربعة أميال ، مما دفع بالسيادة النرويجية إلى مياه إعتادت السفن البريطانية الصيد فيها ، وعندما عرض الأمر على المحكمة الدولية عام ١٩٥١ ، خذلت المحكمة بريطانيا وإنتصرت للدولة الساحلية على الدولة الدخيلة مرة أخرى ، وهكذا فإن النزاع فى معظم الأحوال ينشأ بين الدول التى تأتى سفنها لتغترف من مياه دولة أخرى .

---

[١] - أصبح العالم الآن يستخرج من ١٨٪ إلى ٢٠ ٪ من ثروته النفطية من قاع البحر .

وقامت حرب السمك أيضا بين كندا وأصدقائها ، فقد بدأت مشكلة نقص السمك عندما لوحظ إنخفاض حاد فى صيد الأسماك فى منطقة " الرصيف القارى " القريبة من أقليم نيوفوندلاند وقد أثبتت الدراسات فى ذلك الوقت أن السفن الأجنبية ، وأغلبها قادمة من أوربا خاصة من أسبانيا والبرتغال ـ ذات التاريخ العريق فى القرصنة ـ تقف على حدود المياه الأقليمية الكندية والتى تبلغ مائتى ميل من الساحل ، وتقوم بإستنزاف الثروة السمكية بصيد كميات من السمك أكثر من المسموح بها ، وإستخدام أنواع من الشباك المحرمة دوليا ، والتى تسمح لها بصيد الأسماك الصغيرة الحديثة الولادة قبل أن يكتمل نموها ، أو يتاح لها أن تتوالد ، وبعض هذه السفن تتسلل فى الظلام داخل المياه الإقليمية ، وإستمرت هذه العملية من القرصنة المنظمة لسنوات طويلة ، ولم تتنبه لهذه الجريمة التى ترتكبها هذه السفن فى حق الثروة السمكية التى تمثل أكثر من ٣٠٪ من الدخل القومى لأقاليم كندا البحرية أو الأطلنطية ، وكان على الحكومة الفيدرالية التى تقع عليها مسئولية تحديد سياسة الصيد والمصايد أن تبحث عن علاج حاسم لمواجهة هذه المشكلة ، وصدر قرار بتحديد كميات السمك المسموح بها للسفن الكندية من الأسماك الأرضية ، وحاولت كندا التفاوض مع الدول الأوربية بشرح حقيقة الكارثة التى تهدد مصايد كندا ، وتنذر بالقضاء على واحدة من أهم الثروات لكن المفاوضات لم تسفر عن أية نتائج إيجابية وفى شهر يونيو عام ١٩٩٢ ، صدر أول قانون فى كندا يمنع الصيد فى عدد من المصايد ، ثم صدر قانونان آخران فى عامى ٩٣ و ٩٤ بتحريم الصيد فى عدة شهور من السنة ، وقد أسفرت هذه القوانين عن إغلاق ٧٥ مصنعا لتعليب وتجميد الأسماك ، وتحول مايقرب من أربعين ألف عامل إلى الوقوف فى صفوف البطالة .

ولجأت كندا إلى كافة الطرق الدبلوماسية فى محاولة منها لحل هذه المشكلة بالتفاوض مع حلفائها الأوربيين ، وعندما فشلت لجأت إلى الأمم المتحدة ، وأعلنت أمام ممثلى دول العالم أن سفن أوربا تسرق وتستنزف ثروتها السمكية ، وقد إضطرت مطالبة المنظمة العالمية إتخاذ قرار يمنع دول أوربا من إستخدام شباك غير قانونية ، وبإحترام الإتفاقيات الدولية التى أقرتها منظمة صيادى شمال غرب أوربا ، وكما فشلت الأمم المتحدة فى حل الحروب الأهلية فى البوسنة والصومال وراواندا فشلت أيضا فى أزمة السمك الكندى ، وكان على حكومة أوتاوا ، وتحت ضغوط من الرأى العام من الصيادين الضحايا أن تبحث عن حل لهذه الكارثة القومية وتتصرف بمفردها .

عقد إجتماع فى هاليفاكس ـ عاصمة أقليم نوفا سكوشيا الذى يستخرج من مياهه سنويا ٤٠٪ حصيلة العالم من الأسماك القشرية مثل الجمبرى والكابوريا بالإضافة إلى أسماك السلمون والتونة ، وخلال الإجتماع الذى تم أعلنت حكومة أوتاوا الحرب على القراصنة من لصوص السمك الأوربيين ، وتقدمت إلى مجلس العموم بقانون يسمح لقواتها البحرية بالقبض على أى سفينة خارج المياه الإقليمية ، وأعلن وزير المصايد بأنه لم يعد أمامنا سوى أن نحمى البقية الباقية من إحتياطى السمك ، وإلا فأن أسماكنا سوف تختفى إلى الأبد ، وأقر مجلس العموم القانون الجديد بعد أيام ، وأثار القانون زوبعة سياسية فى دول أوربا ، إحتجاجا على قرار الحكومة الكندية ، وقد تبين من الدراسات التى قامت هناك ، أن القرصنة وسرقة السفن الأجنبية للأسماك ليست هى السبب الوحيد للكارثة التى أصابت أسماك الأطلنطى الكندية .

فقد كشف علماء التغذية أن هناك فيروسات تصيب الأسماك ، لم تكن معروفة من قبل تنتقل إليها ـ فى الغالب ـ من المياه الملوثة فى بعض المناطق من سفن الصيد التى تلقى بمخلفاتها ، مما يقتضى مراقبة شديدة لهذه السفن .

على العموم السائد الآن هو الإتفاقات التى تنظم الصيد بين الدول المعنية كإتفاقية تنظيم بين إنجلترا ، والدانمرك حول جزر فارو ، وكإتفاق تنظيم صيد السالمون بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين كندا فى منطقة شمال غرب الباسفيك ، وترخيص البرازيل عام ١٩٧٠ لخمسين سفينة من ترينداد بصيد الجمبرى فى مياهها التى تمتد لمسافة مائتى ميل وهذا معناه إعتراف صريح بهذا الحد .

النزاع فى حوض البحر المتوسط

إذا إنتقلنا إلى حوض البحر المتوسط تظهر عدة منازعات إقليمية ، قد تصعد إلى مواجهات وإن كانت ليست بالخطيرة ، كان أكثرها خطورة على سبيل المثال النزاع المغربى الأسبانى الذى يرجع إلى عام ١٩٧٢ عندما أنكرت دولة المغرب إتفاقا مع أسبانيا وقع عام ١٩٦٩ بشأن صيد الأسماك ، وبدأت دوريات الحراسة المغربية فى القبض على سفن الصيد الأسبانية ، وإزداد الوضع تأزما فى مارس ١٩٧٣ عندما أعلنت المغرب منطقة الصيد الخاصة بها وعرضها ٧٠ ميلا ، ولم تعترف أسبانيا بهذا القرار ، مما ترتب عليه أحيانا تبادل إطلاق النار فضلا عن زيادة القبض على السفن الأسبانية وإجبارها على دفع الغرامات ، حتى توصل الطرفان

إلى إتفاق فى يناير عام ١٩٧٤ ، يعتبر نصرا للمغرب ، وأن كان هذا لم يمنع من تكرار القبض على سفن الصيد الأسبانية عام ١٩٧٥ ، ومما زاد من تعقيد المشكلة عدم الإتفاق على الحدود الفاصلة بين المغرب وجزر كنارى فيما يختص بالمنطقة الإقتصادية لقاع البحر .

وحدث نزاع مماثل بين **إيطاليا وتونس** عام ١٩٧٥ نظرا لأن سفن الصيد الأيطالية تجاوزت إتفاقا سبق أن عقد بين الدولتين عام ١٩٧١ ، وحدث تبادل إطلاق النار ، وأن وضح فى هذا النزاع ضعف بعض الدول عن حماية مياهها ذلك أن السفن الإيطالية كانت أسرع من الدورية التونسية . وقام نزاع آخر بين ألبانيا ويوغسلافيا عام ١٩٧٦ عندما أطلق النار على صياد ألبانى ، ونتيجة لهذا مدت ألبانيا مياهها الإقليمية من ١٢ إلى ١٥ ميلا ، هذا ويمكن تتبع نزاعات عديدة بين دول البحر المتوسط وخاصة إذا ما كانت هناك نزاعات لأسباب محلية أخرى .

أن أكبر المشكلات التى تواجه دول حوض البحر المتوسط هى كيفية تطبيق قوانين البحار فى مساحة مائية محدودة ، يحيط بها العديد من الدول ، فإذا إتخذت كل دولة حد المائتى ميل ، فمعنى هذا التداخل بين مياه هذه الدول وقد تتعقد الأمور ، وتتطلب مفاوضات ثنائية متعددة ، ولكن لحسن الحظ فإن معظم دول البحر المتوسط حددت مياهها الإقليمية بين ٦ أميال ، ١٢ ميلا ماعدا المغرب وألبانيا (٧٥ ، ١٥ ميلا) ولكن قد تظهر هناك مشكلات حيث توجد الجزر ذات المواقع الجغرافية الحرجة كالجزر اليونانية القريبة من ساحل تركيا ، والجزر الإيطالية القريبة من الساحل التونسى ، وكذلك النزاعات الخاصة ببعض الأقاليم كجبل طارق وسبتة ومليلة .

النزاع اليونانى التركى

قام الصراع اليونانى التركى فى بحر إيجة بعد إكتشاف شركة أمريكية للبترول وهذا ما أثار إهتمام الجانبين بملكية الرصيف القارى ، وأدى إلى تتابع الأزمات ، فى ربيع وصيف عام ١٩٧٤ ، وخريف عام ١٩٧٦ ، ويتميز الموقف هنا بتعقده ، فهذه الأزمات وقعت بين شعبين وحكومتين تكن كل واحدة العداء للأخرى ، وإرتبط هذا أيضا بالنزاع اليونانى التركى على قبرص ، والحساسية الناشئة عن كون كل منهما عضو فى حلف الأطلنطى .

وتطالب اليونان بأحقيتها فى قاع بحر إيجه كله تقريبا ، على أساس ملكيتها لمعظم جزره ، بل أنها إذا تركت حدود الستة أميال المأخوذة بها

فى بحر إيجه ، وإتخذت حد الإثنى عشرة ميلا الذى بدأ يسود العالم ، فمعنى هذا أن بحر إيجه بكامله سيصبح مياها أقليمية لليونان . لذلك فهناك رؤى فى تركيا تقول بالمطالبة ببعض الجزر ، وخاصة ليسبوس والدوديكانيز ، ويخشى اليونانيون من هذه المطالبة لاعلى أساس ماحدث فى قبرص فحسب ، بل من الهجرة اليونانية الخارجية من تلك الجزر إلى مدن اليونان الأصلية ، وأن تكون مطالبة الأتراك بالرصيف القارى للجزر المقابلة لها هو مقدمة للسيادة على الجزر نفسها .

وتستند اليونان أساسا إلى مبدأ الأمر الواقع ، بينما تستند تركيا إلى ضرورة مراجعة هذا الموقف ، فتستند اليونان إلى إتفاقية جنيف لعام ١٩٥٨ التى تعترف بوجود مياه إقليمية ورصيف قارى للجزر ، بينما وضعت أسسا مختلفة منها إتخاذ خط المنتصف بين الأراضى الأصلية لكل من الدولتين أو خط أكثر الأعماق (على أساس إمتداد الرصيف القارى للأناضول) ولذلك بينما تفضل اليونان الإلتجاء إلى محكمة العدل الدولية حيث سيكون الحكم فى صالحها رغم تعقيد الموضوع ، تصر تركيا على المفاوضات الثنائية لأن فرصتها فيها ستكون أكبر .

وقد نشط هذا النزاع منذ آوائل عام ١٩٧٤ وإختلفت درجة حدته بحسب الطرق المختلفة التى إتبعتها تركيا فى الإثارة ، بدءا من الرحلات التى قامت بها سفينة المسح البحرى التركية " سيزميك ١ " إلى الحملات الصحفية ، الملتهبة ، إلى التحركات العسكرية ، ومايقابلها من إعادة اليونان تسليح بعض الجزء القريبة من الساحل التركى ، غير أن قمة المشكلة كانت عندما قامت السفينة سيزميك بمسح قاع البحر فى جهات تعتبرها اليونان من حقها ، وإذا كان نزاع ١٩٧٤ قد دخل ضمن النزاع اليونانى التركى بصفة عامة ، فإن نزاع ١٩٧٦ قد إحتواه نشاط منظمة "حلف الأطلنطى والولايات المتحدة الأمريكية " ، فقد وقع الطرفان إتفاقا بعدم التمادى فى النزاع ، والإشتراك فى محادثات ثنائية يهدف إلى الوصول إلى حد سياسى مقبول من الطرفين ، وبعكس هذا الإتفاق الضغوط الخارجية أكثر منه تحرك الجانبين للوصول إلى إتفاق ، ويمكن لعوامل أخرى أن تتدخل لتغيير الموقف مرة أخرى مثل مشكلة قبرص ، أو المضايق التركية ، أو التوازن بين حلفى وارسو وشمال الأطلنطى ، أو تغيير الحكومات فى أى منهما ، على العموم لايلوح فى الأفق أن النزاع سيبدأ ، بل يتوقع له النزاع المسلح .

على أن الأكثر خطورة هو النزاعات التى تقوم على أساس حقوق الملاحة ، ففى البحر المتوسط أعناق زجاجات أربعة ، جبل طارق ،

المضايق التركية ، وقناة السويس ، والمضايق التونسية ، وهذه المضايق لاتقتصر أهميتها على الدول التى تشرف عليها ، بل أهميتها عالمية والمرور فيها حرا ، ومع ذلك فقد تحدث بعض المشكلات ، وخاصة فيما يتعلق بالسفن الحربية .

المضايق التركية

وهى من المشكلات التى يثيرها الإتحاد السوفييتى منذ القدم لأنها تصل بين البحر الأسود وبحر ايجه ، ويمثل البسفور والدردنيل وبحر مرمره عنق الزجاجة بالنسبة للبحر الإسود . ويمتد الدردنيل لمسافة ٤١ ميلا بينما يختلف إتساعه من واحد إلى أربعة أميال ، أما البوسفور فهو أقل طولا ، إذ يبلغ طوله ١٨,٦ ميلا ، كما أنه أقل عرضا ، إذ يتراوح إتساعه بين ستمائة ياردة وميلين ، ومن ثم ليس هناك خلاف فى أنهما يقعان ضمن المياه الإقليمية لتركيا ، وتظهر أهمية هذه المناطق فى أنها تكون نافذة دفينة يستنشق منها الإتحاد السوفييتى نسيم البحر المتوسط ، وكذلك بلغاريا ، ورومانيا وخاصة بعد أن خرج الإتحاد السوفييتى من عزلته الإقتصادية ، وبدأ نشاطا إقتصاديا مع الدول العربية ، كما أن هذه المضايق مداخل للدول الغربية تصل عن طريقها وبسهولة إلى الجزء الجنوبى من الإتحاد السوفييتى ، والضرب فى نصف دائرة من حقول البترول فى القوقاز شرقا إلى جمهورية أوكرانيا شمالا وبلغاريا ورومانيا غربا ، خاصة وأن الإستراتيجية الأمريكية تصل إلى القواعد المرنة المتحركة ، وتعلق آمالا كبيرة على الأسطول السادس فى البحر المتوسط.

معاهدة سيفر ١٩٢٠

نصت على عدم تحصينها فضلا عن حرية المرور للسفن الحربية والتجارية وقت السلم والحرب ، ولكن الأتراك لم يقتنعوا بهذا ، وعرضت المشكلة على مؤتمر لوزان عام ١٩٢٣ ، وهنا نرى أن السياسة الروسية قد وقفت موقفا متناقضا ، ذلك أن روسيا التى كانت تطالب بفتح البوغازين ، عارضت ذلك ، لأنها كانت فى مرحلة إعادة بناء وإستقرار بعد الثورة الشيوعية فأرادت أن تكون فى مأمن من خصومها وأساطيلهم فى هذه المرحلة . على العموم نصت معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ على :

١- حرية مرور السفن التجارية وقت السلم ، ولايختلف الحال وقت الحرب إلا إذا كانت تركيا دولة محاربة ، فلها أن تستعمل حقوق المحاربين وتقصر المرور على السفن المحايدة .

٢- حرية مرور السفن الحربية وقت السلم ، ووقت الحرب إذا كانت تركيا على الحياد ، أما إذا كانت محاربة فلها حق إستعمال حقوق المحاربين .

٣- منع تسليح المضايق .

٤- تشكيل لجنة دولية مسئولة أمام عصبة الأمم للأشراف على المضايق .

وهكذا إستمر الحال حتى بدأت تباشير الحرب العالمية الثانية ، حين نشأ النزاع بين إيطاليا والحبشة ، وأقدمت ألمانيا على إحتلال منطقة الراين فإنتهزت الحكومة التركية الفرصة ، وطالبت بتعديل الإتفاقية فحلت محلها إتفاقية مونترية **Montreu** عام ١٩٣٦ وبمقتضاها :

١- إستعادت تركيا حقها فى تحصين المضايق .

٢- ألغيت اللجنة الدولية للمضايق وسلمت إختصاصها لتركيا .

٣- يبقى الوضع كما هو بالنسبة للسفن التجارية كما أقرته معاهدة لوزان .

٤- قصر مرور السفن الحربية على السفن الحربية الخفيفة دون الغواصات ، هذا إذا لم تشترك تركيا فى الحرب ، أما إذا إشتركت فيها أو وجدت أنها مهددة بها ، فيكون مرور المراكب الحربية متوقفا على إرادتها .

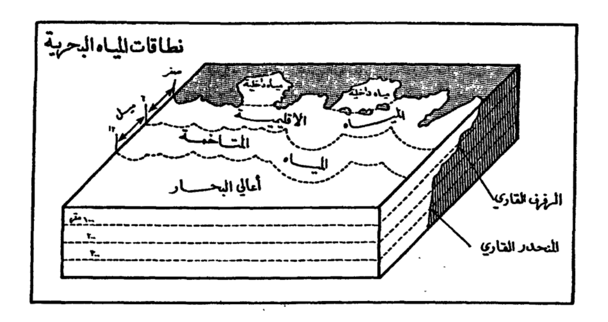
وبذلك كانت الإتفاقية لصالح تركيا إلى حد كبير . وكان عدم إشتراك تركيا فى الحرب العالمية الثانية مما دفعها إلى الحذر فيما يختص بسياستها الخاصة بالمضايق فى الفترة من ١٩٣٩ - ١٩٤٢ ولم يستعمل الحلفاء المضايق التركية فى تموين الإتحاد السوفيتى لسبب آخر وهو أن البحر المتوسط كان ملغما بالغواصات الألمانية ، وبطائرات العدو وكانت عملية حماية الأسطول التجارى والأسطول الحربى تقتضى نفقات باهظة، فضلا عن أن تركيا بالتأكيد سوف تمنع مرور القطع الحربية ، غير أنه فى بداية عام ١٩٤٤ عندما تحسنت أحوال الحلفاء إستمرت تركيا تحرم السفن المسلحة أو السفن المحمية حمل التموين إلى الإتحاد السوفييتى . لذلك وغيره ، لم يرق للاتحاد السوفييتى تلك السياسة التركية ، خاصة أنها فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وفى أحرج لحظات موقعة ستالينجراد لم تسمح تركيا للحلفاء بتموين الإتحاد السوفييتى ، فطالب بالإشراف على جميع الممرات الإستراتيجية التى تؤدى إلى أراضيه ، وطلب فعلا فى مؤتمر بوتسدام سنة ١٩٤٥ مناقشة هذا الأمر ، ولم ينته الأمر إلى نتيجة توافق عليها تركيا والإتحاد السوفييتى والغرب .

وقـد أثـار عبـور حاملـة الطـائرات السـوفييتية كييـف عـام ١٩٧٦ للمضـايق، قلـق الـدول الغربيـة ، ذلـك أن إتفاقيـة مونتريـه تحـد مـن قـدرة الإتحـاد السوفييتى على تواجد أسطول لـه فـى البحر المتوسط تكـون قواعـده فـى البحـر الأسـود وبصفـة خاصـة الغواصـات وحـاملات الطـائرات ، وهـذا معنـاه أن الإتحـاد السـوفييتى بـدأ لايعـير إتفاقيـة مونتريـه إهتمامـا ، ولكـن لايتوقـع أن يقوم نـزاع بين الإتحـاد السوفييتى وتركيا خاصـة بالمضـايق .

نطاقات المياه البحريـة

ذكرنـا أن سيادة الدولـة تنتهـى عنـد حـدود مياههـا الإقليميـة ، ولكـن مـع هذا فـلا زالت الـدول تمـارس بعـض السـيادة خـارج هـذا النطـاق ، مـن ثـم يمكن تمييز خمس نطاقـات إبتداء مـن اليـابس إلـى داخـل البحـر وهـى :

شكل رقم (٣٨) : نطاقات المياه البحرية



١- المياه الداخلية Inland Zone

وتشمل الخلجان ومصبات الأنهار والبحيرات الساحلية Lagoons وتقع جميعها داخل خط القاعدة الذى تبدأ بعده المياه الإقليمية ، وهى جزء متمم ليابسة الدولة ، لأنها إما مغلقة ، وأما لأن مياهها العذبة أكثر من المالحة، وبالتالى لاتعتبر جزءا من البحر .

٢- المياه الإقليمية Territorial Waters

وهذه تمتد من خط القاعدة لمسافة معينة تختلف من دولة إلى أخرى كما رأينا ، وفى هذا النطاق نجد سيادة الدولة مطلقة إلا فيما يختص بالمرور البرئ للسفن الأجنبية ، فلهذه السفن عبور المياه الإقليمية لأى دولة مادام عبورها لاينطوى على أضرار أو إهانة للدولة ذات المياه الساحلية ، وأى جريمة ترتكب على السفينة فى المياه الإقليمية يعامل مرتكبوها بمقتضى قوانين الدولة صاحبة المياه الإقليمية .

٣- المياه المتاخمة للأقليمية Contiguous Zone

وهذه يختلف إتساعها من دولة إلى أخرى أيضا ، ويمكن للدولة أن تمارس فيها حق تفتيش السفن التى تشك فى أنها تعمل بالتهريب ، كما تمارس فيها إجراءاتها الصحية والجمركية وتمنع الهجرة غير المشروعة، وقد تمتد بمياه الصيد وإستغلال المعادن إليها ، إذا حدث إتفاق بين جميع الأطراف المعنية ، وإلا أعتبرت ضمن أعالى البحار من الناحية النظرية، ولاتمتد هى والمياه الإقليمية لمايزيد على إثنى عشر ميلا ، بمعنى أنه إذا كانت المياه الإقليمية ٣ أميال تصبح المياه المتاخمة تسعة أميال فقط .

٤- الرفرف القارى Continetal Shelf

وهو ذلك الجزء من اليابس الذى ينحدر إلى البحر ، وتغطيه مياه البحر بمائتى متر ، ويمثل نحو ١٠٪ من مساحة البحار والمحيطات ، هو يمثل مرحلة الإنتقال من اليابس إلى البحر والمحيط . وكما هو واضح من تسميتها فهى تحيط باليابس ويختلف إتساعها . وتتميز هذه المنطقة بغناها الحيوى ، لما يترسب عليها من أملاح ومواد غذائية تحملها الأنهار من اليابس ، كما تتميز بقلة عمقها بحيث يخترقها الضوء، وتحتوى نسبة عالية من الأكسوجين ، وكلاهما يقل بسرعة بعد هذا العمق ، وكل هذا مما يساعد على نمو البلانكتون بما ينتج عنه فى النهاية أن تكون هذه

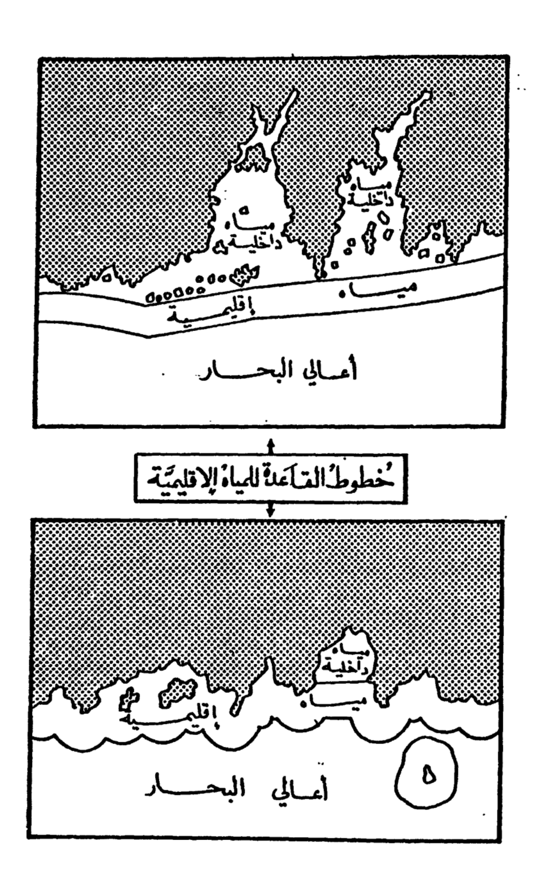
الرفارف أرضا خصبة لتكاثر الأسماك كما هو الحال فى رفارف غرب أوربا ، وأيسلند ، وبحر قزوين ، وبحر أوخستك ، وبحار اليابان ، وبيرو

ونظرا لقربها من اليابس تصبح هذه النطاقات هى أولى المناطق بحثا عن الثروة المعدنية خارج اليابس . وبينما يتركز البحث الآن عن البترول فى الخليج العربى ، وخليج المكسيك ، وبحر قزوين ، وأنجولا ، وبحر الشمال ، فإن البحث سيتضمن معادن أخرى فى المستقبل بسبب التقدم التكنولوجى فى الأبحاث والنقص المتزايد لتلك المعادن على اليابس . ولقد أصبح واضحا فى العقد الأخير ، أن هناك رواسب معدنية على هيئة كتل أو عقد متعددة لمعادن ، تكمن فوق الرفارف القارية وفى الأعماق البعيدة، فوجدت كتل من المنجنيز والنيكل والكوبالت والنحاس . وذكر فى صحيفة التايمز فى ١١ مايو سنة ١٩٧٢ أنه ثبت أن هناك تركيزات معدنية من الذهب والفضة والنحاس فى رواسب قاع البحر الأحمر . ولكن المشكلة هى فى التقدم التكنولوجى اللازم للبحث فى هذه الأعماق السحيقة ، وهذا ماتقوم به الولايات المتحدة الأمريكية الآن .

وهذا النطاق مثار خلاف كبير ، حيث تدعى الدول حقوق مختلفة عليه سواء حقوق صيد أو إستغلال لمعادن القاع ، فمثلا تدعى بيرو بإمتداد مياه الصيد الخاصة بها لمسافة ٢٠٠ ميل من الشاطئ ، وهكذا تفعل إكوادور ، وكوستاريكا . ولايعترف القانون الدولى بمياه الرصيف القارى، من ثم تتوقف السيادة عليها حسب قوة الدولة المعنية . فعلى سبيل المثال إقتربت إحدى سفن الصيد التابعة لأسطول أوناسيس لمسافة ١٨٥ ميلا من سواحل بيرو ، عام ١٩٥٤ فوقعت بيرو عليها غرامة قدرها ٣ مليون دولار ، لإعتدائها على سيادة بيرو ، وقد دفعت الغرامة للإفراج عن السفينة .

هذا ويجب أن نشير إلى الإدعاءات الخاصة بالرصيف القارى التى إتفق على أن تقتصر على إستغلال الدولة الساحلية لقاع البحر وليس للمياه السطحية ، ففى عام ١٩٥٤ مثلا أعلن الرئيس ترومان بأن الموارد الطبيعية للرصيف القارى المجاور للولايات المتحدة الأمريكية من حقها ، بينما المياه السطحية لها صفة أعالى البحار . ونتيجة لهذا التصريح ، بدأت دول أخرى تعلن حقوقها فى الرصيف القارى دون أن تقتصر مطالبها على إستغلال موارد الثروة الطبيعية كشيلى ، وبيرو ، وسلفادور، وكذلك أستراليا ، ولما كانت تطل على محيطات واسعة فلن يثر هذا مشكلات سوى فى الأخيرة لأنها حرمت اليابانيين من صيد اللؤلؤ فى مياهها ، وقد ظهرت بعض مشكلات طريفة فى هذا المجال ، وهى

شكل رقم (٣٩) : أعالى البحار



الخاصة بالكائنات البحرية المستقرة وشبه المستقرة فى قاع البحر كالمحار واللؤلؤ والإستاكوزا Lobester كما حدث بين فرنسا والبرازيل ، حينما فسر كل منهما الأمر لصالحه ، وإستمرت السفن الفرنسية فى صيد الإستاكوزا من الرصيف القارى للبرازيل لأنها تعتبر الإستاكوزا تسبح والبرازيل تعتبرها تمشى ، وكاد يحدث إشتباك مسلح لولا تراجع الفرنسيين كذلك الحال فى منع أستراليا اليابانيين من صيد اللؤلؤ من الرصيف القارى . وفى الحق أن السيادة بعد المياه المتاخمة تتوقف على قوة الدولة أكثر من أى شئ آخر .

٥- أعالى البحار : High Seas

وهذه تمتد بعد ذلك ، وليس عليها لدولة ماحق من حقوق السيادة ، وإنما هى ملك للجميع لأنه إرث مشترك للإنسانية ، وإن كان بعد تطور إستغلال ثروات قيعان البحار والمحيطات ، وقد حان الوقت لوضع قانون ينظم هذا النشاط ، وأى سلطة سوف تمنح تصريحات التنقيب .

عرض المياه الإقليمية لبعض الدول

الدولة	ميل	الدولة	ميل
إكوادور	٢٠٠	الجزائر	١٢
جابون	١٠٠	أرجنتين	٢٠٠
غانا	٣٠	البحرين	٣
اليابان	٣	لبنان	-
النرويج	٤	ليبيا	١٢
الصومال	٢٠٠	موريتانيا	٣٠
العربية السعودية	١٢	البرازيل	٢٠٠
السودان	١٢	كمرون	١٨
المملكة المتحدة	٣	الصين	١٢
الولايات المتحدة	٣	مصر	١٢
الكويت	١٢	الإتحاد السوفييتى	١٢

القـــــوى العـــــالميـــة

تمهيــــــد

مفهوم القـوة

لابد لصـانعي القرارات فى أى دولــة مـن الـدول أن تكـون لديهـم القـدرة على تنفيذ قراراتهم ، ومن ثم لايمكن لحكومات هذه الول أن تنفـذ سياسـتها إلا فـى ظـل قـوة Power تسـتخدم لفـرض إرادتهـا والتـأثير علـى سـلوك الـدول الأخـرى .

وتتمثـل القـوة السياسـية أولا : فـى القـدرة علـى صنـع وتنفيـذ القـرارات داخـل حـدود الدولـة ، ويتوقـف هـذا النـوع علـى مـدى التـأييد والدعـم الـذى يتـاح للحكومـة مـن جـانب الـرأى العام ، وكذلك علـى مـدى سـيطرة الحكومـة علـى الـرأى العـام ، وأجهزتـه الإعلاميـة ، وهــذا ليـس مــن موضوعــات الجغرافيــة السياسـية . ويتمثـل ثانيـا : فـــى القــدرة علـــى إتخــاذ القــرارات وتنفيذهـا خـارج الحـدود السياسية للدولـة ، وهـذا يدخـل فـى مجـال الجغرافيـة السياسية وفـى مجـال السياسـة . وقد درسنا بعض العوامـل التــى تعطــى هــذه القـوة كـالموقع الجغرافـى والمسـاحة والسـكان والمـوارد ... ألـخ أى العوامـل الجغرافيــة ، والعوامـــل غـير الجغرافيــة كـــالتقدم التكنولوجـــى ، والدعـــم الخـارجى ، وحركـة الميزان الدولـى فـى صـالح الدولـــة ، والأعــلام بمعنـى أن تكـون وجهـة نظرهـا واضحـة للعـالم بحيـث تعطيهـا المـبرر للحركـة . ومـن المفـروض أن الغـرض الأول والأساسـى مـن القـرار السياسـى هــو تحقيــق الرفاهيـة والتقدم لسكان الدولـة فـى الداخـل ، فضـلا عن ضمـان أمنهـا بالنسـبة للدول الأخـرى بصـرف النظـر عن الإسـتراتيجية التـى تتبعهـا للوصـول إلـى هـذه الغايـة وبـدون القـوة تصبـح الدولـة وكأنهـا شـئ لاقيمـة لـه أو علـى أقـل تقدير ، يكـون دورهـا ثانويـا .

وتسـتند القـوة السياسية فـى الميادين العالمية إلــى :

القـــوة الحربيـــة Military Power والقـــوة الإقتصاديـــة Economic Power والقــوة الحربيــة هـــى ركـــيزة القـــوة السياســية ودعامتهـــا . فـالإجراءات التـــى تتخذهـا الدولـة لفـرض قراراتهـا علـى دولـة أخـرى هـى الحـرب أو التهديد بـالحرب فكمـا يقـول A, H. Carr تكمـن الحـرب فـى

خلفية السياسة الدولية . كما تكمن الثورات فى خلفية السياسة المحلية "
وليس من شك أن القدرة على إشعال الحرب تتوقف على العوامل الجغرافية وغير الجغرافية التى ذكرناها ، غير أن القيمة النسبية لهذه العوامل التى تعطى الدولة القوة قد تتغير ، فقد إستطاع نابليون أن يعبر كل أوربا حتى موسكو فى وقت كان فيه سكان فرنسا أكبر من سكان أى دولة أخرى بإستثناء ــ ربما ــ روسيا القيصرية ، وإرتبط ظهور القوة الحربية الألمانية مع نمو الصناعة الحديثة والتى كانت ألمانيا مهيأة لها أكثر من فرنسا . وفى هذا قال كينز **Keyness** أن الإمبراطورية الألمانية بنيت بحق على الفحم والحديد أكثر منها على الدم والحديد ، كما أن الصناعة الثقيلة اليوم بدأت تخلى مكانها للصناعات الخفيفة التى تعتمد على الإلكترونيات ، وبالتالى قد تعتمد القوى العالمية فى المستقبل على اليورانيوم والمعادن الخفيفة أكثر منها على الحديد والصلب .

القوة الإقتصادية ركيزة السياسية

وإذا كانت القوى الحربية هى دعامة القوة السياسية ، فلا قوة حربية دون ركيزة إقتصادية ، فالحصول على الأسلحة وأجهزة القتال يبدو صعبا إذا لم تكن هناك طاقة لإنتاج الآلات والأدوات الخاصة بالإستعمالات العلمية . والأمثلة عديدة على أثر القوة الإقتصادية فى هذا المجال ، منها القدرة على شراء السلع النادرة والأسلحة الضرورية للحرب من الخارج، (قارن بين إعتماد إسرائيل التام على المعونات الأمريكية من السلاح أو من المال لشراء السلاح وقدرة السعودية على شرائه) ، ومنها القدرة على تخزين السلع الإستراتيجية للوصول إلى كفاية ذاتية منها ، كما فعلت اليابان وألمانيا من تخزين للنحاس قبل الحرب العالمية الثانية ، ومنها منع السلع الضرورية والإستراتيجية عن العدو كما فعلت الولايات المتحدة حين قللت من صادر الخردة عام ١٩٣٨ وكما فعل العرب فى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ حين خفضوا صادرهم من البترول ، بل ومنعوه عن الدول المؤيدة لإسرائيل ، أو إعطاء الفرصة لحلفائها فى الحصول على ماينقصهم كما فعلت الولايات المتحدة مع الدول الأوربية بمقتضى قانون الأعارة والتأجير **Lend - Lease** فى الحرب الثانية وكما تفعل الآن مع إسرائيل .

إن الحرب الحديثة تأكل الدبابات والطائرات ... إلخ ، والدول التى لاتملك مصانع لها كما هو الحال فى دول العالم الثالث ، لايمكن أن تعتمد إعتمادا مصيريا على إستمرار الدول الصناعية بإمدادها لها ، خاصة إذا ما تغيرت الظروف السياسية ، وهذه مسألة حياة أو موت ، كما ثبت فى حرب أكتوبر والجسر الأمريكى من السلاح الذى أسعفت به الولايات

شكل رقم (٤٠) : مفهوم تحليل القوة عند الجنرال الأرجنتينى جوان جوجليالمى

درجة وطبيعة التهديد

عوامل القوة وعناصرها

عوامل القوة العسكرية

القوى

البرية | البحرية | الجوية

المساعدات الخارجية

الأسلحة - المواد

الأجهزة

الوقود... الخ

الانسان

النوع الكم

التكامل القومى

التكامل الاقتصادى

(قطاعى - مكانى)

التكامل الروحى

التمويل | التجارة | الصناعات التحويلية

النقل والمواصلات | البنية التحتية الطاقة | صناعات استخراجية وثقيلة | حصاد البحر الغابات | الزراعة | التكنولوجيا TECHENCE | العمل

التعليم والثقافة | النظام القضائى | الرفاه الاجتماعى | وسائل الاتصال الاجتماعى | العقيدة | عوامل خارجية

داخلية

الموارد الطبيعية | الموارد البشرية

عوامل القوة الاقتصادية | عوامل القوة السياسية

المتحدة الأمريكية إسرائيل ، كذلك منع قطع الغيار الخاصة بصيانة الطائرات الإيرانية حتى تتحول إلى خردة .

هكذا تختلف قوة الدول ومنازلها ، وهذا هو الذى يدفع الأقوى منها إلى محاولة إستغلال تفوقه النسبى لترتيب أوضاع وعلاقات تستجيب لدواعى مصالحه القومية ، بغض النظر عما يسببه ذلك من أضرار بمصالح الدول الأخرى ، ولعل هذا هو الذى دعا البعض إلى مقولة أن العلاقات الدولية لاتخرج عن كونها صراعات قوى ، ومن ثم كانت فلسفة الحق للقوة أو أن القوة صانعة الحق **Might Makes right** وأن القانون الدولى ما هو إلا قانون اللاقانون بين الأمم **The Lawless Law of Nations** تستبيحه الدول القوية ، ولا تسرى قواعده إلا على الأمم الضعيفه .

ماكندر والهارتلاند

لم يحظ بحث قدم لجمعية علمية وآثار إهتمام المشتغلين بالشئون الإستراتيجية، والعلوم الجغرافية والتاريخية مثلما حظى بحث ماكندر البريطانى **H. Mackinder** عن الركيزة الجغرافية للتاريخ **The Geographic pivot of History** الذى قدم للجمعية الجغرافية البريطانية عام ١٩٠٤ ، فقد أثار هذا البحث الجدل والمناقشة لمدة تزيد على النصف قرن وإستمرت نظريته تدرس كموضوع أساسى فى الجغرافية السياسية ، أثرت على أفكار كيلين **Kjillen** السويدى ، وهوسهفر **Housshofer** الألمانى فى الجيوبولتيكا ، بل وأثرت فى الإستراتيجية الألمانية عام ١٩٤٠ . فهو بحث يحتوى على تحليل للنمط السياسى فى العالم ، وتنبؤ يقوم على أساس هذا التحليل .

وعاد ماكندر مرة أخرى وعرض نظريته عام ١٩١٩ فى كتابه المثل الديموقراطية والحقيقة **Democratic Ideals and Reality** .

وكررها مرة أخرى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وتتلخص فى العبارات الآتية :

من يحكم شرق أوربا يسيطر على الهارتلاند (قلب العالم) .
من يحكم الهارتلاند يسيطر على جزيرة العالم .
من يحكم جزيرة العالم يسيطر على العالم .

Who rules East Europe . Commands the Heartland .
Who rules the Heartland . Commands the world Island .
Who rules the world Island . Commands the World .

ويقصد ما كندر بجزيرة العالم تلك الحلقة المتصلة من اليابس وهى أوربا وآسيا وأفريقيا ، ويقصد بشرق أوربا تلك المنطقة المتسعة من أوربا التى تسكنها العناصر السلافية ، التى تمتد من شرق شبه جزيرة جتلاند حتى نهر الدون والفولجا وبحر أزوف ، كما تشغل السويد شمالا وآسيا الصغرى فى الجنوب الشرقى ، وتقع برلين وفيينا على أطرافها الغربية أما الهارتلاند فتحديده الجغرافى معقد بعض الشئ ، وينظر إليه ماكندر من زاويتين : على إعتبار أنه يشمل مناطق الصرف الداخلى فى أوراسيا وعلى إعتبار أنه يشمل المناطق التى يصعب على القوى البحرية الوصول إليها (تحت الظروف السائدة حينذاك) إذ يعتبر أن المحيط القطبى شرق البحر الأبيض عقبة طبيعية للتحركات البشرية .

شكل رقم (٤١) : الهارتلاند وماكيندر (١٩١٩)

ويبدو أن هناك تناقص الآن فى قوة الهارتلاند السياسية نظرا لخلخلة سكانه ، وإتساعه ، وقسوة مناخه ، فهذا الإقليم متسع حقا لأنه يضم ٩/٥ مساحة القارة الآسيوية أو نحو ١/٥ مساحة اليابس المعمورة ، كما أنه مخلخل السكان .

فالواقع أن الهارتلاند إستمد أهميته من إتساعه الكبير ، فضلا عن أمانه الطبيعى وتوسطه أوراسيا تقريبا ، ولم تهبه الطبيعة قوة دفاعية فحسب ، بل يتحكم أيضا فى خطوط المواصلات الداخلية . ولكن الغريب لدينا أن ماكندر لم يعمل حسابا كبيرا للعوامل البشرية والإقتصادية مع ما ظهر لها من شأن كبير فى الحروب . فعوامل الإتساع والبعد عن منال القوى البحرية هى قلعة الدفاع للهارتلاند . وهى القاعدة الأمينة للقيام بحرب هجومية .

وفى الحق لقد وجد ماكندر من التاريخ ما يؤيد نظريته ، فتحركات رعاة الخيل إلى أوربا وآسيا الصغرى والهند ومنشوريا والصين ، شاهد على الضغط الذى يخرج من الهارتلاند إلى المناطق الزراعية الهامشية ، ولكن إذا كان التاريخ يؤيد نظرية ماكندر فى أثر الهارتلاند على الأقاليم الهامشية وأنها دائما مصدر ومخرج للغزاة ، إلا أنه يبدو أنه بولغ فيها ، فقد شهد التاريخ أيضا قوى إستطاعت التوغل فى الهارتلاند ذاته ، فالروس راكبو القوارب الذين يبحثون عن الفراء إستطاعوا التوغل فى سيبريا ، وكانوا أول روس عمروا سيبريا ، بل ويذهب آخرون إلى أن بعضا من سكان شمال غربى سيبريا قد وصلوا إليها من شمال روسيا وفنلند ، وفى العصر الحديث حقق التوغل اليابانى فى منشوريا ومنغوليا الداخلية نجاحا على عتبة الهارتلاند .

من يحكم جزيرة العالم يسيطر على العالم

وإذا رجعنا لبقية نبوءة ماكندر نجده يقول "من يحكم جزيرة العالم يسيطر على العالم " ، نجد أنها قد لاتتحمل النقد الكثير ، لأنه لو فرض وتحقق هذا الفرض النظرى ، فإن العالم الجديد وأستراليا (لو فرض أيضا أنهما وحدا جهودهما العسكرية) سوف يترددان كثيرا قبل أن يدخلا فى نضال غير متعادل عندما يجدا أن كل فرص النجاح أمامهما تنحصر فى تفوقهما التكنولوجى والجوى والبحرى ، وفى إمكانهما إستعادة بعض الجزء المحيط بالعالم القديم ، إن كل ما قد يفعله ١/٨ سكان العالم هو حرب دفاعية ضد جزيرة العالم .

من يحكم شرق أوربا يسيطر على قلب العالم

ويبدو كذلك أن عبارة " من يحكم شرق أوربا يسيطر على قلب العالم" صحيحة ، فقد أيدتها حوادث هذا القرن ، وإن ظهرت فترات تحدى لهذه العبارة . وإستند ماكندر فى هذا إلى أدلة تاريخية وجغرافية ، فلو كانت السواحل القطبية من السهل الوصول إليها فى عصر الكشوف الجغرافية ، كما كان الحال فى خليج هدسن لكان من السهل على الإنجليز أو غيرهم من الأوربيين الوصول إلى نهرى ينسى وأوب ، أى إلى وسط سيبريا ، ولأنشأوا الشركات التجارية ، وقاموا بعد ذلك بإدعاءات سياسية فى أراضى سيبريا ، ولكن نظرا لأن الملاحة فى المحيط القطبى محدودة زمنيا ودقيقة للغاية ، فإن السيطرة على الهارتلاند من هذه الناحية يصبح من أطرافه اليابسة ، فقد يأتى من جنوب غرب آسيا كغزوات الأسكندر أو الفتح العربى ولكن الأكثر إحتمالا أن يأتى من الأطراف المزدحمة

بالسكان سواء من شرق آوربا أو الصين ، ولقد كانت الصين هى القاعدة الرئيسية للإمبراطورية المغولية فى القرن الثالث عشر ، وإن كانت بؤرة القوة المغولية هى الإستبس المغولى . وهذا مثل هام للسيطرة على الهارتلاند لا من شرق أوربا ، بل من آسيا الموسمية . وإن كانت قد فشلت فى السيطرة على شرق أوربا .

وكانت سيطرة روسيا (أكبر دولة فى شرق أوربا) على الهارتلاند عندما أخرج ماكندر كتابه المذكور قد تمت منذ مدة طويلة . ذلك أنه عند بدء ظهور بلدية موسكو وإمتدادها فى شمال ووسط روسيا ، كان هناك خسوف لقوة المغول وتنظيم للدولة الروسية فى القرن السادس عشر ، وأخذ الروس ينفذون إلى سيبريا بحثا عن الفراء وللسيطرة على هذه المساحات الواسعة . وكان لمد الخط الحديدى الذى يصل إلى الباسفيك أثره فى عمليات التعمير ، وظهور روسيا على المسرح السياسى فى الشرق الأقصى ، وذلك بسبب عمليات التوطن التى تبعته فى سيبريا .

شرق أوربا تحت سيطرة الهارتلاند : إذا نظرنا إلى الخريطة السياسية بعد الحرب الثانية ، لوجدنا أن سيطرة الهارتلاند على شرقى أوربا واضحة أكثر من أى وقت مضى ، فالإتحاد السوفييتى قد مد حدوده لمسافات كبيرة نحو الغرب بعد الحرب الألمانية الروسية (١٩٤١ / ١٩٤٥) وذلك بضمه جمهوريات البلطيق وجزء من بروسيا الشرقية ، وشرقى بولند ، وروثينيا ، وبسارابيا ، وأجزاء من جنوبى وشرقى فنلند ، وتعدى تأثير هذه الأقاليم نحو الغرب إلى فنلند وبولند وتشيكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا وبلغاريا وألبانيا وألمانيا الشرقية ، *من ثم أصبح شرقى أوربا عند ماكندر واقعا تحت نفوذ واحد* ، بإستثناء حالات قليلة كالسويد وتركيا ويوغسلافيا .

من ثم فأول نبوءة لماكندر تصف وضعا ممثلا بعد الحرب العالمية الثانية إلى حد كبير ، فالإتحاد السوفييتى السابق كقوة فى شرقى أوربا سيطر على الهارتلاند ، وأما إيران وأفغانستان فقد عملت السياسة البريطانية على أن تكونا مناطق حاجزة بين مصالحها فى جنوبى آسيا ، وبين مطامع الإتحاد السوفيتى ، لأن أفغانستان بها الممر الرئيسى إلى سهول السند والجانج ، كما تطل إيران مباشرة على المياه الدفينة وعلى أقطار جنوب غربى آسيا .

هل سيطر الهارتلاند على العالم ؟

وهنا لابد وأن نشير إلى التطورات الكبيرة التى أصابت إقتصاد الإتحاد السوفييتى ، لأنه من الواضح الآن خطأ تقدير قوة الإتحاد السوفييتى السابق قبل الحرب العالمية الثانية ، ولكن فى نفس الوقت يجب الحذر من المبالغة فى تقدير قوته ، فإذا تركنا التطورات الإقتصادية جانبا ، فإن هناك إعتبارات كثيرة تتحدى إعتقاد ماكندر فى قوة الأقاليم الواقعة تحت السيطرة السوفييتية سواء من حيث المنعة أو العدوان .

فإختراق المجال الجوى القطبى بواسطة الطيران ، أدخل إعتبارا جديدا لم يكن موجودا أيام ماكندر ، ونشأت خطوط جوية فى العروض العليا بين ألاسكا والإتحاد السوفييتى الآسيوى ، وأفادت هذه كثيرا الإتحاد السوفيتى السابق أن يتجاهل سواحله الطويلة على المياه القطبية تاركا أياها فى أمان حسب نظرية ماكندر . كذلك لايمكن للأتحاد السوفييتى حماية مطاراته المشتتة ومراكز سكانه وموانيه فى هذه المساحة الواسعة دون شبكة جديدة من المواصلات ، من ثم يثير هذا العديد من المشكلات فى الدفاع الجوى . فعملية الدفاع عن هذه المساحات الكبيرة من يابس الإتحاد السوفييتى السابق ومائة ضد العدوان الجوى تصبح صعبة .

ثم هناك مشكلة أخرى تطل فى الوقت الحاضر وهى إلى أى حد ستستعمل الأسلحة الحديثة فى الحرب القادمة ، من ذرية وهيدروجينية واخيرا صواريخ ؟ فهذه الأسلحة لاشك تحدث تغيرات ثورية فى التقديرات الجيوبولتيكية . فامتلاك القنابل الذرية والهيدروجينية والصواريخ لاشك منعت الإتحاد السوفيتى من الإستفادة الكاملة بأرصدته الإقتصادية والحربية ، ذلك أنها ستكون أهدافا للضرب.

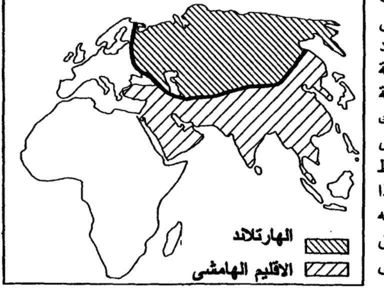
سبيكمان والنطاق الهامشى

ظهرت نظرية سبيكمان Spykman, N. (١٨٩٣ - ١٩٤٣) بعد ظهور نظرية ماكيندر بأربعة عقود ، وقد تضمن كتابه فى جغرافية السلام The Geog. of Peace الذى نشر عام ١٩٤٤ أى بعد وفاته ، خطوطا عريضة من الناحية الإستراتيجية : منها أن الطريقة الوحيدة لإستمرار السلام تأتى عن طريق نظام جماعى كأمم متحدة مسلحة ، أو بحفظ توازن دولى . وتتعلق فكرته الثانية بنظرية ماكندر ، وهى أن من يسيطر على جزيرة العالم يمكن أن يتحكم فى العالم .

وكـان مدخـل سـبيكمان إلـى المشـكلة مدخـلا أمريكيـا ، فالعــالم الغربــى يحيط بـه العـالم الشـرقى بمـا فيــه كتلـة أوراسـيا وأفريقيــه وأسـتراليا ، وتبلــغ مسـاحة يـابس نصـف الكـرة الشـرقى نحـو ٢,٥ مـرة قـدر يـابس النصــف الغربــى ، كمــا يبلــغ سـكان القسـم الشـرقى نحــو ١٠ أمثــال سـكان قسـمه الغربـى، وبتقديـرات ١٩٢٧ كـان نصـف الكـرة الشـرقى ينتـج ثلثـى فحـم العــالم وحديـده ، مـن ثـم ينتهـى سبيكمان إلـى أن العـالم الجديـد لايمكـن أن يقـف أمـام العـالم القديـم فــى نضـال طويـل ، ولابـد للسياسـة الأمريكيـة أن تمنـع وحـدة أوراسيا تحـت قـوة واحـدة .

شكل رقم (٤٢) : الإقليم الهامشى عند سبيكمان (١٩٤٤)

وأخـذ سـبيكمان علـى مـاكندر تقديـره الزائـد لإمكانـات الهـارتلاند .



فهنــاك مســاحات كبيرة مــن الأراضــى الواقعــة بيــن بولنــد ونهـر ينســى قاحلــة وأن القــوة الحقيقيــة تكمــن فــى ذلــك النطــاق مــن الــدول الــذى يحيــط بالهــارتلاند ، وهــذا النطـاق أطلـق عليــه سـبيكمان النطــاق الهامشــى **Rimland** ففــى هـذا النطـاق الهامشـى يعيش معظـم سـكان العـالم وتوجـد معظـم مـوارده .

ولـم يكـن التـاريخ السياسـى بطولـه عبـارة عـن نضــال بيـن القـوى البحريـة والقـوى البريـة بهـذه البسـاطة ، وإنمـا هـو " نضــال بيــن بريطانيـا وقـوة هامشـية مـن ناحيـة ، ضـد قـوة مـن النطـاق الهامشـى وروسـيا مـن ناحيـة أخـرى ، أو بيـن بريطانيـا وروسـيا مـن ناحيــة ، ضـد قـوة مــن النطــاق الهامشـى مـن ناحيـة أخـرى :

وقـد يقصـد سـبيكمان بهـذا :

* فرنسـا وبريطانيـا وروسـيا ضـد تركيـا .
* نجـدة فرنسـا وبريطانيـا لتركيـا فـى حـرب القـرم ضـد روسـيا .

* بريطانيا ضد فرنسا .
* بريطانيا وفرنسا وروسيا ضد ألمانيا .

فالنطاق الهامشى يمتد كمنطقة حاجزة غنية بالموارد والسكان حول الهارتلاند من ثم يجب أن تتغير فى نظرة نبوءة ماكندر إلى :

" من يسيطر على الأراضى الهامشية يحكم أوراسيا " .

" ومن يحكم أوراسيا يتحكم فى مصائر العالم " .

Who controls the Rimland rules Eurasia .

Who rules Eurasia controls the destineis of the world.

فالصراع سواء من جانب روسيا أو من جانب القوى البحرية هو للسيطرة على النطاق الهامشى ، لذلك من رأيه أن تتجه السياسة الأمريكية نحو السيطرة على دول هذا النطاق أو على الأقل لمنع الإتحاد السوفييتى السابق من السيطرة عليها ، وهذا هو الذى سارت عليه الولايات المتحدة الأمريكية من حيث محاولة ربط النطاق بالأحلاف أو الحيلولة دون ضعفها العسكرى بمدها بالمعونات العسكرية .

ماكيندر وسبيكمان فى ميزان القوى العالمية

القوى العالمية بعد الحرب العالمية الثانية

أولا : عهد القطبية الثنائية ١٩٤٥ – ١٩٩٠ Bi Polar ليس أبلغ للتعبير عن هذه المرحلة من حديث خروشوف (المنشور فى جريدة برافدا فى ١٠ مايو ١٩٥٧) حيث يقول :

" وحتى نكون أكثر تحديدا فيما يختص بالتوتر الدولى ، فيبدو واضحا أن كل شئ فى النهاية يدور حول العلاقة بين دولتين هما الإتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية ، ولتوضيح هذا يمكن القول بأنك إذا قمت بنزع أوراق (الكرنب) ورقة بعد الأخرى لتصل إلى القلب فسيكون هذا أشبه بإزاحتك جميع المشكلات مثار النزاع بين الدول جانبا، عندئذ تصل إلى قلب المشكلة وهو التضاد بين بلدينا ، الولايات المتحدة الإمريكية والإتحاد السوفييتى " .

كانت الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفييتى ، بأى مقياس من مقاييس القوة هما القوتان الرائدتان أو القوتان الأعظم حتى أواخر

الثمانينات . ويرجع ظهورهما كقوى عملاقة إلى الحرب العالمية الثانية حينما ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية بطاقة صناعية ضخمة لم تتأثر بالأزمة التى عانت منها الدول الأوربية حينذاك ، فضلا عن سلاح ذرى جرب فى اليابان ، وقوتين جوية وبحرية ضخمتين ، وإنتهت الحرب وقد بسط الإتحاد السوفييتى نفوذه على ثلثى القارة الأوربية ، وبأكبر قوة برية عالمية تضم حشدا غفيرا من المدرعات والمدفعية ، فضلا عن مراكز صناعية لم تتأثر بالإحتلال النازى وحقق هدفه الإستراتيجى الأول ، وهو القضاء على النازية وعملت كل قوة منذ نهاية الحرب على جذب عدد من الدول تسير فى محورها ، كما واجهت كل منها الأخرى فى أكثر من مناسبة بطريق مباشر وغير مباشر ، فى المجر وكوريا وفيتنام وكوبا والباكستان والهند والشرق الأوسط .

وقد استمر الإتحاد السوفييتى فى الجانب الدفاعى حتى نهاية الخمسينات . لعدم قدرته على ردع الولايات المتحدة الأمريكية ذات السلاح الذرى ، إذا ماقامت الحرب العالمية الثالثة ، ومن ثم كانت الولايات المتحدة لديها السيطرة الحربية على العالم فى تلك الفترة ، ولكن تغير الحال بعد أو أصبح الإتحاد السوفييتى بدوره قوة نووية يمكنها ردع الولايات المتحدة أو مبادأتها . وقد بلغ كل منهما قدرا من التسليح المتطور لدرجة أنه ليس متصورا أن يكون بعد ذلك مجال لأسلحة تدميرية رهيبة ، فإذا قامت حرب عالمية ثالثة ، وأستخدم فيها السلاح النووى أو النيترونى فإن صورة العالم سوف تتغير نهائيا حتى لو عمر جزء من البشرية بعدها ، بحيث لاتصبح هناك ضرورة لتسطير هذا الكتاب . ومعنى هذا أننا نفترض إستحالة قيام مواجهة نووية لأنها لن تبقى وان تذر . حقيقة أطلت الحرب النووية أكثر من مرة ولكنها سرعان ماتتوارى بعد تطور الأسلحة الرهيب بحيث تجعل للضربة الثانية قوة لاتقل عن الضربة الأولى .

ثانيا : عهد القطب الأوحد أم تعدد الأقطاب ١٩٩١ - ٢٠٠٠ Multi Polar

فجأة إختفى الدب السوفييتى ، وتحطم سور برلين ، وأعيد توحيد ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية ، ودخلت الرأسمالية دول وسط وشرق أوربا والتى كانت شيوعية من قبل ، وإنسحب الجيش الأحمر ، وألغى حلف وارسو ، وتفتت الإتحاد السوفييتى إربا ، وأصبح موضوعا تاريخيا.

هكذا كانت هناك قوتان عظميان عسكريتان تتنازعان السيادة عام ١٩٤٥ ، وقوة عظمى إقتصادية واحدة وهى الولايات المتحدة الأمريكية ،

عام ١٩٤٥ ، أما منذ عام ١٩٩١ ، فهناك قوة عظمى عسكرية واحدة تقف بمفردها .

وإختفى التكافؤ العسكرى والتقريبى الذى كان قائما بين الإتحاد السوفييتى والولايات المتحدة فى النصف الأخير من القرن العشرين . وفى بداية القرن الحادى والعشرين ، على الأقل ، ستكون هناك قوة عسكرية عظمى واحدة ، هى الولايات المتحدة . وكما أوضحت الحرب فى الخليج فإن الولايات المتحدة هى وحدها التى تستطيع أن تحرك جيشا حديثا ضخما إلى أى مكان فى العالم فى غضون بضعة أشهر .

الفروقات الرئيسية بين النظام العالمى القديم والجديد

الأنماط السائدة	النظام العالمى القديم	النظام العالمى الجديد
نمط الإنقسامات	شرق / غرب	شمال / جنوب
نمط التكتلات	تكتلات عسكرية	تكتلات تجارية
نمط الصراعات	أيديولوجية / سياسية	تجارية / إقتصادية
التفاعلات السياسية	صراعات	تسويات
التفاعلات العسكرية	سباق التسلح	نزع السلاح
الأقطاب	ثنائى الأقطاب	أحادى أو متعدد الأقطاب
الأيديولوجيات	رأسمالية / إشتراكية	رأسمالية

ويذهب البعض إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية لايمكن أن تكون قوة عسكرية عظمى مادامت تعتمد على دول أخرى فى الوفاء بالجانب الأكبر من تكاليف حروبها . ولكن كان يمكن لها أن تتحمل هذه التكاليف، ولكن المعونة المالية التى طلبتها من الدول التى لم تقدم جنودا ، وذلك لإقناع الرأى العام الأمريكى أن الحرب أساسها التحالف ، وليست مجرد جهد أمريكى منفرد ، فمن الناحية السياسية لم يكن مقبولا للأمريكيين أن يموتوا دفاعا عن إحتياجات ألمانيا أو اليابان من النفط ، ونظرا لأن جانبا كبيرا من المعدات والذخيرة التى أستخدمت فى حرب الخليج قد جاء من مخزون أمريكا العسكرى ، ولم تكن هناك حاجة إليه ، فإن أمريكا تكون

قد حققت ربحا من هذه الحرب . ومن الناحية المالية لقد خرجت أمريكا من هذه الحرب أقوى مما دخلتها .

على العموم بإستطاعة الدولة أن تكون قوة عظمى عسكرية لفترة طويلة حتى إذا كانت مقدرته الإقتصادية تتضاءل . فالضعف الإقتصادى فى المركز يؤدى إلى ضعف عسكرى عند الأطراف ، ولكن الفترات الزمنية الفاصلة تكون فى بعض الأحيان طويلة للغاية . فقد كسبت روما خلال قرون تدهورها غالبية المعارك مع الذين يعيشون على حدودها . ولكن المشكلات فى قلب الإمبراطورية أدت فى نهاية الأمر إلى الإنسحاب من الأطراف . والرومان لم يتعرضوا أبدا لهزيمة فى الجزر البريطانية ، ولكنهم غادروها ذات يوم . ونقل الرومان فيما بعد مركز إمبراطوريتهم من روما إلى القسطنطينية ، حيث لم يتعرضوا فى نهاية الأمر للهزيمة على يد الأتراك إلا بعد قرون عديدة من سقوط روما نفسها. وبينما كانت روما قد دخلت العصور الإقتصادية المظلمة ، كانت قوة روما العسكرية لاتزال مفعمة بالحيوية .

والتاريخ واضح إذن . فبينما يكون بإستطاعة القوة العسكرية فى بعض الأحيان أن تستمر بعد زوال القوة الإقتصادية لبضعة قرون ، فإن القوة العسكرية تكون معتمدة آخر المطاف على وجود قاعدة إقتصادية ناجحة . ونجاح أمريكا فى حرب الخليج دليل على أنها قوة عظمى عسكرية ، وعلى أنها ستكون كذلك فى القرن القادم . ولكن نجاحها ليس بأية حال ضمانا بأنها ستكون قوة عظمى إقتصادية فى القرن الحادى والعشرين .

لذلك فإلى جانب القوة العسكرية العظمى وهى الولايات المتحدة الأمريكية فى نهاية القرن العشرين وأوائل القرن الحادى والعشرين هناك ثلاث قوى عظمى إقتصادية بزغت إلى جانبها فى أواخر هذا القرن ، وستسطع بشدة فى القرن الحادى والعشرين ، وهى اليابان ، وأوربا المتمركزة حول ألمانيا ، ويقولون رابعهم الصين !!

وقد ظهرت بوادر عدم رضاء العالم أو أقطابه على أقل تقدير فى رفض فرنسا فى قضية الثقافة وقت إجراء مفاوضات منظمة التجارة العالمية ، وأن الثقافة لها خصوصيتها وتختلف عن البن والنحاس والقطن... ، وتمسكت فرنسا أيضا فيما يختص بقضية الشرق الأوسط بمبدأ " الدولة الفلسطينية ، وغيرها من الأمور التى سيأتى ذكرها حين ندرس فرنسا ، ولكن الملفت للنظر أيضا دعوة الرئيس الفرنسى جاك شيراك إلى إيجاد مدخل جديد بين الصين والغرب يعتمد على الإعتراف

والتقدير المتبادل تجاه القيم العالمية الأكبر ، وأن تشترك الصين في النظام العالمي المتعدد الأقطاب ، كذلك الحال في روسيا الإتحادية التي إتجهت شرقا إلى الصين ، وهذا التقارب هو تقارب سياسي مصلحي بين دولتين كبيرتين ، يجمعهما الإحساس بأن إتجاه الولايات المتحدة الأمريكية للإنفراد بالهيمنة العالمية إنما يسئ إلى كل منهما . من ثم فهذه المعركة غير المعلنة تشير إلى أن القرن الجديد سيكون متعدد الأقطاب .

وتتحول المباراة من صبغتها العسكرية إلى صبغتها الإقتصادية ، وتصبح السياسة كوكبا والإقتصاد نجما !

ويظل ماكيندر وسبيكمان على حق فيما يختص بالقوى العالمية ، فإذا نظرت للخريطة السياسية ستجد :

(١) الهارتلاند وتمثله روسيا الاتحادية فمازالت قوة عسكرية نووية خطرة رغم التدهور الذى تعانيه ، وإن كانت في طريقها الى الإنحسار .

(٢) أوربا لو قيض لها إتمام الوحدة ، وهي في طريقها فعلاً (الاقليم الهامشي)

(٣) اليابان والصين (من دول الهامش)

(٤) الولايات المتحدة الأمريكية مواجهة لدول الهامش والهارتلاند فاوربا شرقها ، والصين واليابان غربها .

قدرات وإمكانات القوى العالمية المعاصرة (١٩٩٣)

مؤشرات مختارة	الولايات المتحدة الأمريكية	أوربا	اليابان	الصين
عدد السكان	٢٥٠ مليون	٥٥٠ مليون	١٢٤ مليون	١٢٠٠ مليون
المساحة	٩,٤ مليون كم٢	٢,٤ مليون	٣٧٨ ألف كم٢	٩,٥ مليون كم٢
إجمالي الناتج القومي	٦ تريليون دولار	٦,٥ تريليون دولار	٣,٥ تريليون دولار	٤٦٠ مليار دولار
معدل النمو الإقتصادي ١٩٩٥	٣ ٪	٢,٥ ٪	٤,٣ ٪	١١ ٪
إجمالي الإنفاق العسكري	٢٦٥ مليار دولار	١٦٣ مليار دولار	٢٨ مليار دولار	١٢,٥ مليار دولار
عدد القوات المسلحة	٢,١ مليون جندي	٣ مليون جندي	٢٥٠ ألف جندي	٣ مليون جندي
عدد الأطباء	٦٠٠ ألف طبيب	٩٠٠ ألف طبيب	١٩٥ ألف طبيب	١,١ مليون طبيب
عدد المدرسين	٢,٧ مليون	٣,٦ مليون مدرس	٩٩٠ ألف مدرس	٦,٦ مليون مدرس
متوسط عمر الفرد	٧٦ سنة	٧٤ سنة	٧٨ سنة	٧٠ سنة
متوسط دخل الفرد	١٩,٥ ألف دولار سنويا	١٦ ألف دولار سنويا	٢٢ ألف دولار	٣٧٠ دولار

الفصـــــل الأول : الولايــات المتـحدة الأمـريكـــية

نمو الولايات المتحدة الأمريكية

يمكـن أن نمـيز أربعـة أدوار رئيسـية فـى نمـو الولايـــات المتحــدة وظهورهـا كقـوة عالميـة ، هـذه الأدوار هــى :

أولا : مرحلــة تعمـير القــارة بــالهجرات حتــى الحصـول علــى الأســتقلال عــام ١٧٨٣ .

ثانيــا : مرحلــة التوســع غربــاً حتــى الوصـــول الـــى الباســـفيك ١٧٨٣ ، والحــرب الأهليـــة (١٨٦١-١٨٦٥) .

ثالثـا : مرحلـة النمــو فــى الباسـفيك وأمريكــا الوسـطى مــن نهايــة الحــرب الأهليــة ١٨٦٥ ، حتـــى ١٨٩٨ .

رابعــاً : منــذ إعتــداء اليابــان علـــى بــيرل هــاربر ١٩٤١ حتـــى الوقـــت الحــاضر .

المرحلــة الأولـى – تعمـير القــارة حتــى الأســتقلال :

لـم تظهـر الولايـات المتحـدة علـى المسرح العــالمى كدولــة مسـتقلة الا منــذ مــايزيد علــى قـرن ونصـف ، ومـن هـذه الناحيــة ، نجـد أن روسـيا أكـثر منهـا قدمـاً ، ذلـك أن منطقـة موسكو أو بلديـة موسـكو بـدأت تظهـر كدولـة قويـة منـذ خمسـة قـرون علــى الأقــل ، ومــع ذلــك فقـد اسـتطاعت الولايـــات المتحــدة الأمريكيــة أن تتفـوق علــى الأتحــاد السـوفيتى زراعيـا وصناعيـا منـــذ عـــام ١٧٨٣ ، وقـاربت سـكانه فـــى ذلــك العــام ، وكلاهمــا توسـع نحــو الباســفيك ، روسـيا شـرقا مـن نواتهــا فــى أوربــا ، والولايــات المتحــدة غربــاً مــن نواتهــا علــى سـاحل المحيط الأطلنطــى .

وقــد اتجهــت السـفن مــن العــالم القديـم نحــو العــالم الخــارجى ، لتغــترف الذهـب والفضــة ، مـن المكسـيك ، وبـيرو ، وصيــد الأسـماك مــن نيوفوندلنـد ، وبـدأت بعـض عمليـات الأسـتقرار ، كــانت معظمهـــا علـــى هيئـــة حصـــون ومراكـز تجاريـة وبعثـات تبشـيرية .

وكــان **الأسـبان** هـم أنشـط الـرواد فــى المرحلــة الأولــى مــن الكشــف ، فقـد إمتـدت مسـتعمراتهم مــن فلوريـــدا إلــى كاليفورنيـا ، بينمـــا إســـتقر بعــض الفرنســيين فــى كنــدا علــى طــول ســنت لورنــس ، وأسســو مراكــز للتجـــارة

وللبعثات التبشيرية حول البحيرات العظمى والمسيسبى ، وبدأوا بتجارة الفراء مع الهنود الحمر .

وإستقر الهولنديون حول نهر هدسن ، بينما تجمع الفنلنديين والسويديين على طول ديلاوير Delaware ومع ذلك فقد كان أكثر المستعمرين عددا هم الإنجليز الذين إمتدوا من المستعمرات الفرنسية فى الشمال إلى المستعمرات الأسبانية فى الجنوب . وقامت شركة لندن بإنشاء أول مستعمرة إنجليزية وهى جمستون Jamestown فى فرجينيا ، غير أن سوء الإدارة وإنتشار الأمراض والمجاعات ومهاجمة الهنود الحمر ، أدى إلى خلق المتاعب أمام هؤلاء الرواد حتى أنه لم يبق سوى ١٢٣١ نسمة عام ١٦٢٤ من مجموع السكان الذين أرسلتهم الشركة وعددهم أربع عشر ألف نسمة ، لذلك بدأت الحكومة البريطانية التدخل ، وحولتها إلى مستعمرة ملكية . وتميزت المستعمرات الإنجليزية بنموها السريع على عكس المستعمرات الفرنسية فى الشمال والمستعمرات الأسبانية فى الجنوب ، ويرجع هذا النمو السريع إلى العاملين معا : الزيادة الطبيعية والهجرة إذ كان متوسط عدد أفراد الأسرة كبيرا فى ذلك الوقت ، فكانت الأسر ذات الثمانى أو العشرة أفراد عادية ، لأن الأباء كان فى إمكانهم إعالة الأسر الكبيرة لرخص الأرض ، ولأنهم كانوا يبنون مساكنهم بأنفسهم من أخشاب الأشجار ، فضلا عن الأولاد الذين يمكنهم المعاونة فى أعمال المنزل والمزوعة مما شجع تلك الأسر على النزول المبكر .

وكان كثيرا من الرواد الباحثين عن الحرية السياسية والدينية ، فمن هؤلاء الكاثوليك ، والهجنوت (البروتستانت الفرنسيين) واليهود ، ومنهم من أتى العالم الجديد للتبشير ، ومنهم من أتى باحثا عن حالة إقتصادية أفضل كالأيرلنديين ، وكان منح المهاجر الجديد من ٥٠ إلى ١٠٠ فدان من العوامل التى جذبت كثيرا من المزارعين والعمال الفقراء من أوربا . ويضاف إلى هذا نحو ٥٠ ألفا من نزلاء السجون الإنجليزية فقد بدأت الأحكام تصدر بالنفى إلى العالم الجديد حتى تتلخص بريطانيا من نفقات بقائهم فى السجون ، وكان كثير من هؤلاء محكوم عليه بسبب عقائده السياسية أو الدينية التى أثقلت كاهله وأعداد قليلة بسبب جرائمهم عليهم أن يؤدوا خدمات لأسيادهم لمدة تبلغ نحو السبع سنوات وبعدها يطلق سراحهم ويفك قيودهم .

وهكذا وبعد قرن من الإستعمار ، أى فى القرن السابع عشر ، لم يكن متوقعا من المستعمرين الإنجليز ــ الذين كانوا يعيشون فى الجهات الساحلية بين الأطلنطى من ناحية ، وبين الأبلاش من ناحية أخرى ــ لم

يكن متوقعا أن يكون هؤلاء نواة لسكان دولة مستقلة تصل إلى الباسفيك ، خاصة وأن عددهم إذ ذاك لم يكن يزيد على ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ، ولكن هذه النظرة تغيرت وتبدلت عام ١٧٨٣، أى بعد ثلاثة أرباع قرن آخر ، حين إستطاعت هذه المستعمرات الإنجليزية الحصول على إستقلالها من الدولة الأم ، فقد وصل عدد السكان إلى مايقرب من الثلاثة ملايين نسمة من أصل أوربى " معظمهم من الزراع " ولم تكن هناك صناعات تذكر ، كما كانت المواصلات على درجة كبيرة من الإنحطاط .

شكل رقم (٤٣) : نمو الولايات المتحدة الأمريكية

المرحلة الثانية : الوصول إلى الباسيفك

ثم كانت الفترة التى بدأ فيها التوسع على أشده وكانت ما بين ١٧٨٣ ، والحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ – ١٨٦٥) .

فقد ضم إقليم لويزيانا من نابليون (فرنسا عام ١٨٠٣ ، وفلوريدا من أسبانيا عام ١٨١٩) ، وبذلك تم للولايات المتحدة السيطرة على ساحل

الأطلنطى من الحدود الكندية حتى خليج المكسيك ، أو بمعنى آخر وصلت الولايات المتحدة إلى ما يزيد على نصف مساحتها الحالية ، ثم كان التوسع التالى الذى وصلت به إلى نهر ريوجراند عام ١٨٤٣ ، الذى وضعها وجها لوجه مع المكسيك ، ونتيجة للحروب ، ثم لعمليات الشراء فقدت المكسيك أكثر من نصف مساحتها ، (إذ كانت فى ذلك الوقت مخلخلة السكان) فقدت تكساس أحد ولايات الولايات المتحدة الأمريكية الآن ، ثم بعد ذلك إتفقت الولايات المتحدة الأمريكية مع بريطانيا على الحدود الكندية ، وفى عام ١٨٤٦ ضمت إريجون إليها ، ثم عادت المكسيك فتنازلت عن جزء آخر من أراضيها وهى كاليفورنيا العليا Upper Calif عام ١٨٤٨ .

وبهذا تكونت الولايات المتحدة الأمريكية بحدودها الحالية منذ أكثر من قرن بقليل ثم إشترت الاسكا من روسيا عام ١٨٦٧ ، وعلى العموم يمكن أن نقول بأن عام ١٨٦٩ هو العام الذى تم فيه تماسك الولايات المتحدة الأمريكية الحديثة نظرا لأنه تم فى هذا العام الإنتهاء من مد أول خط حديدى عبر القارة .

وهنا يصح المقارنة بين توسع الإتحاد السوفييتى السابق نحو الشرق ، وتوسع الولايات المتحدة الأمريكية نحو الغرب ، فكلاهما بدأ نواة ، كانت بمثابة مشتل للدولة الجديدة ، وكلاهما توسع فى أعقاب هجرات الزراع المستعمرين الذين سبقوا التوسع الرسمى للدولة ، وكلاهما إستمر سيرا نحو الباسيفك ، ولم يقف إلا عند المحيط ، وإن كان الروس قد تعدوا البحر إلى الاسكا وغرب أمريكا الشمالية ، وكلاهما عانى صعوبات ومشكلات عديدة فى سبيل تكوين الإمبراطورية ، فقد وجدوا صعوبات من السكان الأصليين ، وهم العناصر المغولية المختلفة التى تعيش شرق الأورال والهنود الحمر والأسبان والمكسيكيين فى غرب الولايات المتحدة الأمريكية وجنوبها ، وكما أن الحكم القيصرى كان يتبع المستوطنين كان العلم الأمريكى يتبع الناس .

Where the folk went, the flag should (Ratzel)

وإستمرت سياسة العلم الذى يتبع الناس ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وكان حلم الكثيرين أن يستمر هذا التوسع حتى تشمل الدولة الجديدة كل أمريكا الشمالية ، وخاصة تلك الأجزاء التى لاتفصلها عقبات طبيعية عن أراضى الولايات المتحدة ، فيجب أن يحقق الأمريكيون مصيرهم الفزيوغرافى Physiographic Destiny حتى لقد كان

البعض يتنبأ أنه ما أن ينتهى القرن التاسع عشر ، حتى تعكس المياه تلاطم شواطئ أمريكا الشمالية ، نجوم الراية الأمريكية واشرطتها .

ولم تسهم الولايات المتحدة الأمريكية بنشاط يذكر خلال فترة التوسع هذه خارج القارة ، ففى حربها مع بريطانيا (١٨١٢ - ١٨١٥) إقتصرت الحرب على الحدود الكندية الأمريكية من ناحية ، وعلى المواقع البحرية فى الأطلنطى من ناحية أخرى ، وفى العشر سنين التالية عندما كانت المستعمرات الأسبانية والبرتغالية فى أمريكا اللاتينية تناضل فى سبيل إستقلالها ، أظهرت عطفها على هذه الجمهوريات الجديدة ، بغية طرد القوى الأوربية من العالم الجديد بإعلان مبدأ مونرو الذى يقوم على اساسين :

١- عدم السماح للدول الأوربية بإنشاء مستعمرات جديدة فى الأمريكتين .

٢- عدم السماح للدول الأوربية بالتدخل فى شئون دول الأمريكتين .

وقد وقف هذا المبدأ مانعا للقوى الأوربية من إستعمار القارة ، أما إهتمامات الولايات المتحدة خارج أمريكا الشمالية فلم تظهر إلا بعد الحرب الأهلية التى إنتهت عام ١٨٦٥ ، فقد بدأت بعدها تظهر إهتماماتها الخارجية خاصة فى المحيط الهادى الشمالى ، وفى أمريكا الوسطى .

المرحلة الثالثة ـ النمو فى الباسيفك وأمريكا الوسطى :

زاد إهتمام الأمريكيين بالشرق الأقصى بعد ثورة الإستقلال ، وذلك حينما بدأ تجار نيو إنجلند التجارة مع الصين . وقد ظلت كانتون لعدة سنوات هى الميناء الوحيد المفتوح للأجانب ، ثم عقدت الصين عام ١٨٤٠ عدة إتفاقيات منحت بمقتضاها عدة موانى أخرى للأجانب وحصلت الولايات المتحدة الأمريكية على حق التجارة فى هذه الموانىء عام ١٨٤٤ ، بل دخلت وحصلت على إمتياز عدم خضوع الأمريكيين الذين يعيشون فى الصين لحكومة الصين ، بل يخضعون للقانون الأمريكى ، وللموظفين الرسميين الأمريكيين .

حصل الأمريكيون أيضا على حق دخول الموانئ اليابانية والتجارة معها عام ١٨٤٥ ، ثم زاد الإهتمام بعد الإستيلاء على هاواى ، وجزر سامو ، وجزيرة ويك Wake والفلبين (١٨٩٨ - ١٨٩٩) بل أن إمتلاكها للفلبين جعلها جارة لكل من الصين واليابان ، ووجد رجال

الأعمال الأمريكيون الفرصة سانحة للتجارة مع هذا العدد الغفير من الشعب الصينى .

وبينما كانت الولايات المتحدة الأمريكية مشغولة بتسوية حربها مع أسبانيا ، كانت القوى الإنجليزية والفرنسية والروسية واليابانية تسعى إلى الإستحواذ على مناطق نفوذ لها فى الصين ، ووجدت الولايات المتحدة الأمريكية أن الأسواق الصينية ستقفل فى وجهها ، فأعلنت سياسة الباب المفتوح لكل الدول فى الصين عام ١٨٩٩ ، وذلك خشية على مصالحها الإقتصادية .

الاسـكا :

وأكبر الولايات البعيدة عن صلب الولايات المتحدة الأمريكية ، بمساحة تزيد على النصف مليون نسمة وقد إشترتها الولايات المتحدة الأمريكية عقب الحرب الأهلية . وكان لإكتشاف ثروتها المعدنية ، فضلا عن أهميتها الإستراتيجية أثره فى زيادة عدد سكانها بنحو ثلاث مرات منذ عام ١٩٣٠ ، ويتجمع السكان فى ثلاث أقاليم منفصلة بعضها عن بعض ، فى الجزء الجنوبى منها ، وفى وسط الاسكا حيث يمتد وادى يوكون السهلى والذى ينفتح نحو الغرب أى نحو بحر بيرنج ، وفى أقصى الشمال حيث تمتد منطقة سهلية أخرى تنحدر نحو المحيط القطبى، هذا ويفصل بين مناطق تجمع السكان مناطق جبلية .

ويعتمد إقتصاد الاسكا على مواردها الثلاثة الشهيرة ، وهى الفراء والأسماك والمعادن ، وتسهم الأسماك وحدها خاصة السالمون بنحو ٧٠ بالمائة من الدخل القومى . وإذا كان الذهب هو أهم معادنها المستخرجة فإن تكويناتها تضم إحتياطيات كبيرة من الفحم ، وإحتمالاتها البترولية كبيرة ، فضلا عن إمكانات توليد الكهرباء على سفوح المرتفعات الجنوبية، غير أن إستغلال موارد المياه فى هذه المنطقة الجنوبية لابد له من إتفاق مع كندا ، نظرا لأن معظم الروافد تأتى منها ، وقد بدأت كندا فعلا فى إستغلال القوى المائية على نطاق واسع فى قسمها الغربى ، وهناك ثروة خشبية ، ولكنها لاتقدر على المنافسة فى أسواق الولايات المتحدة الأمريكية بسبب تكاليف النقل المرتفعة ، والتى تجعل من أخشاب كندا ، منافسا خطيرا وان كانت تجد لها أسواقا جديدة فى اليابان .

وتملك الحكومة الفيدرالية ٩٩,٥٨ ٪ من أراضى الاسكا ، والجزء الباقى ترك للملكية الخاصة . وقد إضطرت الحكومة إلى هذا حتى لايساء إستخدام موارد الاسكا الطبيعية .

وتعطى الحكومة حق إستغلال المناجم والغابات للسكان نظير إيجار معين ، ومع هذا فلازال معظم الاسكا بعيدا عن التنمية الإقتصادية الكاملة، ولعل السبب الرئيسى هو عدم وجود التسهيلات المناسبة فى المواصلات ، فلا زالت السفن التى تقلع من سيتل Seatle هى وسيلة الربط الرئيسية بين الولايات المتحدة واكبر ولاياتها الاسكا ، ومع ذلك فقد بدأت الولايات المتحدة فى شق طرق كبيرة فيها لإستعمالها للأغراض الحربية ، فضلا عن نشاط النقل الجوى منذ مابعد الحرب العالمية الثانية.

وتقترب الاسكا من الإتحاد السوفييتى ، فجزيرة آتو Attu تعتبر النهاية الغربية لجزر الوشيان لاتبعد بأكثر من ٢٠٠ ميل عن جزر كوماندورسكى Komandorski السوفييتية ، كما تقع على بعد ٦٠٠ ميل من شبه جزيرة كمتشتكا ، هذا بينما نجد أن بعد الاسكا عن سيبيريا لايزيد على ٦٥ ميلا عبر بوغاز برنج .

وفى الحق أن نمو العمليات الحربية فى ألاسكا ظاهرة حديثة للغاية ، فالطريق الدائرى بين شمال غربى الولايات المتحدة الأمريكية وجزر اليابان يمر جنوبى الاسكا ، من ثم أقيمت إستعدادات دفاعية كثيرة فى هذا الأقليم خلال الحرب العالمية الثانية ، وحاول اليابانيون إحتلالها عام ١٩٤٢ بإحتلال الجزر القريبة منها وشن الغارات عليها ، غير إنتهاء الحرب مع اليابان عام ١٩٤٥ ، زاد من حدة التوتر فى المنطقة بزيادة قوة الإتحاد السوفييتى ، زادت بالتالى أهمية الاسكا الحربية ، وأقيمت فيها قاعدتان جويتان أحدهما بجوار انكوراج Anchorage والثانية بجوار Fairbanks وتعززها عدة مطارات صغيرة نسبيا ، كما أقيمت فيها شبكات الرادار وشبكة الدفاع الجوى ، وقوة أرضية لحراسة القواعد الجوية . فضلا عن دعم بحرى على طول الساحل . وضمت كالولاية التاسعة والأربعين فى ينساير ١٩٥٩ .

ولم يكن الأمريكيون يقدرون الاسكا حق قدرها ، لم يعرفوا بذهبها ولاغاباتها ولافحمها ولاأسماكها ، فضلا عن أهميتها الإستراتيجية التى ظهرت أخيرا ، من ثم صادف وليم سيوارد William Seaward الذى كان وزيرا للخارجية فى عهد لينكولن وجونسون معارضة شديدة لفكرة شراء الاسكا وغلاء الثمن (٧٠٢ مليون دولار) رغم أن هذا معناه أقل من ٢ سنت للفدان وهاجمته الصحف ، ومنها صحيفة New York Herald التى نشرت الإعلان التالى :

Cash. Cash Cash - Paid for Castoff terriory best Price given for old Colonies, North or South, any

Impoverished monarch retiring from the colonization business, may find a good purchaser by addressing W. H. S. (Seward) , Post office Washington N. D. C.

ميدواى وجوام والفلبين وهاواى

وفى نفس العام إستولت أيضا على جزيرة **Midway** (فى الهادى) ولعل السبب فى إهتمام الولايات المتحدة بالمحيط الباسفيكى فى تلك الفترة هو التطور السريع فى أهمية ولاياتها الباسيفيكية وخاصة كاليفورنيا ، ثم لتطور علاقاتها مع شرق آسيا ، إذ أنها إستولت على جزر الفلبين بعد حربها مع أسبانيا عام ١٨٩٨ ، وأرغمت أسبانيا على بيعها هذه الجزر مقابل ٢٠ مليون دولار . وكذلك أن تتنازل عن جزيرة جوام ، كما ضمت إليها جزر هاواى فى نفس العام ، وهى مجموعة من الجزر تبعد ألفى ميل عن غرب الولايات المتحدة الأمريكية جنوب مدار السرطان مباشرة ، وتتجمع معظم جزرها بل وسكانها فى الثمانى جزر الشرقية ، بحيث لاتظهر جزر ذات شأن فى النهاية الغربية لأرخبيل هاواى سوى ميدواى **Midway** ، وتبلغ مساحة الجزر جميعها نحو ٦٤٢٣ ميلا مربعا، وتعتمد فى حياتها على الإقتصاد التجارى وبخاصة زراعة قصب السكر والأناناس ، فضلا عن السياحة ، والقواعد الحربية الممثلة فى بيرل هاربر **Pearl Harbour** وشوفيلد **Schofield** ، وقد بلغت قيمة صادراتها وخدماتها مع الولايات المتحدة الأمريكية ٩٥٣ مليون دولار عام ١٩٦٥ ، بينما بلغت وارداتها فى ذلك العام من الولايات المتحدة ١٩٢٣ مليون دولار .

وقد وجدت هاواى بعض المعارضة فى ضمها كولاية إلى الدولة الأصلية ، وكان أساس هذه المعارضة هو تركيب سكانها ، على أساس أن ٣٥ ٪ من سكانها يرجعون لأصول يابانية ، ١٢ ٪ لأصول فلبينية ، ٦ ٪ لأصول صينية ، ولكن الأهمية الإستراتيجية لهذه الجزر تغلبت على هذه الإعتراضات ، وضمت كالولاية الخمسين فى أغسطس عام ١٩٥٩ وبذلك أصبحت هى والجزر الأخرى مثل ميدواى وغيرها ، تؤلف حلقات ربط بين غرب الولايات المتحدة الأمريكية وألاسكا .

أمريكا اللاتينية

أما فى أمريكا الوسطى فقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية قانعة بالوصول إلى نهر ريوجراند فى عام ١٨٤٥ ، ولكن حربها مع أسبانيا

عام ١٨٩٨ أعطاها آخر المستعمرات الأسبانية فى أمريكا اللاتينية وهى كوبا وبورتريكو .

وقد إزدادت إهتماماتها بأمريكا الوسطى بصفة خاصة بعد ١٨٩٨ وعندما قامت ثورة فى الجزء الكولومبى فى ولاية بنما شجعت الولايات المتحدة الأمريكية على هذه الثورة ، ووقعت معاهدة مع هذه الجمهورية الجديدة ، وبذلك أنهت المفاوضات الطويلة مع جمهورية كولومبيا الخاصة بحفر قناة تجرى فى أرضها .

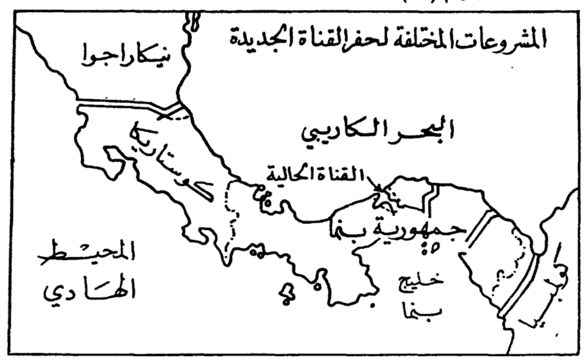
قناة بنما

شقت قناة بنما لتقصير المسافة بين المحيطين الأطلنطى والهادى ، ولقد كان شق هذه القناة حلما راود النفوس منذ أن عبر (بلباو) برزخ بنما عام ١٥١٣ ، وإكتشف الباسيفيك ، وظهر أول إهتمام للولايات المتحدة بهذا الموضوع عام ١٨٤٦ بعد ماضمت كاليفورنيا ، لأنها بهذا وصلت إلى الباسيفك ، ومن ثم كان لابد من طريق سهل بين الشرق والغرب ، وعقدت الولايات المتحدة الأمريكية إتفاقية مع جمهورية كولومبيا التى كانت تتبعها بنما حينئذ ، يمنح الولايات المتحدة الأمريكية طريقا للمرور عبر البرزخ ، وعندما إكتشف الذهب فى كاليفورنيا وبدأ التدفق نحو الغرب ، ظهرت الحاجة إلى قناة فى هذا البرزخ الضيق .

وظهر إهتمام آخر لبريطانيا فى شق قناة فى أمريكا الوسطى ، ولكن الولايات المتحدة لم تكن ترضى بالنفوذ البريطانى فى المنطقة ، من ثم عقدت الولايات المتحدة معاهدة مع بريطانيا عام ١٨٥٠ ، تشترط بمقتضاها إشراف الدولتين على أى قناة تقوم بحفرها أى من الدولتين فى المنطقة ، وألا تحصن وتكون مفتوحة لسفن جميع الدول ، ولكن الولايات المتحدة الأمريكية فقدت هذا الإهتمام بعد مد الخط الحديدى عبر القارة .

وظهر فرديناند ديلسبس عام ١٨٨٠ على مسرح الإقليم ليبدأ شق قناة بنما ، وقدر مبلغ ١٧٠ مليون دولار نفقات للمشروع ، ولكن بعد صرف مبلغ ١٧٠ مليون دولار ومضى خمس سنوات ، لم يكن قد قام سوى ثلث العمل ، بسبب أمراض المناطق الحارة التى إنتشرت بين العمال وفتكت بهم فضلا عن الصعوبات الهندسية مما أدى إلى إفلاس الشركة وتوقف الحفر .

شكل رقم (٤٤) : قنـاة بنما والمشروعات المختلفة لحفر القناة



وعـاد الإهتمـام الأمريكـى مـرة أخـرى بالقنـاة بعـد وضـع الولايـات المتحـدة الأمريكية يدهـا علـى الفلبين وهـاواى . وظهـور فـرص للتجـارة مـع الشـرق الأقصـى والدفـاع عـن مصالحهـا فـى المحيـط الهـادى ، وإلا معنـى هـذا ضـرورة إحتفـاظ الولايـات المتحـدة بأسـطولين منفصليـن أحدهمـا فـى الأطلنطـى والآخـر فـى الباسـفيكى وأعيـد النظـر فـى المعـاهدة الأمريكيـة البريطانيـة الخاصـة بالقنـاة ، وإعترفت فيهـا بريطانيـا بحـق الولايـات المتحـدة الأمريكية بحفـر القنـاة ، وأن تخضـع لإشـرافها بشـرط حريـة مـرور جميـع السفن فيهـا .

وكـانت عمليـة إختيـار طريـق للقنـاة مـن الطرافـة بمكـان ، ذلـك أن الكونجرس الأمريكى والمهندسـين الأمريكيـين كـانوا فـى جـانب حفـر القنـاة فـى نيكـاراجوا ، ولكـن الشـركة الفرنسـية التـى ألفـت كـانت تواقـة لبيـع إمتيازها وأدواتهـا للولايات المتحـدة ، فبذلـت نشـاطا كبـيرا لحفـر القنـاة فـى بنمـا ، وبذلـت جهـودا جبـارة لمنـع مجلـس الشـيوخ مـن الموافقـة ، وكـانت تلوح لهم بـأن البراكين فى نيكـارجوا ستقضى علـى المشـروع ، ولـم يحسـم الأمر إلا حـدوث بركـان فى مـايو عـام ١٩٠٢ فـى نيكـارجوا ، ممـا أدى إلـى تغـير الإتجـاه نحـو بنمـا ، وشـراء حـق الإمتيـاز والأدوات مـن الشـركة الفرنسية بمبلـغ ٤٠٠ مليـون دولار .

وعرضت الولايات المتحدة الأمريكية على كولومبيا مبلغ ١٠ ملايين دولار فضلا عن ربع مليون دولار كل عام نظير قطعة أرض تمتد بعرض ٦ أميال فى بنما ، ولكن حكومة كولومبيا رفضت العرض لأنها بعد عام واحد ستؤول إليها حقوق الشركة الفرنسية ، فضلا عن الأربعمائة مليون دولار . وهنا بدأت الولايات المتحدة الأمريكية والشركة الفرنسية تلعبان دورا سياسيا كبيرا لفصل بنما عن كولومبيا . وبدأت الشركة الفرنسية تقدم الرشاوى وتكون جيشا صغيرا ، وأرسلت للولايات المتحدة قطع من أسطولها إلى بنما لحمايتها ، فأعلنت بنما إستقلالها فى ٣ نوفمبر ١٩٠٣ ، وحصلت الولايات المتحدة الأمريكية على إيجار قطعة أرض بعرض عشرة أميال ، بنفس الشروط التى عرضتها سابقا على كولومبيا بعد ذلك بخمسة عشر يوما فقط .

وهكذا بدأ العمل عام ١٩٠٤ ، ولم يتم إلا بعد عشر سنوات ، حين إفتتحت فى عام ١٩١٤ أى عند بداية الحرب العالمية الأولى .

ويبلغ طول القناة ٦٠ كيلو مترا أى طولها أقل من نصف طول قناة السويس ويتراوح عرضها بين ١٠٠ ، ٣٠٠ مترا ، ويستغرق المرور فيها نحو ٨ ساعات، وأن كان وجود الأهوسة فيها يؤدى إلى بطء الحركة، بحيث تضطر بعض السفن إلى الإنتظار أكثر من ١٥ ساعة حتى يأتى دورها .

توتر علاقات بنما مع الولايات المتحدة الأمريكية

ويعتبر عام ١٩٥٦ بداية توتر علاقات الولايات المتحدة الأمريكية مع بنما ، وذلك بسبب النصر الذى أحرزته مصر بتأميم قناة السويس ، ودعت بريطانيا الدول البحرية الى مؤتمر لندن (اغسطس ١٩٥٦) لدراسة الأثار المترتبة على تأميم قناة السويس ، دون دعوة جمهورية بنما لحضور المؤتمر ، وكان رد الولايات المتحدة على إحتجاج بنما بأنها تملك حقوق السيادة على قناة بنما ، مما أثر شعب بنما ، وبدأ الضغط الشعبى بتزايد وبدأ التوتر أشده حين قطعت بنما علاقتها الدبلوماسية مع الولايات المتحدة نتيجة لتمزيق الطلبة الأمريكيين لعلم بنما على مدرسة بالبوا الثانوية عام ١٩٦٤ .

وبدأت الولايات المتحدة ضغطا أمريكيا ، فحواه أنها أخذت قرارين :

أولهما : أن تتفاوض الولايات المتحدة مع بنما وغيرها من الدول المعنية ، حول الترتيبات التى تتخذ لحفر قناة فى مستوى سطح البحر فى أمريكا الوسطى .

وثانيهما : أن تقترح الولايات المتحدة على حكومة بنما الدخول فى مفاوضات لعقد معاهدة جديدة بشأن القناة الحالية ، وعينت الدول الجديدة التى ستجرى التفاوض معها وهى كوستاريكا ونيكارجوا وكولومبيا ، فضلا عن بنما .

وإستندت الولايات المتحدة فى هذا إلى أن قناة بنما الحالية سوف تصبح غير ذات جدوى فى المستقبل ، بسبب نظام الأهوسة ، وبطء الملاحة ، وضيق القناة بحيث لن يسمح للسفن الضخمة بالعبور .

وإقترحت ثلاثة مواضع للقناة الجديدة فى كولومبيا ونيكاراجوا وكوستاريكا وفى بنما ذاتها ، ويعيب المشروع الكولومبى طول المسافة (١٦٤ كيلو مترا) ، بينما يعيب مشروع نيكاراجوا ـ كوستاريكا أنه يمر فى دولتين . وبذلك يفضل مشروع بنما المشروعين الأخرين ، وتفاوضت الدولتان وصدر إعلان مشترك من الدولتين عام ١٩٦٤ .

إتفاقية ديسمبر سنة ١٩٧٧

تنهى هذه المعاهدة سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على القناة وإقليمها (بعرض ١٠ أميال) فى شهر ديسمبر ١٩٩٩ ، وتمنح حكومة بنما حكومة الولايات المتحدة الأمريكية حق تشغيل وتنظيم الملاحة وحمايتها والدفاع عنها حتى التاريخ المذكور ، كما تزداد مشاركة حكومة بنما تدريجيا فى إدارة وتنظيم وحماية القناة ، مع تكوين لجنة مشتركة من كبار ضباط البلدين للتشاور فى مسائل الأمن . وتعلن حكومة بنما حرية الملاحة فى القناة وقت الحرب والسلم على السواء لسفن جميع الدول دون تمييز ، وألا تكون أرض نزاع مسلح قد يقوم بين الدول ، كما تضمن حكومة بنما للولايات المتحدة الأمريكية حق مرور السفن الحربية.

وقد ظلت هذه القناة حيوية من الناحية الإقتصادية والإستراتيجية بالنسبة للولايات المتحدة لأنها تطل على محيطين ، إذ سهلت الإتصالات البحرية بين أساطيلها فى المحيط الأطلنطى والهادى ، ولم يكن فى الإمكان ذلك من قبل إلا بالدوران حول رأس هورن ، وقد حققت أحداث الحرب العالمية الثانية هذا حينما إشتبكت الولايات المتحدة الأمريكية بأسطولين فى الحرب العالمية الثانية ، إحدهما فى المحيط الأطلنطى والآخر فى المحيط الهادى .

ولزيادة تأمين نفسها إشترت جزر فرجين من الدنمارك عام ١٩١٧ وهى جزر صغيرة تشرف على مداخل البحر الكاريبى من الشرق ، وإنتهزت فرصة الحرب العالمية الثانية ، وأنشأت قواعد أمريكية فى جزر

بهاما ، وجامايكا وترينداد ، كما أنشأت قواعد لها فى نيوفوندلاند ، وهذه جميعا ممتلكات بريطانية ، ماعدا نيوفوندلاند التابعة لكندا ، وبذلك أحكمت حلقة الدفاع عن ساحل المحيط الأطلنطى .

غير أن البعض يرى أنه إذا كانت للقناة أهمية تجارية بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية ، فلم تعد أهميتها حيوية وإستراتيجية كما كانت من قبل، فلم يمر فى القناة فى أواخر السبعينات سوى ٥ ٪ من حجم التجارة العالمية ، فضلا عن ١ ٪ من قيمتها ، لذلك يصفها بعض الإقتصاديين بأنها مفيدة وأن كانت ليست حيوية **Useful but not Vital** .

وتمر بالقناة ٩ ٪ من تجارة الولايات المتحدة الأمريكية ، فضلا عن أن التطور التكنولوجى فى بناء السفن العملاقة قلل من أهمية القناة كمعبر، كما أن الولايات المتحدة الأمريكية تحتفظ بأسطول حربى فى كل محيط من المحيطات ، على عكس الحال سابقا عندما كان أسطولها الحربى صغيرا ، وكان يلزم تحركه بسرعة من محيط إلى محيط .

المرحلة الرابعة ــ الخروج من العزلة

ولقد ظلت الولايات المتحدة الأمريكية لمدة قرن وربع بعد ظهورها كلمة على هامش المسرح السياسى العالمى ، ذلك أنها كانت تعيش فترة نموها وتكوينها ومد حدودها إلى درجة العرض ٤٩ شمالا حتى نهر ريوجراند ، ومن المحيط الأطلنطى إلى شقيقه الباسفيكى ، وكانت دولة سعيدة الحظ بما حبتها به الطبيعة من موقع جغرافى بين محيطين عالميين، قاما بمثابة درعا الأمان وحماية الدولة الناشئة ، من إضطرابات العالم القديم ، كذلك أفادت الولايات المتحدة الأمريكية شمالا وجنوبا من إنشغال جارتيها الناشئتين بمشكلاتهما .

وكانت سياسة الولايات المتحدة الأمريكية أول الأمر ، تنحصر فى نصف الكرة الغربى ، تاركة العالم يغلى فى مشكلاته كما يقولون ، فليس من شأن الولايات المتحدة أن تزج بنفسها وسط هذه المشكلات ، بل لقد عارض كثير من الأمريكيين سياسة ضم جزر هاواى وشراء ألاسكا وظل الأمريكيون يعتبرون أن السياسة الخارجية ليست من شئونهم لمدة طويلة بعد حرب الإستقلال ، ويؤيد الشعب الأمريكى فى هذا رجال السياسة أنفسهم ، والسياسة التى إتبعها البارزون من قادتهم ، فجورج واشنطن أعلن سياسة الحياد ، وجيفرسون كان يشكر الطبيعة التى أدت إلى عزلة البلاد ، والرئيس مونرو كان صاحب فكرة العالم الغربى للأمريكيين ، وعدم تدخل العالم القديم فى شئون العالم الجديد ، وهكذا تتابع الرؤساء

على البلاد محبذين إستراتيجية البعد عن العالم القديم . وعندما أعلنت الحرب العالمية الأولى ، أعلن الرئيس ويلسن حياد للولايات المتحدة الأمريكية فى أغسطس عام ١٩١٤ أى بعد قيام الحرب العالمية الأولى نحو شهر، وأن يكون الأمريكيون على الحياد فى أعمالهم وتفكيرهم حتى لاينقذف بأمريكا فى حرب لا تمسها ، ومع ذلك فكانت عواطف معظم السكان مع الحلفاء، وخاصة إنجلترا وفرنسا ، بل لقد شعر كثير من السكان أن هناك دين على الولايات المتحدة الأمريكية لفرنسا لأنها ساعدتها فى حرب الإستقلال ، فكانوا يدعون فى صلاتهم " رب لا تذكرنا إذا لم نذكر سيف لافييت المقدس " ولكن ألمانيا أجبرت الولايات المتحدة الأمريكية على دخول الحرب بسبب إغراقها للسفن الحاملة للأمريكيين ، لأن ألمانيا قررت فى عام ١٩١٧ تشديد الحصار على بريطانيا لمنع مؤن تصل إليها ، فأعلنت الولايات المتحدة الحرب وأرسلت قوات أمريكية إلى فرنسا بلغت نحو المليونين وفى الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٩١٧، إنطلقت أول طلقة مدفع من القوات الأمريكية من أحد خنادق نانسى فى فرنسا فى الخطوط الألمانية ، وفى هذه اللحظة يمكن القول بأنها دخلت باب السياسة العالمية ، ولكن كما يقولون " غطست أصابع قدميها فى المياه الباردة ثم جذبته مرة أخرى " .

ولكن بعد إنتصار الحلفاء ، وإعادة توازن القوى عادت الولايات المتحدة الأمريكية إلى سياسة العزلة مرة أخرى حتى أنها لم تشترك فى عضوية عصبة الأمم وظلت كذلك طيلة فترة مابين الحربين (١٩١٨ - ١٩٣٨) .

أدى تهديد ألمانيا لميزان القوى مرة أخرى إلى تعديل السياسة الأمريكية ولقد تحطم ميزان القوى فى ١٩٤٠ بالغزو الألمانى للدنمرك والنرويج وهولندا وبلجيكا وفرنسا ، وكان الدور بعد ذلك على بريطانيا ، لولا هتلر إرتكب خطأ محاولة تحطيم روسيا قبل بريطانيا . فأصبح واضحا أن ألمانيا لو إستطاعت غزو بريطانيا وإستولت على أسطولها لكان من الجائز والممكن أن توجه ضربة للولايات المتحدة الأمريكية من المحيط الأطلنطى .

كذلك بدأت الخطورة فى ميدان المحيط الهادى ، ذلك أن اليابان خالفت معاهدات واشنطن (عقب الحرب العالمية الأولى) فغزت منشوريا ، وإنسحبت من معاهدة تحديد السلاح البحرى عام ١٩٣٤ . ثم غزت الصين نفسها عام ١٩٣٧ ، ولذلك بدأت الولايات المتحدة الأمريكية حربا غير رسمية منذ ١٩٤١ عن طريق مد الصين بالمساعدات لتقف فى وجه

اليابان ، وذلك خوفا على الفليبين من ناحية ، ولمساندة فرنسا فى الهند الصينية ، وبريطانيا فى الملايو ، وهولندا فى جزر الهند الشرقية ثم دخلت الحرب رسميا بعد ضرب اليابان لميناء بيرل هاربر Pearl Harbaur فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ .

على أنه من الخطأ الإعتقاد بأنه لم يكن للولايات المتحدة الأمريكية سياسة خارجية خلال فترة عدم التدخل ، ولكن الأصح القول بأن الأمريكيين كانوا يعتبرون بأنه كلما بعدوا عن السياسة الدولية ، كلما كان هذا أفضل ، كما كان السياسيون يعتقدون بأنه لابد من فاصل واضح بين السياسة الداخلية والسياسة الخارجية ، وكان التحول نحو السياسة الحالية وليد فترة قصيرة للغاية وقبل أن يستعد الأمريكيون نفسيا وعقليا لتقبلها . من ثم لم تكن هناك فترة تحضير وإستعداد أمام الأمريكيين للتدريب على الدور الجديد ، بينما أخذت بريطانيا نحو قرن من التدريب على دورها العالمى ، ولم تضطر الظروف الولايات المتحدة لأن تأخذ دورا قياديا فى الشئون العالمية فحسب ، بل كان عليها أن تقود منظمات أو أحلاف دولية.

وبذلك خرجت إلى نطاق السياسة العالمية تشارك فيهم بسبب وافر ، بل وبعد أن إنتهت هذه الحرب أصبحت الولايات المتحدة مرتبطة بمعاهدات دفاعية لامع أمريكا اللاتينية فحسب ، بل مع دول عديدة من أوربا وآسيا وأفريقيا .

الولايات المتحدة كقوة سياسية

العلاقات المكانية وأثرها

كان لموقع الولايات المتحدة الأمريكية فى العالم الجديد أثره فى أن إنعزلت عن العالم فترة طويلة ، وإتخذت سياسة العزلة السياسية ، والبعد عن مشاكل العالم القديم ، منذ نشأتها كوحدة سياسية ، حتى إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى كما رأينا .

وتشبه الإتحاد السوفيتى السابق فى أنها تمتد فى درجات عرضية كبيرة مما يؤدى إلى التنوع المناخى ، وإن كان الإختلاف واضحا أيضا فى أنها لاتمتد إلى الجهات القطبية إلا فى طرفها الشمالى الغربى

(الاسكا) فهى أكثر إمتداد نحو للعروض الدفينة من الإتحاد السوفييتى (من ٤٩ شمالا حتى مايقرب من مدار السرطان فى فلوريدا) .

وكان لهذا الموقع الجغرافى أيضا أثره فى أن أصبحت تطل على محيطين كبيرين ومن ثم كان لابد لها من علاقات مع الغرب أى مع الأصل ، كما لابد ولها مع شرق آسيا ، ذلك أن هذه المحيطات لم تعد حواجز وموانع بقدر ما أصبحت طرق إتصال ونقل ، كذلك أدى موقعها وقوتها السياسية فى هذا الجزء من العالم إلى إيجاد علاقات جوار مع دول أمريكا الجنوبية ، هذه العلاقات التى درسناها وخرجنا منها أن الولايات المتحدة عينت نفسها حاميا لنصف الكرة الغربى بصفة عامة .

كذلك أدى موقعها البعيد هذا فى عصور كشفها الأولى إلى أن من عمرها من المهاجرين الأوائل صنفين من الناس . إما مغامرين أشداء من ذوى العزائم القوية التى تدفع أصحابها نحو المخاطرة والذهاب إلى المجهول ، وأما هؤلاء الذين كانوا يبحثون عن أماكن جديدة تمنح حرية العبادة وحرية الرأى . ولذلك كان معظم المهاجرين أول الأمر صفوة منتخبة ، لأنه كان عليهم أن يقطعوا شقة تبلغ نحو ٣ آلاف ميل بين العالمين القديم والجديد ، وكانت الرحلات إلى العالم الجديد، مليئة بالمخاطر أو المغامرات ، ففى أحسن الظروف كانت السفن تقطع الرحلة ما بين جانبى الأطلنطى فيما يتراوح بين ستة وثمانية أسابيع ، أما إذا جرفت الرياح السفينة عن مسارها المعتاد فلربما طالت الرحلة إلى ثلاثة شهور ، ولم تكن هناك خطوط منتظمة ، ولاتواريخ معينة لابحار السفن، كما لم تكن هناك تعريفة للسفر ، أو حتى رعاية صحية للمسافرين ، بل كان كل مسافر يتفق مع ربان السفينة على أمر الركوب ، وقد يظل فى الميناء هو وأسرته أسابيع ، حتى تستعد السفينة للرحيل عندما تأتى الرياح بما تشتهى السفن ، وكانت وسائل الراحة فى السفن محدودة ، إذ كان الربان يحشر حشرا ، ويعيش فيها طوال الرحلة السليم المعافى بجانب المريض ، وكثيرا ما أوشكت المياه العذبة على النفاذ ، إذا ما طال الطريق بسبب عاصفة هوجاء ، أو بسبب ضعف الرياح ، وكان من الأمور المعتادة ، أن يصاب نصف ركاب السفينة بالحصبة ، والجدرى ، والدوسنطاريا .

ولقد كان لموقعها هذا أثره الكبير فى تكوين هذه الدولة فى عهد طفولتها ، فلحسن حظهاـ أنها وقعت بين أكبر محيطين فى العالم ، فى وقت صعب فيه وسائل الإتصال وشقت ، فمنح الوليد فرصة أن ينمو ويشتد عوده فى عزلة عن قلاقل وإضطرابات العالم القديم ، كما كانت

هناك لحسن حظها دولتان فى شغل عنها بمشاكلهما الداخلية ، ومن ثم كان لها الحرية التامة والفرصة المواتية للنمو .

كان لسياسة الصداقة مع جيرانها شمالا وجنوبا ما جعل كل القارة تعيش تحت ظروف من الحرية ، وبعيدا عن الضغط ، كما كانت محظوظة أيضا لأن حدودها لاتشترك إلا مع دولتين فقط ، على عكس كثير من دول القارة الأوربية ، وعلى طول الحدود الكندية (٣٩٨٧ ميلا) نجد أهدأ حدود سياسية فى العالم ، وتجد الولايات المتحدة فى كندا عميلا هاما للصناعات الأمريكية تشترى منها كندا أكثر مما تشترى من دولة أخرى .

ولا تمثل كندا ولا المكسيك قوى منافسة للقوى الأمريكية ، وكذلك الحال فى بقية دول العالم الجديد لامتجمعة ولامنفردة ، فتفرد الولايات المتحدة فى نصف الكرة الغربى أمر معترف به فى نصف الكرة الشرقى، وهذا التفرد وهذه السياسة ناتجة عن حجم الإنتاج الزراعى والمعدنى والصناعى والنمو الحضارى الذى بلغه السكان ، فكل من كندا والبرازيل فى العالم الجديد دولة ذات مساحة كبيرة ، ولكن المناخ فى كلاهما وقلة المساحات الصالحة للإنتاج الزراعى ، وقلة السكان لم يتح لأى منهما أن تبلغ منزلة الولايات المتحدة الأمريكية . أما بقية أمريكا اللاتينية ، فهى مقسمة إلى وحدات سياسية أصغر من الولايات المتحدة ، بحيث لايمكن لهذه الوحدات أن تبلغ قوتها .

الحدود السياسية

من المعروف أن حدود الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر من أهدأ الحدود الدولية فى العالم ، ومع ذلك فحدودها لم يتم تسويتها إلا بعد ١٧ معاهدة وإتفاق بين عامى ١٨٧٢ ، ١٩٢٥، حتى وصلت إلى ما هى عليه الآن ، وقامت عدة لجان دولية لفض النزاعات الناتجة عن تفسير الإتفاقات حتى سوى النزاع ، ورغم أن الولايات المتحدة الأمريكية لاتجاور سوى دولتين ، فإن أطوال حدودها (باستثناء آلاسكا) تبلغ ٩٥٠٠ ميل ، منها ٤٠٠٠ ميل مع كندا ، والباقى مع المكسيك ، وتتبع نصف الحدود مع كندا المسطحات المائية بما فيها نهر سنت لورنس والبحيرات العظمى ، بحيرة ووذر وغيرها . ويتجه نحو الشمال الغربى بعد بحيرة سوبريور إلى الركن الشمالى الغربى من بحيرة وودز ، ومن هنا نجد أكثر الحدود الشمالية للولايات المتحدة بعدا نحو الشمال ، ومن هنا تتجه نحو الجنوب لمسافة ٢٥ ميلا حتى تقابل دائرة العرض ٤٩

شمالا ، ثم تتبع الحدود هذا الخط لمسافة ١٣٠٠ ميل حتى تصل إلى المحيط الهادى ، وقد سوى النزاع على الحدود فى ولاية أوريجون بين بريطانيا والولايات المتحدة عام ١٨٤٦ ، بعد أن كانت الولايات المتحدة تطالب بإتخاذ دائرة العرض ٥٤,٤٠ Fifty Four Forty or Fight أو الحرب كحد بين الممتلكات البريطانية والأمريكية من جبال الروكى حتى ساحل الباسفيك ، وإتفقا على أن يدفع الحد السياسى دائرة العرض شمالا فى هذه المنطقة . والواقع أن معظم الخلافات التى نشبت كانت نتيجة الخلاف الكبير بين الإتفاقيات النظرية على الخريطة ، وبين التطبيق الفعلى فى الميدان ، وقد أوضح تخطيط الحدود بين كندا والولايات المتحدة كأمثلة عديدة لصعوبات تطبيق الإتفاقيات النظرية القائمة على الجهل الكبير بالأرض ، فقد كان من الصعب العثور على المجارى النهرية ، أو خطوط تقسيم المياه أو المرتفعات التى تشير إليها الإتفاقيات.

ويبدأ خط الحدود مع المكسيك من خليج المكسيك متبعا نهر ريوجراند لمسافة ١٢١٠ ميل حتى بلدة الباسو El Paso ، ثم يأخذ بعد ذلك أشكال خطوط مستقيمة حتى المحيط الهادى ، بإستثناء ٢٦ ميلا يعتبر خلالهما نهر الكلورادو ، هو الحد بين الدولتين .

وتعتبر الحدود مع الدولتين فريدة فى نوعها ، ذلك أنها غير محصنة على الإطلاق من ناحية ، وسهلة العبور من ناحية أخرى . ولايطلب من العابرين جوازات سفر ، من ثم يعبرها الملايين كل عام سواء كسائحين ، أو زائرين مؤقتين ، وإن كانت هناك بعض القيود على عدد العمال المؤقتين الذين يهاجرون سنويا إلى الولايات المتحدة من المكسيك . وتتألف لجنة للحدود من كل من الدولتين على كل جانب لها صلاحيات كاملة فى كل ما يتعلق بالحدود ، كالتفتيش وإصلاح علامات الحدود ، والحسم فى أية منازعات خاصة بالحدود ، فضلا عن أنه يدخل فى مهمة اللجنة الأمريكية المكسيكية أيضا مشكلات إستغلال مياه الأنهار ، كما تقوم لجنة مشتركة على الحدود الكندية لحسم أى خلاف حول إستغلال المسطحات المائية المشتركة ، كإستغلال شلالات نياجرا ، والملاحة فى سنت لورنس وغيرها .

هذا وقد خلق تقسيم مياه ريوجراند والكلورادو العديد من المشكلات بين الولايات المتحدة والمكسيك ، وتستفيد الولايات المتحدة بنحو ٨٠ ٪ من مياه ريوجراند الخاصة بالرى ، رغم أن أكثر من ٥٠ ٪ من مياه النهر تأتى من روافد مكسيكية وعلى العكس نجد أن كل مياه الكلورادو تأتى من الولايات المتحدة ، ومع ذلك تعتمد المكسيك على هذا النهر فى

رى القسم الأدنى منه . من ثم تعديل الإتفاقيات الخاصة بإستفادة كل فريق من النهر بين الحين والحين .

ولازالت هناك مشكلتان على الحدود مع المكسيك : منها مشكلة تغير نهر ريوجراند لمجراه لأنه بعد بلدة الباسو يدخل سهلا فيضيا ، فتكثر التواءاته وتغيره لمجراه الأصلى ، بحيث يمكن لمنطقة مكسيكية أن تصبح فى الولايات المتحدة والعكس ، من ثم بدأ برنامج مشترك منذ عام ١٩٣٤ للحد من الفيضانات وتقويم المجرى ، وأتخذ أعمق جزء من المجرى كحد سياسى بين الدولتين .

والمشكلة الثانية هى مشكلة المتسللين إلى الولايات المتحدة والذين يطلق عليهم Wetbacks (نظرا لأن كثير منهم يحاول التسلل بسباحة نهر ريوجراند) ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية تتعاقد كل عام على عدد من العمال الزراعيين مع المكسيك ، ونظرا لإرتفاع الأجور فى الولايات المتحدة ، فإن عمليات التسلل قائمة مهما إشتدت الرقابة على الحدود ، بل ويتم أيضا التهريب والتجارة فى المخدرات ، ونتيجة لهذا يتم تسلل مئات الآلاف سنويا ، ويتلقفهم أصحاب الأعمال فى ميادين الزراعة والمناجم والبناء ، وكثيرا مايتغاضون عن الإقامة فى سبيل تشغيلهم بأجور زهيدة للغاية ، ويضطرون بدورهم للعمل والمعيشة فى ظروف قاسية ، فى أكواخ من الصفيح خارج المدن ، أو فى مراب تصليح السيارات ، ويبلغ ذوو الأصول المكسيكية نحو ١٠ ٪ من سكان الولايات المتحدة الأمريكية ، ويتركزون فى ولايات تكساس ولهم أحياء خاصة بهم فى كثير من مدن الشمال ، كما فى شيكاغو ، ودنفر .

مساحة الولايات المتحدة وأثرها

تمتد الولايات المتحدة فى مساحة ضخمة تزيد على ثلاثة ملايين من الأميال المربعة ، وبذلك إختلف المناخ فيها إختلافا بينا ، بين الأجزاء المدارية فى الجنوب حيث الصيف الحار ، والشتاء الدافئ ، إلى الشتاء البارد فى الشمال ، ومن الجهات ذات المطر الذى يهطل طول العام ، إلى تلك ذات المطر الصيفى أو الشتوى إلى حالات الجفاف التام .

وكان لإمتداد الولايات المتحدة مطلة على المحيطين إلى جانب خليج المكسيك أثره فى أن أصبحت سواحلها الغربية منخفضة الحرارة ، كثيرة الضباب ، بسبب تأثير تيار كاليفورنيا البارد نوعا ، بينما السواحل الشرقية تتعرض لتأثير تيار الخليج الدافئ ، والطريف فى الأمر أن هذا التيار تكون الولايات المتحدة الشرقية أحوج إليه فى الشتاء عن الصيف ،

ولكن الطبيعة تعمل على عكس هذه الرغبة ، ذلك أن الرياح تخرج من القارة فى فصل الشتاء فتدفعه بعيدا عن سواحلها ، بينما فى فصل الصيف تأتى الرياح من المحيط ، فتدفعه قرب الساحل فترتفع حرارة السواحل الشرقية وتعظم رطوبتها ، إذا ما كانت شديدة ترتب على هبوبها جعل المناخ فى الصيف حارا رطبا غير محتمل .

أما على سواحل خليج المكسيك حيث يجرى تيار الخليج فتعظم الرطوبة ، وهذا يفسر غزارة الأمطار هناك ، وكثيرا ما يترتب على دفء مياه خليج المكسيك ورطوبته تكوين منطقة ضغط منخفض نسبيا فوقه ، فتجتذب موجات باردة من شمال ووسط القارة فى فصل الشتاء .

وليس من شك أن الإمتداد الكبير أدى إلى هذا التنوع فى موارد ثروتها الزراعية والمعدنية .

وإذا كانت الولايات المتحدة الأمركية هى رابع دولة فى العالم من حيث المساحة فهى تقرب من خمس الإتحاد السوفييتى السابق، ولكنها أصغر قليلا من كندا والصين والبرازيل ، ورغم هذا فمن ناحية إستخدام الأرض نجد أن الولايات المتحدة تتفوق على الأربع دول السالفة ، فمساحة الأرض المزروعة تقرب من نظيرتها فى الإتحاد السوفييتى ، ورغم فارق المساحات فضلا عن أن الغابات تغطى ثلث مساحتها ، ورغم صغر هذه المساحة بالنسبة للدول الأربع الأخرى ، فإنها تتميز بجودة أخشابها وبسهولة إستغلالها ، كما وهبتها الطبيعة ثروة رعوية وثروة معدنية ، كما تمتد جبهاتها البحرية مسافة ٥٠٠٠ ميل ، وكلها ذات موانى طبيعية ، ورغم أن الجبهات البحرية للإتحاد السوفييتى أطول بكثير ، فإنها لاتقارن بالجبهات البحرية للولايات المتحدة من حيث سهولة إستخدامها ، كذلك تتميز الولايات المتحدة كالإتحاد السوفييتى بظاهرة الدفاع فى العمق ، إن كان هناك عمق فى العصر النووى ! . . .

أما من ناحية الشكل فهى كتلة واحدة متماسكة ، ومع هذا فقد وقفت الظروف الطبيعية أحيانا أمام تماسك الدولة ووحدتها ، فقد حدد الشمال الغربى فى شبه عزلة عن نواة الدولة فى الشرق ، وصعوبة الإتصال البرى والبحرى بها ، فالطريق إليه يتضمن رحلة بحرية طويلة ، إلى مضيق بنما ، ثم طريق برى خلال أدغال بنما الموبوءة بالملاريا إلى الجانب الأخر ، ثم رحلة بحرية مرة أخرى إليه . وفى الحق لو لم تكن هناك شبكة المواصلات الممتازة التى تتمتع بها الولايات المتحدة لأختلفت مصالح السكان ، وثقافتهم بل ولهجاتهم . ولقد ظهرت البواخر النهرية والسكك الحديدية والبرق فى الوقت المناسب لمنع التفكك السياسى ، بل لقد تم تعمير أجزاء كثيرة من الغرب بفضل هذه المواصلات الحديثة .

ومدت الدولة شبكة من هذه الطرق المختلفة تعتبر نموذجا للمواصلات التى تربط بين الأقاليم المتباعدة ، وتوحد بين أجزاء الدولة .

المظاهر الطبيعية وأثرها

تنقسم الولايات المتحدة إلى أربعة أقسام رئيسية هى :

١ – السهول الساحلية والهضاب المتصلة بها تقع بين الساحل والأبلاش .

٢ – جبال الأبلاش .

٣ – السهول الوسطى والهضاب المتصلة بها فى الوسط .

٤ – مجموعة الجبال الغربية والأحواض التى بينها وتشمل جبال روكى ، وسيرانيفادا ، والكاسكيد .

كان للسهول الساحلية وورائها جبال الأبلاش مباشرة ، أثره فى أن الهجرات الأولى ، بدأت فى تعميرها للقارة تنتشر فى إستطالة من الشمال إلى الجنوب على طول هذه السهول ، وكانت الأبلاش تمثل التخوم بالنسبة لهذه السواحل ، وبذلك اصبحت هذه المنطقة هى النواة التى ترعرعت وكبرت ، وفى النهاية كونت إتحاد الولايات ، ذلك أن الأبلاش كانت حاجزا تضاريسيا عظيما ، يتميز بوعورة السطح ، كما كانت تغطيه الغابات ، وبذلك إكتظت نقط الإستيطان والسكنى ، وتقاربت بعضها من بعض وكان لابد من أن تتعاون وتعظم صلات الإتحاد ، ثم حين بدأت الهجرات نحو الداخل نجد أنها إتخذت من المسالك والدروب فى هذه الجبال طرقا لها ، وكثيرا ما كانت تتفق وأودية الأنهار ، كما إنتفعوا لأقصى حد ممكن من الممرات والفتحات التى تصل بين التضاريس المتباينة من جهة إلى أخرى . بل أن الباحث فى التوزيع الجغرافى لطرق المواصلات الحديثة يسترعى نظره أن السكك الحديدية تكاد تتبع نفس الدروب والمسالك القديمة .

وكان لعدم تجمد أنهار الولايات المتحدة وصلاحيتها فى معظم أجزائها للملاحة أثره فى أنها لعبت دورا هاما كوسائل النقل فى المراحل الأولى من الإستعمار ففى الجهات الساحلية الشرقية ما يقرب من ١٤٨ نهر كثيرا ما تنتهى بمصبات خليجية تتأثر بموجات المد والجزر حتى أن نهر هدسن تؤثر فى مجراه أدنى موجة المد والجزر لمسافة ١٥٠ ميلا من مصبه ، وكذلك فتحة Cheaspeake التى تتوغل فى الداخل مخترقة سهول فرجينيا ومارى لاند .

ولعب المسيسبي والأوهيو دورا كبيرا في إستقرار السكان وتعمير المنطقة الوسطى ، ذلك أنه على طول إمتداد مجارى النهرين ، إمتدت نقط الإستقرار ، ومن أشهر هذه النقط سنسناتي ، ولويس فيل . وإذا كانت السكك الحديدية قد إجتذبت كثيرا من تجارة الولايات المتحدة ، فإن الأوهيو مازال الوسيلة الأساسية للنقل الثقيل إلى جانب أن القطن والأخشاب والحبوب والسكر أهم شاحنات المسيسبي .

وكان لوجود البحيرات في الشمال أثره في تسهيل الملاحة ، والنقل ، وتنشيط إستغلال الثروة المعدنية ، بين معادن الأبلاش من ناحية وخاصة الفحم ، وبين مناجم الحديد غرب بحيرة سوبريور من ناحية أخرى ، وخاصة بعد شق القنوات في مناطق الشلالات كقناة أيرى Erie التي تصل هذه البحيرة بنهر هدسن (لتفادى شلالات نياجرا) كذلك وصل بحيرة متشجن بالمسيسبي ، ووصل الروافد بعضها ببعض ، حتى أنه تم حفر مايقرب من ٤٦٠٠ ميل من القنوات معظمها في السهول الوسطى ، وساعد على ذلك سهولة السطح ، وإن كان أكثر من نصفها معطل عن العمل بسبب منافسة السكك الحديدية .

الولايات المتحدة الأمريكية دولة قارية بحرية

الولايات المتحدة الأمريكية إذن دولة قارية بحرية ، وليس لأدل على بحريتها من أسطولها التجاري يأتي في المرتبة الثانية ، ولايتفوق عليه سوى الأسطول البريطاني ويتلوه الأسطول النرويجي ، كذلك لها أسطول صيد كبير يعد من أكبر أساطيل الصيد . كما تبلغ جبهاتها البحرية ما يقرب من الخمسة آلاف ميل تتبعثر عليها الموانئ المفتوحة طول العام . من ثم تتفوق في هذا المجال على الإتحاد السوفيتي ، أو كندا ذات الجبهات البحرية الأكثر طولا والأقل إستعمالا .

الولايات المتحدة دولة قارية أيضا ، فموقعها في وسط أمريكا الشمالية وتغطي بذلك أكثر من ثلث مساحة القارة ، ولعل ما يوضح هذه القارية أيضا أن معظم مجهودات التنمية هي تنمية اليابس ويتضح هذا في الإنتاج الزراعي الضخم ، ومد شبكة الخطوط الحديدية البرية ، والقنوات ، وإستغلال المناجم ، والغابات ، وتربية ملايين الرؤوس من الحيوانات ، فضلا عن تنوع الإنتاج الصناعي ، ورغم أن أكبر مدن الولايات المتحدة هي موانى بحرية فهي تقوم بمهمتين معا : كميناء ، وفي نفس الوقت كمركز صناعي .

وقد إدى إتساع مساحة يابس الولايات المتحدة إلى إمكان تقسيمها إلى أكثر من قسم ، رغم شبكات النقل البرى الواسعة ، وشبكات النقل الجوى، والهاتف ، والبرق الذى يربط أنحاء البلاد ، فالجزء الواقع إلى الشرق من الروكى يتجه نحو الشرق إلى أوربا ، أما الجزء الباسفيكى أى ولايات واشنطن ، وأوريجون ، وكاليفورنيا ، فتتجه نحو الغرب والشمال الغربى، أى آسيا ، وهاواى ، والاسكا ، فهؤلاء الذين يعيشون فى الغرب يشعرون بشئ من الإنفصام عن المشكلات الأوربية ، وفى نفس الوقت يرتبطون بمشكلات وأحداث المحيط الهادى ، وإن كان أهل الشرق أكثر إتساعا فى أفقهم ونظرتهم لوجود العاصمة السياسية لديهم .

كذلك نجد أن المناطق الشرقية والباسيفيكية يغلب عليها الحضرية ، كما أنها بحرية ، ومن ثم كانت نظرة سكانها دولية عالية Cosmopolitan وعلى عكس القسم البحرى البحيرى نجد القسم القارى وهو الغرب الأوسط Mid. West أو المزرعة القارية Continental Farm التى تشمل الموتفعات الشرقية والغربية والسهول الداخلية ، فهناك أنصار سياسة العزلة ، وحيث تتغلب المصالح القومية المحلية على المصالح الدولية فى الإهتمام . وهنا أكثر قطاعات الدولة محافظة ، ويمكن أن تضم هؤلاء المحافظين سكان الجنوب فهم ورثة أصحاب مزارع الرقيق ويطلق على نطاق الغرب الأوسط ، نطاق الأنجيل .

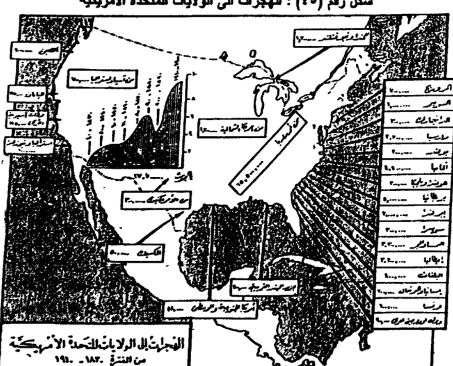
ويمكن القول بأن إهتمام المواطن الأمريكى بالعالم الخارجى قليل بوجه عام ، وقد أجرى بحث خاص بكيفية تلقى الأمريكيين للأنباء الخارجية ، ومدى أهتمامهم بها ، ونتيجة هذا البحث هى أن القارئ الذى ينفق فى قراءة صحيفته اليومية ثمانى عشرة دقيقة فى اليوم ، يخصص من هذه المدة دقيقتين للأنباء الخارجية ، بينما الإهتمام مقصور إلى حد كبير جدا على البيئة المحلية ، أو الولاية التى يعيش فيها ، وإذا حللت المادة الصحفية فى صحف الولايات ، وجدت تسعة أعشارها عن الولاية ذاتها من تجارة مشروعات وسياسة وتعليم وزواج ووفيات .

سكان الولايات المتحدة

يمثل سكان الولايات المتحدة مظهرا رئيسيا من مظاهر طاقتها السياسية ، فرغم أن الولايات المتحدة تضم نحو ٦ ٪ من مساحة اليابس إلا أنها تضم نحو ٥٪ من سكان العالم (٢٦٠ مليون) ولايرجع نمو سكان الولايات المتحدة من نحو ٣ ملايين نسمة عند الإستقلال إلى ٢٦٠

مليون نسمة فى عام ١٩٩٥ إلى عامل الزيادة الطبيعية وحدها ، بل إلى عامل الهجرة وتعمير الولايات المتحدة من الخارج ، وخاصة من أوربا ، ويقدر عدد المهاجرين إليها بنحو ٣٣ مليون نسمة فى الفترة من ١٨٦٠ إلى ١٩٢٤ ، فقد كانت البلاد فى حاجة إلى هذه الهجرات لإستثمار ثرواتها ، غير أن إنتشار البطالة عقب الحرب العالمية الأولى، أدى إلى تحديد الدولة للمهاجرين بمقتضى قانون ١٩٢١ بحيث حددت الهجرة من أوربا وجهات أخرى بمقدار ٣ ٪ من عدد سكان كل جنسية حسب إحصاء عام ١٩١٠ . وحددت حصص الدول الآسيوية بأعداد معينة ، بينما ترك باب الهجرة مفتوحا أمام دول أمريكا اللاتينية ، وخفضت الحصص مرة أخرى عام ١٩٢٤ من ٣ ٪ إلى ٢ ٪ ، لم يدخل الولايات المتحدة الأمريكية سوى ١,٣٢١,٠٠٠ نسمة بين عامى ١٩٢٤ ، ١٩٤٦ وهذا ما يعادل عدد المهاجرين فى عام واحد قبل الحرب العالمية الأولى، وقد إنخفضت الهجرة الآن إلى مايقرب من ٢/١ إلى مليون نسمة سنويا ، وإن كانت هناك حالات خاصة تسمح فيها بالهجرة فوق الحصص المعتادة. كالمهاجرين من المجر عقب حوادث ١٩٥٦ ، والذين هاجروا من الصين الشيوعية ، والمهاجرين من كوبا عام ١٩٨٠ (وكان نصيب القارات المختلفة فى الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى العقد السادس من هذا القرن كما يلى : الأمريكتان ٥٢٪ ، أوربا ٣٤ ٪ ، آسيا ١٣٪ ، أفريقيا ١٪ ، أستراليا ٠,٥٪) .

شكل رقم (٤٥) : الهجرات الى الولايات المتحدة الامريكية



ويتمتع هؤلاء السكان بأعلى المستويات المعيشية ، ويعتبرون فى مقدمة الشعوب التى تنخفض فيها نسبة الأمية ، وقد ظهر من الإتجاهات الإقتصادية العامة لعدة سنوات أن الولايات المتحدة الأمريكية قد بلغت من الرفاهية والوفرة مستوى لم تحلم به دولة صناعية .

وكانت الزيادة فى التنمية الإقتصادية أسرع بكثير من زيادة السكان وذلك أن الإنتاج الإقتصادى إزداد منذ ١٩٠٠ حتى عام ١٩٦٠ نحو ٢٥ مرة ، بينما تضاعف عدد السكان فقط خلال تلك الفترة ، وفى الوقت الحاضر تنتج الولايات المتحدة وتستهلك نحو ثلث السلع والخدمات العالمية ويقف وراء هذا الإنتاج ، العمل الأمريكى بفضل إستعمال الآلات، فقد بلغ معدل الزيادة فى الإنتاج نحو ٢٦٪ خلال العقد الأخير وقابل هذه الزيادة إنخفاض ساعات العمل لدى الفرد ، وقد ظلت إنتاجية العامل الأمريكى فى العالم لاتعادلها سوى إنتاجية العامل الألمانى ، حتى تفوقت أخيرا إرتفاع إنتاجية العامل اليابانى .

على أننا يجب أن نشير هنا إلى مظهرين للسكان لهما علاقة قوية بالجغرافية السياسية للولايات المتحدة الأمريكية وهما :

أولا : تدهور العائلة الأمريكية ، وهذا يؤدى بدوره إلى نقص الزيادة السكانية العامة للبلاد ، فقد بلغ معدل المواليد ١٥ فى الألف ومعدل الوفيات ٨,٥ فى الألف عام ١٩٧٨ ، أى أن الزيادة الطبيعية كانت ٦,٥ فى الألف فى العام المذكور .

ثانيا : الزيادة فى متوسط الأعمار ، فإذا كان عدد سكان الدولة قد تضاعف منذ عام ١٩٠٠ ، فإن عدد الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ ، ٦٤ عاما قد زادوا بمعدل ثلاث مرات ، بينما عدد الذين بلغوا ٧٥ عاما فما فوق قد زادوا أربع مرات .

وعلى العموم لقد اصبحت الولايات المتحدة تدخل ضمن مجموعة الدول ذات المعدلات القليلة الخصوبة والقليلة الوفيات ، وطبقا لمسح الأمم المتحدة من المحتمل أن يزداد إنخفاض معدل الزيادة الطبيعية فى الربع الأخير من القرن العشرين عنه خلال النصف الأول من ذلك القرن ، ولعله من المفيد هنا ألا ننسى كيف أن الولايات المتحدة الأمركية قد إزدادت خلال النصف الأول من هذا القرن بنسبة أعلى من أى دولة أخرى ، ولعل المقارنة التالية توضح لنا هذا القول فقد إزدادت الولايات المتحدة الأمريكية خلال الخمس عقود الأولى من هذا القرن بنسبة ١٠٠٪ بينما إزداد الإتحاد السوفييتى بنسبة ٩٣٪ والعالم بنسبة ٥٥٪ وآسيا

(بإستثناء الإتحاد السوفييتى) ٤٩٪ وأوربا (بإستثناء الإتحاد السوفييتى) ٣١٪ .

وقد تغير نمط السكان فى الولايات المتحدة من وجوه أخرى : منها إنخفاض المواليد الأجانب ، وهذا يعكس إنخفاض عدد المهاجرين إلى الولايات المتحدة ، والذين أضافوا الكثير إلى سكان البلاد فيما مضى ، ولكن عوض قلة الهجرة الخارجية تحسن صحة الأمريكيين ، فقد إنخفضت وفيات الأطفال (الأقل من عام) من ١٦٢ لكل ألف مولود عام ١٩٠٠ إلى ١٤ فى الألف فى الوقت الحاضر، وإرتفع متوسط الأعمار بمقدار ٢٠ عاما منذ أوائل هذا القرن حيث أصبح ٨١ عاما للنساء ، ٦٧ عاما للرجال .

وتختلف نسبة الزيادة السكانية فى أنحاء الولايات المتحدة ، وإن كان الواضح أنها تميل إلى الإرتفاع نحو الغرب ، فقد إزداد سكان الساحل الباسفيكى بمعدل ٤٩٪ فى الفترة من ١٩٤٠ إلى عام ١٩٦٠ ، بينما إزداد سكان ولايات الروكى بنحو ١٩٪ وإن كان هذا الإقليم الأخير يعتبر من أكثف أقاليم نصف الكرة الغربى، وكانت أقل زيادة فى السهول الوسطى ونيوإنجلند تتراوح بين ٤٪ فى القسم الشمالى من السهول الوسطى إلى ١١٪ من نيوإنجلند والقسم الجنوبى من السهول .

وكانت هناك هجرة خلال النصف قرن الماضى من الريف إلى المدن، ففى عام ١٩٢٠ كان ٥٠٪ من الشعب الأمريكى من سكان الريف ، وإنعكست الآية عام ١٩٧٠ حينما سجلت الأرقام ٧٩٪ من الأمريكيين من سكان المدن ، وكان تدفق الهجرات نحو المدن بصورة كبيرة منذ الحرب العالمية الأولى ، وإن صاحبها هجرة إلى ضواحى المدن مما أدى بالتالى إلى بعض تفكيك للصناعة ، ورغم أن أكبر مدن الولايات المتحدة هى موانى ساحلية أو بحيرية (مع قيامها بوظيفة مزدوجة كميناء ومركز صناعى) فإن مراكز المدينة متناثرة على طول البلاد ، ففيها عشرة مدن يزيد تعدادها على مليون نسمة ، من بوسطن التى تقترب من هذا الرقم إلى نيويورك التى يبلغ سكانها نحو ١٠ملايين نسمة ، كما سجل إحصاء ١٩٩٥ ، ١٨٠ مركزا حضريا يزيد سكان كل منها على ١٠٠ ألف نسمة، وهى إما مراكز صناعية أو مراكز تجارية .

البناء الإجتماعى لسكان الولايات المتحدة الأمريكية

يمثل سكان الولايات المتحدة الأمريكية خليطا من الجماعات المتعددة ولم يبق من سكانها الأصليين وهم الهنود الحمر سوى ٣٥٠ ألف نسمة ،

ومع ذلك فأهم مايميز الشعب الأمريكى أنه مجتمع مركب أو متعدد الأصول ، ومازالت هذه الصفة هى الغالبة عليه ، ولايقتصر الأمر على أنه يتألف من البيض والسود ، والملونين ، والحساسية والصراع الذى يقوم بين هذه الفئات ، بل يتعداه أيضا إلى البيض أنفسهم ، وإذا كان لايظهر هناك صراع بين فئات البيض ، فرغم ذلك هناك إحساس بالعرقية بينهم ، بحيث يمكن القول بأن هناك شعب أمريكى ، مجتمع أمريكى ولكن ليس هناك أمة أمريكية .

فليس بين " الأمم " الأمريكية واحدة تستطيع الإدعاء أنها " الأصل " سوى من يسمون الأن الهنود الحمر ، وهم ليسوا فقط الأقل عددا وأشد فقرا ، أنما هم أيضا الوحيدون الذين يعيشون فى " معازل " والمستثنون من الحياة الوطنية العامة دون أى حق فى المشاركة .

وليس بين " الأمم " الأمريكية واحدة تستطيع الإدعاء بغلبة عددية ، فالبيض الذين يمثلون نحو ٨٠٪ يقسمون إلى أصول عدة ، فأكثر هذه الأمم عددا هم ذوو الأصول البريطانية الذين يقدر أنهم يشكلون ١٤٪ من السكان ، وهى نسبة قريبة جدا من " الأمة " التالية ، ذوى الأصول الألمانية (١٣٪) يليهم الأفارقة أو يوازونهم (مابين ١٢٪ و ١٣٪) .

العناصر البيضاء

تحرك المهاجرون البيض إلى الولايات المتحدة الأمريكية من أقطار مختلفة يتكلمون لغات مختلفة ، ويعبدون الله بطرق متباينة ، ويتذكرون أوطان عديدة ، رحلوا إلى أمريكا لأسباب عديدة ، ولكن المهاجرين إشتركوا فى شئ واحد وهو أنهم غرباء فى أرض غريبة .

وكانت أسباب هجرة هذه الأعداد الضخمة ، وتركهم مواطنهم الأصلية، وأسرهم ، متعددة ، فقد هاجر الأيرلنديون فى معظمهم بسبب المجاعة الناتجة عن غزارة الأمطار وغرق محصول البطاطس فى أربعينيات القرن التاسع عشر ، ولم يكن سهلا الوصول بالأغاثة لهؤلاء الذين كانوا يتضورون جوعا حتى هلكت أعداد كبيرة منهم ، وهرب بعضهم إلى بريطانيا بحثا عن فرصة عمل ، ولكن غالبية الذين فشلوا فى الحصول على ذلك العمل ، تجمعوا فى الموانى وأبحروا على ظهر المحيط الأطلنطى إلى الأرض الجديدة ، وعندما هبطوا فى بوسطن ونيويورك ، كان همهم الأول الحصول على أود الحياة ، ووصل بعضهم مريضا مجهدا من الرحلة الطويلة والغذاء غير المناسب ، ومن ثم

إنتشرت بينهم الأمراض ، ولكن بمجرد خروجهم من الحجر الصحى ، كان عليهم إما العمل وأما الهلاك .

وخرج الأيرلنديون للعمل بأجور تكاد تسد الرمق ، ولما كانت بوسطن ونيويورك ليست لديها طاقة لمنح كل هؤلاء فرصا للعمل فقد إنتشروا فى ولاية نيوإنجلند ، تعمل الإناث فى الخدمة المنزلية ، ويشترك الرجال والصبية فى جماعات العمل لمد الخطوط الحديدية ، والطرق . وإينما حلوا إنخفضت الأجور، وأثاروا إستياء الذين إستقروا قبلهم ، ومن ثم أخذ الأيرلنديون يتقاربون كجماعة قومية ، فضلا عن أنهم لم يقطعوا أنفسهم تماما عن موطنهم الأصلى إيرلند ، بل ظلوا يحتفظون معه بصلات ، فمنهم من ترك أخوة وأباء ، بل وزوجات يتضورون جوعا ، من ثم كان هم المهاجرون الأوائل بمجرد الحصول على مأكل ومأوى ، إرسال الإعانات لذويهم ، ثم أخذ الشباب والشبات يكررون ما فعله ذووهم بالهجرة إلى العالم الجديد .

وبينما كان الأيرلنديون يستقرون فى مدن شرقى الولايات المتحدة ، تدفق المهاجرون الألمان ايضا ، وكان معظمهم من المزارعين فى حوض الراين الذين تلف محصولهم من البطاطس تماما كما حدث لدى الأيرلنديين ، ولكن منهم من لم يكونوا على وفاق مع السلطة من المثقفين ومحررى الصحف . وهكذا لم يكن المهاجرون الألمان على نفس درجة عوز الأيرلنديين ، بل منهم من كان لديه بعض المال ولو القليل ، والبعض الأخر كان قادرا على إصطحاب عائلته منذ البداية ، ودفع أجور السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، بل والتحرك فى داخلها نحو الغرب ، بل أن البعض كان قادرا على شراء مزرعة من أول الأمر ، أما هؤلاء الذين لم يكونوا من أصل ريفى ، فقد إتجهوا إلى شيكاغو، وسنسناتى ، وسان لويس ، والذين كانوا يعملون بالصحافة إستقروا فى وسط الجماعات الألمانية يحررون الصحف ، وينشرون الكتب باللغة الألمانية ، وادى هذا إلى ظهور المجموعة الألمانية مميزة عن بقية الأمريكيين بواسطة الحاجز اللغوى ، وكان هذا حتى الذين إستوطنوا الريف بسبب كفاءتهم الذاتية ، وكانت الصحف التى تصدر بالألمانية تأتيهم بأخبار جاليتهم فى المهجر ، فضلا عن الموطن الأصلى ، ويرسلون أطفالهم إلى المدارس الألمانية حينما لاتكون المزارع فى حاجة إليهم .

وكون الإسكندنافيون الذين وصلوا مانيسوتا وداكوتا فى ستينات وسبعينات القرن التاسع عشر جماعات مشابهة ، فقد تركوا مواطنهم

الأصلية لعدم وجود آراضى زراعية كافية على طول الفيوردات الشديدة الإنحدار فى النرويج ، أو الغابات المخروطية فى السويد ، وفنلند ، ووجد الشباب الذين وصلوا بمفردهم عملا ينتظرهم كحطابين فى ولاية ويسكونسن ، ومنهم من أرسل فى طلب زوجته ، ومنهم من تزوج من بنات المهاجرين ، وبينما إستقرت بعض العائلات فى الأراضى التى ظهرت من الغابات ، وإنتقل البعض الآخر إلى السهول العظمى يزرعون القمح ويتحملون تطرف المناخ ، بين البرودة القارسة ، والحر اللافح ، والعواصف الترابية ، والجفاف ، والآفات ، والحشرات التى تصيب النباتات ، وأقاموا كنائسهم ، ومدارسهم وإحتفظوا بألسنتهم وعاداتهم لأجيال متعاقبة .

ظهر الإيطاليون بأعداد كبيرة فى تسعينيات القرن التاسع عشر فى مدن الأقليم الشرقى ، إذ يعمل المزارعون فى جنوب إيطاليا لمدة ستة شهور من العام فقط ، وعندما نافست السفن التجارية السفن الشراعية فى نقل المهاجرين وإنخفضت أجور النقل ، وجد الكثير منهم أنه يمكن العمل فى العالم الجديد الستة أشهر الأخرى ، فمنهم من إتجه إلى البرازيل وأرجنتين ، ولكن منهم أيضا من إتجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وعملوا فى مصانعها . ولكن غالبيتهم إستقرت وإتخذت من الولايات المتحدة الأمريكية موطنا ، بدلا من الذهاب والإياب وارسلوا فى طلب أهاليهم . وتقوقعت العائلات الإيطالية خلف الحاجز اللغوى أيضا ، ولكنهم وجدوا أن معرفة الأنجليزية يتيح لهم فرصا أفضل فبدأوا يعملون نهارا ويدرسون ليلا وخاصة الأولاد الذين كانت أمامهم الفرص سانحة للإلتحاق بالمدارس ، والذين شاركهم فيها أيضا أبناء البولنديين ، والسلاف والروس ، واليهود فى الفترة بين ١٨٩٠ و ١٩١٠ .

أقليات ذات وضع خاص

اليهود الأمريكيون

من الأقليات التى تتميز بوضع خاص اليهود الذين يعتبرون فى المركب الأمريكى " أمة من الأمم " ربما فى مزيج من أسطورة الشعب اليهودى القديمة واللاتاريخية وبين التعريف الأمريكى الفريد بالأمة بأنها " أى جماعة من الناس تعتبر نفسها كذلك " ووضع هذه الأقلية يكاد يكون مقابلا عكسيا كاملا لوضع الأقلية السوداء ، فهم من حيث المنشأ السابق

على الهجرة أبناء أمم عديدة وفيما بينهم مذاهب فى كثير من الأحيان متنافرة ، وهم ككتلة بشرية ينتمون إلى أقرب الهجرات حداثة فى المركب الأمريكى ، فأغلبيتهم التى جعلت منهم كتلة بشرية هاجرت إلى الولايات المتحدة فى القرن ١٩ ، وفى هذا القرن العشرين ، وهم من بين الأقليات الأمريكية عددا ، ومع ذلك فإنهم يحتلون مواقع القمة فى معظم المجالات، ربما فيما عدا أنه لم يخرج من بينهم رئيس للبلاد ، فهم على رأس القائمة فى متوسط دخل الأسرة ، وهم على رأس الأقليات فى مستوى التعليم ، وهم أصحاب الحظ الوافر فى المهن ، وهم الأقلية الأمريكية الوحيدة التى تكاد تكون غير ممثلة فى المشتغلين بالأعمال العضلية واليدوية ، أو ما يسمى أصحاب الياقات الزرقاء ، ولاوجود لهم فى الزراعة ، ولا فى مهن الخدمات الدنيا ، وهم أصحاب الحضور الأكبر فى الأعلام ، وفى صناعات الثقافة والتسلية ، وهم من أقوى جماعات المصالح " نفوذا " ، وفوق هذا كله ، فهم منذ زمن يكاد يسبق تكون وزن كتلتهم السكانية مؤثرون فى السياسة الخارجية الأمريكية ، بل وذوو نفوذ ملحوظ فى صياغتها ، وعلى سبيل المثال كانت وزيرة الخارجية ووزير الدفاع ، ومسئول الأمن القومى يمثلون هذه الفئة فى تشكيل حكومة كلينتون عام ١٩٩٧ .

__الأسبان الأمريكيون :__ وهم من نسل الأسبان الذين هاجروا إلى أمريكا اللاتينية وتبلغ نسبتهم نحو ١٠٪ ومعظمهم من المكسيك ، وهؤلاء يتسربون بأعداد كبيرة وخاصة عن طريق ولاية كاليفورنيا ، التى تضم أكبر نسبة منهم .

__ذوو الأصول الآسيوية :__ ونسبتهم ٣٪ من الصين والفلبين واليابان .

هذا ويتوقع من المؤشرات السكانية فى الولايات المتحدة الأمريكية أن يصل عدد الأقليات فى عام ٢٠٢٠ إلى ١١٨ مليون نسمة ، وذلك أن الأقليات تزداد بمعدل ٥ أضعاف نسبة زيادة البيض ، نتيجة إستمرار الهجرة ، وإرتفاع معدل المواليد بينهم ، فالولايات المتحدة تستقبل سنويا نحو ٨١٠ ألف مهاجر شرعى ، وما قد يصل إلى ثلاثة ملايين مهاجر غير شرعى .

تعقيدات أخرى بذوى الأصول الأسيوية

وتحفل علاقات الأقليات " الأمريكية " ببعضها البعض تعقيدات أخرى، ومن أمثلة هذه التعقيدات الصعود السريع ، وفى المجالات كافة ، الذى حققته "الأمم " الأسيوية الصينية واليابانية ولحقت بها الفيتنامية ، فى

مدارج الثروة والتفوق التعليمى ، وإن كان هذا لم يترجم بعد إلى نفوذ سياسى ، وكلها هجرات أحدث من معظم الهجرات البيضاء ، لكن اليابانيين والصينيين يحتلون المركزين الثانى والرابع فى معدلات دخل الأسرة ، ولن يمضى وقت طويل قبل أن يلحق بهم الفيتناميون ، وهو مايثير الضغينة من إتجاهين : البيض الذين يرون أنهم الأجدر بحكم الريادة إلى الهجرة والإستيطان ، وتأسيس البلاد وتحقيق إستقلالها ، والأفارقة الذين يعتبرون أنفسهم أحق ، على الأقل بمنطق التعويض المتأخر للضحية .

الشعور بالخطر

فى هذه الفسيفساء التى تتجاور دون أن تندمج ، تنبت الضغائن الجماعية وتترعرع ، ولعل من الأمثلة ذات الدلالة على ذلك ، تقرير نشرته أكاديمية العلوم الأمريكية فى ١٩٨٥ وفيه " تحذر " من أن الدور التقليدى للطبقة الوسطى الأمريكية البيضاء آخذ فى تراجع ملحوظ ، وفى بداية القرن القادم ، ستكون عاجزة عن إنتاج البيروقراطية التى تحكم أمريكا ــ سياسة وإقتصادا ــ فالأمم الأخرى " الصاعدة " تزيحها عن موقعها ، ورصدت الأكاديمية أنه فى السنة الأكاديمية السابقة ، كان الذين حصلوا على مراتب الشرف والإمتياز فى أهم خمس جامعات أمريكية ، جميعا من ذوى الأصول الآسيوية .

الملونون (الأقلية السوداء)

وتعتبر مشكلات الملونين من العوامل التى تضعف البناء الإجتماعى والسياسى للولايات المتحدة ، فهناك ما يقرب من ثلاثين مليون ملون ، معظمهم من الزنوج يمثلون نحو ١٢ ٪ من السكان وتزيد نسبتهم فى الولايات الجنوبية فى البانى ، وأركنساس ، وفلوريدا ، وجورجيا ، وكنتكى ، ولويزيانا ، ومارى لاند ، ومسيسبى ، وكارولينا الشمالية ، وكارولينا الجنوبية ، وتنسى وتكساس وفرجينيا ، وتصل إلى أعلى نسبة لها فى ولاية مسيسبى حيث بلغت ٤٢ ٪ .

ويقصد بكلمة زنجى (أسود **Black** وهو الشائع) فى الولايات المتحدة ، تلك العناصر الملونة التى يدخل فى تركيبها الدم الزنجى . وكان الدافع إلى جلبهم هو الحاجة إلى الأيدى لإستثمار موارد البلاد الزراعية الرعوية و المعدنية ، بعد أن ثبت عجز الأوربيين عن تشغيل الهنود الحمر فيها ، وهكذا بدأ جلب الرقيق من أفريقيه للعمل فى الولايات

المتحدة ، وخاصة فى الإنتاج الزراعى للولايات المتحدة الجنوبية حيث تنتشر زراعة القطن .

وقد وطأت أول مجموعة زنجية هذه البلاد عام ١٦١٩ حين رست مركب هولندية فى جيمستون بولاية فرجينيا ، على أن الظروف السيئة التى كان يعيشها الزنوج فى ولايات الجنوب رغم تحررهم ، أدت إلى نزوح أعداد كبيرة منهم نحو الولايات الشمالية ، وكانت هناك عوامل طرد ، تمثلت فى سوء أحوالهم ، ولم تكن هناك مدارس لأطفالهم وأجورهم منخفضة (٥٠ سنتا فى اليوم فى ولاية ألاباما على حين كانت تبلغ ٨٠ سنتا للساعة فى الشمال) .

وتزايدت هجرتهم إلى الشمال بوجه خاص فى الربع الأول من القرن العشرين، فقد كانت الصناعة فى الشمال تعتمد على سيل المهاجرين الدافق من أوربا ، وعندما قامت الحرب إنقطع هذا السيل ، وقامت الهجرات الزنجية بمواجهة هذا النقص ، وذهب الوكلاء لجمع الزنوج من الجنوب ، وتسهيل وسائل السفر والإنتقال لهم ، ولاننسى فى هذا المجال أيضا قوانين تحديد الهجرة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى ، وهكذا حتى أصبح ٤٠٪ من مجموع الزنوج الأمريكيين يعيشون خارج الولايات الجنوبية عام ١٩٦٠ ، بينما كانت هذه النسبة لاتتعدى ١٠٪ عام ١٩٠٠.

وهناك مظهر آخر للتجمع الزنجى وتمثل فى أن هجرتهم كانت إلى المدن أساسا ، ذلك أنهم لم يكونوا أصحاب الأراضى فى الجنوب ، ونظرا لدخول الميكنة فى الزراعة ، فلم تعد الأرض فى حاجة شديدة إليهم ، من ثم إتجهوا إلى المدن حتى لقد أصبح ثلاثة أرباع زنوج الولايات المتحدة هم سكان المدن .

ولعل أشهر المدن التى إنتقلوا إليها هى دترويت ، وواشنطن وبتسبرج وشيكاغو وسان لويس ونيويورك ، حيث يوجد فى هذه المدينة أكبر تجمع زنجى فى مدن الولايات ، إذ يتجمعون فى منطقة هارلم وفى القسم الشمالى فى حى منهاتن .

والأقلية السوداء هى الوحيدة التى تستمد هويتها " القومية " هذه من منشأ قومى ، فهؤلاء الذين جاءوا إلى العالم الجديد " عبيدا مجلوبين " لايعرف أى منهم من أى بلد فى أفريقية جئ باسلافة ، ولا إلى أى ثقافة أصلية ينتمى سوى ذلك الأصل العام غير محدد الثقافة " أفريقية " يفترض فيها تجانس موهوم ، ولذلك فإن هذه الأقلية حددت هويتها على الأرض الأمريكية ذاتها ، وبعد تاريخ طويل من الإخضاع والصراع لتتجز مجرد

الإعتراف لها بأداميتها وبالحرية الطبيعية للإنسان ، وفى مواجهة " الأبيض " الذى مارس ضدها وعليها التمييز ، والذى أدركت تمايزها عنه باللون والقهر .

وقد زاد من وضع هذه الأمة تعقيدا أنه رغم أنها الجماعة القومية الثانية فى المركب الأمريكى بحساب زمن الوصول إلى العالم الجديد فإنها الجماعة القومية الثانية (١٢ ٪) من حيث التعداد ولكن فى العلاقة بالثروة وتوزيعها تحتل الدرجة قبل الأخيرة فى السلم ، وهى الوحيدة بين الأقليات الأمريكية التى كان عليها أن تناضل على الأرض الأمريكية ، وداخل النظام الأمريكى ، وفى مواجهته ، من أجل حقوق المساواه القانونية والمدنية والسياسية ، وهى الوحيدة أيضا التى كان الحس الأمريكى العام حتى وقت قريب ينكر عليها مجرد حق إبداء الرأى فى السياسة الخارجية المريكية ، أو حتى التعليق عليها ، ناهيك عن المشاركة فى صياغتها وتقريرها ، " رغم أن المجئ بنا إلى تلك البلاد كان العمل الأول من أعمال السياسة الخارجية الأمريكية قبل الإستقلال وقيام الولايات المتحدة " كما قال ذات مرة النائب الأمريكى الأسود ديفيد لورى، كما أنها هى الأقلية الأمريكية الوحيدة التى حاولت المؤسسة السياسية الأمريكية الرسمية لحل مشكلتها عن طريق الاستئصال ، عدا الهنود الحمر الذين جرت حيالهم وبنجاح كبير محاولة الإبادة " فعندما إقتنع الرئيس إيرهام لينكولين فى خضم الحرب الأهلية بأن تحرير العبيد من شأنه أن يحرم أعداء الفيدرالية من البيض الجنوبيين من أهم قوى العمل الإقتصادى ، إقترح على الزعماء السود أن يصدر مرسوما يحرر السود، على أن يهاجروا من الولايات المتحدة إلى بعض جزر الكاريبى حيث يستطيعون إقامة دولتهم " كمواطنين أحرار متساويين " .

التباين فى المستوى الإقتصادى بين البيض والسود

ويعيش الملونون فى مستوى منخفض عن زملائهم البيض ، فبينما يبلغ متوسط دخل العائلة البيضاء فىالولايات المتحدة بعامة ١٥٥٤٠ دولار سنويا ، فإن هذا الرقم ينخفض للعائلة الملونة إلى ٩٤٢٠ دولار ، ١٠ آلاف بالنسبة للملونين من أصل مكسيكى ، ويعمل معظم الملونين كعمال وفى مهن غير فنية ، ويدل على هذا إنخفاض دخل الفرد بعامة فى الولايات الجنوبية الشرقية التى تضم نسبة عالية من الملونين ، مما يدل على أن سلالة العبيد بعد مضى أكثر من قرن على الحرب الأهلية الأمريكية ، لم تتح أمامها الفرص للتدريب على المهن الفنية، فهناك وظائف محجوزة للبيض ، وهناك وظائف محجوزة للسود ، وهناك أعمال

يشترك فيها الإثنان ويمكن القول بوجه عام بأن وظائف ذوى الياقات البيضاء (بإستثناء الكتبة) وذوى المهارة العالية محجوزة للبيض ، بينما يكاد العمل غير الماهر والخدمات تقتصر على السود ، فهم غير ممثلين بالنسبة الكافية فى قطاعات الزراعة والتعدين والتجارة والإستثمار ، بينما هم ممثلون بنسبة زائدة فى قطاعات الخدمات والحكومة مما يعكس التحيز النسبى حتى فى الوظائف ، لذلك يشغلون الوظائف الأقل اهمية ، والأقل أجرا ، وفى ميدان الأعمال والتوظيف تجد السود آخر من يقبل على توظيفهم فى وقت الإزدهار ، وهم أول من يطردون من العمل فى وقت الكساد ، ومن ثم فالبطالة بين السود هى مؤشر لتدهور الأحوال الإقتصادية ، وتظهر الإحصاءات الرسمية هذا سواء فى الستينات أو فى أوائل السبعينيات تدور نسبة البطالة بينهم حول ١٠٪ وهى ضعف النسبة بين البيض .. وهذا معناه أنه فى أقصى حالات التفاؤل تقدر نسبة البطالة السنوية بين السود بنحو ١٥٠,٠٠٠ سنويا .

وتكون نساء السود نحو ٤٥٪ من قوة العمل السوداء ، ونحو نصف هؤلاء يمثلن العائل الوحيد للأسرة ، ويحتفظ المجتمع الأمريكى للمرأة السوداء ببعض الوظائف ، كالخدمة المنزلية وبعض أعمال التنظيف ، وهذه بدورها أقل الوظائف أجرا ، وبالتالى يكون متوسط نصيب المرأة السوداء نحو ٧٥٪ من نصيب الرجل الأسود ونحو نصف نصيب الرجل الأبيض .

رد فعل الزنوج

من ثم قامت الحركات المضادة للعنصرية ، وكان أشهرها تلك التى قادها القس مارتن لوثر كينج ، وكانت إستراتيجيته تعتمد على مقاومة كل مظاهر العنصرية فى الحياة الأمريكية ، وإن كانت قد إتخذت سبيل عدم العنف ، وبدأها بمقاطعة سيارات النقل العام فى منتجمرى بولاية ألباما عام ١٩٥٦ ، وظهرت مؤسسات أخرى تتبع نهج مارتن لوثر كينج فى إستراتيجية عدم العنف ، وكان رد الفعل من جانب قيادات البيض فى الجنوب ، هو المقاومة وكان منها إغتيال مارتن لوثر كينج عام ١٩٦٨ .

ويعبر مارتن لوثر كينج عن حالة الزنجى فى المجتمع الأمريكى فى الستينيات بقوله : مازال الرجل الأسود يعيش فى قاع المجتمع ، فمازال فى القاع رغم القلة الذين إستطاعوا أن ينفذوا إلى مستويات أعلى ، وحتى إذا مافتح الباب مواربا بسبب قوة الضغط عليه ، فإن حركة الأسود بعد

ذلك تظل محدودة ، وفى الغالب الأعم ليس هناك مستوى أدنى للبداية، فى نفس الوقت ليس هناك مكان للاسود فى القمة .

ويهمنا فى هذا المجال أن نبرز مظاهرإستياء الزنوج غير الإحتجاج وإستخدام العنف واللاعنف .

أولا ــ الهجرة العكسية من الولايات المتحدة الأمريكية :

وقد بلغ هذا الإتجاه قمته فى فترتين إحداهما بين عامى ١٨٥٠ ، ١٨٦١ فى محاولة لتوطين الزنوج فى الأرض الموعودة فى أمريكا الجنوبية والوسطى وجزر الهند الغربية ، والثانية بين عامى ١٨٩٠ ، ١٩٢٠ بهدف العودة إلى ليبريا ، وتزعم حركة العودة "ماركوس جارفى"، ومازال البعض ينادى بها الآن ، ومن طريف تلك المحاولات ذلك الإلتماس الذى تقدم به ثمانون زنجيا من بوسطن إلى حاكم ولاية ماساشوستس طالبين تدبير المال اللازم لهم للعودة إلى أفريقيه وشراء أراضى هناك ، وكان ذلك فى يناير عام ١٧٨٧ ، وكان تبريرهم هو حالتهم السيئة فى أمريكا ، ووعدوا بنشر المسيحية وتحسين العلاقات ، وتنمية تجارة الولايات المتحدة الأمريكية مع غرب أفريقيه ، وقد رفض طلبهم ، ولكن هذا كان بداية للتفكير فى هجر الولايات المتحدة الأمريكية.

وكانت قمة الحركة الثانية كنتيجة للفشل فى الوصول إلى المساواة والحرية حتى الحرب الأهلية الأمريكية ، فرغم ما أجرى من تعديلات القوانين عام ١٨٦٥ من إعطاء حق المواطنة لهؤلاء البشر الذين تحرروا، ورغم القوانين العديدة التى ظهرت فيما بعد ، سرعان ما ظهرت الفجوة بين القانون والتطبيق . وكما قال إيزنهاور (لايمكن تغيير القلوب بمجرد تغيير القانون) . ومع ذلك فقد رجعت أعداد بسيطة منهم بلغوا ١٩٧ عام ١٨٩٥ ، وتلاهم ٢٢١ فى العام الثانى وسبقهم ٣٨ إلى سيراليون ، وخرجت هجرات من الولايات المتحدة وكندا إلى هايتى ، ولكنها على العموم أعداد قليلة ومحدودة ، ووجدت معارضة من بعض قادة الزنوج أنفسهم الذين كانوا يؤكدون بأن وطن الأمريكيين السود هو أمريكا ، ومنهم من وصف مغادرة أمريكا بأنه تفكير غير صائب ، وغير ناضج .

ثانيا : نادى البعض **بتقسيم الولايات المتحدة الأمريكية** ذاتها إلى أمتين سوداء وبيضاء ، وذلك للشك المتزايد فى مستقبل الرجل الأسود فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ففى نظر مالكوم أكس أحد زعماء الزنوج " كل الوسائل تؤدى إلى طريق مسدود " .

فقد أعطاهم الدستور والقانون الحرية والمساواة ومع ذلك ورغم أنهم يمثلون نحو ١٢٪ من السكان فنصيبيهم هو ٦,٥٪ من الدخل القومى ، ولم ينجحوا فى الحصول سوى على أصوات ٤٪ من أعضاء الكونجرس وعلى ٦٪ من أعضاء الشيوخ ، وإن كان هناك بعض نجاح فى إنتخابات عمد بعض المدن والهيئات المحلية .

وفى مخاطبة لمؤتمر القوة السوداء Black Power عام ١٩٦٧ ، قدم خطة التقسيم كما يراها ، وحدث تصويت عام ١٩٦٨ فى مؤتمر عقد فى ديترويت على جمهورية أفريقيه الجديدة وتشمل الولايات الخمس الجنوبية المسيسبى وجورجيا وكارولينا الجنوبية ، وألباما ، ولويزيانا ، وستصبح دولة تعدادها نحو ٢٥ مليون نسمة ، وفى نظره أن تقسيم الولايات المتحدة الأمريكية لن يكون أكثر وحشية من تقسيم الهند وبطبيعة الحال لن يكون هناك تقسيم فعلى ، ولن يوافق عليه الكونجرس الأمريكى وإنما يهمنا فى هذا المجال أن نبين إلى أى مدى بلغ الإستياء .

وهكذا عندما يصبح ١٢٪ من سكان البلاد المعزولين عن المجتمع ، لايمارسون حياتهم الديمقراطية ، فلا تتوقع الولايات المتحدة أن تنجح دعايتها فى الخارج عن الحرية والديمقراطية والمساواة .

ولقد كان وضع اليهود والأفارقة من شواغل التاريخ والسياسة والجدل العام فى الولايات المتحدة لردح طويل من الزمان ، ومازال ، كأن وضع كل منهما حيال النظام السياسى ــ الإجتماعى ــ الإقتصادى من هذه الشواغل ، كما كان منهما أيضا وضع كل منهما تجاه الأخرى ، خصوصا وإن أقلية اليهود الأمريكيون " وهم التى لم تتعرض لأى قدر ملحوظ من التمييز أو إضطهاد فى أمريكا ، قد وضعت نفسها فى موضع الصدارة من الدفاع عن حقوق الأقليات ومناصرتها ، لا لأنها " أقلية " من الناحية العددية وإنما أساسا لكى تؤكد مالها من نفوذ فى مؤسسة الحكم ، وفى السياسة وفى الإقتصاد وفى المجتمع جميعا ، فتعزز مراكزها بإصطفاف " الأمم " المقهورة والمحرومة فى المركب الأمريكى تحت رعايتها أو الاحرى وصايتها ، وفى هذا السياق أولت الأقلية السوداء إهتماما خاصا ، ونجحت لزمن طويل فى أن تكون لها بمثابة " الراعى " و "الناصح " ، ومازال لها حتى الآن شئ من ذلك وإن يكن فى وهن متزايد . وقد جرى هذا الوهن بفعل بزوغ وعى أفريقى تطور وتنامى فى صفوف " الأقلية " السوداء جعلها تدرك صلتها بالعالم الثالث ، ومنه العرب .

كيف تتعايش هذه الأمم ؟ مصالح مشتركة

قام النظام الأمريكي منذ الإستقلال على قاعدة " إئتلاف مجموعات المصالح " على أساس ما بينها من مشترك ، فحرب الإستقلال ذاتها تولدت عن تذمر تجار نيوانجلند في الشمال من الضرائب الإضافية التي فرضتها عليهم دولة الإستعمار ــ بريطانيا ــ لتعويض تكاليف إخماد الثورة في الهند ، وألتف معهم مزارعو الجنوب تذمرا من القيود التي فرضتها بريطانيا على الصادرات الزراعية من مستعمراتها الأمريكية ، وعبر هذا الإئتلاف عن نفسه بتولي جون هانكوك الشمالي رئاسة " المؤتمر الذي هو أصل الكونجرس الأمريكي ، بينما تولى جورج واشنطن المزارع الجنوبي القيادة العسكرية وبقي هذا الإئتلاف قائما قلقا منذ الإستقلال حتى الحرب الأهلية ، حين غلبت مجالات إختلاف المصالح بين الشمال التجاري الصناعي وبين الجنوب الزراعي ، كانت ولايات الشمال قد أخذت بتحرير الرقيق ، فأصبحت ملجأ للعبيد الفارين إليها من الجنوب ، ولم يكن هذا إلا تعبيرا عن إنهيار إئتلاف الإستقلال ، وإنتهت تلك الحرب بإنتصار الشماليين (أنصار الفيدرالية) على الجنوبيين الذين أرادوها أن تتحول ــ أو تتراجع ــ إلى دولة كونفيدرالية ، ومع النصر جاءت خطة إعادة صياغة الجنوب، والتي كانت تعني أساسا الإنتقال بالزراعة من الاقطاعيات الضخمة القائمة على الرق إلى الزراعة الرأسمالية ، لكن " حرب الإرهاب " التي شنها الجنوبيون حالت دون أن تكتمل إعادة الصياغة هذه إلا بعد زمن طويل وبثمن باهظ من الإضطرابات والدماء ، وأفرزت أثرا مازال باقيا حتى اليوم هو المنظمات العنصرية ، وأشهرها " كوكلوكس كلان " التي تقول ــ وحتى اليوم ــ بتفوق الرجل الأبيض .

ولأن النظام قام على هذا النحو وعلى خلفية من هذا التركيب من التنوع والتفاوت ، فقد أصبح من أسسه أن بعض جماعات السكان ــ الأمم تقوم داخله ، بينما بعضها منبوذ خارجه ، فالقاعدة في الإئتلافات أنه لايدخلها إلا من لديه مايساوم به الجماعات الأخرى .

والآن بعد بلوغ الجيل الثاني عشر أو الثالث عشر من المهاجرين يوجد بين هؤلاء جميعا طريقة الحياة الأمريكية والطعام الأمريكي ، واللباس الأمريكي ، ويتكلمون الإنجليزية ، ولكنك تحس أن أمامك طريقة حياة أمريكية ، ومجتمع أمريكي ، وشعب أمريكي ليس في نفسه تلك القيود الداخلية التي تمنعه من القول والسلوك على نحو حر طليق ، يعبر عن فردية الفرد إلى أقصى حد مستطاع ، فلا غرابة أن يلبس رئيس

جمهوريتهم قميصا مشجرا ملونا ، ولاغرابة فى أن يضحك الفرد منهم لما هو تافه فى نظر المتأزم من الوجهة النفسية ، والذى يلجم نفسه عن المرح ، حتى تهتز له الأرض وما عليها من أثقال ، ولكنك فى نفس الوقت أمام أمم أمريكية ، ما أن تتعرف على شخص حتى يذكر لك انه من أصل إيطالى أو يونانى أو أيرلندى ..... إلخ .

الإنتاج الزراعى

لقد ظلت الولايات المتحدة الأمريكية طوال القرن التاسع عشر ، وهى دولة زراعية من الدرجة الأولى ، ثم أخذ عدد العاملين بالزراعة فى النقصان ، فقد كان عدد العاملين بالزراعة والمعتمدين عليها ٣٢ مليون نسمة أو نحو ٢٥٪ من السكان عام ١٩٢٠ ، ثم إنخفض العدد إلى ٢٢ مليون نسمة عام ١٩٥٤ نحو ١٣,٥٪ من السكان . أما فى عام ١٩٩٠ فقد قدر الذين يعملون كل الوقت فى الزراعة بنحو ٢,٤٪ أو بنحو ٤ مليون نسمة من مجموع القوى العاملة فى البلاد ، على أنه ليس معنى هذا إنخفاض مماثل فى الإنتاج الزراعى بل على العكس إزداد الإنتاج مما يدل على إزدياد إنتاجية المزارع الأمريكى الآن عنها فى العقود الماضية.

وفى الحق لاينافس إنتاجية مزارع الولايات المتحدة الأمريكية إلا مزارع بعض دول قليلة ، كأستراليا ، ونيوزلند ، وكندا ، ويرجع هذا إلى تقدم الوسائل الزراعية العلمية .

وقد بلغت المساحة المزروعة أقل من ٢ مليون كم٢ عام ١٩٩٥ ، من مجموع المساحة التى تزيد على ٩ مليون كم٢ وبالتالى تصبح نسبة الأراضى المزروعة نحو ٢٠٪ ، هذا وتشغل أراضى المراعى الدائمة نحو ٢٦٪ ، بينما تغطى الغابات مايقرب من ٣٦٪ من المساحة ، لهذا إذا قورنت الولايات المتحدة الأمريكية بغيرها من أقاليم العالم ، سنجد أنها محظوظة من ناحية مواردها المناخية والحيوانية ، بل وإمكاناتها المستقبلية مازالت ضخمة كمصدر ضخم وعالمى للمنتجات الغذائية .

وتتميز الزراعة فى الولايات المتحدة الأمريكية بثلاثة خصائص رئيسية : منها التخصص (بإستثناء أقاليم معينة) فى إنتاج غلة واحدة أو بضع غلات قليلة ، أو فى تربية نوع معين من الحيوان ، فتتخصص المزرعة الكبيرة فى زراعة نوع معين من الحبوب أو فى إنتاج الألبان ، مما يؤدى بالمزارع إلى إكتساب خبرة طويلة مع مرور الزمن فى هذا

الفرع من الإنتاج ولايحتاج إلا لعدد من الآلات . كما تتميز الزراعة الأمريكية بإستعمال الآلات على نطاق واسع ، فالجرارات وغيرها من الآلات تستعمل على نطاق واسع نظرا لأن معظم المزارع فى أراضى سهلية أو مموجة تموجا خفيفا ، فضلا عن كبر مساحة المزرعة . كما تستخدم المزارع الأمريكية الأسمدة الصناعية بكثرة ، ومن ثم تحتل مركز الصدارة بين دول العالم فى إستهلاك هذه الأسمدة .

وإذا كانت إنتاجية الفدان فى الولايات المتحدة عالية ، إلا أنها أقل من نظيرتها فى الدنمارك ، وهولند والمملكة المتحدة ، حيث تقل مساحة الآراضى الزراعية ، ومن ثم تمارس فى الدول الأخيرة الزراعة الكثيفة. ويتركز الإنتاج الزراعى فى شرقى جبال الروكى (فيما خلا بعض الأقاليم المحدودة المساحة كالأجزاء العليا من الأبلاش) .

ويمكن إعتبار خط طول ١٠٠ غربا الفاصل بين شرقى الولايات المتحدة وغربها ، وفى هذا القسم الغربى تقوم الزراعة إعتمادا على الرى. وعلى العموم تنتج الولايات المتحدة الأمريكية العديد من الغلات الزراعية والصناعية التى تسمح بفائض كبير للخارج ، فيما عدا الغلات المدارية كالبن ، والكاكاو ، والمطاط ، التى تستورد من الخارج ، وبينما يشكو معظم العالم من نقص المواد الغذائية ، ويناضل فى سبيل السعرات الحرارية اللازمة للسكان المتزايدين ، نجد كثير من سكان الولايات المتحدة الأمريكية يعانون من التخمة .

مكانة الولايات المتحدة

فى الإنتاج الزراعى العالمى

تحتل الولايات المتحدة الأمريكية مكانة عالية (١٤٪ من الإنتاج العالمى) ، ولكن أهمية الولايات المتحدة فى التجارة العالمية للقمح تتفوق على أهميتها كمنتج له ، ذلك أنها أولى دول العالم تصديرا للقمح ، فلها وحدها مايزيد على ٤٠٪ من الصادرات العالمية ، وبذلك تفوقت على كندا والأرجنتين واستراليا ، وتستخدم الولايات المتحدة هذا المحصول كسلاح سياسى لفرض إرادتها على الشعوب التى هى فى حاجة إليه . ذلك أن الحكومة الأمريكية تشترى الفائض من المحصول وتقوم بخزنه فى صوامع الغلال وتستخدمه بعد ذلك فى إعطاء القروض. وتحتل الولايات المتحدة مركز الصدارة فى إنتاج الذرة العريضة فى العالم ذلك

لأنها تسهم بنحو نصف الإنتاج العالمى (٤٩٪) وحدها ، ويمتد بها نطاق الذرة الرئيسى بين مراعى الغرب والإقليم الصناعى فى الشرق أى فى السهول الوسطى حيث يتداخل مع نطاق القمح ، وتعظم أهمية هذا الإقليم نظرا لأنه أقليم تسمين الماشية ، فالذرة على عكس القمح لاتتحمل نفقات النقل إلى موانى التصدير أو أسواق الإستهلاك . غير أن حاجة الأسواق الخارجية إلى الحبوب الغذائية من ناحية ، وتضخم الإنتاج الأمريكى من ناحية أخرى ، أدى إلى إحتلال الولايات المتحدة مركز الصدارة فى التصدير أيضا حيث اصبحت المسئولة عن ٥٠٪ . ويزرع الأرز فى النطاق الساحلى لولايتى لويزيانا وتكساس فضلا عن بعض المناطق المحدودة فى غرب الولايات المتحدة إعتمادا على الرى ، ورغم أن الولايات المتحدة لاتسهم بنصيب يذكر فى الإنتاج العالمى (١,٥٪) من الأرز إلا أن إنتاجها يكفيها وأصبحت تسهم بما يزيد على ٢٥٪ من الصادرات العالمية للأرز . وتحتل الولايات المتحدة المركز الثانى فى إنتاج الشعير ، والمركز الأول فى إنتاج الشوفان ، من ثم يمكن القول بأن الولايات المتحدة تكفى حاجاتها من الحبوب الغذائية ، بل ولديها منها الفائض .

ويأتى القطن على رأس الغلات الزراعية الصناعية ، ويمتد نطاق القطن فى جنوبى الولايات المتحدة من الأطلنطى إلى المسيسبى بإستثناء الإقليم الساحلى حيث زراعة الأرز وقصب السكر ، وقد ظلت الولايات المتحدة أولى دول العالم إنتاجا للقطن ، وإن إنخفض نصيبها فى الإنتاج العالمى عن ذى قبل نتيجة دخول دول جديدة ميدان الإنتاج . ويكفى هذا الإنتاج الإستهلاك المحلى ويبقى فائض للتصدير ، يسهم بأقل من ثلث تجارة الصادرات العالمية (٢٩٪) . وتأتى الولايات المتحدة فى المركز الخامس إنتاجا للصوف (٦٪) وبالتالى لايكفى إنتاجها الصناعات المحلية ، من ثم كانت من الدول المستوردة لهذا الخام . ويزرع فى الولايات المتحدة كلا من قصب السكر والبنجر . كما يزرع قصب السكر فى دلتا المسيسبى ، فضلا عن شبه جزيرة فلوريدا ، وجزر هاواى، وينتقل للتكرير فى سان فرانسيسكو . ولاتحتل الولايات المتحدة مكانة مرموقة فى إنتاج قصب السكر ، بينما تسهم بنسبة أكبر من إنتاج بنجر السكر ، ولكن رغم جمعها لزراعة القصب والبنجر نجدها تأتى فى المركز الخامس فى إنتاج السكر ، ولايكفى إنتاجها حاجة الإستهلاك المحلى ، من ثم تعتبر على رأس الدول المستوردة للسكر .

وتحتل الولايات المتحدة مركز الصدارة فى إنتاج الطباق فلها نحو ١٥٪ من الإنتاج العالمى ، حيث يزرع فى الولايات المتحدة الجنوبية

الشرقية . وتشبه الولايات المتحدة الأمريكية الإتحاد الروسى فى أن كل منهما غير منتج للمطاط الطبيعى ، وأن كل منهما إتجه نحو المطاط الصناعى . وأصبحت الولايات المتحدة الآن منتجة لنحو ثلثى المطاط الصناعى فى العالم . هذا يغطى نحو ٧٠٪ من إحتياجاتها ، ومازالت الولايات المتحدة المستورد الأول لهذه المادة الحيوية من جنوب شرقى آسيا وأفريقيه .

الإنتاج المعدنى

والولايات المتحدة من الدول الفريدة فى غناها المعدنى نظرا لكبر مساحتها وتنوع تكويناتها الجيولوجية ، ويرى الخبراء أن الولايات المتحدة قد حالفها الحظ فى هذا المجال أيضا ، ففيها إحتياطات ضخمة من موارد الوقود والمعادن الأساسية .

يقرب إنتاجها للفحم من إنتاج المملكة المتحدة وألمانيا الغربية وفرنسا. غير أنه يلاحظ أن إنتاج الولايات المتحدة بصفة عامة أخذ فى النقصان . ولعل هذا كان له أثره على صادرات الولايات المتحدة من الفحم . إذ كانت تشترك بأكثر من ثلث الصادرات العالمية قبل الحرب العالمية الثانية، إنخفضت إلى أقل من العشر قليلا . ويتركز هذا الفحم الجيد فى القسم الشرقى من البلاد فى جبال الأبلاش ، وكذلك يتوفر الفحم فى وسط الولايات المتحدة جنوب البحيرات العظمى ، أما حقول الفحم فى غربى البلاد فتحتوى على ثروة فحمية معظمها من اللجنيت أو الفحم الأسمر .

وهناك فجوة بين إنتاج وإستهلاك البترول ، وعملت على سد فجوة إنتاج وإستهلاك الطاقة بإستيراد البترول . وقد تصاعد هذا الإستيراد لدرجة أن واردات النفط وحدها كانت تمثل ٢٠٪ من مجموع الطاقة المستخدمة فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٦ ، ٤٢٪ من مجموع إستهلاكها النفطى ، بل أن الموقف إزداد خطورة حيث بلغ متوسط الإستيراد اليومى ٨,٦٧ مليون برميل فى اليوم أو نحو ٤٧٪ من إحتياجاتها النفطية . وترجع هذه الزيادة فى الإستيرد إلى زيادة إعتماد الطاقة الكهربائية على النفط فى توليدها ونقص إنتاج الغاز الطبيعى محليا وغيرها ، ويقابل النقص فى موارد الولايات المتحدة النفطية تصاعد وتزايد إستهلاك الطاقة ، وقد أشار البعض إلى ضرورة إستخدام الموارد البديلة للطاقة ، كالطاقة الحرارية الشمسية ، أو الحرارية الأرضية أو الطاقة النووية .

ويذهب البعض إلى القول بأن النواحى الإجتماعية والسياسية قد تكون من أكثر المعوقات أثرا فى زيادة مصادر الطاقة وإستهلاكها ، فقد أصبح المجتمع الأمريكى بعد الحرب العالمية الثانية مجتمعا نفطيا بإمتياز ، عاش بعد هذه الحرب وتطور على أساس مورد للطاقة رخيص للغاية ، لاينفذ إعتماده على إمتيازات شركاته التى تغطى مناطق إنتاج عديدة ، ومنها الخليج ، وبالتالى تشكلت الحياة الأمريكية المرفهة ، ممثلة فى مساكن الضواحى البعيدة عن صخب المدن حيث مقر العمل ، وفى سهولة النقل البرى والجوى عبر مسافات ومساحات شاسعة ، وفى المصانع المشتتة الموزعة على أرجاء البلاد ، وفى تكنيك زراعى زاد من إعتماده على الميكنة ، وأخيرا وليس آخرا فى ذلك الزر الكهربائى الذى إعتاد الأمريكى أن يضغط عليه فتلبى كل حاجاته ، ويقف النفط وراء كل هذه التسهيلات المعيشية والتقدم الإقتصادى ، لأن معظم هذه الآلات والأجهزة والمصانع والمزارع ووسائل النقل صممت على أساس إستخدام النفط بطريق مباشر أو غير مباشر . ثم هل إقتصرت الأهمية للنفط على كونه مادة للوقود ، ومن ثم كان تعلق العالم الصناعى به ؟ يكفى أن نقول بأن النفط كمادة خام يغطى نحو ٥٠٪ من الإحتياجات الكيميائية للعالم اليوم ، ومن ثم كانت شدة الحاجة إليه . وتظهر المشكلة الأولى بالنسبة الولايات المتحدة الأمريكية فى إعتمادها على مصادر للطاقة ، ليس لديها إحتياطات كبيرة منها ، كالنفط والغاز الطبيعى .

فمن المعروف أنه بينما يكون النفط والغاز الطبيعى مسئولان عن أكثر من ثلثى الطاقة المنتجة وأكثر من نصف الطاقة المستخدمة ، فإن إحتياطيها معا يقل عن ١٠٪ من إحتياطى البلاد من الطاقة ، أى إحتياطى يقرب من النفاد .

وتظهر المشكلة الثانية فى أن الإعتماد على الواردات النفطية يجعل البلاد من وجهة النظر الأمريكية عرضة للتقلبات والتطورات التى تحدث فى الدول المصدرة ، أى أنها أصبحت تابعة فى هذا المجال ، وتزداد خطورة الأمر بالنسبة لهم الآن أكثر مما مضى لأنه حدث تحول كبير فى مصدر النفط المستورد ، وأصبح إعتماد الولايات المتحدة على دول الخليج إعتمادا كبيرا ، ولعل تزعم الولايات المتحدة للتحالف الغربى فى عملية الخليج مؤشر ظاهر فى هذا المجال .

هكذا نجد التحول نحو العالم الشرقى ، وهذا فى نظر الساسة الأمريكين من عدم دواعى الأمن ، لأن المصدر الرئيسى بعيد عنها فبينما كان العالم الغربى النفطى فيما مضى ممثلا فى فنزويلا ، وكندا ، والبحر

الكاريبى ، يقع فى مراكز السيطرة والنفوذ الأمريكى ، أخذ الإنتاج الفنزويلى بعد أن بلغ قمته ينخفض ، كما أن كندا بدأت تتخذ سياسة رسمية تقضى بعدم تصدير النفط والغاز الطبيعى إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، ومن ثم إنخفض نصيب العالم الجديد أو نصف الكرة الغربى من واردات الولايات المتحدة الأمريكية ، بينما زاد نصيب الخليج وشمال أفريقيا إى أكثر من الضعف .

وتتفوق الولايات المتحدة فى إنتاج كل من الكهرباء الحرارية والكهرباء المائية وفى نفس الوقت تتصدر دول العالم جميعا ، فلها نحو ٤٥٪ من القوة الحرارية ، ونحو ٢٥٪ من القوة المائية المستعملة فى العالم .

هذا وقد تقدمت الولايات المتحدة تقدما كبيرا فى إستغلال الطاقة النووية ، وإن كانت بدأت تحيط أرقام إنتاج اليورانيوم والثوريوم بالسرية التامة إلا أنه من المعروف أيضا أن رؤوس الأموال الأمريكية تستغل يورانيوم زائير وجنوب أفريقيه .

وقد ظلت الولايات المتحدة أولى دول العالم إنتاجا للحديد الخام فترة طويلة إلى مابعد الحرب العالمية الثانية ، ويأتى معظم هذا الحديد من مناجم مزابى الواقعة غربى بحيرة سوبريور . ونظرا لضخامة إنتاجها الصناعى يصبح هذا الإنتاج غير كاف بمطالب الإستهلاك ، من ثم تقف الولايات المتحدة على رأس الدول المستوردة للحديد الخام فلها وحدها نحو ربع تجارة الإستيراد . وتتفوق الولايات المتحدة فى إنتاج مادة النحاس الإستراتيجية ، إذ تنتج نحو ربع الإنتاج العالمى ، وفى نفس الوقت تستغل رؤوس الأموال الأمريكية نحاس شيلى وزامبيا وزائير وكندا والمكسيك . أما حيث المعادن السبائكية فنجدها فقيرة فى المنجنيز والنيكل والكروم ولكنها غنية فى الكوبالت وتستغل رؤوس أموالها فى إستخراج كوبالت زائير ، كما أنها غنية بالفناديم والتنجستن .

وتتفوق كذلك فى إنتاج البوكسيت (٢٧٪) وإذا أضفنا إليها كندا كان معنى هذا أنها تمتلك أكثر من نصف بوكسيت العالم وهى المادة التى يفتقر إليها الإتحاد السوفييتى .

ورغم أن الولايات المتحدة منتجة لكثير من المعادن فالملاحظ أنها مستوردة لكثير من المعادن أيضا ، وهنا يجب أن نشير إلى أن كندا تنتج وتصدر معظم المعادن التى تفتقر إليها الولايات المتحدة ، كالنيكل ، والبلاتين ، والأسبستوس ، والرصاص ، والنحاس ، والزنك فضلا عن

تصديرها أخيرا للحديد الخام من لبرادور ، فضلا عن توفير كميات كبيرة من الوقود الذرى فمن النواحى الإقتصادية والإستراتيجية تقع كندا داخل دائرة نفوذ جارتها الكبرى .

الإنتاج الصناعى

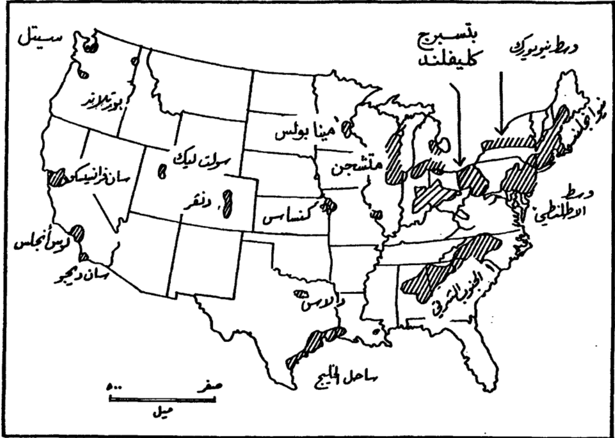
تقود الولايات المتحدة دول العالم أجمع فى معظم فروع الصناعة ، وكان النمو الصناعى الكبير الذى شاهدته البلاد خلال القرن الماضى نتيجة توافر وتجمع الظروف المشجعة للصناعة سواء بموارد ضخمة من موارد الطاقة خاصة فحم الشمال الشرقى حيث بدأت الثورة الصناعية للولايات المتحدة فضلا عن الحديد والمعادن الأخرى . ويضاف إلى هذا تدفق سيل المهاجرين الأوربيين الذين مارسوا الصناعة فى بلادهم ، فأصبحوا نواة جيدة للأيدى العاملة ، كما كونوا سوقا إستهلاكية ضخمة ، ولم تكن هناك قوانين أو تقاليد صناعية قديمة تحول دون تطور الصناعة فى تلك الدولة الناشئة .

وتميز الإنتاج الصناعى كما هو الحال فى الإنتاج الزراعى بدرجة عالية من التخصص ، وقد كان هذا ميسرا بفضل الشبكة الضخمة من الطرق الحديدية والقنوات التى غطت معظم الولايات المتحدة منذ نهاية القرن الماضى ، وعززته فى هذا القرن بشبكة من الطرق وأنابيب البترول والغاز الطبيعى وأسلاك الكهرباء وكانت شبكات النقل هذه من أهم عوامل التقدم الصناعى الأمريكى .

وكان التركيز الكبير لكثير من الطاقات الصناعية فى مؤسسات كبيرة من أهم ماتميزت به الصناعة من العقود الأخيرة فى هذا القرن ، وكان نتيجة هذا تسهيل عملية الإنتاج الكبير ، وبالتالى إرتفاع إنتاج العامل الصناعى . ومع ذلك فمعظم فروع الصناعة ممثلة فيها ، وإن كانت بدأت تحس بمنافسة اليابان الشديدة لها .

ولقد تركت نوايات الصناعة الأولى فى شمال شرقى الولايات المتحدة أى فى نيوانجلند ، ومن هناك بدأت فى الإنتشار غربا إلى أقليم البحيرات، وجنوبا بشرق على طول سواحل الأطلنطى والأبلاش ، وحتى يومنا هذا مازال جزء كبير من طاقة البلاد الصناعية يتركز فى هذا الأقليم الشمالى الشرقى .

شكل رقم (٤٦) : المراكز الصناعية الرئيسية فى الولايات المتحدة الأمريكية



وقد بدأ نوع عدم التركيز أو التفكك ، وبدأت الصناعة تتجه نحو ولايات القطن فى الجنوب ، ونحو مناطق البترول ، وإلى المراكز المدنية المطلة على الباسفيك.

مشكلات تواجه الصناعة الأمريكية

والولايات المتحدة الأمريكية أكبر منتج للسلع الصناعية ، وليس من شك أن صناعاتها نمت نموا كبيرا لمقابلة إحتياجات السوق المحلية ، بينما كان الإنتاج الصناعى لأوربا واليابان موجه بالدرجة الأولى للتصدير حتى يمكنها مقابلة وارداتها من المواد الغذائية والخامات والوقود اللازم لأسواقها المحلية ، وكانت الحربان العالميتان الأولى والثانية مسئولة عن هذا النمو الصناعى الكبير ، وبصفة خاصة الحرب الأخيرة ومابعدها ، ولقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية تمثل هدفا للصادرات المتزايدة من أوربا واليابان وكذلك لخامات والمصنوعات الرخيصة للدول النامية ، ومن ثم عانت بعض الصناعات الكثيرمن هذه المنافسة ، كصناعات النسيج والملابس والصلب والسيارات والإلكترونيات ، وقاومت بعض هذه الصناعات ، وإستطاعت البقاء كصناعة السيارات ، بل أن صناعات

أخرى كصناعة الطائرات والكمبيوتر سادت أسواق العالم ، على حين أن الصناعات المعتمدة على حقول الفحم فى شرقى البلاد عانت كثيرا نتيجة إنخفاض إنتاج الفحم والصلب ، وكذلك صناعة المنسوجات .

هذا ومع زيادة عولمة الإقتصاد العالمى زادت حجم العمليات مع العالم الخارجى وتحركت رؤوس الأموال الأمريكية لجهات كثيرة فى أنحاء العالم ، محمولة لكثير من النشاطات كإستخراج البترول فى فنزويلا ، وصناعة السيارات فى المملكة المتحدة (فورد وجنرال موتورز) وزراعة الفاكهة فى أمريكا الوسطى ، هذا كما تحركت رؤوس الأموال الأجنبية داخل الولايات المتحدة الأمريكية ، وخاصة الجهة الشرقية ، أكثر من الجهة الغربية المطلة على المحيط الهادى .

وتواجه الصناعة منافسات خارجية عاتية ، فقد زادت صادرات الدول الأخرى إلى الولايات المتحدة بمعدل ثلاثة أضعاف خلال العقدين الأخيرين ، وإعتمدت صناعات الدول الأخرى على رخص الأيدى العاملة كما فى شرق آسيا وعلى تكنولوجيا متطورة كما فى شرق آسيا وغرب أوربا ، (فاليابانيون على سبيل المثال يستخدمون الروبوت " الإنسان الآلى " خمس مرات أكثر من الأمريكين فى الصناعات الدقيقة) ، ولعل تدهور مكانة الولايات المتحدة الأمريكية بالنسبة للعالم الصناعى تظهر فى حالة صناعة الصلب ، وهى أحد الصناعات الرئيسية والتى تمثل العمود الفقرى لحزام الصناعة هناك ، فقد كانت قائدة هذا النوع من الصناعة حتى الستينيات ، ثم تدهورت فى الثمانينيات لدرجة إنخفاض مبيعاتها بما يزيد على ٤٠٪ ، وإنخفضت نسبة العمالة فيها بنحو ٦٠٪ ويرجع تدهور هذه الصناعة إلى إنخفاض الطلب العالمى على الصلب من ناحية ، وزيادة الصلب المستورد لإنخفاض أسعاره عن الصلب الأمريكى، فضلا عن السبب الرئيسى وهو تخلف صناعة الصلب فى الولايات المتحدة الأمريكية بالنسبة لصناعة المنافسين .

إنحدار الولايات المتحدة الأمريكية من القمة إلى السفح

من النواحى الإقتصادية

يرجع المؤرخون الإقتصاديون جانبا كبيرا من نجاح أمريكا الإقتصادى إلى الأراضى الزراعية والموارد الأولية الرخيصة والوفيرة ، فأمريكا لم تصبح غنية لأنها عملت بمشقة أكثر أو أدخرت أكثر مما أدخر

الأخرون ، ولكن لأن سكانها عاشوا فى بيئة فسيحة للغاية ، شديدة الثراء فى الموارد ، وإقترنت مواردها الطبيعية بأول نظام للتعليم الإجبارى مدته إثنتا عشرة سنة ، وبأول نظام للتعليم الإجبارى العالى ذى الأعداد الكبيرة وهاتان الخطوتان أعطتا أمريكا سبقا إقتصاديا .

لذلك كانت الولايات المتحدة الأمريكية فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية تعيش خلف سورها العظيم ، ولكن سورها لم يكن مبنيا بالحجارة ، بل كان مؤلفا من أربع ميزات إقتصادية ساحقة .

أولاها : أن السوق الأمريكية كانت فى عام ١٩٥٠ أكبر بمقدار تسع مرات من أكبر سوق تالية لها ، وهى المملكة المتحدة . ونتيجة لذلك كانت الصناعة الأمريكية تتمتع بوفورات حجم وآفاق لم يكن بإستطاعة أى إقتصاد قومى آخر أن يأمل فى تحقيقها . وكانت الصناعة الكبيرة إحتكارا أمريكيا من الناحية الفعلية ، حيث كانت تكاليف الوحدة فى صناعات مثل صناعة السيارات أو الصلب تتجاوز أحلام أكبر المنتجين الأجانب . وكان بوسع المؤسسات المتميزة أن تزدهر وهى تخدم سوقا داخلية بهذا الحجم .

ثانيتها : كان التفوق فى التكنولوجيات من نصيب الأمريكيين . فقد كانت الحرب العالمية الثانية قد دمرت المقومات العلمية فى معظم أنحاء بقية العالم ، وأعطت أوربا الولايات المتحدة بعضا من ألمع عقولها ـ ألبرت أينشتاين مثلا . ولم تكن المؤسسات الإمريكية تتنافس مع مؤسسات أجنبية ، بل كانت تصنع منتجات لم يكن بإستطاعة الأجانب صنعها .

ثالثتها : أن العمال الأمريكيين كانوا أكثر مهارة من نظرانهم فى الخارج . وكان الأمريكيون قد إبتدعوا التعليم الإلزامى العام ، الأساسى والثانوى .

كانت أمريكا أيضا أول دولة بها تعليم عال يضم أعداد كبيرة . وأصبح لديها نسب أكبر كثيرا من سكانها تعليم عال . وكان هؤلاء بسبب هذا التعليم قادرين على إكتساب مهارات تكنولوجيا تجاوزت بوضوح الموهبة البشرية فى أى بلد آخر . ونتيجة لذلك كانت التكاليف أقل .

رابعتها : أن أمريكا كانت غنية ، على حين كانت البلدان الأخرى فقيرة . ففى عام ١٩٥٠ كان ناتجها القومى الإجمالى أعلى بمقدار ٥٠ فى المائة من مثيله فى كندا ، وثلاثة أمثال نظيره فى بريطانيا العظمى ، وأربعة أمثال نظيره فى ألمانيا الغربية ، وبمقدار خمس عشرة مرة من

مثيلة فى اليابان . وكان بإستطاعة الأمريكيين أن يفعلوا أشياء لم يكن بإستطاعة الآخرين أن يفعلوها ، ولما كان لدى الأمريكيين دخل قابل للتصرف أكثر من غيرهم ، فإن أول سوق كبيرة لكل شئ تقريبا كانت تبدأ فى الولايات المتحدة ، وأعطى ذلك المؤسسات الأمريكية فرصة لأن تقطع شوطا فى تحسين آدائها حتى قبل أن يكون بإستطاعة غيرها أن يبدأ الطريق .

القوة العسكرية على حساب الداخل

أمريكا مازالت قوية ، مازالت أمريكا واحدة من أقوى الدول إقتصاديا وسياسيا وعلميا ، لكن قوة أمريكا الحقيقية هى قوة نووية وعسكرية ، وهى القوة التى تبدو واضحة كل الوضوح فى الخارج ، وهى أيضا القوة التى تسبب فى إنهاك أمريكا من الداخل ، القوة النووية والعسكرية الأمريكية لازالت مطلقة وجبارة ، ولاينبغى لأحد فى الخارج على الأقل أن يستهزء بها أو يستفزها ، وإن أمريكا بقدراتها النووية الراهنة قادرة على تدمير الكرة الأرضية وكل ماعليها ، فهى تملك أكثر من ٢٥ ألف رأس نووى ، ولازالت الدولة الوحيدة فى العالم التى تنفق سنويا ٢٨٠ مليار دولار ، أى نحو نصف مليون دولار فى كل دقيقة من دقائق الساعة وعلى مدار السنة، على إنتاج وتطوير الأسلحة بكل أشكالها وأنواعها ، وأمريكا هى الآن الدولة الوحيدة التى لديها مجمع عسكرى — صناعى ضخم ، وفيه جميع فرص التقدم والكسب المرتفع — إذ يعمل ٣٠٪ من مهندسيها مباشرة أو بطريق غير مباشر فى خدمة القوات المسلحة . فهى توفر إثارة مغامرات التقنية الرفيعة التى لاتستطيع المنتجات المدنية أن تباريها ، ولكن هذه القوة العسكرية والنووية التى لازالت تفرض زعامة أمريكافى الخارج ، تنمو على حساب تراجع أمريكا من الداخل .

مؤشرات التدهور فى الداخل

١- <u>إنكماش إقتصادى</u>

تقول الأرقام والبيانات الرسمية الأمريكية ، أن أمريكا أصبحت تستهلك الآن أكثر مما تنتج ، أمريكا تستورد اليوم من الخارج أكثر مما تصدر للخارج ، ولم تكن أمريكا هكذا منذ ربع قرن . إن أمريكا أصبحت تنفق أكثر مما تستثمر فى الداخل والخارج ، بل هى أقل الدول الصناعية من حيث الإستثمار القصير والطويل المدى ، لقد أخذت أمريكا تسجل أعلى حالات الإفلاس فى كل تاريخها المعاصر (٧٠٠ ألف حالة إفلاس

خلال عام ١٩٩٠) والإفلاس يتزايد بنسبة ٢٠٪ سنويا ، وتعانى من أكبر عجز فى العالم والذى تجاوز ٤٠٠ مليار دولار عام ١٩٩١ .

لقد توقف كليا عملية النمو الإقتصادى فى أمريكا ، وهى تعيش حاليا ركود إقتصادى مزمن وبطالة مستديمة ، ومتزايدة ، هناك اليوم أكثر من ١٥ مليون شخص عاطل عن العمل أى بنسبة ٨٪ من إجمالى القوة العاملة فى منتصف التسعينيات ، وهذه النسبة هى الأعلى بين الدول الصناعية .

لكن برغم هذا الضعف البنيوى ، فإن إقتصاد أمريكا هو الإضخم، والأكبر والأول فى العالم من حيث إجمالى الناتج القومى الذى يبلغ حوالى ٦ آلاف مليار دولار ، أى ضعف الإقتصاد اليابانى الذى هو الثانى فى العالم ، وأمريكا هى أيضا موطن أكبر عدد من أصحاب الملايين وأكبر عدد من أصحاب البلايين .

٦٤ ألف مليونير يعيشون فى أمريكا ، ونصف إجمالى عدد أصحاب البلايين فى العالم هم من الولايات المتحدة الأمريكية ، هذا على حين يبلغ عدد فقراء أمريكا ٣٠ مليون فقير حسب تعداد عام ١٩٩٠ ، والفجوة هى التى تولد التوترات والتناقضات الإجتماعية الحادة فى الداخل .

٢- تراجع الأوضاع الصحية

أمريكا هى الدولة الأولى فى الطب وفى تقدم التقنيات الطبية ، وفى كون العلاج الطبى هو الأغلى فى العالم ، لكن قلة تدرك عمق تراجع أمريكا الصحى والطبى إلى المراكز المتأخرة حتى بمقاييس الدول المتخلفة ، إن أمريكا هى الآن الدولة رقم ١٥ من حيث معدل عمر الفرد فى العالم ، والذى هو أهم مؤشر من مؤشرات تطور وتقدم ورقى ورفاهية أى دولة فى العالم ، اليابان هى الدولة الأولى من حيث معدل عمر الفرد الذى يصل إلى ٧٩ سنة مقابل ٧٥ سنة بالنسبة لعمر الفرد فى أمريكا ، لقد كانت أمريكا قبل ١٥ سنة الأولى من حيث معدل عمر الفرد الذى أخذ يتراجع ولازال التراجع مستمرا ، كما تراجعت أمريكا إلى الدولة رقم ١٣ من حيث الإنفاق العام على الصحة .

إن تراجع الأوضاع الصحية فى أمريكا جعلها الدولة الأولى فى العالم من حيث عدد المصابين بالإيدز ، ومن حيث عدد المصابين بالسرطان، حيث أن كل ٤ من ١٠ رجال و٣ من كل ١٠ نساء مصابون بالسرطان فى أمريكا ، ويعود إنتشار مرض القلب والسرطان إلى أسباب عديدة ،

يبدو أنه مرتبط بالإفراط في أكل اللحوم (أمريكا هي الأولى إستهلاكا للحوم) وإستهلاك المأكولات المعلبة ، والتي تحتوى على نسبة عالية من المواد الكيماوية والحافظة .

٣- تراجع التعليم

تراجع أمريكا في التعليم هو أكثر دلالة من تراجعها في الطب والصحة ، كان التعليم الحديث والمتطور مصدر قوة ونموذجا للآخرين ، أما الآن فقد أصبحت أمريكا " أمة في خطر " كما أكد ذلك تقرير التعليم الذى رفع للرئيس الأمريكي ، إذ تعاني من تدهور شديد في النظام التعليمي ، وتعاني من أعلى معدل للتسرب بين الدول المتقدمة ، ويوجد ٢٣ مليون أمريكي لايعرفون القراءة والكتابة إضافة إلى ٤٠ مليونا آخرين يقرأون بصعوبة ولايجيدون الكتابة أصلا ، وما يتم إستثماره في التعليم لايتناسب مع متطلبات المنافسةالدولية الراهنة ، اليابان هي اليوم الدولة الأولى من حيث الإستثمار في التعليم ، ومن حيث الإستثمار في مجالات البحوث والدراسات ، وتأتي ألمانيا في المرتبة الثانية .

لقد تراجعت أمريكا إلى المركز الأخير من حيث التعليم في الحضانة ورياض الأطفال ، ومن حيث تعليم الرياضيات حتى بين الدول الصناعية الجديدة ككوريا وهونج كونج ، إن أمريكا هي اليوم الدولة رقم ٢٩ من حيث عدد العلماء والفنيين والمهندسين ، ولديها ٥٥ عالما وفنيا فقط لكل ألف نسمة مقابل ٣١٧ عالما وفنيا في اليابان وهو أعلى معدل في العالم ، أى أن معدل عدد العلماء والفنيين في اليابان يساوى ١٦ ضعف المعدل في أمريكا .

وأخيرا

كل عام ينشر المنتدى الإقتصادى العالمي ، وهو منظمة ذات إدارة سويسرية ، تقرير القدرة التنافسية العالمية ، الذى يحاول فيه ترتيب القدرة التنافسية لمؤسسات الأعمال في بلدان مختلفة وفق أبعاد مختلفة . وقد أجرى المنتدى تقييما للإدارة في ٢٣ بلدا صناعيا ، حصل فيه المديرون الذين كانوا الأفضل في نشاط ما على المرتبة ١ ، على حين حصل المديرون الذين كانو الأسوء على المرتبة ٢٣ .

وفي ما يتعلق بجودة المنتجات كانت المؤسسات الأمريكية في المرتبة ١٢ وكانت اليابان في المرتبة ١ ، وألمانيا رقم ٢ .

ووجدت النتائج نفسها بالنسبة لخدمة ما بعد البيع : كانت اليابان رقم ١، ألمانيا رقم ٢ ، الولايات المتحدة الأمريكية رقم ١٠ .

وحصلت كمية ونوعية التدريب أثناء العمل اللتان تقدمهما المؤسسات الأمريكية على مرتبة ١١ ، وكانت اليابان رقم ١ ، وألمانيا رقم ٢ .

وفيما يتعلق بالتوجه المستقبلى للمؤسسات (أى هل تأخذ المؤسسات نظرة المدى الطويل) فى ٢٣ بلدا صناعيا ، كانت المؤسسات الأمريكية فى المرتبة ٢٢ ـ أى فى القاع تقريبا وكانت المجر فقط هى أسوأ الجميع، وكانت اليابان رقم ١ ، وألمانيا رقم ٣ .

وهذه التقييمات الأوربية تجد صداها فى الشرق . ففى مسح أجرته دوائر الأعمال الكورية ، بعد تصحيح بالنسبة للسعر ، فضل ٨٠ فى المائة من الكوريين المنتجات اليابانية ، وعندما طلب إلى اليابانيين الرأى فى السيارات المستوردة التى يريدون شراءها ، لم ترد فى القائمة أية سيارات أمريكية . كانت السيارات جميعا من أوربا . ومنذ وقت ليس بطويل قال أحد الإقتصاديين اليابانيين " إننا سنساعدهم على إدارة إنحدارهم " .

وإلى حد ما يتفق الأمريكيون مع هذه التقييمات الخارجية ، ذلك أن ٤٨ فى المائة من الأمريكيين يعتبرون المديرين اليابانيين أفضل من نظرائهم الأمريكيين ، وأن ١١ فى المائة فقط هم الذين يعتقدون بعكس ذلك .

ومعنى جميع هذه التغيرات واضح ، وهو أن أمريكا لم تعد تعيش وراء سورها العظيم . فقد إنهار السور العظيم ! وعلى أمريكا أن تتكيف مع الواقع القاسى ، واقع المنافسة الحقيقية . لقد ولى تفوقها التكنولوجى والإقتصادى الذى حصلت عليه دون عناء . ومن الناحية الإقتصادية لقد وصل جنكيزخان (اليابان) .

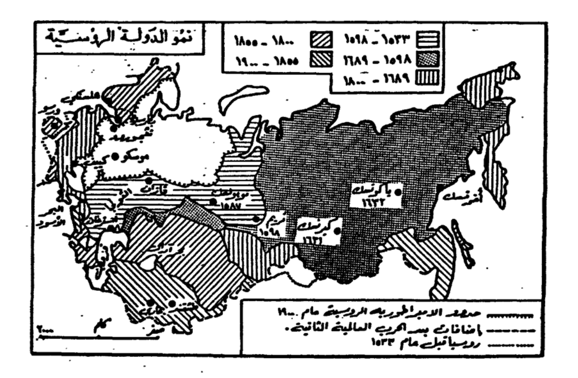
الفصل الثانى : روسيا الإتحادية وريثة الإتحاد السوفييتى

الإتحاد السوفييتى ١٩٢٤-١٩٩١

ظهور النجم

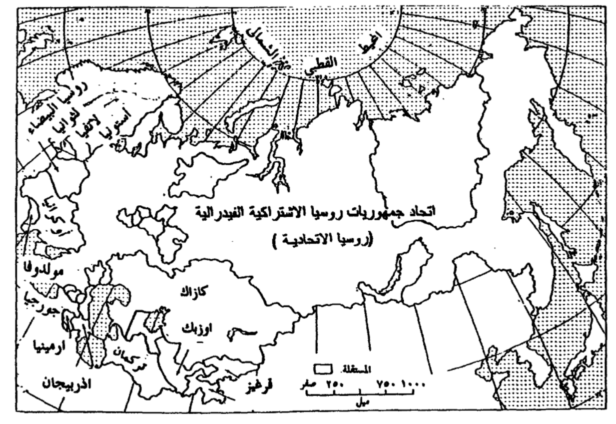
مثلت روسيا حجر الزاوية لمدة سبعة وستين عاما فى الإتحاد السوفييتى الذى كان يعرف بأسم إتحاد الجمهوريات السوفييتية الإشتراكية (U.S.S.R.) وكان الإتحاد السوفييتى ثمرة لثورة ١٩١٧ ، والتى ظلت لمدة عقد من الزمان حتى أطاحت بالقيصر نيقولا الثانى ، وكان يطلق على المجموعات الثورية لقب السوفييت (المجالس) ، وكانت هذه المجالس نشطة منذ عام ١٩٠٥ ، حين قام آلاف العمال بمظاهرات ضد القيصر ، ووصلوا إلى قصره في الاسبرج ، وفتح عليهم الحرس النيران فقتل المئات وجرح المئات ، وبدأت روسيا تدخل دروب الفوضى .

شكل رقم (٤٧) : نمو الدول الروسية



بيد أن الإطاحة بالقيصر عام ١٩١٧ كان نتيجة لتعاون الجيش والمدنيين ، وعقد البلاشفة صلحا منفردا مع ألمانيا فى مارس سنة ١٩١٨، وواجهت الحكومة أزمات خطيرة ، فقد أثار الصلح حفيظة الحلفاء ، وهوجمت روسيا من جميع الإتجاهات بقوات مناهضة للشيوعية تؤازرها قوات الحلفاء ، إلى جانب نشأة جمهوريات مستقلة فى القوقاز وأوكرانيا ، وإشتد القتال بين الجنود الحمر وهم أنصار القيصرية نحو ثلاث سنوات ، نجحت فيها الحكومة السوفييتية فى إعادة توحيد البلاد ، وضم الأجزاء التى كانت قد إنفصلت عن الإمبراطورية القديمة . ولكن إتحادها هذه المرة كان على أساس يختلف تمام الإختلاف عن الأسس القديمة التى قامت عليها إمبراطورية القياصرة ، وأساس هذا الإتحاد أن تكون الأقاليم معا ما يشبه الإئتلاف ، وأن يكون لكل إقليم حريته ، بأن تكون الأقاليم جميعا على قدم المساواة ، ومنذ سنة ١٩٢٢ حينما ظهر الإتحاد السوفييتى لأول مرة بصفة رسمية بدأت جمهوريات مختلفة فى الإنضمام إليه حتى أصبح عددها ١٦ جمهورية ، ثم ضمت كاريليا الفنلندية إلى جمهورية روسيا السوفييتية عام ١٩٥٦ فأصبح عددها حتى تفكك الاتحاد السوفيتى خمس عشرة جمهورية . وعرفت هذه الدولة الكبيرة بأسم الإتحاد السوفييتى Soviet Union أو إتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفييتية Union of Socialist Soviet Republics (USSR)

شكل رقم (٤٨) : جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق



وحكمت روسيا بعد ذهاب القيصر بواسطة حكومة مؤقتة ، وأعادت هذه الحكومة الثوار المنفيين من معسكر البولشفيك (وكانوا ينقسمون شيعا) ، عاد لينين من سويسرا ، وتورتسكى من نيويورك ، وستالين من سيبريا ، وبعد ذلك سيطرت مجموعة لينين على السلطة ، وبدأ ظهور المعسكر الشيوعى عام ١٩٢٤ تحت إسم إتحاد الجمهوريات السوفيتية الإشتراكية ، وأعقب لينين الذى توفى عام ١٩٢٤ ، الدكتاتور ستالين ، الذى إستخدم العنف مع أعدائه ومخالفيه بالنفى والإغتيال .

أفول النجم

ليس من شك بأنه لم تكن هناك جدية فى العمل فى الدولة الشيوعية السابقة ، وهم كانوا كذلك للأسباب التى توضح عنها الفكاهة الشيوعية . "نحن نتظاهر بالعمل ، وهم يتظاهرون بأنهم يدفعون لنا أجوراً " وإذا لم يكن هناك مقابل للعمل ، فما الذى يحمل المرء عليه ؟

تقول فكاهة أخرى فى العالم الشيوعى السابق . إن الفرق بين الرأسمالية والشيوعية على النحو التالى ." فى الشيوعية تكون جيوبك مليئة بالنقود ، ولكن لايوجد فى المتاجر شئ تشترية ، فى الرأسمالية تكون المتاجر ممتلئة ، ولكن لاتوجد نقود فى الجيوب " .

ظل الدب السوفييتى يثير القلق فى معظم نصف القرن الأخير ، ووقفت الرأسمالية وجها لوجه أمام الشيوعية ، وبدأ فى أواخر الأربعينيات أن الدب السوفييتى ، بموازرة المعونة المقدمة إلى اليونان وتركيا ، وإنشاء حلف شمال الأطلنطى ، وإعادة تسليح اليابان وألمانيا الغربية ، الحرب الكورية ، كلها جهودا ترمى إلى إحتواء الدب والتنين السائبين فى الغابة .

وفى الخمسينيات كانت القدرات الإقتصادية والتكنولوجية للدب السوفييتى تبدو مضاهية لقوته العسكرية ، فقد إنطلق السبوتنيك الروسى ، ولم ينطلق نظير له من الجانب الأمريكى ، وفى الخمسينيات كان الإتحاد السوفييتى ينمو بمعدل أسرع من الولايات المتحدة ، ولو إن الحال إستمرت على هذا المنوال لكان إجمالى الناتج القومى السوفييتى قد تفوق على مثيله الأمريكى فى عام ١٩٤٨ .

وعندما قرع نكيتا خروشوف الطاولة فى الأمم المتحدة بحذائه ، وهدد بدفن الديموقراطيات الصناعية ، عسكريا وتكنولوجيا وإقتصاديا ، أخذه الجميع مأخذ الجد ، وبدا وكأن ذلك قد يحدث بالفعل .

وربما كان عجز الإتحاد السوفييتى عن توفير السلع الإستهلاكية للمواطنين هو النذير وكانت قيادة جورباتشوف (١٩٨٥ إلى ١٩٩١) هى الفترة التى تقوض فيها الإتحاد السوفييتى ، ودخلت السياسة الدولية كلمات جديدة لم تكن موجودة من قبل وهى البرستوريكا (إعادة البناء) والجلاسنوست (المصارحة) .

فعندما أضعف جورباتشوف سلطة الجهاز القديم للتخطيط المركزى، خلق أوضاعا إستحال معها العودة إلى الماضى ، ذلك أن ماحدث كان أكثر عمقا من فتح الباب أمام التغيير ، فما أن فتح الباب مجرد فرجة حتى تمزق النظام لا على يد جورباتشوف ، بل على أيدى الاف المواطنين السوفييت الذين أصبحوا ببساطة غير مستعدين للتعاون مع ذلك النظام ، وعندما تلاشى تعاونهم الطوعى مع النظام القديم تلاشى النظام نفسه .

ويتضح الآن وضوح الشمس أنه لايوجد إمكان لأن يعود الإتحاد السوفييتى السابق إلى ماكان عليه ، فهو لم يعد قوة عظمى عسكرية رغم خطورة القوى النووية التى فى حوزته ، كما أن إقتصاده ليس على درجة من القوة تسمح له بإستعادة وضعه العسكرى السابق ، ولم يعد جيشه قابعا فى وسط أوربا ، والإتحاد السوفييتى الذى عرفناه طيلة الأعوام السبعين الماضية ، هو الآن مجرد موضوع تاريخى وبصرف النظر عن عدد الدول التى تظهر من بين أشلاء الإتحاد السوفييتى فقد ولّى .

الإعلان الرسمى لوفاة الإتحاد السوفييتى

فى ٨ ديسمبر عام ١٩٩١ أعلن فى مدينة برست بجمهورية بيلوروسيا "نحن جمهورية بيلوروسيا والإتحاد الروسى وأوكرانيا بإعتبارنا الدول المؤسسة للإتحاد السوفييتى ، والموقعين على معاهدة الإتحاد عام ١٩٢٢، والمشار إليهم بعد ذلك بإعتبارهم الأطراف العليا المتعاقدة ، نقرر أن الإتحاد السوفييتى كأحد أطراف القانون الدولى وكواقع جيوبوليتيكى ، لم يعد قائما بهذا الإعلان غابت عن المسرح الدولى القوة التى ظلت تشارك كدولة وكنظام سياسى وإجتماعى منافس فى زعامة وقيادة النظام الدولى على مدى ٦٧ عاما ، وفى إرساء قواعده ونظمه وتشكيل علاقاته .

غير أن الإعلان وأن كان قد تحدث بوجه خاص عن تفكك وحدات الإتحاد السوفييتى بجمهورياته الخمس عشرة ، إلا أنه كان يعنى كذلك ويؤكد بشكل نهائى ، ماكان قد بدأ بالفعل منذ سقوط جداربرلين عام ١٩٨٩ ، وتفكك المعسكر الإشتراكى الذى كان الإتحاد السوفييتى يستمد

منه مكانته الدولية ، ويرمز إلى الحرب الباردة والإنقسام الدولى ، لذلك فلم يكن غريبا أن يشبه المؤرخون هذا الغياب الفعلى للإتحاد السوفييتى بتطورات تاريخية كبرى مثل تلك التى أعقبت الحرب النابوليونية ، والحربين العالميتين الأولى والثانية ، والآثار العميقة التى ترتب عليها من إحساس بالإرتباك والإضطراب والبحث عن الهوية ، فضلا عن إستمرار التفكك الإقتصادى ومايصاحبه من تشوهات إجتماعية ، وأهم من ذلك ، ربما الإحساس بالمهانة التى تولدت عن فقدان الهيبة والمكانة ، والتى تشبه خبرة ألمانيا بعد الحرب الأولى ، والتى قادت إلى ظهور الإشتراكية القومية ، ولم تكن أخطار تفكك الإتحاد السوفييتى وإنهيار السلطة المركزية مقصورة على شعوبه ، بما تضمنته من عوامل عدم الإستقرار وعدم وضوح المعالم ، واسس النظام الذى سيقوم على إنقاض النظام القديم، وإنما إمتد هذا القلق ، ولايزال حول مايميز الإنهيار السوفييتى عن غيره من إنهيار قوى تاريخية سابقة ، وربما ميز الحالة السوفييتية أنها كانت المرة الأولى التى تتفكك فيها إمبراطورية تمتلك ترسانه وأسلحة نووية وموزعة على أربع وحدات فيها ، ورغم الحدود التى بذلت لمحاولة التحكم والسيطرة وإحتواء هذه الترسانة النووية وخفضها ، فما زالت أخطار تسربها سواء من حيث مكوناتها المادية أو البشرية من كادرات العلماء والفنيين المشرفيين عليها ، تسربها إلى قوى وقنوات لايمكن التحكم فيها أو التنبؤ بكيفية إستخدامها .

الإتحاد الروسى أو روسيا الإتحادية R.S.F.S.R

واليوم وقد أنزل علم المطرقة والسندان من فوق الكرملين ، ورفع بدلا منه العلم الروسى الذى يحمل النسر ذو الرأسين ، وأصبحت (لينينجراد) بيترزبرج كما كانت أيام القياصرة ، كما دقت أجراس الكنيسة الأرثوذكسية .

واصبحت اليوم الست جمهوريات السابقة (أستونيا ، لاتفيا ، لتوانيا ، بيلوروسيا ، أوكرانيا ، مولدوفيا) التى تقع فى غرب روسيا جزءا من أوربا الشرقية وتتطلع إلى أوربا لتبحث لنفسها عن مكانة ، وبالمثل الخمس جمهوريات الجنوبية التى كانت تكون وسط آسيا ، (كازخستان ، أوزبك ، تركمان ، طاجيكستان ، قيرغيزستان) ، تنظر إلى العالم الإسلامى إلى الجنوب منها ، وأعطتها كل من إيران وتركيا إهتمامات خاصة ، وأصبحت روسيا ذاتها فى حالة إنتقالية .

ومثلت روسيا نواة الإتحاد السوفييتي السابق ، فسكانها نصف سكان الإتحاد ، وعاصمتها كانت عاصمة الإتحاد ، كما تضم معظم نواياته الصناعية كما أنها أكبر الجمهوريات السوفيتية مساحة .

روسيا الإتحادية والتي يطلق عليها روسيا إختصارا وتتكون من ٢٠ جمهورية، وتضم ١١ إقليما ذى حكم ذاتي وقد رفضت جمهورية الشيشان هذا الإتحاد وطالبت بالإستقلال التام ، وأرسلت موسكو قواتها ولكن بعد طول معاناة من جانب الروس إضطروا أخيرا إلى الإنسحاب والرضا بالمفاوضات مع الشيشان ، مما يدل على مدى الإنهيار الذى أصاب المركز وتنبأ الجغرافيون السياسيون بأن قوى الطرد Centrifugal Force فى الإتحاد الروسى ستتغلب على قوى الجذب Centripetal بما يسمح بمزيد من التفكيك والإنفراط . ومما يدل على إنهيار موسكو أن الحرب الأفغانية أودت بحياة ١٤ الف سوفييتي على مدى عشر سنوات ، أى ٤ أشخاص كل يوم ، قارن هذا بخسائر الحرب الشيشانية وخسائرها اليومية ، والتي أدت فى النهاية بإنسحاب القوات الروسية والقبول بالمفاوضات .

العلاقات المكانية لروسيا الإتحادية

تمتد روسيا الإتحادية فى مساحة ضخمة من القارتين الآسيوية والأوربية إذ تصل مساحتها نحو ١٧,٥مليون كم٢ ، أو نحو ١٢,٥٪ من إجمالى مساحة العالم ونحو ٧٧٪ من مساحة الإتحاد السوفييتي السابق .

والواقع أن الإتحاد السوفييتي بمساحته هذه يمكن أن يوضع فى مصاف القارات ، فهو أكبر من ضعف مساحة الصين أو كندا أو البرازيل ، ويعادل ثلاثة أمثال مساحة الولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا ، وأربعين مرة قدر فرنسا ، فالإتحاد السوفييتي كان يشغل كيلومتر من كل ثمانية كيلو مترات مربعة من سطح الأرض .

وإمتداد روسيا الإتحادية من الغرب إلى الشرق أكبر بكثير من إمتدادها من الشمال إلى الجنوب فتبلغ المسافة بين أبعد نقطتين نحو ١٧٠ درجة طولية أو نحو ١١ ساعة أو ما يقرب من ٩ آلاف كيلو متر ، بينما إمتدادها من الجنوب إلى الشمال يبلغ نحو ٤٠٠٠ كيلو متر .

وكان لإتساع مساحة روسيا الإتحادية أثره فى طول حدودها التى بلغت نحو ٥٠ ألف كيلو متر ، ثلثى هذه الحدود بحرية والثلث الباقى حدود برية وبذلك تملك روسيا الإتحادية أطول حدود بحرية فى العالم ،

ولكن على الرغم من طول الجبهات البحرية الروسية ، فإن هذه الدولة تعد برية بل مغلقة ، فمعظم موانيها على بحار مغلقة ، فموانى المحيط القطبى تتجمد لأكثر من نصف العام ، ومن ثم تميزت بصغرها وقلة نشاطها بإستثناء ميناء مورمانسك فى الشمال الغربى ، الذى يحول دون تجمد مياهه تيار المحيط الأطلنطى الشمالى . وإن كان يعيب هذا الميناء بعده عن مراكز العمران والإنتاج الزراعى والصناعى ويرتبط هذا الميناء مع موسكو ولينينجراد بخط حديدى ، وكذلك الحال فى موانى المحيط الهادى التى تمر عليها تيار كمتشكا البارد ، وموانى بحر البلطيق التى تتجمد لمدة أسابيع فى الشتاء وإن كان يمكن فتحها طول العام بفضل كاسحات الثلوج ، من ثم تصبح مياه البحر الأسود هى المياه الدفينة طول العام .

وتشترك روسيا الإتحادية فى حدود برية مع إثنتا عشر دولة أوربية وآسيوية ، وقد تمكن الروس بفضل موقع دولتهم المتوسط من أن يقتبسوا أحسن مظاهر التقدم الإقتصادى والثقافى من آسيا وأوربا ، غير أن الوضع بالنسبة للجيران لم يكن فى جميع الأحوال ميزة كبرى ، ذلك أن بها مساحات كبيرة لم تستغل إستغلالا كاملا ولم تعمر تماما ، وكانت هذه الأراضى تقع بين حضارتين كبيرتين : الحضارة الشرقية ممثلة فى اليابان ، ثم غربا حضارة أوربا الغربية ، من ثم تتعرض لصنوف من الضغط على حدودها الغربية والشرقية ، وكان يقابل ذلك الضغط ضغطا أعظم من جانب روسيا فى إتجاهات مضادة . وأدى هذا أخيرا إلى أمتداد رقعتها من قاعدتها فى أوربا حتى وصلت إلى إتساعها الحالى ، وأصبحت حدود روسيا الإتحادية يمثلها المحيط المتجمد الشمالى والمحيط الهادى شرقا والقوقاز وصحارى تركستان والبحر الأسود فى الجنوب .

غير أن هذا الموقع لم يكن ميزة فى كل الأحوال ، ذلك أن ثلاثة أرباع البلاد تقع فى العروض العليا إلى الشمال من دائرة عرض ٥٠ شمالا ، فإذا تذكرنا أن الولايات المتحدة الأمريكية بكاملها بإستثناء ألاسكا تقع جنوب دائرة عرض ٤٩ شمالا ، من ثم كانت مساحة الأرض المزروعة فيها تعادل نظيرتها فى الإتحاد السوفييتى رغم فارق المساحة الضخمة .

المســاحة

وتؤدى مساحة روسيا الإتحادية الضخمة (١٧,٥٠٠ مليون كم٢) إلى عدة أمور : منها إتاحة الفرصة أمام سكانه المتزايدين بسرعة فائقة على أن يجدوا مجالا حيويا **Lebensreum** كافيا يضمن لهم سد

حاجاتهم ويضع تحت أيديهم ملايين من الأفدنة وموارد الإتساع أيضا إلى تباين العناصر البشرية التى تسكن أجزائها المتسعة . وأدت هذه المساحة الكبيرة لروسيا إلى جانب شكلها المتماسك خدمات جليلة فى تاريخها الحربى (الحرب النابليونية ، والحرب الهتلرية) فكلما طالت مسافات اليابس صعب الإتصال ، وإستنفدت الطاقة البشرية ، فأوربا كما تعلم قارة تضيق فى الغرب ولكنها تتسع كلما إتجهنا شرقا . ولذلك فإن الألمان كانوا كلما توسعوا نحو الشرق فى الميدان الروسى ، إتسعت أمامهم المساحة وإزداد طول الميدان ، حتى جاء وقت إمتدت فيه جبهتهم من فنلند فى الشمال إلى البحر الأسود والقوقاز فى الجنوب . وإتساع الجبهة هذا معناه صعوبة التركيز فى الهجوم ، بل لايقوى على الثبات والدفاع ، والواقع أن الطبيعة الجغرافية للميدان الروسى لم تكن لتعين على نجاح غزو يأتى من الغرب لأن جهود النازى تتشتت وتتبعثر كلما إتجهت شرقا وهذا فى صالح المدافعين ، أما إذا جاء الهجوم من الشرق ، فإن قوى الغزاة تتجمع وتتركز ويقابل بعضها كلما توغلت نحو الغرب . ولعل هذا هو السر فى أن هجوم الروس المضاد بدأ فى شعب متفرقة لاقى بعضها بعضا حتى بلغت غايتها متساندة . على حين تفرقت ريح الألمان وطاشت سهامهم فى هجومهم المبعثر نحو الشرق ، ودفعت ألمانيا أرواحا كثيرة بلغت عدة ملايين من الأنفس ثمنا لهذا الهجوم الخاسر .

غير أننا لاننسى أن هذه المساحة الهائلة فى دولة واحدة ، تحتاج إلى عمل ضخم ، خصوصا أنه مازالت طرق النقل التى تكون الروابط الأساسية التى يمكن بواسطتها تماسك أجزاء الدولة غير كافية ، ثم أنه على الحكومة السوفيتية التى تشغل ملايين الأميال المربعة ، عمل تحليل ودراسة لجميع الإمكانيات الزراعية والصناعية ، بحيث تخلق من روسيا الاتحادية وحدة إقتصادية ، كما أنه لابد من العمل على إيجاد روح قومية واحدة تسود جميع أرجائها .

المظاهر الطبيعية

أما من ناحية المظاهر الطبيعية فتتميز بالسهول الفساح التى لاتجد لها نظير فى القارات الأخرى ، فهى تمتد من البحر البلطى ، وسهول شرق أوربا إلى نهر ينسى فى وسط سيبريا ، وهى سهول قليلة الإرتفاع بوجه عام ولاتبرز فيها الا جبال أورال ، وأن كانت لاتعتبر فاصلا لقلة إرتفاعها ولكثرة الممرات التى تخترقها .

وقد تعرضت هذه السهول فى العصر الجليدى لزحف الثلاجات من الكتلة الفنلندية الإسكندنافية ، وتغطت الآراضى بالركامات الجليدية ونتج عن ذلك كثرة تموج السطح فى هذه السهول . وليست تلال فلداى التى يصل إرتفاعها إلى ٤٠٠ متر فوق سطح البحر إلا مجموعة من هذه الركامات . ومنها تنبع الأنهار الواقعة غرب الأورال .

وحول أطراف هذه السهول توجد الجبال الإلتوانية الحديثة ممثلة فى القوقاز وتكملتها فى شبه جزيرة القرم ، وتتسع المناطق الجبلية فى الشرق لتكون هضبة سيبريا الشرقية التى تحدها جبال سيان وستانوفوى .

وكان لطبيعة السطح هذه آثار عديدة من ناحية الجغرافية السياسية أهمها :

١- إحاطة الجبال بهذه السهول من الجنوب ، أدى إلى أن إتجاه الأنهار فى سيبريا كان من الجنوب إلى الشمال ، وأدى هذا إلى قلة أهميتها الملاحية ، لأنها تصب فى محيط متجمد .

٢- تجمد الأنهار طوال فصل الشتاء ، وإذا ذابت فى أوائل الصيف بدأت المجارى العليا فى الذوبان قبل المجارى الدنيا مما يؤدى إلى حدوث فيضانات ونشر مساحات مستنقعية .

٣- أصبح لهذه الجبال التى تطوق روسيا الإتحادية من الشرق والجنوب أهمية إستراتيجية ، لأنها خطوط دفاعية من الدرجة الأولى إلا أنها فى الوقت ذاته تقف فى طريق التوسع الروسى جنوبا .

٤- رغم إحاطة روسيا الإتحادية بالبحار من الشمال والشرق والشمال الغربى، إلا أن المؤثرات البحرية تصل إليها ضعيفة . فتقف الجبال الجنوبية حاجزا يمنع وصول تأثير المحيط الهندى ، كما تمنع الجبال الشرقية وصول الرياح الموسمية الصيفية من المحيط الهادى إلى هضبة سيبريا . فإذا أضفنا أن المحيط المتجمد الشمالى لن يكون مصدرا لتلطيف قسوة الشتاء ، وإن المحيط الأطلنطى يقع بعيدا فى أطراف القارة الأوربية، فإن إتساع روسيا الإتحادية كفيل بإضعاف تأثير الرياح التى تندفع من المحيط إلى قلب القارة صيفا .

مناخ روسيا الإتحادية

تتميز روسيا الإتحادية بإنخفاض الحرارة الشديد أثناء الشتاء وإن كانت المناطق القطبية ليست أكثرها برودة ، بل المناطق الداخلية فى شمال شرقى سيبريا ، فهناك متوسط درجة الحرارة ينخفض إلى -٥٠ درجة مئوية أحيانا ، بل وسجلت الأرصاد أرقاما أقل من هذا الرقم . وعلى

النقيض من هذا تزيد درجة الحرارة فى يناير فى بعض المناطق ، على الصفر المئوى ، وذلك بالقرب من البحر الأسود وبحر قزوين ، وإذا إستثنينا المنطقة الشرقية ، نجد أن حرارة الشتاء تنخفض كلما إتجهنا نحو الشمال الشرقى أكثر من إنخفاضها نحو الشمال ، بحيث يتوقع الإنسان إنخفاض درجات الحرارة فى سيبريا عن نظيرتها فى نفس العروض فى روسيا الأوربية ويتضح هذا بمقارنة موسكو (٨ ْم) ونوفوسيبيرسك (-١٨ْم) فى يناير .

أما فى فصل الصيف فيصبح وسط آسيا وجنوب قازاقستان هى أعلى جهات الإتحاد السوفييتى حرارة ، إذ تصل إلى ٣٠ ْم فى يولية ، بينما تصبح السواحل القطبية أكثر جهات البلاد إنخفاضا فى الحرارة إذا إستثنينا المرتفعات . ولعل أهم مايميز مناخ روسيا الإتحادية هو كبر المدى السنوى حيث يبلغ ٢٨ْم فى موسكو، ٣٥ ْ م فى نوفوسيبيرسك . ويؤثر المناخ فى حياة السكان ، ويظهر هذا فى إن إنخفاض الحرارة الشديد يجعل من الصعب القيام بالأعمال الزراعية لجزء كبير من العام، وقد سجلت أرقام ١٩٦٠ ، إن مايقرب من ١٢ مليون عامل زراعى فى المزارع الجماعية لم يستطيعوا إفادة الإقتصاد القومى خلال الشتاء، وتظهر قسوة الشتاء فى إرتفاع تكاليف مد الطرق والسكك الحديدية نظرا لتراكم الثلوج ، كما تتجمد مياه القاطرات ، بل وحتى زيوت التشحيم .

التركيب القومى لروسيا الإتحادية

وريث التركيب القومى للإتحاد السوفييتى

يمكن القول بأن الإتحاد السوفييتى كان إتحاد عدد من الشعوب كما هو إتحاد عدد من الدول ، وإذا نحن أضفنا إلى هذا المسافات التى تفصل بين الجمهوريات التى تألف منها الإتحاد مسافات كبيرة ، أدركنا أن الحكومات المحلية لتلك الأقاليم تتمتع بسلطات واسعة ، إذ ضم الإتحاد السوفييتى عناصر متعددة متباينة نظرا لأتساع مساحته ، إذ زاد عدد هذه القوميات على مائة قومية إعتمادا على الأساس اللغوى .

وكون الصقالية أو السلاف نحو ٧٥٪ من سكان الإتحاد السوفييتى وشملت العناصر السلافية الروس الكبار والأكرانيين والروس البيض ، ويتكون معظم السكان الباقيين من المغول والعناصر التركية والفارسية . وقد بلغ مجموع العناصر التى زاد تعدادها على المليون نحو ١٤٪

عنصرا أهمها : الروس الكبار أكبر مجموعة فى روسيا الأوربية كانوا يؤلفون ٥٥٪ من سكان الإتحاد ، والروس البيض ويسكنون المنطقة القريبة من بحر البلطيق (٤٪) بين بحر قزوين وبحر آرال والقوزاق شمال بحر آرال ، والتتار بين جبال أورال وبحر قزوين والأرمن فى أرمينيا ، والعناصر الجورجية فى جورجيا ، وهكذا ، هذا بينما تعيش العناصر المغولية حول بحيرة بيكال وشمالها ، وأكبرها عددا التنجوس شرق نهر لينا والجولدز فى الجنوب الشرقى للإتحاد، وكان لضآلة المجموعات الأخرى غير السلافية أثره فى سيادة هذا العنصر، وعدم إمكان العناصر الأخرى منافسته ، وإن كان الأوكرانيون وهم من العنصر السلافى قد حاولوا الإنفصال فى الماضى .

ولقد أدرك قادة البولشفيك منذ البداية ، أنه لكى تعيش الدولة السوفييتية الجديدة وتنفذ مشروعات الثورة الإجتماعية والإقتصادية لابد من مراعاة تعدد العناصر البشرية وتعدد اللغات ، فقد عكس المجتمع السوفييتى المكون من عديد من القوميات صورته على الكيان السياسى والتنظيم الأدارى ، كان الإتحاد السوفييتى يتألف من ١٥ جمهورية أسست كل منها مبدئيا لتضم قومية أو أكثر ، وأكبر هذه الجمهوريات روسيا التى يسكنها الروس الكبار وتضم مايقرب من ٨٠٪ (من مساحته) ومايزيد على ثلاثة أرباع مجموع سكانه ، أما الجمهوريات الأربع عشر الأخرى ، فتضم خمس جمهوريات فى آسيا تفصل بين الإتحاد السوفييتى والصين وإيران وأفغانستان ، ومجموعة جنوب القوقاز وتتألف من ثلاثة جمهوريات على حدود إيران وتركيا ، أما المجموعة الغربية المكونة من ست جمهوريات فتحاذى الدول الأوربية ويبدو من أسماء الجمهوريات أثر القومية كعامل أسترشد به فى تخطيط هذه الوحدات السياسية التى تتمتع بقسط وافر من الإستقلال الذاتى .

فسياسة السوفييت الإحتفاظ بالقوميات والعقيدة واللغة . لذلك لم تكتف بإحياء اللغة الأوكرانية فى أوكرانيا ولغة روسيا البيضاء فى المنطقة التى يعيش فيها الروس البيض وتشجيع اللغة الألمانية بين العناصر الألمانية التى تعيش عند مصب الفولجا ، بل أجبرت الموظفين الذين يعملون فى هذه الجهات على تعلم لغات هذه الشعوب . وإن كانت قد جعلت اللغة الروسية لغة أساسية . والذى يلاحظ أن إسم الإمبراطورية الروسية إختفى سنة ١٩٢٢ ، وحل محله إتحاد الجمهوريات السوفييتية الإشتراكية، وهذا معناه أن باب الإتحاد مفتوح لأى دولة ترى فى نفسها ميلا للمذهب الشيوعى والإنضمام إلى مجموعة جمهوريات السوفييت .

كما عمل النظام السوفييتى السابق على مراعاة وجود أقاليم إقتصادية داخل الدولة فكل إقليم له وظيفة إقتصادية معينة يؤديها ، وبذلك أصبح كل أقليم من هؤلاء يكون حلقة من الحلقات التى تتألف من مجموعها سلسلة الإتحاد .

وماهو جدير بالذكر أن عدد المسلمين فى الإتحاد السوفييتى السابق الذى كان يضم ١٥ جمهورية إتحادية ، قدر بنحو ٨٠ مليون نسمة ، وبعد تفككه أصبح عدد المسلمين فى الإتحاد الروسى نحو ٢٠ مليون نسمة أو مايقرب من ثمن عدد السكان .

ديموغرافية روسيا الإتحادية

رغم أن الإتحاد السوفييتى فقد أربع عشرة جمهورية ، فإن روسيا الإتحادية مازالت أكبر دولة فى العالم بمساحة تزيد على ١٧ مليون كم٢ ولكنها السادسة من حيث السكان (بعد الصين والهند والولايات المتحدة الأمريكية وأندونسيا والبرازيل) ففى عام ١٩٩٣ كان سكانها يمثلون ٢,٧٪ من سكان العالم ، وفى عام ٢٠٢٥ يتوقع أن يزيد عدد السكان إلى ١٥٢ مليون نسمة ، بينما هو الآن نحو ١٤٩ مليونا .

غير أن الظاهرة التى تستحق الإنتباه هو أن عدد السكان يميل الآن إلى الإنخفاض ، إذ إنخفض إلى ١٤٧,٩ مليون نسمة فى نهاية عام ١٩٩٥ ، بعد أن كان ١٤٨,١ مليون نسمة عام ١٩٩٤ ، لابسبب إنخفاض نسبة المواليد ، ولكن ايضا لإرتفاع حدة الفقر فى ظل تضخم الأسعار وتدنى الأجور والبطالة ، وإغلاق كثير من المصانع ، وتعطل الطاقة الإنتاجية بالكامل لنقص التمويل والمعدات ..إلخ

وسوف يتوقف التغير السكانى فى المستقبل على الزيادة الطبيعية وعلى الهجرة ، فطبقا لأرقام ١٩٨٩ ، كانت نسبة الزيادة الطبيعية قليلة فى معظم أرجاء روسيا ، وحيث كان الروس يمثلون الأغلبية ، بل ولقد سجلت بعض التقارير إنخفاض العمر المتوقع فى الخمس سنوات (١٩٩١ - ١٩٩٦) وبصورة ملفتة للنظر إنخفاض الخصوبة الكلية من ٢,٨٧ إلى ١,٤ ، وهذا الإنخفاض السريع فى خمس سنوات ، إستغرق فى إيطاليا نحو ثلاثين عاما ، أما فى الجمهوريات التى إنفصلت فإن الزيادة الطبيعية مازالت مرتفعة وخاصة بين جمهوريات القوقاز ، أما عن أثر الهجرة فى الزيادة السكانية فما زالت الأمور غير واضحة ، ولكن مع ذلك فمن المتوقع مع إقتصاد السوق وحرية الحركة إن تجتذب موسكو ، وسان بيترزبرج عددا كبيرا من المهاجرين ، ومن المتوقع أيضا أن

تخرج أعداد كبيرة من جمهوريات القوقاز ووسط آسيا مهاجرة إلى روسيا، فهناك نحو ٢٥ مليون روسى يعتبرون بمثابة خبراء فى تلك الجمهوريات ، ومثلت عودة نحو مليون عسكرى روسى من أوربا الشرقية منذ ١٩٩٠ مشكلة كبيرة ، وقد كان الموقف مختلفا منذ عقد قبل هذا ، فكان التنبؤ بنقص العمالة ، على عكس ماحدث بعد ذلك كانت عودة العسكر والخبراء تمثل مشكلة فى الإسكان والوظائف ، وفى المدى الطويل ومع إختلاط القطاع العام بالخاص وظهور الإستثمارات ، فإن على روسيا أن تستمر فى إستغلال وتنمية مواردها الطبيعية ، لابد من التحول التدريجى للنشاط الإقتصادى والسكان نحو الشرق .

توزيع السكان

يقيم معظم السكان فى القسم الأوربى أى فى الغرب ، أو فى نحو ١/٥ مساحة روسيا ، ولكن خريطة توزيع القوميات تبين أن الروس الذين يمثلون ٨٣٪ من السكان موجودون فى الشرق كما هم فى الغرب ، فالروس ينتشرون من بيترزبرج شرقا ومن مورمانسك فى الشمال إلى حدود جورجيا وأذربيجان جنوبا ، ومن ثم كما قيل سابقا أن روسيا تعد متحفا للقوميات ، ورغم مرور نحو ٧٠ عاما على سياسة الترويس ، فما زالت القوميات الأخرى محتفظة بهويتها وكأنها تنتظر الفرصة لتظهر ، ذلك أنه رغم سياسة الإتحاد السوفييتى سابقا الذى أتبع سياسة (أعتقد فى وقتها) أنها ترضى جميع القوميات وذلك بإقامة جمهوريات ذات حكم ذاتى .

وروسيا أيضا هى أرض خاوية فى معظمها أولا معمور ، فسكانها الذين يبلغون نحو ١٥٠ مليون نسمة (أقل من الولايات المتحدة) يتركزون فى القسم الغربى ، أو مايطلق عليه روسيا الأوربية ، والتى يختلف عن روسيا شرقى الأورال أو سيبريا ، (الأرض النائمة) حيث يعيش السكان فى مجتمعات منفصلة ، أو على هيئة أشرطة متقطعة ، وإذا كان هناك وجه شبه بين روسيا القيصرية ، والإتحاد السوفييتى فهو أن كلاهما كان يريد تعمير القسم الشرقى شبه الخاوى من السكان ، حتى يقوى الوجود الروسى فى هذه المناطق المتطرفة ، وقد نجحت إلى حد ما وظهرت المستوطنات على طول الخطين الحديدين ، أحدهما من أيام القيصر ، والثانى مد بواسطة الإتحاد السوفييتى السابق .

وتبدو مشكلة التوزيع السكانى فى روسيا الإتحادية فى أن ٧٠٪ من سكانها يتركزون فى القسم الغربى ، مع حين أن معظم مواردها الإقتصادية تقع إلى الشرق من الأورال .

روسيا الإتحادية بين الحضر والريف

وإذا قسمنا السكان إلى حضريين وريفيين إعتمادا على الناحية الوظيفية ، فضلا عن الحجم ، سنجد أن ٧٤٪ من السكان قد دخلوا فى عداد الحضر عام ١٩٩٢ ، فهناك ١٢ مستوطنة يزيد سكانها على ٩٠٠ ألف نسمة (موسكو ، بيترزبرج ــ ردوستوف ، كالينجراد ، كويبشيف (سمارا) سفردلوفسك ، أمسك ، نوفوسيبيرسك، كراسنويارسك ، أركنسول، كباروفسك ، فلاديفوستك) ــ وقد زاد سكان الحضر فى روسيا من ١٥ مليون نسمة فى أوائل هذا القرن إلى ١٦٠ مليون عام ١٩٩٢ ، وكان هذا النمو الحضرى نتيجة التصنيع السريع الذى شهده الإتحاد السوفييتى وخاصة بين عامى ١٩٢٨ وسبعينيات هذا القرن ، أما سكان الريف فقد ظلوا شبه ثابتين من حيث الحجم ، وإن كانوا قد نقصوا فى بعض المراكز ، ويتفق توزيعهم بوجه عام مع توزيع الأراضى الزراعية ، وإن كانت كثافتهم أكبر فى المناطق الزراعية القديمة فى غربى روسيا أكثر منها فى المستوطنات شرقى نهر الفولجا ، وخاصة فى سيبريا الغربية .

إقتصاد روسيا الإتحادية

رغم أن روسيا فقدت ١٤ إقليما وهم يمثلون الجمهوريات التى إستقلت عن الإتحاد السوفييتى سابقا ، فيبدو أن أهميتها فى الإقتصاد والشئون العالمية ستكون نتيجة أن لديها موارد طبيعية ضخمة وكذلك قوتها النووية، أكثر من أهميتها الإقتصادية فى الوقت الحالى ، فتضم روسيا الإتحادية أكثر من نصف الموارد المائية والموارد المناخية الحيوية ، والتى تتمثل فى إحتياطات الوقود الحفرى والمعادن التى كان يمتلكها الإتحاد السوفييتى سابقا ، كما تضم معظم المساحات التى جرى إكتشاف جزء أو كل معادنها .

فإذا فصلنا قليلا فى قطاعات الإنتاج يتبين لنا :-

<u>الإنتاج الزراعى :</u>

لاشك أن الزراعة فى روسيا الإتحادية ، وفى الإتحاد السوفييتى سابقا تصادفها صعاب جمة ، منها أن النطاق الزراعى الرئيسى فى روسيا الإتحادية ، يتميز بذبذبات حادة فى الحرارة والمطر من عام إلى آخر ، وبالتالى تنخفض إنتاجيتها فى السنين القليلة المطر ، ويتوقف موعد البذر والحصاد على صقيع الربيع المبكر والخريف المتأخر ، كذلك نقص التسهيلات اللازمة لتخزين وتسويق الإنتاج الزراعى ، وقد عمل النظام السوفييتى منذ أواخر الثمانينيات على إجراء تعديلات وإعادة تنظيم بعض المزارع بحيث تعطى قدرا من المسئولية للمزارعيين ، ونظراً لأن صادرات السوفييت من الوقود والمواد الخام والسلع المصنوعة قد تدهورت منذ أوائل التسعينيات ، فإن هذا يجعل لزيادة الإنتاج الزراعى أهمية قصوى، ومع ذلك فقد إنخفض الإنتاج الزراعى من المواد الغذائية فى بعض الأقاليم إلى مايشبه الإكتفاء الذاتى .

وفى الحق أن نسبة الأراضى المزروعة (المبذوره والمتروكة للراحة) فى روسيا الإتحادية نحو ١٠٪ فقط بين مجموع المساحة ، ويتطلب زيادة المساحة إستثمارات ضخمة لتحسين الأراضى السيئة الصرف ، والبنية الأساسية ، من ثم فالطريقة المثلى الأن وفى المدى القريب والمتوسط هو زيادة إنتاجية الأرض المزروعة الآن ، ومع ذلك لاننسى أن إنتاجية الأرض لأسباب بيئية أقل من نظيرتها فى غرب أوربا لنفس المحاصيل ، وكذلك أقل من نظيرتها فى كندا وأستراليا .

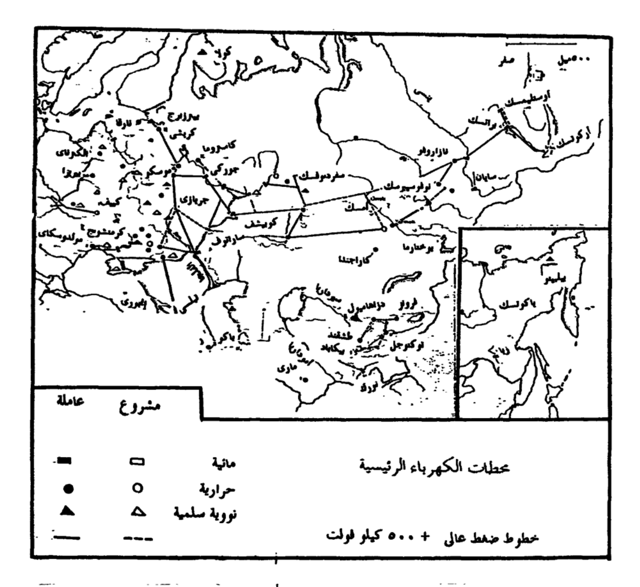
شكل رقم (٤٩) : المراكز الصناعية الرئيسية فى الاتحاد السوفيتى

الإنتـاج الصنـاعي:

تضـم روسـيا الإتحاديـة أكـثر مـن نصـف المـوارد المائيـة ، وإحتيـاطى الوقـود الحضـرى والـثروة المعدنيـة للإتحـاد السـوفييتى السـابق ، ولكـن مشكلتها فـى إستغلال ثروتها تتمثل فـى أن ٧٠٪ مـن سـكانها يـتركزون فـى ربعها الغربـى ، بينما معظـم ثروتها المعدنية شـرق جبـال الأورال ، ولاشـك أن روسيا ورثت طاقـة صناعية ضخمـة من الإتحاد السوفييتى ، ولكنهـا فـى نفس الوقت غير متوازنـة نظـرا لإتبـاع سياسـة الإنتـاج الحربـى أولا ، ومحاولـة الوصـول إلـى الإكتفـاء الذاتـى فـى الصناعـات الأساسـية والإسـتراتيجية ، وكـان هنـاك ضغـط مـن المخططيـن فـى الثلاثينـات والخمسـينات لإسـتعادة ماأتلفتـه الحـرب لزيـادة الإنتـاج الصنـاعى ، حتـى يمكن اللحاق بالولايات المتحدة الأمريكية وساعدهم علـى هـذا غنـى وتنـوع الخامـات الصناعيـة فـى البـلاد ، وإن كـانت هنـاك حاجـة إلـى إسـتيراد المطـاط، والقصديـر ، والنحـاس ، والوقـود النـووى ، وكـان هـذا الأخـير يسـتورد مـن ألمانيـا الشـرقية وتشيكوسـلوفاكيا ، ومـع إنفـراط عقـد الإتحـاد السوفييتى ، فقـدت روسـيا التحكـم فـى بعـض المـوارد الطبيعيـة والمنتجـات التـى كـانت تحصـل عليهـا مـن قبـل ، علـى سـبيل المثـال القطـن مـن جمهوريـات وسـط آسيا ، الفحـم الكوك والحبوب مـن كازاخسـتان ، وإن كـان هذا لاينفـى أن روسـيا مـازالت تحتفـظ بمـوارد كهرومائيـة ضخمـة وحقـول للفحـم ، وإحتياطـات ضخمـة ومؤكـدة مـن البـترول ، ونحـو ثلـث إحتيـاطى العـالم من الغـاز الطبيعـى ، ومعظـم أقـاليم الغابـات مـن الإتحـاد السـوفييتى السـابق .

ومـازالت روسـيا حتـى بعـد فقدهـا لأوكرانيـا وكازاخسـتان لديهـا معظـم إنتـاج الصلـب فـى الإتحـاد السـوفييتى السـابق ، وتـتركز بصفـة خاصـة فـى جبـال أورال وغربـى سـيبريا ، فضـلا عـن مصـانع متفرقـة هنـا وهنـاك ، وتنتشـر الصناعـات الهندسـية فـى مواضـع عـدة فـى روسـيا الإتحاديـة . وإن تخصصـت موسـكو وسـان بطرسـبرج فـى الصناعـات الهندسـية الحقيقيـة ، وكوزباسـى والأورال فـى الصناعـات الثقيلـة ، وإنتشـرت صناعـة تكريـر البترول خاصـة حيـث توجـد حقولـه الكبـيرة ، وتـتركز صناعـة المنسـوجات فـى وسط روسـيا ، علـى عكـس صناعـة الأثـاث والملابـس والأحذيـة التـى تنتشـر إلـى نطـاق واسـع .

شكل رقم (٥٠) المراكز الرئيسية للطاقة الكهرومائية فى روسيا الاتحادية والكومنولث



والمشكلة الآن لمواجهة الإستهلاك المحلى فى الصناعة فى سرعة ونجاح التحول فى جزء من قطاع الصناعات الثقيلة وخاصة الحربية إلى الصناعات الإستهلاكية المدنية والخدمات ، فقد إعترى الإتحاد السوفييتى السابق نقصا هائلا فى الخدمات اللازمة للتحول نحو إقتصاد السوق ، كالخدمات القانونية والمالية والبنوك المتطورة والبورصات وغيرها ، وحتى تعرف أهمية هذه الخدمات والوقت الذى يستغرقه التحول ، نضرب مثلا ببريطانيا حيث أخذت تحويل ١٠٪ من رأس المال من الصناعة والخدمات من القطاع العام إلى القطاع الخاص نحو عقد من الزمان حتى ظل فى وجود الأليات اللازمة لذلك .

مشكلات روسيا الإتحادية

أولا : مجتمعات تعانى من صدمة

لم تكن التداعيات التى حدثت نتيجة لإنتهاء الإرتباطات السوفيتية بدول شرقى أوربا وإنهيار نظمها الداخلية بأقل من تلك التى حدثت من تفكك الإتحاد السوفييتى داخليا فقد أوجدت هذه التحولات حالة من عدم الإستقرار ، إن لم تكن الفوضى فى الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية خاصة ، ورغم إبتهاج الشعوب بحرياتها الجديدة ، إلا أنها بدأت تشعر بتأثير عملية الإنتقال الحادة من النظام القديم وإقتصادياته القائمة على ضمان قدر من الأمان الإقتصادى والإجتماعى إلى الأخذ بإقتصاديات السوق وآلياته ، ورغم التفاعلات الداخلية التى تجرى فى هذه الدول على مدى السنوات الماضية فى إتجاه التوصل إلى صيغة مستقرة لنظامها الإقتصادى والإجتماعى ، فما زالت تصدق مقولة المفكر ورجل الدولة التشيكى فاسلاف هافيل حين وصف ظروف بلاده بقوله أن مجتمعنا فى حالة صدمة لم يكن أحد يتوقع أن تكون بهذا العمق إن النظام القديم قد إنهار ، ولكن النظام الجديد لم يولد بعد ، وتتصف حياتنا بشكل عام بعدم التأكد حول أى نظام نريده وكيف نبنيه، وعما إذا كنا نمتلك وسائل وأدوات بنائه .

ثانيا : الكمنولث الأوربى الأسيوى أو الرابطة المفككة

إن أبلغ وصف للإمبراطورية السوفيتية (الإتحاد السوفييتى سابقا) أنه كان عبارة عن آلة ضخمة تعمل بنظم مبرمجة سياسيا وعسكريا وإقتصاديا وثقافيا ، وكانت تدار من خلال غرفة عمليات مركزية (موسكو) تعرف كيف تحركها ، أما الآن فقد تفككت تلك الآلة المبرمجة إلى قطع مما أدى إلى توقفها ، من ثم كانت محاولة جمع أجزاء هذه الآلة مرة أخرى (الجمهوريات المستقلة) فيما عرف بأسم الكمنولث الروسى، ولكن التجربة التى خاضتها فى تلك الفترة تمثلت فى معاناة رهيبة من الشعور بالتمزق النفسى لغياب القدرة على فرض الإنبعاث القومى بسبب القمع المتنوع الأشكال ، وكذلك سياسة (الترويس) وإيثار الروس فى المراكز الإدارية حتى داخل الجمهوريات غير الروسية .

هذه التجربة المريرة جعلت من الصعب إعادة تركيب الآلة بشكل جديد وبطريقة تمكنها من السير والإندفاع إلى وضع أفضل ، فهناك تركة ثقيلة فى مقدمتها :

(أولا) : الحروب الأهلية العنيفة : التى مازالت مشتعلة داخل بعض الجمهوريات لأسباب قومية وإجتماعية ، وفى الحروب القومية بين بعض الجمهوريات بسبب الحدود التى رسمتها السلطة السوفيتية السابقة . وكان الحال الذى خلفه الإستعمار الغربى للبلدان الحديثة الإستقلال فى آسيا وإفريقية فيما يتعلق بنزاعات الحدود والتى رسمها إبان سيطرته ليضمن هيمنته وفق سياسة " فرق تسد " وليضمن عودته لاحقا إن أمكن .. نقول كأن الحال هذا مشابه للحال الذى خلفه المركز (موسكو) فى الجمهوريات غير الروسية وإن إختلفت الأساليب والوسائل والغايات ، مع فارق أن المتروبول (روسيا) الحالى لن يستفيد مما خلفه كما إستفاد الإستعمار الغربى.

(ثانيا) : مشكلة الأقليات الروسية فى الكمنولث : ساد إعتقاد عقب إنهيار الإتحاد السوفييتى ـ سابقا ـ وتفككه إلى خمس عشرة دولة مستقلة : مفاده " أن التعدد السلالى ـ العرقى فى هذه الجمهوريات ، ووجود أقلية روسية فى هذه الجمهوريات تقدر بنحو ٢٥ مليون روسى . سوف يساهم فى تعميق أوجه التعاون والتكامل بين أسرة الدول المستقلة . على إعتبار أن هذه الأقلية ستصبح الجسر ما بين جمهورية روسيا الإتحادية وباقى الجمهوريات الأربع عشرة " .

ولكن ذلك لم يتحقق ، بل إن هذه الأقلية الروسية أصبحت مصدرا للقلق والتوتر ومايصاحبها من مظاهر عدم إستقرار روسيا الإتحادية ، وجمهوريات أسرة الدول المستقلة ، وإذا أضيف إلى هذا العامل ، وجود مجموعات من الجيش الروسى يقدر عددها بنحو مليون ونصف مليون جندى لاتعرف طبيعة دورها فى تلك الدول ، فإن هذا المزيج قابل للإنفجار فيما لو أدخل ضمن الآليات التى إعتاد بموجبها العسكر الذى يعيشون فى الخارج على دعم الأقلية الروسية فى هذه الجمهوريات .

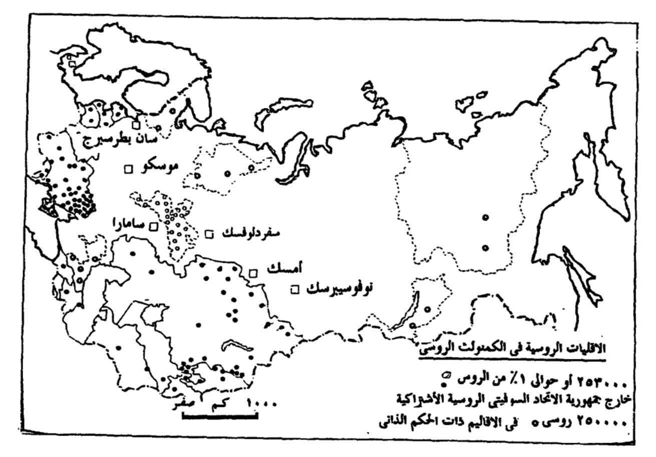
وزاد من حدة الأزمة التى تكتنف وجود هذه الأقلية خارج روسيا ، أن أبناءها وجدوا أنفسهم غرباء تواجههم موجات الكراهية والتهديدات فى بلدان إعتبروها قبل سنوات قليلة جزء لايتجزأ من وطنهم .

ومن هنا ينظر إلى قضية الأقلية الروسية خارج حدود جمهورية روسيا ، لا كأحد القضايا الساخنة التى تعوق إمكانيات التعاون بين مجموعة الدول المستقلة فحسب بل تعتبر أيضا ، من أهم بؤر ومظاهر التوتر المستقبلى داخل هذه الجمهوريات وفى علاقاتها المتبادلة .

(١) مجموعة دول بحر البلطيق

وهي : التي تضم كلا من ليتوانيا ولاتفيا ، وإستونيا ، وتبلغ الأقلية الروسية أقصى مدى لها في جمهورية لاتفيا ، التي يبلغ عدد سكانها ٢,٧ مليون نسمة ، لايشكل اللاتفيون أكثر من ٥٢٪ من السكان ، بينما تصل نسبة الأقلية الروسية إلى ٤٢٪ ، وترتفع هذه النسبة لتصل إلى ٧٠٪ في العاصمة ريجا ، وتقل تدريجيا في جمهورية استونيا (١,٦ مليون نسمة) حيث يشغل الروس المركز الثاني بعد الأستونيين (٦٢٪) بنسبة ٣٠٪ ، وتصل أدناها في جمهورية ليتوانيا (٣,٨ مليون نسمة) حيث يأتي الروس بعد الليتوانيين (٨٠٪) وبنسبة ٩٪ ، وقد أقرت إستونيا مؤخرا تعديلات دستورية جديدة صوت المواطنون فيها لصالح حرمان المتكلمين بالروسية من حق الإنتخاب ، أما ليتوانيا فتشجع السلطات فيها هجرة الروس ويساعدها على ذلك قانون يربط بين منح حق المواطنة وإتقان اللغة الليتوانية .

شكل رقم (٥١) : الأقليات الروسية في الكمنولث الروسي



(٢) مجموعة دول غرب روسيا الإتحادية : رغم إختفاء العامل الدينى، فإن حدة أزمة الأقلية الروسية فى هذه المجموعة تتزايد حدة الخلافات السياسية والحدودية بين دولها وروسيا الإتحادية ، فجمهورية مثل أوكرانيا ٥١,٨ مليون نسمة ، ويشغل فيها الروس المرتبة الثانية فى الترتيب بعد الأوكرانيين (٧٣٪) وبنسبة ٢٢٪ مازالت فيها الحركة اليمينية المتطرفة ، وأبرزها حركة " روخ " المعادية للروس على رغم العلاقات التاريخية بين الشعبين ، والجهود التى بذلتها أوكرانيا لتحسين العلاقات مع روسيا ، والتى توترت بسبب الخلاف على مصير أسطول البحر الأسود وشبه جزيرة القرم .

وهذا السعى لتحسين العلاقات يعود إلى إدراك الحكومة الأوكرانية مخاطر دفع النزاع مع موسكو إلى حده الأقصى ، ليس خوفا من إحتمالات مواجهة عسكرية فحسب ، بل أيضا تجنبا لإنعكاساته على وحدة الأراضى الأوكرانية نفسها ، فشرق البلاد تقطنه أغلبية روسية ، وهى منطقة صناعية غنية بالفحم والخامات الأخرى ، كما أن غرب أوكرانيا أقليم ترافسكارباتيا معظم سكانه من المنحدرين من أصل مجرى، إضافة إلى مناطق أخرى تغلب عليها عناصر الروس البيض (بيلوروسيا بنسبة ١٪) مما يهدد فى حال إنفجار الصراع مع روسيا ، سعى كل أقلية إلى الإلتحاق بوطنها الأصلى ، وفى إطار محاولة إستباق التفكك صوت البرلمان الأوكرانى لصالح منح شبه جزيرة القرم ذا الاغلبية الروسية حكماً ذاتياً واسعاً وكان ذلك كافياً ليتراجع الزعماء الروس عن مطلبهم بإجراء إستفتاء حول الإستقلال .

وفى جمهورية مولدوفا تبنى البرلمان قانونا يفرض على السكان ، إتقان اللغة الوطنية الرومانية كشرط للإعتراف بمواطنينهم ، الأمر الذى فاقم من مشاعر الإمتهان لدى الأقلية الروسية ، إذ تحولوا من أصحاب أفضل المراكز والمناصب ، إلى مواطنين من الدرجة الثانية مهددين بالإستبعاد .

(٣) مجموعة آسيا الوسطى : تبدو هذه المجموعة والأقلية الروسية فيها مستقرة ، فعلى الرغم من المضايقات التى يتعرض لها الروس فى جمهورية كازاخستان ١٦,٧ مليون نسمة ويشكل الروس المرتبة الثانية بنسبة ٣٨٪ بعد الكازاخ ٤٠٪ ، وتحاول السلطات توفير الحماية لهم وضمان حقوق مساوية لحقوق المواطنين الكازاخ ، حيث أقر البرلمان قانونا بمنع الفصل التعسفى من العمل للمواطنين الذين لايتقنون اللغة

الكازاخية ، وهو وضع مشابه لحال جمهورية قيرغيزستان ٤,٧ مليون نسمة ، ويشكل الروس فيها المرتبة الثانية بنسبة ٣٠٪ .

ويرتبط موقف كازاخستان ، بالدور والوجود الروسى المتميزين فيها فمثلا فى الأسلحة النووية المتواجدة فى الجمهورية ، والقاعدة الفضائية فى بايكانور والعديد من المنشآت الحيوية التى لاغنى لحكومة الما ـ آتا عنها ، فهى مازالت فى حوزة كوادر أكثريتها من الضباط والعلماء والتقنيين الروس ، ويختلف هذا الوضع فى جمهورية تركمانستان ٣,٦ مليون نسمة يشكل الروس فيها المرتبة الثانية بنسبة ١٠٪ أى مايعادل ٣٦٠ ألف نسمة بعد التركمان ٧٢٪ ، حيث منعت السلطات بيع المساكن الخاصة مما حرم الأقلية الروسية من إمكانيات العودة إلى بلدهم وتحولهم إلى رهائن ، ويرجع ذلك إلى رغبة سلطات الجمهورية الإستعانة بالروس خصوصا العسكريين منهم فى بناء مؤسساتها الوطنية .

(٤) مجموعة جمهوريات القوقاز : وفى هذه المجموعة معدلات النزوح للروس إلى أدناها ، وربما يرجع ذلك إلى حجم الأقلية الروسية الضئيل ، حيث يقدر عددهم ٧٩٩ ألف نسمة ويمثلون نسبة ٤,٩٪ من حجم سكان دول هذه المجموعة البالغ ١٦ مليون نسمة ، ويشغلون بذلك المرتبة الأخيرة ٣,١٪ من حيث إنتشار الأقلية الروسية .

وتمثل جورجيا ٥,٥ مليون نسمة أقصى مدى وصلت إليه الأمور بالنسبة للأقلية الروسية ، التى تشغل المرتبة الثالثة بنحو ٦٪ بعد الجورجيون ٨٠٪ ، والأرمن ٨٪ ، حيث خاض الجورجيون المعارضين للوجود الروسى معارك عديدة .

ويتماثل هذا الوضع فى جمهوريتى أذربيجان ٧,٢ مليون نسمة ، ويشغل الروس المرتبة الثانية ٥,٦٪ وجمهورية أرمينيا ٣,٣ مليون نسمة، ويشغل الروس المرتبة الثالثة بنسبة ٢٪ حيث تخوض الجمهوريتين صراعا قوميا حول ناجورنى كاراباخ .

(ثالثا) : هجرة الكفاءات الروسية من تلك الجمهوريات فى وقت أحوج ما تكون فيه لتلك الكفاءات فى التنمية وإعادة البناء الإقتصادى والإجتماعى ، ولو على الأقل بتدريب الكوادر المحلية وإحلالها تدريجيا محل تلك الكوادر الروسية ، ويمكن إدراك خطورة هذه الآثار ، إذا ماعلمنا النسبة الكبيرة التى يشكلها الروس فى كثير من تلك الجمهوريات من مجموع السكان ومن مجموع الكفاءات والعمال المهرة .

فعلى سبيل المثال يشكل الروس ٣٢٪ من العمال الصناعيين و١٠٪ من العمال الزراعيين فى قيرغيزيا ، وإجمالا هناك مايقرب من عشرة ملايين روسى يعيشون فى الجمهوريات الأسيوية ... وتشير التقديرات إلى توقع رحيل أكثر من مليون ونصف مليون روسى فى السنوات القادمة فى حين هاجر نفس العدد تقريبا منذ السنوات الأولى لعهد جورباتشوف . ومن الواضح أن سبب الهجرة هو صعوبة تأقلم الروس وتكيفهم مع المستجدات والمتغيرات الجديدة بعد إستقلال الجمهوريات وإنهيار الإتحاد السوفييتى ، إذ وجد هؤلاء أنفسهم فى ظل هذا الوضع الجديد أقلية محظية لاتشعر بأقليتها .

وبدأت هذه الإقلية تستشعر الخطر الذى يهدد مصالحها بل ووجودها ، وذلك بعد أن قامت القيادات السياسية القومية الجديدة بتهميش مواقع الروس أو طردهم من مجالس الإدارة ، والمؤسسات الإعلامية ، والتعليمية ، والثقافية ، وكذلك من مؤسسات الإنتاج ، والمواقع الإدارية وأجهزة حفظ النظام ، أضف إلى ذلك الجو العام المشبع بالعداء للروس الذى ولدته نقمة الضغط الروسى عليهم طوال مايقرب من سبعين عاما .

على أنه من الجدير أن نشير إلى جانب هجرة الكفاءات الروسية هناك هجرة الكفاءات المحلية " المتروسنة " فى بعض الجمهوريات مثل طاجيكستان وقيرغيزيا ممن كانوا محظيين فى الحقبة السوفييتية ، أو كان نمط تفكير وثقافة بعضهم إعتاد اللغة الروسية ، ولاسيما صفوة المثقفين والتكنوقراط .

ثالثا : فشل النتائج المتوقعة من رابطة الكمنولث

على أثر فشل روسيا فى صد إصرار الولايات المتحدة الأمريكية لتوسيع حلف الناتو للحد من نفوذ روسيا الجيوبولتيكى ، عادت روسيا للتوجه نحو الشرق لمواجهة هذه الضغوط ، منها محاولة تقوية علاقتها مع الصين والهند ، وأكثر من هذا نحو دول الكمنولث الروسى ، أى إستفادة الموروث السوفييتى الذى إتخذ من الجمهوريات الأوربية واجهة متقدمة للدفاع عن روسيا ضد خصومها ، والجمهوريات الآسيوية كظهير . وفى الواقع بدلا من أن تتمخض رابطة الكمنولث عن المزيد من التلاحم والتكامل المفروض بعد إنهيار الإتحاد السوفييتى السابق ، نجد تذمرا حادا يسرى بين أعضاء الرابطة ، ففى إجتماع قمة الرابطة فى النصف الأول من ١٩٩٧ يصرح رئيس جمهورية أوكرانيا ثانى أكبر قوة إنتاجية وسكانية فى الإتحاد يقول "عندما تتمتع جبهة واحدة بالإمتيازات

فى الرابطة (روسيا) فإن ذلك يعكر صفو مزاج الآخرين ، ولايشجعهم على العمل متكاتفين ، وإذا واصلت موسكو الضغط علينا فى أوكرانيا فسننضم إلى الناتو" وقال إدوارد شيفرنادزه رئيس جمهورية أوكرانيا (وزير خارجية الإتحاد السوفييتى السابق) " لقد وقعنا على أطنان من أوراق الرابطة ولكنها لم تُجنب وطأة المشاكل ولم تحمل لنا رياح الإرتياح" بل ويطالب بنصيب من أسطول البحر الأسود الذى إقتسمته روسيا مع أوكرانيا ، ويطالب رئيس جمهورية أذربيجان روسيا بسحب الأسلحة التى باعتها لأرمينيا بأكثر من ألف مليون دولار لأنها ستستخدم ضد بلاده ، هذه أمثلة وغيرها الكثير ، مما يدل على أن المشاكل لاتنتهى.

الكمنولث الروسى المساحة والسكان والنسبة المئوية للروس عام ١٩٩٥ م

	المساحة بالألف ميل٢	السكان بالمليون	٪ للروس		المساحة بالألف ميل٢	السكان بالمليون	٪ للروس
روسيا الإتحادية	٦٥٩٢	١٥٠	٨٢	جمهوريات القوقاز			
جمهوريات البلطيق				أرمينيا	١١,٥	٣,٥	٢
إستونيا	١٨ +	١,٦	٣٠	أذربيجان	٣٣ +	٧,٨	٦
لاتفيا	٢٥ +	٢,٧	٤٢	جورجيا	٢٧	٥,٨	٦
ليتوانيا	٢٥ +	٣,٩	٩	جمهوريات آسيا الوسطى			
جمهوريات غرب روسيا				كازاخستان	١٠٥	١٧	٣٨
أوكرانيا	٢٣٣	٥١,٨	٢٢	قرغيزيا	٧٦	٥	٢٢
بيلوروسيا (روسيا البيضاء)	٨٠	١٠	١٣	طجيكستان	٥٥	٦	١٠
مولدافيا (مولدوفا)	١٣	٥	١٣	تركمنستان	١٨٨	٤	١٠
				أوزبكستان	١٧٢	٢٣	٨

لاشك أن هذه ظواهر تعبر عن فوضى فى جميع تلك الجمهوريات وتكشف عن حيرة وضياع وإنعدام رؤية لدى القيادات الجديدة ، التى إستطاعت أن تجد صيغة لتأليف " كومنولث " بين دول ذات سيادة ولكنها لم تجد بعد ، وقد لا تجد فى مدى قريب نظاما ما يضمن بقاء هذا الكمنولث ، ويجعل منه قوة دولية تستعيد بعض ما كان للإتحاد السوفييتى من وزن ونفوذ .

رابعا : تدهور الأوضاع الإقتصادية فى ظل فوضى شاملة

على الرغم من أن روسيا تكاد تكون غالبية الإمبراطورية السوفيتية المنهارة ، لأنها تضم ثلاثة أرباع المساحة الجغرافية للإتحاد السوفييتى وحوالى نصف عدد السكان ، و ٦٠٪ من الثروات ومعظم الإنتاج ، حيث يتركز بها معظم القاعدة الصناعية والعسكرية ، وغالبية الرووس النووية، فإن الإنتاج الروسى إنخفض بنسبة ٥٠٪ بين عامى ١٩٩٠ ، ١٩٩٥: وعلى الأخص فى الصناعات الثقيلة والألات والمعدات ، وإمتد الإنخفاض بصورة ملحوظة وواضحة إلى مؤسسات الإنتاج الحربى الروسى ، التى كانت تمثل عصبا رئيسيا للصناعة الروسية ، وتكاد تحتكر كل ماتملكه روسيا والإمبراطورية السوفيتية المنهارة من تكنولوجيا بالغة التقدم يشهد لها السبق السوفييتى والريادة فى مجال غزو الفضاء ، بكل مايحتاج إليه من تكنولوجيات متقدمة رفيعة المستوى والدرجة . وقد فرضت طبيعة النظام المغلق أن ينحصر العلم بها والإستفادة منها ، فى نطاق المؤسسة العسكرية فقط لاغير ، ولاتتحول إلى معارف وتقنيات تساهم فى تطوير وتحديث الصناعة المدنية ، كما حدث فى أمريكا وباقى الدول الغربية ، وكان سببا رئيسيا من أسباب الطفرات الإنتاجية والإقتصادية الضخمة فى هذه الدول .

يضاف إلى ذلك إنتشار البطالة وإتساع نطاقها ، فى ظل إغلاق الكثير من المصانع ، أو توقفها شبه الكامل عن الإنتاج ، وتعطل الجزء الأكبر من الطاقة الإنتاجية بباقى المصانع لنقص التمويل ، والخامات ، والمعدات ، والآلات ، وللعجز عن التسويق لإنخفاض كفاءة المنتج وعدم تلبيته للأذواق .

ويضاعف من سلبيات الموقف وتأثيراته الدرامية أعباء ذلك القدر الكبير والمتراكم من المديونية الخارجية الكبيرة والمتضخمة التى تصل

إلى نحو ١٢٧ مليار دولار ، ورثتها روسيا عن الإتحاد السوفييتى بحكم أنها ورثت غالبية أصولة وممتلكاته الداخلية والخارجية .

وفى مواجهة الأسعار المنفلتة يأتى الجانب المقابل من الصورة والمرتبط بتدنى قيمة الحد الأدنى للأجور ، حيث تبلغ نحو ١٥ دولارا أى نحو ٧٠ ألف روبل ، فى الوقت الذى تبلغ فيه تكلفة تذكرة المواصلات العامة ٢٥٠٠ روبل ، ويصل سعر رغيف الخبز إلى ٢٣٠٠روبل (١٩٩٧) ، مما يوضح مدى الإرتفاع فى تكاليف المعيشة الرئيسية ، خاصة أن جانبا متزايدا من السلع والمنتجات الغذائية يتم إستيراده من الخارج ، فى ظل النقص المتزايد فى إنتاج السلع الزراعية ومنتجات الألبان والثروة الحيوانية وهو إتجاه تؤكده الإحصائيات والتقارير الرسمية.

لانقاش فى أن قوة ومتانة العملة الوطنية هى أحد الدلائل والمؤشرات الواضحة على مدى قوة أو ضعف إقتصاد الدولة ، وحتى نهاية الثمانينات كان الدولار الأمريكى يساوى فى السوق السوداء نحو ٣,٥ روبل ، وكان يساوى رسميا وقبل إنهيار الإتحاد السوفييتى أقل من الروبل حيث كان الروبل رسميا يساوى ١,٧ دولار .

وعندما بدأت الأوضاع فى الإنهيار والتدهور ، بلغ الدولار فى السوق السوداء ١٥ روبلا فى عام ١٩٩٠ ومع تصاعد حدة الإنهيار وبدء تفكك الإتحاد السوفييتى بلغ الدولار ٥٠ روبلا فى عام ١٩٩١ وإستمرت حدة الإنهيار ليصل سعر الدولار عام ١٩٩٦ إلى ٥٤٥٠ روبلا ، حتى أن المحلات فى المراكز التجارية الكبرى تضع السعر على السلع والمنتجات بالدولار أو بالمارك الألمانى، ولايقتصر ذلك على السلع الإستهلاكية من الملابس والأدوات الكهربائية وغيرها ، ولكنه يمتد إلى السلع الغذائية ، وتتم معادلة الدولار بالسعر بشكل أسبوعى ، ويتم الإعلان فى المحلات عن أسعار صرفه لتقييم سعر السلعة ، ولكن الدفع يتم دائما بالروبل حتى لايتلاشى من الساحة ، ويصبح الدولار هو العملة الرئيسية للمعاملات .

وفى ظل التوجه الواضح للإستيراد من الخارج ، وغياب السلع والمنتجات الروسية ، فإن سعر الصرف يصبح عاملا حاكما لمستويات الأسعار ، ويصبح وقودا رئيسيا للتضخم ، بما يحتم إجراء تعديلات متوالية فى الأجور والمرتبات وفقا للتعديلات والتغيرات فى إسعار الصرف ، وهذا الأمر لايتم عمليا وواقعيا ، بل تتعقد الأمور فى ظل إلتزامات روسيا بإتفاقها مع صندوق النقد الدولى ، الذى يقيد الإصدار النقدى الجديد من الروبل ، وينص على قيمة محددة للنقد المتداول ، وهو

ما أدى إلى عجز الحكومة عن سداد مرتبات العاملين فى الدولة ، والتأخر فى سداد المرتبات لشهور عديدة ، حتى أن قضية سداد المرتبات جاءت فى مقدمة الحملة الإنتخابية للرئيس الروسى يلتسن حيث تعهد بالإنتظام فى السداد ، وأعلن عن إجراءات لسداد المتأخرات ، وقد تفاقمت الأزمة خلال الفترة الأخيرة مع التأخير فى سداد مرتبات الضباط والجنود ، وحتى قيادات الأركان الروسية ، مما دفع قيادات الجيش الروسى إلى إعلان التذمر والتهديد بإتخاذ إجراءات حاسمة فى مواجهة المهانة والإذلال المادى والمعيشى والذى يتعرض له جيش كان حتى وقت قريب أقوى قوة عسكرية فى العالم أو على الأقل القوة الثانية .

ويعزز من إنهيارات الروبل وأسعار صرفه ، ضآلة حجم التدفقات من النقد الأجنبى فى صورة إستثمارات مباشرة إلى روسيا ، على الرغم من جميع أحاديث الإنفتاح ، والحجم الضخم من التنازلات المقدمة للإستثمارات حيث توضح الإحصائيات أن حجمها الإجمالى بلغ ٢,٨ مليار دولار فقط مع نهاية عام ١٩٩٥ مقابل ١,١ مليار دولار فى عام ١٩٩٤ وتأتى فى المقدمة الإستثمارات الأمريكية بقيمة قدرها ٨١٣ مليون دولار ، ثم سويسرا بقيمة قدرها ١٦١,٤ مليون دولار، فى حين تشير التقديرات الروسية إلى أنه فى ظل الفساد السياسى والإدارى والإقتصادى فى ظل تحكم المافيا والجريمة المنظمة فى الكثير من الأمور بخلاف القصص والروايات عن أموال الحزب الشيوعى وقياداته السابقة فى الخارج وعن عمليات بيع البترول الروسى فى فترات الإنهيار لصالح القيادات الكبرى وغيرها من صور النزح الطوفانى للثروة القومية لصالح جهات الفساد التى تعاقبت على السلطة والحكم والإدارة .

كل هذا قد تكون له أثاره السياسية ، فهل يجهل أحد ماحدث فى يوغسلافيا بالإضافة إلى ماحدث فى ألبانيا التى تعتبر من أفقر بلاد العالم؟ هل ستصبح روسيا مثل ألبانيا ؟ ، إن الإنفجار الروسى إذا حدث ، سيكون رهيبا ، لايبقى ولايذر ، وعماده شعب جائع ومتذمر ومحروم .

حقائق الإقتصاد الروسى بالأرقام

جاء فى تقرير الدكتور / أندريه إيلايونوف مدير معهد التحليلات الإقتصادية بموسكو مايلى بشأن الوضع الإقتصادى فى روسيا ، وقد نشرته جريدة الازفستيا فى ١١ ديسمبر ١٩٩٦

- فى عام ١٩٩٦ أصبحت الحكومة عاجزة عن دفع أجور مرتبات ٦٧ مليون من العاملين بمختلف مجالات الحياة .

– بلغت ديون العاملين على الحكومة ٤٦,٦ ترليون روبل .

– إنخفاض الإنتاج القومى الإجمالى فى السنوات الأربع بين ١٩٩٣، ١٩٩٦ بنسبة ٢٨٪ على حين كانت نسبة الهبوط ٢٥٪ فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٧) وكانت ٢٣٪ فى فترة الحرب الأهلية التى أعقبت سقوط الحكم القيصرى ، وظهور السلطة السوفييتية (١٩١٨ – ١٩٢٣) . وكان الإنخفاض بنسبة ٢١٪ فى فترة الحرب العالمية الثانية (١٩١٤ – ١٩٤٥) .

– إزدادت الديون الخارجية خلال الأربعة أعوام المذكورة إلى ١٢٧ مليار دولار أمريكى والديون الداخلية تقترب من ٤٥ مليار دولار .

لكن إلى متى يتم تأجيل تحصيل الديون سنه بعد سنة وإلى حد يمكن أن تمضى أمريكا ودول أوربا الغربية ومعها كندا واليابان فى تأمين القروض والمساعدات المطلوبة للجمهوريات السوفييتية العاجزة ؟

هناك مطالب محددة ، بدأت تصدر عن بعض الدول الغربية لتأمين القروض ، من تلك المطالب الحصول على ضمانات من الجمهوريات التى ستحصل على المليارات ، ولم يعد خافيا أن الدول الصناعية تريد الذهب السوفييتى ، وهذه المسألة لها مضاعفات خطيرة من الناحيتين الإقتصادية والقومية ، علما بأن الجمهوريات السوفييتية كلها لاتملك اكثر من ٢٤٠ طنا من الذهب ، يطالب الغرب بنصفها كضمانات للقروض ، هذا الوقت لاتتردد الجمهوريات الغارقة فى الصقيع ودون وقود ولا مواد غذائية كافية فى عرض بعض ماتملك من معدات عسكرية للبيع ، تعتبر جمهورية روسيا الإتحادية أغنى جمهورية بالمعدات الحربية فهى تسيطر على نحو ٧٠ بالمائة من المصانع الحربية التى كانت تابعة للقيادة المركزية السابقة .

وأخـــيرا

* يتركز الروس ، وكذلك معظم شعوب الجمهوريات السوفيتية السابقة الماضى بأمجادة العسكرية الإستعراضية ، ولايأسفون عليه إلا عندما يستعرضون حالتهم الإقتصادية والإجتماعية وحتى الصحية .

* فهم تخلصوا من نظام الكبت والعجز عن مواكبة التطور ، ولكنهم لم ينتقلوا إلى نظام يؤمن لهم القليل من الرخاء مع النمو الإقتصادى وفرص العمل والتصنيع التكنولوجى الذى يربطهم بعجلة العصر .

* تعرفوا على البطالة بعدما كانوا مرغمين على العمل (لأن من يقدر ولايعمل لايحق له أن يأكل) وهذا ما أدى بالشباب العاطل إلى سلوك دروب الإخلال بأمن المجتمع .

* تتضاعف الصعوبات أمام إهدار البنية الأساسية ، وعدم قدرة الدولة على مجاراة التطور التكنولوجى فى حقل إنتاج الصناعات الخفيفة والإستهلاكية ، مما يجعل قطاع الخدمات كالسياحة والطيران والإتصالات عاجزا عن تحقيق حلم روسيا .

* لاتزال روسيا دولة صناعية عسكرية رغم الإتجاه إلى تقديم الصناعة المدنية ، فهناك ما يزيد على ١٥٠٠ مصنع لإنتاج الأسلحة الثقيلة والحقيقة بعد توقف كثير من المصانع المماثلة لها ، وفيما يطالب الأمريكيون بتحويل المصانع الحربية الروسية إلى الصناعات المدنية الصالحة للإستهلاك المدنى والتصدير ، يقول الروس أنهم بحاجة إلى ١٥٠ مليار لإنجاز هذه المهمة .

* لم تفقد روسيا الوزن الذى كان يمثله الإتحاد السوفييتى السابق ، ومعه الدور والنفوذ الدولى فحسب ، بل فقدت كذلك إرثا ضخما من العلاقات الثنائية مع دول العالم الثالث ، والتى كانت لها الصديق والنصير، وتقدمت عليها فرنسا أوألمانيا أو اليابان كقوة عظمى أو كبرى.

ليس معنى هذا أن العالم لايعمل حسابا لروسيا على إعتبار أنها كقوة عالمية أصبحت فى ذمة التاريخ ، فهناك أكثر من ٢٠ ألف رأس نووى فى الترسانة الحربية الروسية كما أنها صاحبة أكبر ترسانة من الأسلحة الكيماوية بعد الولايات المتحدة الأمريكية ويتكلف تدميرها ٥ مليارات دولار وهى قد لاتكون بعيدة عن متناول أيدى الساخطين إذا إستبد بهم اليأس .

النسبة المئوية لنصيب القطاع الخاص من الناتج المحلى الإجمالى
(منتصف ١٩٩٤)

روسيا الإتحادية	٥٠	مولدوفا	٢٠
إستونيا	٥٥	بيلاروس	١٥
لاتفيا	٥٥	أوكرانيا	٣٠
لتوانيا	٥٠	كازاخستان	٢٠
أرمينيا	٤٠	قرغيزيا	٣٠
أذربيجان	٢٠	طاجكستان	١٥
جورجيا	٢٠	تركمنستان	١٥
		أوزبكستان	٢٠

روسيا تتجه شرقا لتعوض ما أصابها من وهن غربا

بعد توقيع الرئيسين الروسى والصينى على معاهدة خفض القوات والأسلحة المشتركة الطويلة بينهما فى إبريل ١٩٩٧ من أبرز الأحداث فى ذلك العام، نظرا لأن المعاهدة كانت مصحوبة ببيان سياسى غير مسبوق فى العلاقات الصينية الروسية أعلنتا فيه رفضهما إنفراد الولايات المتحدة الأمريكية بالزعامة والسيادة العالمية، كما أن وثائق المعاهدة يتضح منها أنهما يسعيان لدفع الضرر عن مصالحهما القومية، وتعزيز مكانتهما العالمية، فالخريطة السياسية للعالم فى المستقبل يجب أن تكون لعالم متعدد الأقطاب غير مقسمة إلى قادة وتابعين، خاصة وأن الإتفاقيات السابقة تنص على تزويد الصين بالتكنولوجيا والخبرة العسكرية والنووية الروسية، وتشير التقديرات الغربية أن قيمة ما أشترته الصين من الأسلحة الروسية من دبابات متطورة وأنظمة صواريخ وغيرها بلغت نحو ٦ مليارات دولار بين عامى ١٩٩١/١٩٩٦، كما أن هذه المعاهدة الأخيرة تستهدف زيادة التبادل التجارى بينهما بعد أن بدأت الأسواق

الغربيـة تضيـق الخنـاق علـى المنتجـات الصينيـه ، ولاشـك أن المنتجـات العسـكرية خاصـة الغواصـات والمدمـرات والمقـاتلات سـتظل سـلعة نـادرة تحتاجهـا الصيـن بشـدة للسـيطرة علـى الميـاه الإقليميـة ، ومواجهـة خطـر التحـالف الأمريكـى اليابـانى ، والأمريكـى الكـورى ، كمـا أن روسـيا فـى حاجـة إلـى هـذا التحـالف فـى مواجهـة إصـرار الولايـات المتحـدة الأمريكيـة بـالوصول إلـى حلـف الأطلنطـى حتـى أبوابهـا الغربيـة .

وقـد تضمنـت المعـاهدة أيضـا التـى وقعهـا أربعـة رؤسـاء لجمهوريـات روسـيا ، قرغيزيـا ، وطاجكسـتان وقزاغسـتان فضـلا عـن عـن الصيـن . علـى تزويـد الصيـن بالغـاز الطبيعـى مـن إقليـم أومسـك فـى الشـرق الأقصـى الروسـى حتـى يصـل إلـى شنغهاى ، ومعنـى ذلـك توفيـر إسـتخدام الفحـم الـذى يشـكل ٨٠٪ مـن وقـود الطاقـة فـى الصيـن ، وهـذا نظـرا لهـدوء الأحـوال السياسـية بيـن الصيـن والهنـد ، وروسـيا ، ولايمكـن الإسـتهانة بذلـك لأن الـدول الثـلاث هـى دول نوويـة تضـم نحـو ٤٠٪ مـن سـكان العـالم ، و ٢٥٪ مـن مـوارده ، وهـذا كمـا إتفقـت الصيـن وروسـيا علـى الموقـف المشـترك كعضويـن دائميـن فـى مجلـس الأمـن ، وهـذا معنـاه رفـض الهيمنـة الأمريكيـة، وهـذا مـا كـان يؤكده الأميـن السـابق للأمـم المتحـدة فيمـا يختـص بإسـتقلالية المنظمـة ، وإن هنـاك فارقـا بيـن الأمـم المتحـدة والولايـات المتحـدة وكـان هـذا إنطلاقـا (فشـل الرئيـس يلتسـن فـى إثنـاء الرئيـس كلينتـون ودفعـه لمراعـاة شـعور روسـيا مـن توسـيع حلـف النـاتو صـوب الشـرق فـى مباحثـات قمـة هلسـنكى (١٩٩٧) وبالتـالى زيـادة الضغـوط علـى روسـيا وبيلوروسـيا عـن طريـق بولنـد العضـو المرتقـب فـى الحلـف .

شكل رقم (٥٢) : الجيش الروسى يكشر عن أنيابه



إن المحاولـة الصينيـة الروسـية للتفـاعل والإسـهام بإيجابيتـه فـى تشـكيل النظـام الدولـى هـى فـى مصلحـة الـدول الناميـة بصفـة عامـة ، لأن هـذه الـدول هـى التـى تعـانى مـن حالـة الفوضـى الدوليـة السـائدة ، ومحاولـة الولايـات المتحـدة الأمريكيـة فـرض سـيطرتها علـى العـالم .

معالم روسيا الإتحادية

* أكبر دولة فى العالم من حيث المساحة فمساحتها التى تبلغ ١٧,٥ مليون كم٢ تبلغ ضعف مساحة ثانى دولة وهى كندا ، ولكنها الثانية سكانا بعد الصين ، والهند والولايات المتحدة الأمريكية ، وأندونسيا ، والبرازيل.

* أكثر الأقطار الكبيرة مساحة وسكانا فى أقصى الشمال ، وجزء كبير من مساحتها شديدة البرودة وجافا ، وتفصلها السلاسل الجبلية عن الرياح الدفيئة .

* ورغم مساحتها الضخمة فعدد سكانها ١٥٠ مليون نسمة يعتبر قليلا ويتركز معظم السكان فى القسم الغربى ، أو فى نحو خمس مساحة البلاد.

* ويعتبر القسم الغربى أكثر أجزائها نموا من الناحية اقتصادية ، كما يضم هذا القسم الواقع غرب جبال أورال المدن والأقاليم الصناعية الرئيسية وأكثف شبكة للمواصلات والإتصال وأكثر المزارع إنتاجا ، ويمتد المعمور شرقى جبال أورال على طول حزام ضيق يمتد من جنوب أورال حتى أقصى الشرق حول فلاديفستك .

* دولة متعددة الثقافات والأعراق ، مما يعقد من جغرافيتها السياسية ، فهى تضم ٢١ جمهورية أساسها تجمعات ثقافية .

* رغم مساحتها الضخمة تعانى من إحاطتها باليابس الأوراسى ، وحتى البحار التى تطل عليها فهى متجمدة أو شبه متجمدة معظم العام ، مما يحرمها من الموانى الجيدة .

* وقعت روسيا فى أزمة إقتصادية حادة بعد فشل النظام الإشتراكى ، وتحوله نحو النظام الرأسمالى ، وإنعكس هذا على حالة فوضى شاملة .

* ظلت روسيا مصدرة للخامات أكثر من المصنوعات ، فيما عدا الأسلحة لذلك قليل من صناعتها ظهر فى السوق العالمى ، كالكاميرات والتلفزيون والسيارات .

الفصل الثالث : أوربـــــــــــا

مثلما أبدعت أوربا فى عصر النهضة بكل ماصاحب هذا العصر ، وما تبعه من مذاهب فلسفية ونظريات سياسية وفكرية ، أثرت فى حركة الحضارة الإنسانية على مدى أكثر من خمسة قرون حتى يومنا هذا ، هى أوربا نفسها التى تبدع مذاهب فلسفية جديدة ، وتموج بمعارك سياسية وإقتصادية ، وتغلى أيضا بصراعات تقنية حديثة ، تقود بها العالم نحو القرن الحادى والعشرين ، وإذا كانت الولايات المتحدة هى القوة العسكرية المنفردة الآن ، فستظل أوربا هى الأم التى أنجبت أمريكا وأرضعتها فكرا وحضارة ، فهى الأصل ، وتظل أمريكا هى الفرع حتى لو تفوقت عليها .

ثلاثة أحداث جعلت أوربا محط أنظار العالم فى التسعينات هى :

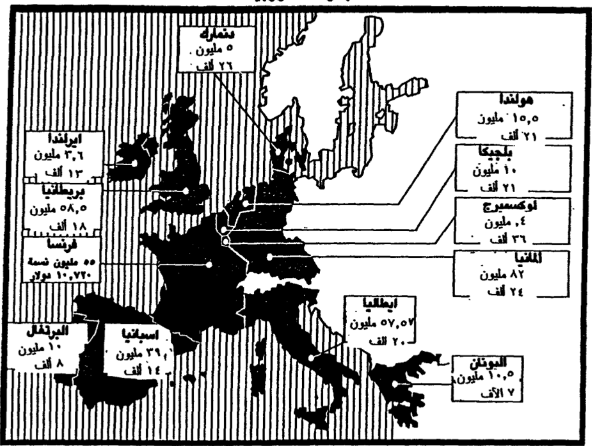
أولا . الوحدة الأوربية

مع غروب شمس أول يوم فى عام ١٩٩٣ م ، إتحدت الجماعة الأوربية ، ومع ذلك الإتحاد أصبحت على الفور من أضخم الاسواق الإقتصادية فى العالم ـ ٣٥٠ مليون نسمة . وفى وسط أوربا وشرقيها تلاشت الشيوعية ويجرى إحلال الرأسمالية محلها . وفى كل أوربا الشرقية والغربية تبذل محاولة لم يسبق لها مثيل ـ هى الإنتقال من التخطيط المركزى إلى السوق الحرة ، والإتحاد طواعية داخل سوق شديدة الإتساع وبعيدة عن التجانس اللغوى ، وتضم الأعداء العسكريين السابقين .

ويساور اليابان وأمريكا القلق من أن يجعل الإتحاد الإقتصادى لأوربا بيع منتجاتهما فى أوربا أكثر مشقة . وحتى إذ لم تصبح أوربا قلعة إقتصادية مغلقة ، فإن إختراق أسواقها سيكون أكثر صعوبة . فإذا كانت فرص التنافس متكافئة أمام مؤسسة أمريكية ومؤسسة ألمانية فى إيطاليا قبل الإتحاد ، فسنجد فى عام ١٩٩٣ أن المؤسسة الألمانية ستكون لها ميزة على الأمريكية ، فالحواجز التى تواجه المنتجات الألمانية ستزول على حين أن الحواجز التى تواجه المنتجات الأمريكية ستظل دون تغير . والدول غير الأعضاء بدورها تدرك أن خسائرها ستكون بالتأكيد أكبر من هذا الحد الأدنى الذى يتعذر التنزول عنه . فعند بناء البيت الأوربى سيكون عدم إقتسام المكاسب الإقتصادية مع غير الأعضاء هو الغراء اللازم لكى تلتحم معا من الناحية السياسية مجموعة من البلدان المتباينة . ولكى يفعل هذا الغراء فعله لابد أن يكون غراء قويا ، وهو لايمكن أن

يكـون قويـا إلا إذا كـان هنـاك فـرق كبـير فـى معاملـة الأعضـاء وغـير الأعضـاء .

شكل رقم (٥٣) : عدد السكان ونصيب الفرد من الناتج القومى فى دول المجموعة الاوربية



ففـى البدايـة رفـض البريطـانيون الإنضمـام إلـى الجماعـة الأوربيـة ، وكـانوا يعتقـدون أن ذلـك الإنضمـام سـيقتضى منهـم التنـازل عـن قـدر كبـير جدا مـن السيادة الوطنيـة . ولكـن بريطانيا عكسـت قرارهـا فـى نهايـة الأمـر وإنضمـت عندمـا إتضـح أن المتـاعب الإقتصاديـة للبقـاء خـارج الإتحـاد سـتكون مـن الجسـامة ، بحيـث يتعـذر عليهـا دفـع الثمـن الإقتصـادى الـذى تتطلبـه المحافظـة علـى السيادة الوطنيـة للجزر البريطانيـة .

إن إتحـاد أوربـا الفيدرالـى سـيتطلب وقتـا طويـلا "، ولقـد إقتضـى بـالفعل قرابـة نصـف قـرن لمجـرد أن يصـل إلـى النقطـة التـى يمكـن عندهـا إلغـاء ضوابـط الحـدود . وسيلزم نحـو نصـف قرن آخـر لتكملـة الإتحـاد الإقتصـادى والسياسـى .

ولـن يكـون هنـاك مـا يحـول دون أن يصبـح البيـت الأوربـي أضخـم المناطق الإقتصادية فـى العالم وأكثرها ثـراء . ففـى أوربـا ٧٥٠ مليونـا مـن السـكان ذوى التعليـم الجيـد ، ولايوجـد بهـا بلـد فقـير حقـا ، ربمـا بإسـتثناء ألبانيـا . ولنتصـور ماكـان يمكـن أن يحـدث لـو أن القـدرات العلميـة عاليـة التقنية للإتحـاد السـوفييتى السـابق قـد تزاوجـت مـع قـدرات الالمـان الإنتاجيـة ذات المرتبـة العالميـة . ومـع الغـاز الطبيعـى مـن الكومنولـث الجديـد .

ولايحتـاج الأمـر إلـى جهـد فكـرى كبـير كـى نلاحـظ أنـه فـى السـوق الأمريكيـة ، سـجل اليابـانيون نصـرا كاسـحا . وعلـى وجـه العمـوم فـإن الشـركات الأوربيـة لصناعـة السـيارات ، إمـا أقصيـت مـن سـوق الولايـات المتحـدة ، أو إنهـا تفقـد سريعا حصصهـا فـى هـذه السـوق .

ومـا فعلـه اليابـانيون فـى أمريكـا ، يسـتطيعون أن يفعلـوه ، وهـم يفعلـونـه ، وسيفعلونه فـى أوربـا إذا ماسنحت لهـم فرصـة . ففـى تلـك الأسـواق الأوربيـة التـى كـانت مفتوحـة أمـامهم ، كـان اليابـانيون يبيعـون أكثـر مـن ٣٠ فـى المائـة مـن السـيارات التـى أشـتريت فـى ١٩٩٠ . وفـى بعـض الأسـواق ، مثـل إيرلنـد والنرويـج ، كـانت حصـة اليابـان فـى السـوق أكـثر مـن ٤٠ فـى المائـة ، إن تـرك أبـواب أوربـا مفتوحـة علـى مصراعيهـا أمـام منافسـة مـن خـارج أوربـا خـلال هـذه الفـترة يمكـن أن يحـدث نفـس الأخطـاء التـى إرتكبهـا الأمريكيـون فـى السـابق والتـى يعـانون الآن نتائجهـا .

والنتيجـة هـى مشـروعات قوانيـن تقضـى بألاتتجـاوز حصـة اليابـانيين فـى السـوق ١٦ فـى المائـة فـى العـام ٢٠٠٠ ، بصـرف النظـر عمـا إذا كـانت السـيارة تسـتورد مـن اليابـان أو تصنـع فـى أوربـا . ولكـن إذا كـان علـى الأوربيين التحكـم فـى تجارتهم فـى السـيارات مـع اليابـان ، وجـب عليهـم أن يتحكمـوا فيهـا أيضـا مـع أمريكـا . فاليابـانيون يبنـون فـى الولايـات المتحـدة طاقـات إنتاجيـة أكـبر ممـا يمكـن أن يسـتخدم فيهـا . إذن مـاذا سـيفعلونه بهـذه الطاقـات ؟ الإجابـة واضحـة ، مثلمـا تحـاول "هونـدا " أن تفعلـه الآن ، وهـو تصدير بعـض تلـك السيارات التـى تصنـع فـى أمريكـا إلـى أوربـا ، فيمـا يبـدو أنهـا حـرب يابانيـة أوربيـة سرعان مـاتصبح حربـا أمريكيـة أوربيـة .

ثانيا : تغيرات إقتصادية سياسـية وإجتماعيـة

أمـام هـذه الأحـداث الخطـيرة التـى سـتواجه ١٢ دولـة أوربيـة غربيـة ، تكمـن مشـاكل وعراقيـل وأحداث لـم تكـن قائمـة فـى عـام ١٩٨٥ وقـت الإتفـاق علـى المرحلـة الثانيـة تلـك ، فمنـذ ذلـك التـاريخ شـهدت أوربـا شـرقا وغربـا تغييرات جذريـة قـد تؤثـر وتعكس أثارهـا علـى أوربـا الجديـدة .

فخلال سبع سنوات سقطت جميع النظم الشيوعية فى أوربا الشرقية وإختفى فى شهور قليلة العدو الأساسى الذى ظل عشرات السنوات يؤثر فى السياسة العسكرية والخارجية والإقتصادية لأوربا الغربية ، وظهر نظام عالمى جديد تهيمن عليه الولايات المتحدة مرحليا ، والتى أصبحت القوة العظمى الوحيدة فى العالم فى الفترة الإنتقالية إلى النظام الجديد .

وقد أدت هذه التغييرات السياسية والعقائدية إلى قلب الموازين العسكرية فى المنطقة ، بشكل لم يسبق له مثيل ، فوقعت إتفاقيات الحد من التسلح ودعت أصوات من واشنطن إلى خفض الوجود العسكرى الأمريكى فى أوربا الغربية ، وإتجهت كل من ألمانيا وفرنسا إلى التقارب من أجل إنشاء نواة لجيش أوربى مستقبلى .

وبعد التغييرات السياسية والعسكرية شهدت أوربا الغربية والشرقية تغييرات جغرافية خطيرة ، فبعد نحو ٤٥ عاما من الإنقسام توحدت ألمانيا مرة أخرى ليعود العملاق الألمانى إلى قلب أوربا الغربية يثير الخوف والترقب من هيمنة قوته الإقتصادية الحالية ، والعسكرية القادمة .

وفى نفس الوقت تفككت جمهوريات الإتحاد السوفيتى ويوغسلافيا وإنقسمت تشيكوسلوفاكيا ، وسقطت أوربا الشرقية فى صراعات عرقية وقومية .

أما إقتصاديا فبعد إنهيار الشيوعية والنظم الإقتصادية الموجهة فشلت جمهوريات أوربا الشرقية فى تطبيق إقتصاديات السوق بالسرعة والثبات الذى كان مؤهلا له ، ودخلت تلك المنطقة فى أزمات إقتصادية متلاحقة تضع أوربا الغربية فى مأزق ما بين التقدم لمساعدتها من أجل تحقيق أوربا الكبرى فى المستقبل القريب ، وبين الإهتمام بالداخل أولا .

ولكن هذه الأزمات الإقتصادية ستظل تطل وتؤثر وتعكس آثارها على أوربا الغربية ، إذ أنها تمثل حاليا قوة طاردة لأبناء أوربا الشرقية نحو الغرب . فشهدت أوربا الغربية تغييرات إجتماعية خطيرة بسبب تدفق المهاجرين من الشرق إليها . وإذا كان ذلك يمثل حاليا أزمة خطيرة بسبب تزايد نسبة البطالة فى الغرب مما يدعم الموجات العنصرية والنازية الجديدة ، فإن أوربا ١٩٩٣ مع تطبيق سياسة حرية التنقل للأشخاص واجهت أزمة مضاعفة خاصة أن الدول الأثنتى عشر لم تتفق بعد على سياسة موحدة لمواجهة الهجرة المتزايدة على حدودها ، كما تطالب كل دولة بالحفاظ على سيادتها فى هذا المجال لوضع الإجراءات التى تراها ضرورية لحماية سوقها الداخلية .

ولهذا فإن المهاجرين الأجانب سيواجهون مصيرا غامضا بعد ١٩٩٣ حيث ستصبح أوضاعهم هامشية ، كما أن هناك خطر ظهور إزدواجية عرقية ، بين الأوربيين وغير الأوربيين .

وهكذا فمع بداية المرحلة الثانية من مشروع الوحدة الأوربية على الدول الإثنى عشر الموحدة إيجاد إجابات على تساؤلات عديدة منها ، هل ستصبح أوربا الموحدة " أوربا ألمانية " تهيمن عليها القوة الإقتصادية والسكانية الألمانية ، أم ستتحول ألمانيا لتنصهر داخل أوربا وتصبح " ألمانيا أوربية " ؟ هل ستتخلى أوربا عن دورها القيادى ، وتتبع الولايات المتحدة فى قراراتها السياسية والعسكرية فى العالم ، مثلما حدث فى أزمة الخليج ومشكلة الشرق الأوسط أم ستتحول أوربا إلى قوة ثالثة توازن القوة الأمريكية واليابانية كما كان مخططا فى عام ١٩٨٥ ؟

وكان السؤال حينئذ هل ستظل السوق الأوربية " قلعة " تضم إثنتى عشر دولة أم تفتح أبوابها لتستقبل الدول الأخرى لمساعدتها فى أزماتها ؟ وقد أصبح عددها الآن خمس عشرة عضوا .

ثالثا : أوربا ترفض تسيد الولايات المتحدة الأمريكية

من حلقات الصراع الإقتصادى والتجارى العملاق بين الولايات المتحدة وأوربا واليابان ، فهناك منذ فترة شعور عام يسود الأوساط الرسمية الأوربية ، بأن الولايات المتحدة لم تعد تسأل عن ردود أفعال حلفائها ، سواء الأوربيين أو غيرهم ، بل إعتادت واشنطن على إتخاذ القرارات ، ثم حمل حلفائها على تنفيذها ، وقد بدأت تظهر خاصة بعد حرب الخليج علامات التذمر من إستهتار الولايات المتحدة ببقية العالم وخاصة حلفاءها الأوربيين ، ومن أكثر ما يغضب المسؤولين فى فرنسا مثلا ، هو تعبير النظام العالمى الجديد بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ، حتى وإن كانت الولايات المتحدة هى القوة العظمى الوحيدة فى العالم اليوم ، وقد ظهر هذا الرفض الأوربى لمحاولة إنفراد الولايات المتحدة الأمريكية بإتخاذ القرار فى عدة مرات منها : **معارضة قانون هيلمزبيرتون**

ويقضى هذا القانون بمعاقبة الدول التى تتعاون مع ماتسميه الإدارة الأمريكية " الدول الشاذة " أى ليبيا وكوبا وإيران ، ووفقا لهذا القانون توقع الولايات المتحدة الأمريكية عقوبات على أى شركة تقوم بإستثمارات تزيد على أربعين مليون دولار سنويا فى قطاع النفط فى إيران وليبيا ، مما يهدد بتدهور صناعات النفط والبتروكيماويات اللتين يقوم عليها

إقتصاد البلدين . وفى حالة كوبا ، هناك فقرة تتيح لأى مواطن أمريكى مقاضاة الشركات التى تعمل فى كوبا ، على أساس أنها تستخدم ممتلكات المهاجرين الكوبيين الذين هربوا من بلادهم عند إندلاع ثورة كاسترو فى عام ١٩٥٩ !!

ويدفع الأوربيون بحجة قانونية وأخرى سياسية ، فبالنسبة للأولى فلايعقل أن تحاكم الولايات المتحدة شركات ومواطنين أجانب بموجب قوانين فيدرالية أمريكية ، كذلك فإن قوانين المقاطعة التى تصر واشنطن على فرضها على النظام الكوبى تتعارض مع قواعد وقوانين حرية التجارة ، وحرية إنتقال السلع ، والأفراد ، كما تتناقض جوهريا مع مبادئ إتفاقيات منظمة التجارة العالمية التى تسعى إلى تحرير التجارة العالمية .

وقد إجتمع وزراء خارجية الإتحاد الأوربى فى بروكسل ووضعوا قائمة بإجراءات ذات طابع إنتقامى فى حالة إصرار الولايات المتحدة على تطبيق قانون هيلمزبيرتون ، مما حدا بالولايات المتحدة الأمريكية لتأجيل العمل به ، **ومنها رفض الهيمنة الثقافية الأمريكية على العالم** ، فعندما تفجرت فى عام ١٩٩٣ على الساحة الدولية ماعرف بإسم قضية الجات ، وهى المفاوضات التى أجرتها الدول الراغبة فى دخول النظام العالمى الإقتصادى الجديد ، كان هناك رغبة واضحة من عشرات الدول وعلى رأسها فرنسا التى ترفض الهيمنة الثقافية الأمريكية من أفلام ومسلسلات .. إلخ ، وظهر تعبير الخصوصية الثقافية ، وهو ينص بعدم إدراج السلع الثقافية المعبرة عن هوية كل دولة ، ذلك إن ثقافة التبادل الحر ثقافيا ، معناها قضاء الثقافة الأمريكية على الثقافات الأخرى ، وهو إتجاه أيدته عشرات الدول للحد من السيطرة والهيمنة الثقافية الإقتصادية والسياسية التى تحاول الولايات المتحدة الأمريكية فرضها على العالم ، وكان هناك أيضا تجاهل الإتحاد الأوربى للضغوط الأمريكية التى ترمى إلى **القطع الكلى للعلاقات السياسية والإقتصادية مع النظام الإيرانى لتأييده الإرهاب الدولى** ، وقرر عودة السفراء الأوربيين إلى إيران مع إتخاذ بعض الإجراءات الخاصة بمنح تأشيرة الدخول إلى الإتحاد الأوربى ، وكان هذا فى أعقاب صدور حكم لمحكمة فى برلين الغربية فى أبريل ١٩٩٧ بإدانة بعض المسئوليين الإيرانيين فى عملية إغتيال سياسى لبعض رموز المعارضة الألمانية .

الوحدة الأوربية

إذا كانت الوحدة الأوربية التى نسمع عنها الآن بدأت إرهاصاتها عقب الحرب العالمية الثانية ، فليس معنى هذا أن أفكار الوحدة لم تظهر طوال تلك العصور التاريخية ، فقد نادى بها روسو ، وكانت ، وفيكتور هيجو ، وغيرهم ، وكان هناك مثل هذا الإتجاه عقب الحرب العالمية الأولى ، وعقد مؤتمر فيينا لبحث إمكانيات توحيد أوربا ، ولكن أحداث الثلاثينيات أنهت هذه المحاولة حتى من التفكير ، ثم ظهرت حركات التوحيد مرة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية ، معظمها قام على الأسس الإقتصادية ، ومدى المنافع الناتجة عن هذه الوحدة . ولعل الدرس المستفاد من الفوقمية **Supernationalism** التى تضمن التعاون الإرادى بين مجموعة من الدول فى وحدة سياسية وإقتصادية وثقافية ، إن التكامل السياسى يأتى بعد ، ولايسبق التعاون الإقتصادى ، فإذا ما شاهد الناس حياة أفضل يكونون مستعدين للتنازل عن قليل من إستقلالهم الذاتى فى سبيل ضمان هذا العيش الأفضل ، أكثر من إستعدادهم للتنازل عن هويتهم القومية فى سبيل الوصول إلى دولة أكبر .

وفى الحق لقد تم التوقيع بين ممثلى حكومات هولند وبلجيكا ولوكسمبرج قبل نهاية الحرب العالمية الثانية على إتفاق للوحدة بين الدول الثلاث بأسم البنلوكس (**Benlux**) فكان أول تعاون دولى عقب الحرب العالمية الثانية ، كما كان مقدمة لمنظمات متعددة لأوربا بعد تلك الحرب ، وكان هناك تشجيع من الولايات الأمريكية للإستفادة بالمساعدات الأمريكية التى تدفقت منها على دول غرب أوربا تحت أسم مشروع مارشال ، وأدى هذا إلى تكوين منظمة التعاون الإقتصادى الأوربى **Organization For European Economic Cooperation** عام ١٩٤٨. وإقترح بعدها بقليل (بيرشومان وزير خارجية فرنسا) الجماعة الأوربية للفحم والصلب . **European Coal and Steel Community.** وغرضها الأساسى هو إزالة العوائق والعقبات أمام إنسياب الفحم والحديد بين الدول الست المنتجة الرئيسية ، وهى فرنسا وألمانيا الغربية وإيطاليا ودول البنلوكس .

هكذا بدأت مسيرة الإتحاد الأوربى تحديدا فى أول إبريل ١٩٥١ عندما وقعت بلجيكا وفرنسا وإيطاليا ولوكسمبورج وهولند وألمانيا الغربية **معاهدة** باريس التى أنشأت الجماعة الأوربية للفحم والصلب . وعندما حاولت هذه الدول عام ١٩٥٤ تحقيق قفزة فجائية بإتجاه إقامة جماعة أوربية دفاعية وسياسية ، كان نصيبها الفشل. لكن التجربة جعلت الأوربيين آنذاك يرجئون البحث عن الإتحاد السياسى ويركزون الجهود على الإتفاق على مصلحة مشتركة فى البداية ، ثم وقعت هذه الدول **إتفاق روما** (١٩٥٧) الذى أعتبر فى ظاهره تخلياً عن الحلم الإندماجى

بسبب انكفائه على البعد الإقتصادى للإتحاد دون غيره ، لكنه مثل بإجماع المراقبين والسياسيين نقطة الإنطلاق نحو وحدة أوربية متكاملة لاحقاً ، لكونه ساهم فى تأسيس ميثاق سياسى يربط الدول الأوربية بعضها ببعض مع التطلع ، إلى إتحاد أوثق بين شعوب أوربا ، بحسب مقدمة الإتفاق . وهذا الأخير أنشأ "الجماعة الإقتصادية الأوربية" (EEC) و "الجماعة الأوربية للطاقة الذرية " (EURATOM) .

على الصعيد السياسى بقى الوضع جامدا حتى قمة لاهاى فى ديسمبر ١٩٦٩، حينما حاول وزراء خارجية الدول المكونة للجماعة " دراسة الوسيلة الأمثل لتحقيق تقدم فى مجال السياسة الخارجية . ثم تابعت الجماعة الأوربية سيرها على طريق الوحدة الإقتصادية والمؤسساتية ، إذ تم إبتداء من أول يوليو ١٩٦٧ ، دمج السلطات التنفيذية للجماعات الأوربية الثلاث : الجماعة الإقتصادية الأوربية والجماعة الأوربية للفحم والصلب ، والجماعة الأوربية للطاقة الذرية تحت راية مؤسسات أربع : المفوضية ، ومجلس الوزراء ، والبرلمان الأوربى ، ومحكمة العدل ، وبعدها (١٩٦٨) ، تم إنشاء الإتحاد الجمركى وإلغاء آخر الرسوم الجمركية بين الدول الست الأعضاء المتعلقة بالمنتجات الصناعية ، وتم أيضا وضع تعريفه جمركية خارجية مشتركة .

وقد ضمت هذه الجماعة كل النوايا الرئيسية للقارة ، ومعظم رصيدها من الموارد ، واليد العاملة الماهرة ، والسوق الكبير ، وزاد من فعاليتها وقوة أجهزتها التنفيذية والتشريعية والقضائية (مجلس الوزراء ، الأمانة العامة ، محكمة العدل)، ولم تدخلها بريطانيا أول الأمر ولكنها قادت مجموعة أخرى من الدول أطلق عليها رابطة التجارة الحرة الأوربية . European Free Trade Association تضم إلى جانب بريطانيا الدول الإسكندنافية ، الثلاث السويد والنرويج والدنمارك ، فضلا عن النمسا وسويسرا والبرتغال ، وهذه المجموعة المتناثرة لم يقيض لها أن تكون فى قوة الجماعة الإقتصادية الأوربية ، وقد أطلق عليها السبع الخوارج Outer Seven ، بينما دول السوق أطلق عليها الست الداخلية Inner Six ، ولكن بريطانيارجعت تطلب دخول الجماعة الإقتصادية مرة أخرى ، ورفض طلبها أول الأمر، وإن كان قد قبل فيما بعد عام ١٩٧٣ .

ودخلتها أيضا الدنمارك وايرلند (العدد٩) ثم تتابع دخول اليونان عام ١٩٨١ ، وأسبانيا والبرتغال عام ١٩٨٦ (العدد ١٢) ، وقد إتفق على أن تكون ستراسبورج فى فرنسا قرب الحدود الألمانية هى عاصمة الإتحاد الأوربى ، هذا وهناك قائمة بطلبات للإنضمام للجماعة الأوربية على قائمة الإنتظار.

غير أنه يجب عدم إغفال ذلك التقدم الملموس على صعيد الوحدة السياسية التى تمت بحصول أول إنتخابات للبرلمان الأوربى فى ١٩٧٨ ، وكان عجز السلطات التنفيذية الأوربية عن التوصل إلى معاهدة إتحاد ، ما دفع البرلمان إلى تولى المبادرة عام ١٩٩٠ ، إذ أيد المجلس الأوربى المنعقد فى دبلن فى ايرلند الرسالة المشتركة الموجهة من المستشار الألمانى هلموت كول والرئيس الفرنسى فرنسوا ميتران ، التى تدعو المجتمعين إلى دفع الجهود نحو تحقيق " الإتحاد السياسى " عبر تبنى ثلاثة أمور واضحة :

(١) تحويل مجمل العلاقات بين الدول الأعضاء إلى " إتحاد أوربى " (EU) .

(٢) الإجراء : وهو يقضى بإقتراح إنعقاد مؤتمر حكومى بالتوازى مع المؤتمر المخصص للبحث فى الإتحاد الإقتصادى النقدى ، بهدف التوصل إلى صياغة نص معاهدة جديدة .

(٣) الجدول الزمنى : كان هناك توقع بإنتهاء مسار المصادقة على هذه المعاهدة من البرلمانات الوطنية ، فى مهلة أقصاها أول يناير ١٩٩٣ موعد بدء سريان مفعول السوق الواحدة التى سبق أن تم الإتفاق عليها ، وإنعقد المؤتمر على التوازى فى روما فى ديسمبر ١٩٩٠ - الأول لبحث الإتحاد النقدى والثانى للمداولة فى "الإتحاد السياسى" - وأنتهيا بتوقيع معاهدة ماستريخت للإتحاد الأوربى فى ١٩٩٢ .

شكل رقم (٥٤) : هيكل الاتحاد الاوربى

وأصبحت مجموعة الإثنتا عشر دولة تمثل النواة الكبرى للوحدة الأوربية ، ويطلقون عليها مجموعة : ٣-٤-٥ ، ثم كان أنضمام السويد والنرويج والنمسا إلى الإتحاد عام ١٩٩٥، بحيث أصبح عددها الأن (١٥) خمس عشرة دولة .

١- الثلاث الكبار وهى ألمانيا وفرنسا والمملكة المتحدة .

٢- الأربع الجنوبية ، ايطاليا ، أسبانيا ، البرتغال ، اليونان .

٣- الخمس الصغار : بلجيكا ، هولند ، البنلوكس ، الدنمرك ، ايرلند .

وستنظر فى الطلبات المقدمة من دول شرقى ووسط أوربا .

ومازالت المشكلات أمام الوحدة الأوربية

ومازالت هناك مشكلات حتى الآن تنتظر حلولا كمشكلة الإتحاد الإقتصادى والنقدى الذى سوف يؤدى إلى خلق عملة واحدة متداولة فى جميع الدول الأعضاء ECU وتلغى جميع العملات الأخرى ، ولكن هذا سيتم عبر مراحل تنتهى فى أول يناير ١٩٩٩ ، وجاءت معارضة بريطانيا لإلغاء عملتها وهناك نقاش كبير حول هذا الموضوع .

بل هناك الرافضون لمعاهدة ماستريخت بالكامل كالدنمارك ، بل أن نتيجة الإستفتاء فى فرنسا كانت بالموافقة (٥٠,٨٪) فقط . ويرى الرافضون أن فى معاهدة ماستريخت تعديا على السيادة القومية والإستقلال الوطنى وأن المجلس الأوربى والمفوضية (الأمانة العامة) تتمتعان بصلاحيات تقريرية واسعة جدا . ووجدت البرلمانات الوطنية المنتخبة أن صلاحيتها ستتقلص لمصالح البرلمان الأوربى ومحكمة العدل الأوربية . هكذا ولم تكن مسيرة الوحدة الأوربية خالية من الأشواك ، وسنعالج بعض هذه المشكلات بالتفصيل فيمايلى .

المشكلات التى تواجه الوحدة الأوربية

هل الإتحاد فيدرالى ؟

وهنا يدور الخلاف بين مدرستين إحداها المدرسة الإنجليزية وهى مدرسة تطويرية ـ براجماتية (واقعية) والأخرى المدرسة اللاتينية وهى مدرسة شكلية ـ نظرية (تجريدية) ، فبينما تصر المدرسة الأولى على النمو التدريجى

للمجموعة، فإن المدرسة الثانية تأخذ منحنى تحليليا ، ذلك أن المسألة ليست مجرد تسجيل للمنجزات ، بقدر ما هو تعبير عن رؤية وطموح مستقبلين .

النموذج البريطانى ويمثل المدرسة الأولى فبريطانيا ليست مستعدة بشكل كبير للتخلى عن سيادة برلمانها لصالح أوربا ، ولاتشجع الوحدة النقدية الإقتصادية ، وذلك بدعم أمريكى خفى . ولكن لكى لاتكون وحيدة فى إطار أوربا الموحدة فى مواجهة قوة ألمانيا وفرنسا ، فإنها تطالب مرارا بتوسعة إطار المجموعة الأوربية لتضم دول أوربا الشرقية وأعضاء الرابطة الأوربية للتجارة الحرة (EFTA) فالنموذج المطروح هو قيام إتحاد دستورى بين دول المجموعة على الأسس التالية : توزيع السلطات السياسية بين المجلس الأوربى والمجلس الوزارى واللذان يعدان مركز الثقل فى هذا الإتحاد وبيدهما سلطة إقتراح وإتخاذ القرارات، ويتم الحفاظ على البرلمانات الوطنية لأنها أساس الديموقراطية الغربية ، أما محكمة العدل الأوربية فتكون حكما فى النزاعات وليست صانعة للقوانين، وإعطاء حق (التحفظ التشريعى) للدول الأعضاء التى يكون التصويت فى المجلس الأوربى ضد رغبتها . ويعنى هذا الحق أن الدول الرافضة لقرار معين لها الحق فى أن تعرضه على برلمانها الوطنى لأخذ رأيه فى هذا القرار ، فإن وافق إنضمت لدول المجموعة فى تنفيذه ، وإلا فلها الحق فى عدم الخضوع له ، كذلك فإن إنصار هذا النموذج يدعون إلى تبنى شرط الإنفصال فى الإتفاقية . بحيث يجوز للدولة التى لاترغب فى الإستمرار فى الإتحاد الدستورى أن تنفصل عنه وتستقل بذاتها مرة أخرى .

أما النموذج الثانى فهو (النموذج المركزى) **Centralist Model** ويهدف هذا النموذج إلى قيام إتحاد مركزى بين الدول الأعضاء على أساس تقوية المؤسسات المركزية القائمة وخصوصا المفوضية والبرلمان ، وإنشاء مؤسسات مركزية جديدة كمجلس تان للبرلمان وعلى أن يتم تقسيم السلطة السياسية بين المجلس الأوربى ، والمفوضية ، والبرلمان الأوربى وأن تلعب المحكمة دورا إيجابيا فى الوصول إلى الإتحاد المركزى ، كما أن هذا النموذج يسعى إلى إلغاء شرط الإجماع فى التصويت وجعله بالأغلبية فى المجلس الأوربى .

مما سبق يتضح لنا عدة أمور :

١- أن نشوء إتحاد فيدرالى أى فقدان السيادة الخارجية والتخلى عن جزء من السيادة الداخلية لصالح الدولة الإتحادية أمر صعب تصوره على المدى القريب فى أوربا ، وبالتالى فإن إنشاء (الولايات المتحدة الأوربية) أمر مستبعد حاليا .

٢- تجذر التصورات القومية والإنتماءات الوطنية والتى بذلت الدولة القومية الأوربية قرونا من عمرها فى سبيل ترسيخها تقف عائقا أساسيا أمام مسيرة التوحيد الأوربى .

٣- الحافز الإقتصادى هو الذى يخفف من غلواء القومية المحلية وهو الذى يدفع بالمسيرة الأوربية نحو إيجاد نوع من التوازن بين الرغبتين : رغبة إيجاد تكتل دولى قوى والرغبة فى الإستقلال الذاتى المحلى للدول الأعضاء .

وحتى الآن (١٩٩٧) لم يستقر الأوربيون على كنه وطبيعة أوربا التى يريدونها فهل ستصبح دولة فيدرالية تسلب برلمانات وحكومات الدول الأعضاء سلطاتها أم المطلوب مجرد منطقة تجارة حرة ؟

الحدود السياسية

قضية الحدود مسألة متفجرة أخرى فالأقتراحات بإزالة الحدود وحرية الحركة سواء للناس أو البضائع مرفوضة من بريطانيا ، أن الأوربيين لديهم عادات مشتركة وتقاليد خاصة بالتنقل فيما بين دولهم ، أما البريطانيون فلايشاركون فى هذه التقاليد ، وهم يعتقدون أيضا أن فتح الحدود يعنى مباشرة دولة فيدرالية أوربية. ويبدو الإتحاد الأوربى فى تحركاته المكثفة مثل قاطرة تتحرك بسرعة لقيادة أوربا إلى إتحاد سياسى وإقتصادى ونقدى لكن المسؤلين عن هذه القاطرة يمتنعون عن القول بأن نهاية الرحلة ستكون دولة فيدرالية أو إتحادا فيدراليا حتى لايثيروا عليهم الغبار من نواح عديدة ، أخطرها الغبار البريطانى ، الذى إشتدت ريحه وينتظر أن تشتد أكثر مع كل توجه جديد فى إتجاه الوحدة .

قضية العملة

ومع توحد السوق الأوربية وإزالة الحواجز الجمركية بين الأعضاء منذ يناير ١٩٩٣ ، كان لابد من نظام نقدى أوربى ، أى الوحدة النقدية مع الوحدة الإقتصادية وهذا النظام النقدى الأوربى الموحد الذى سيعتمد على وحدة حسابية (ECU) يهدف إلى فتح تسهيلات فى المعاملات ، وفى عملية تمويل الإقتصاد الأوربى على نحو موسع ، وقد سعت دول الإتحاد الأوربى سعيا حثيثا لتثبيت شروط إتفاقية ماستريخت لتوحيد العملة فى أول يناير ١٩٩٩ (ماعدا بريطانيا خاصة حزب المحافظين) وبلغ الأمر أنه فى إجتماع ديسمبر ١٩٩٦ وزعت صور بعض فئات النقد الأوربى الجديد (اليورو) المقترح الذى يتمسكون بإصداره ليكون أساس المعاملات فى أول يناير ١٩٩٩ ، ومعنى ذلك أن العملات الأوربية (المارك - الفرنك - الليرة الإيطالية ...إلخ) ستدخل متحف التاريخ ، وهم يعتبرون أنه إذا تم هذا فسيكون نصرا كبيرا وخطوة رئيسية فى إتجاه الوحدة (بإستثناء بريطانيا التى تعارض إختفاء الجنيه الإسترلينى ، وموقفها فى أحسن الأحوال هو لاداعى للعجلة فى توحيد العملة وتتبنى سياسة: فلننتظر ونرى) .

هذه المعايير قيدتها المائدة المستديرة التى شهدتها بروكسل قبل فترة والتى بحثت فى كيفية الدخول العملى فى مرحلة التداول بعملة اليورو ، وحثت المائدة المستديرة الدول الأوربية على القيام بإصلاحات جبارة لهيكلة إقتصادياتها الوطنية حتى تكون مؤهلة للإنضمام إلى نادى الدول المتعاملة بعملة اليورو مع بداية ١٩٩٩ .

غير أن عديدا " من الحكومات الأوربية فى سعيها المارثونى لتلبية شروط إتفاقية ماستريخت لكى تنضم للعملة الموحدة فى موجتها الأولى فى أول يناير ١٩٩٩ أقدمت على خطوات غير شعبية بالمرة ، من خفض حاد فى النفقات الحكومية ، وإستقطاع إمتيازات تمتعت بها فئات منذ فترة طويلة ، وكانت النتيجة سلسة من الإضطرابات ، بدأت فى فرنسا وإيطاليا مرورا باليونان ، وأسبانيا ، ولايقدر لها أن تنتهى . هل جاءت الوحدة الأوربية لتخدم الأوربيين أم أن الوحدة النقدية والعملة الموحدة تحديدا هى هدف فى حد ذاته ، يجب أن يقدم الأوربيون العاديون الغالى والرخيص لكى يتحقق .

هذا وقبل دخول العملة الأوربية الموحدة إلى طور التداول ستكون هناك ثلاث مراحل هى كالتالى :

– فى فبراير ١٩٩٨يعقد قادة الإتحاد الأوربى مؤتمرا فى هذا الشأن يتم فيه تحديد البلدان الأوربية التى ستتعامل باليورو إبتداء من أول يناير ١٩٩٩ وذلك إعتمادا على النتائج الإقتصادية التى حققتها الدول المرشحة فى عام ١٩٩٧ .
– مع بداية أول يناير ١٩٩٩ يتم التعامل " باليورو " كعملة نقدية فقط على مستوى المبادلات البنكية الداخلية والقروض بين الدول الأوربية .
– بحلول أول يناير ٢٠٠٢ تدخل عملة ورقية بأسم " يورو " للتداول .

المواطنة :

أن المواطنة الأوربية لن تلغ المواطنة المحلية فى أية دولة أوربية ، وقد أعتبرت رئيسة الوزراء البريطانية السابقة مارجريت تاتشر أن إلغاء الشخصيات الوطنية والقومية لصالح المواطنة الأوربية هو (نوع من الهراء) ذلك لأن الشخصيات القومية المستقلة عميقة الجذور فى القارة الأوربية .

يقول أحد المعلقين السياسيين الفرنسيين فى صحيفة "لوفيجارو" أن أوربا تمر حاليا بأزمة حقيقية ، وليس هناك مايدعو لإخفاء ذلك أو تمييعه ، وأسباب هذه الأزمة هو فشلها فى عدة ميادين أهمها .

– ميدان السلام : فمع نهاية الحرب الباردة ، وعودة الصراعات للظهور داخل القارة الأوربية ذاتها ، ظهرت أوربا فى صورة أكثر ضعفا مما كانت عليه فى

السابق ، والدليل المؤلم على صحة ذلك هو أن الأمريكيين هم الذين صنعوا السلام فى البوسنة ، وليست أوربا ، والأوربيون .

– ميدان الرخاء : فمع ٢٠ مليون عاطل بات واضحا أن أوربا تمر بأزمة إجتماعية وإقتصادية خانقة .

– ميدان الأمن الداخلى : فالمخدرات والجرائم المنظمة ، وإستغلال المهاجرين إستغلالا سيئا ، كل ذلك جعل المواطنين يشعرون بأن أوربا هى سبب ظهور كل هذه الأمراض الإجتماعية المركبة .

محطات رئيسية فى مسيرة الوحدة الأوربية

١٩٤٤ توقيع إتفاقية البنلوكس (هولند – بلجيكا – لوكسمبرج)	١٩٧٣ السماح للمملكة المتحدة والدنمارك وأيرلند بعضوية الجماعة الإقتصادية (الأعضاء ٩)
١٩٤٧ مشروع مارشال لإنقاذ أوربا	١٩٧٩ الإنتخابات الأولى للبرلمان الأوربى (لأعضاء ٤١٠) يجتمع فى ستراسبورج
١٩٤٨ منظمة التعاون الإقتصادى الأوربية (OEEC)	١٩٨١ السماح لليونان بعضوية الجماعة الإقتصادية الأوربية (العدد ١٠)
١٩٤٩ ظهور المجلس الأوربى	١٩٨٦ السماح لأسبانيا والبرتغال بعضوية الجماعة الإقتصادية الأوربية (١٢)
١٩٥١ توقيع إتفاقية جماعة الفحم والصلب (ECSC)	١٩٩٠ توقيع أربعة وثلاثين عضوا على ميثاق باريس لمؤتمر الأمن والتعاون الأوربى
١٩٥٧ توقيع إتفاقية الجماعة الإقتصادية الأوربية (روما) للفعالية منذ عام ١٩٥٨ وعرفت أيضا بالسوق المشتركة (عدد الأعضاء ٦) EEC	– دخول ألمانيا الشرقية كجزء من ألمانيا الموحدة فى الجماعة الإقتصادية الأوربية .
١٩٥٧ توقيع معاهدة الجماعة الأوربية للطاقة النووية (EURATOM)	١٩٩٢ إتفاقية ماستريخت للإتحاد الأوربى فى التسعينيات
١٩٥٩ رابطة التجارة الحرة الأوربية (EFTA)	١٩٩٣ بدأت فعالية السوق الأوربية الموحدة (الإتحاد الأوربى EU)
١٩٦٨ إلغاء الحواجز الجمركية بين دول السوق المشتركة	١٩٩٥ حصول النمسا والنرويج والسويد على عضوية الإتحاد الأوربى (العدد ١٥)

أوربا الغربية عماد الوحدة الأوربية

سمات عامة :

رغم إختلاف المساحات ، وأعداد السكان والحالة الإقتصادية ، فإن هناك مايجمع بين الدول السبع بريطانيا ، فرنسا ، وألمانيا ، وبلجيكا ، لوكسمبرج ، وهولند ، هناك ماتشترك فيه جميعا ، وتتميز به عن غيرها ، فهى مما يمكن أن يطلق عليه أوربا الغربية ، لأن موقعها الجغرافى قد لعب دورا كبيرا فى تاريخ كل منها على حدة ، ولازال يؤثر على علاقاتها وإتجاهاتها ، وحتى لوكسمبرج رغم أنها دوقية صغيرة داخلية ، فإن إرتباطها الإقتصادى ببلجيكا جعلها تطل على البحر من النافذة البلجيكية .

ويتميز الإقليم رغم صغر مساحته بتنوع فى ظروفه الطبيعية ، فهناك الأراضى السهلية الخصبة إلى جانب المرتفعات الوعرة المغطاة بالغابات النفضية والمخروطية ، وإذا كان هناك تنوع ثقافى ناتج عن الإختلاف اللغوى والدينى ، فإن هذه اللغات والمذاهب الدينية ترجع إلى أصول واحدة أو متقاربة ، فضلا عن أن الوعى القومى خفت حدته منذ الحرب العالمية الثانية ، وزيادة التجارة والإتصال بين هذه الدول ، وإشتراكها جميعا فى مشكلة الدفاع عن أراضيها ضد الخطر السوفييتى ، كل ذلك مما قرب بينها .

ويجمع هذه الدول معا وضعها البحرى ، قد يقال أن إسكندينا وأسبانيا والبرتغال لها نفس الأوضاع البحرية ، ولكن التجارة البحرية لهذه الدول البحرية أقل بكثير من تجارة هذه المجموعة ، وإن كانت ألمانيا أيضا لها ساحل شمالى ، أستغل إستغلالا تاما ، فإن نشاطها وطاقاتها موزعة بين مصالحها البحرية ومصالحها البرية وذلك لموقعها الجغرافى فى وسط أوربا . على العكس من ذلك نجد بريطانيا ، وفرنسا وهولند وبلجيكا قد إستغلت موقعها كجسر فى نهاية كتلة اليابس الأوراسى لا لتصبح من الأمم التجارية الكبرى فحسب ، بل لتمثل أكبر أربع قوى إستعمارية كبرى .

التجارية لهذه الدول هو ثبات الأهمية النسبية لها فى التجارة الأوربية خلال القرن العشرين ، فهى معا كانت المسئولة عن نصف حركات الصادرات والواردات للقارة بإستثناء الإتحاد السوفييتى السابق .

على أننا لابد وألا نعزو هذا إلى الموقع الجغرافى وحده ، بل يجب أن ندخل فى الإعتبار أيضا التقدم الصناعى والمهارة البشرية .

وكان الفحم أساس المدنية الصناعية التى قامت فى الإقليم سواء لتوليد البخار أو لصهر الحديد . من ثم كانت المملكة المتحدة وفرنسا وبلجيكا وألمانيا من رواد الثورة الصناعية فى أوربا ، لأنهم رواد إستخدام التكنيك الجديد على نطاق كبير ، ثم بدأت هذه الدول فى تطوير إستخدام الطاقة بإستعمال البترول ، ولذلك إنتشرت مصافى البترول فى موانيها ، معتمدة على بترول الوطن العربى فى المرتبة الأولى ، وبترول البحر الكاريبى فى المرتبة الثانية ، وأخيرا بترول بحر الشمال ، لذلك أيضا رسخت التقاليد الصناعية فى أوربا الغربية وبدأت بعض مناطقها تتخصص فى صناعة أو أخرى ، بل وكانت أوربا الغربية هى المشتل الذى خرجت منه شتلات الصناعة إلى جهات كثيرة من العالم ، حتى الولايات المتحدة الأمريكية .

وكان من بين النتائج السريعة لعملية التصنيع فى أوربا الغربية ، عملية تغير فى الأساليب الزراعية ، لقد وصل الإنتاج الزراعى الأوربى إلى الذروة الأولى مع مطلع الثمانينيات ، وأصبح يغطى أكثر من ٨٥٪ من الإستهلاك الأوربى ، ووصل الدعم المالى الرسمى للمنتجات الزراعية إلى أكثر من ٢٢ مليار مارك فى الميزانية الأوربية .. ورغم ذلك إستمرت سياسة تصعيد الإنتاج ودعم الأسعار حتى وصل الدعم المالى السنوى حاليا إلى حوالى ٦٦ مليار مارك وبلغ حجم الإنتاج مايعادل ١٢٥٪ من الإستهلاك الأوربى المحلى .

ولم تحمل فرنسا أعباء السياسة الزراعية الأوربية فقط ، بل حصلت على ميزاتها الرئيسيةأيضا ، وهى فى الوقت الحاضر دولة صناعية لايمثل القطاع الزراعى سوى ٣,٥٪ من الناتج الإجمالى العام فيها ، ولكنها أصبحت فى الوقت نفسه فى المرتبة الثانية عالميا بين الدول المصدرة للمواد الزراعية بعد الولايات المتحدة الأمريكية ، وبفائض سنوى يتراوح بين ١٣ و ١٦ مليار مارك.

لقد كان من الأهداف الموضوعة رفع دخل الفلاح الأوربى (حوالى ١٢ مليون نسمة حاليا) لضمان مستوى معيشة له ، يقارب مستوى معيشة من يعمل فى القطاع الصناعى وغيره ، وإنخفض عدد المزارعين فى فرنسا إلى الثلث، وفى ألمانيا إلى النصف خلال العقدين الماضيين من السنوات ، ومع ذلك فقد إستمر تضخم الإنتاج الزراعى وإرتفاع قيمته ، وهذا ما أدى إلى تركيز الطاقة المالية والإقتصادية تركيزا مكثفا ضاعف مفعولها على الساحة السياسية بدلا من أن ينخفض نتيجة " التناقص العددى " .

لذلك كانت قيمة المستورد من موارد الطاقة والخامات الصناعية يفوق بكثير قيمة المستورد من المواد الغذائية ، ويرجع إلى عدم غنى بعضها بالمواد الخام اللازمة للصناعة بإستثناء الحديد والفحم . فلا تتوفر فيها مثلا الخامات غير الفلزية إلا بكميات قليلة ، كما تعانى هذه الدول من النقص الكبير فى زيت

البترول بإستثناء بريطانيا ، الذى لاتنتج منه إلا نحو ١٪ من الإنتاج العالمى ، وإن كان هناك رصيد من الغاز الطبيعى فى بعضها .

وظلت فيها نسبة إستعمال الألات عالية بدرجة لاتوجد فى جهة أخرى فى العالم إذا علمنا أن مساحة المزارع ليست كبيرة ، فبريطانيا وأيرلند هما الوحيدتان التى نجد نصف مزارعهما تزيد مساحته على ١٠ هكتار ، *بينما يتراوح ثلثى* المزارع بين الهكتار الواحد والعشر هكتارات فى فرنسا *والأراضى المنخفضة* ، وفى بلجيكا ٦/٥ المزارع أقل من ١٠ هكتارات . وصحبت عملية التصنيع أيضا الهجرة إلى المدن ، نقص سكان الريف ، وهذه ظاهرة أيضا فى أوربا الأطلنطية، فأكثر من نصف سكانها يعيشون فى مدن يزيد سكانها على المليون . ورغم أن زيادة معدلات السكان بوجه عام بدأت تسير ببطء مع نهاية القرن التاسع عشر ، فإن زيادة سكان المدن إستمرت ، حتى أن ايرلند هى الوحيدة التى يعيش أقل من نصف سكانها فى المدن . فسكان أوربا الغربية معظمهم مدنيين أكثر منهم ريفيين، مما يؤدى إلى خلق مشكلات معيشية تواجهها الحكومات المختلفة ، وهناك حقيقة أخرى تجمع سكان هذه المنطقة معا وهى إرتفاع مستوى المعيشة بوجه عام بينهم ، فرغم إرتفاع تكاليف المعيشة منذ إنتهاء الحرب العالمية الثانية، وإرتفاع معدلات الضرائب ، فإن سكان هذه المنطقة لازالت تغذيتهم وسكنهم أكثر جودة من بقية سكان القارة ، فهم قريبون من سكان كندا أو الولايات المتحدة . ويزيد إستهلاكهم اليومى من البروتين الحيوانى بعامة على ٢٥ ، ٣٠ جرام، وهو الرقم الذى وضعه الخبراء كحد أدنى لإحتياجات الفرد اليومية . نحن إذن أمام مجموعة من الدول الأوربية تتجمع فيها مزايا إقتصاديةكثيرة ، كما أنها حققت مستويات إجتماعية وحضارية عالية .

كذلك يلاحظ عليها إستقرار نظم الحكم ، ففرنسا ، وألمانيا ، وايرلند جمهوريات ، والمملكة المتحدة ، وبلجيكا ، وهولند ملكيات دستورية ، ولكسمبورج دوقية كبيرة ، وقد وصلت كل دولة منها إلى أوج نموها ، وأصبحت نظمها تحتذى فى جهات أخرى من العالم ، كما بدأت طريق الوحدة الإقتصادية ، وقد لايمر وقت طويل على وحدتها السياسية . لتقف أمام الخطر الشيوعى .

وتتشابه هذه الأقطار أيضا فى طريق التنمية الإقتصادية ، وفى تجارتها الخارجية ونظمها الدستورية ونظمها الحكومية ، والأهم من هذا أيضا فى مصالحها سواء الإستراتيجية أو التجارية . إذا إستثنينا لوكسمبرج فكلها لها مصالح عالمية ، ورغم الفروقات الفردية بينها فإن أوجه الشبه بينها كبير .

وبريطانيا ، وفرنسا ، وهولند وبلجيكا وألمانيا لها علاقات عالمية ، وذلك لأنها كانت قوى إستعمارية ، وكانت الثلاثة الأولى من أوائل الدول المكونة للإمبراطوريات ، وأدى هذا إلى تقارب المصالح فيما بينها . بدأت هولند هذا

النشاط الإستعمارى ، ثم إستمرت عليه مملكة بلجيكا وهولند (١٨١٥- ١٨٣٩) ولكن بعد ١٨٣٩ بدأت كل من بلجيكا وهولند يسير كل منهما فى إتجاهه الخاص. وحاولت ألمانيا بناء إمبراطورية إستعمارية ، ولكن خاب رجاؤها بعد أن خاضت حربين عالميتين ضروستين .

وأخيرا يمكن أن نجد عاملا مشتركا يتمثل فى أن كل من هذه الدول إستنزفت أموالا وقوى بشرية كبيرة فى محاولة للإحتفاظ بقواها الإستعمارية .

ولاننسى أن التنافس الحاد بينها أثناء الفترة الإستعمارية أدى إلى إصطدامها بعضها ببعض ، فرنسا أيام نابليون فى القرن التاسع عشر ، وألمانيا تحت حكم هتلر فى القرن العشرين ، كل منها حاول بسط نفوذه على أوربا ، وعلى الجانب الآخر بريطانيا التى يهمها ألا تقع أوربا تحت سيادة دولة واحدة ، كان عليها أن تدخل الحرب للحيلولة دون ظهور هذه السيادة الوحيدة على أرض القارة ، وإلا جاء دورها فى الخضوع لهذه السيادة ، من ثم إذا كانت العوامل الإقتصادية تعمل على التجاذب ، كانت العوامل السياسية تؤدى إلى التنافس ، وظلت الروح القومية لها قوتها وتأثيرها فى الشئون الأوربية .

ومن الواضح أن تقسيم القارة الأوربية أضاع عليها فرصة بقاء مكانتها فى الشئون العالمية ، فلم يحدث منذ الإمبراطورية الرومانية أن توحدت بريطانيا وايبريا وإيطاليا مثلا تحت حكم حكومة واحدة.

بيان مقارنة للثلاثة الكبار فى الإتحاد الأوربى (معظمها ١٩٩٤)

البلد	السكان (مليون)	المساحة ألف كم٢	الناتج المحلى بالألف دولار للفرد	٪ + ٦٤سنة	٪ العاملون بالزراعة	٪ الحضر	نصيب الفرد من إنتاج الصلب كجم	عدد السيارات لكل ١٠٠٠من السكان
ألمانيا	٨١,١	٣٥٦,٩	١٤,٥	١٥	٤,٤	٨٥	٦٠٣	٤١٥
المملكة المتحدة	٥٨	٢٤٤,٩	١٣,٧	١٦	١,٩	٩٠	٣٢٨	٣٦١
فرنسا	٥٧,٧	٥٥١,٥	١٤,٢	١٤	٥	٧٣	٣٣٤	٣٩٩

الفصل الرابع : ألمانيا - فرنسا - المملكة المتحدة - اليابان

١ - ألمانيـــــــا

إن الفاحص لمجموعة من الخرائط التاريخية لألمانيا خلال النصف قرن الماضى حتى وقتنا الحاضر ، ليسترعى نظره تقلص حجم وحدة سياسية تعتبر من أقوى دول وسط أوربا صناعيا وحربيا ، وأكثرها عدوانا ، فمن مساحة بلغت ١٨١,٦٩٣ ميلا مربعا قبل الحرب العالمية الثانية إلى قطر مقسم ، أكبر أجزائه ألمانيا الغربية بمساحة تبلغ نحو ٩٥ ألف ميل مربع ، وبعدد من السكان يبلغ نحو ٥٥ مليون نسمة .

وفى الحق ليس هناك أصدق من تعبير طفل (طفل أوربا الناشز) الذى أطلق على ألمانيا بسبب ماسببته من مشكلات للقارة الأوربية وللعالم ، والواقع أن الحربين العالميتين التى مر بهما العالم فى النصف الأول من القرن العشرين يرجع إلى عدم رضاء ألمانيا عن وضعها بالنسبة للقوى الإستعمارية الأخرى (فرنسا وبريطانيا) ، وقبل ذلك لم تستقر حدود ألمانيا على وضع معين منذ أن تمت وحدتها . بل وقبل الإتحاد النهائى نجد أن الدويلات الألمانية بقيادة بروسيا تشن حربا على فرنسا وتدحرها (١٨٧٠/ ١٨٧١) ، وهى منذ ذلك التاريخ ، أقوى سياسيا وإقتصاديا من أى من الدول المجاورة ، وأدى هذا إلى حصول ألمانيا على مزايا عديدة فى تصريف إنتاجها الصناعى الضخم فى أسواق الدول المجاورة ، وبصفة خاصة هولند ولوكسمبرج والنمسا وسويسرا ، وإستطاعت فى نفس الوقت الحصول على كثير من السلع كمنتجات الألبان والخضروات والفاكهة والحبوب والحديد الخام .

العلاقات المكانية :

ولعل خريطة الموقع الجغرافى لألمانيا فى وسط أوربا توضح سر الصراع بين الشرق والغرب فى المنطقة ، فألمانيا فى الحقيقة مفتاح غربى أوربا من ناحية الشرق ، كما كانت فى الماضى تمثل حدودها الشرقية حدود السلاف ، وقبل عام ١٩٨٩ كانت تمثل حدود الكتلة الإشتراكية ، من ثم كانت ألمانيا أرض المعارك بحق إذا ما نشب صراع بين الكتلتين المتضادتين ، ويذهب الجغرافيون إلى أن هذا الموقع ليس فى صالح الألمان لوقوعهم فى وسط أوربا ، على تخوم الشرق والغرب ، حيث تختلف المبادئ وتتصارع المذاهب مع عدم وجود حماية طبيعية لها . ورغم أن ألمانيا كانت فيما مضى قوة حربية ضخمة ، ودولة عدوانية ، ورغم أن ألمانيا لاتستطيع الوقوف وحيدة بمفردها ، إلا أنها عادت مرة أخرى لتصبح القطب المغناطيسى الأوربى .

وكان لإحتلال ألمانيا موقعا مركزيا أثاره المتباينة عليها ، فوقوع القسم الشمالى كجزء من السهل الأوربى الأعظم جعله فى مركز وسط بين شرق وغرب القارة ، وأدى هذا إلى عبور الهجرات المختلفة عبر هذا القسم دون حاجز أو عائق يحول دون هذا التوغل ، كما أدى إلى إجتياح العناصر الألمانية للمنطقة، من شرق أوربا وغربها ، وإستمر الصراع فترات طويلة بين العناصر الجرمانية والعناصر السلافية ، ويبدو هذا النزاع فى تقسيم بولند عدة مرات وعدم إستقرار الحدود بينهما . وإنتشرت العناصر الألمانية خارج حدود ألمانيا بأعداد كبيرة ، تعيش فيها على هيئة أقليات كبيرة . ولايخلو موقع ألمانيا من مزايا : فهى على إتصال وثيق ، بمظاهر التقدم العلمى والفنى والسياسى الذى ينمو فى أى قطر من جيرانها ، كما أن سواحلها وموانيها الشمالية تعد منفذا لدول وسط أوربا ، ولذلك فقد ساهمت هذه البلاد بنصيب كبير فى تجارة المرور لبعض دول وسط أوربا كتشيكوسلوفاكيا والمجر والنمسا . وإذا كانت الدنمارك تتحكم فى بحر البلطيق ومخارجه ، فإن ألمانيا لم تأبه للدنمارك ولم تخشاها . غير أن موقع ألمانيا فى نفس الوقت يحسب عليها أيضا لأن معنى الموقع المركزى تعدد جبهات الحرب بالنسبة لها كما حدث فى الحرب العالمية الثانية ، حينما كان على ألمانيا أن تدافع عن حدودها من الشرق ومن الغرب ومن الجنوب .

قوة ألمـــــــانيا

الواقع أن قوة ألمانيا العسكرية ترجع إلى عاملين رئيسيين هما : قوتها الإقتصادية وزيادة سكانها .

القوة الإقتصادية

أما من حيث قوتها الإقتصادية ، فهى لم تصل إليها إلا بعد مجهودات كبيرة ، وبعد التغلب على كثير من العقبات . ففى ميدان **الإنتاج الزراعى** نجد أن تربات ألمانيا إما متوسطة الخصوبة أو فقيرة ، ولكن إستطاع الألمان الحصول منها على إنتاج زراعى جيد بحيث إقتربت البلاد من حالة الإكتفاء الذاتى . وتحقيق مثل هذا الإنتاج الكبير من مثل هذه التربات يعتبر فخرا للألمان بفضل إستعمال الأسمدة الصناعية نتيجة لنمو الصناعات الكيماوية . وإذا كان الشيلم والشوفان والبطاطس هى الغلات الرئيسية للسهل الألمانى الشمالى ، فإن القمح والبنجر تزرع على أطرافه الجنوبية ، بينما تزرع الفواكه وبصفة خاصة الكروم فى أقصى الجنوب . وتهتم ألمانيا بتربية الماشية إهتمامها بالزراعة بحيث أصبحت أولى الدول الأوربية فى تربية الخنازير بإستثناء الإتحاد السوفييتى . وتأتى فى المرتبة الثانية بعد فرنسا فى أعداد الأبقار ، وتخصص لها الأقاليم الشمالية السيئة الصرف والتى لاتصلح للزراعة ، وكذلك الحال فى المرتفعات الجنوبية الوعرة .

وتأخرت الثورة الصناعية فى ألمانيا ، وبدأت بنمو الخطوط الحديدية فى الأربعينات من القرن التاسع عشر ، فضلا عن تطور الصناعات المعدنية الثقيلة فى حوض الروهر فى الخمسينات من ذلك القرن . ولم تتركز الصناعات الألمانية التركز الشديد الذى شاهدته الصناعة البريطانية نظرا لتسهيلات النقل الحديدى ووفرة موارد الماء الجيد . وأمكن لهذه المراكز الصناعية المنتشرة أن تحصل على خاماتها وفحمها بواسطة النقل المائى والبرى ، وزاد هذا الإنتشار والتشتت الصناعى فى القرن العشرين نتيجة إمكان نقل الكهرباء حتى إلى أبعد قرى الفوج والغابة السوداء .

وتضم ألمانيا موارد وفيرة من الفحم ، بل يعتبر الفحم أكثر مواردها المعدنية ، وأعظم تكوينات الفحم البيتومين هى تكوينات الروهر التى يمكن لمناجمها أن تعطى نحو ١٢٠ مليون طن من الفحم سنويا ، كذلك توجد تكوينات فحم اللجنيت فى ساكسونى أى فى جنوب ألمانيا ، وإذا كانت ألمانيا فقيرة فى مواردها الحديدية فإنها تستورده من فرنسا والسويد وأسبانيا وشمال أفريقية ، ويأتيها الحديد عن طريق موانى بحر الشمال وموانى هولند ، من ثم قامت مصانع الحديد والصلب على ضفاف الراين والمناطق المتاخمة له .

وقد قامت قوة ألمانيا الصناعية معتمدة على صناعة الحديد والصلب الضخمة التى تتركز معظمها فى حوض الروهر الذى يحتل فى الإقتصاد الألمانى مكانة أعظم بكثير من مساحته الصغيرة ، وكانت هذه المنطقة هى المركز الرئيسى لإمداد ألمانيا بالأسلحة والذخائر والحديد والصلب اللازم لبناء الأساطيل ووسائل النقل الحربى والسلمى . فهى المركز الرئيسى للصناعات الثقيلة بل هى بحق ترسانة ألمانيا ، يليها فى الأهمية منطقة ساكسونى الواقعة فى جنوب شرقى ألمانيا وتتنوع فيها الصناعات وخاصة الأنواع الخفيفة التى تتطلب مهارات كالأجهزة الإلكترونية ، والعدسات ، فضلا عن الخزف ، والمنسوجات القطنية، والصوفية . وهناك مناطق صناعية متعددة خارج المنطقتين السابقتين ، لعل أهمها تلك المدن الصناعية الواقعة فى أعالى الراين وعلى رافديه المين ونيكر .

وخشيت كثير من الدول هذه القوة الإقتصادية ، فخلال الثلاثينات كانت ألمانيا قد بسطت نفوذها الإقتصادى على كثير من دول جنوبى أوربا ، كما نمت تجارة ألمانيا مع أمريكا اللاتينية والشرق .

السكان

وكان عدد السكان الكبير من عناصر قوة ألمانيا أيضا ، سواء للحصول على الأيدى العاملة أو لحاجة الجيش ، ذلك أن ألمانيا تعتبر من أقطار العالم ذات الكثافة العالية . وقد بلغ سكان ألمانيا الغربية عام ١٩٦٠ نحو ٥٥ مليون نسمة

بينما بلغ سكان فرنسا أكبر دولة مجاورة ٤٧ مليون نسمة ، والآن بعد توحيد الألمانيتين بلغ عدد سكان الألمانيتين ما يزيد على ٨١ مليون نسمة ، على حين بلغ عدد سكان فرنسا ٥٨ مليون نسمة عام ١٩٩٥ . وقد عمد النازيون قبل الحرب الثانية على الإكثار من النسل ، وأعتبروا هذا من أقدس الواجبات المفروضة على كل ألمانى . وتحقيقا لهذه الغاية فرضوا الضرائب على غير المتزوجين من الرجال ، ومنحوا الإعانات المالية لأصحاب الأسر الكبيرة ، بل وإهتموا بتحسين النسل عن طريق الدراسات الطبية ، والحد من النسل غير المرغوب فيه ، كما كان ينظر إلى زواج الألمانى من إحدى بنات عنصر آخر وخاصة من المرأة اليهودية على أنه جريمة ضد الدولة . ويتميز الألمان بظهور روح قومية أساسها الأول هو اللغة الواحدة والثقافة الواحدة . والواقع أن القومية الألمانية بهذا الشكل تنتشر خارج حدود ألمانيا ، نتيجة لموقع ألمانيا كمعبر للهجرات ، وكدولة تنقصها الحدود الطبيعية الواضحة فضلا عن تغير حدودها السياسية مرارا فى تاريخها الحديث ، مما أدى إلى إنتشار العنصر الألمانى خارج هذه الحدود أو تلك . ولذلك لم تقترن ألمانيا فى ذهن الألمان بوطن معين محدد بحدود طبيعية ، بل إرتبطت القومية الألمانية فى ذهنه وإنتمائه لشعب من أصل واحد ذو ثقافة واحدة . ومن ثم قامت فكرة ضم العناصر الألمانية جميعا فى دولة واحدة ، وكان هذا أحد الأسس التى إعتمد عليها الألمان فى دعامتهم للحرب .

وكانت زيادة السكان والبحث عن مجال حيوى هى الأساس الثانى الذى إعتمدت عليه السياسة الألمانية فى التوسع الخارجى . وفى هذا قال هتلر أيضا فى إحدى خطبه " لقد ظلت إنجلترا هذه ثلاثمائة عام وهى تسير فى أعمالها مجردة من كل مظهر من مظاهر الفضيلة ، والآن وقد إستكملت نضجها نراها تحدثنا عن الفضيلة ، لقد إستطاع الستة والأربعون مليونا من الإنجليز ، فى الفترة التى عاشوا فيها مجردين من كل معنى من معانى العدالة ، أن يخضعوا لسلطانهم مايقرب من ربع مساحة العالم كله ، على حين أن الثمانين مليونا من الألمان قد كتب لهم أن يعيشوا من أجل فضيلتهم مكدسين ، كل مائة وأربعين منهم ، فى كيلو متر مربع واحد " .

نمو ألمانيا كوحدة سياسية

تأخرت الوحدة السياسية فى ألمانيا عن فرنسا أو إنجلترا ، فقد تكون إتحاد ألمانى عام ١٨١٥ (فى مؤتمر فيينا) يشمل الولايات الألمانية والنمسا ، وكانت السيادة فيه للنمسا ، ولكن فى نفس الوقت كانت إمارة بروسيا التى تحتل معظم شمال شرق ووسط ألمانيا تمثل قوة متحدية للنمسا فى وسط أوربا ، ثم بدأ الإتحاد النمساوى الألمانى فى الإنحلال بعد عقود من مؤتمر فيينا لتضم بروسيا الولايات

الألمانية تحت جناحها ، فقد أدى دهاء بسمارك إلى توحيد ألمانيا الجنوبية فى دولة واحدة عام ١٨٧١ ، وتوج على رأسها ملك بروسيا إمبراطورا باسم وليم الأول .

وكخطوة أولى نحو الوحدة بدأت بروسيا بالإتحاد الجمركى **Zollverin** عام ١٨٣٣ الذى إتجه بالولايات الألمانية نحو وحدة إقتصادية خرجت منها النمسا ، ثم كانت الخطوة الثانية بمهاجمة بروسيا للدانمرك ، وبدأت ولايات أخرى فى الإنضمام إلى بروسيا ، ثم بعد ذلك شنت بروسيا حرب أخرى كانت هذه المرة ضد النمسا ، وهبت مرة أخرى الولايات الألمانية لمساعدة بروسيا ، وإنتهت الحرب بهزيمة النمسا وحل الإتحاد النمساوى الألمانى القديم وتكون إتحاد جديد بزعامة بروسيا ، وقامت بروسيا بحرب أخرى ضد فرنسا عام ١٨٧٠ ، وإشتركت الولايات الألمانية للمرة الثالثة فى غضون ثلاث سنوات وهزمت فرنسا فى بحر شهور ، وبعد هذه الحرب قررت الولايات الألمانية الوحدة السياسية تحت زعامة بروسيا .

التوسع الألمانى بعد الوحدة

عملت ألمانيا بعد وحدتها على بناء قوتها الإقتصادية فى أوربا ، وبدأت محاولات للتوسع السياسى والإقتصادى ، فتقدمت فى ميدان التصنيع بسرعة ، كما زاد سكانها من ١٤ مليون نسمة عام ١٨٧١ إلى ٦٥ مليون نسمة عام ١٩١٤ ، وكان نمو الإنتاج الزراعى والتجارة الخارجية والتسليح مسايرة لهذه الزيادة .

وتحركت ألمانيا بسرعة عبر البحار لتنمية مستعمرات فى المحيط الهادى وأفريقية ، وفى أواخر القرن التاسع عشر (١٨٨٠) كان هناك توطن للألمان فى أفريقية ، وسرعان ماأعترفت الدول الكبرى بالمستعمرات الألمانية فى جنوب غربى أفريقه وتوجو والكمرون وشرقى أفريقيه الألمانى (تنجانيقا) . وضمت فى المحيط الهادى الأجزاء الشمالية من نيوغينيا وجزر سولمون ، من ثم كانت تمثل الإمبراطورية الثالثة بعد بريطانيا وفرنسا ، وذلك بعدما يقرب من خمسة عشر عاما فقط من وحدتها السياسية .

ودخلت ألمانيا مع النمسا والمجر وبعض دول الوسط الحرب عام ١٩١٤ ضد فرنسا وبريطانيا وحلفائهما ، وسلمت دول وسط أوربا بعد أربع سنوات . وكانت هزيمة ألمانيا فى تلك الحرب أول ضربة للألمان وأول وقف لتوسعهم ، بل على العكس إقتطعت أجزاء منها ضمت إلى الدول المجاورة ، كما آلت ممتلكاتها عبر البحار إلى الإنتداب البريطانى والفرنسى وإلى بلجيكا واليابان وغيرها .

التوسع الألمانى الهتلرى : ١٩٣٩/ ١٩٤٥

لقد عانت ألمانيا لاشك من تسويات الحرب الأولى خاصة ، وأنه لم تكن هناك معونات إقتصادية عقب الحرب العالمية الأولى كما حدث عقب الحرب العالمية الثانية ، وتولى هتلر الحكم عام ١٩٣٣ ، وقد إزداد الشعور بالسخط على تسويات الحرب الأولى ، وبعد الأزمة العالمية الإقتصادية ، فوضع برنامج إحياء قوة ألمانيا الإقتصادية والعسكرية وإستعادة الأقاليم الألمانية المقتطعة ، ولم يكن فى حاجة إلى جهود كبيرة لجمع الألمان حول آرائه بفضل دعاية الحزب الإشتراكى النازى .

وكانت أول الأقاليم التى إنضمت هو السار عندما صوت سكان السار للإنضمام إلى ألمانيا بنسبة ٩ : ١ عام ١٩٣٥ ، وفى العام التالى بدأت ألمانيا فى تسليح أراضى الراين وكان محرم تسليحها بموجب معاهدة فرساى ، ولم يجد الألمان معارضة من جانب الحلفاء مما شجعهم على التوسع . ولذلك إحتلت القوات الألمانية النمسا فى فبراير ١٩٣٨ بحجة توحيد ألمانيا والنمسا Ansclus وإستطاع الألمان إثارة الأقليات فى الدول المجاورة بحجة توحيد وضم الأراضى الألمانية إلى ألمانيا . وضمت ألمانيا إقليم السوديت فى تشيكوسلوفاكيا ، وكان به أقلية ألمانية بلغت نحو ثلاثة ملايين فى نهاية عام ١٩٣٨ ، وبدأت مطالبة بولند بدانزانج والممر البولندى ، وإستمر بعد ذلك التوسع الألمانى ، ففى مارس عام ١٩٣٩ إحتل هتلر معظم تشيكوسلوفاكيا ، وإستعادت ألمانيا ممر من ليتوانيا , وبذلك أصبحت ألمانيا فى يونية عام ١٩٣٩ تضم نحو ٨٦ مليون نسمة ، ثم طالب الألمان بضم غرب بولند إليهم وحينئذ بدأت فرنسا وبريطانيا تعارض ألمانيا، وأيدتا بولند فى رفضها لمطالب الألمان ، وغزت قوات الألمان بولند فى أول سبتمبر ١٩٣٩ وبعد يومين من هذا الغزو أعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على ألمانيا .

تقسيم ألمانيا عقب الحرب الثانية

كان لموقع ألمانيا فى وسط أوربا أثره فى تعدد جبهات الهجوم عليها فزحف الروس من الشرق وزحف الإنجليز من الغرب والأمريكيون من الجنوب ، وبذلك إحتلت القوات الإنجليزية والأمريكية ماعرف باسم ألمانيا الغربية ، وإحتل السوفيت مايعرف بألمانيا الشرقية ، وفى يونية ١٩٤٥ عقد مؤتمر بين قوات الإحتلال ، وتم الإتفاق فى هذا المؤتمر على تفاصيل سحب القوات الإنجليزية والأمريكية من بعض المناطق المخصصة للروس . كما تم الإتفاق على ضمان وصول الأمريكيين والفرنسيين والإنجليز إلى برلين وممارسة حقوقهم فيما يتعلق

بالمساهمة فى إدارة الشئون المدنية ، وعقد مؤتمر بوتسدام سنة ١٩٤٥ بين الأقطاب الثلاثة وإتفق على تقسيم ألمانيا إلى الأقسام التالية :

١- منطقة الإحتلال الروسية وشرق ألمانيا يخضع للحكم البولندى ، وتضم هذه المنطقة أكثرمن ثلث سكان ألمانيا قبل الحرب ، وأكثر من نصف أراضيها الزراعية . وكان هذا الجزء يصدر المواد الغذائية إلى مايعرف بألمانيا الغربية . فكان يزيد عن حاجتها ثلث الإنتاج من الشيلم ، وربع الإنتاج من الشعير وخمس الإنتاج من القمح والشوفان ، وثلث الإنتاج من البطاطس ، كما تشمل هذه المنطقة منطقة فحم سيليزيا ومنطقة سكسونيا . وكان هذا الجزء يعتمد فى الحصول على الآلات والصلب من المناطق الغربية . وقد منحت بولند فى هذا القسم الأراضى الواقعة حتى نهر الأودر ، كما منحت أيضا الجزء الجنوبى من بروسيا الشرقية (سابقا) . وأسس الروس فى منطقة إحتلالهم نظاما جديدا يرأسه الألمان تحت إشراف السوفييت . وإتجهت روسيا بألمانيا الشرقية نحو الكتلة الشرقية فى معاملاتها الإقتصادية ثم أعلنت قيام جمهورية ألمانيا الديموقراطية الشرقية فى أكتوبر سنة ١٩٤٨ .

وتقرب مساحة ألمانيا الشرقية نحو نصف مساحة ألمانيا الغربية وبها نحو ثلث سكانها ، وهى دولة زراعية فى المرتبة الأولى ، تنقصها مقومات الصناعة الثقيلة، ولكن مع هذا يمكن القول بأن تكوينات اللجنيت والبوتاس والأملاح الكيماوية الأخرى فى ألمانيا ماقبل الحرب تتركز فى ألمانيا الشرقية ، فضلا عن بعض الفحم ، مما يكون أساسا للصناعات الكيماوية ، فألمانيا الشرقية هى المنتج الثالث للبوتاس فى العالم بعد الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا الغربية ، كما إكتشف اليورانيوم وبدأ إستغلاله تحت إشراف الإتحاد السوفييتى .

٢- أما القسم الغربى فى ألمانيا فهو الذى عرف بألمانيا الغربية أو الفيدرالية . وكانت منطقة الإحتلال الأمريكى فى جنوب ألمانيا ومركزها إقليم بافاريا ، وتتخذ ميناء برمن الذى يقع فى المنطقة البريطانية منفذا لها . وكان هذا الإقليم بوجه عام يعتمد لسد حاجاته فى المواد الغذائية على الإستيراد من الخارج . وقد لعب الدولار الأمريكى دورا كبيرا فى إنعاش هذه المنطقة .

وأما منطقة الإحتلال البريطانى فكانت فى شمال غرب ألمانيا غرب نهر الألب وتشمل إقليم الروهر وشمال وستفاليا وشمال الراين . ومعنى هذا أنه يضم أعظم أقاليم ألمانيا الصناعية . وهذا الإقليم وإن كان غنيا بالإنتاج الصناعى ، إلا أنه يعتمد على الخارج فى سد حاجته من المواد الغذائية .

وأما منطقة الإحتلال الفرنسى فكانت جنوب غربى ألمانيا ، وهذا الإقليم يمكنه أن يسد حاجة سكانه الغذائية وتتركز الصناعة فيه فى حوض السار الذى تحدثنا عنه .

هذه الأقسام الثلاثة ـ الفرنسية والإنجليزية والأمريكية تم توحيدها عام ١٩٤٩ فى دولة واحدة هى جمهورية ألمانيا الغربية الإتحادية ومركزها بون . وأصبحت مستقلة تماما ذات سيادة فى مايو ١٩٥٥ مع بقائها ضمن الكتلة الغربية ، وظلت فيها قوات الحلفاء بمقتضى تحالف بينها وبين الدول الغربية . فقد ثار الإتحاد السوفييتى على الكتلة الغربية لأن هذا يناقض إتفاقية بوتسدام الخاصة بعدم إحياء ألمانيا عسكريا وضرورة نزع سلاحها وإعادة ترتيبها سياسيا . بل أن وزير مالية الولايات المتحدة كان قد إقترح مشروعا فى مؤتمر يالتا لجعلها دولة زراعية ، وذلك بحرمانها نهائيا من مصانعها وحديدها وفحمها .

النمو الإقتصادى لألمانيا الغربية

نما الإقتصادو الألمانى ، وبصفة خاصة قطاعه الصناعى حتى أصبح يشار إلى نمو الصناعة فى ألمانيا الغربية على أنه " أعجوبة الإقتصاد الألمانى " ذلك أن الصناعة الألمانية نمت نموا سريعا ، فقد إزداد الإنتاج الصناعى الألمانى بمعدل يزيد على ٩٠٪ بين عامى ١٩٥٠ ، ١٩٦٠ ، وإحتلت ألمانيا مكان الصدارة بين دول غربى أوربا ، ولم يعادلها فى هذا النمو من الدول الصناعية سوى الإتحاد السوفييتى واليابان .

ويرجع هذا النمو الصناعى إلى عدة عوامل ، منها المساعدة الأمريكة عقب الحرب الثانية ، وإن كانت المساعدات التى تلقتها عقب تلك الحرب كانت أقل من تلك التى نالتها بريطانيا أو فرنسا . ويعتبر الإهتمام بالبحث العلمى عاملا آخرا ، كما يتميز الشعب الألمانى بإرتفاع قوته الشرائية نتيجة لإرتفاع الأجور وثبات الأسعار نسبيا ، ولايمكن أن ننكر فى هذا المجال الجهود الحكومية لتشجيع الصناعة والحوافز الفردية ، فقد أزالت الحكومة معظم الحواجز التى تقف أمام التجارة ، ووضعت حدا أقصى لضريبة الدخل قدره ٥٣٪ إذا قورن بالحد الأقصى للولايات المتحدة وهو ٩١٪ .

الصناعات الرئيسية

حيث توجد كنيسة يوجد كاهن ، وحيث توجد آلة يوجد الماني (مثل روسي).

تأتى الصناعات المعدنية والكهربائية فى مقدمة الصناعات الألمانية ، ونظرا لإرتباطها بصناعة الصلب وبأسواق التصريف ، فقد تركزت فى حوض الراين الأدنى والمدن الكبرى ، وتأتى صناعة وسائل النقل كمظهر من مظاهر التقدم الصناعى ، كما أصبحت ألمانيا الغربية المنتج الثالث للسفن فى العالم بعد اليابان والمملكة المتحدة ، ويبلغ نصيب ناقلات البترول وحدها نحو ثلث الإنتاج الألمانى الذى يتركز فى موانى الألب والفيزر ، وبخاصة فى موانى همبورج وبرمن وكيل. وإشتهرت ألمانيا بصناعة القاطرات فى إسن وبرلين . وكانت ألمانيا تتفوق على دول العالم أجمع فى صناعة الطائرات قبل الحرب العالمية الثانية ، ولكنها حرمت من هذه الصناعة عقب تلك الحرب ، غير أنها بدأت عملية تجميع من القطع المستوردة من الخارج .

وكانت ألمانيا أولى الدول الصناعية تطويرا للصناعات الكيماوية ، وقامت صناعة الأسمدة أول الأمر إعتمادا على البوتاس ، ثم تطورت صناعة الأصباغ الصناعية من أفران الكوك ، ثم صناعة كيماويات التصوير والأدوية ، وتتابع بعد ذلك تقطير الفحم والبترول مما أدى إلى نشاط صناعة المطاط الصناعى والبلاستيك وغيرها ، وتتركز الصناعات الكيماوية على طول وادى الراين حيث يقدم النهر وسيلة رخيصة للنقل ، وتعتبر لودفيجشافن **Ludwigshaven** ، وفرانكفورت **Frankfurt** ولفركوزن **Leverkusen** بالقرب من كولونى أهم مراكز صناعة الكيماويات ، بل أن كولونى ذاتها أصبحت مركزا لتكرير البترول.

وتعتبر كل من الشركات الثلاث الكبرى الألمانية (باير ، باسف ، وهوكست) أكبر بمقدار ٥٠٪ من أكبر مؤسسة أمريكية وهى (دى بون) .

ويعتبر حوض الروهر أهم مراكز الصناعات المعدنية الثقيلة ، فإذا كانت نواة الروهر تسودها الصناعات المعدنية الأولية ، فإن هذه النواة محاطة من الشمال والجنوب والغرب بالعديد من المدن التى تقوم فيها صناعة الآلات والمنسوجات وغيرها ، فهذا الإقليم ينتج نحو ٩٠٪ من صلب ألمانيا الغربية ، ومايقرب من كل الفحم البيتومينى ، ونحو ثلثى صناعاتها المعدنية الكاملة الصنع والنصف مصنوعة ، وتظهر إسن ودسلدورف ودورتمند كمدن رائدة فى هذا المجال .

شكل رقم (٥٥) : المراكز الصناعية فى ألمانيا



برلين :

إتفق الحلفاء على ضرورة تقسيم برلين فيما بينهم ، فقسمت برليـن فعـلا إلـى : الجزء الشرقى يدخل ضمن منطقة النفوذ السوفييتى . أما المنطقة الفرنسية فتشـمل الركـن الشـمالى الغربـى ، والمنطقـة الغربيـة هـى المنطقـة البريطانيــة والمنطقــة الجنوبية الغربية هى منطقة الولايات المتحدة . وبطبيعة الحال الجزء الغربى وهو مـاعرف بـبرلين الغربيـة . وقـد بنـت ألمانيـا الشـرقية سـورا بيـن برليـن الشـرقية والغربية ، ذلك السور الذى حطم عام ١٩٨٩ وإنسابت عبره الحركة البشرية مـن الشرق إلى الغرب .

الوحدة الألمانيـة ١٩٩٠

قال أحد مستشارى المعهد الفرنسى للعلاقات الدولية " قبل توحيد ألمانيا ، كان ميزان القوى فى أوربا غير متساو ، ويميل إلى مصلحة فرنسا بشكل واضح ، الآن هو غير متساو ويميل إلى صالح ألمانيا .

فى الرابع من أكتوبر ١٩٩٠ تم رسميا الإعلان عن إعادة توحيد ألمانيا تحت علم واحد لتصبح أكبر الدول الأوربية سكانا (٨١ مليون نسمة) وبالتالى أكبر بنحو ٢٠ مليون نسمة من أى دولة أوربية أخرى بإستثناء روسيا الإتحادية .

وقد تراوحت ردود فعل دول العالم بين الترحيب الشديد والفتور الكبير ، فقد رحبت به الولايات المتحدة الأمريكية لأنها النهاية الحقيقية للنزاع بين الشرق والغرب ، وكذلك رحبت به روسيا ، بينما كانت فرنسا وبريطانيا أقل ترحيبا نتيجة خبراتهم السابقة معها .

ولاشك أن إتحاد القسمين الشرقى والغربى معها عام ١٩٩٠ ، وخلق لألمانيا جديدة تضم أكثر من ٨١ مليون نسمة عام ١٩٩٥ . لايخفى أن إتحاد القسمين ترتبت عليه مشكلات خطيرة . ففى بداية التسعينات كان هناك تفاؤل بأن يتم تشرب القسم الشرقى ومشاكله فى عامين أو ثلاثة ، ولكن ظهر بعد ذلك أن هذا التشرب والتغلب على مشكلاته سوف يستمر سنوات بعد بداية القرن الحادى والعشرين ، وأن هذا سيكلف ألمانيا الغربيـة نحو ٧٥٠ مليار دولار ، فالخدمات متدنية فى القسم الشرقى ، والمصانع مهترئة ، لأن القاعدة الصناعية كانت مهملة بحيث ظهر أن نصفها يجب أن يغلق أبوابه ، لإحلال ألات جديدة محل القديمة ، والنصف الباقى فى حاجة الى قطع غيار ، وإنتشرت البطالة مع الخصخصة ، ومن ثم كانت مشكلة تدفق الهجرات من شرقى ألمانيا ، إلى غربيها ففى عام ١٩٩٠/ ١٩٩١ هاجر نحو مليون ألمانى شرقى ، كما هناك ٣٠٠ ألف يعملون فى القسم الغربى ويسكنون القسم الشرقى .

وكانت ألمانيا قبل الوحدة تعتمد على العمال المهاجرين ، ولكن الوحدة الألمانية أدت إلى نزوح وتدفق الألمان من وذوى الأصول الألمانية من كل شرق أوربا بما فيها الإتحاد السوفييتى السابق فهؤلاء جميعا لهم الحق فى الحصول على الجنسية الألمانية ، وهذا بدوره قد إنعكس على المهاجرين المقيمين فى ألمانيا وغالبيتهم من الأتراك ، الذين يعتبرون أن هذه البلاد وطنهم ، ويتطلعون إلى الإفادة من خدمات الرعاية فى الشيخوخة التى يحصل عليها الألمان ، لأنهم يدفعون الضرائب المستحقة عليهم وكذلك أنصبتهم من صندوق الضمان الإجتماعى والشيخوخة ، لذلك لم يكن مستغربا أن يتفاقم التوتر بين الألمان وضيوفهم منذ بداية التسعينات ، ويظهر اليمين المتطرف أو النازيون الجدد الذين ينظمون

المظاهرات ضد المهاجرين واللاجئين ، وقذف مراكز إستضافة ومراكز تجمع العمال الأجانب بقنابل المولوتوف والحجارة . وهكذا بدلا من توقع مشكلة إنكماش العمالة فى التسعينيات ، بات لدى ألمانيا تسعة ملايين عامل جديد ملزمة برفع مستويات دخولهم إلى مستويات الدخول فى ألمانيا الغربية ، كما واجهت أيضا تدفق ملايين من أصل ألمانى من وسط أوربا وشرقيها ، وكل هذه الملايين تريد مستويات المعيشة الألمانية على وجه السرعة ، ولما كانت ألمانيا الغربية لاتريد أن تفرغ ألمانيا الشرقية من سكانها فليس أمامها خيار سوى إتباع سياسات لايمكن أن توصف إلا بأنها التحرك نحو تعمير ألمانيا الشرقية ذاتها .

ألمانيا الدولة الأوربية الأولى

قال هنرى كيسنجر

<u>" إن ألمانيا هي القوة الإقتصادية الأكثر فاعلية في أوربا ، وأن على واشنطن تتعامل معها كمدخل للإتصالات مع أوربا بالضبط كروسيا "</u>

لسنوات طويلة كانت جمهورية ألمانيا الإتحادية توصف بأنها عملاق إقتصادى وفى الوقت نفسه قزم فى السياسة الدولية ، وفى الحق أن الدور الضعيف الذى كان للسياسة الألمانية فى هذا المجال كان نتيجة رفض الدول المنتصرة فى الحرب العالمية الثانية إعطائها أى دور فعال فى هذا السبيل ، ولكن ألمانيا خرجت من هذا القيد من خلال إندماجها فى المجموعة الأوربية التى كانت قد بدأت تتشكل ، ودخلت ألمانيا فى حلف شمال الأطلنطى (إتفاقيات باريس ١٩٥٤) ومع بدء سريان هذه الإتفاقيات عام ١٩٥٥ ، إنتهت سلطات الإحتلال ، وأصبحت ألمانيا الإتحادية دولة ذات سيادة ، وشاركت فى إتفاقية روما عام ١٩٥٧ التى وقعتها ست دول لإنشاء السوق الأوربية المشتركة ، ومن خلال الإقتصاد المزدهر والتجارة الخارجية الناجحة ، بدأت ألمانيا تدريجيا تحتل مكانا قائدا فى إطار السوق الأوربية المشتركة ومقرها بروكسل بدأت بإضافة الدور السياسى الخارجى لوزنها الإقتصادى وهو ماقاد إلى تغيير إسمها من السوق الأوربية المشتركة (ECM) إلى الجماعة الأوربية (EC) ، ثم كان إنضمام ألمانيا إلى الأمم المتحدة عام ١٩٧٣ .

فألمانيا اليوم هى قلب أوربا الموحدة - إبتداء من أول ١٩٩٣ - بل هى القاطرة الهادرة ، التى تسحب وراءها القطار الأوربى بعرباته السريعة الممتازة وعرباته المتهالكة المتلكئة ... وفى هدوء ، مضت ألمانيا تتضخم وتتعملق فى كل مجال ، وتطورقاطرتها من إستخدام البخار والفحم والكهرباء ، قفزا إلى إستخدام الليزر قمة التكنولوجيا الحديثة، وتبنى إقتصادها ومؤسساتها السياسية والفكرية بل والعسكرية ، وتحولت فى أقل من نصف قرن ، من الدول المنهزمة الأولى — فى

الحرب العالمية الثانية - إلى القوة الأوربية الأولى التى يعتقد أنها وليست بريطانيا أو فرنسا أو إيطاليا طبعا المؤهلة لمناطحة المستقبل مع القوتين البازغتين الآن على الساحة ، أمريكا واليابان ، خاصة بعد إعادة توحيد الألمانيتين ومن ثم التحول إلى أكبر دولة أوربية بكل المقاييس . ورغم العدوات الدفينة والصراعات القديمة والخلافات الجديدة ، فإن أوربا التى توحدت منذ بدايات هذا العام ، تحولقت حول ألمانيا .

مظاهر القوة الألمانية

إستهلت ألمانيا عام ١٩٩٧ كعضو فاعل فى حلف الأطلنطى . بالخروج من نطاق حدودها إلى العالم لأول مرة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، بعد أن كابدت كثيرا لتتخلص كثيرا من أوزار تلك الحرب وتبعاتها السلبية الجسيمة ، فمنذ الساعات الأولى للعام الجديد تمارس ألمانيا دورها الإقليمى والدولى كاملا وغير منقوص ، بإعتبارها دولة أوربية كبرى عضوا فى الإتحاد الأوربى ، وحلف الأطلنطى ، فقد إنتشرت قوات عسكرية مقاتلة ألمانية فى أراضى البوسنة ضمن قوات حفظ السلام التى تضطلع بمهمة تحقيق الإستقرار هناك تحت قيادة حلف الأطلنطى ، صحيح أن ألمانيا سبق وأن شاركت فى مهمات دولية فى كمبوديا وكرواتيا مثلا ، ولكنها كانت تقتصر على تقديم المساعدات الطبية أو نقل المعدات العسكرية ، دون أن يكون لها أى مهام عسكرية .

المطالبة بمقعد دائم فى مجلس الأمن

إصرار ألمانيا على المطالبة بمقعد دائم فى مجلس الأمن على إعتبار أن الصيغ الحالية لمجلس الأمن هى صيغة واقع هزيمة وتقسيم ألمانيا وهزيمة اليابان وإنتصار الحلفاء (أمريكا والإتحاد السوفييتى وبريطانيا وفرنسا) وظهور معسكريين عالميين معسكر إشتراكى بزعامة الإتحاد السوفييتى ، ومعسكر رأس مالى بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية ، وهذا الواقع وهذه الحقائق لم تعد قائمة الأن من ثم لم يعد مقبولا إستمرار نظام لايعكس حقائق الواقع الجديد .

المطالبة بإعتماد اللغة الألمانية كلغة أساسية فى الإتحاد الأوربى

مطالبة ألمانيا بإعتماد اللغة الألمانية كلغة أساسية فى الإتحاد الأوربى شأنها فى ذلك شأن اللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية ، وكذلك مطالبتها بزيادة مقاعدها فى البرلمان الأوربى بسبب إنضمام سكان ألمانيا الشرقية إليها ليصبح لها ١٨ مقعدا (حصة كل دولة فى البرلمان تتوقف على عدد سكانها) .

تشكيل جيش أوربى موحد

تتفق كل من ألمانيا وفرنسا على أهمية وجود قوة عسكرية دفاعية أوربية موحدة (جيش أوربى موحد) مستقلة عن حلف الأطلنطى ، أى خارج السيطرة الأمريكية ، ومعنى تشكيل جيش أوربى موحد ، أن أوربا وهى فى طريقها إلى التوحد الإقتصادى ووضع صيغة للتوحد السياسى تريد أن تخلق لنفسها دورا سياسيا متميزا عن الدور الأمريكى ، دورا مستقلا وخارج نطاق السيطرة والهيمنة الأمريكية ، وربما يكون دورا منافسا .

إختيار فرانكفورت عاصمة مالية لأوربا الموحدة

كانت ألمانيا أيضا هى الدولة التى فازت بإختيار عاصمتها المالية فرانكفورت لتكون عاصمة مالية لدول أوربا التى تمضى على طريق الوحدة ، ولم يكن طريق ألمانيا سهلا لإختيار إحدى مدنها الرئيسية كعاصمة مالية لأوربا الموحدة ، ذلك أن حى السيتى الشهير بلندن وهو حى المال والتجارة ظلا ردحا من الزمن هو محور النشاط المالى فى أوربا ، وبالتالى كان من المتوقع أن تكون هى لا فرانكفورت مقرا للبنك المركزى الأوربى ، ولكن المراقبين لاينكرون أن ألمانيا تلعب دور القاطرة بالنسبة للدول الأوربية فى الميدان الإقتصادى ، وإن كانوا يخشون مايعنيه ذلك من زيادة قوة ألمانيا ، ويخشون من تحول ألمانيا إلى ممارسة دور الدولة القائد فى أوربا ، خاصة بعد إنضمام النمسا وفنلند والنرويج والسويد إلى إتفاقية الجماعة الأوربية فيما بعد .

دعم إقتصاديات بعض دول أوربا الشرقية

ركزت ألمانيا على دعم إقتصاديات بعض دول أوربا الشرقية بعد إنهيار الكتلة الشرقية على عكس الموقف الأمريكى البريطانى الفرنسى الخاص بإعطاء الأولوية لدعم الإقتصاد الروسى ، وإختلاف التوجه الألمانى عن توجه الحلفاء له علاقة مباشرة بالطموحات السياسية الألمانية ، وبالدور السياسى القوى الذى تطمع إليه ألمانيا فى أوربا ، فدول شرقى أوربا توجد بها جاليات ألمانية تبلغ نحو ثلاثة ملايين نسمة بعضهم يتطلع إلى الوطن الأم ، وعندما تقوم ألمانيا بدعم إقتصاديات هذه الدول مثل التشيك والسلوفاك وبيلوروسيا وأوكرانيا ، فأنها تحقق هدفين : أولهما وقف نزوح الهجرة إليها من هذه الدول ، وثانيهما إقامة علاقات وثيقة مع هذه الدول تخدم الزعامة الألمانية ، هذا الهدف يتضح فى علاقة ألمانيا مع روسيا حيث تسعى منذ فترة إلى إعادة إحياء (جمهورية الفولجا الألمانية) كجمهورية مستقلة أو إقليم للحكم الذاتى داخل روسيا يضم ملايين الألمان الذين يعيشون فى روسيا منذ مطلع القرن الحالى ، وكان هؤلاء قد إستوطنوا المنطقة الغربية من نهر الفولجا وحصلوا على حق إقامة كيان إدارى ذاتى ، تحول إلى جمهورية

مستقلة عام ١٩١٨ ، لكنهم تعرضوا للقتل والتشريد فى سيبريا ، ومناطق أخرى منذ عام ١٩٤١ ، وقد سعت ألمانيا إلى إعادة تجميع هؤلاء مرة أخرى فى منطقة الفولجا ، وضرورة إيجاد كيان ذاتى مستقل لهذه الأقلية الألمانية ، ونجحت جزئيا فى هذا .

دعم سلوفينيا وكرواتيا

ظهر الدور الألمانى فى شرقى أوربا بوضوح أكثر فى أحداث إنقسام يوغسلافيا ، فقد وقفت ألمانيا بكل قوة مع إستقلال سلوفينيا وكرواتيا ، وسبقت الحلفاء فى الإعتراف بإستقلال الجمهوريتين ، هذا الحرص الألمانى على سلوفينيا وكرواتيا ودعم الإستقلال يرجع فقط إلى العلاقة القديمة التى ربطت ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية مع سلوفينيا ، حيث حارب السلوفينيون والكرواتيون بجانب ألمانيا عكس صربيا التى وقفت بجانب بريطانيا وفرنسا .

مفهوم ألمانيا للوحدة الأوربية

الرعب الذى تعبر عنه بريطانيا تجاه مايعرف بالجماعة الأوربية " حرف الفاء " يحير الألمان وهم الذى يحمل بلدهم بإفتخار كلمة (الفيدرالية) فى إسمه الرسمى.

وبالنسبة للمسئولين الألمان فإن أفاق أوربا فيدرالية تستحضر كابوس تحول بلدهم إلى مجرد إقليم يحكمه بيروقراطيون بعيدون فى بروكسل . وفى جمهورية ألمانيا الفيدرالية ، فإن الفيدرالية توصف ببساطة نظام حكم لامركزى تحول فيه سلطات كبيرة إلى الأقاليم . ويعتقد الألمان بأن الفيدرالية ، التى طبقت فى ألمانيا الغربية منذ عام ١٩٤٩ ، كانت عنصرا رئيسيا فى إزدهار بون الإقتصادى بعد الحرب العالمية الثانية ، وظهورها كدولة ديموقراطية مستقرة . ويريد النظام الألمانى تطوير المجموعة الأوربية إلى ولايات متحدة أوربية " ترتكز على مبدأين توأمين هما (الفيدرالية) و (اللامركزية) واللامركزية فى المفهوم الألمانى ، يعنى أن القرارات ينبغى أن تتخذ على أدنى مستوى سياسى ممكن .

ويعتقد الألمان أنه فى إطار أوربا موحدة سياسيا فإن الهيئات الفيدرالية التى تعطى الإقليم السيطرة على شئونها المحلية ستكون أساسية لمنع الحكومة من أن تصبح بعيدة جدا . ولايمكن قيادة ٥٠٠ مليون إنسان مركزيا فى بروكسل ، ولايمكن بناء أوربا ديموقراطية إذا لم تبن وفق خطوط فيدرالية ، خاصة إذا كنت تريدها أكثر من مجموعة إقتصادية . وتقاليد نقل السلطات فى ألمانيا المعاصرة تبدأ على المستوى المحلى حيث تتمتع بلديات المدن وهيئات الريف بسلطات محددة بوضوح فى مجالات مثل المواصلات العامة ، وشق الطرقات ، وإدارة المدارس ، والمستشفيات .

وعلى مستوى أعلى هناك الولايات الفيدرالية الألمانية الست عشرة ، ولكل منها رئيس وزراء وحكومة ، وهى تشرف على مجالات هامة مثل الشرطة والتعليم والثقافة والحكم المحلى وحماية البيئة .

والولايات هى المسؤولة عن تنفيذ القوانين التى يسنها البرلمان الفيدرالى فى بون ، ولديها أيضا كلمة مباشرة فى الشئون الوطنية من خلال (الباندیسرات) ، وهو بمثابة مجلس شيوخ فى البرلمان الفيدرالى ، ولابد وأن يوافق على القوانين التى تتعلق بمصالح الولايات ، ونظرا لنجاح فيدرالية ما بعد الحرب فى ألمانيا الغربية، فقد وسعت ألمانيا الموحدة هذا النظام لكى يشمل ألمانيا الشرقية ، ويعتقد الألمان بأن الفيدرالية لن تفرض بأى حال تماثلا فى القارة ، بل ستحافظ على التنوع الإقليمى ، كما فعلت فى ألمانيا . وعلى سبيل المثال فإن قانون الإجهاض يطبق فى ولاية بافاريا الكاثوليكية المحافظة بتشدد أكبر بكثير مما هو الحال فى ولاية هامبورج البروتستانتية الليبرالية .

ويقول الألمان أن نمط فيدراليتهم يستقطب إهتماما فى روسيا وغيرها من الدول المتعددة القوميات وبلدان أخرى تعصف بها توترات إقليمية وعرقية ، وهم يعتقدون بأن إقامة مؤسسات فيدرالية فى هذه الدول وفى المجموعة الأوربية ككل، يمكن أن يعطى الأقاليم مايكفى من الإستقلال الذاتى لإجتثاث النزاعات الإنفصالية .

فرنســـــــا

إذا قارنا بين فرنسا وألمانيا فأوجه التناقض بينهما كثـيرة ، فرنسا دولـة قديمـة تاريخيا بكل المقاييس من أقدم الدول الأوربية ، فمعظم الأراضى التى تعرف بأسم فرنسا إحتلها الرومان تماما منذ نحو ألفى عـام ، وإستفاد السكان مـن الحضـارة الرومانية ، ثم ظهرت أول هوية لفرنسا عندما تفككـت الإمبراطوريـة الرومانيـة ، ومنذ ذلك التاريخ ، عبورا بشرلمان ، وبملوك فرنسا ، ونابليون كانت هناك فرنسا فى أوربا ، بل وأصبحت لعدة قرون هى منارة العلم والفن والمركز الثقافى للقارة، وكانت باريس بؤرة فرنسا هى كعبة طالبى العلم .

لم يكن هذا حال ألمانيا فخلال الإمبراطورية الرومانية وبعدها ، لم يكـن هنـاك دولة فى هذا المكان ، وإنما كانت تحتلها مجموعات مـن السكان يفصلها بعضهـا عن بعض الغابات ، وتطورت سياسيا ببطء ، وظلت ألمانيا كدويلات مستقلة ذاتيـا لايربطها ببعضها ربـاط متيـن ، فيهـا دويلـة أو مقاطعـة براندنبرج فـى الشـرق ، وبافاريا فى الجنوب ، وستفاليا والإلزاس واللورين فى الغـرب ، هـذا فضـلا عـن بروسيا فى أقصى الشمال الشرقى ، والأخيرة هى التى بدأ الإحسـاس بهـا كقـوة ، إستطاعت تهدئة تخومها الشرقية مع الصقالبة وأمكنها القيام بعملية توحيد ألمانيا ، وكانت الشخصية البارزة فى عملية التوحيد هو بسمارك والذى إستطاعت ألمانيـا تحت قيادتـه الإنتصـار فـى حـرب السـبعين (١٨٧٠ - ١٨٧١) علـى فرنسـا ، وكان هذا النصر كفيلا بتقوية هذا الإتحاد ، وأعلنت الإمبراطوريـة الإلمانيـة عـام ١٨٧١ .

العلاقات المكانية

تطل فرنسا على ثلاثة مسطحات مائية ، البحر المتوسط ، والمحيط الأطلنطـى والقنال الإنجليزى ، بينما تشـترك حدودهـا البريـة مـع ست دول أوربيـة ، وكـان لموقعها فى أقصى غرب القارة الأوربية ، أو بمعنى آخر فى نهايتها أثارة العديـدة سواء من الناحية الإستراتيجية ، أو من ناحية تكوينها السكانى . فقد أتخذت فرنسا كرأس جسر لغزو ألمانيا فى الحربين العالميتين . وكانت حدودها البرية هى سبب متاعبها ، وخاصة فى أجزائها المتاخمة لألمانيا ، وشهدت هذه المناطق كثيرا مـن الغزو والتقهقر سواء من الجانب الألمـانى أو الفرنسـى ، إذ شـهدت هـذه المنـاطق ثلاثة حروب كبرى فى ما يقرب من تسعين عاما (١٨٧١-١٩١٤-١٩٣٩) .

وكان لهذا الموقع الجغرافى أثره أيضا فى أنها أصبحت مصفاة أوربا سـكانيا ، إذ كانت تنتهى إليها الهجرات البشرية الآتية سواء مـن الشـرق أو الجنـوب ، ممـا أدى إلى تعدد العناصر التى تسكنها ، ولكن طبيعة فرنسا السهلية ، والتى لاتظهـر فيها الكتل الجبلية إلا فى أطرافها أدى إلى إندمـاج هـذه العنـاصر وظهـور فرنسـا

كوحدة سياسية منذ زمن متقدم . فلا توجد فيها عزلة تامة بين أقاليمهـا المختلفـة . وقد توافد الفينيقيون والأغريق على جنوب فرنسا منذ القرن التاسع قبل الميـلاد ، وأنشأ الأغريق مدينة مرسيليا ، كما توافد عليها الرومان فى منتصف القرن الأول الميلادى حين غزاها يوليـوس قيصـر ، وأخذ يخضـع قبائلهـا ، واتخـذ مـن ليـون عاصمة للرومان حينذاك ، ثـم أخـذت القبـائل النورديـة ممثلـة فـى (الفرانـك) أو الفرنجة والجرمان فى الإنتشار فيها شمالا . وهكذا تدفقت العناصر المختلفة علـى البلاد حتى إستطاع الفرنجة الذين أتوا من الشمال وأتخذوا من باريس مركزا لهـم ــ توحيد البـلاد ، وإذا كـانت فرنسـا بعد ذلـك ظلـت نهبـا للإنقسـامات ، إلا أنهـا إستطاعت الوصول إلى الوحدة مرة أخرى بفضل حكام حوض باريس ، ومـن ثـم أصبح هذا الحوض ذو أهمية خاصة فى تاريخ فرنسا القومى لأنه النواة التى نمت حولها وحدة فرنسا السياسية منذ مايزيد على ستة قرون . ولايمثل حوض بـاريس نواة فرنسا فحسب ، بـل هـو المركـز السياسـى والإقتصـادى للبـلاد بفضـل شبكة طرق المواصلات الجيدة التى تربطـه بأنحـاء البـلاد ، وبفضـل السـلطة المركزيـة الشديدة ، وتقسيم فرنسا إلى ٩٠ قسما إداريـا لايمكـن لأحداهـا أن يتحـدى السـلطة المركزية .

إقتصاديات فرنسا

ونظرا للمنافسة بين فرنسا وألمانيا مدة طويلة من الزمـان ، نجد أن الأوضـاع الإقتصادية فى فرنسا لها أهميتها فى نموها السياسى وفى طبيعة ميزان القوى فـى المنطقة ، حتى أن البعض يقرن تدهـور قـوة فرنسـا فـى القـرن العشـرين بطبيعـة الإقتصـاد الفرنسـى ، فالزراعـة الفرنسـية والصناعـة الفرنسية تتمـيزان بوحـدات إنتاجية صغيرة ووسائل إنتاجية أقل كفاءة من نظيرتها فى ألمانيا . وما يبذل يدويـا فى الإنتاج أكثر مما يبذل مثلا فى الولايات المتحدة الأمريكيـة أو ألمانيـا المنافسـة أو بريطانيا ، ففى ميدان الزراعـة لـم تسـتطع فرنسـا لفـترة طويلـة إسـتغلال كـل إمكانياتها الزراعية رغم ماوهبتها الطبيعة من سهول متسعة وأمطار وفيرة ، كمـا ركزت جهودها فى ميدان الصناعـة علـى الصناعـات الخفيفـة ولاسيما الكماليـات بدلا من الصناعات الثقيلة ، بينما نجد ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية واليابـان تركز على الصناعات الثقيلة وبصفة خاصة صناعة الحديد والصلـب والصناعـات الهندسية والألكترونية .

الإنتاج الزراعى

وإذا فصلنا فى ميدان الإنتاج الزراعى لنعرف نواحى القوة والضعـف ، سنجد أن نسـبة الأراضـى الزراعيـة فـى فرنسـا هـى حوالـى ٤٠٪ مـن مسـاحة البـلاد (٢١٠ألف كيلو متر مربع) ، من ثم تزيد عـن ضعـف الأراضـى المزروعـة فـى

ألمانيا ، وإن كانت النسبة واحدة تقريبا ، كذلك تتميز بأن الأراضى القابلة للزراعة فيها أكبر من أى قطر أوربى آخر باستثناء الإتحاد السوفييتى السابق ، ولكن مع ذلك فالمزارع الفرنسى إنتاجيته أقل من إنتاج زميله فى الدانيمرك، وهولند ، وألمانيا ، وبلجيكا ، والمملكة المتحدة ، فإنتاج الفدان فى بلجيكا أو هولند أو الدانيمرك هو ضعف مثيله فى فرنسا .

ويتميز الإنتاج الزراعى الفرنسى بتنوعه نتيجة لتنوع الظرف الطبيعية فى فرنسا من الهضاب إلى السهول ، ومن مناخ البحر المتوسط إلى مناخ غرب أوربا ووسطها ، كما تتميز المزارع بصغر المساحة ، بحيث يمكن أن نقول بأن فرنسا بلد المزارع الصغيرة فى أوربا ، فيتراوح ٤٥٪ من مزارعها بين ١٢و٥٠ فدانا ، ٣٥٪ من مزارعها أقل من ١٢ فدان ، وهناك تفاوت فى المساحة بين أنحاء البلاد ، فالمزارع الصغيرة أكثر إنتشارا فى إقليم البحر المتوسط ، وفى إقليم الإلزاس واللورين ، بينما تنتشر المزارع الكبيرة فى النصف الشرقى من حوض باريس .

وتحتل فرنسا المركز الخامس فى العالم فى إنتاج القمح (٤٪) ، وظل لمدة طويلة الغلة الأولى فى فرنسا من حيث المساحة ، وتعتبر الدولة الأوربية الوحيدة التى تكفى حاجاتها من هذه الغلة ، كما تحتل المركز الرابع فى العالم فى إنتاج كل من الشعير والشيلم والبطاطس (٤٪) ، تحتل المركز الثالث فى العالم إنتاجا لبنجر السكر (٧٪) ، وخلاصة القول إنها فى جميع الغلات السابقة تأتى فى المرتبة الثانية إنتاجا فى القارة الأوربية بعد الإتحاد السوفييتى (السابق) ، بينما تتصدر دول العالم جميعا فى إنتاج التفاح ، وكانت تحتل المكانة الأولى فى إنتاج الكروم ، ولكن إيطاليا إنتزعت منها هذه المكانة ، ويرجع هذا إلى البرنامج الحكومى الذى وضع لتخفيض مساحة هذا المحصول .

وتميزت الزراعة الفرنسية بعنايتها بالإنتاج الحيوانى حتى غطت نباتات العلف مساحة أكبر من مساحة القمح ، وزيادة على هذا تدخل أكثر من نصف الحبوب الزراعية فى غذاء الحيوان ، بل وقدر أن مجموع المساحات المخصصة للغذاء الحيوانى ضعف المساحات المخصصة للغذاء البشرى ، من ثم إحتلت فرنسا المركز الرابع فى إنتاج اللحوم بعد الولايات المتحدة والإتحاد السوفييتى السابق وألمانيا .

وعلى العموم يمكن القول بأن فرنسا أقرب الدول الأوربية إلى الإكتفاء الذاتى، وإن كانت تفتقر إلى المحاصيل المدارية كالقطن والقنب والمطاط ، وبدأت مشروعات لزراعة بعض منها كالأرز فى دلتا الرون وفى الأراضى المستصلحة فى اللانج دوك **Langudoc** ، ونجحت التجربة ، وكانت الكمية المنتجة كافية للإستهلاك المحلى ، وهكذا إذا كانت ألمانيا وبريطانيا صناعيتان فى المكان

الأول، فإن قوة فرنسا فى إنتاجها الزراعى ، ففرنسا بأراضيها السهلية الواسعة وتربتها الخصبة ومناخها المعتدل ، دون تطرف فى الرطوبة أو الحراره أصبحت أوفر من حيث مواردها الزراعية ، ولعل مايعطى صورة أوضح هو مقارنة الإكتفاء الذاتى الفرنسى بإعتماد بريطانيا على إستيراد ثلثى حاجتها السعرية الحرارية السنوية على الخارج ، وقد كان هذا من عوامل قوتها فى فترات من تاريخها ، وإن كان أيضا من عوامل ضعفها لأن من الصعب تحويل المزارعين إلى الصناعة وأرضهم خصبة ومنتجة ، ويبدو هذا واضحا بمقارنة درجة الحضرية فى فرنسا بنظيرتها فى ألمانيا ، ناهيك عن بريطانيا .

شكل رقم (٥٦) : المراكز الصناعية والتعدينية فى فرنسا

مراكز رئيسية للصناعة	حديد	أنبذة وخمور
طرق رئيسية	معدنية أولية	ميناء
بوتاس	بناء سفن	ميناء رئيسى
بوكسيت	ميكانيكية هندسية	محطات قوى كهرومائية
فحم	منسوجات	كيماويات
غاز طبيعى	مطاطية	بترول

الإنتاج الصناعى :

أما فى الميدان الصناعى ، فالدليل على عدم التقدم الكبير هو أن نسبة من يعيشون فى المدن لايزيد كثير عمن يعيشون فى الريف . مما يدل على إرتباط الفرنسي بالأرض الزراعية أكثر منه فى ألمانيا ، أو المملكة المتحدة ، أو بلجيكا ، فالنسبة فى فرنسا (٧٣٪ مدن) وفى ألمانيا ٨٥٪ ، فى المملكة المتحدة ٩٠٪ ، بل أن عدد المدن الكبيرة فى فرنسا قليل بالنسبة لعدد السكان ، ولاتوجد مدينة يبلغ عددها ١٠ مليون نسمة ، فعدم النمو المدنى الكبير دليل على عدم وجود المشروعات الصناعية الضخمة .

ويستدل أيضا على تفوق ألمانيا الصناعى بالنسبة لفرنسا ، نصيب الفرد من الصلب إذ يبلغ نصف نصيبه فى ألمانيا . كما تتفوق عليها كل من ألمانيا وبلجيكا وهولند فى نصيب الفرد من الطاقة ، ولاتتفوق فى الإتحاد الأوربى إلا على إيطاليا .

تتميز المشاريع الفرنسية بأنها مشاريع صغيرة ، تزيد فيها نسبة المؤسسات الصناعية الفردية أو العائلية عن الولايات المتحدة الإمريكية وبريطانيا ، ومن ثم لايمكنها بوضعها هذا المساهمة فى الصناعة الثقيلة الكبيرة الإنتاج ، فتتجه نحو الصناعة الخفيفة بوجه عام التى تتطلب قسطا من العمل اليدوى أكثر من إستعمال الألات الضخمة ، ومثل هذا النوع من الصناعات أيضا يعتمد على الكيف من حيث الذوق والإناقة والإبتكار الفنى ، مما لاتصلح له الطرق الميكانيكية الحديثة ، ولعل الأمثلة عديدة على هذا ، وتتمثل فى صناعة العطور ومواد التجميل والدانتلا والحلى والخزف ، والأزياء والملابس المصنوعة ، وصناعة الأنبذة الذى تعتبر فرنسا أشهر بلد منتج له فى العالم ، تستهلك معظمه ، وتصدر بعض الأنواع الفاخرة التى تحمل أسماء شهيرة كالشمبانيا والكونياك . مثل هذا النوع من الصناعات الخفيفة الكمالية ، لايعتبر كافيا لإعطاء قدرة للمنافسة الإقتصادية والسياسية والعسكرية بين الدول ، وبصفة خاصة إذا قورنت بجارتها ألمانيا . ويعزو البعض عدم نمو الصناعة الآلية الضخمة على نطاق واسع فى فرنسا إلى النزعة الفردية عند الفرنسى ، الذى طالما فضل العمل بمفرده أو مع بضعة عمال آخرين ، وكذلك يرجع إلى قلة رؤوس الأموال ، لأن الفرنسي يفضل إكتناز نقوده ولايقامر بها فى الصناعة ، كما أن المشروعات الصناعية العائلية لاتبحث عن رأس المال خارج العائلة الفرنسية حتى لاتفسح المجال للغرباء فى المصنع . كما يمكن أن نرجع هذا المظهر أيضا إلى كفاية حاجة البلاد من المواد الغذائية إلى حد كبير ، مما أدى إلى عدم وجود الحافز لدى الفرنسيين لقيام إنتاج صناعى كبير . وقد أدى هذا الوضع الصناعى إلى تأميم كثير من المشروعات الصناعية

بعد الحرب العالمية الثانية كالفحم والصلب والكهرباء والنقل حتى يتحسن مركز البلاد الصناعى .

التحول الكبير :

وبدأت أخيرا التقاليد الصناعية القديمة فى الإختفاء ، لتحل محلها الطرق الحديثة التى تؤدى إلى الإنتاج الكبير ، ولأول مرة فى تاريخ فرنسا نجد الصناعة تستخدم عمالا أكثر من الزراعة ، فالصناعة الفرنسية أصابها توسع ديناميكى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . وتتركز الصناعات التقليدية فى أقاليم محدودة ، ويعتبر السوق العنصرى الرئيسى فى قيام الصناعة فى باريس ، بينما جذبت المواد الخام صناعات اللورين كالحديد والأملاح ، وقامت الصناعات فى الأقليم الشمالى إعتمادا الفحم ، أما فى وسط فرنسا فقد أثرت عدة عوامل فى النمط الصناعى لهذا الإقليم ، فبينما خلق الفحم والحديد مراكز صناعية ، نجد أن توليد الكهرباء المائية أدى إلى ظهور الصناعة فى المنطقة الألبية ، على العموم تركزت سياسة الحكومة الفرنسية على التخطيط وتحسين الظروف الإقتصادية لجميع أنحاء البلاد منذ الحرب العالمية الثانية ، فمن الأساسيات كان تنمية البنية الأساسية ، والصناعة فى جهات متفرقة من فرنسا ، لمواجهة دور حوض باريس المؤثر والطاغى فى شئون البلاد وإقتصادها ، فمدت الطرق الجيدة والخطوط الحديدية السريعة لربط الأقاليم المختلفة وخاصة الأطراف بالقلب ، كأقليم بريتانى فى الشمال الغربى ، وأقليم البحر المتوسط فى الجنوب ، وتنميتها لتسهم فى الإقتصاد القومى ، وتعتبر الأقاليم الشرقية والشمالية الشرقية القريبة من ألمانيا وبلجيكا وسويسرا وشمالى إيطاليا هى أكثر جهات فرنسا ديناميكية ، ويزداد هذا الوضع قوة نتيجة قرب الإقليم من دول الإتحاد الأوربى .

الإنتاج المعدنى

تتوفر فى فرنسا مقومات الصناعة الثقيلة فلديها مواردها من خامات الحديد والفحم والبوتاس والبوكسيت . ويتبعثر رصيد فرنسا الفحمى فى مناطق متعددة وفى مساحات واسعة ، ولكن تعدين هذا من الصعوبة بمكان ، فضلا عن كثرة تكاليفه لقلة سمك الطبقات الفحمية ، وعدم إنتظامها بسبب الصدوع التى أصابتها ، كما ترك كثير من عمال الفحم مناجمهم للبحث عن وسيلة للعيش أفضل فى السنوات الأخيرة ، مما أدى إلى نقص كبير فى عمال الفحم ، كل هذا أدى إلى أن إنتاج إقليم السار فى ألمانيا وحده يفوق الإنتاج الفرنسى (٣٪ من الإنتاج العالمى). ولسوء حظ فرنسا أن معظم فحمها مما لايصلح لصناعة الكوك ، مما يجعل من الضرورى إستيراده ، وأجريت تجارب عديدة على الفحم المحلى لإنتاج

الكوك ونجحت إلى حد ما فى فحم السار واللورين ، ومع هذا النجاح بدأت تظهر أهمية حقول اللورين .

ويمكن أن نميز مجموعتين من حقول الفحم ، أولهما فى شمال وشمال شرقى فرنسا ، وعروقه هنا إمتداد لعروق الفحم البلجيكى ، وهذا الإقليم مسئول عن نصف إنتاج فرنسا من الفحم . وثانيهما فى اللورين أى فى شرق فرنسا وهى إمتداد لحقول السار ، وهذا الإقليم مسئول عن ربع الإنتاج الفرنسى . أما معظم الإنتاج الباقى فيأتى من هضبة فرنسا الوسطى .

وعملت فرنسا على تعويض نقص إنتاجها الفحمى بتنمية قواها الكهربائية المائية . وتأتى بعد روسيا وإيطاليا فى إنتاج الكهرمائية فى أوربا ، كما لاتتفوق عليها سوى إيطاليا والنرويج من حيث طاقتها الكامنة . وقد إستغلت فرنسا إلى الآن مايقرب من نصف هذه الطاقة الكامنة ، وتحتل مرتفعات الألب وهضبة فرنسا الوسطى ، والفوج مكانة هامة فى إنتاج الكهرمائية ، من ثم إجتذبت صناعات لم يعرفها الجنوب من قبل كصناعة الألومنيوم والصناعات الكيماوية .

وتعانى فرنسا من فقرها البترولى شأنها شأن الدول الأوربية بعامة ، من ثم كان ٩٠٪ منه مستورد من الخارج ، وخاصة من الشرق العربى ، كما تعمل فرنسا على كسر إحتكار الشركات البريطانية والأمريكية لإنتاج البترول ، وبدأت الشركات الفرنسية تسهم فى الإنتاج فى إيران ، والجزائر ، وأخيرا فى جنوبى العراق.

ويتركز معظم حديد فرنسا فى اللورين ، وتبرز خاماته واضحة على السفوح الغربية لهضبة اللورين المطلة على الموزل ، حيث أزالت التعرية النهرية الرواسب التى تغطيها ، وتتراوح نسبة المعادن هنا بين ٣٢٪ ، ٤٠٪ من الخامات، وظلت هذه الخامات حتى أواخر القرن التاسع عشر دون إستغلال لإرتفاع نسبة الفسفور فيها ، وعدم وجود طريقة لفصله عن الحديد ، غير أن إكتشاف طريقة توماس لفصل الفسفور عن المعدن ، أدى إلى أن أصبحت المنطقة منذ بداية القرن العشرين أحد المناطق الرئيسية للحديد الزهر والصلب فى غرب أوربا ، وساهم حديد اللورين بنحو ٩٠٪ من مجموع إنتاج فرنسا ، وزاد من اهمية المنطقة أيضا قربها من فحم السار، ولكسمبرج ، والروهر ، من ثم كانت إحدى الأقاليم التى إجتمع فيها المعدن إلى جانب الوقود ، مما يسر عملية تبادلها. أما بقية مناجم الحديد فأهمها خامات نورماندى وجنوب شرقى بريتانى .

وتتجمع مناجم البوكسيت فى جنوب وجنوب شرقى فرنسا خاصة فى إقليمى بروفانس واللانج دوك ، وكانت فرنسا تحتل المكان الأول فى إنتاج البوكسيت ، ولكنها تحتل الآن المركز الخامس بفضل نمو إنتاج أقاليم البحر الكاريبى .

وتضم فرنسا رابع منطقة فى العالم منتجة للبوتاس وهى سهول الألزاس وقد زاد إنتاجها على المليون ونصف مليون طن ، وتبذل جهود كبيرة لزيادة الإنتاج .

على هذا الأساس نجد المناطق الصناعية فى فرنسا ممثلة فى إقليم اللورين كمركز للصناعات الثقيلة بينما نجد باريس مركز للصناعات الخفيفة ، والمنطقة الشمالية الشرقية وخاصة فى ليل مركزا لصناعة المنسوجات الصوفية والكتانية والقطنية ، والألزاس مركز صناعة الأسمدة .

سكان فرنسا

لعل سكان فرنسا من عوامل ضعفها أكثر من قوتها ، ولانقصد بهذا عناصر السكان أو لغتهم أو ديانتهم ، وإنما نقصد عامل النمو بالذات ، ذلك أن فرنسا كما ذكرنا عبارة عن بوتقة صهرت فيها جميع العناصر المختلفة التى دخلتها منذ مدة بعيدة ، وذلك بفضل مساحتها السهلية ، وسهولة الإتصال بين أجزائها الموحدة ، وإذا كان البعض يميل إلى إعتبار سكان فرنسا لادينيين ، فإن ٩٠٪ من سكانها عبارة عن كاثوليك ، ويتكلم ٩٠٪ من سكانها أيضا اللغة الفرنسية ، ولاتظهر الأقليات اللغوية فيها إلا على هوامشها ، فسكان الإلزاس واللورين الشرقى يتكلمون إما الألمانية وإما الإلزاسية وهى لهجة قريبة من الألمانية . كذلك الحال فى القسم الشرقى من الريفييرا الفرنسية حيث يكثر من ينطقون الإيطالية . كما يوجد آلاف من المتكلمين الأسبانية على الحدود الجنوبية لفرنسا فى النهاية الشرقية لجبال البرانس ، بينما يوجد شعب الباسك فى النهاية الغربية للبرانس ، وهناك فى الشمال الغربى المتكلمين الكلتية أو البريتون . وفى شمالها الشرقى أى فى دنكرك وظهيرها الخلفى فى مساحة بسيطة تغلب اللغة الفلمنكية السائدة فى هولند . ولكن هذه العناصر جميعا لاتمثل شوكات فى وحدة فرنسا السياسية .

والواقع كانت اللغة الفرنسية هى إحدى المقومات الرئيسية التى تجمعت حولها الأمة الفرنسية ، وتدل سيادة لغة جزيرة فرنسا **Ile de France** كلغة رسمية فى فرنسا على القوة السياسية والثقافية التى كان يتمتع بها حوض باريس أو قلب فرنسا ، ورغم هذه اللهجات المحلية الأخرى ، فيمكن أن نقول بأن الأمة الفرنسية أمة مندمجة ، ولاتظهر فيها مشكلة واضحة للأقليات ، ويرجع هذا إلى أكثر من عامل ، منها أن فرنسا تقع فى نهاية اليابس الأوربى ، من ثم كانت نهاية لطرق الهجرات ، حتى أطلق عليها متحف السلالات لأنها مصفاة للقارة الأوربية ، ومنها الثورة الفرنسية بمبادئها الحرية والاخاء والمساواة ، فضلا عن الكوارث التى تعرضت لها البلاد جميعا وخاصة فى القرنين الأخيرين نتيجة لإجتياح الجيوش الألمانية لأراضيها أكثر من مرة .

أما من ناحية النمو فليس من شك أن الأراء متفقة على أن تدهور سكان فرنسا النسبى كدولة كبيرة له علاقة بضعفها وتدهورها كقوة عظمى ، وبصفة خاصة إذا ماقورنت بجارتها ألمانيا ، ففى عام ١٨٧٠ كان القطران متساويين سكانيا ، ذلك أن كل منهما كان يبلغ ٣٨ مليون نسمة ، ولكن ضم الإلزاس واللورين بعد الحرب الفرنسية الألمانية أضاف نحو المليونين إلى سكان ألمانيا . فإذا أضفنا قلة التزايد فى فرنسا ، كان معنى هذا إتساع الهوة تدريجيا بينهما حتى بلغ عدد سكان ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى ٦٨ مليون نسمة بينما بلغ عدد سكان فرنسا ٤٠ مليونا ، مثل هذا الفرق أيضا كان قبيل الحرب العالمية الثانية ، وبلغ عدد سكان فرنسا ٤٥,٧ مليون فى عام ١٩٦٠ بينما ألمانيا الغربية وحدها بلغت ٥٥ مليون ، ومعنى هذا أن فرنسا زادت بمعدل ٢٢٪ فقط من سكانها فى مدى نحو قرن من الزمان . هذا البطء فى النمو السكانى كانت أثاره على قوة فرنسا ، فهذا العدد فى مساحة فرنسا البالغة ٢١٣,٠٠٠ ميل مربع، معناه كثافة سكانية قدرها ٢٠٠ نسمة للكيلو متر المربع وهو رقم منخفض للغاية بالنسبة لدول غرب أوربا، ومازال هذا الفرق كبيرا الآن فسكان فرنسا يبلغون نحو ٥٨ مليون نسمة ، بينما سكان ألمانيا يبلغون نحو ٨١ مليون نسمة (عام ١٩٩٤) .

وقد أدى الثبات السكانى أو الزيادة القليلة إلى تدفق العمال إليها من جميع الجهات ، ففى الشمال الشرقى تدفق البلجيكيون والهولنديون ، وفى الجنوب نجد تيارات الهجرة من أسبانيا عبر البرانس ، وكذلك من شمالى أفريقية ودول الفرانكفون الأفريقية بعامة ، ومن إيطاليا إلى الريفيرا الفرنسية . وأدى هذا العجز أيضا إلى عدم هجرة الفرنسيين إلى المستعمرات الخارجية . ولكن الأهم من هذا جميعه هو عدم توفر القوى العاملة للإسهام فى ميادين الإقتصاد المختلفة ، وخاصة ميدان الصناعة ، وفى نفس الوقت أصبحت متخلفة ، وعاجزة عن تجنيد أعداد ضخمة من الجنود للدفاع وقت الحرب ، كما تفعل ألمانيا المجاورة مثلا .

إستراتيجية الحدود

قلنا أن حدود فرنسا البرية تمتد مع دول عديدة ، وتشترك فى جبهتها الجنوبية مع أسبانيا حيث يمر خط الحدود بجبال البرانس ، وفى الحقيقة تعتبر جبال البرانس حاجزا طبيعيا هاما وحدا منيعا ، ذلك أنها سلسلة متصلة يتراوح عرضها بين ٢٤ - ١٠٠ كيلو متر ، وبإرتفاع يصل أقصاه إلى ٣٧٠٠ متر ، وإن كانت فى معظمها تصل إلى ١٢٠٠ متر ، ولايخترقها سوى ممر واحد هو بريتوس Preitus الواقع على بعد ٤٨ كيلو مترا من نهايتها الشرقية . وإذا إستثنينا مسالك الرعاة ودروبهم ، نجد هناك ستة طرق للسيارات فضلا عن ثلاثة طرق حديدية تربط جانبى الجبال . ولاتخشى فرنسا هذا الجانب وذلك لوعورة الجبال من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنها ظلت تتفوق على جارتها أسبانيا طوال تاريخها

الحديث . أما حدودها الشرقية فى جبال الألب مع إيطاليا فهى تشبه البرانس فى إرتفاعها ووعورتها ، فتصل قمة مونت بلان إلى مايزيد على ٥٠٠٠ متر، إلا أنها ليست صعبة الإختراق بفضل الممرات المتعددة وخاصة ممر مونت سنى . وقد إستغلت الهجرات والغزوات هذه الممرات منذ القدم ، وإبتداء من مونت بلان تسير الحدود الفرنسية فى الألب مع سويسرا حتى قرب النهاية الشرقية لبحيرة جنيف ، ثم يسير خط الحدود مع الضفاف الجنوبية للبحيرة حتى بالقرب من جنيف التى تتركها داخل سويسرا ، ويمتد بعد ذلك لمسافة ٢٤٠ كيلو مترا بموازاة جبال جوارا إلى أن ينتهى إلى الراين . ولاتخشى فرنسا أيضا غزو سويسرا لها ومن ثم كانت آمنة من هذا الجانب أيضا .

أما الجانب الشمالى الشرقى مع ألمانيا ولوكسمبرج والأردين فهو الذى عانت منه فرنسا كثيرا ، ذلك أن فرنسا تواجه ألمانيا مباشرة إبتداء من الحدود السويسرية حتى الطرف الشمالى من اللورين ، بينما تواجه بلجيكا ولوكسمبرج من الأردين حتى بحر الشمال . وعانت فرنسا الكثير من حيادهما ، لأن ألمانيا لم تحترم حيادهما فى وقت ما ، فضلا عن أن هضبة الأردين ليست إلا تلالا متموجة بحيث لاتعوق الجيوش ، وكان السهل البلجيكى بين الأردين وبحر الشمال أكثر المسالك تعرضا للأخطار لأنه سهل مكشوف ، ولاتعرقل كثرة القنوات فيه حركة هذه الجيوش ، ومن ثم عبرته الجيوش الألمانية إلى فرنسا مرارا ، وكذلك عبرت وادى السامبر والميز حتى أصبحت بلجيكا تعرف بإسم (حلبة الصراع فى أوربا) والسهل البلجيكى فى وضعه هذا سهل الإتصال بحوض باريس من ناحية، وسهل الإتصال بحوض الراين والروهر والسهل الشمالى الألمانى من ناحية أخرى ، ومن هنا كانت خطورته على فرنسا لأنه يؤدى إلى قلب فرنسا مباشرة . هناك مسالك أخرى إلى الجنوب من السهل البلجيكى ، وهما بوابة اللورين التى تصل مباشرة بين جنوبى ألمانيا ووسطها وبين القسم الشرقى من حوض باريس ، وتقع هذه البوابة بين جبال الفوج وهضبة الأردين وهى عبارة عن أراضى واسعة متموجة ، تحركت عبرها الجيوش كثيرا، والبوابة الأخرى هى بوابة بلفور أو بوابة بورجندى وهى ممر منخفض لايتجاوز عرضه بضعة كيلومترات ، تسهل الإنتقال من جنوب غربى ألمانيا وسويسرا إلى كل من وادى الرون والساؤن وحوض باريس .

ماذا تريد فرنسا على المستوى الدولى ؟

تريد فرنسا على الصعيد الدولى أن تكون ملاذا للدول التى تحاول التملص من الهيمنة الأمريكية ، وإن تقدم نموذجا مختلفا عن النموذج الأمريكى ، وترى فرنسا أن الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر نفسها زعيمة العالم ، والقطب الأوحد فى كل مكان ، وهذا حقها ، لكن المشكلة أن الولايات المتحدة تعتبر من ليس معها ، دون

تحفظات خصما أو عدوا لها ، وأن ينبغى على الجميع إتخاذ مواقـف موحـدة إزاء المشكلات ، وأن يوافقو علـى مـاتتخذه مـن أراء وإجـراءات ، وفـى الواقـع أن إستراتيجية الولايات المتحدة الأمريكيـة فـى أوربـا تكـاد تخنـق فرنســا ، وذلـك بتوسيعها حلف الأطلنطى ليشمل أوربا الشرقية والوسطى ، المانيـا بالهيمنـة الإقتصادية فى المنطقة تصديرا وأستيرادا وتكنولوجيا ، وبالتالى تنفرد ألمانيا فـى مجالها الحيوى القديـم ، مـن ثـم كـانت معارضـة فرنسا لأنهـا تريـد عالمـا متعدد الأقطاب من هذه المواقف المعارضة .

إنسحاب فرنسا من قوة المراقبة الجوية فى العراق :

بدأ عام ١٩٩٧ منذ يومه الأول بنقطة خلاف بين الولايـات المتحـدة الأمريكيـة وفرنسا ، عندما إستهلت قوة المراقبة الجوية عملها فى شمالى العـراق فـى غيـاب فرنسا التى رفضت المشاركة فـى هـذه العمليـة ، برغـم إلحـاح الولايـات المتحـدة عليها ، وكانت فرنسا تشارك الولايـات المتحـدة الأمريكيـة وبريطانيـا وتركيـا فـى عملية (توفير الأمان) التى بدأت عملها بعد حرب الخليج من أجل حماية الأكراد الذين تعرضوا بعد الحرب لعمليات قمع عنيفة من قبل النظام العراقى .

وقد تم الإتفاق على هذه العملية بين الدول الأربع المشـاركة فيهـا ، بنـاء علـى القرار الذى إتخذه مجلس الأمـن عـام ١٩٩١ والـذى ينـص علـى تقديـم المسـاعدة الإنسانية للأكراد بشمال العراق .

وقـد إتخـذت فرنسـا فـى الأسبوع الأخير مـن عـام ١٩٩٦ مـن نـص قـرار مجلس الأمـن حجـة للإنسـحاب مـن قـوة المراقبـة الجويـة الجديـدة التـى إنتفـت عنهـا صفـة المسـاعدات الإنسـانية ، وإقتصـرت علـى الحمايـة الجويـة لمنطقـة شـمالى العـراق التـى يـتركز فيهـا الأكـراد ، مـع توقـف العمليـات الأرضيـة التـى كـانت تسـتهدف توفـير وسـائل المعيشـة ، وتيسـيرها للسـكان الأكـراد الذيـن يعـانون مـن خطـر مـزدوج ، حيـث يقعـون تحـت وطـأة خطـر النظـام العراقـى فـى بغـداد ، كمـا يتعرضـون مثلهـم مثـل بـاقى أبنـاء الشـعب العراقـى للخطـر الدولـى المفروض علـى العـراق منذ إنتهـاء حـرب الخليـج .

وكان القرار الفرنسى بالإنسحاب من قـوة المراقبـة فـى شـمالى العـراق بمثابـة أول تصـدع للجبهـة الغربيـة المناهضـة للنظـام العراقـى ، ووجهـت الأوسـاط الأمريكية مرة جديدة أصابع الإتهام إلى بـاريس علـى أسـاس أن المصـالح الماليـة والإقتصادية هى التى تملى سياسة فرنسا إزاء العراق ، فقبل إندلاع أزمـة الخليـج كانت فرنسا هى الشريك التجارى الأول للعراق ، وكانت تمده بالأسلحة الحديثة ، وتستورد منه البترول ، ومن المؤكد أن الشركات الفرنسية الكبرى قد عانت كثيرا

من إغلاق السوق العراقية التى كانت تمثل متنفسا هاما للمنتجات الفرنسية ، ومـن بينها السلاح .

قضية الأمين العام للأمم المتحدة ، وقيادة حلف الأطلنطى

وبالإضافة لهذه النقاط المتعلقة مباشرة بالشرق الأوسط كانت هناك نقاط إحتكاك أخرى بين باريس وواشنطن حول قضايا تمس من قريب أو بعيد منطقة الشرق الأوسط .

وكانت أولى هذه النقاط قضية إنتخاب الأمين العام للأمم المتحدة الذى أصرت الولايات المتحدة الأمريكية على إستبعاده فى الوقت الذى كانت تتمسك فيه فرنسا بولاية ثانية له، ورغم تنازل فرنسا أخيرا عن المعارضة ، فقد أثبتت وجودها . لكن نقطة الخلاف الرئيسية والتى مازالت مطروحة هى إصرار فرنسا على أن يتولى قيادة القطاع الجنوبى لحلف الأطلنطى عسكرى أوربى ، أما الولايات المتحدة فتصر إصراراً شديداً على أن يستمر تقليد تولى ضابط أمريكى كبير هذه القيادة التى تتخذ مقرا لها مدينة نابولى فى إيطاليا .

وفى هذا المجال تتفق فرنسا وألمانيا على ضرورة أن تكون هناك قوة أوربية مستقلة عن حلف الأطلنطى تماما .

الفرانكفونية منظمة سياسة دولية

يقصد بدول الفرانكفون ، تلك الدول التى تتحدث اللغة الفرنسية لغة رسمية لها وحتى إلى جانب فرنسا ، المستعمرات الفرنسية سابقا ، والتى نالت إستقلالها ، وقد أرادت فرنسا تجميعها على نظام الكمنولث البريطانى ، ومن ثم لايجمعها جوار جغرافى أو تقارب فى المستوى الإقتصادى ، وإنما وحدة اللسان ، وبالتالى فهى أقرب إلى التجمع الثقافى للمثقفين ، ثم تحولت عام ١٩٧٠ إلى وكالة للتعاون الثقافى والتكنولوجى ، وزاد الإهتمام بهذا التجمع فيما بعد حين ظهرت لأول مرة عام ١٩٨٦ منصب وزير للفرانكفونية خصصت لها مليارا و٧٥٠ مليون فرنك ، فكان هذا إيذانا بتأسيس الفرانكفونية ، لأن لو كان الأمر يقتصر على زيادة الإهتمام الثقافى لكان فى الإمكان إنشاء وكالة أو إدارة كبيرة فى وزارة الثقافة الفرنسية لهذا الغرض ، من ثم أرادت فرنسا لهذا التجمع الذى يضم نحو ٣٥٠ مليون نسمة أن يكون له صوت مسموع فى المساحة الدولية وإنشاء تيار مناهض للتيار الأنجلوساكسونى . تجتمع تحته كل الدول العازفة عن الهيمنة الأمريكية على العالم ، وقد تجلى هذا فى قضية معارضة فرنسا ومع دول الفرانكفون لقضية إدراج السلع الثقافية ضمن إتفاقية التبادل الحر ، وأصرت على أن هناك

خصوصية ثقافية تعبر عن هوية كل دولة ، وإذا كانت هذه المعارضة لم تقتصر على دول الفرانكفونية فقط ، فقد كانت نواتها .

التعاون مع الصين وروسيا

وفى ظل الإختناق التى تحس به فرنسا من سيطرة ألمانيا على الإتحاد الأوربى، وموالاة بريطانيا للولايات المتحدة الأمريكية نجد الرئيس الفرنسى يفعل مافعله الرئيس الروسى بتوطيد العلاقات مع الصين ، ويدعو أوربا لتوسيع حوارها مع الصين ووصف الصين بأنها الدولة التى ستقرر إتجاه القرن الواحد والعشرين ، وأنه يتعين مشاركة الصين فى النظام العالمى المتعدد الأقطاب ، وأن فرنسا تدعم خطوة بكين لدخول منظمة التجارة العالمية ، ثم إنتقل إلى روسيا ليقوم بنفس الدور لزيادة التعاون معها ، كل ذلك حتى لايفرض على العالم وبالأحرى فرنسا النظام الأمريكى الأحادى القطبية .

المملكة المتحدة

معالم رئيسية

لابد قبل أن نبدأ الجغرافية السياسية للمملكة المتحدة من إيضاح بعض المعالم الرئيسية ، لذلك الأرخبيل الذى يقع قريبا من الشاطئ الغربى لأوربا . فالجزيرتان تشملان : الأولى إنجلترا وويلز وإسكتلند ، والثانية ايرلند بالإضافة إلى جزر عديدة متناثرة ، وتؤلف جميعها الجزر البريطانية ولكن هذه المنطقة الجغرافية ليست وحدة سياسية ، بل تخرج منها جمهورية ايرلند ، ولايبقى فى ايرلند تابعا للملكة المتحدة سوى الجزء الشمالى الشرقى الستر بل أن شمالى ايرلند فى حد ذاته له مجلس عموم ومجلس شيوخ وحاكم يعينه التاج البريطانى . وهذا البرلمان لديه جميع المسئوليات إلا فيما يختص بالعلاقات الخارجية ، والدفاع ، والخدمات البريدية، فضلا عن أن شمالى ايرلند يرسل إثنا عشر ممثلا له فى مجلس العموم البريطانى.

وأما سكوتلند ، وويلز ، فهما أكثر إندماجا مع إنجلترا سياسيا ، وكل منهما ممثل بعدد مناسب فى البرلمان البريطانى ، ولو أن ويلز تطالب بأن يكون هناك وزير دولة لها . وهناك أيضا جزيرة مان وجزر القنال الإنجليزى التى تمارس حكمها داخليا .

وأما جمهورية أيرلند فهى فريدة فى وضعها . فبعد معاهدة إنجلترا وايرلند عام ١٩٢٠ ، أصبحت هذه الجمهورية تتكون من ٢٦ مقاطعة . وبقيت على الحياد خلال الحرب الثانية . وكان هذا من الأمور التى أغضبت بريطانيا . كما إنسحبت أيضا من الكومنولث ، ولكن بدون أن تصبح دولة أجنبية . فسكان ايرلند لايعتبرون غرباء فى المملكة المتحدة . كما أن تجارة ايرلند لها الأفضلية فى الأسواق البريطانية .

لماذا كانت بريطانيا هى الناشز الأكبر فى الجماعة الأوربية ؟

تعتبر المملكة المتحدة أكثر أعضاء الجماعة الأوربية شغبا ، ومن أقلهم رغبة فى الإندماج والذوبان فى الجماعة ، ومحاولة الإحتفاظ بشخصيتها مستقلة وبعلمها وتاجها وعملتها ، رغم علمها بأنه لاإستمرار لها إلا فى داخل الجماعة الأوربية ، عكس الحال مثلا فى حالة فرنسا وألمانيا وهولند وبلجيكا ... إلخ .

ألا يدعونا هذا إلى التساؤل عن سر هذا العضو النافر ؟ وألا يدعونا هذا مرة أخرى إلى العودة إلى الجغرافيا لترديد العبارة المشهورة التى تصفها " بريطانيا فى أوربا ولكن ليست منها " **Britain is in Europe, But it not of it.**

فبريطانيا لم يدخلها غازى منذ عام ١٠٦٦ ، وكانت البحار حولها وبحر المانش ـ رغم ضيقه ـ بمثابة الغلاف الواقى ، وقد يقوم نفق المانش الذى مُدّ بينها وبين فرنسا أخيرا إلى سهولة وتدفق الحركة بين القارة (كما يسميها الإنجليز) وبين الجزيرة البريطانية .

وشهرة بريطانيا الحالية باعتبارها الصوت الناشز فى أوربا ربما ينبع من عقلية الإنعزال فى جزيرة ، كما فى قرون من الصراع مع فرنسا ، وبروسيا ، منافستيها التقليديتين من أجل الهيمنة الأوربية .

وقد أعطى الملك هنرى الثامن مثلا على الإنشقاق عندما خرج على أوربا الكاثوليكية عام ١٥٣٤ ليؤسس الكنيسة الإنجليكانية وذلك بعد أن رفض البابا السماح له بطلاق أولى زوجاته الست .

وبريطانيا بإمبراطوريتها الشاسعة التى بنتها لتدعيم تجارتها ، كانت تقيم تحالفا من أجل مواجهة طامحين لبناء إمبراطوريات من أمثال نابليون وهتلر . ولكنها لم تشعر بحاجة تذكر لحشد موارد من أجل أى شئ آخر .

مايزال الكثير من البريطانيين اليوم غيورين على هويتهم الوطنية ، وهم يخشون من أن تعنى أوربا فيدرالية شطبا لماضيهم البطولى . ويقولون أنه من الحماقة بالنسبة لأوربا أن تقفز إلى المجهول ، وتتجاهل دروس التاريخ التى علمتها أن القومية تصدع الإمبراطوريات ، ومهما كانت إندفاعة التكامل قوية، فإن هنالك تخوف بريطانيا من قوة ألمانيا الموحدة ، ومن إمكاناتها الإقتصادية والمالية ويعتبر قسم كبير من حزب المحافظين الحاكم فى بريطانيا أن العملة الاوربية الموحدة سوف تكرس زعامة ألمانيا القارية ، وهذا مايتوجس منه البريطانيون خيفة مع إسترجاع ذكريات الحربين العالميتين ودور ألمانيا القومية فيها .

والعامل الثانى الذى يخيف البريطانيين هو قيام تحالف ثنائى بين ألمانيا وفرنسا من خلال " أوربا الصغرى " وإيجاد نواة عسكرية لجيش أوربى موحد، ومن خلال معاهدات ثنائية بين الطرفين من شأنها الضغط على الدول الأوربية المجاورة ، وإضعاف النفوذ البريطانى الذى مايزال يستند إلى إرستقراطيته التاريخية المعروفة . ومن المعروف أن الحكومتين الألمانية والفرنسية دعتا إلى تشكيل نواة عسكرية مشتركة من ٣٥ ألف رجل تساعد على قيام قوة عسكرية أوربية كبرى بموافقة قيادة إتحاد دول أوربا الغربية ، وتذرعتا بإمكانية التنسيق مع قوات الولايات المتحدة الأمريكية الموجودة فى أوربا من خلال حلف الأطلنطى .

وهكذا فقد دفع الخوف من الألمان بريطانيا ، إلى التشبث بمظلة الأطلنطي ، وصون وأحياء المحور بين لندن وواشنطن ، وهناك مجموعة من الأسباب يمكن أن تفسر هذا المنهج البريطاني في التعامل مع موضوع حلف الناتو ، أو السياسة الدفاعية لأوربا يمكن إختزالها في آليه واحدة تحكم الموقف البريطاني ومؤداها أنه كلما إبتعدت بريطانيا عن أوربا ، إقتربت من الولايات المتحدة الأمريكية ، والعكس صحيح ، وتعتقد الغالبية بأن الإندماج في أوربا سيكون مسمارا نهائيا في نعش الوطنية والمصالح البريطانية ، فقد كان طبيعيا أن تلتصق الحكومة البريطانية بفكرة المحور الأمريكي / البريطاني ، كبديل يعصم من الإنزلاق أكثر فأكثر إلى الإندماج في وحدة أوربية .

الماضي العتيد

فمنذ مائة عام ، كانت بريطانيا تحتل مركز الزعامة في الصناعة والتجارة وفي القوى الحربية . فكانت تنتج نحو نصف الحديد الزهر في العالم وكانت تمول مشروعات عديدة ومختلفة لافي الجزر البريطانية فحسب بل في مناطق أخرى . وكان الشعب الإنكليزي يتغنى :

Beautiful England on her island throne ,

Grandly she rules, with half the world her own ,

From her vast Empire , the sun n'er departs ,

She reigns a queen , Victoria queen of hearts .

ومنذ ثلاثة أرباع قرن أي مع بداية الحرب الأولى ، كانت بريطانيا تمثل مركز الزعامة العالمية ، وكانت لندن تمثل أعظم عاصمة لإمبراطورية في التاريخ .

أهمية المملكة المتحدة كقوة عالمية كانت ترجع في معظمها إلى قوتها الصناعية . فالحقيقة أن كثيرا من الصناعات والمخترعات الحديثة التي ساعدت على النموالصناعي في العالم بدأت في بريطانيا ، فمركز الرعاية الذي إحتلته في القرن الثامن عشر حافظت عليه في القرن التاسع عشر ، وساعد على هذا أيضا أن الحروب التي إجتاحت أرض القارة مابين ١٨٨٩ - ١٩١٨ ، عصفت بإقتصاديات القارة ، وحالت دون تمتع القارة بهذه الخبرات الفنية والألات الحديثة فترة طويلة ، من ثم كان إحتلال المملكة المتحدة لمركز الصدارة في ميادين الصناعة وتمويل المشروعات في جميع أنحاء العالم في منتصف القرن الماضي . ولعل إنتاج الحديد الزهر قد يساعد إلى حد كبير على بيان قدرة الدولة أو طاقاتها في الصناعة الثقيلة ، وفي العقود الأخيرة للقرن التاسع عشر وفي أثنائها إستخدمت كميات كبيرة في الصلب . ولكن قبل هذا التاريخ كان إنتاج الصلب

قليلا للغاية . وكانت بريطانيا هى الدولة الأولى التى إستعملت فحم الكوك بدلا من الفحم النباتى لإستخراج الحديد ، لذلك إرتفع إنتاج بريطانيا من الحديد الزهر فى القرن التاسع عشر . وفى الفترة ١٨٥٠ـ ١٨٧٠ كانت تنتج ٥٠٪ من الحديد العالمى ، بينما لم يكن لديها فى تلك الفترة أكثر من ٣٪ من سكان العالم . وفى عام ١٨٥٠ أنتجت ٢,٥ مليون طن من مجموع الإنتاج العالمى وهو مليون طن ، وفى عام ١٨٧٠ كانت بريطانيا تنتج ٥٠ ٪ من حديد العالم .

أما الآن فيبلغ إنتاجها من الحديد الزهر نحو ٧٪ فقط من الإنتاج العالمى ، كما بلغ إنتاجها من الصلب ٣٪ أو أقل من نصف إنتاج ألمانيا وأقل قليلا من إنتاج إيطاليا .

تقهقر الصناعة البريطانية

ويظهر تقهقر الصناعة البريطانية أوضح مايكون فى صناعة الصلب ، فقد تكاثفت أمراض الصناعة فيها من إرتفاع التكاليف وتخلف تكنولوجى ، فيما يختص صناعة السفن التى تركزت فى مصبات التيمز والتامن وكلايد ، فقد كانت بريطانيا سيدة البحار من هذه الناحية أيضا حيث كانت ترسانات موانيها تمد العالم بأكثر من نصف سفنه ، ولكن المنافسة الثقيلة من اليابان وألمانيا الغربية والسويد إقتطعت لنفسها حجما كبيرا من السوق العالمية لهذه الصناعة ، وتحولت بعض هذه الترسانات لصناعات إجهزة وألات الحفر عن البترول .

وكانت صناعة المنسوجات القطنية صناعة بريطانية رئيسية بفضل قطن المستعمرات ، والظروف المناخية المواتية للصناعة فى بعض أجزاء بريطانيا ، ولكن هذه الصناعة واجهت منافسة عاتية من الصناعات المماثلة فى جنوب شرقى أسيا ، مما ضمرت معه نسبة صادرات بريطانيا من تلك السلعة ، التى ظلت تمثل مكانا رئيسيا فى قائمة الصادرات البريطانية منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الثانية ، غير أن الصناعات الصوفية إحتفظت ببعض مكانتها ، وهى التى إعتمدت على الصوف ، والفحم المحلى ، والمهارات، والخبرات الطويلة للسكان فى برادفورد وليدز وهدرزفليد وغيرها ، رغم المنافسة الحادة من مثيلتها الأجنبية ومع ذلك فيمكن القول بأنها تأثرت بدورها وإن بدرجة أقل .

وكانت نتيجة تأخر الصناعات البريطانية بالنسبة لمثيلاتها فى اليابان وألمانيا بصفة خاصة له أثره فى بطء نسبة النمو الإقتصاى وإرتفاع معدلات البطالة ، وغلق كثير من مصانع السيارات ، والصلب ، والمنسوجات ، بعد إفتتاح المصانع الأجنبية ، بل أن رؤوس الأموال البريطانية بدورها ترك جزء منها بريطانيا ليعمل فى العالم الثالث حيث الأجور المنخفضة ، وإنعدام الإضرابات العمالية ، والربح الأوفر ، مما أدى إلى ضعف القدرة التنافسية للسلع البريطانية .

هكذا ضاعت ميزة الأولوية نتيجة تقدم الدول التى دخلت هذا الميدان متأخرة ، تقدمت على بريطانيا مساحة وسكانا وموارد ، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، وبعد ذلك الإتحاد السوفييتى .

هبوط النمو السكانى

ونظرا لضيق الفجوة بين المواليد والوفيات خلال العقود الماضية ، هبط النمو السكانى تدريجيا ، بينما نجد أن معظم مناطق العالم الأخرى يعيش مرحلة إنفجار سكانى ، من ثم إذا كان سكان بريطانيا يمثلون الآن مايقرب من ١,٣٪ من سكان العالم ، فقد كانوا يمثلون عند مطلع هذا القرن ٢,٥٪ من هؤلاء السكان ، وهذا فى حد ذاته من عوامل تدهور بريطانيا .

إختفاء المستعمرات

وأدى إستقلال المستعمرات إلى إختفاء الإمبراطورية البريطانية ، بعد أن كانت أملاكها تمتد فى آسيا وأفريقية ، وقد بدأت عملية التفكك منذ مايزيد على قرن من الزمان ، بدأت بمنح كندا الإستقلال الذاتى عام ١٨٦٧ ، وتلاها أستراليا ونيوزيلند وجنوب أفريقيه مع مطلع هذا القرن ، ناهيك عما حدث بعد الحرب العالمية الثانية، والفرق بين المجموعة الأولى وتلك التى إستقلت بعد الحرب العالمية الثانية ، أن الأولى كان معظم سكانها من الأوربيين (بإستثناء جنوب أفريقيه) ورضيت جميع هذه الأقطار أن تبقى داخل الكمنولث بإستثناء ايرلند ـ بورما ـ جنوب أفريقيه . وليس من شك أن الإمبراطورية كانت مصدر قوة حربية وإقتصارية لبريطانيا ، إستخدمت أبناءها فى الدفاع عنها ، والهجوم على العدو فى الحربين الأولى والثانية ، وقدمت مواد خام ، وأسواق لتصريف المصنوعات ، كل هذا إختفى ، وإذا كان لديها بعض المستعمرات القليلة الآن فهى عبء عليها أكثر منها رصيد لها .

بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية إلى أين ؟

خيل للجميع أن بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية سوف تقع ضمن دائرة النفوذ الأمريكى من الناحية الإقتصادية ، ذلك أنها تلقت مساعدات أمريكية تقدر بنحو ٦ بليون دولار ، وبها قواعد جوية ، وصاروخية أمريكية ، وإذا حدثت حرب نووية ، سوف تعانى بشدة أكثر من الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ، إشتركت فى حلف شمال الأطلنطى ، وبينما أخذت العلاقات تتوطد بين المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية وهنت علاقاتها بأجزاء الإمبراطورية السابقة، فقبل عام ١٩١٧ كان إهتمام بريطانيا الرئيسى بالإمبراطورية ، وخلال الفترة مابين الحربين الثانية ضعفت العلاقات وإستقلت كثير من المستعمرات

وأصبحت أعضاء فى الأمم المتحدة إلى جانب إنها لم تصبح فى صناعاتها معتمدة على بريطانيا ، بل بدأت تظهر فيها الصناعة ، وأصبحت بريطانيا عضوا فى المجموعة بدلا من قائد ، وحتى فى هذا المجال لايمكن أن ننكر قيمة الكمنولث، ولكن الرابطة أصبحت أضعف بكثير مما كانت عليه منذ خمسين عاما، بل أن إتحاد جنوب أفريقية خرج من المجموعة عام ١٩٦٠ . وكثيرا ماتعارض الهند بريطانيا ، وحتى كندا نفسها لم تؤيدها فى هجومها على السويس .

كان الإحتمال الآخر هو دخول بريطانيا فى إتحاد إقتصادى مع غرب أوربا ، لأن هناك دول أخرى أحست نفس المصير المتضاءل كفرنسا وألمانيا ناهيك ببلجيكا وهولند ولوكسمبرج ، وقد سعت بدورها للإتحاد مع غيرها ، وتتميز سوق أوربا الغربية بأنه متقارب جغرافيا وليس مبعثرا كما هو الحال فى الكمنولث ، يلائمه زيادة تجارة بريطانيا مع غرب أوربا ، وفى الحق لقد عرض على بريطانيا مشاركة الدول الست (فرنسا ـ بلجيكا ـ هولند ـ ألمانيا ـ لوكسمبرج، إيطاليا) فى أواخر الخمسينيات ، ولكن دول السوق لم تجد إستجابة من بريطانيا، لأنها فى تلك الفترة (أواخر الخمسينيات) كانت مازالت تجتر فترة المجد السابقة، لكنها عادت وطلبت الإنضمام فى أواخر الستينيات ، وظهرت مشكلات عديدة أمام دخولها السوق الأوربية المشتركة منها علاقتها التجارية بالكمنولث ، فعلى سبيل المثال قطر كنيوزيلند لابد له أن يضمن بأن منتجات الألبان التى يصرف معظمها فى بريطانيا لن تتأثر بدخول السوق ، ومنها وقوف ديجول فى وجه بريطانيا ، حتى تظل زعامة السوق لفرنسا ...إلخ ، ومنها مشكلات محلية مثل مدى تأثر الزراعة البريطانية ، بل والصناعة البريطانية ، وبعد مفاوضات عديدة مع دول السوق بمقتضاها وضعت برامج عديدة طويلة الأجل يطبق بعدها نظام التعريفة الخارجية الخاصة بالسوق عليها ، ودخلت بريطانيا رسميا السوق الأوربية المشتركة أو الجماعة الإقتصادية الأوربية فى غرة يناير ١٩٧٣ ، كما دخلت أيضا إيرلند والدنمارك ، وأصبح عددها تسعا فى ذلك الحين .

إتجاهات تجارة المملكة المتحدة عامى ١٩٥١ ، ١٩٩٠

السنة	١٩٥١	١٩٥١	١٩٩٠	١٩٩٠
الدولـــة	واردات	صادرات	واردات	صادرات
الولايات المتحدة الأمريكية	١٠٪	٥٪	١٢٪	١٣٪
كندا	٧	٥	٢	٢
أستراليا	٦	١٣	١	١,٥
الهند	٤	٤	٠,٦	١
اليابان	٠,٥	٠,٤	٥,٤	٢,٥
الجماعة الأوربية	٢٠	١٨	٥٣	٥٣

المستقبل

على العموم سيعتمد الوجود البريطانى فى المستقبل ، كما هو الحال فى معظم دول أوربا الغربية على نظام كفء متطور من التصنيع ، من ثم يصبح رأس الحربة فى تنمية الإقتصاد البريطانى فى تنشيطه ودفعة إلى الأمام ماأمكن ، وتخفيض تكاليف إنتاجها ، ولعل أفضل السبل هو زيادة الأخذ بالتطور التكنولوجى ، والتوسع الصناعى فى الأقاليم البريطانية التى تنخفض فيها تكاليف الإنتاج ، فبفضل الكهرباء أمكن للمصانع أن تتفرق وتبتعد عن مناجم الفحم ، وكذلك بفضل البترول أمكن قيام كثير من الصناعات التى لاعلاقة لها بالفحم .

وإذا كانت الصناعة تسهم بنحو ٢٩٪ من الدخل القومى ، والزراعة والصيد تسهمان بنحو ٣٪ من هذا الدخل ، فيصبح نصيب الخدمات أكثر من نصف الدخل القومى سواء فى ميدان النقل أو الأعمال المصرفية أوالسياحة وغيرها ، وهذه مازالت تؤكد عليها السياسة الإقتصادية البريطانية ، وكان ظهور البترول والغاز الطبيعى فى قاع بحر الشمال من العوامل التى حسنت من ميزان التجارة والمدفوعات البريطانى فى الفترة الأخيرة ، وكان عام ١٩٧٨ هو أول عام منذ

نهاية الحرب العالمية الثانية لايعانى فيه ذلك الميزان من العجز ، وفى نفس ذلك العام كانت الصادرات الصافية لخام البترول تقدر بنحو ٤٨ مليون طن.

ويمكن القول بأن إنقاذ الإقتصاد البريطانى بعض الشئ كان بفضل الخدمات وخاصة رؤوس الأموال العربية والسياحة العربية ، كما كان بفضل ظهور البترول والغاز الطبيعى الذى حول بريطانيا من دولة مستوردة له إلى دولة مصدرة ، ولايبقى أمامها إلا تطوير صناعاتها ، والإستفادة بمزايا العضوية فى الإتحاد الأوربى .

رغم مقاومة بريطانيا لشركائها الذين يودون تحويل الإتحاد الأوربى إلى ولايات متحدة أوربية ، فإنها تحاول إبقاء خيارات بريطانية مفتوحة فى مايتعلق بالإندماج الإقتصادى ، وذلك تحسبا ليوم قد يأتى فى المستقبل ، ويتبين فيه أن الوحدة النقدية هى فرصة أعظم من أن تضيع .

اليابـــان

تخيل أن دولة غنية مزدحمة بالسكان الذين يبلغون نحو ١٢٥ مليون نسمة ، يعيشون على مساحة قدرها ١٤٥ ألف ميل٢ ، وهى وبمساحتها هذه تعادل إحدى الولايات الأمريكية ، بل ومعظم هذه الجزر جبلى ، بحيث لايزيد المسكون منها على ١٨٪ من تلك المساحة ، وتتعرض هذه الجزر للبراكين والزلازل بين الحين والحين ، خالية من البترول ، وحظها من الفحم ، والمواد الخام اللازمة للصناعة وكذلك الأراضى الزراعية قليل ، فلو كانت يابان اليوم إحدى الدول النامية فى حاجة إلى المعونات الغذائية والقروض ، فإن المبرر ماثل أمامنا ، فى إكتظاظ سكانى ، ونقص فى الأراضى الزراعية ، وفقر فى الخامات وموارد الطاقة .

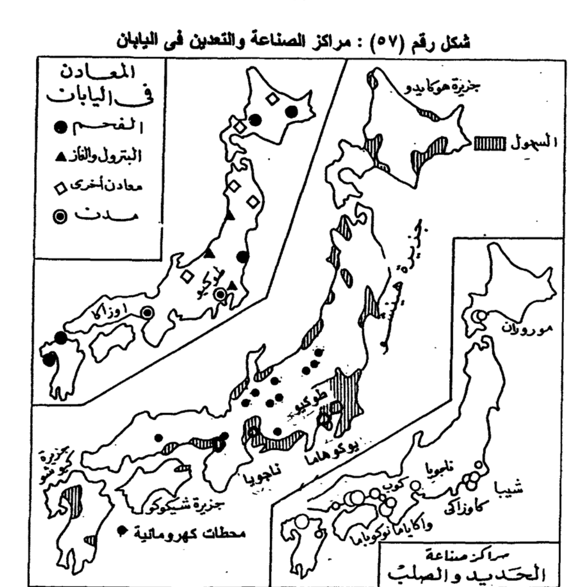
هذه صورة اليابـــان

تسودها المرتفعات والسلاسل الجبلية المعقدة ، التى يتراوح إرتفاعها ما بين ١٠٠٠ ، ٢٥٠٠ متر ، وقد تصل بعد القمم إلى مايزيد على ٣٠٠٠ متر ، تؤلف هذه السلال العمود الفقرى إن لم يكن الأساسى لليابان جميعا ، وتشغل نحو ٧٥٪ من مساحتها ، أما المنخفضات السهلية فلا تشغل سوى نحو ١٥٪ من كل مساحة الجزر ، وتمتد هذه المنخفضات أساسا على الساحل الشرقى ، على شكل جيوب أو أحواض متقطعة متباعدة ، أكبرها سهل كوانتو أو سهل طوكيو ، وسهل كينكى فى جزيرة هنشو ، ثم تقل السهول فى الوسط ، وعلى الساحل الغربى ، أى أن الجبال لها السيادة المطلقة ، مثلما تحيط بها البحار من جميع جوانبها أو كما يقول كرسى " إذا نظرت إليها من البحر تجدها ترتفع جبلا فوق جبل ، وإذا نظرت من اليابس ستجد وجه الماء فى كل مكان " .

العلاقات المكانية :

وكان هذا الأرخبيل الجزرى الذى يقع على الرصيف القارى للقارة الأسيوية : هنشو أكبرها وشيكوكو ، وكيشو ، فى العصور القديمة والوسطى على أطراف العالم ، أو هامشه ، لكن بعد ذلك أصبح على طريق الأمريكتين ، فكل خط جوى أو ملاحى من سان فرانسيسكو أو سياتل إلى ساحل الصين أو الفلبين أو سنغافورة إما أن يمس اليابان ، أو يمر على بعد أميال قليلة من سواحلها ، والخط الجوى من سان فرانسيسكو إلى مانيلا عن طريق هاواى ، وجوام يزيد بنحو ٢٠٠٠ ميل عن الخط المباشر إلى مانيلا عن طريق طوكيو ، وزادت قناة بنما من أهمية موقعها ، كما فعلت قناة السويس بالنسبة لبريطانيا ، ولاننسى أن اليابان تقع على كثب من سوق المليار وربع من سكان العالم ، أى الصين .

شكل رقم (٥٧) : مراكز الصناعة والتعدين فى اليابان



دولة مستوردة لغذائها وخاماتها ووقودها :

تبذل اليابان جهوداً خارقة لإستغلال المساحة الصالحة للزراعة ، سواء فى سهول أو فى منحدرات سطوح جبالها ، وذلك بإستخدام أصناف الأرز العالية الإنتاج ، والتسميد والرى ، وإدخال الآلات ، نظرا لهجرة السكان نحو الحضر الصناعى ، بينما كانت الزراعة تضم أكثر من ٥٠٪ من القوى العاملة عام ١٩٢٠ ، أصبحت الأن حرفة ٨٪ فقط من السكان وحتى هؤلاء يعملون بها بعض الوقت ، ويكسبون عيشهم من حرف غير الزراعة بقية الوقت ، وحتى تحد الحكومة من هجرة الأرض الزراعية ، ترفع الحكومة أسعار المحاصيل الزراعية بطريقة غير طبيعية ، وعندما حدث العراك بين الولايات المتحدة الأمريكية واليابان فى التسعينيات فيما يختص بحجم وقيمة تدفق السلع بين الجانبين ، وعرضت الولايات المتحدة الأمريكية أن يمد المزارع الأمريكى المستهلك اليابانى بالأرز الأمريكى بسعر يبلغ نحو سدس سعر الأرز اليابانى ، ومع ذلك لم تجد

سوقا مفتوحة فى اليابان على نحو ماوجدت اليابان أسواقا مفتوحة فى الولايات المتحدة الأمريكية لسياراتها .

ولما كان الغذاء اليابانى غنيا بالنشويات ، على رأسها الآرز ثم القمح والشعير والبطاطس ، كانت حاجة اليابانيين إلى البروتين ، ولحسن الحظ أمكنهم الحصول على كميات كبيرة بحصاد البحر ، لا فى رصيفهم القارى الغنى بالأسماك فحسب، بل وأيضا فى أعالى البحار ، بفضل اساطيل الصيد الحديثة المجهزة ، وكأنها مصانع متحركة ، ولايعادل صناعة الأسماك فى اليابان أى صناعة مماثلة فى الولايات المتحدة الأمريكية أو غرب أوربا ، هذا فضلا عن تربية الأسماك فى حقول الأرز والبرك الصناعية ، ومع ذلك فهى بعيدة عن الإكتفاء الذاتى غذائيا ، فهى مستوردة له من الولايات المتحدة الأمريكية ، وكندا ، وأستراليا .

وقد إندفعت اليابان منذ منتصف القرن التاسع عشر بقليل ، إلى الأخذ بالحضارة الأوربية الحديثة ، والنقل منها بقوة ، أى أنها دخلت عصر الإنقلاب الصناعى ، فكانت بذلك أولى الدول الآسيوية أوربية تغريبا وتصنيعا .

وإذا كانت الصناعة اليابانية تتميز بطغيان قلة من الشركات الإحتكارية الضخمة ، فهى من الناحية الأخرى تنفرد بكثرة الوحدات الصغيرة الحجم ، التى تنتشر فى أنحاء الريف والمدن ، وتعمل من الباطن فى إنتاج المصنوعات ، وأجزائها لحساب الشركات والمصانع الضخمة (ميتسوبيشى ـ تويوتا ـ هوندا) وأصبحت اليوم الدولة غير البيضاء الوحيدة التى تقف بحضارات صناعية وتكنولوجية وتجارية على أساس من (الندية) إن لم يكن الإستعلاء والمنافسة الخطيرة ، لأكبر القوى البيضاء (الولايات المتحدة الأمريكية) .

ويعتبر مثلث طوكيو ـ يوكوهاما ـ كواساكى أكبر مجمع صناعى فى اليابان ، مسئول عن ٢٠٪ من الإنتاج الصناعى اليابانى ، ويليه مباشرة مثلث أوزاكا ـ كوبى ـ كيتو إلى الجنوب من المجمع السابق .

وخامات هذه الصناعة ووقودها مستورد أساسا من الخارج ، فإذا ضربنا المثل بصناعة الصلب ، فنجد أنها تستورد حديدها من الفلبين وماليزيا وأستراليا والهند، بل ومن أفريقيه ، كما تستورد معظم الفحم من أستراليا وأمريكا الشمالية ، والبترول من الخليج وأندونسيا .

وتغزو أسواق العالم بصناعاتها بدءاً من لعب الأطفال ، والمنسوجات ، والسيارات ، إلى الأجهزة الطبية الدقيقة ، إلى أكبر مصانع للسفن المحيطية ، وإنتقلت الآن إلى صناعة الطائرات ، والكيماويات والإلكترونيات والإتصالات سيدة صناعات القرن الواحد والعشرين .

نخلص من هذا بأن اليابان أبعد عن الكفاية الذاتية غذائيا ، وخامات ، ومعادن من ثم كان عليها أن تصدر لتعيش ، ومحور الحياة هناك إستيراد خام ووقود الأخرين ، ثم تصديرة إليهم مصنعا ، أى تصدير العمل والتكنولوجيا ، من ثم كانت الأسواق والتنافس عليها هى الهم الأوربى والأمريكى .

الناتج المحلى والتجارة الخارجية :

بزغت اليابان كقوة إقتصادية عظمى تثبت أقدامها شيئا فشيئا ، حيث بلغ الناتج المحلى الإجمالى لليابان فى عام ٩٤ حوالى ٤٥٩٠ بليون دولار ، لتأتى فى المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة الأمريكية التى حققت فى نفس العام ٦٧٣٨ بليون دولار ، والفرق واضح بينهما ، فى الحجم والمساحة ، وعدد السكان ، بل ومصادر الثروة ، ومازالت اليابان تسبق باقى دول العالم الصناعية الكبيرة كألمانيا التى حققت ٢٠٤٥ بليون دولار . وبالطبع إنعكس ذلك على متوسط الدخل الفردى ليصل فى اليابان إلى ٣٧ ألف دولار لتمثل المرتبة الثانية بعد سويسرا .

وللتدليل على هذه القوة الإقتصادية يجب أن نشير إلى أن حجم الصادرات اليابانية بلغ ٤٠٢ بليون دولار فى عام ٩٥ ، بينما بلغت وارداتها عن نفس الفترة ٢٧٤ بليون دولار . لتحقق فائضا تجاريا يصل إلى ١٢٨ بليون دولار ، فى تجارتها مع مختلف دول العالم وعلى رأسها الولايات المتحدة " أكبر شريك تجارى لليابان " ويصل هذا الفائض إلى ٦٦ بليون دولار ، ومن خلال هذه الأرقام نرى أن اليابان تستحوذ على نسبة ١٠٪ من إجمالى حجم التجارة العالمية البالغة ٤٠٨٨ مليار دولار وفقا لإحصائيات صندوق النقد الدولى .

الطاقة النووية

لاتحتفظ اليابان بأى أسلحة نووية بالرغم من توافر الإمكانات اللازمة التى تتيح لليابان إمتلاك وتصنيع السلاح باليابان ، ولكن لديها ٤٩ مفاعلا نوويا تستخدم للأغراض السلمية (إستخراج الطاقة) وهناك سبعة مفاعلات تحت الإنشاء حاليا. وبذلك تأتى فى المرتبة الثالثة بعد كل من الولايات المتحدة (١٠٩ مفاعل) وفرنسا (٥٥ مفاعل) ، بل وتسبق دول نووية أخرى كالصين ، وروسيا ، وبريطانيا فى أعداد المفاعلات النووية ، فالقدرة على إمتلاك السلاح النووى متوافرة ، إلا أن الحظر الأمريكى ، والرغبة اليابانية يسيران فى طريقين متلاقيين لتعتمد اليابان إعتمادا كليا فى سياستها الدفاعية وحماية أمنها القومى على الولايات المتحدة الأمريكية .

الصنـــــاعة

ولايوجد بلد صناعى لديه فائض تجارى فى المصنوعات مع اليابان . فأكثر المصدرين فى العالم وهم الألمان ، لايستطيعون أن يتنافسوا بنجاح فى السوق اليابانية ، كما أن النمور الصغيرة على جانب المحيط الهادى لديها عجز مماثل .

صناعة الصلب

ولو تطرقنا إلى إنتاج الصلب (وهى دولة مستوردة للمواد الخام) لوجدنا أن إنتاج اليابان من الصلب الخام يصل ٩٨ مليون طن سنويا من إجمالى الإنتاج العالمى البالغ ٧٢٣ طن لتحتل المركز الأول ، وقبل دول كثيرة منها الولايات المتحدة التى يبلغ إنتاجها ٨٨ مليون طن سنويا ، وهنا يجب أن نراعى أن إنتاج الصلب اليابانى تُوجه النسبة الأكبر منه إلى الصناعات المدنية ، حيث لايخفى علينا أنه فى الولايات المتحدة تحول نسبة كبيرة إلى الصناعات العسكرية .

صناعة السيـارات

حققت جنرال موتورز الأمريكية فى بداية السبعينيات عملاق صناعة السيارات، تفوقا على كل مؤسسة صناعية أخرى . لم يكن هناك مايضاهيها ، وكان يقال عنها دائما أنها المؤسسة الأفضل إدارة فى أمريكا . وكانت صناعة السيارات قلعة حصينة للقوة الإقتصادية الأمريكية ، بعد ذلك بعشرين عاما أصبح من الأسئلة المثارة ما إذا كان بإستطاعة أية مؤسسة أمريكية لصناعة السيارات أن تبقى على قيد الحياة عشرين سنة أخرى ، فحصة اليابان فى الأسواق التى عبرت فى منتصف عام ١٩٩١ حاجز ال٣٠ فى المائة ، تواصل النمو عاما بعد عام فى بطء ، ولكن فى ثبات ، وهاهى تويوتا تبلغ الشركات الموردة التابعة لها شيئا لم يكن فى الوسع تصوره قبل ذلك بعشرين سنه . (أن تويوتا عاقدة العزم على أن تسبق جنرال موتورز عند نهاية القرن) وتويوتا منكبة على العمل لتحقيق ذلك .

كانت صناعة السيارات الأوربية تسير حتى إلى أسوأ فشركات فيات ، وبيجو ورينج روفر / استرلنج ، ورينو طردها اليابانيون تماما من السوق الأمريكية . كما أن شركة فولكس فاجن فى طريقها إلى المصير نفسه (نقصت حصتها فى السوق من ١٠ فى المائة إلى واحد فى المائة) ، وهى عندما تترك تلك السوق لن تبقى فى سوق الولايات المتحدة مؤسسة واحدة من مؤسسات الصناعة الكبيرة الأوربية لصناعة هذا النوع من السيارات (مرسيدس ـ بنز ، وأودى ، سلب ، فولفو ، جاجوار ، بورش) تفقد بالتدريج حصتها فى السوق ، وتتخذ الأن موقف الدفاع ، مع دخول السيارات اليابانية الفاخرة (ليكسوس ، أنفينيتى ، أكورا) .

ويستطيع اليابانيون تجميع سيارة فاخرة بعدد لايتجاوز ربع الأيدى العاملة التى تلزم لتجميعها فى أوربا ، وبإستطاعاتهم أن يدخلوا طرازات جديدة فى الإنتاج بسرعة أكبر ، كما أن سياراتهم بها عيوب ، أقل فهل من المستغرب أن يطالب رئيس شركة فيات بإتخاذ إجراءات لإبقاء اليابانيين تحت السيطرة ، فهو يقول : ليس هناك مايمكن أن يكون أكثر يابانية وأقل كونية من شركة يابانية كبيرة حتى إذا كانت تعمل فى القارات الخمس جميعا . فصناع القرار يابانيون ، وأصحاب المصالح يابانيون ، والتنظيم يابانى ، والبحث والتطوير يابانيان ، وكذلك عقلية الغزو التجارى .

صناعة الحاسبـــات :

كانت شـركة أى . بى . ام (I. B. M) فى بداية الثمانينيات تحصل على جوائز بإعتبارها صاحبة أفضل إدارة ، تتخذ الآن بالمثل موقف الدفاع ، وتتحدث الصحافة اليابانية عن ثلاث شركات كبيرة لصناعة الحاسبات الآلية مستعدة للتغلب على هذه الشركة ، إنها أكثر من مستعدة ، فإثنتان منها لديهما حصتان فى السوق أكبر من حصة أى . بى . ام . فى اليابان . أما الثالثة فهى بدورها على وشك تجاوز العملاق الأمريكى . ففى عام ١٩٩٠ إرتفعت مبيعات أى . بى . ام فى اليابان بمقدار واحد فى المائة ، على حين كانت السوق اليابانية الكلية تتوسع بمقدار ١٠ فى المائة . ومع ذلك فإن أى . بى . ام هى المؤسسة الأولى فى مجالها فى أى مكان آخر فى العالم ، كما أن الشركات ، الأمريكية الأخرى لصناعة الحاسبات الألية ليست بأفضل حالا .

الإنســـان الألـــى :

ويمكن أن نرى النتائج فى عدد أجهزة الإنسان الألى (الروبوت) التى تعمل فى اليابان ، ويزعم اليابانيون أن لديهم ٢٧٥ ألف جهاز منها ، وتقول الرابطة الأمريكية لصناعة أجهزة الربوت أنه يوجد ١٧٥ ألف جهاز فقط لدى اليابان ، بيد أن كلا الرقمين أعلى كثيرا من عدد أجهزة الروبوت لدى الولايات المتحدة (٣٧ ألف جهاز) وهى دولة لديها ضعف عدد عمال اليابان .

الإستثمارات الخارجية :

بلغت الإستثمارات اليابانية خارج اليابان ٢٥٩ بليون دولار عام ٩٤ ، وفى نفس الفترة وجهت اليابان مساعدتها للتنمية لمختلف دول العالم النامى ليصل حجم هذه المساعدات إلى ١٦ بليون دولار ، وبذلك تحتل اليابان المركز الأول على قائمة الدول المانحة الأعضاء فى منظمة التعاون الإقتصادى والتنمية OECD وهو ما يمثل ما يقرب من ٢٠٪ من إجمالى المعونات التى تقدمها المنظمة .

طلب مقعد فى مجلس الأمن :

قدمت اليابان إقتراحا مع ١٥ دولة أخرى لإعادة النظر فى ميثاق الأمم المتحدة ، بهدف تعديله ليتمشى مع تطور العصر ، وتزداد فاعلية المنظمة ، وأعلنت اليابان أن من حقها أن تحتل مقعداً دائما فى مجلس الأمن ، نظرا لمساهمتها المالية الضخمة فى ميزانية الأمم المتحدة ، فضلا عن مركزها المتعاظم إقتصاديا.

أسباب العملقة العالمية

البشـــر:

أحد أسرار هذه القوة الإقتصادية ، يكمن فى الفرد اليابانى وحرصه الشديد ليس على حب الوطن والعمل فحسب ، بل التفانى فيه والحرص على إنجازه على الوجه الأكمل ، فالمواطن اليابانى يتجه إلى العمل الجماعى فى إطار من الولاء العميق، لاسرته ، ومؤسسته ووطنه ، لذا أصبحت اليابان دولة غنية بشعبها ، وليس بمواردها ، فنسبة التعليم فى اليابان تصل إلى ١٠٠٪ ، وهى من أوائل دول العالم التى إستطاعت أن تمحو أمية شعبها ، وتحافظ على تراث وثقافة هذا الشعب ، بقدر ما تطبق أوسع درجات التقدم فى أسلوب الحياة ، فالفاصل هذا واضح المعالم ، بين الإلتزام بالتقاليد اليابانية القديمة فى الحياة والعمل ، وبين تطبيق المدنية الحديثة دون تداخل أو تعارض أو تأثير أى منها سلبا على الأخر .

إقتصاد المنتجين وإقتصاد المستهلكين :

يقوم الإقتصاد الإنجلوساكسونى (فى أوربا وأمريكا) على تحقيق أقصى منفعة حيث يكون الإستهلاك الأكثر ، ووقت الفراغ الأطول ، أى على العنصرين الإقتصاديين الوحيدين للرضا البشرى . وتكون الإنتاجية الأعلى مرغوبا فيها مادامت تعطى الأفراد دخولاً أعلى يشترون بها سلعا إستهلاكية أكثر ، والقدرة على تقليل الجهد الذى يبذل فى العمل للحصول على وقت الفراغ أطول دون تضحية بالإستهلاك ، ويعد كل من العمل والإدخار (أى ما تم التخلى عنه من وقت الفراغ والإستهلاك) لايجرى تحملها ، إلا لأن الدخل المقبل الذى ينشأ عن هذين النشاطين يوفر الموارد الإقتصادية اللازمة للإستهلاك المقبل .

فمؤسسة الأعمال فى النظام الأنجلوساكسونى إنما توجد لتوفير فرص للدخل ـ الكسب ، لاأكثر ولاأقل ، وتأمين مصلحة العامل فى الأمن عن طريق المدخرات الفردية والتأمين . ولاينبغى لموظف أن يشغل باله بالتشبث بوظيفتة الحالية . وهو يستطيع أيضا أن يجد وظيفة بديلة يحصل منها على أجر عادل مساو لإسهامه فى الإنتاج فى جهة أخرى ، فالأفراد يعملون بكد وإجتهاد ، لأنهم يخشون البطالة ـ أى فقد الإمتيازات الإستهلاكية . وإذا ماتراجع هذا الخوف ، فإن كل فرد سيعمل بكد أقل .

وتعتبر الولايات المتحدة نسيجا وحدها عندما يتعلق الأمر بمعدل دوران (تجدد) الأيدى العاملة . فمعدل دوران مقداره ٤ فى المائة كل شهر يقسم بالتساوى تقريبا بين ترك الخدمة والفصل منها ، ومن منطلق تعظيم الربح يعد ذلك علامة الكفاءة . فالعمال يفصلون عندما لاتكون هناك حاجة إليهم ، والعمال يقبلون عروض توظف جديدة حيثما تكون الأجور أعلى ، ومن ثم فالإنتاجية بالتالى أعلى .

وفى اليابان تعرض العمالة مدى الحياة على العمال الأساسيين فى المؤسسات اليابانية ، ولايتجاوز معدل دوران العمل فى اليابان ٣,٥ فى المائة سنويا - أى أن تغير الوظائف فى السنة يعد أقل من مثيله فى الولايات المتحدة شهريا . وفى اليابان يكون الإحتفال الذى يشترك مستخدمون جدد عند إلتحاقهم بالشركة فى وظيفة مدى الحياة ، شبيها بتقديم الولاء للسيد فى العصور الوسطى . وينظر إلى ترك " مملكة الرب " أو شركة يابانية بإعتباره "خيانة " فالمستخدم يجب أن يعطى الإخلاص فى مقابل الأمن الذى الذى تمنحه المؤسسة إياه ، وكما جاء فى نشرة لشركة يابانية أن معظم المستخدمين الجدد يبدو أنهم يقرون بالمثل السائر القديم : " إبحث عن شجرة كبيرة إذا كنت تنشد الظل " فالمرء يصبح ضمن مجموعة لها هدف أكبر من مجرد زيادة الأجر ، من هذا المنظور من الصعب أن نرى حكمة فيما تفعله المؤسسات اليابانية التى تعطى ضمانات صريحة بعمالة مدى الحياة ، بإعتبارها جزءا من سعيها لخلق أيد عاملة أكثر إنتاجية . ولكن إذا أخذنا الأمور من زاوية بناة إجتماعيين ، فإن الأمن يعد ميزة مهمة للمؤسسة . فالإمبراطوريات والأمم تربط مواطنيها بها عن طريق توفير الأمن الخارجى (الحماية من الغزو) والأمن الداخلى (القانون والنظام) .

ويكمن سر اليابان فى أن اليابنيين إستغلوا رغبة بشرية عامة فى البناء ، وفى أن يصبح البلد القوة الإقتصادية الرئيسية فى العالم . وهدفهم هو تحقيق أكبر حصة ممكنة فى السوق (الغزو الإستراتيجى) وأقصى قدر من القيمة المضافة (الأرباح والأجور معا) وليس مجرد تعظيم الربح .

والإنسان ليس مجرد ألة تحقق زيادة فى الإستهلاك ووقت الفراغ ، فهو أيضا منتج وفى لغة الملصقات الإعلانية : فإن البشر قد يولدون ليتسوقوا ، ولكنهم يولدون أيضا ليبنوا . وهذه الرغبة فى البناء تولد مايسمونه " إقتصاد المنتجين " اليابانى لتميزه عن إقتصاد المستهلكين " الأنجلوساكسونى .

هكذا نجد اليابان بقوة إقتصادها الكاسح تتبوأ المكانة العالمية الأسمى ، وتخشاها القوى الصناعية العملاقة فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا .

خـــــــاتمة

(١)

كشـف حسـاب القـرن العشـرين

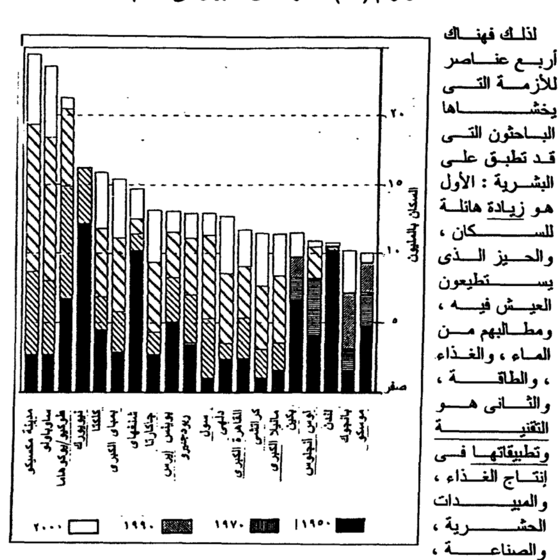
أكثرنـا مـن ذكـر القـرن القـادم ، ومشـارف القـرن القـادم ، ولكـن الأمـر لايعدو سنوات قليلـة أقـل مـن أصـابع اليـد الواحـدة ، ويحـس الإنسـان مـن كثرة ماكتب عن بلوغ القرن الجديد ، وكأننـا مقدمـون علـى قـرن عـالم جديـد غريب ، وأن هذا العالم سيبدأ عـام ٢٠٠١ ، وفـى الحـق أن وضـع تواريـخ معينـة هـى لمعرفـة الزمـان ، وليـس شـرطا أن يصحـب هـذا التـاريخ أو ذاك أحـداث أو تغـيرات معينـة ، بدليـل أن البعـض ينهـى القـرن العشـرين مـن ناحيـة الأحداث بعام ١٩٨٩ ، حين عملت المعاول فى سـور برليـن ، فكـان هذا إيذانـا لابإنهيـار الحـائط بقدر ماكان إيذانـا بإنهيـار نظـام شـمولى سـلطوى ظل وراء ستار حديدى نيف وسبعين عاما ، وفـى نفس الوقت يذهبـون إلـى أن بدايـة القـرن العشـرين لـم تكـن عـام ١٩٠١ ، بـل مـع بدايـة الحـرب العالميـة الأولـى عـام ١٩١٤ لينتهـى هـذا القـرن بعـد ثـلاث حـروب ، إثنتـان منهـا سـاخنتان (١٩١٤ ، ١٩٣٩) والثالثـة بـاردة وإنتهـت فـى تسـعينات هـذا القـرن ، ومهمـا يكـن مـن أمـر لابـد وأن نمرسـريعا علـى مـا حـدث فـى القـرن المحتضـر ، لأنـه مؤشـر مبدئـى علـى الجينـات الوراثيـة التـى سـيحملها المولـود الجديـد أو القـرن الجديـد .

السـكان والبيئة

تغير الموقـف العـالمى بالنسـبة للسـكان تغـيرا كبـيرا ففـى منتصـف هـذا القـرن كـان عـدد سـكان العـالم نحـو ٣ بليـون نسـمة ، إرتفـع الآن إلـى ٥,٧ بليـون نسـمة ، وبـدأ السـكان ينتشـرون فـى مسـاحات جديـدة لـم يكونـوا قـد طرقوهـا مـن قبـل ، ومـع ذلـك فـالموارد ليسـت لانهائيـة أمـام هـذه الأعـداد المـتزايدة ، وكـان هـذا معنـاه إنخفـاض نوعيـة الحيـاة (بطبيعـة الحـال فـى العـالم النـامى) بالنسبة لمـا يـتراوح بيـن ١، ٢ بليـون نسـمة ، بل وتوفـى نحـو ٢٠٠ مليـون نسـمة منـذ عـام ١٩٦٥ حتـى ١٩٩٥ نتيجـة سـوء التغذيـة أو الأمـراض المتعلقـة بـه ، ويقـدر عـدد مـن يعيشـون تحـت حـد الفقـر وغـير صـالحين للأعمـال التـى تحتـاج نشـاط ذهنـى أو عقلـى نتيجـة سـوء التغذيـة بنحـو بليـون نسـمة ، فهـم أحيـاء ولكنهـم فـى عـداد الموتـى ، ويرتبـط بهـذه الزيـادة السـكانية زيـادة وتضخـم الحضـر ، ذلـك أنـه ببلـوغ عـام ٢٠٠٠

سيكون فى العالم ٢٥ مدينة على الأقل يزيد عدد سكان الواحدة منها على عشرة ملايين نسمة ، وستكون سبع عشرة مدينة من هذه المدن الضخمة فى الدول النامية ، ويعنى توفير إحتياجات هؤلاء الناس أكثر من مجرد وضع سقوف فوق رؤوسهم ، بل يعنى توفير التعليم ، وفرص العمل ، والبيئة الصحية الآمنة .

شكل رقم (٥٨) : نمو المدن الكبرى فى العالم



لذلك فهناك أربع عناصر للأزمة التى يخشاها الباحثون التى قد تطبق على البشرية : الأول هو زيادة هائلة للسكان ، والحيز الذى يستطيعون العيش فيه ، ومطالبهم من الماء ، والغذاء ، والطاقة ، والثانى هو التقنية وتطبيقاتها فى إنتاج الغذاء ، والمبيدات الحشرية ، والصناعة ، والنفايات الناتجة ، وهناك الطرق السريعة والقطارات والطائرات ، والسيارات التى أصبحت تصل بنا إلى أبعد المواقع ، والثالث هو الإستهلاك المتزايد بمعنى زيادة قدرة الفرد على إستخدام الموارد أكثر فأكثر من ألياف وأخشاب ومعادن وطاقة وماء ، والرابع هو إستدامة Sustainability التوازن البيئى بمعنى القدرة على بناء نظم لإستخدام الأرض متوازنة بيئيا ، ويقصد بإستخدام الأرض ذلك النشاط البشرى

للأرض من زراعة ومسكن ونقل وصناعة ، وهذه الإستخدامات مرتبطة ببعضها ، والإستخدامات التى تهدد البيئة وضارة بها غير مطلوبة ، سواء من حيث فقد خصوبة التربة أو تعريتها أو التلوث إلى آخره مما لايقتصر أثره على الإقليم الذى تقع فيه ، بل يتسع مداها لتصبح عالمية بعد حين .

شكل رقم (٥٩) : قطرات التلوث

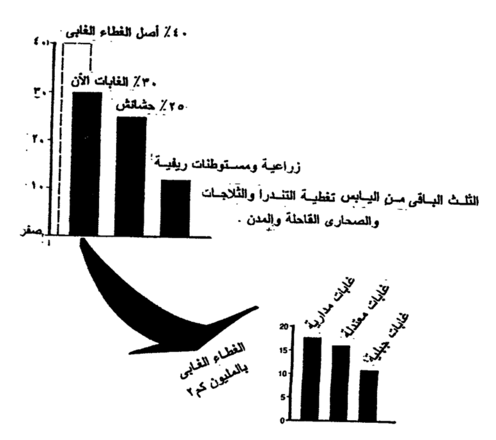


من ثم كانت قضية تدهور البيئة تستدعى إهتماما عالميا ، وقد يختفى جميع زعماء العالم الموجودون بين اليوم من الوجود ، قبل أن تنتهى الأرض من دفع كامل ثمن المطر الحمضى ، وإرتفاع درجة الحرارة العالمية ، وإستنزاف طبقة الأوزون، والتصحر ، وتعرية الغابات ، ولقد اشتدت الحاجة إلى إدارة حكيمة للموارد الطبيعية على نطاق عالمى ، فالغابات المدارية تتناقص بواقع ٣٠ مليون فدان سنويا ، وتدهورت خلال الثلاثين عاما الماضية حالة أكثر من ٤٠٠ مليون فدان من غابات المرتفعات فى الدول النامية المدارية ، وتضررت الغابات فى أوربا وأمريكا الشمالية بالأحماض الموجودة فى الهواء والتربة ، ويتم نقل النفايات السامة بلا ضابط أو قانون وطرحها خارج الحدود الوطنية ، وهذه مشكلات لاينفرد بها العالم النامى وحدة ، ولاشك أن التدهور فى وضع البيئة فى العالم ، والنزاعات حول الموارد النادرة يخلق خللا سياسيا وإجتماعيا .

وقد سعت الأمم المتحدة فى الفترة الأخيرة إلى أن يكون لها دور إقتصادى وإجتماعى إلى جانب الدور السياسى ، فإذا كانت من الناحية السياسية لم يرض معظم العالم النامى عن أدائها ، فهى رغم ذلك تلعب دورا فى المشاكل الأساسية التى تواجه البشرية ، فمن قمة الأرض فى ريودىجانيرو إلى مؤتمر القاهرة للسكان إلى مؤتمر التنمية الإجتماعية

فى كوبنهاجن إلى مؤتمر بكين للمـرأة ، وهـى تسـعى فـى كـل هـذا لحشـد الحكومـات والـرأى العـام حـول المشـكلات الكبرى التـى سـيواجهها العـالم فـى القرن القـادم ، بصـرف النظـر عـن إختـلاف وجهـات النظـر فـى التفـاصيل ، فمشـكلات العـالم إزداد طـابعهـا الغير قومـى .

شكل رقم (٦٠) : النسبة المئوية لما تشغله الغابات والحشائش والأراضى الزراعية فى العالم



كهولة العالم المتقدم

بدأت ظاهرة كهولة العالم المتقدم يحس بها الإقتصاديون والإجتماعيون فى العالم الصناعى المتقدم وذلك لنقص مستمر فى معدلات الخصوبة والوفيات فى آن واحد ، وذلك بسبب التقدم الإقتصادى الذى حققته هذه المجتمعات ، إستخدمت أسر هذه المجتمعات إختياريا وسائل السيطرة على التكاثر ، وذلك للوصول إلى مزيد من الراحة والرفاهية ، وفى نفس الوقت ، كان التقدم الطبى وإنجازاته الكبيرة فى القضاء على الأمراض سببا فى زيادة الأعمار ، وتقليل معدلات الوفيات، وهذا معناه أنه سيأتى وقت يكون فيه عدد من هم فوق الستين يفوق عدد من هم تحت الخامسة عشر ، وأنه فى عام ٢٠٢٠سيكون أكثر من واحد بين كل أربعة من سكان أوربا فوق سن الستين أى بنسبة ٤:١ ، ومن الواضح أن هذه الزيادة فى عدد من المسنين لن تتوقف ، وهذا معناه أن فئة كبيرة من المجتمع لن تشترك فى العملية الإنتاجية ، بل ستظل فائضا معطلا ومستهلكا ، وبالتالى تزداد نسبة الإعالة فى المجتمع ، وفى المجتمعات التى ترصد ميزانيات للرعاية الإجتماعية والصحية كما فى الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية واليابان والنمور الأسيوية ، ستضخم هذه الميزانيات ، مما يؤثر على مخصصات التعليم والصحة والبنية الأساسية ، وأخيرا هناك صعود المسنين كقوة سياسية مع تنامى أعدادهم ، فإذا كانت هذه الفئة فى الدول الصناعية ما بين ٤/١ ، ٥/١ السكان ، فهذا معناه قوة إنتخابية ضخمة ، وستكون هذه الفئة متوحدة فيما يختص بمصالحها وحقوقها فى الرعاية الإجتماعية والصحية ، وهذا معناه تنافس على ميزانية الدولة ، هل تزيد الدولة ميزانية التعليم أم ميزانية التقاعد ؟ وحيث نذكر هذه الظاهرة فى مجال الجغرافية السياسية لأن أثارها لن تكون محلية بل ستكون أثارها دولية ، فالمجتمعات المتقدمة ستكون فى إحتياج الشباب للطاقة المنتجة ، على حين أن هذه الطاقة متوفرة بل وفائضة فى العالم النامى ، ألا يؤدى هذا فى المستقبل إلى تغيير سياسات تقييد الهجرة التى تتبعها الآن الدول المتقدمة ؟ والا يؤدى هذا إلى مزيد من العنف الذى بدأ يظهر فى أوربا حيال الأجانب ، ألا يؤدى هذا الى إرتفاع أصوات الدول النامية مطالبة بحرية الهجرة لشبابها إلى المجتمعات الغربية كما فعلت بنجلاديش ، هذه ظاهرات سياسية ظهرت فى الربع الأخير من القرن العشرين وقد تشتد حدتها فى القرن القادم .

عصبة الأمم و الأمم المتحدة

قامت حربان عالميتان أثناء هذا القرن ، راح ضحية الأولى (٤ملايين من البشر) وراح ضحية الثانية (٢٥ مليونا) وإنهارت إمبراطوريات عقب الحرب العالمية الأولى ، وإستعمرت الدول العربية ، وقسمت بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، والغى رسميا نظام الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ ، كما وضعت أقطار تحت الإنتداب عقب الحرب الأولى ، وتحت الوصاية عقب الحرب الثانية وقسمت دول وإقتطعت منها أجزاء أضيفت إلى دول أخرى .

فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وعلى وجه التحديد فى ٢٥ يناير ١٩١٩ عقد مؤتمر السلام الدولى وقررت الدول المشاركة فى المؤتمر بالإجماع إنشاء منظمة دولية عرفت فيما بعد باسم عصبة الأمم League of Nations وعقد أول إجتماع لها فى ٢٦ /١/ ١٩٢٠ فى باريس . وخلال الفترة القصيرة التى عاشتها (١٩٢٠ / ١٩٣٦) كان الهدف هو الحيلولة دون تغير الواقع الدولى ، وقد تفاقمت الخلافات الإقليمية ، ووقعت العصبة عاجزة عن عمل شيئ عندما ضمت ألمانيا النمسا ، وغزت بولند فى مستهل الحرب العالمية الثانية .

وفى عام ١٩٤٤ وضع خبراء دوليون من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا والإتحاد السوفييتى والصين قواعد أساسية لمنظمة دولية تخلف عصبة الأمم بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية ، وفى ٢٥ أبريل ١٩٤٥ إجتمعت خمسون دولة لمناقشة ميثاق الأمم المتحدة فى مؤتمر سان فرانسيسكو ، وصدقوا عليه فى ٢٦ يوليه ١٩٤٥ ، وما هو جدير بالذكر أن مصر كانت أحد الموقعين على هذا الميثاق .

ثورة وفورة الإستقلال

ظل العالم حتى الحرب العالمية الثانية ، عالم يسوده الرجل الأبيض ، أو هو عالمه مسيطر على كل شيئ فيه ، هيمنة سياسية وإقتصادية ، أو كما يقولون القوة البيضاء ، والقوة غير البيضاء ، كان أمرا مسلما به ، والواقع أن الحربان العالميتان الأولى والثانية كانتا بمثابة مسمارين دقا فى نعش الإستعمار وهيبة الرجل الأبيض ، الذى كانا يعد شعوب المستعمرات بالإستقلال عقب الحرب حتى يحصل بسهولة على رجالها وقودا للحرب ، وعلى مواردها لتغذيته وتغذية الة الحرب ، من ثم فما أن

إنتهت الحرب حتى بدأت أعلام الإستقلال ترتفع فوق المستعمرات تباعا، يكفى أن نعرف أنه منذ عام ١٩٤٣ حتى عام ١٩٩٧ حصلت ثمان وتسعون دولة على إستقلالها ، أكثر من نصفها فى أفريقيه ، وأكثر من ثلثها فى الستينيات .

وتأثر بذلك المناخ السياسى العام فى العالم ، وأصبحت حكومات ورؤساء الدول المستقلة حديثا لها رأى وقول فى شئون العالم، بل كانوا من نجوم العالم من غاندى إلى هوشى منه إلى مانديلا ، بعد أن إحتكرت الحياة السياسية العالمية الدول الأوربية وأمريكا ، فقد وقع ميثاق الأمم المتحدة ٥١ دولة فقط عام ١٩٤٥ زادت لتصبح ١٢٥ دولة عام ١٩٧٠ وصارت الأن ١٨٥ دولة.

غير أنه ما أن تحققت أمانى الإستقلال ، حتى وجدت الدولة المستقلة حديثا أنها خرجت من معركة الإستقلال السياسى ، لتقع فى جب الإستعمار الإقتصادى وأن العالم المتقدم استبدل بالتبعية السياسية التبعية الإقتصادية ، فظهرت مشكلات جديدة لم تكن تعرفها من قبل كالديون والبطالة والتضخم والإستثمار وغيرها .

عالم ثنائى القطبية وصحوة فهود شرقى آسيا

تبلور الصراع العالمى فى النصف قرن الأخير من القرن العشرين فى ظهور كتلتين رئيسيتين ، الأولى هى الولايات المتحدة ، وأوربا الغربية حاملة أليات السوق ، وإن كانت مغلفة بمفاهيم إنسانية كالعدالة الإجتماعية مع تطبيق قواعد التصحيح الذاتى من خلال تداول السلطة ، والثانية على رأسها الإتحاد السوفييتى ، وتحمل نظرية أيديولوجية مثيرة لخيال وحلم المثقفين ، غير أنها لاتحمل داخلها آليات التصحيح الذاتى بالديموقراطية ، فكان أن تحللت ، فإختل توازن العالم لان وجود المنافسة بين الكتلتين لنحو ٤٠ عاما كان مخرجا للدول المستقلة حديثا ، فإنحازت إلى أى من الكتلتين ، وحصلت على الدعم السياسى والمادى ، ولذا أصبحت بعض الدول الفقيرة – فى المرحلة الحالية – فى مأزق ، بل وتحلل بعضها من الداخل لعدم وجود المنافس القوى للقطب الأوحد ، وأصبح العالم بعد نصف قرن فى حالة ميوعة أسوأ من أحواله عام ١٩٤٥ .

وما أن رفع غطاء الصراع الأيديولوجى مع إنتهاء الحرب الباردة ، إلا واتضح أنه كان يغطى عشرات (وربما مئات) الصراعات التى

كـانت موجـودة فـى كتـب التـاريخ فقـط ، منهـا حـروب دينيـة ، ومذهبيـة ، وعرقيـة ، وقبليـة ، عـادت إلـى السـطح بشـكل أو بـآخر . ولعـل أبرزهـا مأسى التطهـير العرقـى فـى يوغوسـلافيا السـابقة ، وعشـرات الصـراع فـى أفريقية ، ولـم يخل عالمنـا العربـى مـن حـروب أهليـة فـى لبنـان ، ثـم حاليـا فـى السـودان ، والعـراق والجزائـر وغيرهـا .

خرجـت كـل مـن ألمانيـا واليابـان كيـانين محطميـن عمرانيـا وإقتصاديـا وإنسانيا ، وفـى أقل مـن نصف قـرن أصبحـا مـن أكبر قـوى العـالم ، وصـار كـل مـن المـارك الألمـانى واليـن اليابـانى مـن أقـوى العمـلات ، وتغـيرت الموازين الإقتصادية وأشـرقت شـمس النمـاء الإقتصـادى علـى شـرقى أسـيا فـى هونـج كونـج وتـايوان وكوريـا الجنوبيـة وسـنغافورة ، وفـى الطريـق اندونسيا ، وكـانت اليابـان قـد سـبقت الجميـع كمـا قـام المـارد الصينـى مـن رقـاده بحيث أصبح البعض يعتقد أن القرن القـادم قـد يكـون قرنـا آسـيويا !!

تكتلات إقليمية

ظهـرت تكتـلات إقليميـة شـتى نتيجـة إسـتقلال الـدول التـى كـانت تابعـة مـن قبل إلـى دول كـبرى عتيـدة ، أخـذت فـى الأغلـب الأعـم شـكل كتـل جغرافيـة أو أيديولوجيـة ربمـا كـان أقدمهـا هـو " الجامعـة العربيـة " والتـى جـاء تأسيسـها عـام ١٩٤٥ قبل الأمـم المتحـدة بشـهور ، ولكـن التكتـل العربـى لـم يحقـق مـا كـان منتظـرا مـن تقـارب إقتصـادى أو سياسـى ، ثـم كـانت " منظمـة الوحـدة الأفريقيـة " وهـى أيضـا لـم تحقـق الكثـير ، ولكنهـا حـافظت علـى اسـتقرار وضـع الحـدود والفواصـل بيـن الـدول التـى إسـتقلت حديثـا وثبتتهـا ، ولكـن ذلـك لـم يمنـع مـن تفكـك دول بأسرهـا مـن الداخـل بإنهيـار سـلطة الدولـة أو بـالحرب الأهليـة مثـل الصومـال وروانـدا وأنجـولا وليبريـا وزائـير وغيرهـا ، ثـم كـانت كتلـة الأول المسـماة " مجموعـة الـ٧٧ ، ثـم محـاولات " السـوق الأوروبيـة المشـتركة ، والتـى تحولـت مـع الوقـت إلـى " الجماعـة الأوروبيـة ثـم الإتحـاد الأوربـى " ولعلنـا نذكـر أيضـا تأسـيس مجموعـة دول عـدم الإنحيـاز ، والتـى تصـارع حاليـا مـن أجـل البقـاء لإنتهـاء النظـام المرتكـز علـى قطبيـن ، فقـد كـان سـبب وجودهـا ــ ولـذا فإننـا علـى عتبـة تكتـلات متعـددة ولكـن مـن نـوع آخـر فهـى سـمة القـرن الحـادى والعشـرين.

سباق تسلح رهيب

شهد النصف الثانى من القرن العشرين سباقا غير مسبوق فى التسليح بين كل من الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفييتى ، وظل يتصاعد حتى بلغ الأمر إلى حرب النجوم ، وأصبحت معه القنبلتان الذريتان اللتان ألقيتا على اليابان أشبه بلعبتيين للأطفال ، مما كلف البشرية أموالا ، أهدر من الأرض مواردا ، ياحبذا لو كانت قد أستخدمت فى رفاهية الإنسان عدو نفسه !

فلاشك أن تحديد السلاح والحفاظ على الجيوش فى حالة الإستعداد يكلف الكثير ، ويستنزف الميزانيات والبشر والموارد الطبيعية ، فقد إنفق العالم خلال العقدين الأخيرين نحو ١٧ ترليون دولار أمريكى على النشاط العسكرى بأسعار عام ١٩٨٨ ، أى بمتوسط ٨٥٠ بليون دولار سنويا (تقرير سبيرى ١٩٩٠) ورغم الإتفاق العسكرى منذ منتصف الثمانينات فى الدول المتقدمة ، فإن إستمر فى الزيادة فى معظم الدول النامية ، وتستخدم الأعمال الحربية مايتراوح بين ٨٠،٦٠ مليون نسمة فى العالم ، ولبيان مدى إستفادة العالم إذا ماتحول الإنفاق العسكرى إلى الإستخدامات السلمية تتركز :-

- إن ما أنفقه برنامج الأمم المتحدة خلال العقد ١٩٨٠/٩٠ وهو ٤٥٠ مليون دولار هو أقل مما أنفق لمدة ٥ ساعات على الإنفاق العسكرى

- ثمن طياره هليكوبتر (أباشى) ١٢ مليون دولار ، وبهذا المبلغ يمكن توفير ٨٠ ألف طلمبة ماء يدوية توزع على ريف العالم الثالث ليشرب الإنسان مياها نظيفة

- أن ما أنفق يوميا فى حرب الخليج وقدره ١,٥ مليار دولار يمكن أن يمول برنامجا خمسيا لتطعيم الأطفال ضد ستة أمراض قاتلة وبالتالى يمكن إنقاذ نحو مليون طفل سنويا .

أخطار القوى النووية فى الحرب والسلم

كان لظهور القوة الذرية فى نهاية الحرب العالمية الثانية ، ثم تطورها إلى الهيدروجينية ثم زيادة حدة السباق ، إن إزدادت مخاطر الحرب النووية ، فظهرت القذائف الصاروخية العابرة للقارات التى يبلغ مداها ٥٥٠٠ كم ، وتلك التى تطلق من الغواصات والطائرات ومداها ٦٠٠كم، وتلك المتعددة الرؤوس النووية وغيرها مما أصبح من المستحيل على أى

مـن القوتيـن إسـتخدام هـذه الأنـواع لأنـه ليس فيـه هـلاك المعسكر الآخـر ، بـل هـلاك العـالم ، ويبيـن الجـدول التـالى مـدى التدمـير الـذى أحدثـه ضـرب اليابــان فـأول قنبلتيـن ذريتيـن كانتـا فـى دور التجـارب ، فمـا بـالك بأسـلحة اليـوم ؟

مدى التدمير الذى نتج عن أول قنبلتين ذريتين قرب نهاية الحرب العالمية الثانية على اليابان

	هيروشيما	ناجازاكي
التاريخ	٥ أغسطس ١٩٤٥	٩ أغسطس ١٩٤٥
النوع	يورانيوم ٢٣٥	بلوتنيوم
إرتفاع سحب الإنفجار(بالمتر)	٥٨٠	٥٠٣
المساحة التي إختفت معالمها(كم٢)	١٣	٦,٧
نسبة المباني التي دمرت تماما	٧٦,٩	٢٥,٣٪
نسبة المباني التي دمرت جزئيا	٢٤	١٠,٨٪
عدد القتلى حتى ٣١ ديسمبر ١٩٤٥	٩٠-١٢٠ ألف	٧٠ ألف

وحتـى فـى ظـل السـلام لـم تسلم البشـرية مـن الأخطـار النوويـة ، فإسـتخدام القـوة النوويـة للأغـراض السـلمية تنتـج عنـه مخـاطر جمـة لاتقـل خطـورة عمـا حـدث عـام ١٩٤٥ فـى كـل مـن هيروشـيما ونجـازاكى ، ومـا حـدث مـن إنفجـار أحـدى المفـاعلات الأربعـة فـى أبريـل ١٩٨٦ فـى محطـة تشـيرنوبل لتوليـد الطاقـة فـى غربـى أوكرانيـا ، أدى إلـى تسرب الوقـود المشـع الموجـود بالمفـاعل ، فضـلا عن كـم هـائل مـن البخـار والأتربـة الملوثـة بالإشـعاعات وإنتقالهـا مـع الريـاح إلـى مسـافات بعيـدة مـن الإتحـاد السـوفييتى والـدول الأوربيـة حتـى بلغـت الـدول الإسـكندنافية شـمالا وتركيـا جنوبـا ، وأصـاب الهلـع العـالم أجمـع خشـية أن تكـون الصـادرات الأوربيـة مـن الخضـروات والفاكهـة والألبـان بـل واللحـوم قد أصابهـا التلـوث ولـذا كـان هـذا الحـادث هـو الـذى حظـى بـإعلام عـالمى علـى نطـاق واسـع ، فقد سبقه أخـوة لـه مـن قبـل ، فقد حـدث مثـل هـذا فـى محطـة ويندسـال فـى بريطانيـا عـام ١٩٥٧ ، لأنـه حـدث فـى المعسـكر المعـادى للإعـلام الغربـى !!

إنتقال ساحات القتال من الكبار إلى الصغار

على أن أخطر ما تم فى نصف قرن هو أن الدول الكبرى التى تناحرت فى القرن الماضى ، ثم خاضت حربين عالميتين فى هذا القرن قد إستطاعت بالفعل أن تتحاشى ربما رغما عنها - قيام حرب عالمية ثالثة تهدد أمنها وإقتصادها ، ولكنها نجحت فى أن تنقل ساحات القتال إلى أماكن كثيرة فى العالم الثالث ، فقد أحصت المعاهد المتخصصة ١٣٨ حربا فى الفترة من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٨٩ (عندما إنتهت الحرب الباردة) ونتج عنها قتلى (أى خسائر بشرية) قدرت بنحو ٢٣ مليون نسمة ، وأستهلك فى الفترة من عام ١٩٧٠ حتى عام ١٩٨٩ أسلحة تقدليدية (على كافة أنواعها) قدرت بنحو ٣٨٨ مليار دولار ، كان معظمها من إنتاج دول العالم الصناعى الأول ، ترى ماذا كن لو أنفق جزء من هذه المليارات فى تنمية الدول الفقيرة ، ألم نكن فى عالم أفضل؟

اللاجئون

تميز هذا القرن بظهور مشكلة لم تكن بهذه الصورة من قبل ، وبالذات فى النصف الثانى ، وهى مشكلة اللاجئين فى العالم ، وتاريخهم هو تاريخ الفرار من الموت أو مايشبه الموت من قمع وإضطهاد ومذابح ، فهم لاشك قد ظهروا بظهور الحروب والأزمات الخانقة ، وتطوروا بتطورها، وتزايدوا بزيادة بشاعتها وعموما فإن الأحداث التى شهدتها مناطق عدة من العالم بعد الحرب الثانية ، بل وفى العشرين عاما الأخيرة كانت نتيجتها تشريد عدد ضخم من البشر زاد عددهم على ٥٠ مليون نسمة من اللاجئين ، والمشردين ، والنازحين والذين إضطروا إلى الهروب من مواطنهم ضمن حركات لجوء جماعية ، فعلى سبيل المثال إتجه مليونا لاجئ رواندى إلى الدول المجاورة فى الأشهر الستة الأولى فقط من عام ١٩٩٤ بعد صراع الفوضى المسلحة بين التوتسى والهوتو ، ودون الدخول فى التفاصيل، كانت هذه قصة مكررة أو تكررت فى أنجولا والصومال والسودان وأثيوبيا والكمنولث الروسى ، وسرى لانكا ويوغسلافيا السابقة ، فضلا عن فلسطين . لذلك فمن المؤكد أن القرن القادم سيرث ملف اللاجئين فى جملة ماسيرث من الملفات العاجلة .

كانت أول مجموعة من اللاجئين يمكن أن يطلق عليها هذا الإسم فى التاريخ الحديث هم البروتستانت أو الهوجنوت الفرنسيون الذين هربوا من

فرنسا بعد إلغاء مرسوم نانت الذى كان قد منحهم درجة من الحرية الدينية عام ١٦٨٥ ، فهرب نحو ٣٠ ألف بروتستانتى خشية الإكراه الدينى ، وخشية بنادق فرق الدراجوناد والإستبعاد من كثير من الأنشطة ، وإتجهوا إلى بروسيا .

ففى النصف الأول من هذا القرن أنشأت عصبة الأمم بعد تأسيسها فى عام ١٩٢٠ المفوضية العليا للاجئين ، وكانت مهمتها الأولى تنظم إعادة ١,٥ مليون من اللاجئين وأسرى الحرب المبعثرين فى كل أنحاء أوربا نتيجة لأعاصير الحرب العالمية الأولى .

وإذا كان تقدير مفوضية شئون اللاجئين ، تقدر عدد من ينطبق عليهم تعريف اللاجئين بنحو ١٧ مليون نسمة ، فإن نصف هذا العدد ينتمى إلى أربعة أقطار فقط هى : فلسطين ، وأفغانستان ، ورواندا ، والبوسنة والهرسك .

البنك الدولى وصندوق النقد الدولى والشركات المتعددة الجنسية multinational

بعد أن كان الهدف من الإستقلال " الوطنى " هو إعطاء فرصة للرأسمال "الوطنى " ليؤدى دوره فى التنمية الوطنية ، ولذا كانت الممارسة فى النصف الأول من القرن العشرين بأن تقيم الدول متاريسها من خلال الحواجز الجمركية ، إذا بالحدود الإقتصادية تضمر حتى كادت تتلاشى تدريجيا ، ثم يصبح رأس المال عالميا ، وتختفى ، وطنية رأس المال ، ويصبح جذب رؤوس الأموال " العالمية " الشغل الشاغل للحكومات التى إستقلت ، ويزداد عدد الشركات متعددة الجنسية ، ويصبح تأثيرها الإقتصادى وبالتالى السياسى هائلا وضاغطا ، وتتكون أكبر رابطة ــ خارج نطاق الأمم المتحدة ــ ممثلة فى الدول السبع الكبرى التى يجتمع رؤسائها كل نحو ستة أشهر فى أحد أركان العالم الأربعة ، لكى يتخذوا قرارات (بعضها نعرفه ومعظمها نرى تأثيراته) ، ومن خلال أجهزة إقتصادية عاتية ، ممثلة فى البنك الدولى ، وصندوق النقد الدولى ، ومنظمة التجارة العالمية يصير التحكم فى العالم إقتصاديا ، وكلها أمور ومظاهر جديدة على خريطة العالم الإقتصادية ، فأصبح التنافس على التجارة " عالميا " فزاد ثراء الأغنياء وإنطلقوا للإستزادة من البحوث .

ويقوم صندوق النقد والبنك الدولي ــ إلى حد كبير ــ بمحاولة ضبط السياسات المالية النقدية للدول ، في حين عهد إلى منظمة التجارة العالمية العمل على ضبط ورقابة التجارة الدولية ، وضمان توفير شروط المنافسة وعدم التمييز .

وتعتبر الشركات المتعددة الجنسية من أهم الظواهر في الإقتصاد الدولي المعاصر ، بل أنها الظاهرة الأكبر التي تتجاوز أهميتها حدود المجال الإقتصادي إلى التأثير العميق في المجالات السياسية والإجتماعية، وبصفة خاصة في دور الحكومات في ممارستها لمسؤولياتها وفي سير العلاقات بين الدول . وتمارس هذه الشركات العملاقة نشاطها في العديد من الدول ، الأمر الذي يوفر لها إمكانات ضخمة في التعامل مع حكومات مختلفة ، وإتساع هذا النشاط يقدم عوائد كبرى لهذ الشركات ، ويجعل الحكومات أكثر لينا في مواقفها وتشريعاتها ، وكذلك فإن توزيع النشاط على عديد من الدول يحد من أثر تأميم أي فرع للشركة في هذه الدولة أو تلك على أرباح الشركة في مجموعها .

وتقدر وزارة التجارة الأمريكية أن إجمالي رأس المال الخاص غير المقيم في أمريكا يبلغ نحو ٨,٥ تريليون دولار أمريكي (التريليون = ألف ألف مليون) عام ١٩٩٢ ، وبالمقارنة فإنه ممكن رفع هذه القيمة إلى ٢٠ تريليون دولار على مستوى العالم بأكمله . وقد توصلت دراسة حديثة إلى أن من بين ١٠٠ من أكبر إقتصاديات العالم توجد خمسون شركة عملاقة ، ويضربون مثلا بشركة جنرال موتورز التي تتجاوز حجم مبيعاتها حجم الناتج القومي الدنماركي ، وشركة فورد التي يزيد حجم مبيعاتها على الناتج القومي لدولة جنوب أفريقية ، وشركة تويوتا اليابانية بحجم مبيعاتها الذي يتجاوز الدخل القومي للنرويج !

هذا كما أعلنت وزارة الخزانة البريطانية أن عام ١٩٩٦ شهد إنخفاضا غير متوقع في بند الإستثمارات التي إتجه معظمها بطريقة قانونية تماما إلى مناطق مختلفة من العالم ، على سبيل المثال قام أحد رجال الأعمال البريطانيين بنقل نشاطه في صناعة المنتجات البلاستيكية من مدينة تليفورد معقل هذه الصناعة في بريطانيا إلى إحدى المدن الصينية الصغيرة بسبب توافر العمالة الصينية الرخيصة حيث تنتج مؤخرا نحو ٢١ مليون حقيبة بلاستيك في الأسبوع ، فالعامل الصيني يتقاضى مايعادل ٥٠ بنسا في الساعة وهو عشر مايتقاضاه نظيره البريطاني ، ونظرا لأن المسألة نسبية ، فإن هذا يحدث أيضا بين الدول الصناعية المتقدمة ، فشركة سيمنس الألمانية للإتصالات بنت مصنعا يتكلف ١,١ مليار

إسترلينى فى إحدى المدن البريطانية ، بل وتكرر الأمر لدى كل من شركتى سيارات تويوتا ونيسان اللذان يبنى كل منهما مصنعا فى بريطانيا (هنا غرض آخر حيث يصبح الإنتاج أوربى النشأة بالنسبة للإتحاد الأورربى) ، بل وأصبحت الإستثمارات الكورية فى الخارج ضعف الإستثمارات الكورية فى الداخل ، وإتجهت سنغافورة إلى نقل بعض نشاطاتها إلى الهند وبنجلادش سعيا وراء العمالة الرخيصة .

هذه القوة الهائلة التى إستحوذت عليها الشركات العملاقة المتعددة الجنسية غير خاضعة لأى محاسبة أو رقابة أو شعب أو ناخب أو رأى عام ، فهى قوة سياسية وإقتصادية غير مسبوقه ولاتعترف بوطن أو جنسية .

العولمة والتفتيت

فى محاضرة للدكتور / بطرس غالى الأمين العام (السابق) للأمم المتحدة ألقاها فى جامعة أكسفورد ، أشار الأمين العام إحدى السمات الأساسية التى تميز المرحلة العالمية الحالية ، والتى تتعايش بشكل واضح مع ظروف إنتهاء الحرب الباردة ، وإنفراد القطب الرأسمالى بمحاولة إدارة العالم ، قال الأمين العام أن إحدى السمات الأساسية للمرحلة التاريخية الحالية هى تلك التى تقود العالم إلى العولمة **Globlization** وفى ذات الوقت تستدرج الدول إلى التجزئة ، وهى ملاحظة صحيحة لسمة موجودة وسائدة بالفعل فى الواقع العالمى الذى نعيشه .

ومنها أن هذه العولمة تحدث من خلال عاملين : الأول هو الشركات العملاقة المالية والصناعية والتجارية التى تنتقل بأعمالها حيثما وجدت الظروف المثلى لنموها ولأرباحها ، والثانى : من خلال تلك التجمعات الإقتصادية الإقليمية التى توحد الأسواق وتزيل الحواجز مثل تجمع " النافتا " فى الجانب الأمريكى و "الإتحاد الأوربى" فى أوربا وتجمع " الأسيان " فى جنوب شرق آسيا والابيك للدول المطلة على المحيط الهادى، وما قد يستجد من تجمعات إقتصادية فى المستقبل والمنظور ، وفى الحالتين سواء تمت العولمة على يد الشركات ، أو من خلال التكتلات فإنها تتم وقد إمتلكت آخر التطورات التقنية التى تم التوصل إليها خلال العقود الأربع الماضية .

والظاهرة التى يكمن لأى مراقب أن يسجلها ، هى تلك التجمعات الدولية الإقتصادية العملاقة التى تنشأ بين مجموعات الدول ، إنه بجانب تبرز تلك الجزيئات الوطنية أو التى يطلق عليها عبارة " المينى دول " أو الدول القزمية والتى تتكون من أرحام دول كانت فى الماضى القريب دولا أكبر ، كالجمهوريات الأربع عشرة التى إنفصلت عن الإتحاد السوفييتى ، إنقسام تشيكوسلوفاكيا إلى التشيك والسلوفاك ، وتفتيت يوغسلافيا وهكذا ، ويكمن هنا التناقض بين ماهو سياسى وماهو إقتصادى ، فى السياسة ، تميل الظاهرة إلى تفتيت كيان الوحدات الوطنية ، وفى الإقتصاد تتجه إلى توحيد التكتلات نحو الأحجام العملاقة ، بجانب ذلك يمكن ملاحظة أن العامل الأساسى فى تفتيت الكيانات الوطنية يعود فى المقام الأول بجانب عوامل أخرى إلى الصراعات العرقية والقومية ، فى حين أن العامل الفاعل فى قيادة تجمع التكتلات الإقتصادية فى أحجام عملاقة هى الشركات الإقتصادية العملاقة المسماة والمعروفة بالشركات متعددة الجنسية .

وربما كانت الصورة الكاريكاتورية التى رسمها أحد الرسامين الأمريكيين خلال فترة الحروب الأهلية فى كل من الصومال ويوغسلافيا القديمة ولجمهوريات الإتحاد السوفييتى السابق ، تعبر عن هذه السمة التى أشار إليها السكرتير العام للأمم المتحدة ، فقد أوضح الرسام فى رسمه صورة الشعوب وهى تتصارع وتتقاتل بالأيدى وبالرشاشات وبالبلط وبالسيوف والخناجر ، بينما جلس الرأسماليون العالميون موحدين مبتسمين يرسمون الخرائط ويدخنون السيجار ويجمعون الأموال فى غرف مجالس إداراتهم .

تتعلق هذه الظاهرة بمستقبل تلك الشعوب الصغيرة التى تقع فى هذا الجانب الفقير من خريطة العالم ، ذلك أن تلك الصراعات الإثنية والعرقية التى تقود إلى تفتيت الدول إلى "مينى دول " تقع فى الجانب الفقير من العالم ، أو فى المواقع الأكثر فقرا من محيطها الجغرافى . فالتفتيت لايتم للدول الكبرى الرأسمالية وإنما للدول الصغرى الأقل قدرة على المواجهة والتى لم تملك بعد المقومات الأساسية للتقدم العام ، ولم تعبر بعد حد الفقر. وبالتالى تتضاءل مقاومتها أكثر وأكثر ، لأنها تحولت من دولة صغيرة وضعيفة سياسيا وإقتصاديا إلى دول عدة ، أصغر وأضعف سياسيا وإقتصاديا .

ومنها أن هذه الدول التى يحدث فيها هذا التفتيت ، لم تكن تمتلك فى الماضى تلك القدرات اللازمة والضرورية لتحقيق قفزات إقتصادية تنافس

بها الآخرين ، وإنما إمتلكت بحكم تراثها التاريخى ، تركة هموم سياسية وإجتماعية لم تستطع مواجهتها بالكامل ، خلال العقود التالية لحصولها على الإستقلال السياسى ، ثم يأتى التمزق والتفتيت ليتراجع بقدراتها ، ويجعلها غير قادرة بالمرة على مواجهة أى قدر من تلك التركة المريرة الموروثة .

وتأتى غالبيتها فى صفوف الدول التى تعتمد على الزراعة التقليدية ، أو التى أدخلت عليها تطورات بسيطة ، أو الصناعة البدائية ، أو تلك المتراجعة عن التطور التقنى الراقى الحديث ، وبالتالى لم يحدث فيها التراكم الرأسمالى الذى يسمح بأية نقلة تطور تقودها قوى وطنية داخلية ، ولكن غالبية هذه الدول تنظر إلى الخارج تنتظر منه التفضل والمجئ من أجل الإستثمار ، وكذلك زيادة الدخل القومى ، وهو شئ لايمكن أن يحدث فى كل تلك الدول ، وإنما قد يحدث فى تلك المواقع التى تخدم مصالح ذلك الضيف القادم بأمواله والذى يدعى السعى لتقديم خدماته للشعوب الفقيرة المغلوبة على أمرها لينشلها من الوحدة التى تقع فيها !

الخلاصة التى يمكن إستنتاجها من ملاحظة الأمين العام للأمم المتحدة، هى أننا فى طريقنا إلى عولمة إقتصادية تقوى القوى وتضعف الضعيف ، وفى طريقنا إلى تفتيت سياسى يزيد من ضعف من كان ضعيفا ويقوى من العزيمة السياسية لمن إمتلكها فى الماضى . فتستمر السيطرة من جانب والتبعية من الجانب الأخر .

ثورة الإتصالات والكرة القرية

نقل المعلق الأمريكى "توماس فريدمان " عن المؤرخ "رونالدستيل" مامعناه أنه لم يعد ممكننا أن يحيا الإنسان بعيدا عن العالمية أو العولمة ، أو أن ينعزل عنها، لأنه إذا أغلق أمامها باب غرفته ، دخلت من النافذة ، وإذا أغلق النافذة ، دخلت من شاشة التلفزيون ، وإذا قطع أسلاك الهاتف، دخلت عن طريق الإنترنت ، وهذا الأمر وإن بدأ الأن ممكنا من الناحية النظرية ، فلن يكون هكذا بعد سنوات، فإن العولمة لن تقدم وسيلة لتصل بها ليس فقط إلى غرفته ، بل إلى داخل معدته، فهى فى الغذاء ، والشراب وفى الدواء ، وفى كل مايدخل جسم الإنسان .

يذكر أن حين توفى نابليون فى منفاه بجزيرة سانت هيلانة عام ١٨٢١، أن نبأ وفاته لم يصل إلى ميناء مرسيليا إلا بعد إنقضاء شهرين

على وفاته . ولم ينتشر الخبر بين الشعب الفرنسى إلا بعد مضى أكثر من نصف عام ، هكذا كان الحال فى القرن التاسع ، قارن هذا بما يحدث الأن بفضل التليفون والفاكس والأقمار الصناعية والكمبيوتر والأنترنت ، كل حدث يقع تحت سمع وبصر البشرية جمعاء فى الحال عبر هذه الوسائل .

فعندما بدأ الألمان فى ألمانيا الشرقية يدقون أسوار برلين بالأظافر ، والأيدى والمطارق وينزعونه حجرا حجرا ، ويتدفقون بعده كالسيل إلى الجانب الآخر ، لم يكن ذلك حدثا يجرى فى بلاد بعيدة ، وإنما كان واقعا للمشاهدة للمواطن فى مصر لايختلف كثيرا عن مشاهدة السيول فى صعيدها ، وعلى نفس المنوال عرف الجميع ماحدث فى حرب الخليج ، وماقبلها ساعة بساعة ولحظة بلحظة .

وحتى الإنقلاب العسكرى على جورباتشوف فى موسكو ، جرى كما لو كان يتم وفق إخراج سينمائى دقيق ، وبعده كان الإنقلاب على الإنقلاب ، وفى ليلة باردة جدا من ليالى ديسمبر ١٩٩١ خرج آخر السوفيت من الكرملين ، وعندما دخل آخر ومع التباشير الأولى لصباح الأول من يناير ١٩٩٢ كانت إمبراطورية فى القرن العشرين قد إنتهيت ، ومع نهايتها إنتهت الحرب الباردة وعالم القطبية الثنائية .

وفى الغالب فإن ماتنبه له بعض الكتاب إلى أن ثورة وسائل الإتصال من خلال الأقمار الصناعية ، حولت الكرة الأرضية إلى قرية كبيرة ، إنما هو وجه من وجوه هذا النظام الدولى الثقافى الجديد ، الذى يبدو أنه مهد للنظام الدولى الجديد فى السياسة ، قبل أن يتحول إلى رديف له ، وإلى أفق بعيد من آفاق هذا النظام السياسى الجديد ، فيما لو كتبت له الحياة الطويلة والإستقرار والنمو فى الإتجاه الذى يتخذه الآن .

غير أنه فى بعض الأحيان ، يهيأ للإنسان أن عبارة تحول الكرة الأرضية إلى قرية لم تعد دقيقة بما يكفى ، وأن دواعى إستكمال الدقة فى هذه العبارة تقتضى القول أن الكرة الأرضية ، قد تحولت (أو هى فى طريقها إلى التحول) إلى " قرية أمريكية " .

فلم يتوقف هذا الموضوع عند المحاولات المكشوفة المندفعة بسرعة هائلة (ربما قبل فوات الأوان) " لأمركة" الحياة فى روسيا بعد إنهيار الإتحاد السوفييتى ، وعند مؤشرات القلق التربوى والإعلامى فى كندا (الجارة الشمالية للولايات المتحدة) من الأثر الواضح للمسلسلات التلفزيونية الأمريكية فى "أمركة" القيم الإجتماعية فى كندا ، ولا عند القلق الأوربى الكبير من خطر "أمركة" الحياة والقيم والثقافة فى أوربا ،

وهو قلق تقوده وتفصح عنه بشكل واضح فرنسا ، يحق لنا أن نصاب في عالمنا العربي بنسبة من القلق في هذا المجال أعلى بكثير من كندا وفرنسا

غزو الفضاء :

تم في تلك الحقبة كل ماعرفته البشرية من إنجاز في مجال " غزو الفضاء " فقد كان التصور في أوائل هذا القرن أن المعجزة الكبرى هي في تحقيق فكرة "الطيران " في الجو مثل " النسور" فإذا بالإنسان يصبح قادرا على الخروج من سيطرة وقهر الجاذبية الأرضية ، ويحلق في الفضاء ويرسو بقدميه على سطح القمر ، ثم ينشئ محطات فضائية " يسافر " ويحج إليها ويعيش الإنسان داخلها أو خارجها ولمدد طويلة ، وصار الإنسان قادرا على أن يرسل الأقمار إلى مسافات خيالية ، لتأتي إليه بصور وبمعلومات عن هذا "المجهول" المترامي اللانهائي ، ويسبح خيال الإنسان خارج المجموعة الشمسية وتزداد المعرفة العلمية ، ورغم كل ذلك ، فإننا مازلنا على عتبة شاطئ المعرفة وسنسبح داخل " الكون " في القرن القادم ، بما يتجاوز خيال الأدباء والحالمين ، وفي ذلك إدراك لجبروت العقل البشري وإبداعاته اللانهائية ، ورغم كل ذلك فإن الفكر الديني يزداد قوة ويتحول من أماكن العبادة ليكون حركات عالمية .

التطور التكنولوجي والصناعة

شهد الإنتاج الصناعي في الدول المتقدمة تغيرات ديناميكية كبيرة من الألية الكاملة إلى إدخال أساليب جديدة في إدارة الإنتاج إلى تطورات الصناعات القائمة وتحديث الفن الإنتاجي المستخدم ، فأصبح الإنتاج الصناعي وخاصة في اليابان والمانيا وكوريا يعتمد أكثر مايعتمد في أي وقت مضى على كثافة المعرفة Intensive Knowledge ، فصناعة وسائل الإتصال والمعلومات والإلكترونيات والأدوية والبتروكيماويات هي أمثلة وليست حصرا للصناعات التي أصبح فيها كثافة المعرفة من أهم عوامل إنتاجها بحيث يسبق أهمية اليد العاملة والخامات التقليدية ، ويكفي أن تعلم أن نفقات إنتاج الحاسب الآلي ترجع ٧٠٪ إلى قيمة البحوث والتطور ، في حين أن اليد العاملة لاتمثل سوى ١٢٪ من تكاليف المنتج النهائي ، وفي صناعة الأدوية تمثل نفقات البحوث نحو ٦٠٪ ، وفي صناعة السيارات أصبحت تكاليف الأيدى العاملة لاتمثل سوى ٢٠٪ .

التطور التكنولوجي والمشاركة السياسية

صاحب التطور فى حقائق الإقتصاد والتكنولوجيا ، وربما إرتبط به ، تطور آخر على المستوى السياسى ، إلا وهو زيادة وعى الأفراد ومشاركتهم فى الحياة السياسية مع مزيد من إحترام لحقوق الفرد والإنسان ، وقد ظهر ذلك بوجه خاص فى الدول الصناعية المتقدمة ، حقا لقد عرفت الدول الأوربية ، والولايات المتحدة، منذ أكثر من مائتى سنة مظاهر الديموقراطية ، ومع ذلك فقد ظلت ـــ حتى مع هذه الحكومات الديموقراطية ، فكرة عقل الدولة وقوتها أكثر وضوحا وأهمية من مظاهر رفاهية الأفراد ، وساعد على ذلك أن بسط نفوذ الدولة المادى على الدول الأخرى ، كان من شأنه تحسين أوضاعها الإقتصادية ، وبالتالى زيادة رفاهية الأفراد ، أما الآن فإنه بالأضافة إلى ماسبق الإشارة إليه عن التضاؤل النسبى لأهمية الموارد الطبيعية وزيادة فاعلية وسائل السيطرة غير المباشرة (الإقتصادية) من ناحية ، ومع زيادة وعى الأفراد ومشاركتهم فى الحياة السياسية نتيجة لثورة المعلومات من ناحية أخرى " فقد أصبحت الحكومات أكثر عرضه للضغط الشعبى بتجنب المغامرات الخارجية ، فالأفراد ، وخاصة فى الدول الغنية يحرصون على رفاهم المادى المباشر ، ومن هنا كانت الإتجاهات المعاصرة فى توفير نوع من العزل الصحى عن مشاكل الدول الأخرى ، فى عدد قليل من الدول المتقدمة ، هو الإنعزال عن مشاكل الآخرين ، قضايا الهجرة ، ومنع الأجانب من مشاركة المواطنين ، أصبحت من القضايا الهامة فى عدد كبير من الدول الصناعية المتقدمة ، إنجلترا ، فرنسا ، ألمانيا ، الولايات المتحدة الامريكية ، سويسرا . . . والقائمة الطويلة ، فالمزاج العام الذى كان سائدا فى القرن الماضى نحو التوسع والخروج إلى الأقاليم البعيدة بحثا عن الثروة قد حل محله مزاج آخر دفاعى للحيلولة دون نزوح جموع للفقراء ومزاحمتهم لهم فى معيشتهم ، فقد أدت الثورة التكنولوجية من ناحية إلى زيادة مكنت من ناحية أخرى سكان المناطق الفقيرة والمحرومة من التطلع إلى المستويات الأعلى ووفرت لهم وسائل الإنتقال الرخيص إلى مراكز التقدم ، ومن هنا الحاجة لدى الفئات المحظوظة إلى الحصار ووضع أسباب العزل الصحى .

تغلب النزعة الفردية والمصلحة المادية

وقد كانت إحدى نتائج التفاعل بين التطور التكنولوجي وغلبة أهمية المعرفة والعلم بصفة عامة من ناحية ، وإزدياد مساهمة الأفراد في التأثير في الحياة السياسية من ناحية أخرى ، أن تغلبت النزعة الفردية والمصلحة المادية المباشرة على سلوك الأفراد والجماعات ، فتراجعت قيم الوطنية ، والشرف ، والتضحية ، والمجد ، وتقدمت نزاعات الإستهلاك المادى ، والمتعة المباشرة ، وفى خلال الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقى والغربى أوضح العديد من الإستطلاعات أن الشباب وإن كان يكره الشيوعية والدكتاتورية ويفضل الحرية والديموقراطية ، لكنه بالمقابل غير مستعد للتضحية بحياته فى سبيل المبادئ التى يؤمن بها، ومن هنا ساد فى ذلك الوقت (بداية الثمانينات) شعار ، " أن نخضع للشيوعية خير من أن نموت فى سبيل الحرية " ، وقد إرتبط بذلك أن قل حماس الشعوب لقبول فكرة الإنخراط فى الجيش للدفاع عن مصالح الوطن ، ونعرف كيف أن الولايات المتحدة التى لم تكد تتخلص من عقدة فيتنام حتى بدأت حرب الخليج ، وظهر حرص القيادة العسكرية على ضمان تقليل مخاطر التضحيات البشرية ، فقد إضطرت إلى الإنسحاب من مواقع عديدة لمجرد بعض الإصابات ، فرغم نجاح عملية الخليج ، فقد كان فقدان حوالى ٣٥ جنديا أمريكيا فى الصومال ، كافيا للضغط الشعبى لسحب القوات الأمريكية من الصومال ، برغم أن مافقده الصومال من ضحايا بلغ مابين ٧ ، ١٠ آلاف صومالى مقابل هذه الحفنة من الجنود الأمريكيين ، وقد يكون من المفيد الإشارة فى هذا الصدد إلى تنظيم الأسرة ، والأخذ بأشكال الأسرة النووية المكونة من طفل أو طفلين على الأكثر، جعل قبول الحرب وتضحياتها أصعب تحقيقا من معظم الدول الغنية .

مجمل القول أن العالم قد شاهد تغييرات مهمة ورئيسية فى كافة مجالات الحياة العلمية ، والسياسية ، والمجتمعية ، والفكرية ، وكيف أننا مقبلون على عالم مختلف تماما مع بداية الألفية الميلادية الثالثة . ويتوقف إتجاه الريح على فاعلية أهل الرأى والفكر فى العالم ، فإذا سادت الأفكار المنحازة إلى العرق ، والدين ، والمذهب ، فسيدخل العالم صراعات مرة لسنوات طويلة . وإذا بحثنا عن الأرضية المشتركة ونشرنا أفكار " ثقافة الموزاييك " بين الحكام ، ومتخذى القرار فإن العالم سيجتاز الحقبة " الشريرة " الحالية إلى عالم أكثر رحابة ، ففى نظر كثيرين فإن الفترة إنقضت مابين سقوط حائط برلين فى خريف ١٩٨٩ وإنهيار الإتحاد السوفييتى فى نهاية عام ١٩٩١ ، مثلت النهاية الفعلية للقرن العشرين من

زاوية السياسة والأمن فى العالم على الأقل وسواء كان ماجرى فى هذه الفترة الحاسمة بداية مبكرة للقرن الحادى والعشرين ، أو أنه نقطة إنطلاق لنظام عالمى ، كما يرى البعض ، أو مجرد بداية لمرحلة من السيولة الدولية التى لايعرف أحد على وجه التحديد متى وإلى أين ينتهى، كما يرى البعض الأخر ، فإن هناك إتفاقا بين الجميع على أن أحداثا جساما قد وقعت بغض النظر عن قياسات تأثيرها على حركة التاريخ .

(٢)

هل إنتـــهى الصـــــراع ؟

هل إنتهى الصراع بإختفاء الإتحاد السوفييتى وبلغنا نهاية الطريق مع قرن إنفلت ، وقرن يحبو ويشرئب بعنقه ؟ تعددت الإجتهادات فى هذا السبيل ونرى أنه من الواجب أن نعرض لها ، وإن كنا لانوافق عليها ، فالصراع قائم منذ نشأة البشرية ، بمعنى أنه لاوجود للبشر بدون صراع ، منذ هابيل وقابيل إلى الإتحاد السوفييتى والغرب ، ومابينهما .

صراع الإنسان والطبيعة

وهناك من يذهب إلى التقدم التكنولوجى سيؤدى إلى تدمير الحياة البشرية على وجه الأرض ، وقد عرف العلماء هذه النظرية " بجدلية يوم القيامة " ، وتستند حجتها فى أن الإنسان يظن خطأ ــ أنه سيعيش لقرون كثيرة قادمة ، وإنه يستطيع بتقدمه العلمى السريع غزو الكواكب الأخرى إذا ضاقت به الأرض نتيجة للزيادة السكانية الرهيبة ، أو إستحالت فوقها الحياة نتيجة نقص الموارد وإختناق الإنسان بسبب الزحام ، ولكن البعض الأخر يرى أن إحتمالات ونوع نهاية الحياة أسرع وأقوى بكثير ، نتيجة المخاطر التى تواجه الكون مثل التلوث الصناعى ، وإحتمال إندلاع حروب نووية ، والتجارب الفيزيائية التى تستخدم فيها طاقات هائلة قد تؤثر فى مجال الفضاء الفسيح ، وتدمر العالم من حولنا ، ويبنون رأيهم هذا على تخيل مشهد من القرن الحادى والعشرين أى بعد نحو مائة عام ، تصور ١٢ مليار إنسان يمشون على الأرض وكلهم على وشك الموت ، إما بسبب ضياع طبقة الأوزون التى تحمى الغلاف الجوى أو بسبب التسمم البيئى من جراء التلوث ، أو من أثار حروب نووية أو بإنتشار فيروس قاتل ، فتصبح حربا جرثوميه ، فينتشر الفيروس فى كل مكان دون أن يرصده أحد ، فالأسلحة البيولوجية يمكن أن تكون أكثر خطورة من الأسلحة النووية ، وأقل تكلفة ، ويصعب تحديد مجال التدمير الذى تحدثه لأنها من الأسلحة التى تولد جزيئاتها بنفسها ، خاصة وأن الهندسة الوراثية فى تقدم مستمر ، والبدائل الوراثية (الجينية) التى يعكف العلماء على محاولة إنتاجها وإستخلاصها فى جامعات العالم ، أو محاولة علماء الطبيعة التوصل إلى درجة " الدوى العظيم " الذى حدث عند نشأة الكون من خلال معاملهم ، وهو مايهدد الغلاف الجوى بكارثة غير عادية ، خاصة وأنهم بصدد تجربيه على الماء الذى سيتحول إلى ثلج من شدة تأثيره .

فوكوياما ونهاية التاريخ

خرج الباحث اليابانى " فرانسيس فوكوياما " الأمريكى الجنسية واليابانى الأصل على العالم بمقولته " نهاية التاريخ " بمعنى أن سقوط الشيوعية هو الدليل المؤكد على أن التاريخ قد دار دورة كاملة ، وأن دائرته قد أغلقت مرة واحدة وإلى الأبد ، بإنتصار الرأسمالية التى ستصبح هى دين الإنسانية إلى أبد الأبدين ، ولم يعد للحضارة الغربية مطمع فوق هذا المطمع ، وإذن فقد إنتهى التاريخ ، ولن يكون الإستمرار إلا نوعا من التكرار ، وأن إنتهاء الشيوعية قد أنهى مبررات الصراع . ولكن رأيا آخر يقول بأن إنهيار الكتلة الشرقية هو عودة إلى الماضى، إلى ماضى جديد ، أى أنه مستقبل يكرر ماحدث فى العصور الوسطى ، فالكتلة الشرقية التى كانت أكبر مشروع عرفه الإنسان فى هذا القرن ، تفككت كما تفككت الإمبراطورية الرومانية فى القرن الخامس الميلادى ، وكانت هى بدورها أكبر مشروع صنعه عقل البشر فى ذلك الحين ، وكما تحولت الإمبراطورية الرومانية إلى ممالك وإمارات إقطاعية كانت طوال العصور الوسطى مسرحا لإنشقاقات وصراعات، وحروب عرقية ، ودينية ، ومذهبية ، حدث هذا أيضا بعد إنهيار الإمبراطورية السوفيتية ، وكما إجتاح الإيدز والجوع العالم الآن ، إلى آخر المشابهات التى يخرج بها هذا الإتجاه ، فإن العالم الآن يرتد إلى عصور تشبه العصور الوسطى فى كل شئ .

والغريب فى الأمر أنه بعد أن خُيّل لفوكوياما وغيره بإنتصار الرأسمالية على الاشتراكية (بالضربة القاضية) ، نجد أن الاشتراكية أصبحت حاكمة فى جميع دول الاتحاد الأوربى الخمس عشرة ، فيما عدا ألمانيا وأسبانيا (عام ١٩٩٧) فهل يعنى أن التنبؤ بإنتصار الرأسمالية وسيادتها فى القرن القادم لم يكن دقيقاً ؟ خاصة وأن وصول الاحزاب الاشتراكية الى الحكم فى أوربا لم يبلغوه إلا بالانتخابات الحرة التى تعبر عن رأى الناخبين (معقل الرأسمالية) . لاشك أن هذا يرجع إلى توحش الرأسمالية ، وما تبعه من قبضة الاحتكارات الضخمة ورؤوس الاموال الكبيرة على مقدرات الشعوب ، وما تبع ذلك من اجراءات حكومية أثقلت كاهل محدودى الدخل بأعباء لاقبل لهم بها .

هنتنجتن وصراع الحضارات

بإنتهاء الحرب الباردة ، وإختفاء الإتحاد السوفيتى ، بحث الغرب عن عدو المستقبل كما إستحق الإتحاد السوفيتى هذا اللقب من قبل ، وإذا بنظرية تخرج من الولايات المتحدة الأمريكية تحدد عدو المستقبل الذى يجب أن يكون الغرب مستعدا له ، وهو أهل الحضارات الشرقية ، ويقصدون بها الحضارتين الإسلامية والكنفوشيوسيه ، وصاحب هذه النظرية هو صمويل هانتنجتون أستاذ نظم الحكم والإستراتيجية فى جامعة هارفارد ، نشرها فى صيف ١٩٩٣ فى مجلة " فورن إفريز " ، وتتلخص نظريته فى أن إنتهاء الشيوعية ليس معناه إنتهاء الصراع فى العالم ، ذلك أن الصراعات مستمرة ، والتاريخ سيستمر فى صورة تصادم حضارات بدلا من تصادم أيديولوجيات ، وأن الحضارات الإسلامية والصينية ستكون العدو المشترك، بل وإن الأصول الإسلامية تتأهب لهذا ، وستحل خطوط التماس بين هذه الحضارات والحضارة الغربية ، محل الحدود السياسية والأيديولوجية للحرب الباردة . ويحاول أصحاب هذا الرأى الإستشهاد بأدلة على هذا بأن الصراع بين المسيحية والإسلام بدأ منذ ثلاثة عشر قرنا ، وبالحرب بين العرب وإسرائيل ، وأن فرنسا حاربت بشراسة الجزائريين ، وإن أمريكا هاجمت ليبيا ، وتناهض إيران ، وما حدث من جانب الصرب الأرثوذكس ضد أهل البوسنة والهرسك المسلمين ، والمسلمين والكاثوليك فى الفلبيين ، والبروتستانت والكاثوليك أيرلند ، جنوب السودان ، الهندوس والمسلمين فى شبه الجزيرة الهندية. . . إلخ

ويجزمون بأن الصراع القادم سيكون بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين ، وبينها وبين اليابان ، وأن القضايا الإقتصادية بين الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا ليست أقل من نظيرتها بين الولايات المتحدة الأمريكية واليابان ، ومع ذلك تجدها أكثر حساسية فى حالة الأخيرة ، ويعللون هذا بالفجوة الثقافية الأكبر .

إستعداء الغرب على الإسلام

ولاشك أن هذه النظرية كان أكبر مؤيد لها هم الصهاينة ، سواء من كان منهم فى إسرائيل أو أوربا أو أمريكا ، وذلك لزيادة الوقيعة بين الغرب والعالم العربى والإسلامى ، وأصبحوا يرفعون فى كل مكان شعار أن الأصولية الإسلامية هى الإرهاب ، بمعنى أن القضاء على الإرهاب يقتضى حرب الإسلام والمسلمين ، أى إستعداء الغرب على المسلمين ،

ومما يؤثر عن بن جوريون قوله " إن أخشى ما أخشاه ظهور محمد لهذه الأمة " وذلك رغم علمه يقينا أن محمد عليه السلام هو خاتم الأنبياء ، ولكنه يعنى قيام بعث جديد .

خطورة النظرية

والخشية من مفهوم صدام الحضارات أنه إنتقل من دائرة الجدل الفكرى إلى داخل غرفة صناعة القرار السياسى والغرب ، وليتحول من عالم النظرية إلى عالم التطبيق ، وأن هذا المفهوم الذى ينبئ بأن الحرب العالمية الثالثة ستكون بين الحضارة الغربية من ناحية ، والحضارات الأخرى فى الشرق العربى والأسيوى، (العربية الإسلامية والكنفوشيوسية الصينية) من ناحية أخرى ، لم يكن مجرد عاصفة فكرية ثبت بطلانها ، أو ضلالها أو سوء قصدها .

فاللافت للنظر فى بنود الإستراتيجية الأمريكية لعصر مابعد إنتهاء الحرب الباردة أنها تؤكد الفصل بين العالم الغربى والعالم الثالث ، وأن تهديد الأمن القومى الغربى كامن فى العالم الثالث ، من ثم ترسم الخطط والسياسات لتدفع قيام حروب على طول خط التماس بين هذين العالمين ، من ثم لابد للولايات المتحدة الأمريكية أن تحافظ على مؤسسة عسكرية ضخمة تعتمد على الأسلحة التقليدية الحديثة (غير النووية) .

فإذا ذكرنا نظرية هانتنجتون الخاصة بصراع الحضارات ، سنجد أن خطط التوسع تتطابق مع الدوائر الحضارية التى قام بها ، فهذه الخطط إستبعدت روسيا زعيمة الحضارة الأرثوذكسية ، كما تستبعد دائرة الحضارة العربية والإسلامية ، وتمتد بغرض هيمنة الغرب على مناطق البترول الغنية فى جمهوريات آسيا الوسطى ، بعد هيمنتها على بترول الخليج الذى أشعلت نيرانه ، ومحاصرة النفوذ الإيرانى ، ومواجهة التيارات الإسلامية فى هذه المنطقة ، وبالتالى ضمان إكتساح الحضارة الغربية الكاثوليكية البروتستانتية لعالم الأرثوذكسية ، والكونفوشيوسية ، والإسلام .

وفى الواقع أن الغرب وصل إلى أقصى القمة من حيث القوة بالنسبة للحضارات الأخرى ، و النزاع العسكرى بين الدول الغربية ليس واردا وبخلاف اليابان ومن الجائز الصين لايواجه تحديا إقتصاديا .

وإذا أردنا الحق فالصراع هو ليس بين الحضارات ، بل بين الشمال والجنوب، فقد سيطر الغرب على كل مقدرات القوة ومنها المؤسسات

الدولية ، مجلس الأمن ، والبنك الدولي ، وصندوق النقد وغيرها بحيث أصبحت أى قدرات تتخذ تعكس مصالح الغرب ، ولكنها تظهر بصورة وكأنها رغبات المجتمع الدولى ، لكى تعطى شرعية للإجراءات والأعمال التى تعكس مصالحه .

(إجراءات تصفية الأسلحة المتطورة فى العراق ، الفيتو الأمريكى ضد إدانة إسرائيل ببناء مستوطنات فى القدس الشرقية ، وأخيرا لاتنسى أن قرارات الأمم المتحدة فيما يختص بمشكلة فلسطين ؟

نظرية هانتنجتون وحلف الأطلنطى

وهناك المواجهة بين روسيا والمشروع الأوربى الأمريكى بالتوسع فى حلف الناتو شرقا ليضم بولند والمجر ، والتشيك ، وكان من المقصود مع نهاية الحرب الباردة أن تنتهى معها مؤسساتها ، أو أن تتحول وظائفها لتلبية أهداف جديدة ، وأحد هذه المؤسسات حلف الناتو ، ولكن الواقع أنه تحول إلى أكبر مجمع عسكرى دولى عرفه العالم ، يسعى إلى توسيع نطاقه ، حتى يصبح على مرمى حجر من موسكو (٨٥٠ كم) أى أن الصواريخ تصلها فى دقائق ! بل ويحرم روسيا (الجديدة) من عمقها الإستراتيجى فى شرقى أوربا ، وهو عمق إضطرت روسيا للتخلى عنه، لأن تكلفة الحفاظ عليه أصبحت تفوق إمكانلتها ، بل والأكثر إقلاقا لروسيا هو وثوب الناتو شرقا للتدخل فيه جمهوريات البلطيق والكمنولث ، ويستخدم الآن تعبير ، تكبير **Enlargenent** ، حلف الناتو بدلا من الكلمة السابقة التوسع **Expansion** لما قد تتضمنه من معنى الغزو .

هدف ظاهره الإستقرار وباطنه الإحتواء

وقد يتساءل البعض عن الأغراض أو الأهداف التى يسعى عالم الغرب من أجلها توسيع حلف الأطلنطى ، رغم أن هناك أكثر من سبب ظاهر لعدم جدواه الأن، منها أن عملية توسيع الحلف سوف تتكلف فى مرحلتها الأولى بين ٦٠ ، ١٢٠ مليار من الدولارات على عشر سنوات، فما الداعى لأن تتحمل الولايات المتحدة الأمريكية وشركاؤها الأوربيون هذه الأموال الطائلة فى وقت إزدادت فيه نسب البطالة ، وخفضت الميزانيات الخاصة بالخدمات الإجتماعية ، وتحمل أوربا الغربية لتركة اوربا الشرقية الثقيلة ؟ كذلك ما الداعى لهذا وقد إنتهت الحرب الباردة كما إنتهت نظرية الردع النووى و إنكمش الدب الروسى فى كهفه بعد أن تكسرت أنيابه ، وأصبح مستجديا بعد أن كان ضاريا ، حتى لقد إستسلم الرئيس السوفيتى فى قمة هلسنكى (مارس ١٩٩٧) للضغوط الأمريكية

بتوسيع نطاق الحلف فى مقابل بعض التنازلات الشكلية والمساعدات المالية للإقتصاد الروسى المترنح ؟ الإجابة المعلنة هى ضمان التطور السلمى لدول أوربا الشرقية سياسيا وإقتصاديا على النسق الغربى ، ولكن الحقيقة غير ذلك .

هل النظرية صحيحة بالنسبة لعالم العرب والإسلام ؟

أن الأصولية الإسلامية وصحوتها ليست إلا مرحلة فى تطور عقيدة ، مثلها مثل مراحل فى تطور العقائد الأخرى الأصولية المسيحية والهندوسية وغيرها من العقائد ولايجدى فى مواجهة صحواتها حلف عسكرى ، من ثم كانت السخرية اللاذعة حين تحدث السكرتير العام لحلف الأطلنطى ، عن الأصولية الإسلامية كعدو محتمل للحلف وإذا كان أكثر مايمكن أن يفعله هذا الحلف هو حصار دولة تعتنق عقيدة ما ، أو التفاعل معها عسكريا ، فإن مثل هذه المراحل فى تطوير العقائد تنحسر مؤقتا لتعود من جديد أقوى مما كانت أو تنحسر فى مكان لتبعث فى مكان آخر أشد لهيبا وإوارا .

ويرد على هذا أيضا بأنه إذا كانت الحضارات الأخرى غير الغربية موجودة منذ قرون طويلة ، لماذا هى الأن مصدرا للتحدى ؟ وإذا كان الصهاينة يروجون لخطر الإسلام وأنه الإرهاب ، فهل الصراع الكاثوليكى البروتستانتى فى شمالى أيرلند دخل فيه الأصوليون الإسلاميون ؟ والا تعد التفجيرات التى يقوم بها جيش التحرير الأيرلندى فى لندن وغيرها إرهابا ؟

الا يعد ماقامت به إسرائيل وماتقوم به ضد الفلسطينين إبادة وإرهابا ؟

الا يعد ماقامت به عصابات إسرائيل فى مذابح دير ياسين إبادة ؟

الا يعد ماتقوم به إسرائيل من تكسير لعظام الفلسطينين ، وإطلاق الرصاص على المصلين فى الحرم الأبراهيمى ، ومذابح قانا فى جنوبى لبنان إبادة وإرهابا؟

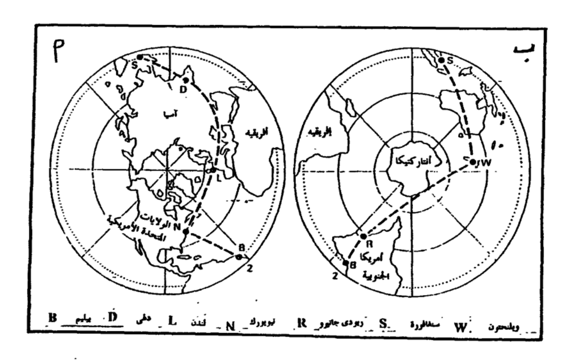
وفى الحقيقة إذا فكرنا قليلا فى موضوع الإبادة والإرهاب سنجده (صنع فى الغرب) ، من الذى يقوم بالإغارة على المهاجرين من الأتراك فى ألمانيا وأهل المغرب العربى فى فرنسا وإرهابهم ، رغم أنهم أصحاب الفضل فى قيام هذه الدول من كبوتها بعد الحرب العالمية الثانية .

ألا يدعوا هذا إلى الإحباط وفقد الثقة فى القيم الغربية ؟

علاقة خطوط الطيران بدوائر العرض : راجع ص ٢١

فى خرائط الشئون العالمية من المفيد أن تعرف مواقع الأماكن بالنسبة لبعضها أكثر من قربها أو بعدها عن خط الإستواء . ونتذكر هنا أن الأرض ليست مسطة وإنما أقرب إلى الكروية ، من ثم تتسع دوائر العرض بالإتجاه نحو خط الإستواء أى دوائر العرض الدنيا ، وتضيق كلما إتجهنا نحو القطبين أى دوائر العرض العليا حتى تصبح نقطتين ، إحدهما هى القطب الشمالى والثانية هى القطب الجنوبى ، ولعل خطوط الطيران تعطينا أفضل نتيجة فى هذا السبيل ، فخطوط الطيران تتبع مايطلق عليه الدائرة العظمى ، وهذه ليس لها علاقة بدرجات العرض، فالدائرة العظمى بين موقعين يمكن التعرف عليها بوضع طرف خيط على مكان ثم نشد الخيط إلى أقصر مدى له ليصل إلى الموقع الآخر على سطح الكرة الأرضية

ففى الشكل التالى نجد أن مركز الكرة الأرضية هو القطب الشمالى فى (أ) ، وفى (ب) نجد أن المركز هو القطب الجنوبى ، وخطوط الطول التى تشع من القطبين هى خطوط مستقيمة (لاحظ أقصر الخطوط هو الخط المستقيم) وهى فى نفس الوقت هى دوائر عظمى ، أما خط الإستواء فى الرسم فهو ليس خطا مستقيما ، فإذا إفترضنا أن مليونيرا أمريكيا يقوم بجولة حول العالم بإستخدام الطائرة بدءا من نيويورك ، فتتجه الطائرة به إلى لندن ، ومنها إلى سنغافوره ، وبتركه سنغافورة يعبر نصف الكرة الجنوبى نحو ولنجتون (نيوزيلند) ، ثم القارة القطبية الجنوبية والبرازيل لتهبط الطائرة فى بلم (البرازيل) ، وبعدها يرجع إلى نيويورك ، لاحظ هنا تجنب إتباع دوائر العرض الدنيا حيث تزيد المسافات ، ويحاول استخدام دوائر العرض العليا حيث تقصر المسافات .



١- المراجع العربية

- البنك الدولى : تقرير التنمية البشرية ١٩٩٦ .
- السياسة الدولية ، أعداد مختلفة وخاصة .
- أحمد عباس عبد البديع ، الأقليات القومية وأزمة السلام العالمى ع ١١٤، ١٩٩٣ .
- عماد جاد ، أبعاد الصراع فى البوسنة والهرسك ع ١١٣ ١٩٩٣ .
- ليستر ثارو : الصراع على القمة ، ترجمة أحمد فؤاد بلبع عالم المعرفة رقم الكويت .
- محمد السيد سعيد : الشركات عابرة القومية ، ومستقبل الظاهرة القومية ، عالم المعرفة ع ١٧٠ الكويت .
- محمد عبد الغنى سعودى ، السوق الأوربية الموسعة وآثارها السياسية والإقتصادية على أفريقية ، المجلة الجغرافية العربية ، العدد السادس ١٩٧٣ .
----- التاريخ العسكرى لليمن (عرض) تأليف سلطان ناجى ع ١٩٧٦ ، جامعة الكويت ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية .
----- العروبة والأفريقية : مواجهة أم تضامن فى العلاقات العربية الأفريقية ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٧ .
----- الخليج العربى دراسة فى الجغرافية السياسية ، عرض ، تأليف صبرى فارس الهيتى بغداد ، ١٩٧٨ ، مجلة دراسات الخليج والدراسات العربية ، الكويت
----- إيران دراسة فى جذور الصراع ، الكويت ، القبس ١٩٧٩ .
----- مشكلة الصحراء الغربية ، مجلة كلية الآداب ، التربية ، جامعة الكويت ، العدد رقم ١٤ ديسمبر ١٩٧٩ .
----- القوة البحرية السوفيتية ، الأسطول المساند المقنع ، دافيدريبر، ع (٢٠) نشرة وحدة البحوث والترجمة جامعة الكويت أغسطس ١٩٨٠ .
----- إفريقية والعرب (عرض) تأليف أمين أسبر ، بيروت ، دار الحياة ١٩٨٠ جامعة الكويت المجلة الجغرافية العربية للعلوم الإنسانية ، الكويت .
----- مسح تاريخى للمصالح الأوربية فى منطقة الخليج (ترجمة وعرض ونقد) تأليف سيد فاروق حشمت ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية الكويت ع ٢٥ ، ١٩٨١ .
----- مشكلة الأراضى المقتطعة فى الصومال - المسح الشامل لجمهورية الصومال الديموقراطية ، معهد البحوث والدراسات العربية تعداد ١٩٨٢ .
- التكامل المصرى السودانى بالإشتراك ، القاهرة ، الأنجلو ١٩٨٣ .
----- مشكلة الحدود الصومالية والأرض المقتطعة ، الندوة الدولية للقرن الأفريقى ١٩٨٥ الجزء الأول - مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٧ .
----- مياه النيل ، ندوة العلاقات المصرية السودانية ، مركز البحوث السياسية كلية الإقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ١٩٩٠.
----- مجلس التعاون لدول الخليج العربى ، مقوماته ، إنجازاته ، معوقاته ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، الكويت ع ٧٠ ، ١٩٩٣ .
----- جغرافية مصر السياسية ، فى كتاب جغرافية مصر ، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ١٩٩٤ .
محمد محمود الديب : الجغرافية السياسية منظور معاصر ، القاهرة ١٩٨٩ .

The Most Recent References in Polictical Geography

1- Alapura, R. and Others , (eds.) , *Small States in Comparative Prespective* , Oslo 1985 .

2- BLJI , H.J. , *Human Geography Culture , Society and Space* , Wiley , 1996 .

3- Beckinsale, R. , *Rivers as Political Boundaries* , in water , Earth and man , London, 1969 .

4- Birch, A. H. , *Nationalism and National Integration* , New York , Routledge 1989 .

5- Brownlie , Ian , *African Boundaries , Alegal and Diplomatic Encyclopedia* , Land on , Hurst Berkley , Univ. California press 1979 .

6- Cervenka Zdenek ,(ed) *land locked Countries of Africa* Upsala , 1973 .

7- Cutler , Tony and Others , *1992 - The Struggle for Europe , A Critical Evoluation of the Eurapean Community* , New York st. Martin 1989 .

8- Dawson , A. H. , *The Geography of European Integration : A common European Home ?* (New York, Belhaven 1993) .

9- Dink , N. , Karalnycky , A. , *New Nations Rising : The Yall of the Soviets and the Challenges of Indpendence* (New York , Wiley 1993) .

10- Glassner , M. I. , *Political Geography* , Wiley , 1996 .

11- Gray , C. , *The Geopolitics of Superpower* , Lexington, Univ. Press Kentucky 1987 .

12- Goodman , L. , *Small Nations and Giant Firms* , New York , Holmes , 1987.

13- Gottman J., *A Geography of Europe* , Holt, Renehart 1969.

14- Gottman , J., (ed) *Centre and Preiphery,* Beverly Hills, Sage , 1980 .

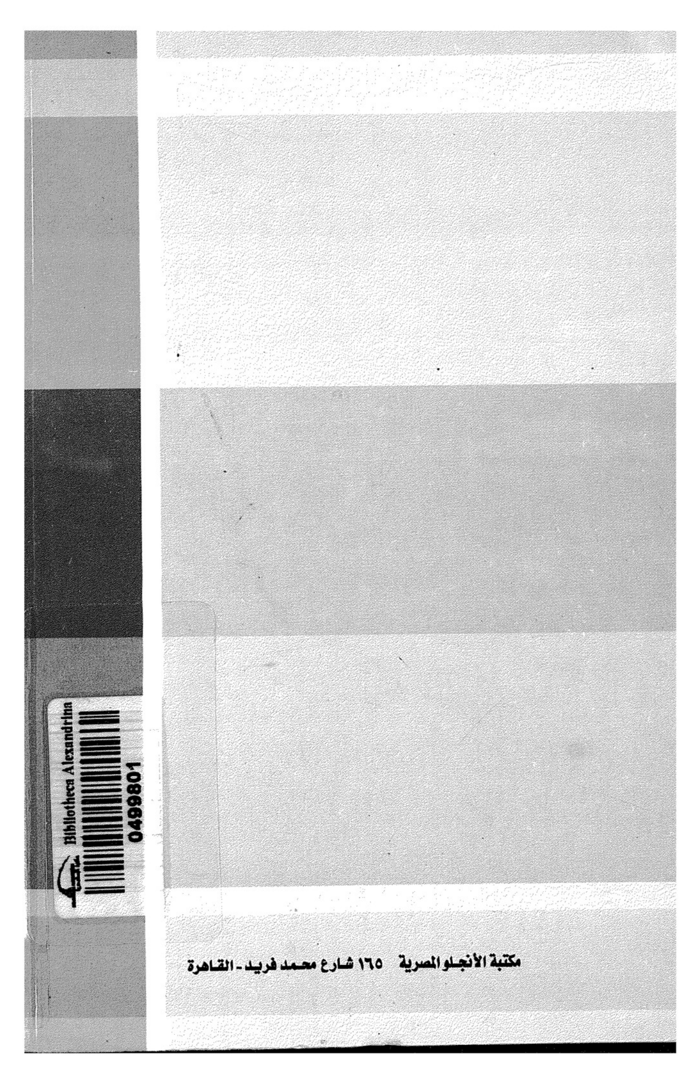
15- Forbes, D., *The Geography of Underdevelopment* , London, Thon Hopkins Univ. press, 1984 .

16- Hancock , M. D. , *German Unification, Process and Outcomes* (Boulder , Colo : West View Press 1993) .

17- Hoffman, G. , Europe in 1990's : *A Geographic Analysis* , Wiley 1986 .
18- Jhonston, R, Gardiner, V. *eds The Changing Geography of the U.K* , Routledge. 1991 .
19- Lamb, A., *The China - India Border,* London, Chatham House , 1964 .

20- Marsh, W., M., Grossa , J. *Environmental Geography,* Wilcy 1996 .
21- Magas, B., *The destruction of Yugoslvia* , Verso, London 1993 .
22- Nahyalo, B., Swofoda, V., Soviet Disunion : *A History of Nationality Problem in The USSR.* New York , Free Press 1990 .
23- Njiman, J. , *The Geopolitic of Power and Conflict* : Superpowers in the International System 1945 - 1992 (London: Belhaven 1993) .
24- Pinder, A, *Westein Europe , Challange and Change* , Guilford , New York 1991 .
25- Prescott, J. R., *Political Frontiers and Boundaries* , Allen, Unwin, London , 1987 .
26- Kaikobad , Kaiyan Homi , *The Shatt- al-Arab Boundary Question* , Oxford 1988 .
27- Knox , P.I. , *The United States , A Contemporary Human Geography , Willy 1990* .
28- Seoudi , M. A., The October 6th war and the African Economy , African Studies Review , vol. 4. 1975, pp. 1-20 .
29- La Langue et son Role Pour Consolider L'Union Africane , Ball, Soc. Geogr. d'Eygpte, T. 67 1994, pp 133-167 .
30- Taylor , P. *Political Geography : World Economy, Nation State and Locality* , Wiley 1994 .
31- Widstrand C.G,ed, *African Boundary Problems* , Upsala, 1969.
32- William, C.H., *The Political Geography of the New World Order,* New York Halsted p. 1993.
33- Witherik, M., Carr, M. ,?*The Changing Face of Japan* , Hodder 1993 .




مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة
Bibliotheca Alexandrina
0499801